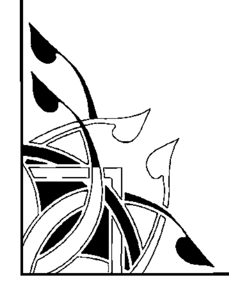
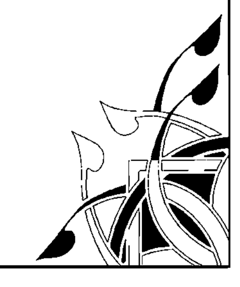




الفتح المبين

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة المحدث المؤرخ

محمد راغب الطباخ

تحقيق ودراسة

الدكتور زكريا عبد العزيز الجاسم

المجلد الأول

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

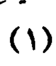
دولة قطر

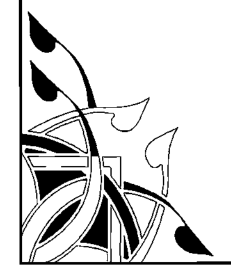



الفتح المبين

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم








طَبْعَة خَاصَّة

هَذَا الكِتَابُ

وَقْفٌ للهِ تَعَالَى

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ

وِزَارَةِ الأَوْقَافِ وَالشُّؤُونِ الإِسْلَامِيَّةِ

turathuna@islam.gov.qa

إِدَارَةُ الشُّؤُونِ الإِسْلَامِيَّةِ

ص. ب: ٤٢٢

ISBN 978-9933-549-20-6





الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قامت بعمليات التنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة



لبنان - بيروت

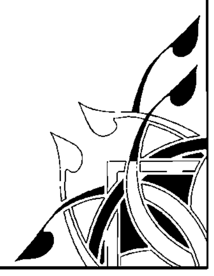
ص. ب: 14/4462

هاتف: 009611652528

فاكس: 009611652529

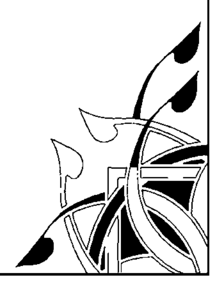
E_mail: info@daralnawader.com

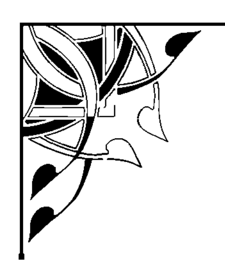
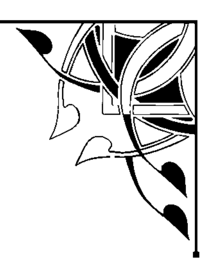
Website: www.daralnawader.com




بسم الله الرحمن الرحيم



كَلِمَةُ ٱلإِدَارَةِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أمّا بعد:

فإن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر ـ وقد وفقها الله لأن تضرب بسهم في نشر الكتب النافعة للأمة ـ لَتحمد الله سبحانه وتعالى على أن ما أصدرته قد نال الرضا والقبول من أهل العلم.

والمتابع لحركة النَّشر العلمي لا يخفى عليه جهود دولة قطر في خدمة العلوم الشرعية ورفد المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب القديمة والمعاصرة؛ وذلك منذ ما يزيد على تسعة عقود، عندما وجه **الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثاني** حاكم قطر آنذاك بطباعة كتابي **(الفروع)** و**(تصحيح الفروع)**، سنة ١٣٤٥هـ، وكان **المؤسس الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني** رحمه الله تعالى قد سن تلك السنة من قبل.

وما الجهود التي تبذلها الوزارة إلا امتداد لذلك النهج وسير على تلك المحجة التي عُرفت بها دولة قطر.

ومنذ هذه الانطلاقة المباركة يسَّر الله جلَّ وعلا للوزارة إخراج مجموعة من أمّهات كتب التراث والدراسات المعاصرة المتميزة في فنون مختلفة.

ويسرنا أن نقدم كتاب **(الفتح المبين على كتاب نور اليقين)** للعلامة المحدث المؤرخ الشيخ محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم الطباخ (ت١٣٧٠هـ)، وقد شرح فيه كتاب نور اليقين للشيخ محمد الخضري (ت١٣٤٥هـ)، بأسلوب واضح، بذلت فيه جهود بينة، وأمانة علمية جلية تظهر من خلال توثيق النصوص

وردها إلى مصادرها، وقد حقق الباحث كثيراً من أهداف شـرح المـتن وتفصـيل محتوياته من خلال إعادة النصوص إلى مواضعها التفصيلية، وإضافة مـا يزيـدها بياناً من مصادر أخرى، مع الشرح والبيان للمعاني الغريبة، وإضافة بعـض التحلـيلات المهمة.

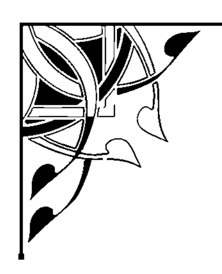
وقد حظيت هذه الطبعـة بمزيـد مـن المراجعـة والتـدقيق بـإدارة الشـؤون الإسلامية.

والحمد لله على توفيقه ونسأله المزيد من فضله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إِدَارَةُ ٱلشُّؤُونِ ٱلإِسْلَامِيَّة

❑ ❑ ❑





مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

الحمد لله يُحيي العزيمة، ويبعث الهمم بقدرته وسلطانِه، يُعيدُ النِّعم ويُجدِّدها بكرمه وإفضاله؛ ليتمِّم الفضلَ والجودَ بمنِّه وإحسانه.

أحمدُه سبحانَه على توفيقه وامتنانه، وأشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ولا نِدَّ له كما أخبر في آياتِه وقرآنه.

والصلاة والسلام على المبشر رحمة بمغفرته ورضوانه، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وأَنْعِم على سيدنا محمَّدٍ المفضَّلِ على جميع المخلوقات وسائر المرسَلين من إخوانه، وعلى آله ومن دَوَّن سنَّتَه وحفظها وقام على خدمتها إلى يومِ معادِه وجميلِ غفرانه.

وبعد:

فإن دراسة السنة النبوية أمر له أهميته لكل مسلم، فهو يحقق عدة أهداف، من أهمها: الاقتداءُ برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته وأعماله، وأقواله وتقريراته، وتُكسب المسلمَ محبةَ الرسول صلى الله عليه وسلم وتنمِّيها وتباركها، ويتعرَّف على حياة الصحابة الكرام الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتدعوه تلك الدراسةُ لمحبتهم، والسيرِ على نهجهم، واتباعِ سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياةَ الرسول صلى الله عليه وسلم، بدقائقها وتفاصيلها، منذ ولادته وحتى قبضه، مروراً بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجاً وأباً، وقائداً ومحارباً، وحاكماً، وسياسيًّا، ومربياً وداعيةً وزاهداً وقاضياً، وعلى هذا، فكل مسلم يجد بغيته فيها.

فالداعية يجد له في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليبَ الدعوة، ومراحلَها المتسلسلةَ، ويتعرف على الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات، والصعوبات، وما هو الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن؟

ويجد المربي في سيرته صلى الله عليه وسلم دروساً نبوية في التربية والتأثير على الناس بشكل عام، وعلى أصحابه الذين ربَّاهم على يده، وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنيًّا فريداً، وكوَّن منهم أمة هي خيرُ أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولة نشرت العدلَ في مشارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحاربُ في سيرته صلى الله عليه وسلم نظاماً محكماً، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش والقبائل والشعوب والأمة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة، وحرصاً على تجسيد مبادئ العدل وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء، والراعي والرعية.

ويتعلم منها السياسي كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبدِالله بن أُبيٍّ ابنِ سلولَ الذي أظهرَ الإسلامَ، وأبطن الكفرَ والبغضَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف كان يحوك المؤامرات، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لإضعافه، وتنفير الناس منه، وكيف عامله صلى الله عليه وسلم، وصبر عليه وعلى حقده، حتى ظهرت حقيقته للناس، فنبذوه جميعاً، حتى أقرب الناس له، وكرهوه، والتفوا حول قيادة النبي صلى الله عليه وسلم.

ويجد فيها الزهادُ معانيَ الزهد وحقيقتَه ومقصدَه، ويستقي منها التجارُ

مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتلَوْن أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمُهم على السير في طريق دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل، ويوقنوا أن العاقبة للمتقين.

وتتعلم منها الأمةُ الآدابَ الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسموَّ الأخلاق، وطهارةَ القلب، وحبَّ الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نُعلَّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نُعلَّم السورة من القرآن»، سمعت محمدَ بنَ عبدالله يقول: سمعت عمي الزهريَّ يقول: «في علم المغازي علمُ الآخرة والدنيا».

وقال إسماعيل بنُ محمد بنِ سعد بنِ أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعدُّها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها».

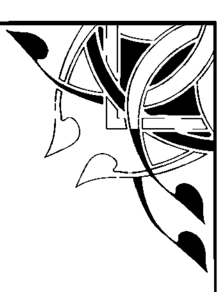
إن دراسة الهَدْيِ النبويِّ في تربية الأمة وإقامةِ الدولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي صلى الله عليه وسلم في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركةَ النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، والمراحلَ التي مر بها، وقدرتَه على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطَه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولتَه إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضَه لها على القبائل في المواسم، وتدرُّجَه في دعوة الأنصار، ثم هجرته المباركة إلى المدينة المنورة.

فإن خدمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامٌ لا يوازيه مقام، إذا صحَّت فيه النيَّة وصلحت فيه السريرة؛ كسائر العبادات العظيمة المقرِّبة من الله ورسوله، وإنها لشرف عظيم وأيُّ شرف، واصطفاء كريم وأيُّ اصطفاء، أنعِمْ به من حال لا يستطيع المرء أن يؤديَ حقَّ شكره، ولذلك تمسَّكَ بهذه الوظيفة من

تمسَّك ممن كان قبلنا، وإنها لخساسةٌ وأيُّ خساسة أن يطلب المرء بها دنيا، أو يرتجيَ بها شهرة.

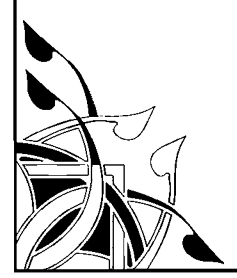
وفي الختام أسأل الله العليَّ القدير أن يُسبغ فيضَ رحمته على أئمة المسلمين، وأن يحشرنا وإياهم في زمرة عباده الصالحين، وأسأله أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يلهمني الرشد والصواب في القول والعمل، إنه سميع مجيب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.



القسم الأول

الدراسة







الفَصْلُ الأَوَّلُ
ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ والشيخ محمد الخضري

المبحث الأَوَّل
ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ

*** تمهيد:**

لو قام باحثٌ لِيَعُدَّ مفاخِرَ مدينةِ حلبَ الشهباء، بدءاً من دخول الإسلام فيها إلى يومنا هذا، فإنَّه لن يتردَّدَ في ذكرِ علَّامتها ومؤرِّخِها ومُسْنِدها ومحدِّثِها ومربِّي الأجيالِ فيها، ومخرِّجِ العلماءِ منها، والمصنِّفِ الذي بَلَغَتْ تصانيفُهُ العشرات، والمؤلِّفِ الذي كَتَبَ كثيراً من الكُتُب والمَقَالات، العلامةِ الشيخِ محمد راغب الطَّبَّاخِ، المتوفَّى سنة (١٣٧٠هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ .

عاش هذا الرجلُ في حلب متعلِّماً وعالماً، وأنفق عمرَه وماله ليترك في الناس عملاً نافعاً، وكان قلبُه وقالبُه سواء.

كان شاهداً ومشاهداً، فدوَّن ما شهد، وحلَّل ما شاهد، تذكرُه أحياءُ حلب وحاراتُها وأزقتُها، يعلو سُلَّماً يُمسكُه طلابُه؛ ليقرأ عبارةً أكلَ الزمانُ حروفَها، ولينتشل تاريخاً من الضياع، وليصحِّح خطأً قد لا نلقي بالاً لما هو أكبرُ منه بكثير، وبفضلِه عرفنا معالمَ، ووصلنا إلى علامات، وحصلنا على معلومات. . .، مثال ذلك تحديدُه موقع (دار الحديث) التي أنشأها أحد صانعي الحركة العلمية في حلب: بهاء الدين ابن شداد، ومدرسته التي نزل فيها ابنُ خلكان، ولولاه لم نعرف أين عاش هذا القاضي المؤرِّخ الكبير حين عاش في حلب طالبَ علمٍ يتكونُ في سني حياته الأولى.

لم يرحل الشيخ (الطباخ) خارج الشام، ولم يزر سوى المكتين وبيروت، وطرابلس، ولو رحل لامتدَّت يدُه إلى مصادر أخرى كثيرةٍ يغني بها تاريخه، وقد رحلتِ اهتماماتُه فشرَّقَتْ وغرَّبَتْ، وطارتْ رسائله في الآفاق متابعاً كلَّ كلمة يمكن أن تفيده في إنجاز ما بدأ.

ولئن ضُرَّ بأوراق كتابه لدى الباعة، فله بذلك أسوةٌ بأبي سعد السمعاني الذي جُعِلَتْ أوراقُ جزءٍ من كتابه (الأنساب) مقاييسَ للقلانس في حلب، واتصل الخبرُ بوزيرِها وقاضيها القفطي، وكانت نسختُه تفتقدُ هذا الجزء، فأقامَ للكتابِ مأتماً حضر فيه الأعيانُ يعزُّونه على ما ضاع من هذا الكتاب!

فقد بَرَعَ منذ نشأتِهِ بالعِلْمِ، وأمسكَ منذُ طلعَتِهِ بالقَلَم، ونقَّبَ في المخطوطات والمطبوعات ليستخرجَ منها نفائسَ المؤلَّفات، ويكتبَ لمدينةِ حلبَ الشهباءِ تأريخاً هو المرجعُ لكلِّ مؤرخٍ يريدُ الاطلاعَ على تاريخها، أو باحثٍ يُعْنَى برصدِ آثارِها، أو هاوٍ يُكَحِّلُ عينيه بمآثرها، دَفَعَه إلى ذلك غَيْرَتُهُ الدينيةُ، وحميَّتُهُ الإسلاميةُ، عندما رأى رجلاً غريباً عن دينه ولغته وبلده، يتصدر لتأليف كتاب عن تاريخِ بلده، يتداولُهُ الطلبةُ وعوامُّ الناسِ، ولا ينبري من أبناءِ جلدتِهِ من يقوم بهذه المهمَّةِ، ويخوضُ تلكَ اللُّجَّةَ، وهي ـ وإن كانت كثيرةَ العقباتِ، متشعبةَ الاتجاهاتِ ـ إلا أنها واجبٌ تهونُ أمامَهُ كلُّ الصعاب، وتنكسرُ كلُّ الحواجز.

وهذا الحَدَث يمكن أن يكون مفتاحاً لشخصيةِ العلَّامةِ الطَّبَّاخ، فهو رجلٌ متعددُ المواهب، متنوعُ القدرات:

فإن شئتَ وجدتَهُ مدرِّساً، قضى معظمَ حياته في تعليمِ الطلبةِ ـ بدءاً من الكلية الفَارُوقيَّةِ إلى المدرسة الخُسْرَوِيَّةِ ـ وتخرج على يديهِ علماءُ وخطباءُ وأساتذةٌ وباحثون.

وإن شئتَ وجدتَهُ كاتباً، يكاتبُ الجرائدَ والمجلاتِ، ويكتبُ البحوثَ والمقالاتِ، ولا يقتصر على صحافةِ بلدِهِ، بل يتعداها ليكتبَ في صحافةِ دمشقَ

وبيروتَ والقاهرة.

وإن شئتَ وجدتَهُ مؤلِّفاً ومحققاً، يُصدِرُ عشرات الكتب من خلال مطبعته العلمية الفاخرة.

وإن شئتَ وجدتَهُ تاجراً، عمل في مهنةِ أبيهِ، ويؤهِّلُهُ ذلكَ ليكون عضواً في «غرفة تجارة حلب».

وإن شئت وجدتَهُ سياسيًّا، يخوض مع «جمعية الاتحاد والتَّرَقِّي» ـ حين انخدع بها كثيرٌ من الناس ـ مجالسَ ومحافل، ويستطيع التأثيرَ فيها، ليفرضَ من خلالها تعليم اللغة العربية في مدارس وكتاتيب حلب.

هذه الشخصية الفذَّة المؤثرةُ دفعتني للبحث في خبايا أسرارها، والتّعرفِ عليها.

أما عن أهم مصادر هذه الدراسة: فهي: مصوَّرَةُ مخطوطةِ ترجمةِ الطباخ الذاتية بخط يده، والتي هي بعنوان: **(ترجمة نفسي بخط يدي)**[1]، والتي تُعَدُّ أهمَّ مرجعٍ لدراسةِ العلَّامة الطباخ، إضافة لرسالة ولده الفاضل الأستاذ محمد يحيى الطباخ ـ والتي كانت بعنوان: **(محمد راغب الطباخ ـ حياته وآثاره)**[2]، فكان هذان الكتابان أهمَّ المصادر التي اعتمدتُ عليها في ترجمة العلامة محمد راغب الطباخ رحمه الله، مضافاً لها كتابُه: **(الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية)** للعلامة محمد راغب الطباخ نفسِه، والذي قام بطباعته في مطبعته العلمية بحلب[3].

كانت هذه أهمَّ مصادر الدراسة، بالإضافة لكتابه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، و«مجلة المجمع العلمي» في دمشق، و«مجلة الرسالة» رقم (١٩/ ٩٦٥)

---

(١) فعندما يكون الكلام بصيغة المتكلم يقول النقل من هذه الترجمة.

(٢) المقدمة للجامعة السورية ـ كلية الآداب ـ قسم التاريخ (١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م).

(٣) وذلك سنة (١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م).

لعبد اللطيف الطباخ.

* * *

*** المطلب الأول ـ اسمه ونسبه، ومولده ونشأته:**

هو محمد راغب بن محمود بن هاشم بن السيد أحمد بن السيد محمد الشهير بالطباخ، والجدُّ هو الشيخ حسنُ بنُ عليٍّ الحنبليُّ الشافعيُّ الشريفُ المتوفَّى سنة (١١٤٠هـ).

ولد ـ رحمه الله ـ في مدينة حلب، وفي أحد أحيائها القديمة، (باب قنسرين)، وبين زقاقين غيرِ نافذين، وأمام الباب الثاني للبيمارستان الأرغوني تقع دار عظيمة مؤلفة من غرف كثيرة، وباحة واسعة، في هذه الدار ولد محمد راغب الطباخ.

وكانت ولادته في الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنةَ ألف ومئتين وثلاث وتسعين.

عُرفت عائلته بالعلم والتجارة، إذ كان جده هاشم يقرأ العلوم الدينية في مساجد العمري والزيتونة والشيخ حمود حسبةً لله تعالى ـ لا يأخذ على ذلك أي أجر ـ وعندما رحل إلى الآستانة، عُرض عليه منصب القضاء فأباه، وقال: إن لنا صنعةً أغنانا الله بها عن القضاء، وكانت صنعة البصم[1].

---

(١) اشتهرت حلب في صناعة البصم: وهو طبع الشاش واتخاذه عصائب وملايات، وكانت تصدره إلى طرابلس وحمص وحماة، والحجاز وبلاد الأناضول حتى قارص، ولما وقعت الحرب الروسية ـ العثمانية (١٢٩٠هـ)، استولت روسيا على قارص، وألزم مصطفى كمال أتاتورك الأتراك لبس القبعة، وبدأت البضائع الأجنبية تنافس الإنتاج المحلي، ذهبت هذه الصناعة بالاضمحلال حتى لم يبق في سنة (١٣٤٥هـ) من معلِّمي هذه الصنعة إلا اثنان.

في هذه البيئة العلمية، التجارية، نشأ محمد راغب الطباخ.

* * *

*** المطلب الثاني ـ تلقيه العلم:**

يقول الشيخ رحمه الله: وختمتُ القرآنَ العظيمَ وعمري ثمان[1] سنين، ثم شرعتُ في الكتابة على الشيخ محمد العريف الخطاط المشهور المعروف بشيخ الأشرفية (نسبة إلى المدرسة الشرفية المشهورة الكائنة وراء الجامع الكبير، والناس يقولون غلطاً: الأشرفية)[2]، ثم دخلَ المدرسة المنصورية في محلة الفرافرة سنة (١٣٠٤هـ)، وقد اتخذتها الحكومةُ مدرسة ابتدائية في جملة ما افتتحته من المدارس الابتدائية في أول هذا القرن، فمكثَ بها سنةً ونصفاً، قرأ في خلالها مبادئ اللغة التركية والفارسية والإفرنسية والعربية، ونال شهادتها كما ذكَرتْ ذلك «جريدةُ الفرات» الرسمية بعدد (١٠٢٣) في (٢٧) ذي القعدة سنة (١٣٠٦هـ).

ويضيف أيضاً: ورغبتُ ـ بعد إحرازي الشهادةَ ـ أن أذهب إلى الآستانة؛ لأدخلَ بعضَ مدارسها العالية، فلم يُقْسَم لي ذلك، وكان في عَدمِ الذهاب الخيرُ الكثير، واللطفُ العظيمِ منَ الله تعالى.

ويقول: في هذه الأثناء طُلب أخي الحاج عبد القادر للجُندية، فارتدى ثوبَ العسكرية مُدَّةَ خمسةِ أشهرٍ، بعد أن أدى البَدَل النقدي، وقدره خمسون ليرة عثمانية ذهباً، وهذا لمن أراد ألَّا يتم المدة العسكرية، وهي أربعُ سنواتٍ، فاحتاج والدي وقتئذٍ لمن يكتبُ له في الدفاترِ في مخزننا الكائن في «خان العلبية» فأتى بي إليه، فصرت أكتب له الأمور الحسابية، والتحاريرَ التجارية، وأتعود على البيع والشراءِ.

وفي الحادي عشر من شهر ذي القعدة سنة (١٣٠٧هـ) كُتبَ لي التوجُّه إلى

---

(١) كذا الأصل: (ثمان) والصواب: (ثماني).

(٢) وهي اليوم مقر المكتبات الوقفية الإسلامية بحلب.

الحجاز الشريف صحبةَ والدي، وعدنا منه في الثامن من جمادى الأولى سنة (١٣٠٨هـ)، وعدتُ إلى معاطاة التجارة عند والدي، إلَّا أني صرتُ أتردد إلى المدرسة الشعبانية، فحفظت «**الآجروميَّة**» في النحو، و«**الجوهرة**» في التوحيد، و«**إيساغوجي**»، وشيئاً من «**الألفية**»، وقرأتُ «**الفصولَ الفكرية**» في النحو على ابن خالي الفاضل الشيخ محمد كلزية، وكان مجاوراً في المدرسة المذكورة، وهو لم يزل في عداد الأحياء إلى حين كتابة هذه السطور، وذلك في غُرَّةِ جُمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة وألف. و«**شرح الآجرومية**» للسيد الدحلاني على الفاضل الشيخ محمد الجزماتي، وكان أيضاً مجاوراً في المدرسة الشعبانية، وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في العام الماضي (١٣٧٥هـ).

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الثاني سنة (١٣٠٩هـ) توفي والدي إلى رحمةِ الله وعفوه، فتركت التردد إلى المدرسة.

وفي غرة رمضان من سنة (١٣١٠هـ) توجهتْ والدتي إلى الحجاز صحبةَ أخي الحاج تيسير، وأوصتني بالعود إلى طلب العلم، ووعدتني بالدعاء عند البيت العظيم، والأماكنِ المقدسةِ، فعملتُ بما أشارتْ به، وعدتُ إلى طلبِ العلمِ مع الاشتغال بالتجارة، فأخذتُ في حفظِ المتونِ، واستظهرتُ المتونَ الثلاثةَ المتقدمةَ، ومتنَ «**ألفية ابنِ مالكٍ**» بتمامها، و«**البيقونية**» في علم المصطلح، و«**السلَّم**» في المنطق، و«**السمرقندية**» في الاستعارات، و«**الجوهر المكنون**» في المعاني والبيان والبديع، و«**متن القطر**» في النحو لابن هشام، و«**نظم خلاصةِ الفرائض**»، ونحو النصف من العبادات من «**متن تنوير الأبصار**» في الفقه الحنفي، و«**السنوسيَّة**» في التوحيد.

١ ـ ما قرأه من كتب النحو[1]: قرأ «**شرح الآجرومية**» للشيخ خالد الأزهري

---

(١) انظر ترجمة جملة من شيوخه في كتابه: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» المجلد السابع منه.

على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدمِ الذكر، وعلى الشيخ محمد السراج ـ دفينِ «تُرْبَةِ» السفيرة ـ .

و«**شرح نصف القطر**» لابن هشام على الشيخ أحمد البدوي الجميلي (نسبة لبني جميل قبيلة من قبائل العرب حول حلب) المجاور في المدرسة الشعبانية، ثم عرض له سَفَر، فأتمَّ قراءته على الشيخ محمد أفندي، المجاور في المدرسة العثمانية.

ثم قرأ «**شرح ابن عقيل على الألفية**» من أوله إلى: باب كان وأخواتها على الشيخ خالد الجزماتي المتقدم الذكر، ومن باب الإضافة إلى الآخر على الشيخ عبدالله سلطان في المدرسة الإسماعيلية، ثم جاور بجامع الحاج موسى الكائن في محلة السويقة، فقرأ فيه «**شرح ابن عقيل**» من باب كان إلى الآخر، على الشيخ حسني الأورفه لي (نسبة إلى أورفه: بلدة شمالي حلب إلى الشرق، وهي الآن من بلاد الأتراك، وتدعى قديماً: الرُّها، ولا يزال العربان الذين حولها يسمونها كذلك).

ثم قرأ عليه: «**شرح الأشموني على الألفية**»، من الأول إلى أواخر الجزء الثاني، وكان سبق له قراءتُهُ من الأول إلى باب الحال على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدم، ثم قرأ من أواخر الجزء الثاني إلى أوائل الجزء الثالث من الأشموني مع حاشيته على الشيخ محمد رضا أفندي الزعيم مفتي الألاي، وأتمَّ مطالعته إلى الآخر وحده.

وكان طالع قبل ذلكَ «**شرح تمرين الطلاب**»، و«**شرح الشذور**» لابن هشام، وطالع «**متن التوضيح**» لابن هشام مع صديقه الشيخ عبد الحليم الزُّوَيْتيني نجلِ مفتي حلب، الشاغلِ الآنَ ـ في وقتها ـ وظيفةَ محررِ المقاولات في الآستانة؛ لهجرته إليها بعد سنة (١٣٢٠هـ)، ورافَقنا في هذه المطالعة ـ وقد كنت في المدرسة الحلوية ـ الشيخُ أحمدُ الحجّار حفيدُ العلامة الشهير الشيخ أحمد الحجّار المعروف بـ «شنُّون». وقد كنا عند الاقتضاءِ نُشَارف شَرْحَهُ للعلامة الشيخ خالد الأزهري.

٢ ـ **علم الصرف**: قرأ منه «**شرح لامية الأفعال**»، و«**متن الشافية**» على الشيخ محمد رضا الزعيم الدمشقي مفتي الألاي بحلب، وقد ترجمه بتاريخيه ترجمة حافلةً[١].

٣ ـ **علم المنطق**: قرأ منه «**شرح منظومة السلم**» لمصنفه، و«**حاشية الباجوري**» عليها، على الشيخ المذكور، و«**شرح القطب على الشمسية**» على الشيخ عبد السميع الكردي نزيلِ حلب، ودفينها، المجاورِ وقتئذٍ في المدرسة الأحمدية، ثم صار مدرسَها، وله ترجمة في تاريخيه[٢]، وانظر ما كتبه هناك بشأن علم المنطق.

٤ ـ **المعاني والبيان والبديع**: قرأ «**شرح الجوهر المكنون نظم التلخيص**» في هذه الفنون الثلاثة على الشيخ محمد رضا المتقدم، وقرأ منه قسم المعاني من الكتاب المذكور على ابن خاله الشيخ محمد كلزية المتقدمِ ذكره.

و«**حاشية الباجوري على السمرقندية**» على الشيخ أحمد المكتبي.

و«**متن التلخيص**» على الشيخ الأورفه لي، ثم طالعه وحده مع مشارفة معظمِ شرحِهِ للسعد التفتازاني ـ رحمه الله ـ.

٥ ـ **العروض والقوافي**: قرأ منه «**كتاب الكافي**» على الشيخ محمد رضا الزعيم.

٦ ـ **آداب البحث**: قرأ منه «**حاشية الصبان على رسالة العضد**» عليه أيضاً.

٧ ـ **الحكمة**: قرأ منها «**شرح المقولات العشر**» للسجاعي على الشيخ عبد السميع الكردي ـ رحمه الله ـ.

٨ ـ **الحكم**: قرأ منها «**شرح الحكم**» لابن عطاء الله الإسكندري على الشيخ أحمد المكتبي ـ رحمه الله ـ.

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٧/ ٥٧٧ ـ ٥٨١)، المتوفى سنة (١٣٣٤هـ).

(٢) ينظر: «إعلام النبلاء» (٧/ ٦٠٩ ـ ٦١٥)، المتوفى سنة (١٣٣٨هـ).

٩ ـ **التوحيد**: قرأ منه «**حاشية الباجوري**» على «**السنوسية**»، وبعضاً من «**حاشيته**» على «**الجوهرة**» على الشيخ خالد الجزماتي، ثم طالعه بنفسه في هذا العلم عدة كتب.

١٠ ـ **مصطلح الحديث**: قرأ منه «**شرح البيقونية**» للعلامة الزرقاني على الأديب الشيخ أحمد الصابوني الحموي في رحلته إلى حماه سنة (١٣١٩هـ)، بقي في هذه الرحلة نحو شهرٍ ونصفٍ، قرأ في خلالها الكتاب المذكور عليه.

١١ ـ **الحديث الشريف**: قرأ منه حصةً وافرةً من «**شرح العزيزي على الجامع الصغير**» للجلال السيوطي على العلامة الفقيه الشيخ محمد أفندي الزرقا، حينما كان يقرأ في المدرسة الأحمدية، وقرأ منه من أول «**صحيح الإمام البخاري**» إلى أواسط أو أواخر كتاب الحج على الشيخ بشير أفندي الغزي قراءة درايةٍ وتحقيقٍ.

١٢ ـ **الفقه الحنفي**: قرأ منه «**شرح نور الإيضاح**» المسمّى بـ: «**مراقي الفلاح**»، بعضه على الشيخ محمد السراج، وبعضه على الشيخ خالد الجزماتي.

ثم «**متن تنوير الأبصار**»، ثم «**شرح الدرر والغرر**» لملا خسرو، والجزء الأول من «**الدر المختار شرح تنوير الأبصار**» على الشيخ محمد أفندي الجزماتي أمين دار الفتوى، ودفين تربة الشيخ ثعلب الكائنة جنوبي المكتب السلطاني.

و«**متن ملتقى الأبحر**» إلى باب الرجعة على ابن خاله المتقدم، وحصةً من شرحه المشهور بـ «**شرح الداماء**» من قسم المعاملات على الشيخ عبدالله أفندي سلطان في المدرسة الإسماعيلية، وفي أواخر سنة (١٣٢٢هـ) وصل الشيخ محمد أفندي الزرقا إلى مسائل شتى من حاشية العلامة المرحوم ابن عابدين، وكان قد مضى على بداءته بها اثنتا عشرة سنة، فقرأ عليه من مسائل شتى إلى آخر الحاشية.

ثم قَرَأ بعدها «**الأشباه والنظائر الفقهية**» للعلامة ابن نجيم، فحضرها عليه إلا شيئاً قليلاً منها، وفي شوال من سنة (١٣٢٥هـ) ابتدأ بقراءة «**شرح الإمام الزيلعي**

على الكنز» فحضر عليه شيخنا الجزء الأول، فقرأ عليه نحو النصف منه، ثم ترك الحضور بتاتاً، واكتفى بالمطالعة، ودأَبَ عليها.

١٣ ـ أصول الفقه الحنفي: قرأ منه «شرح المنار» لابن مَلَك، مع مشارفة حواشيه الثلاث المطبوعة معه في الآستانة على الشيخ عبد السميع الكردي نزيل حلب في المدرسة الأحمدية، لكنه لم يتم قراءته، بل بقي منه بقية، وكان أول من استحضر هذه الحواشي من الآستانة.

أما ما طالعهُ [في] أثناء التحصيل، وبعده إلى هذه السنة ـ وهي سنة (١٣٥٨هـ) ـ من الكتب والرسائل في العلوم الآلية والأدبية والتاريخية والفقهية والحديثية والأخلاقية وكتب التصوف، والردود، والمجلات والجرائد، فحدِّثْ عنه ولا حرج، ويطولُ الكلامُ جدًّا لو سردتُ ذلك، وربما استعظمتَه واستكثرتَه، وذلك مما منَّ اللهُ به عليَّ، وكان فضلُهُ عليَّ عظيماً[١].

* * *

*** المطلب الثالث ـ مشايخه:**

تقدم ذكر أغلب من قرأ أو تتلمذ عليهم العلَّامةُ الطباخ فيما سبق، لكن أُريد أن أذكر هنا أهم مشايخه الذين تأثَّر بهم، وكان لهم كبيرُ أثر في تكوين شخصيته العلمية ومنهجِهِ العلمي، وهم:

١ ـ الشيخ محمد بن السيد عثمان بن الحاج محمد بن الحاج عبد القادر الزرقا الحلبي الحنفي: ولد في حلب سنة ثمان وخمسين ومئتين وألف من الهجرة.

كان حجة في المذهب الحنفي، تولى التدريس في المدرسة الشعبانية، ثم تولى رئاسة المحكمة الشرعية، ثم دُعي إلى الآستانة ليكون معاوناً لأمانة الإفتاء

---

(١) إلى هنا انتهى ما أورده في كتابه «الأنوار الجَلِيَّة» منقولاً عنه، مع بعض زيادةٍ وتعديلٍ. (ص: ٦٣ ـ ١١٨).

فيها؛ لكنه لم يلبث أن رجع لحنينه إلى وطنه، وأصبح قاضياً أيام الحكومة العربية في عهد فيصل، عُيِّن لمجلس التميز في دمشق، فلم يوافق على ذلك؛ لعدم مساعدة سنه على السفر، فاستعفى، ولزم بيته مقتصراً على دروس الحديث والفقه لحين وفاته، سنة (١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م).

٢ ـ **الشيخ بشير الغزي**: كان حجة في العربية وشعرها وأدبها، وكان حاضر الذهن في الاستشهاد بها، أو بالشعر، وأعجب من ذلك أن كُتب: الأغاني لأبي الفرج، والحماسة لأبي تمام، والأمالي للقالي، والكامل للمبرد، ودواوين أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري كلها كانت على مناط القلب، يحفظها، ويروي عنها، ويعيها في صدره، فلا يكاد يخطئ في الرواية عنها، أو العزو إليها، أو الاستشهاد منها.

تولى أمانة الفتوى في حلب، ثم انتخب رئيساً لجمعية الاتحاد والترقي فيها، ثم نائباً لمجلس المبعوثين، فقاضي قضاة لدولة حلب أيام الانتداب الفرنسي. توفي سنة (١٣٣٩هـ).

٣ ـ **الشيخ محمد كلزية**: ابن خالته، تتلمذ عليه في النحو خاصة، وتأثر بتقواه وطيب أخلاقه؛ فكان يستشيره في كثير من الأمور، فيجد من رجاحة عقله، وحسن تبصره خيرَ عون له، ولعل عامل القرابة هذا وبدء التلمذة دفعه إلى مصاهرته، فتزوج أخته.

٤ ـ **الشيخ محمد رضا بن محمد بن يوسف الدقاق الشهير بالزعيم الدمشقي**: المولد والمنشأ، ولد سنة (١٢٧٤هـ)، ونشأ في طلب العلم؛ فقرأ في الشام على الشيخ ملَّا طه الكردي، والشيخ محمد الطنطاوي، وملَّا ناصر الدين الجيلاني، وملَّا عيسى الكردي نزيلا دمشق، وتلقى فنون الأدب على العلامة الشهير طاهر الجزائري، والحديث وعلم الوضع والبيان على الشيخ بدر الدين المغربي المحدث الشهير، وأجازه إجازة عامة.

قال في وصفه: قوي الجسم جداً، وكان مقداماً جريئاً كثير الحركة والمداخلة مع الحكام، بقصد إصلاح ما فسد من الأمور، ولا تفتر له في ذلك عزيمة...

توفي ـ رحمه الله ـ في الثامن عشر من ربيع الأول سنة (١٣٣٤هـ).

* * *

*** المطلب الرابع ـ وفاته وما قيل في رثائه:**

توفي ـ رحمه الله ـ في صبيحة يوم الجمعة في (٢٥) رمضان، عام (١٣٧٠هـ)، والموافق لـ (٢٩) حزيران، عام (١٩٥١م)، وذلك إثر مرض عضال ـ وهو النقرس ـ ألزمه داره مدة أربعة أشهر، انقطع خلالها عن الحياة العامة، وانصرف إلى المطالعة التي أحبها ولازمته طوال فترات حياته، بالإضافة إلى العبادة والتقرب إلى الله تعالى.

وكان يزوره في فترة مرضه بعض أصدقائه وأصحابه وتلاميذه إلى أن وافته المنية بعد أن بلَّغ الرسالة وأدَّى الأمانة.

وقُبيل الظهر شُيِّع جثمانه من داره الكائنة في محلة السفاحية بالقرب من المدرسة الخسروية ـ الكلية الشرعية ـ بموكب ضمَّ كبار أئمة المسلمين والعلماء والنواب ورجال الدولة والوجهاء، بالإضافة إلى تلامذته وأصدقائه وأقربائه، ثم صلِّي عليه بعد صلاة الجمعة في المسجد الأموي بحلب، ونقل بعدها محمولاً على الأكفِّ إلى مقبرة السنابلة حيث دفن هناك.

وقد أقيم في دار الكتب الوطنية بحلب حفل تأبيني نقلته دار الإذاعة السورية، وحضره محافظ حلب تحسين الجوهري ممثلاً عن رئيس الجمهورية آنذاك، وتوالى على منبر الخطابة فيه: الدكتور عبد الرحمن الكيالي، والشيخ عمر مكانس، والشيخ محمد الحكيم، وقاضي حلب أحمد مهدي الخضر، والشيخ عبدالله العتر، ويونس رشدي.

ومما جاء في رثائه قول الأستاذ عبد الوهاب عزام: رأيتُ الشيخ أول مرة في صف الصلاة في مدرسة الخسروية، ورأيته من بعد في مجامع العلم والأدب، ورويت منه آذان الإسلام في داره، كذلك كان الشيخ ـ رحمه الله ـ للدين والعلم، وكذلك كان سمحاً كريماً يألف ويؤلف، وكذلك ينبغي أن يكون علماء المسلمين.

وقول تلميذه الأستاذ مهدي الخضر: رحمك الله ما أرحمك بنا! لقد أشفقتَ علينا من الليل، فنثرتَ لنا نجوماً كانت النذيرَ بذلك الغروب.

وقد رثاه الشيخ عمر مكانس بقصيدة جاء فيها:

من للمحابر والأقلام والكتبِ	وللمحافل والتاريخ والأدبِ
وللمعالي إذا ضلَّ الخبيرُ بها	من بعدِ أن غُيِّب الطباخُ في التُّرَب
كم كنتَ تسعى لجمع الدِّين مجتهداً	مع الحِجا في صعيدٍ واحدٍ رَحبِ
آخيتَ بينهما في حكمةٍ ظهرتْ	وثَّقتَ ما بينهما من لُحْمَة النسبِ
فكنت فذّاً بهذا الفِكر منفرداً	في عصرنا اللاهبِ المحمومِ بالكذبِ
وكنتَ داعيةَ الإصلاح في بلدٍ	تَحَمَّل الظلمَ من طغيانِ مغتصبِ
وكنتَ حرباً على الجُهَّال من وَلِعوا	بالشَّعوذاتِ وتضليلٍ لمضطرب
فالدِّينُ أوضحُ مما ظنَّ جاهلُهم	والدِّين أوسعُ ميداناً لمُرتقبِ
ذكراك خالدةٌ في القلب ماثلةٌ	سقى ضريحَك هَطَّالٌ من السُّحُبِ
نم في ثراك قريرَ العين مغتبطاً	أديتَ واجبكَ الأسمى لدى العرب

* * *

المبحث الثاني
جهوده العلمية

لاشك بأن مثل هذه الشخصية العلمية الفذة، وجهودها المتميزة والواسعة ستكون متشعبةَ الأعمال ومتنوعتَها، فهو صاحبُ المطبعة العلمية ومؤسِّسُها، ومؤرخُ حلب وتاريخها، والمدرس والمدير للمعاهد والمدارس العلمية والمؤسسُ لها؛ إذ عُيّن في أول الأمر بمدرسة شمس المعارف، وعندما أغلقت انتقل للتدريس في المدرسة الخسروية في حلب (الثانوية الشرعية اليوم)، فدرّس فيها اللغة العربية والتاريخ والحديث والثقافة الإسلامية، ثم عيّن مديراً لها، وكان له فضل كبير في تأسيس تلك المدرسة، وتعديلِ برامجها بما يوافق العصر الحديث، وهذا ما سبب له بعض العقبات التي حالت دون نهضة علمية دينية تشمل جميع المدارس الدينية في ذلك الوقت. ولكن هذا كله لم يثبط همته، بل دفعه إلى الإصلاح الديني، والتوفيق بين الماضي والحاضر، والدعوة إلى الاطلاع على العلوم الحديثة، والجمع بينها وبين العلوم الدينية. ولم تقتصر جهوده في الإصلاح على المدرسة الخسروية، بل تعدتها إلى بقية المدارس الدينية القديمة، ولاسيما المدرستين: الشعبانية، والعثمانية.

*** أولاً ـ صبره في البحث:**

اتصف العلامة الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ بحبِّ التحقيق والصبر عليه، والبحث عن المصادر التي تفيده في ذلك، مقتفياً آثار أسلاف علمائنا في التأليف والتحبير والنشر، بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، ولا يثبط من عزيمته بعدُ مسافة أو زمن.

وقد أثنى على هذه الهمة العالية كثير من الباحثين في عصره، فمن ذلك: ما جاء في جريدة «الشهاب»، العدد (٨٩)، للأستاذ فوزي فيض الله:

كان المغفور له أستاذنا الجليل المؤرخ محمد راغب الطباخ أول من انتبه

إلى طريقة جمع أشعار المغمورين من الشعراء، ممن ليست لهم دواوين في المكتبة الأدبية العربية في العالم، وذلك بالخوض في كتب الأدب والتاريخ، وتسجيل كل ما يعثر عليه أو يصادفه من الشعر لشاعر معروف أو مغمور لا ديوان له في المكتبة الأدبية، ويُظنُّ أنه فقد من مكتبتنا العظيمة.

صنع هذا أستاذنا الجليل فيما نعلم بالنسبة إلى شاعر حلبي معروف هو الصنوبري، وبالنسبة إلى شعراء السيرة من الصحابة وغيرهم، وقد أخرج إلى العالم ما يشبه ديواناً صغيراً للصنوبري سماه: «الروضيات»، والناظر فيه يرى الجهد المشكور، والاطلاع الواسع، والبحث الموفق الذي يتحلى به المغفور له الأستاذ الطباخ، ويرى المصادر النادرة التي كان يجمع منها باقة الزهور من شعر الصنوبري.

ولهذا أثنى أستاذنا الأديب الدكتور شوقي ضيف في إحدى محاضراته بكلية الآداب في جامعة القاهرة على طريقة الأستاذ الطباخ ـ رحمه الله ـ في بعث الدواوين، وإحياء شعر المغمورين من شعراء العربية، وقال: إنه أول من اهتدى إلى هذه الطريقة من الشرق، وصبر عليها بالرغم من صعوبتها.

وفي أواخر حياته لفتَ نظره كتاب «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي، وهو من منشورات الجامعة الأمريكية، والذي قام بتصحيحه الدكتور سليمان جبور، فاشترى الجزء الأول، فرآه مع الجهود المبذولة في تنقيحه وتصحيحه غيرَ متدارَك من الأغلاط كما يجب، فصحَّح ما ورد فيه من أسماء الأعلام والدساكر وبعض الحوادث، وما هي إلا أيام معدودات لا تتجاوز ستة أيام حتى انتهى من تنقيح الكتاب، فبعث به إلى الدكتور سليمان جبور، الذي شكره برسالة جاء فيها:

اسمحوا لي قبل كلِّ شيء أن أشكر لكم ثناءكم على عملي، واهتمامكم بمراجعة الكتاب، وتصحيحاتكم الثمينة لما ورد من أخطاء في النسخة الأصلية، ولعلكم تلاحظون أني تقيَّدتُ بالنص، وكان هناك أخطاء ظاهرة؛ كالعقدة مثلاً،

فقد كان باستطاعتي إصلاحها، ولكني آثرتُ إبقاءها على حالها حتى يرى القراء الاصطلاحات التي كان يألفُها بعض الكُتَّاب في ذلك العصر.

غير أن أكثر التصحيحات التي أشرتم إليها هي على غاية من الأهمية، سيما تلك التي لها علاقة بأسماء المنسوبين إلى قرًى أو دساكر كانت غير واضحة في الأصل، فصحَّحتموها.

وسأشير ـ كما سبق فذكرت ـ إلى تلطُّفكم بصحيحها[1]، وأنسبُ إليكم الفضلَ في ذلك؛ لأنكم لا زلتم من أهل الفضل.

كما أني أغتنم هذه الفرصة، فأشكر لكم اهتمامكم وجهودكم العلمية، وفضلكم العميم هذا، وتفضَّلوا بقبول فائق احترامي.

يقول الأستاذ محمد يحيى ابن الأستاذ محمد راغب الطباخ عقب ذكره لهذه الحادثة: ولقصر نظري قلت له عندما استلم الجزء الثاني من «الكواكب السائرة» هدية من الناشر الفاضل، قلت: ما الذي استفدت بعد هذا الجهد الطويل والعمل المضني في الليل والنهار، فابتسم وقال: إنكم يا أبناء هذا الجيل لا تُعنون إلا بالمادَّة، أين طلب العلم للعلم؟ وهل ظننت أنني سأتقاضى شيئاً عما فعلت؟ معاذ الله، لم تحدثني بذلك نفسي.

وكان ـ رحمه الله ـ محباً لجمع الكتب والمخطوطات القيمة والمفيدة، والتي أفاد منها في أبحاثه وتحقيقاته، فخلَّف مكتبة ضخمة فيها كثير من الكتب النفيسة والمخطوطة، حيث كان يرسل إلى أصدقائه ومعارفه في البلاد؛ ليخبروه بما طبع في بلادهم، أو يطلب إليهم تصوير بعض الكتب.

ولا شك أن أبرز عملين بذلهما للعلم هما: تأليف كتاب إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، وتأسيس المطبعة العلمية.

---

(١) أي: بذكر لفظها الصحيح.

* **ثانياً ـ تأليف تاريخ حلب :**

وسببه : حيث يقول رحمه الله : لم يكن لي ـ مبدأ نشأتي ـ عنايةٌ بعلم التاريخ وكتبِهِ، إلّا ما كنتُ قرأتُهُ في صغري من «الفتوحات الشامية» للواقدي، الذي كانت نسخته في خزانة والدي ـ رحمه الله ـ بل كانت عنايتي واشتغالي بالفقه الحنفي، والنحو، ونحوِ ذلك، وكنتُ أطالع بعض الكتب الأدبية على سبيل التسلي وترويح النفس في بعض الأحيان.

ولما شرعتُ بطبع شَرْحَي الكواكبي، احتجت للوقوف على ترجمته، فقيل لي : إنها توجد في «**خلاصة الأثر**» للعلامة المحبي، فاستعرته، واستنسخت منه ترجمة المؤلف، واقتضى أن أستعير وقتئذٍ «**سلك الدرر**» للعلامة المرادي، وأستنسخَ منه ترجمة ولد المؤلف، وهو العلامة أحمد أفندي الكواكبي واضعُ الحواشي على شرحي والده، وبعد أن استنسختُهُما، تصفحت التاريخين، فوجدت فيهما كثيراً من تراجم أعيان الحلبيين في هذين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، فاستنسختُها جميعاً بخطِّ يدي، فجاءت في مجلدٍ، وكان ذلك في سنة (١٣٢٣هـ)، فوقع في نفسي منذ ذلك الحين أن أنهض لوضع تاريخ لهذه المدينة العظيمة التي طَوَتِ الكثير من الأعيان في العصور الغابرة، وحصل فيها كثيرٌ من الحوادثِ العظيمةِ، كيف لا؟ وهي نقطة الاتصالِ بين الشرقِ والغربِ.

ولمّا استخرجتُ ترجمةَ العلامة الكواكبي، واستنسختُ ما في «**خلاصة الأثر**» و«**سلك الدرر**» من تراجم الحلبيين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تقوّى في نفسي ذلك الفكر، واستسهلت ذلك الصعب، وصحَّت مني العزيمة ـ ولله الحمد ـ على النهوض لذلك العمل، فتم لي ذلك في مدة اثنتين وعشرين سنة، ووفقني المولى تعالى لطبعه في مطبعتي العلمية ـ كما سيأتي ـ .

ويضيف سبب آخر : وهناك داعٍ آخرُ لوضعي لهذا التاريخ، هو أني كنت ابتعتُ كتابَ «**تحف الأبناء بتاريخ حلبِ الشهباء**» للطبيب بيشوف الجرماني، وهو

كتيّب في (١٦٠) صحيفة، طبع في المطبعة الأدبية في بيروت سنة (١٨٨٠ ميلادية)، فيه حوادث حلب، ومن تولاها من عهد الفتح العربي إلى استيلاءِ السلطان سليم العثماني عليها سنة (٩٢٢ هجرية) بصورة موجزة.

وهذا الطبيب الجرماني (الألماني) كان قد جاء إلى حلب أواخر القرن الماضي، فاستطابها، ورآها بلدةً رخيصةَ الأسعار، فأقام بها، وصار يتعاطى صنعة الطبابة فيها، وتوفي أول هذا القرن.

فطالعتُ هذا التاريخ، وكان يأخذني العجب كيف أن رجلاً يأتي من بلاد جرمانيا، ويقيم في الشهباء، وليس من أبناء هذه البلاد، ولا يعرف من لغة أهلها إلا القليل كما أنبئتُ، ويضع تاريخاً لها.

أَخَلَتْ هذه الديارُ، وأقْفَرَتْ هذه البلادُ من رَجُلٍ فيه فضلٌ وهمةٌ يقوم بهذا الأمر، ويسدُّ هذه الثُّلْمَةَ، حتى يأتي هذا الرجل الأجنبي، ويؤلف لها تاريخاً؟! فكان ذلك يَعْظُمُ عليّ، ويكبر جداً لديّ، وأجدُ في ذلك عاراً كبيراً على هذه البلاد وأهلها، فكانت النفس تناديني بالنهوض لهذا الأمر الخطير، والتشميرِ عن ساعد الجدِّ؛ دَفْعاً لذلك العار، وسَدّاً لتلك الثُّلْمَةِ، إلّا أني كنتُ أرجع إليها بقلة البضاعة، ونزُورِ المعرفة، وثقلِ هذا العبءِ، والمشاقِّ العظيمة التي ستعتري ولا بدّ.

أما عن منهجه في إعلام النبلاء: فتتدرج معه عبر القرون، وترى الحركةَ العلميةَ التي تطبع كلَّ قرن أو عهد بطابعها، وتعيشُ مع المتعاصرين، فتمشي معهم في مساجدهم ومدارسهم وأسواقهم، وتكاد تُظِلك سماؤُهم، وتسمعُ أحاديثَهم في أسمارهم ليالي شتائِهم الباردِ الطويل.

كان الشيخُ في تراجمه ناقلاً وقائلاً، وكان النقلُ أكثر؛ لأن المسافات الزمنية التي اقتضته أطول، وكان قائلاً معبِّراً بنفسه وَفْقَ رأيه، وما انتهى إليه من علمٍ مرئيٍّ أو مسموعٍ في عصره، وما اتصل به، ويتجلى هذا في النصف الثاني من المجلد الأخير، وهو السابع.

وانصبَّ جهدُه فيما سبق عصرَه في تتبُّع تراجِم الحلبيين من سير القرون؛ كتاريخ الإسلام، والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع، والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، وغيرها، ومن المهم الانتباه إلى مصطلحه في النقل، فهو لا يصرِّح بذلك إلا مرةً واحدة عند البدء بتراجم أصحاب كلِّ قرن.

وهو في هذا ملتزمٌ بحرفية النقل اضطراراً، ولا يملِك غيرَ ذلك في أناسٍ باعدَ بينه وبينهم الزمان، وربّما استدرك وأضاف وعلَّل، وقد صوَّر مَنْ رآهم، أو رأى مَنْ رآهم تصويراً جيداً، وفيما يَكتب من التراجم نسيجٌ من الخاص والعام، والذاتي والموضوعي، ونحنُ لن نطالبه بمنهج الدراسات الحديثة المنظَّمة وَفْق فصول ومطالب، فهو تتمةٌ لما سبق، وحلقةٌ مما مضى.

وقد ترجَم لعلماء الشريعة، ولم يفرِّق بين أهل المذاهب والمشارب، وترجَم للفضلاء والوجهاء، والتجار والنبهاء، وترجم لغير المسلمين مقتصراً على الأدباء.

وبَثَّ في هذه التراجم آراءَه وأفكارَه، ومقترحاته وانطباعاته، في الأشخاص والعلوم ومصادرها، وذكَرَ ما يتعلق بالمترجَم من آثار ووقوف، وحال هذه الآثار والوقوف، والعاملين فيها، وما عرَض لها من اعتداءٍ من القريب والغريب.

واهتمَّ بالصناعات والصنائعيين، والتجار والتجارات، حاضراً وماضياً، اهتماماً قلَّ من يهتم بمثله.

أمّا المخطوطات، فله فيها غرامٌ جميلٌ، وجهدٌ نبيلٌ، وتتبُّعٌ حفيلٌ، مما يستدعي تبيانُه بحوثاً مفردة.

ولا يُخلي الترجمةَ مِن مواقفَ جميلة، ونقدٍ بنَّاء، وإبراز جوانب النبوغ، والتحذيرِ من الخطأ والخطيئة، والتخويف من الاعتداء على مال الوقف.

ويركِّز على الإبداعات في العلوم الشرعية والطبيعية، وأخبار المبدعين، كذاك الذي ألَّف رسالةً فصَّلَ فيها المسألة الصِّهْيَونيَّة قديماً وحديثاً، وبيَّن الوسائلَ التي يقتضي اتخاذُها، والطرقَ اللازمَ سلوكُها تُجاه هذه القضية.

ويهتمُّ بما يتقنه المترجَم من اللغات، وبلباسه وطبائعه، وطعامه وشرابه، ومنهجه اليومي. وأكاد أراه يتتبع شواهدَ القبور ويستنطقها؛ ليضيفَ، ويُصحِّح، ويُنقِّح.

ويُصيغ أسلوبَه بوضوح، وقد يَسجع سجعاً مقبولاً، ويتلطف بعباراته في غالب أمره؛ مما يدل على نفسيته الهادئة، ويشتد حين يرى تحريفاً أو انحرافاً.

وكأن شعاره ما قاله في بعض التراجم: ما أحوجَ الأمة الإسلامية إلى استبدال هذا النزع والشقاق بالوئام والوفاق، ولا سبيل إلى الوصول إلى هذه الضالة المنشودة ما دامتْ مختلفةَ النزعات، متباينةَ العقائد.

*** ثالثاً ـ تأسيسه للمطبعة (العلمية)، وتآليفه حيث يقول:**

في سنة (١٣٤١هـ ـ ١٩٢٢م) وفقني المولى تعالى لتأسيس مطبعة دعوتها: «المطبعة العلمية»، وساعدني في تأسيسها مديرُ المدرسة الفاروقية السيد عبدُ الغفور المسوتي، وتكبدتُ مشاقَّ كثيرةً في توسيع نطاقِها بقدر الإمكان.

* * *

*** المطلب الأول ـ مؤلفاته المطبوعة في مطبعته العلمية:**

١ ـ **«إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»** في سبع مجلدات كبار[١].

---

(١) حيث يقول في مقدمته: وقسمته إلى مقدمة وقسمين، القسم الأول في مجلدين، ذكرت فيه من ملك حلب ومن تولاها من حين الفتح الإسلامي سنة (١٦هـ) إلى سنة (١٣٢٥هـ)، وأخبار ملوكها وأمرائها والحوادث التي حصلت في زمنهم وما لهم من الآثار. والقسم الثاني وهو في أربع مجلدات، ذكرت فيه تراجم أعيان =

٢ ـ ٤ ـ «المطالب العلية في الدروس الدينية»، وهو ثلاثة كتب متسلسلة: الأول والثاني والثالث، وهي كتبٌ مدرسية.

= الشهباء ما بين وزير خطير وأمير كبير، ومحدث وفقيه، وشريف ووجيه، وخطيب وشاعر، وأديب وتاجر، وزعيم، وغيرهم من ذوي المزايا وأرباب المناقب. وقد ابتدأت فيه من أوائل القرن الثالث للهجرة؛ لأني لم أقف على تراجم لأحد من أعيان الشهباء قبل ذلك، ولعلك تجد لهم ذكراً في تاريخ ابن العديم، وهذا القسم نقف فيه عند السنة التي ينتهي فيها الطبع إن شاء الله تعالى.

وقد التزمت ألَّا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء، أو كان ممن توفي فيها، وأما من نزلها ثم ارتحل عنها أو اجتاز بها فإني ضربت عنه صفحاً؛ لأن ذلك مما يطول شرحه، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة. وجعلت أعيان كل قرن على حدة، مبتدئاً من القرن الثالث إلى هذا العصر، مرتباً لهم على مقتضى سني الوفاة؛ لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريباً، وسلسلة حوادثهم متصلة غير منفصلة، أو قريبة الارتباط ببعضها. . .

ومن مزايا تاريخي: أني عزوت كل حادثة وكل ترجمة إلى الكتاب المنقول عنه وما تجدونه غير معزو، أو بعد كلمة أقول، فإنه مما أملاه فهمي الفاتر، وسطره قلمي القاصر، قصدت بذلك أن يكون القارئ مطمئن البال، وليسهل عليه الرجوع إلى الأصل عند اقتضاء الحال.

ويزيد ما تصفحته من الكتب عن ثلاث مئة مجلد، هذا غير المجاميع والأوراق المبعثرة التي ظفرت بها في الخزائن، وما تلقيته من أفواه الرجال الذين أثق بهم، ولا تسل عما تكبدته من المشاق، وما تجشمته من المتاعب في سبيل الحصول على هذه المواد، واقتناص شواردها، وجمع شملها المتبدد حتى انتظم فيها عقد هذا التاريخ وتراصفت مبانيه.

على أن ما صرفته من ثمين الوقت، وما لاقيته من المصاعب كنت أجده شراباً سائغاً، وموردا عذباً بجانب الغاية النبيلة التي كنت أقصدها، وهي القيام بخدمة بلادي وأبناء وطني بكتاب يوقفهم على تاريخ أوطانهم ومآثر أسلافهم.

٥ ـ «**عِظَة الأبناء بتاريخ الأنبياء**»: وهو كتاب مدرسي، وقد وضعتُهُ أوسعَ مما طُبع عليه، إلا أن المعارف كلفتني اختصارُهُ، والأصلُ الواسعُ لا زالَ محفوظاً عندي.

٦ ـ «**تمرين الطلاب في صناعة الإعراب**»: رسالة في (١٦) صحيفة تسهل على المبتدئين كيفية الإعراب وتعلمه في وقت قريب.

٧ ـ «**الروضيات**»: وهو ما جمعهُ من شعر الشاعر المُجيد أبي بكر الحسين الصَّنوبري؛ أحدِ شعراء سيف الدولة بن حمدان المتوفى سنة (٣٣٤هـ)، مع ترجمة الشاعر المذكور.

٨ ـ «**العقود الدرِّيَّة في الدواوين الحلبية**»: وهي ثلاثة دواوين لثلاثة من شعراء حلب في القرن الحادي عشر، الأول (وهو من جمعنا) ديوان الشاعر الأديب أحمد بن الحسين الجزري[١].

٩ ـ «**الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبية**»: وهي الثبت المسمى: «**كفاية الراوي والسامع، وهداية الرائي والسامع**»، للعلامة المحدث الشيخ يوسف الحسيني الحلبي، و«**ثبت**» العلامة المحدث الشيخ عبد الكريم الشراباتي الحلبي، و«**ثبت**» العلامة المحدث الشيخ عبد الرحمن الحنبلي الحلبي، ويلي ذلك إجازات مشايخي لي مع ترجمتي لبعضهم[٢].

---

(١) فات المؤلف هنا عدُّ باقي الدواوين، وقد ذكرها فيما بعد.

(٢) مؤلَّفٌ من ثلاثة أثبات، وهي:

١ ـ الثبتُ المسمى: كفاية الراوي والسامع وهداية الرائي والسامع، للعلامة المحدث يوسفَ بنِ درويش الحسيني الدمشقي ثم الحلبي الحنفي نقيب الأشراف المتوفى سنة (١١٥٣هـ).

٢ ـ والثبتُ المسمى: إنالةَ الطالبين لعوالي المحدثين، للعلامة المحدث الشيخ عبدِ الكريم بنِ الشيخِ أحمدَ الشراباتي الشافعي الحلبي المتوفى سنة (١١٧٨هـ). =

١٠ ـ **«المصباح على مقدمة ابن الصلاح»**: وهي تعليقات على هذا الكتاب طُبِعتْ مع الأصل وشرحه المسمى: **«التقييد والإيضاح لما أُطلق أو أُغلق من مقدمة ابن الصلاح»** للحافظ العراقي.

* * *

*** المطلب الثاني ـ مؤلفاته التي لم تطبع:**

ويقول رحمه الله في ذلك: بقي من مؤلفاتي التي لم تطبع:

١ ـ **«الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»**: وهو حاشية على هذا الكتاب تبلغ (٤٠٠) صحيفة، وضعتها حين قرأتُهُ في المدرسة الخسروية؛ ليكون تذكرةً لي كلما قرأته أرجع إليه[1].

٢ ـ والتقطتُ من **«معجمِ البلدانِ»** لياقوت البلادَ الملحقةَ بولاية حلب، وكلامَهُ عليها، لكني لم أضع لهذه المجموعة اسماً.

٣ ـ وفي سنة (١٣٥٣هـ) وضعت للإمام الكمالِ بنِ العديم مؤرِّخِ حلبَ ترجمةً خاصةً، وتكلمتُ على تاريخه الكبير لحلب، وهي في (٨٠) صحيفةً، دعوتها: **«ترجمة الكمال بن العديم، والكلام على تاريخه العظيم»**، نشر منها (٦٠) صحيفة في مجلة الجامعة الإسلامية الحلبية.

٤ ـ في سنة (١٣٥٦هـ) وضعت **«رسالةً في شرح حديث طول آدم عليه السلام»** المذكور في «صحيحي البخاري ومسلم»، والجواب عن الإشكال الذي

= ٣ ـ والثبتُ المسمى: منارَ الإسعادِ في طرق الإسناد، للعلامة المحدث أبي محمد الشيخِ عبدِ الرحمن بنِ عبدِالله الحنبلي الشامي ثم الحلبي المتوفى سنة (١١٩٢هـ).

والمختصر هذا في مجلد واحد يتألف من (٤٤٧) صفحة.

(١) وهو كتابنا الذي بين أيدينا.

ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري شرح البخاري» عند شرحه لهذا الحديث في كتاب بدء الخلق، وهي في (٢٠) صحيفة.

٥ ـ وفي سنة (١٣٥٦هـ) وضعت للحافظ الكبير أحمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) ترجمةً مسهبة في (٥٠ صحيفة كبيرة)، وبينتُ أنه كان أديباً كبيراً كما كان محدثاً كذلك.

٦ ـ وفي أواخر سنة (١٣٥٧هـ) وضعتُ مقالةً لتلقى محاضرة عنوانها **«السياسة في القرآن»** مفسراً فيها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦] مبيناً فيها أن القرآن العظيم مشتمل على آيات كثيرة تتعلق بالسياسة لمن تتبع ذلك وتدبره، وقد ألقيتها في نادي دار الأرقم، ونشرت في مجلة «الفتح» المصرية.

٧ ـ وفي سنة (١٣٥٨هـ) ألفت **«رسالة»** رددت فيها على من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم مات من السم الذي تناوله في الذراع الذي سمته له اليهودية، حتى قال بعض العلماء: إن الله جمع له ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين النبوة والشهادة، وفقدت، وتمت هذه الرسالة في (٢٢) جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ).

ولي مقالات كثيرة نشرت في «مجلة الحقائق» الدمشقية، و«مجلة المكتبة» المصرية، و«مجلة الزهراء» المصرية، و«مجلة الجامعة الإسلامية» الحلبية.

٨ ـ ومما نشرته في هذه في العدد (٣٦): **«تحقيقات هامة عن قبر أبي العلاء المعري»**.

و«مجلة الاعتصام الحلبية».

٩ ـ ومن جملة ما نشرته في هذه المجلة، ما جمعته من **«شعر عمر بن حبيب**

الحلبي» الأديب المشهَّر من أعيان القرن الثامن.

١٠ ـ ورسالة **«الكنز المظهر في استخراج المضمر»** للعلامة رضي الدين محمد بن يوسف الحنبلي المؤرخ المتوفى سنة (٩٧١هـ)[١].

١١ ـ ومقالة عن **«رحلتي لطرابلس الشام»** في صفر من سنة (١٣٥٢هـ)، واجتماعي فيها بالعلامة الشريف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني الفاسي.

١٢ ـ ومحاضرة عن **«رحلتي لمسكَنَة (بالِس) والرُّصافة والرقة»** مع أعضاء لجنة العاديات نشرت في «مجلة العاديات»، مع غيرها نشرت فيها.

١٣ ـ ومحاضرة عن **«تاريخ المولد النبوي وعناية الأمة بالاحتفال به»** ألقيتها في نادي دار الأرقم.

١٤ ـ **«رسالة في العروض»** مقتضبة من «الكافي في علمَي العروض والقوافي» سهلت فيها تعلُّمَ هذا العلم في مدة وجيزة، وقرأتها غير مَرَّة.

١٥ ـ رسالة **«كشف الغَمّ عن حديثِ السُّم»** حررتُها سنة (١٣٥٨هـ).

١٦ ـ **«ذو القرنين والسد. من هو وأينَ هو؟»** حررتُها سنة (١٣٥٩هـ)[٢].

١٧ ـ **«القولُ الفصل في مقر العَقْل»** (رسالة) حررتُها سنة (١٣٦٠هـ).

---

(١) قلت: رضيُّ الدين العلامةُ المؤرخ محمد بن إبراهيم بن يوسف الحنبلي الحلبي صاحب الزبد والضرَب في تاريخ حلب، ودُرر الحَبَب في تاريخ أعيان حلب، كلاهما مخطوطان، له اشتغال في الحديث ومصطلحه، وله مصنفاتٌ، وحذف اسم الأب والنسبة إلى الجد مباشرة فهو جائز، أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين عن نفسه فقال: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، فحذف أباه عبدالله لاشتهار عبد المطلب أكثر، ورضيُّ الدين ولد بحلب سنة (٩٠٨هـ)، ومصنفاته تزيد على نيف وخمسين مصنف، توفي بحلب سنة (٩٧١هـ)، رحمه الله وإيانا آمين. اهـ.

(٢) طُبع في حياته رحمه الله.

١٨ ـ «حسن الفهم لحديث الشؤم» (رسالة) حررتُها سنة (١٣٦٢هـ).

١٩ ـ «الثقافة الإسلامية» (مجلد) سنة (١٣٦٣هـ)[١].

* * *

*** المطلب الثالث ـ مطبوعات المطبعة العلمية:**

ويقول رحمه الله: ما طبعته من الكتب الثمينة المفيدة في مطبعتي العلمية:

١ ـ **«الطب النبوي»** للحافظ ابن قيم الجوزية المتوفى سنة (٥٧١هـ)[٢].

٢ ـ **«الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»** للحافظ الحازمي المتوفى سنة (٥٨٤هـ)[٣].

٣ ـ **«السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين»** للحافظ الطبري المتوفى سنة (٦٩٤هـ)[٤].

٤ ـ **«الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير»** لأبي عثمان الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ)[٥].

٥ ـ **«مشكاة الأنوار في الأحاديث القدسية»** للشيخ محيي الدين بن عربي المتوفى سنة (٦٣٨هـ).

٦ ـ ويليه: **«الأربعون القدسية»** لملا علي القاري المتوفى سنة (١٠١٦هـ).

٧ ـ كتاب **«الفراسة»** لفيلمون الحكيم.

٨ ـ ويليه: **«جمل أحكام الفراسة»** لأبي بكر الرازي (٣١١هـ).

---

(١) طُبع في حياته رحمه الله.

(٢) وذلك سنة (١٩٢٨م).

(٣) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م).

(٤) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م).

(٥) وذلك سنة (١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م).

٩ ـ **«السفينة النوحية في علم النفس والروح»** لأحمد بن خليل الخولي المتوفى سنة (٦٨٧هـ).

١٠ ـ **«النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنايع المحتاج إليها في علم الميقات»** لأبي الخير الأميوني من علماء القرن العاشر، وهو يبين عناية سلفنا بمختلف الصناعات.

١١ ـ **«بيان السنة والجماعة»** (عقيدة الإمام الطحاوي) المتوفى سنة (٣٢١هـ).

١٢ ـ **«القُرَبُ في فضل العرب»** للحافظ عبد الرحيم العراقي المتوفى (٨٠٦هـ).

١٣ ـ **«اللوامع الضيائية في نظم السراجية»** في علم الفرائض على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ رضي الله عنه ـ للشيخ عبدالله الموقت الحلبي المتوفى سنة (١٢٢٣هـ).

١٤ ـ **«الإفصاح عن معاني الصحاح»** للوزير عون الدين يحيى بن حمد بن هبيرة المتوفى (٥٦٠هـ).

١٥ ـ **«دمية القصر وعصرة أهل العصر»** للأديب أبي الحسن علي الباخرزي.

١٦ ـ ويليه **«قطعة من ديوانه»**، المتوفى (٤٦٧هـ).

١٧ ـ كتاب **«فضل الخيل»** للحافظ عبد المؤمن الدمياطي المصري، المتوفى سنة (٧٠٥هـ).

١٨ ـ ويليه: **«رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد»** للشيخ محمد النجش الحلبي المتوفى سنة (١٠٩٨هـ).

١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ **«العقود الدرّية في الدواوين الحلبية»**، وهي ثلاثة دواوين لثلاثة من شعراء حلب في القرن الحادي عشر:

الأول: ديوان الشاعر الأديب أحمد بن الحسين الجزري. وقد قدمت أن هذا من جمعي.

الثاني: ديوان الشيخ فتح الله النحاس.

الثالث: ديوان الشيخ مصطفى البابي.

ومجموع هذه الدواوين (٤٠٠) صحيفة.

٢٢ ـ **«الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري»** للشيخ عبد الغني النابلسي المتوفى سنة (١٣٤٣هـ).

٢٣ ـ **«علوم الحديث»** المعروف بمقدمة ابن الصلاح.

٢٤ ـ **«شرحه: التقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من مقدمة ابن الصلاح»** للحافظ عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة (٨٠٦هـ)، وفي ذيل هذين تعليقات لي على المقدمة سميتها: **«المصباح على مقدمة ابن الصلاح»**، وقد قدمت ذلك.

٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ثلاث رسائل حديثية للحافظ البرهان إبراهيم الحلبي المتوفى سنة (٨٤١هـ).

الأولى: **«تذكرة الطالب المعلَم بمن يقال إنه مخضرم»**.

الثانية: **«التبيين لأسماء المدلسين»**.

الثالثة: **«الاغتباط بمن رمي بالاختلاط»**.

الثلاثة في (٨٠) صحيفة.

٢٨ ـ **«المدخل في أصول الحديث»** للحاكم النيسابوري المتوفى سنة (٤٠٥هـ)، في (٣٦) صحيفة.

٢٩ ـ **«معالم السنن»** للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، وهو شرح سنن الإمام أبي داود المتوفى سنة (٢٧٥هـ)، في أربعة أجزاء، وكان ختام طبعي له في سنة (١٣٥٣هـ).

وهذا الشرح أقدمُ شرحٍ ظهر لعالم المطبوعات من كتب الحديث؛ فإن وفاة الشارح ـ رحمه الله ـ كانت سنة (٣٨٨هـ)، ولا أعلمُ شرحاً من شروح كتب الحديث ظهرَ لعالم المطبوعات، وهو مؤلَّفٌ في القرن الرابع، قبل هذا، والحمد لله على توفيقه[1].

وبعد طبع هذا الكتاب إلى هذه السنة حين تحريري لهذه السطور، وذلك في سابع جمادى الأولى سنة (١٣٥٨هـ) لم أطبع شيئاً، في حين أنه كان في النية أن أطبع كتباً كثيرة، هي من الأهمية بمكان، وكلها نفيسة من نفائس كتب المتقدمين، إلا أنه حال بيني وبين ما أشتهي أسباب متعددة.

* * *

*** المطلب الرابع ـ ما استنسخه بخط يده من الكتب:**

حيث يقول: ومما منَّ الله به عليَّ: سرعةُ الكتابة، وحبُّ النسخ، فمما نسخته:

١ ـ الجزء الأول من «شرح العلامة الكواكبي الحلبي على منظومته

---

(١) ومما يجدرُ ذكرُهُ هنا، وهو مما أنعم الله به عليّ: أنني عزمتُ بعد الاتكال على الله تعالى على الابتداء بطبع هذا الكتاب يوم الأربعاء الموافق للخامس من جمادى الثانية سنة (١٣٥١هـ)، ففي ليلتها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا طويلة، نسيت معظمها بعد الاستيقاظ، وفي ذلك علامة على القبول ـ إن شاء الله تعالى ـ، وصادف أني ليلةَ ختام طبعه رأيت الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ، وهو طويلُ القامة، خفيفُ اللحيةِ، أسمرُ اللونِ، يلبس جبة زرقاء إلى أنصاف ساقيه، تحتها ثوب إلى فوق كعبيه بقليل، ومعه شخص آخر يغلب على ظني أنه أيضاً النبي صلى الله عليه وسلم، وللشك في هذا بينته؛ خشية أن أكون داخلاً تحت قوله صلى الله عليه وسلم: **«ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»**، وذلك أيضاً علامة القبول ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الفقهية»، وقد طبعت هذا الشرح كما تقدم.

٢ ـ و«**تاريخ الرضي الحنبلي**» المسمى: «**درُّ الحَبَب والدُّرُّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب**» المنسوب لابن الشحنة.

٣ ـ و«**متن منظومة الكواكبي**» الفقهية، وهي نحو خمسة آلاف بيت.

٤ ـ و«**متن المنار**» في أصول الفقه الحنفي.

٥ ـ و«**حِكَم ابن عطاء الله**».

٧ ـ و «**غريب القرآن**» للسجستاني قبل أن يطبع.

٨ ـ و «**منظومة السراجية**» المسماة بـ: «**اللوامع الضيائية**».

٩ ـ وكتاب «**الدلائل والاعتبار**» للجاحظ.

١٠ ـ وكتاب «**الفراسة**» لفليمون.

١١ ـ و «**كتاب الفراسة**» للرازي.

١٢ ـ وكتاب «**السفينة النوحية**».

١٣ ـ و «**ديوان الجزري**».

١٤ ـ و «**عقيدة الطحاوي**»، وهذه الكتب قد طبعتها، وهي مذكورة في عداد ما طبعته.

١٥ ـ و «**منظومة أبي الوفا الرفاعي**» في مزارات حلب، والترب التي دفنوا فيها، وهي منظومتان تخالف الواحدة الأخرى زيادةً ونقصاً.

١٦ ـ ورسالة «**العطائي**» في أدباءِ حلب في أول القرن الثاني عشر، وقد أدرجتها بتمامها في التاريخ.

١٧ ـ و «**متن القَطْر**» في النحو لابن هشام.

١٨ ـ و «**منظومة الجوهر المكنون في المعاني والبيان**».

١٩ ـ و «**منظومة الفتَّني**» في الفرائض.

وهذه الثلاثة كنت استظهرتها.

٢٠ ـ وقطعة كبيرة من الحاشية المسماة بـ: **«المباحث العجائب»** للمولى أحمد أفندي الكواكبي، على شرح والده المسمى: **«إرشاد الطالب إلى منظومة الكواكب»** الذي طبعته على هامش شرحه لمنظومته الفقهية كما تقدم، والحاشية المسماة بـ: **«التقييد والإيضاح على مقدمة ابن الصلاح»** في (٢٧٠) صحيفة، نقلتها عن نسخة بخط الحافظ ابن حجر.

٢١ ـ وإحدى عشرة رسالة تتعلق بعلم الحديث، منها: **«المدخل»** للحاكم النيسابوري، وقد طبعته كما تقدم.

٢٢ ـ وفي سنة (١٣٥٥هـ) كتبت ملخص فهرس المكتبة الأحمدية، وهي أهم مكتبة مخطوطة في مدينة حلب، وهو في (٤٨) صحيفة.

٢٣ ـ وفي سنة (١٣٥٧هـ) كتبت مقالة **«نوادر المخطوطات»** المنشورة في السنة (٢٨) من «مجلة الهلال» بقلم صديقي المرحوم أحمد تيمور باشا المصري، وقد كنت استنسختها قبل ذلك بخطي وخط ابن أخي، وفُقدتْ من عندي.

ويضيف رحمه الله: وإذا أضفتَ إلى ذلك مسوداتِ تأريخي الكبير ومبيضته، ومؤلفاتي ومقالاتي التي نشرت في المجلات والجرائد، وما كتب من ذلك ولم ينشر، وما كتبت من الكتب التجارية وغيرها، وما نقلته من حسابات الدفاتر أثناء تعاطي التجارة من اليومية إلى الذمم، يبلغ ذلك ولا ريب أزيَدَ من مئة ألفِ صحيفة، ولذلك فإني حينما يُذكَر أولئك الناسخون في القديم، وكثرةُ ما نسخوه، لا أستغربُ ذلك، إلا أني لما وَهَنَ العظمُ مني، واشتَعَلَ الرأسُ شيباً، وعرض ذلك المرض الذي حصل في شعبان من سنة (١٣٤٨هـ)، ضَعُفَتْ مني تلك الهمة، وفترتْ تلك العزيمة، وأصبحتُ كما قال الشاعرُ:

أهمُّ بأَمْرِ الحَزْمِ لَو أسْتَطِيعُهُ ... وقد حِيْلَ بينَ العَيْرِ والنَّزَوَانِ

وأسألُ اللهَ تعالى حُسْنَ الخاتمةِ عند انتهاءِ الأجل، وأن يرحمني، ويعفوَ عن الخطأ والزلل، يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم، إنه سميع مجيب.

* * *

* **المطلب الخامس ـ ما صححه من الكتب: حيث يقول رحمه الله: ما صححتُهُ من الكتب:**

١ ـ ديوان أبي فراس: صححتُ نسخةً مطبوعة في بيروت من ديوان أبي فراس الحمداني على نسختين خطيتين من هذا الديوان موجودتين في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، فإن المطبوع كثير التحريف والغلط، وقد أصبح بعد تصحيحه مسودةً، وفي النسختين المخطوطتين زوائدُ كثيرة على المطبوع، فالتقطتها على حدة، والتقطتُ من بعض كتب التاريخ والأدب أبياتاً لأبي فراس، لا وجود لها في المخطوطتين، فبلغ مجموع الزوائد نحو (٨٠٠) بيت، أثبتُّ الجميع على حدة، ورتبتُ المطبوعَ على نَسَقِ المخطوطِ المرتَّبِ على الحروف الهِجائيّة[1].

---

(١) يقول رحمه الله: ورأيتُ في فهرس المكتبة السلطانية المصرية أن فيها شرحاً لهذا الديوان، لكن لم يذكروا اسم الشارح، فأرسلت فاستنسخته، فإذا في آخره أن مؤلفه فرغ من تأليفه سنة (١٠٧٥هـ)، فعلمتُ أنه من أدباء القرن الحادي عشر، فتتبعت «خلاصة الأثر» للمحبي، فتبين أنه لأحد أدباء دمشق يقال له: البَهَائي، فنقلت ترجمته في آخر هذا الشرح، وفي إحدى رحلاتي لدمشق ذاكرتُ الأديبَ الفاضلَ السيد أحمد عبيد المكتبي بشأن هذا الديوان، وتصحيحي له، والتقاطي للزوائد، واستنساخي لشرحه من مصر، وكيف اهتديت للوقوف على مؤلفه، فأعرب عن رغبته في طبعه، ولفتور همتي عن طبع الكتاب وافقته على ذلك، وأعطاني أجرة نسخ الشرح الذي استنسخته من المكتبة السلطانية في مصر، فأعطيته الديوان المصحَّحَ، وهذه الزوائدَ، وذلك الشرحَ مع سطورٍ متقطعة من ترجمة أبي فراس، ومنزلتِهِ بين الأُدباء، كان في نيتي أن أجمع شتاتها وأجعلها =

٢ ـ **جزء من «بغية الطلب في تاريخ حلب»**: في المدرسة الحسينية في الموصل جزء من تاريخ الإمام الكبير، والوزير الخطير، الكمال عمر بن أحمد بن العديم الحلبي، المتوفى سنة (٦٦٠هـ)، المسمى: **«بغية الطلب في تاريخ حلب»**، فأرسلت إليها فاستنسخته بواسطة الطبيب داود الجلبي مؤلفِ كتاب **«مخطوطات الموصل»**، أولُه ترجمةُ زهدمِ ابنِ الحارث، وآخره ترجمةُ سعيد بن سلام المغربي، ولما جاءني، صححت الغلط الكثير الذي فيه، ومراجعة مظانّ وجود هذه التراجم لأجل ذلك، على أن الكثير من التراجم التي فيه لم أجدها إلى الآن في غيره، ومنها ما تراه في غيره موجزة، وهنا مبسوطةً، ومع تصحيحي لغلطات كثيرة فيه لا يزال فيه بعض الغلط، وانظر ما كتبته على هذا التاريخ، وترجمة مؤلفه في الرسالة التي وضعتها خصيصاً في ذلك، وقد نشر من هذه الرسالة ستون صحيفة في تسعة أعداد من أعداد مجلة الجامعة الإسلامية الحلبية، وبقي منها عشرون صحيفة.

٣ ـ ٤ ـ **«القَصْدُ والأَمَم»، و«الإنباه على قبائل الرواه»**: وصححت هذين الكتابين الموجزين للحافظ ابن عبد البر الأندلسي، أرسلهما لي من مصر السيد حسام الدين القدسي الدمشقي ثم المصري، وكانا مختلطين كما بينه المومأ إليه في مقدمة النشر، فصححتهما، وميزت بين الكتابين على نسختين في الأحمدية والتكية الإخلاصية المعروفة الآن بتكية الشيخ بهاء الرفاعي.

٥ ـ **«الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» للحافظ السخاوي**: صححت منه جزءين بعد طبعه، وأرسلت ذلك لناشره السيد حسام الدين القدسي الكتبي، وقد أشار إلى ذلك في خاتمة الطبع في آخر الجزء الثاني عشر.

٦ ـ **«الكواكب السائرة» للغزي**: وفي شعبان سنة (١٣٦٧هـ) ابتعت الجزء

= مقدمةً للنشر، على أن ينسبها إليّ، وقد كان ذلك في صيف سنة (١٣٥٦هـ)، وإلى الآن ونحن في صيف (١٣٥٨هـ)، الموافق لآخر حزيران من سنة (١٩٣٩م)، ولم يباشر بطبعه.

الأول من **«الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة»** للنجم الغَزِّي الذي نشره الأديب سليمان جَبُّور أحد أساتذة الكلية الأمريكية في بيروت، وفي رمضان منها صححت هذا الجزء، فبلغت أغلاطه ست صفحات، وأرسلتها إليه، ووعد بنشرها في الجزء الثاني.

٧ ـ تصحيحي الجزء الأول من «مبسوط السرخسي»:

وعلى أثر تعييني عضواً في جمعية المعارف النعمانية في الهند، أرسلتْ لي الجزء الأول من مبسوط السرخسي مخطوطاً، فصححته على الجزء الموجود في مكتبة الأحمدية بحلب، المعنون فيها بكتاب الإمام محمد، وهو جزء من مبسوط السرخسي، وغرض الجمعية تصحيح جميع كتاب المبسوط، ثم إعادة طبعه؛ لأن المطبوع كثير الغلط.

وصححت بنفسي جميع الكتب التي طبعتها في مطبعتي من مؤلفاتي، ومما نشرته من غير مؤلفاتي، وصححتُ مما طبع في مطبعتي على نفقة أصحابه كثيراً من الكتب، منها: **«قبس الأنوار»**، وهو ترتيب «مسند الشهاب القضاعي» للشيخ محمد العربي المغربي نزيل بيروت.

* * *

*** المطلب السادس ـ ما استُنسخ بواسطته من الكتب للآفاق: ويضيف رحمه الله:**

١ ـ أول ما استُنسخ بواسطتي من الكتب للآفاق: أجزاءٌ ثلاثة أو أربعة من **«تاريخ دمشق»** لابن شاكر الكتبي؛ فإن هذا التاريخ منه أجزاء في الظاهرية بدمشق، وأجزاء في الأحمدية بحلب، فاستنسخ الوجيه الأديب السيد وجيه أفندي الكيلاني ـ رحمه الله تعالى ـ الأجزاء التي في دمشق، واستعلم مني عن الأجزاء التي في حلب، ثم استنسخ منها ما كان غير موجود عنده، وأظن أنه من النسختين لا يكمل نسخة واحدة، فاستنسخ ما نقصه من مكتبة أخرى، فكَمُلَتْ نسختُه الخطية، وبلغني أنها بيعت بعد ذلك لمكتبة الأمة في باريس.

٢ ـ واستُنْسِخَ بواسطتي كتاب «**مختصر طبقات المحدِّثين**» لابن عبد الهادي الحنبلي، استنسخه الشيخ منير الدمشقي.

٣ ـ واستُنسخ الأول والثاني والثالث من «**البداية والنهاية**» لابن كثير الدمشقي، برسم الشيخ فرج الله زكي الكردي، والسيد أمين الخانجي الكتبيين بمصر عن نسخة تامة في مكتبة الأحمدية هي في (١٠) مجلدات، واكتفى بالأجزاء الثلاثة التي وصل فيها إلى حوادث سنة (٩)؛ لوجود نسخ في مصر كافية.

٤ ـ واستنسخ أيضاً الجزء الأول من «**حلية الأولياء**» لأبي نعيم الأصفهاني، هو في مكتبة الأوقاف الموضوعة في المدرسة الشرفية إلى السيد أمين الخانجي المومأ إليه.

٥ ـ واستنسخ جزء من «**المحلى**» لابن حزم، الموجود في مكتبة الأحمدية برسم الوجيه الفاضل عين أعيان جُدّة السيد محمدأفندي نصيف.

٦ ـ واستنسخ «**المعربات**» للجواليقي عن نسخة في الأحمدية، برسم الأديب المفضال السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي الأستاذ في جامعة عليكره في الهند.

٧ ـ واستُنسخ «**أصول السرخسي**» عن نسخة في مكتبة الأحمدية بحلب، وقوبل على نسخة في مكتبة العثمانية إلى جمعية إحياء المعارف النعمانية التي يرأسها الشيخ أبو الوفا.

٨ ـ واستنسخ برسم هذه الجمعية «**شرح الجامع الكبير**» للعتابي، وقد طبعت الجمعية الجامع الكبير في مصر، وحضر منه نسخ إلى حلب.

٩ ـ واستنسخ بواسطتي «**ذيل القطب اليونيني في التاريخ**» عن المجلد الموجود في مكتبة الأحمدية برسم المستشرق «د. س. مرجليوث» في لندن في «جامعة أكسفورد»، وهو أحد أعضاء مجمعنا العلمي العربي.

* * *

* **المطلب السابع ـ ما نشرَه وطبعَه خارج مطبعته العلمية : حيث يضيف : نشري لشرحَي العلامة محمد بن الحسن الكواكبي الحلبي المتوفى سنة (١٠٩٦هـ) على منظومتيه في الأصول والفروع :**

سببُ نشري لهذين الكتابين : أن عندي الجزء الثاني من شرح هذا العلامة على منظومته في الفقه الحنفي بخط قديم، وكنت كلما طالعت فيه ازددتُ به شغفاً؛ لسلاسة نظمه، وسُهولةِ شرحِه، فعوَّلتُ على إكمال النسخة، وتحرير الجزء الأول عن نسخة في مكتبة المدرسة العثمانية بحلب، وتم لي ذلك في سنة (١٣١٨هـ).

وفي ذلك الحين استنسخ السيد عبد القادر الكواكبي من ذرية المؤلفِ نسخةً عن هذه النسخة، واستنسخ شرح العلامة المذكور على منظومته في الأصول عن نسخة في مكتبة المدرسة الأحمدية، وقابلها على نسخة أخرى هناك، فخابرتُ الشيخ فرج الله زكي الكردي من أرباب المطابع في مصر، وأرسلت له نسختَي السيدِ المذكور، فباشر بالطبعِ سنةَ (١٣٢٢هـ)، وكمل سنة (١٣٢٧هـ)، وانتشر الكتاب في ذلك الحين. وانظر ذلك في ترجمة المؤلف في الجزء السادس من تاريخي (**إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**)، وانظر ما كتبته في آخر الجزء الثاني من الشرحين المذكورين.

* * *

المبحث الثالث

المناصب التي تقلدها

لا يخفى على أحد أن هذه الشخصية العلمية ـ التي تحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، وتعد الشخصيةَ الأبرز في وجاهة بلده ـ لا بُدَّ لها من أن يُسند بعض المهام والمناصب، سواء من قبل الحكومة، أو من قبل الهيئات والمؤسسات الاجتماعية أو الخيرية، أو من قبل وجهاء البلد أنفسهم، فأهم تلك المناصب :

١ ـ تعيينه عضواً في «غرفة تجارة حلب»:

ويقول: كنتُ مع اشتغالي بالتحصيل أتعاطى صنعة طبع المناديل التي تسمى عند العامة (بالبصمه جي)، وهي صنعةُ آبائي وأجدادي، وأتعاطى معها مع إخوتي التجارة للبلاد السورية والمصرية والحجازية والعراقية، فلِما لي من العلاقة التجارية انتخبت سنة (١٣٣٤ هجرية) عضواً في «غرفة تجارة حلب» التي كان مقرها في «خان العلبية»، وهو الخان الذي كان فيه حانوتنا للتجارة، ثم انتقلت الغرفة «لخان البنادقة»، وكان الذي رغب في انتخابي عضواً، وسعى في ذلك، الوجيهُ الشهير الحاج فاتح أفندي المرعشي الذي كان رئيس الغرفة في ذلك الوقت، ولما حصل الانتخاب الداخلي بين أعضائها، انتخبتُ معاوناً ثانياً للرئيس، ولما انتهت مدة الانتخاب المعينة في قانون الغرفة، وهي ست سنوات، وذلك في سنة (١٣٣٧هـ، وسنة ١٩١٩م) انتخبت لها مرة ثانية، وفي الانتخاب الداخلي عينت معاوناً أول، وبقيت إلى انتهاء المدة، وذلك في سنة (١٣٤٣هـ في ٢٤ شعبان، الموافقة لسنة ١٩٢٥م) في تاسع آذار، والرئيس في هذه المدة كلها هو المومأ إليه فاتح أفندي.

ولما أرادوا انتخابَ أعضاءٍ لها في هذه السنة، وهي سنة (١٣٤٣هـ)، قصد الكثير انتخابي للمرة الثالثة، فرجوت ألّا يفعلوا، وذلك لكثرة أشغالي، واشتغالي وقتئذٍ بالدروس التي أنيطت بي في المدرستين: الخسروية العلمية، والفاروقية التجهيزية، وبالرغم عن ذلك، فقد انتخبني الكثيرون لها، لكني لم أنل الأكثرية، وذلك لما قدمت من رجائي للكثيرين ألّا يفعلوا، ولو نلتها لقدمت استعفائي؛ وذلك لما قدمته.

٢ ـ تعيينه عضواً في دائرة الأوقاف أولاً وثانياً في المجلس الإداري:

في سنة (١٣٣٧هـ، و١٩١٩م)، أو التي بعدها، عينت عضواً في دائرة الأوقاف في اللجنة التي ترى فيها حسابات المتولين، ويقرر فيها على الإنشاءات التي تحصل في عقارات الأوقاف المضبوطة أو الملحقة.

وكان مدير الأوقاف وقتئذٍ مرعي باشا الملاح ـ رحمه الله تعالى ـ وهو الذي سعى في ذلك، غير أني لم ألبث أن استعفيت منها، وكانت مدتي فيها أقل من سنة على ما أذكر، فإني لم أقيد ذلك عندي.

ثم انتخبت إليها ثانية، وذلك في سنة (١٣٤٠هـ، و١٩٢١م) في شهر أيلول، وكان قد عين مديراً لها السيد يحيى أفندي الكيالي.

وعلى أثر ذلك وفقني الله وإياه لافتتاح المدرسة الخسروية العلمية، وتنظيم برنامجها، وشاركَنا في ذلك الأستاذُ الصديق المرحوم الشيخ محمد الحنيفي، وقصد المدرسة الطلابُ من كلِّ صوب، وقد تكلمت على ذلك في الجزء الثالث من التاريخ في الكلام على المدرسة الخسروية[1].

وقرر وقتئذٍ أن تكون صفوفها اثني عشر صفًّا؛ ليخرج الطالب المجد منها وقد امتلأ وعاؤهُ علماً، إلا أن المراقب العام للأوقاف الإسلامية الذي كان مقرُّه في بيروت، أرجعها إلى ستة صفوف ـ عليهِ من الله ما يستحق ـ إلا أني لم أَيْئَسْ من إيصالها إلى ما قرر عليه، أو إلى أحد عشر صفًّا، وقد وضعتُ برنامجاً لها بالاشتراك مع بعض الإخوان، وهم: الأستاذ العلامة الشيخ أحمد الزرقا، وولدُهُ الشاب النجيب الفاضل الشيخ مصطفى، والأستاذ الشيخ أسعد العبجي مدرسُ الفقه الشافعي والنحو في المدرسة المذكورة، والشابُّ النجيب الفاضل معروف الدواليبي، وبيَّضْنَا صورةً منه وقَّع عليه أساتذة المدرسة الخسروية، وقدِّمت لقاضي حلب الحالي الشيخ عزيز أفندي الخاني، وذلك سنة (١٣٤٨هـ)، ولا أزال أسعى مع بعض الإخوان في إبراز ذلك لحيز العمل، ومن الله التوفيق.

٣ ـ تعيينه عضواً في دائرة الأوقاف في المجلس العلمي:

في (١٤) شوال سنة (١٣٦٢هـ) الموافق (١٣) تشرين الأول سنة (١٩٤٣م) عينت عضواً في المجلس العلمي في دائرة الأوقاف بموجب قرار صدر من رئاسة

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٥).

مجلس الوزراء مؤرخ في (١٠) تشرين الأول من هذه السنة، وعين معي الشيخ أحمد سراج الدين المحامي، فاستعفينا جميعاً، فقُبِلَ استعفاؤهُ، ولم يُقبل استعفائي، وصدر القرار ثانياً بتعييني وتعيين الشيخ نجيب الخياطة، وذلك في (٤) ذي الحجة سنة (١٣٦٢هـ)، و(١) كانون الأول سنة (١٩٤٣م)، وأولُ جلسةٍ جلستُ فيها أنا والشيخ نجيب كانت في (١٨) ذي الحجة سنة (١٣٦٣هـ)، و(١٥) كانون الأول سنة (١٩٤٣م).

ثم قدمت استقالتي في (١٢) ربيع الثاني سنة (١٣٦٣هـ)، و(٦) نيسان سنة (١٩٤٤م)، ثم قدمتها في (٣) جمادى الأولى سنة (١٣٦٣هـ)، و(٢٧) نيسان سنة (١٩٤٤م)، ثم في (١٩) تموز سنة (١٩٤٤م)، ثم في (٢٢) رمضان سنة (١٣٦٣هـ)، و(٣٠) آب سنة (١٩٤٥م)، وفي الجميع لم تقبل استقالتي، وكنت أوافق على الرجوع أملاً بالقيام بأعمال تستحق الذكر في هذا المجلس، وإصلاح لبعض أوضاعِهِ، فلم يحصل ما أتمناه، فقدَّمتُ استقالتي في (٢٧) جمادى الثانية سنة (١٣٦٦هـ)، الموافق (٧) أيار سنة (١٩٤٧م)، وكان مدير الأوقاف الشيخ أحمد القاسمي الدمشقي، فكتبَ لي الجواب بتاريخ (٢٥) أيار سنة (١٩٤٧م) يعتذر عن قبول الاستقالة، ويؤمل عودتي، لكني لم أعد، وصممتُ على ذلك.

٤ ـ انتخابه عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى:

وفي ربيع الثاني من سنة (١٣٤٠هـ) وكانون الأول سنة (١٩٢٢م) انتخبت عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى الذي انعقَدَ في دمشق للمرة الأولى، وهو مؤلَّفٌ من قضاة الولايات الأربع (الشام، حلب، بيروت، اللاذقية)، ومعهم أعضاء أربعة، من كل ولايةٍ واحد، وأعضاء أربعة أيضاً حضروا بعد. وكان انعقاده في جمادى الأولى من هذه السنة، وفي كانون الثاني من تلك السنة، وبقي شهراً.

والغرض من انعقاده النظر في المواد التي وُضعت لنظام الأوقاف الإسلامية، وتحويرها، وزيادة ما يقتضى زيادته عليها، والنظر في الميزانية العامة لكل ولاية، ولدائرة المراقبة، ولغير ذلك. وقد انصرفتْ همتي لوضعِ موادَّ تتعلق بإصلاح

المدارس العلمية، والمكاتب المخطوطة التي في حلب، تعلم من تصفح هذا النظام، وقد طبع في بيروت. ولو عُمِلَ بجميع ما فيه لرأينا مدارس الشهباء ومكاتبها الأحمدية والعثمانية والمولوية وغيرها على غير الحالة التي نراها عليه الآن، لكن ويا للأسف ظلت تلك القرارات حبراً على ورق، لم يعمل إلا بالقليل منها، وإلى الله المشتكى.

ومن جملة هذه القرارت: التصديقُ على بقاء «خان قورط بك» الموقوف على المدرسة الخسروية للمدرسة الخسروية، وأنه حق ثابت لها.

انظر قضية هذا الخان الهامة في الكلام على هذه المدرسة في الجزء الثالث من تاريخنا[1]. وأخيراً أعيد إدارةً للمدعين به من قبل السلطة الإفرنسية، والغاية من ذلك إضعاف ريع هذه المدرسة؛ ليكون ذلك وسيلة لعدم زيادة صفوفها على ستة.

٥ ـ تعيينه مدرساً للكلية الفاروقية بحلب:

وفي سنة (١٣٣٧هـ) عُيِّنت مدرساً للغةِ العربية والإنشاء والعلوم الدينية والمحليّة، في مدرسةِ شمس المعارف الأهلية التي سميت بعد ذلك بالكلية الفاروقية التجهيزية، ومديرها وصاحبها السيد عبدُ الغفور أفندي المسوتي، وبقيت فيها إلى سنة (١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م)، ثم تركتها لإلغاء الصفوف العالية فيها لأسبابٍ ماليةٍ وغيرها.

٦ ـ تعيينه في المدرسةِ الخسروية:

وحينما افتُتحتِ المدرسةُ الخسروية بالتاريخ المتقدم، وهو سنة (١٣٤٠هـ، و١٩٢١م)، أو قبل ذلك بقليل، عُيِّنتُ لتدريس السيرة النبوية والأخلاق، وفي سنة (١٣٤٢هـ) أضيف لي إلى ذلك درس التفسير والحديث في بعض الصفوف، ثم خصصت سنة (١٣٤٣هـ) بتدريس الحديث النبوي في الصفوف التي يدرس

---

(١) ينظر: «إعلام النبلاء» (٣/ ١٩١ ـ ١٩٥).

فيها الحديث وعلومه، وذلك من الصف الثاني إلى الصف السادس الذي هو منتهى الصفوف الموجودة فيها الآن، وبتدريس السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، ولا أزال على ذلك إلى حين كتابة هذه السطور، وذلك سنة (١٣٥٨هـ، و١٩٣٩م).

٧ ـ تعيينه عضواً للمجمع العربي في دمشق:

وفي سنة (١٣٤١هـ) وسنة (١٩٢٣م) في آذار منها عينت عضواً للمجمع العربي في دمشق مع الأعضاء المعينين له من الشهباء، ولي في مجلته التي يصدرها المجمع رسائل كثيرة، يرجع معظمها لتحقيق مسائل تاريخية، ووصف كثير من الكتب المخطوطة الهامة، وقد صدر منها إلى سنة (١٣٥٦هـ) و(١٩٣٧م) خمسة عشر مجلداً، وآخر مقالة لي فيها مقالة (دُور الكتب في حلب قديماً وحديثاً) نشرت في الجزء الثامن من المجلد الخامس عشر[1]، وهي محاضرة ألقيتها في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية حينما نُقلت من مكانها الصغير الضيق في «خان الكمرك» إلى بناية الأوقاف الكبيرة، التي بالقرب من الجسر الجديد خارج باب الفَرَج.

٨ ـ ذهابه مع وفد لبيروت في قضية المدرسة الخسروية، وكنت أحد أعضائه:

في السنين الأخيرة بذَّرت دائرةُ الأوقاف، والمراقبُ العام ومن يلوذ به في أموال دائرة الأوقاف بحلب، وامتدت يد هؤلاء إلى الأموال التي فيها من الواردات التي تديرها أمانةً.

ولما كَثُرَ اللغط فيها، وأكثرت الجرائد في كتابة المقالات عنها، عندئذٍ أحبَّت أن تتدارك ذلك الخلل، وتقتصد في هذه الأموال؛ لتقابل بين الواردات والصادرات، فأوعزتْ إلى بعض المنتسبين للعلم الذين عُينوا للَجْنة الأوقاف، في جمادى الأولى من سنة (١٣٤٧هـ الموافقة لسنة ١٩٢٨م) أو قُبيل ذلك، أن تخففَ من

---

(١) ينظر: «مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق» (١٥/ ٨/ ٢٩٩ ـ ٣١٠)، وكانت هذه المحاضرة بتاريخ (١٨ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ ـ ٢٦ تموز ١٩٣٧م).

رواتب أرباب الشعائر من إمامٍ وخطيبٍ ومؤذنٍ وخادمٍ، مع أن المُعَيَّنَ لهم يكادُ لا يَسُدُّ الرَّمَقَ، وأن تقلل من صفوف المدرسة الخسروية، ومن رواتبها ـ على قلتها أيضاً ـ وهذا التقليل ـ ولا ريب ـ يفضي إلى إغلاق المدرسة، والقضاء على العلوم الدينية ـ على ضعفها ـ عند ذلك نهض مدرسو المدرسة، وأرباب الشعائر، وعَقَدُوا عدة اجتماعات في المدرسة الخسروية وغيرها، وأرسلوا عدة برقيات إلى المراقبة العامة، ثم عوَّلوا على انتخاب وفدٍ يرسل إلى بيروت يسعى في عزل هذا العضو الذي كانت له اليد الطولى في هذه الحركة، وكان ذلك، وانتُخِبَ هذا الوفد من ثلاثة هم: الشيخ عمر المرتيني، والشيخ أحمد الزَّرقا، وهذا العاجزُ، وتوجهنا إلى بيروت يوم الأحد الموافق للرابع عشر من جمادى الثانية سنة (١٣٤٧هـ) الموافق للسادس والعشرين من تشرين الثاني سنة (١٩٢٨م)، وبقينا في بيروت عشرين يوماً، وقد وفق المولى تعالى لعزل هذا العضو من اللجنة، وأُبقيتْ رواتبُ أربابِ الشعائرِ وصفوفُ المدرسة ورواتبُها على ما هي عليه، ولله الحمدُ.

٩ ـ تعيينه عضواً في دار الأيتام الإسلامية:

وفي رجب من سنة (١٣٥٠هـ) عينتُ عضواً في دار الأيتام الإسلامية الكائنة في محلة السليمية، وهي تضم بين جدرانها (١٧٠ يتيماً)، وبقيتُ سنة وأشهراً إلى نحو غاية ذي الحجة من سنة (١٣٥١هـ)، ولما جُدِّدَ الانتخابُ سنة (١٣٥٢هـ)، رجوتُ الإخوانَ، واعتذرتُ لهم بكثرة أشغالي، فقبلوا عُذْري، فلم أُنتَخب.

وفي سنة (١٣٥٣هـ) جُدِّدَ الانتخابُ، فانتخبتُ للمرة الثانية، فبقيتُ إلى سنة (١٣٥٦هـ)، ولما جدد الانتخابُ رجوتهم ألّا ينتخبوني، واعتذرتُ لهم بكثرة أشغالي العامة والخاصة، وبينتُ لهم ذلكَ، فَعَذَرُوني.

١٠ ـ تعيينه عضواً في جمعية المعارف النعمانية في الهند:

أرسل لي رئيس هذه الجمعية الشيخ أبو الوفا المدرِّسُ بالمدرسة النظامية في حيدر آباد الدكن في حارة شبلي كنج أن أكون عضواً في جمعية إحياء المعارف

النعمانية (أي: إحياء كتب مذهب أبي حنيفة النعمان، رضي الله عنه) فكتبت له كتاباً مؤرخاً في (١١) جمادى الأولى سنة (١٣٥٤هـ) بالموافقة على ذلك.

١١ ـ تعيينه عضواً في جمعية عاديات حلب:

في (٦) أيار سنة (١٩٣٦م)، الموافق (١٥) صفر سنة (١٣٥٥هـ)، عينت عضواً في جمعية عاديات حلب التي تَرَأَّسَها بعد وفاة الشيخ كامل الغزي الطبيبُ عبدُ الرحمن الكيالي، وعلى أثر ذلك قام معظم أعضائها برحلة إلى مسكنة (بالس) فالرصافة، فالرقة، وبعد حضورنا بأيام كتبت مقالة عن هذه الرحلة نشرت في «مجلة العاديات»، وقد تقدمت الإشارة لذلك.

١٢ ـ تعيينه مديراً للمدارس العلمية:

وفي (١٩) كانون الثاني سنة (١٩٣٧م)، الموافق (٨) ذي الحجة سنة (١٣٥٥هـ)، عينت مديراً للمدارس العلمية الدينية، ومقر إدارتها المدرسة الخسروية، وقد وفقني المولى لإصلاح أمور كثيرة فيها، سآتي على ذكرها، على أنه لو كان هناك دائرة أوقاف تُصغي لصوت الإصلاح، وأمةٌ تعاضد في ذلك، لقمت بأعمال أكثر من ذلك، ولكن إذا عظم المطلوب، قلَّ المساعد، بل بالعكس، هناك فئة تعارضك في كل إصلاح أردته؛ لما فيه من القضاء على مصحلتها الخاصة، وقلَّ في الناس من يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، والغَرضُ ـ كما يقولون ـ مرضٌ، وإلى الله المشتكى.

ثم سعيتُ في استعفائي من المديرية لأسباب يطول شرحها، أهمها المعاكسةُ، وعدمُ المؤازرة التي لاقيتها من يحيى الكيالي وقتئذٍ، فقد تغيرت أحواله وأوضاعه كثيراً عن المرة الأولى لمديريته، التي كانت منذ خمس وعشرين سنة، ولو بسطت ذلك لطال ذيل الكلام، وقال لي بعض محافظي حلب: إن ذلك لكبر سنه، وأدى الحال به إلى إحالته على التقاعد، فاستراح وأراح، ويصدق عليه قول الشاعر:

تولاّها وليسَ لهُ عدوٌّ ... وفارقَها وليسَ لهُ صديقُ

وكلمتُ بعض الأصدقاء، فسعى لدى مدير الأوقاف العام السيد جميل بك الدهان في قبول استقالتي، وذلك في (٧) صفر سنة (١٣٦٤هـ)، الموافق (٢١) كانون الثاني (١٩٤٥م)، فتكون مدة بقائي في مديرية المدارس العلمية ثمان سنين، وأبقى لي راتب المديرية لقاء ساعات زيدت لي في دروسي.

١٣ ـ تعيينه رئيساً لجمعية البر والأخلاق الإسلامية:

وفي غرة صفر من سنة (١٣٥٦هـ)، الموافقة لـ (١١) نيسان سنة (١٩٣٧م)، عينت رئيساً لجمعية البر والأخلاق الإسلامية. وعين أيضاً:

١ ـ الشيخ مصطفى الزرقا، نائباً للرئيس.

٢ ـ الشيخ معروف الدواليبي، أميناً للسر.

٣ ـ الحاج نديم الوفائي، التاجر، أميناً للصندوق.

والباقي، وهم:

١ ـ الشيخ أحمد سراج الدين.

٢ ـ الشيخ محمد بلنكو.

٣ ـ الشيخ أحمد المعود.

٤ ـ المحامي السيد عبد القادر السبسبي.

٥ ـ الطبيب توفيق المصري.

٦ ـ التاجر الحاج أحمد الأسود.

٧ ـ التاجر الحاج صلاح شربجي.

٨ ـ التاجر بكور قضيب البان.

٩ ـ التاجر الحاج عبد الوهاب حمدية.

هؤلاء أعضاء.

وقد قامت الجمعية بأعمال مهمة تضمنتها البيانات التي نَشَرَتْها، ومن أهم

أعمالها: تأسيس قاعة المدرسة الشرفية محلًّا لإلقاء محاضراتها، ومَقَراً لأعضاء إدارتِها.

١٤ ـ ذهابه لدمشق مع وفد كبير من علماء وأطباء وزعماء حلب:

في (٢٨) ربيع الأول سنة (١٣٥٠هـ)، و(٣١) تموز سنة (١٩٣٢م)، انتُدبتُ للذهاب إلى دمشق مع وفد كبير من علماء وأطباء وزعماء حلب، ورافقنا من حماة وحمص وفد منهما بلغ عدد الجميع أزيَدَ من (١٥٠) رجلاً، وذلك لأمور تتعلق بالبلاد السورية، خصوصاً أمور الأوقاف، وهناك دعينا لدار رئيس الجمهورية وقتئذٍ محمد علي بك العابد، وألقيتُ يومئذٍ (١٥) خطبة في مواضيع متعددة، وافقت الحكومة على البعض منها في الحال، والباقي دخل في خبر كان.

١٥ ـ ذهابه أيضاً لدمشق لحضور مؤتمر العلماء:

وانتُدبتُ لحضور مؤتمر العلماء الذي انعقدَ بمدينة دمشق في المدرسة الكاملية التي في البزورية، وكان توجهي مع زمرة من علماء حلب ليلةَ الأحد الموافقة للتاسع من شهر رجب سنة (١٣٥٧م)، والرابع من شهر أيلول سنة (١٩٣٨م)، وفي ليلة الثلاثاء حضرنا مع جمع غفير افتتاح المدرسة المتقدمة الذكر، وافتتاح نادي جمعية العلماء في المدرسة المومأ إليها، وفي يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر رجب والسادس من أيلول بعد الظهر انعقد مؤتمر العلماء، وصار يوالي الجلسات إلى يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من شهر رجب، والتاسع من شهر أيلول، ففيه قبيل صلاة الجمعة اختتم المؤتمرُ، وقُرر في هذه الأيام الأربعة (١٥) قراراً تتعلق بالأوقاف، والقضاء الشرعي، وإصلاح المدارس الدينية، ومستقبلِ طلاب العلوم الدينية، وغير ذلك، وقد نَشَرَتِ الصحف هذه القرارات، وطُبعتْ من قبل المؤتمر على حدة.

وفي مساء الأحد الموافق للسادس عشر من رجب، والحادي عشر من

أيلول، عُدت إلى حلب، وقد ذهب معي في هذه الرحلة ولدي محمد توفيق، وهو في السنة الحاديةَ عشرةَ من عمرِهِ ـ وفقه الله تعالى وأنبتهُ نباتاً حسَناً ـ .

* * *

المبحث الرابع

علاقته بالسياسة والصحافة والمستشرقين

*** المطلب الأول ـ انتسابه لجمعية الاتحاد والترقِّي التركية، وتعيينه عضواً في المعارف، وسعيه لإدخال اللغة العربية في مدارس الحكومة:**

قلت آنفاً: إن آخرَ من قرأتُ عليه من العلماءِ: الفقيهُ الكبيرُ الشيخُ محمد أفندي الزَّرْقَا، وإني لازمته من سنة (١٣٢٢هـ إلى أواخر سنة ١٣٢٧هـ)، ثم تركت الحضورَ، وسببه أنه قبل ذلك بسنتين كان أُعلنَ الدستورُ العثماني في البلاد العثمانية، وهو حادثة تاريخية مهمة أُلِّفَ فيها عدةُ كتبٍ، وأُطْلِقَتْ من ذلك الحين الأفكارُ من عِقَالِها، وقد كان الحابس لها السلطان عبد الحميد خان الثاني، كما هو مُسَطَّرٌ معلومٌ في كثير من الكتب والمجلات والجرائد، ووقتئذٍ هَبَّ الناسُ لإصلاح الفاسد من أمور الدولة العثمانية من أحوالها الإدارية والعلمية، فانتظمتُ وقتئذٍ في «جمعية الاتحاد والترقي» التي كانت تَعْقِدُ اجتماعاتها في ناديها الذي اتَّخَذَتْهُ في الطابق العُلْوي من «خان قورط بك» المشهور، وبلغَ عددُ رجالِ الجمعيةِ من رجال الشهباء، وبعض المأمورين الملكيين والعسكريين نحو (٥٠٠) شخص.

وبعد دخولي بمُدَّةٍ وجيزة رأيتُ أن القابضين على زمامِ الجمعيةِ هم من الأتراكِ المُتَصَلِّبينَ في تركيتهم، فكانت القراراتُ والأوامرُ التي تأتي وقتئذٍ من «سلانيك» مركز جمعية الاتحاد والترقي، وكذلك الخطب التي تلقى في النادي جميعُها بالتركية، فكان الكثيرُ منا؛ لعدم معرفتِهِ بالتركية، أو لإلمامه القليلِ فيها،

لا يَدْري ما يُقَالُ، ولا ما يجري هناك من الأحوال.

دعتني هذه الحالةُ أن أسعى مع بعض إخواني إلى أن قررتِ الهيئةُ الإداريةُ في الجمعية أن تترجمَ هذه القرارات، وأن تُلقي ترجمةَ تلك الخطب بالعربية، بل وحَمَلْنا الجمعيةَ على ترجمة نظامها إلى العربية، وترجمَهُ وقتئذٍ صديقُنا الفاضلُ المرحوم الشيخ محمد الحنفي الذي كان من أعضاء الجمعية وأركانها، ولا تزال تلك الترجمةُ بخطه عندي؛ لأنه أحب أن أمرّ بنظري عليها بعد الترجمة، وقد طُبع هذا النظام في حلب في «المطبعة البهائية»، التي كانت أمام دار الحكومة القديمة، ووُزِّعَ على الأعضاءِ.

وكنت على وقوفٍ تامٍّ من حالة اللغة العربية في المكاتب الابتدائية والرشدية، والمكتب السلطاني الكبير المبني في محلة الجميلية، حيث إنها كانت اسماً بلا جسم، لا عناية بها مطلقاً، فكان يخرج العربي ابن البلاد العربية منها وهو لا يعلم شيئاً منها إلا تلك الكلمات التي يتحدث بها في بيته وبين بني جلدته، وكانت العربية محصورةً بين جدران المدارس الدينية، بل كان العلماءُ في الشهباءِ في القرن الماضي إلى أوائل هذا القرن قليلي العناية بالكتابة، اللهم إلا أفراداً لا يبلغون عددَ أصابعِ الكف، كانوا يعانون شيئاً من الأدب والمحاضرات، والباقون قَصَرُوا معرفتَهم على معرفة قواعد النحو، وعلى الفقه، ووقفوا عند هذا الحد.

وكان في ذلك الوقتِ صديقي السيد نجيب الباقي في وظيفته مفتش المعارف في ولاية حلب، وهو من محبي اللغة العربية، والراغبين في إحيائها، غيرَ أن الوظيفة وقتئذٍ كانت تحول بينه وبين المجاهرة بمطالبة الحكومة في العناية بها وإحيائِها، فسعى (وقد علم مني رغبةً عظيمةً في إحياء هذه اللغةِ بواسطةِ مساعدتي له مساعدةً أدبية في «مدرسة الأهلية»، التي كان افتَتَحها هو قبلَ ذلكَ، وسمَّاها وقتئذٍ: شمسَ المعارف) عند انتخاب أعضاءٍ لمجلس المعارف، في ولاية حلب، في انتخابي إليه، وتم له ما أراد، وعُيِّنْتُ عضواً فيه في شهر ذي القعدة

سنة (١٣٢٨ هجرية).

بعد تعييني أقنعتُ من كان هناك من الأعضاء من أبناءِ العـربِ، كـلٌّ علـى حدة، وثَنَّيْتُ بمن كان هناك من الأعضاء الأتراك، أخص منهم بالذكر حميد بـك نجلَ المرحوم جميل باشا والي حلب، وسعدَ الدين أفندي الذي كان شـيخاً للتكيـة المولوية، ثم طرحت ذلك في المجلس، وبينتُ لهم حالة اللغة العربية في المدارس الابتدائية، ولزومَ النظرِ في هذه القضية الهامَّةِ، واقترحتُ زيارة بعض هذه المـدارسِ للنظر فيما آلتْ إليه حال اللغة فيها، وعجْـزَ ابـنِ الـبلادِ عـن كتابـةِ كتـابٍ بسـيط لوالده، إذا كان في سفر، فقُوبِـلَ اقتراحي بالموافقة، وزرنا وقتئذٍ عدةَ مدارسَ، وأقنعت الأعضاءَ بلزوم الاهتمام باللغة العربيـة لغـةِ أبنـاء هـذه الـبلاد، وأعطـي القرار بالاتفاق بتاريخ (١٦ كانون الأول سنة ١٣٢٦ هجرية).

ومن ذلك الحين تنسمت اللغة العربية في المدارس الابتدائية ريحَ الحياة، وأخذتْ في الانتعاشِ، وصارت العلومُ الدينية تُقرأ فيها باللغـة العربيـة، بعـد أنْ كانت تُقرأ في كتب تركية، وكذلك النحو والصرف.

وألَّفْتُ في ذلك الحين كتاباً مدرسيًّا في العلوم الدينية، دعوتُهُ: «**المطالـب العلية في الدروس الدينية**» القسـم الأول، وقـد طبـع سـنة (١٣٣٠هـ) فـي حلـب، والقسم الثاني، وقد طبع في بيروت بسبب قلة المطابع وقتئذٍ في حلب، وقررت اللجنة العلمية التي كنتُ وقتئذٍ عضواً فيها تدريسَه في المكاتب الابتدائية كما هـو مُحررٌ عليهما.

ولم أقف عند هذا الحد، بل صرت أنا والأديب الفاضل السيد بدر الـدين النعساني نكتبُ المقالاتِ المتعددة في الجرائد؛ لنبين فيها حالة اللغة فـي المدرسـة التجهيزية السلطانية، وإحدى المقالات التي حررها السيد الموماً إليه مطبوعة في دفتري (الكوبيا) وقد نشرت بواسطتي في جريدة الاتحاد العثماني البيروتية، وعلى أثرها تعين السيد المذكور أستاذاً للُّغـة العربيـة فـي المدرسـةِ المـذكورةِ، وبقـي

أستاذاً فيها إلى العام الماضي (١٣٥٧ ـ ١٣٥٨هـ) فأُحيلَ إلى التقاعُدِ.

* * *

*** المطلب الثاني ـ مكاتبته للجرائد:**

في سنة (١٣١٩هـ) أخذت في قراءة الجرائد، وأخص بالذكر منها جريدةَ **«ثمرات الفنون»**، التي كانت تصدر في بيروت، وفي سنة (١٣٢٣هـ) صرتُ أكاتبُها، وأنشرُ فيها بعض المقالات.

وبعد إعلان الدستور العثماني استعاضَ محررُها المرحوم الشيخ أحمد حسن طبارة عنها بجريدة **«الاتحاد العثماني»**، فبقيتُ أكاتبُها إلى أن قُبض على الشيخ أحمد المومأ إليه، وأُخِذَ مع من أُخِذَ إلى «عَالِيهْ» في لبنان، وهناك شُنِقَ مع من شُنِق، وذلك مُسَطَّرٌ في الكتب، معلوم في القضية السورية، وقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ كاتباً حسن الكتابة، دَيِّناً حسن العقيدة، مُخْلِصاً، وقد جره إخلاصه للقضية السورية وحُبُّهُ لإصلاح الشؤون الإسلامية، وحالة الدولة العثمانية إلى الدخول في هذه المعركة حتى أدت به الحال إلى ما ذكرنا. رحمه الله رحمةً واسعة؛ فقد كان لي نِعْمَ الصديقُ.

وكاتبتُ كثيراً **«جريدةَ الحقيقة»**، التي تصدر في بيروت، و**«جريدة البلاغ»** و**«المفيد»** البيروتيتين أيضاً. وكتبتُ عدة مقالاتٍ في جريدة **«صدى الشهباء»** التي كانت تصدر في حلب.

* * *

*** المطلب الثالث ـ اتصاله بالمستشرقين:**

اتصل ـ رحمه الله ـ ببعض المستشرقين المهتمين بالتاريخ والآداب العربية، وذلك بغية إحياء التراث العربي والإسلامي، والاستعلام منهم عن المخطوطات العربية المحفوظة في مكتباتهم ومتاحفهم.

ومن ذلك : المراسلاتُ التي دارت بينه وبين المستشرق الدكتور سالم كرنكوى، ففي بعض هذه المراسلات سأله الأستاذ الطباخ عن تاريخ ابن العديم، فبين له الدكتور كرنكوى أن النسخة الموجودة في المتحف البريطاني مشوهة؛ لتسرب الرطوبة إليها، وقال: وقد كتبت إلى صديقي البروفسور ريتر في القسطنطينية، فسألته أن يفتش في المكاتب هناك: هل فيها نسخ جيدة من «بغية الطلب»؟ ورجائي أنه سيكتب إليكم بخبر وجودها.

وعندما كان الأستاذ الطباخ يتتبع أشعار الصنوبري في «روضياته»، طلب من المستشرق كرنكوى أن يفيده فيما إذا كان يوجد في مكاتب ألمانيا بعض تلك الأشعار، فأجابه الدكتور كرنكوى برسالة مؤرخة بـ (١٣) تشرين الأول، سنة (١٩٣٢م)، ومما جاء فيها: أما أنا، فكنت مشتغلاً بتصحيح كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الريحان البيروني، فوجدت فيه أبياتاً للصنوبري، وهي كما وجدتها في ضمن هذا المكتوب، ولم يكن لي إلى الآن الفرصة للمطالعة: هل هي من الأشعار التي جمعتموها؟ وقد خدمتم الآداب العربية خدمة كبيرة في جمع ما تبدد من شعر هذا الشاعر.

وعندما نشر الأستاذ الطباخ كتاب «الإفصاح عن معاني الصحاح» للوزير عون الدين يحيى بن هبيرة المتوفى سنة (٥٤٠هـ) أهدى المستشرقَ المذكورَ نسخةً منه، فأجابه برسالة مؤرخة بـ (١٢) إيلول، سنة (١٩٢٩م) يثني فيها على عمله، ويشكره على هديته، ويسأله أن يصف له كتاب «صفوة الصفوة».

كما أنه اتصل بمستشرقين آخرين للغاية نفسها؛ من أمثال: د. س. مرجليوث، وكارل سوسهايم مدرس اللغات الإسلامية وتاريخ دول الإسلام بجامعة مورنك، و ل. أ. ماير.

* * *

المبحث الخامس

ترجمة الشيخ محمد الخضري بك[1]

* **المطلب الأول ـ مولده ونسبه ونشأته:**

محمد بن عفيفي الباجوري، أو محمد الخضري بك، المعروف بالشيخ الخضري، وهو شقيق عبدالله الباجوري، ولد بالقاهرة سنة (١٢٨٩هـ ـ ١٨٧٢م)، كانت إقامته في (الزيتون) من ضواحي القاهرة، باحث، وخطيب، وفقيه أصولي، ومؤرخ مصري، وأحد علماء الشريعة والأدب وتاريخ الإسلام.

ولد الشيخ محمد الخضري في بيئة دينية صالحة، فأبوه: الشيخ عفيفي الباجوري من علماء الأزهر كان خطيباً وإماماً لمسجد قاهري بالحلمية، وكان من أنصار بعض الطرق الصوفية، وله شيخ يسمّى: الخضري، فسمى ابنه: (محمد الخضري) تيمناً به، وكان يُظَنّ أن الخضري لقب عائلته، وليس الأمر كذلك، فنحن نعرف أن الأستاذ عبدالله عفيفي الأديب المصري، صاحب كتاب «المرأة العربية» هو شقيق الشيخ الخضري، ولكنه حمل اسم أبيه دون أخيه، وليس معنى ذلك: أن الشيخ دُعِيَ إلى غير والده، ولكنه سُمّيَ باسم شيخ أبيه، واقتصر في التوقيع على اسمه المركّب؛ إذ به اشتهر!!.

وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة لندرك البيئة الصّوفيّة التي نشأ في رِحابها الشيخ، فهي بيئة تقوى وعبادة، وطبيعي أن يشبّ وليدها متّجهاً إلى حفظ القرآن

---

(١) **مصادر الترجمة**: وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي (٣/ ٣٠٦)، ومجلة المقتطف، مصطفى صادق الرافعي (٧٠/ ٥٥٣ ـ ٥٥٧)، و«الأعلام»، الزركلي (٦/ ٢٦٩ ـ ٣٧٠)، و«معجم المؤلفين»، عمر رضا كحالة (١٠/ ٢٩٥)، و«النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»، محمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م)، (١/ ٢٨٣ ـ ٣٠٠).

في الأزهر الشريف، ثم التحق بدار العلوم سنة (١٨٩١م)، وتخرج فيها سنة (١٨٩٥م)، وعُيِّن مُدَرّساً للعربية بمدارس المنصورة، وشبين الكوم، والناصرية، ثم اختير قاضياً بالسودان سنة (١٩٠٢م).

* * *

* المطلب الثاني ـ مناقبه وتلقيه العلم:

عبّر فقيد البيان الإسلامي الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن ذلك أصدق تعبير، حين قال: «إن الذي يريد أن يقول قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالِم المؤرّخ الأديب، يجب أن يرجع بتيّاره إلى منبعه، ليعرف مبلغ انبعاثه، وقوّة جريته، ومدّ عبابه، فما كان الخضري شيئاً قبل أن يتعلّق بمدار ذلك النجم الإنساني العظيم، الذي أهدته السماء إلى الأرض، وسَمَا في أسمائها: «محمد عبده».

لقد أخرجته دار العلوم كما أخرجت الكثيرين، ولكنَّ دارَ علومه الكبرى كانت أخلاقَ الأستاذ الإمام، وشمائلَه وآراءه، وبلاغته وهمّةَ نفسِه، إلّا أنه لا بدّ من رجل واحد يكون هو الواحد الذي يبدأ منه العدد في كل عصر، وأنت إذا تأمّلت الخضري، فاعلم أنك بإزاء معنىً من معاني الشيخ: محمد عبده، على فرق ما بين النفسين، بل أنت من الخضري كأنك ترى الشيخ سارياً في مظهر من مظاهر الزمن».

كانت عادتُه القراءةَ في كتب الأدب والتاريخ والحديث والفقه، وكان أشدَّ ما يكون ولعاً بكتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني، وكتب التواريخ وأصول الفقه، ومع هذا الاطلاع الواسع على الأدب وتاريخه، فقد تبحر في تاريخ الفقه الإسلامي، والأدوار التي مر بها، وتطوره التاريخي، وأهم رجاله من أكابر العلماء المتقنين في علوم القرآن والسنة والفقه.

عَرَفَ الخضري كيف فهم مؤرّخو العرب الأُوَل كتابة التاريخ، فحشدوا من المَرويّات الصادقة والزائفة، إذ همّهم الأوفى يتّجه إلى الرصد لا التحقيق، فمهمّة

المؤرّخ ـ كما فهمها أكثر المؤرخين القدامى ـ هي الإحاطة بكل ما قيل؛ لأنهم كانوا يسجّلون كلّ ما يقعون عليه، وفيه ما تظهر لديهم دلائلُ تكذيبه، ما تتطلّب من المؤرّخ المُعاصر يقظة البصيرة، وسلامة الإدراك، ودقّة التخيّل الصائب للوقائع، كما يعقل أن تكون!، وقد أدرك الشيخ الخضري دقّة مهمته، فتحدّث في مقدمة الجزء الأول من تاريخ المحاضرات الإسلامية عن واجب المؤرّخ حيث قال:

«وكثيرٌ ممّن اشتغلوا بالتاريخ كانت عواطفهم تتحكّم في حوادثه تحكّماً تضيع به الفائدة من دراسة التاريخ، فإن عاطفة الحبّ تجعل كلّ ما ليس بحَسَن حَسَناً، وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة، حتى ما أدّى منها إلى سقوط فاعله وخيبته، وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضدّ ذلك، فتجعل الحَسَن قبيحاً، وتستنبط من الخير شرّاً، ولم يخلص من هذا الشرّ العظيم الذي يطمس معالِم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلّا نفر قليل جدًّا. . .

فلا بدّ أن نجعل أمام أعيننا أنّا ندرس تاريخ أُمم، إن كانت أخطأت في بعض تصرّفاتها، فليس علينا من تَبِعَة ذلك الخطأ شيء، وليس لنا إلّا أن نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المَحَجّة، فإنّ ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثلُ أعمالهم، لذلك: يحتاج دارِس التاريخ إلى سعَة صدر تحتمل كلّ ما يَرِد على تاريخ قومه من نقد، حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسُحُب عاطفتَي الحبّ والبغض».

وبِهَدْيٍ من هذا القول سار المؤلّف في حديثه الجيد عن عصر النبوّة، وعهد الخلافة الراشدة، وزمان الدولة الأموية، ووقائع الدولة العباسية!، ولا بدّ لمَن يتحدث عن هذا المدى الحافل من الزمان والوقائع والشخصيات أن يلمّ بما تختلف حوله الآراء، وتتضارب النظرات، فقد كان للرجل من الأحكام الصائبة ما ضمن لآثاره الذّيوع والسّيرورة، بحيث أصبحت مصدراً هامّاً من مصادر التاريخ الإسلامي، وقد كثرت بعدها مؤلفات الأساتذة الجامعيين في كلّيّات الشرق العربي،

دون أن تُزاحِمها على التقدم والصدارة، بل إن أكثر مَن خاضوا مَخاض الأستاذ الخضري يحرصون في معظم صحائفهم على الائتناس برأي الشيخ الكبير.

* * *

* المطلب الثالث ـ حليته وأخلاقه:

كان الشيخ الخضري قريباً إلى القِصَر، أسمر اللون، خفيف اللحية، معمماً بعمامة بسيطة، ويلبس اللباس الأزهري، منير الوجه، وقوراً في مجلسه وحديثه ومشيته، أشاد طلابه بأخلاقه وحرصه وذكائه ولباقته وإجادته للغة العربية.

ولعل لنشأة الخضري الدينية أثراً كبيراً في تسامحه لدى بعض الأحكام، ومحاولة تجنّبه كثيراً من المسائل الشائكة، حول رجال الصّدر الأُوَل من البعثة المحمدية بالذات، على نحو لا نعرفه الآن، بعد أن أخذ البحث التاريخي عدّته من الاستيعاب والتدقيق والجرأة والتفنيد!، ويخيّل إليّ: أن طبيعة الزمن الذي أملى فيه الشيخ محاضراته كانت تلزم المؤرّخ بشغف مُفرِط بمواقف السّالفين من رجال العرب والإسلام؛ إذ إن مَعاوِل الناقدين من باحثي الغرب قد أحدثت اتجاهاً عكسيًّا لدى أمثال الشيخ: الخضري، فتجنّبوا إثارة الغُبار حول بعض الأحداث!.

وهذا حديث مَن يريد أن يكون كتابه مجال عبرة واقتداء ومُفاخرة بالسّلف؛ بعثاً للهِمَم، وإيقاداً للعزمات.

* * *

* المطلب الرابع ـ المناصب التي تقلدها:

عُيِّنَ مُدَرّساً للعربية بمدارس المنصورة، وشبين الكوم، والناصرية، ثم اختير قاضياً شرعيًّا في الخرطوم بالسودان سنة (١٩٠٢م)، فأستاذاً بكلية غوردن سنة (١٩٠٤م)، فمدرساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة مدة (١٢) سنة، وذلك سنة (١٩٠٧م)، وظل بها إلى سنة (١٩٢٠م)، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة

المصرية، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي، فمفتشاً بوزارة المعارف المصرية، وما زال مفتّشاً إلى أن لَقِيَ ربّه سنة ١٩٢٧، عن خمسة وخمسين عاماً.

* * *

*** المطلب الخامس ـ آثاره ومؤلفاته:**

الخضري كاتب من أفراد الكُتَّاب، معروفٌ بالمتانة والدقة، وجمالِ الأسلوب وقوة الحجة، ويمتاز بحدَّة ذهنه، وحبه للإصلاح، وبغضه للجمود على كل قديم في العلم أو الدين، وله في الاجتماعيات والمباحث الدينية من الرسائل ما يسمو به إلى منزلة المصلحين. ومن أهم مؤلفاته:

١ ـ **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**: (وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وهو أول كتاب ألفه ـ رحمه الله ـ).

كان أول كتاب ألّفه الأستاذ الخضري هو: «نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين»، وعنوانه مسجوع كما يرى القارئ؛ إذ يمثّل تفكيرَ مُدرّس مبتدئ تخرّج حديثاً في دار العلوم، ثم عُيّن بالمدرسة الصناعية بالمنصورة، فلم يتقوقع في مدرسته، بل اتصل بالجمهور الثقافي في المدينة، وحاضر وناظر، ودارت له شُهرة بين المثقفين، جعلت قاضي المحكمة الأهلية يقترح عليه: أن يؤلّف في سيرة الرسول كتاباً يقرّبها من الناشئة وذوي التعليم المدني، ممّن لا يصبرون على قراءة صُحُف القدامى من المؤرّخين!.

ويخيّل إليَّ أن فكرة تذليل الكتب القديمة بمحاولة تأليف عصري يقدّم خلاصتها السّهلة، قد نجمت لدى الشيخ منذ عزم على تأليف نور اليقين، فأكبّ على وضع ملخّص سهل لسِيرة الرسول، ولم يكن من همّه أن يناقش الحوادث، ويعلّل النتائج، ويصحّح المَرويّات، بل إن شعور المؤمن بضرورة تقريب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كما رَوَتها كتب الثقات قد صرفه عمّا سوى السّرد المتتابع في سهولة وإيمان.

وقد أخذ بروايات الكتب القديمة كما جاءت، وأفاض فيما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من معجزات، دون أن يحاول دعمها بحُجَج العلم والمنطق، وكأنه يرى: أن المعجزة في معناها الأول عمل خارق يعجز العقل أن يقف على سِرّه، فمحاولةُ تعليله بتفسير منطقي مما يخرج به عن معنى المعجزة الخارقة إلى حدث معقول تلتمس له المبرّرات.

وقد رزق كتاب: «نور اليقين» حظوة بالغة، حيث تعدّدت طبعاته في حياة صاحبه، وبعد وفاته إلى الآن، حتى قاربت العشرين، ونحن نحمد له أن نأى عن مبالغات سابِقِيه، ممّن يسجّلون كل غريبة، كما تخفّف من حذلقة بعض المحلّلين، ممّن يهمّهم أن يبرزوا شخصياتهم بالتعليل المتمحّل، والتفسير المغتصب، وكأنهم لا يعنون بتوضيح الحقائق قدر ما يعنون بإظهار براعاتهم الكتابية!!.

٢ ـ إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء: ثم أعقب الخضري كتاب: نور اليقين بمؤلّف عن الخلفاء الراشدين دعاه: «إتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء»، سلك فيه مسلكه السّلفي من عرض المرويات المأثورة!، دون أن يتعرّض إلى نقد بعض الحوادث والأشخاص، بل آثر ألّا يحكم بشيء في الخلاف بها، وهو مسلك نعرفه لدى المُحافظين ممّن يعزّ عليهم أن تكون سِيَر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع النقد والتجريح!، ولكنه مع ذلك شيء وكتابة التاريخ شيء آخر، وقد تخلّى الأستاذ عن خطّته المُسالِمة نوعاً ما فيما بعد ذلك من صحائف التاريخ.

لقد كان «نور اليقين»، و«إتمام الوفاء» فجراً صادقاً لبحوث تاريخية هامّة، اضطلع بها الأستاذ عن جدارة واستحقاق؛ إذ أُسند إليه منصبُ أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، فعكف على تمحيص الكتب القديمة عكوف المخلص الدؤوب، وكانت مهمته من المشقّة والعُسْر بحيث تتطلّب الجَلَد المستميت، والسّعيَ الحثيث.

٣ ـ تاريخ الأمم الإسلامية من محاضرات الجامعة المصرية: ويقع في جزأين:

الجزء الأول: يشتمل على تاريخ البعثة النبوية إلى الدولة الأموية على عهد مروان.

إذ تحدّث الشيخ بإتقان عن الإسلام، وعن النّظم الاجتماعية والدينية كما سنّها القرآن، ثم عن المعاملات والحدود والأسرة والخلافة والبيعة ونظام الحكم. . . ، وهي أمور هامّة لا بدّ أن تكون مهضومة للمؤرخ الإسلامي الذي يتصدّر لكتابة التاريخ عن خِبرة واستعداد.

ونحن لو تجاوزنا عصرَ الصحابة ومشيخة التابعين نجد للأستاذ شخصيته القوية فيما تحدّث به عن عصر الفتوح الإسلامية، أيام الدولة المروانية، كما نلمس استشفافه البصير؛ إذ يتصدّى لتعليل الهزّات الثورية، وما أعقبها من سقوط دولة بني أميّة، مُفصّلاً بواعثَ هذا الانهيار تفصيلاً كاشفاً، هذا إلى حديثه المُلِمّ بالخَراج، والقضاء، والجيش، والإدارة، مما يعتبر بالنسبة إلى الشيخ الخضري مجال سَبْق وتجديد؛ إذ إنه كان كثيراً ما يتّكئ على نفسه، دون استشارة شاملة لمراجع الاستشراق.

وقد كان تاريخ الخضري للأمويين تمريناً دقيقاً للبحث التاريخي الكاشف، فجاءت محاضراته العباسية أصلبَ عوداً على النقد، وأكثر إشعاعاً على الحقائق، والعصرُ العباسي بزمنه الطويل مجالٌ للكلام المتشعّب عن دولٍ وممالكَ كثيرة، قد انبتت عن الدولة، وأسّست حضارات مستقلة، أو تابعة تبعاً اسميًّا مظهريًّا، ولكن الشيخ قد اكتفى من ذلك بما يتحتّم الإلمامُ به على كل متطلّع إلى معرفة هذا العهد.

والجزء الثاني: في الكلام عن الدولة العباسية: وفيه تاريخ العلويين، والأتابكة، وإغارة المغول والتتار.

وكذلك حديث الخلافة والقضاء، والخَراج والصدقات والعُشُور، والانتخاب وولاية العهد والبيعة. ثم ما ينحو هذا النحو في تاريخ بني العباس مما يرجع فيه المؤلّف إلى أقيسة شرعيّة وأصول فقهيّة، قد ألمّ بها عن دراسة شاملة مستوفاة.

وقد كان الشيخ الخضري دقيقاً في مسلكه حين قصر الحديث على الناحية السياسية، وأعلن في مقدمة المحاضرات العباسية قوله: «وقد تركت تاريخها العلمي لما رأيت من جَعْلِ ذلك في محاضرات خاصّة، تنتظم تاريخَ الإسلام العلميَّ؛ لارتباط بعضه ببعض، ولعدم اتّباع الحركة العلمية لقوّة بني العباس السياسية؛ فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد؛ لأن الخلفاء لم يكن لهم ـ إذ ذاك ـ إلّا الاسم، ومع ذلك: فقد كانت الحركة العلمية قوية، وإنّي أَعِدُ قُرّاء كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية، وأرجو من الله التوفيق. اهـ».

ولا ندري كيف استطاع الشيخ أن يقدّم خُلاصاتٍ موجزةً دقيقةً لحركات العلويين، والقرامطة، والروم، والبويهيين، والصليبيين، والسلجوقيين، والتتار، والمغول! وكلّ حركة واحدة من هذه الحركات العواصف تتطلّب كتاباً ذا أجزاء!.

وإذا كانت طبعات المحاضرات قد تعدّدت على ممرّ السنين، فإن ذلك يدلّ على أن القارئ العربي كان في حاجة ماسّة إلى كتاب تاريخي، يقدّم الخلاصة الوافية لعصور العهود الماضية، فحين قام الشيخ بذلك أشبع جوعاً، ونقع غلّة!.

٤ ـ **تاريخ التشريع الإسلامي**: أما تأريخ التشريع في كتاب متسلسل يوضح أدواره، ويرسم تيّاراته، فذلك ما فتح الله به على الشيخ دون سابقة، وقد رتّب حديثه وفق العصور التاريخية، فتحدّث عن التشريع في عصر النبوّة، ثم في عصر الصحابة، ثم في العصور المتتالية حتى مطلع القرن العشرين!!.

وقد قال الشيخ عن منهجه ما نصّه: «يتردد الكاتب لتاريخ الفقه والفقهاء بين أن يجعله مبنيّاً على العصور المتمايزة، وأن يبنيه على أشخاص المجتهدين تبعاً

لاختلاف طوابعهم النفسية، ولكن نظرة واحدة جعلتنا نرجّح الوجه الأول، وهو بناء ذلك التاريخ على العصور المتمايزة؛ لأنها أقوى وأعمّ أثراً، وأما نفسيات الفقهاء، فسيتّضح أنها لم تكن على اختلاف حقيقي، ولا سيما مَن كانوا منهم في عصر واحد».

ونظام التاريخ العلمي أو الأدبي وَفْقَ العصور السياسية كان موضع المناقشة لدى كثيرٍ من الناقدين؛ لأن التطوّر الأدبي أو الثقافي لا يسير مُحاذياً للعصر العباسي، حتى يحدّد به.

٥ ـ الدروس التاريخية الإسلامية: إن الأستاذ الخضري قد أثبت عمليّاً فشل الذين يدرسون تاريخ الإسلام دون إلمام بأصول الشريعة، وليسوا جميعاً من ذوي الاستشراق الاستعماري، بل إن فيهم مسلمين فهموا التاريخ الإسلامي على أنه حروب وأحداث، وسقوط وارتفاع؛ بحيث يصعب عليك أن تلمس لدى كثيرٍ منهم وعياً بصيراً بالإسلام.

ولعلّ أحدهم حين يترجم الآية القرآنية من مصادرها الأجنبية يُكابد رهقاً في الرجوع إلى النص القرآني من كتاب الله! . وقد رأينا من هؤلاء مَن نسأل الله لهم التوفيق في مهمتهم الشّاقّة، وقد أصبحوا أساتذة التاريخ في أرقى الكليّات! .

٦ ـ أصول الفقه: على أن روح الفقيه الأصولي لم تترك الشيخ في بحوثه الأدبية، ومقالاته الصّحفية، فأنت إذا قرأت شيئاً من ذلك للشيخ في أُمّهات الصّحف والمجلاّت، وجدت عقل العالم يملك زمام الأديب، فأنت منه أمام كاتب عالِم، مهما جرى الحديث عن الأدب والاجتماع، وقد كان الرجل معتزّاً بموهبة الإقناع البياني لديه، فحاضَرَ وناظَرَ، وملأ الصّحف كتابةً وبحثاً؛ بحيث لم تكن تدور مشكلة دينية، أو أدبية، أو اجتماعية، إلّا كان في طليعة المتحدّثين في المحافِل، والكاتبين في الجرائد، فاشرأبّت إليه الأعناق في ترحيب وإكبار.

يقول الشيخ: كُلِّفْتُ أن أُملي دروساً في أصول الفقه على طلبة كلية غوردن،

الذين يُرَبَّون ليكونوا قضاةً بمحاكم السودان الشرعيةِ، فبذلت الجهد في أن أجعل ما أُمليه عليهم سهل العبارة، واضح المعنى، ورأيت أن لا فائدة من إكثار الموضوعات مع استغلاق الألفاظ، فكنت أختار لهم المسائل معتمداً على أصول البزدوي، وشروح ابن الحاجب، وتنقيح الأصول، وشروح الأسنوي للمنهاج.

وصادف بعد ذلك أن زارنا الأستاذ الإمام الشيخ: **محمد عبده** ـ عليه رحمة الله ـ، فأحببت أن أعرض عليه ما كتبته ليكون عندي شيء من الاطمئنان، فعرضته عليه، فقرأ كثيراً منه، وناقش الطلاب في بعض مسائله، وأثنى على ما كتبته خيراً، ولكنه أشار عليّ أن أُطالع كتاب «الموافقات» للشاطبي، وأمزج ما أُملي بشيء منه؛ ليكون في ذلك لفتُ نظر لطلاب هذا العلم إلى معرفة أسرار التشريع الإسلامي، فاستحضرت هذا الكتاب، وأخذت أطالعه مرّات، حتى ثبت في نفسي طريقة الرجل، وجعلت آخذ منه الفكرة بعد الفكرة؛ لأضعَها بين ما آخذه من كتب الأصول، حتى جاء بحمد الله ما أمليتُه وَفْقَ مرامي، وعلى قدر حاجة الطلاّب في تلك البلاد النائية... إلخ.

٧ ـ **محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتابُ «في الشعر الجاهلي» لطه حسين**: وعندما صدر كتاب «الشعر الجاهلي»: كان الخضري أسبقَ ناقِديه، وقد دَعَا إلى محاضرة بالجامعة المصرية، حيث أُلقِيَت فصول الكتاب على الطلاب، ولكن القائمين على الجامعة قد هالَهم أن تندحر بحوثُ الأساتذة بصَولاتِ أُناسٍ تعُدّهم غُرباءَ عن حرمها الأمين، فمنعوا المُحاضِر عن الإلقاء، واضطر الشيخ أن يُصدِر نقده في مؤلَّف لطيفٍ خاصّ!!.

٨ ـ **مهذب الأغاني**: هذا، ولا بدّ أن نلمّ بصنيع الشيخ الهائل بكتاب الأغاني؛ فقد رأى أن يقوم على تهذيبه وتوضيحه، فقضى خمسةَ عشرَ عاماً في إخراج المهذّب بريئاً من مآخذِ أصله؛ إذ إن مؤلِّفه لم يرتّب شعراءه ومُغنّيه، بل كتبه كما اتّفق، كما بَتَرَ كثيراً من القصائد الرائعة فلم تُستكمَل، ثم ترك الضبط

والتفسير، فمُنِيَ الكتاب بتحريف كثير، وزاد، فترخّص في ذِكْر ألوان من المجون لا تُربّي خلقاً أو تُحيي عاطفةً، فبادر الشيخ إلى تلافي ذلك كله، وتقدّم بأجزاء المهذّب وقد بلغت تسعة كاملة إلى القرّاء، تشهد بما عانى من بحث، وتكبّد من مَشاقّ.

لكن الدكتور طه حسين: قد انتقد تهذيب الأغاني بجريدة السياسة، ورآه تشويهاً لصنيع مؤلّف قديم، وقد كان على الشيخ ـ في رأي طه حسين ـ أن يترك أبا الفرج وما صنع، ثم يؤلّف كتاباً أدبيًّا يحمل اسمه، وينجو من سَقطات صاحبه، وأفاض الدكتور في نحو ذلك.

وقد ردّ عليه الأستاذ ردّاً حاسماً، وفيه يقول مُخاطباً الدكتور: «أَلِفْتُ الأدبَ العربيَّ مبدّدَ الشّمل فرتّبتُه، ووضعتُ كلَّ درّة بجانب أُختها، وكلّ إِلْفٍ بجانب أليفه، فإذا أراد القارئ أن يقرأ ما تقرّ به نفسه من شِعْر عصر، أو شِعْر قبيلة بعينها، كان ذلك ميسوراً، وهذه ضالّة تنشدها أنت بما تُتحِف الجمهور به في صحيفتك الأدبية، وجدتُ تحريفاً كثيراً يُضِلّ الشّادي، ويُتعِب العالِم، وقد أحسستَ أنت بأثره، فبذلتُ من الجهد ما اللهُ به عليم في إصلاح ذلك الفساد.

وجدتُ نقصاً في فاخر الشعر وجيّده، كما يصفه أبو الفرج، فأتممتُ ذلك النقص لِما توقّعت من جدوى ذلك على طلاب الآداب.

وجدتُ نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره، فاحتملت عبء ذلك كله، وأزَلْتُ عَناءً كان يشعر به أمثالي من قُرّاء الأغاني، وقد تلقّيت كتباً كثيرةً تزيد من هذا الضبط وهذا التفسير، وسأكون عند هذه الرغبة فيما أستقبل من الأجزاء إن شاء الله.

أما ما نقصته منه: فلم يَعْدُ إحدى اثنتين: إما فُحْشٌ صدّ عن الأغاني وجوهَ كثيرٍ من أهل الأدب، كانوا يشكون ذلك منه، ومن أكثر كتب الأدب العربي، وإني معهم في ذلك... وإما أشياء قلت عنها: لا تُفيد أدباً، ولا تُرقّي فكراً».

ولكن الدكتور قد أصرّ على رأيه واهِماً أن هذا العمل تشويه للأغاني،

ومقطع الردّ على ذلك أن كتاب الأغاني لم يُفقَد من الوجود، حتى يشوّهه الخضري في مهذّبه، ولكنَّ كتابَ أبي الفرج موجود لمَن يرغب في قراءته، وكتابُ المهذّب انتقاء سديد لرجل يقدّر مهمّته!، فهل مَحَقَ الشيخ نُسَخ الكتاب محقاً، وبدّلها تبديلاً آخر بكتابه، ثم أطلق عليه كتاب الأغاني؛ ليُوهِم الناس أنه يقدّم نِتاج أبي الفرج؟ لم يفعل الشيخ سوى أن هذّب ما وجده في حاجة إلى تهذيب، ثم ترك للقرّاء أن يختاروا ما يشاؤون!.

على أن الدكتور قد رجع عن رأيه فيما أعتقد حين سمح لنفسه أن يقوم على تحقيق كتاب: تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، فهو اختصار آخر لكتاب أبي الفرج.

والدكتور حين يُقبِل على تقديمه وتحقيقه لا يعتقد أنه تشويه!، لكنه عَدَلَ عمليّاً بذلك عن رأيه في المهذّب، بعد تأمّل وتحقيق.

٩ ـ **الغزالي: ترجمته وتعاليمه وآراؤه**: نُشر تباعاً في المجلد (٣٤) من مجلة المقتطف.

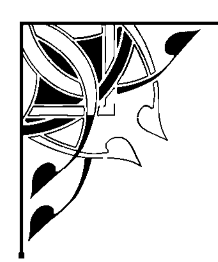
١٠ ـ وقد حكى الرافعي في مقاله عن الشيخ: أن للخضري كتاباً في جزأين كبيرين عن **الأدب المصري**، لم يُقَدّر له أن يرى الضياء!! ولو بُذِلَت الهِمَمُ المخلصة في البحث عن أصوله، لاستفاد الناس بخيره الجزيل، ولكن المخطوطات المعاصرة تلحق بأخواتها العتيقة دون اهتمام!، وإلّا فأين شرحُ السيد المرصفي لكتاب العقد الفريد، وقد فعل به ما فعل بالكامل، فجاء خزانةَ أدبٍ ولغة وعلم؟! وأين تأريخ الشيخ السكندري للأدب العربي؟ وقد تركه مخطوطاً في ألفين من الصفحات!، أين ذلك كلُّه لأساتذتنا المُعاصرين، وتلاميذُهم الآن ملء الأبصار والأسماع؟!.

أما بعد: فقد أردت أن أتحدّث عن جهاد الخضري في اليقظة الفكرية الإسلامية، فتحدّثت عن مؤلّفاته أبلغ الحديث وهي ـ بَعْدُ ـ شاهِدُ عدل لا يقبل التجريح.

* **المطلب السادس ـ وفاته:**

توفي ـ رحمه الله ـ ودفن بالقاهرة سنة (١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م).

❑ ❑ ❑




الفَصْلُ الثَّاني
دراسة الكتاب

المبحث الأوَّل
اسم الكتاب

جاء التصريح بعنوان الكتاب على صفحة الغلاف للنسخة الأصل التي كتبها المؤلف بخطه، ونصه: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

وجاء عنوان الكتاب على صفحة الغلاف للنسخة (ب) التي كتبها محمد أسعد طلس ـ تلميذ المؤلف ـ كما يلي: «كتاب الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

وقد ذكر الشيخ محمد راغب الطباخ ـ رحمه الله ـ في سياق ترجمته لنفسه عنوان هذا الكتاب، فقال: «الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين».

ونجد أن هذه العناوين متشابهة، إلا أن العنوان الذي كتبه المؤلف بخطه على غلاف النسخة الخطية يزيد على غيره بلفظ: «كتاب»، وهذا الذي سنعتمده.

* * *

المبحث الثَّاني
منهج المؤلف

إن كتاب «الفتح المبين» هو عبارة عن شرح على كتاب «نور اليقين»، ولذلك سنتناول فيما يلي منهجَ الماتن في «نور اليقين»، ومنهجَ الشارح في «الفتح المبين»:

أ ـ منهج العلامة الخضري في «نور اليقين»:

بدأ الخضري ـ رحمه الله ـ كتابه بمقدمة ذكر فيها ما دفعه إلى تأليف هذا

الكتاب، وهو ما رآه من حاجةٍ إلى كتابٍ متخصصٍ في السيرة النبوية، بعيدٍ عن التطويل والحشو، ينتفع به عامة المسلمين وخاصتهم.

ثم افتتح كتابه بذكر النسب الشريف لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ يتناول أهم الأحداث التي مرت في سيرة حياته عليه الصلاة والسلام، سواءٌ التي كانت قبل البعثة، أم بعدها، إلى أن وصل إلى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ووفاته.

ثم تناول شمائله صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تميَّز هذا الكتاب بسمات كثيرة جعلته ينتشر بين الناس بمختلف تخصصاتهم وتوجهاتهم، فهو كما وصفه مؤلفه في مقدمته: فجاء بحمد الله، سهل المنال، عذب المورد، تنتفع به العامَّة، وترجع إليه الخاصَّة.

ونعرض فيما يلي لأهمِّ ما تميَّز به هذا الكتاب:

* **لغته وأسلوبه**: حيث تميزت لغة الكتاب بالسهولة واليسر، مع تجنُّب الإغراب في الألفاظ، وشرح ما يحتاج إلى بيان وتوضيح.

* **الترتيب الزمني للمواضيع**: وذلك أن القارئ للكتاب يسير مع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خطوةً تلو خطوة، فينتقل في قراءة سيرته عليه الصلاة والسلام من حين ولادته إلى وفاته، مستعرضاً بذلك أهم ما مرَّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحداث.

* **وضع العناوين المناسبة للأحداث المختلفة**: قام الشيخ الخضري ـ رحمه الله تعالى ـ بوضع عناوين لكلِّ حدث من الحوادث، أو موضوع من المواضيع في السيرة النبوية، وكذلك وضع عناوين لكل سنة من السنوات التي تلي هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وذلك لكي يسهل على القارئ الرجوع للموضوع الذي يريده أو السنة التي تريد التعرُّف على أحداثها.

* **تحليل الأحداث**: لم يكتفِ الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ بعرض أحداث السيرة، بل قام بتحليل بعض هذه الأحداث، وذلك لتنبيه القارئ إلى الحِكَم والدروس التي حوتها سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

* **الشمائل والمعجزات**: لم يغفل الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ عن الكلام على شمائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته الدالة على صدق نبوته، وخصَّصَ لذلك مبحثين مستقلين في آخر الكتاب.

ب ـ منهج العلامة الطباخ في كتابه «الفتح المبين»:

قام الشيخ الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ في حاشيته بالوقوف على ما يحتاج إليه قارئُ كتاب «نور اليقين»، فنقل عن كثير من المصادر والمراجع ما يزيد عن سبعين مصدراً إضافيًّا لما ذكره العلامة الخضري بك في سبيل ذلك، مما جعل هذه الحاشية مغنية لقارئها عن الرجوح لتلك المراجع.

واشتمل هذا الكتاب على النقاط الآتية:

أولاً: ضبط غريب الألفاظ وشرحها، وسواء في ذلك ما يقع في المتن «نور اليقين»، أو يأتي في سياق الروايات والأحاديث والأقوال التي يسوقها الشارح في حاشيته، وذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة، وكتب غريب الحديث وشروحه.

فمن ذلك ما جاء في «نور اليقين»: **وكفله جدُّه عبد المطلب**[1].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (وكفله)**: كفل من باب (قتل)، والكافل: هو الذي يعول إنساناً وينفق عليه. اهـ. «مصباح»[2].

وقال الخضري في «نور اليقين»: **وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش**[3].

(١) انظر (١/ ١١٧) من الكتاب.

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: كفل).

(٣) انظر (١/ ١٢٣) من الكتاب.

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (والأحابيش)**: في «القاموس»: حُبْشِيٌّ: جبل بأسفل مكة، ومنه: أحابيش قريش؛ لأنهم تحالفوا بالله أنهم لَيَدٌ على غيرهم ما سجا ليل ووضح نهار، وما رسا حُبْشيٌّ. اهـ[1]؛ أي: ما بقي هذا الجبل.

ثانياً: تفسير الآيات وبيان سبب نزولها، وذلك بالرجوع إلى كتب تفسير القرآن، وأسباب النزول.

ثالثاً: ذكر الأدلة والشواهد على المواضيع التي تناولها الخضري في كتابه.

رابعاً: ذكر الأحاديث والروايات التي توضح الأحداث، مع إتمام بعض الروايات التي ذكرت مختصرة، وتخريج بعض الأحاديث، وذلك بالرجوع إلى كتب الحديث والسير.

ومن ذلك ما جاء في «نور اليقين»: **وأرسلت إليه تخطبه لنفسها**[2].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (وأرسلت إليه تخطبه لنفسها)**: كان الرسول نفيسة بنت منية رضي الله عنها.

روي عنها أنها قالت: أرسلتني خديجة دسيساً ـ أي خفية ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقالت: يا محمد! ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قلت: فإن كفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال والشرف والكمال، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: هي خديجة، قال[3]: «وكيف لي بذلك؟» قلت: علَيَّ[4]، [قال][5]: «وأنا أفعل»،

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حبش).

(٢) انظر (١/ ١٣٠) من الكتاب.

(٣) في الأصل: «قلت»، والتصويب من «الطبقات الكبرى» و«السيرة النبوية» لدحلان.

(٤) في الأصل: «بلى»، والتصويب من «الطبقات الكبرى».

(٥) ما بين معكوفتين من «الطبقات الكبرى».

فذهبتُ إليها فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت الساعة كذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها[1].

خامساً: تصحيح بعض الأوهام التي وقعت في كتاب «نور اليقين».

جاء في «نور اليقين»: **لم يرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً**[2].

فقال العلامة الطباخ: **قوله: (لم يرث عليه السلام...) إلخ**: هذا سهو، والصواب: أنه ورث خمساً من الإبل، وقطعة من غنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشية حاضنته، كما في «السيرة الحلبية»[3].

سادساً: التعريف ببعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم في «نور اليقين»، أو ذكروا بكناهم فقط، سواء أكانوا من الصحابة، أم من غيرهم، وذلك بالرجوع إلى كتب السير والتراجم.

سابعاً: محاججة أهل الكتاب والمستشرقين ومن سار في ركابهم، وذلك بما حوته هذه الحاشية من إثبات نبوة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من كتب أهل الكتاب، والردِّ على بعض شبهات المستشرقين أو مَن يسير في ركابهم؛ كالرد على مَن يقول: محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء بالسيف وسفك الدماء، والرد على دعاة خلع الحجاب، ونحو ذلك.

ثامناً: تحليل الأحداث: لم يكتفِ العلامة الطباخ رحمه الله بعرض أحداث السيرة، بل قام بتحليل بعض هذه الأحداث، وذلك لتنبيه القارئ إلى الحِكَم والدروس التي حوتها سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وفيما يتعلَّق بلغة هذه الحاشية وأسلوب الشارح فيها؛ فقد تميزت كمتنها

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) عن نفيسة بنت منية رضي الله عنها.

(٢) انظر (١/ ١٣٩) من الكتاب.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٨٥).

بالسهولة واليسر، والقرب من العامة والخاصة، ولعلَّنا لا نبالغ إنْ قلنا: إن كتاب «الفتح المبين» مع متنه «نور اليقين» هو من أفضل ما أُلِّف في السيرة النبوية في عصرنا الحديث، بما حوياه من مميزات كثيرة تقدَّم الإشارة إلى أهمها.

إضافة إلى ذلك فإن كتاب «الفتح المبين» هو كتاب منهجي ومدرسي، كان يدرِّسه العلامة الطباخ على مدى سنين عدة في المدرسة الخسروية بحلب.

* * *

المبحث الثالث
موارد المؤلف

أ ـ موارد كتاب «نور اليقين»:

ذكر الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ أسماء المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في تصنيف كتابه، وهي سبعة كتب، فقال في مقدمة كتابه: وقد كان موردِي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنَّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدَّ من تفهيم العبارات، فكان يساعدني: «الشفا» للقاضي عياض، و«السيرة الحلبية»، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي.

ب ـ موارد كتاب «الفتح المبين»:

تنوعت المصادر والمراجع التي اعتمد عليها العلامة الطباخ ـ رحمه الله تعالى ـ في حاشيته تبعاً لتنوع المواضيع التي يُعلِّق عليها؛ فنجده ينقل عن كتب تفسير القرآن، وكتب الحديث، وشروحه، وكتب غريب الحديث، والفقه، ومعاجم اللغة، وكتب السير والتراجم، وغيرها، وهذا يدلُّ على سعة علم المؤلف، ومعرفته الواسعة بالمكتبة الإسلامية، وأذكر فيما يلي أهم تلك المصادر التي نقل عنها:

*** كتب العقائد وعلم الكلام:**

«هداية الحيارى» لابن القيم (ت: ٧٥١هـ).

و«المواقف» للإيجي (ت: ٧٥٦هـ).

و«شرح العقائد النسفية» للتفتازاني (ت: ٧٩٣هـ).

و«إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (ت: ١٣٠٨هـ).

*** كتب تفسير القرآن:**

«جامع البيان» للطَّبري (ت: ٣١٠هـ).

و«أسباب النزول» للواحدي (ت: ٤٦٨هـ).

و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي (ت: ٦٨٥هـ).

و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للنسفي (ت: ٧١٠هـ).

و«لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (ت: ٧٤١هـ).

و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ).

*** كتب الحديث:**

وتشمل الكتب الستة؛ الصحيحين، والسنن الأربعة، بالإضافة إلى كتب المسانيد، والمعاجم، والأجزاء الحديثية.

*** كتب شروح الحديث وغريبها:**

«النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير الجزري (ت: ٦٠٦هـ).

و«شرح صحيح مسلم» لمحيي الدين النووي (ت: ٦٧٦هـ).

و«فتح الباري» لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ).

و«عمدة القاري» للعيني (ت: ٨٥٥هـ).

و«فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوي (ت: ١٢٢٧هـ).

*** كتب الفقه:**

«الهداية شرح البداية» للمرغيناني (ت: ٥٩٣هـ).

و«بداية المجتهد» لابن رشد (ت: ٥٩٥هـ).

و«حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ).

و«حاشية الطحطاوي» (ت: ١٢٣١هـ)

* **كتب السيرة النبوية والشمائل:**

«سيرة ابن إسحاق» (ت: ١٥١هـ).

و«السيرة النبوية» لابن هشام (ت: ٢١٣هـ).

و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (ت: ٢٣٠هـ).

و«شمائل النبي صلى الله عليه وسلم» للترمذي (ت: ٢٧٩هـ).

و«أعلام النبوة» للماوردي (ت: ٤٥٠هـ).

و«دلائل النبوة» للبيهقي (ت: ٤٥٨هـ).

و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ).

و«الروض الأنف» للسهيلي (ت: ٥٨١هـ).

و«الرياض النضرة» لمحب الدين الطبري (ت: ٦٩٤هـ).

و«السيرة النبوية» للدمياطي (ت: ٧٠٥هـ).

و«المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (ت: ٧٣٢هـ).

و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ).

و«أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» للسيوطي (ت: ٩١١هـ).

و«الخصائص الكبرى» للسيوطي (ت: ٩١١هـ).

و«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي (ت: ٩١١هـ).

و«المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني (ت: ٩٢٣هـ).

و«سبل الهدى والرشاد» للصالحي (ت: ٩٤٢هـ).

و«المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ت: ٩٧٤هـ).

و«إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» لنور الدين الحلبي (ت: ١٠٤٤هـ).

و«نسيم الرياض» للخفاجي (ت: ١٠٦٩هـ).

و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (ت: ١٣٠٤هـ).

*** كتب التزكية والأخلاق:**

«أدب الدين والدنيا» للماوردي (ت: ٤٥٠هـ).

و«الذريعة لمكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ).

و«إحياء علوم الدين» للغزالي (ت: ٥٠٥هـ).

*** كتب التراجم:**

«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ).

و«الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ).

و«شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ت: ١١٧٨هـ).

*** معاجم اللغة:**

«الصحاح» للجوهري (ت: ٣٩٣هـ).

و«المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصبهاني (ت: ٥٠٢هـ).

و«أساس البلاغة» للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ).

و«المصباح المنير» للفيومي (ت نحو: ٧٧٠هـ).

و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (ت: ٨١٧هـ).

و«الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ).

*** كتب أخرى:**

«المعمرون» لأبي حاتم السجستاني (ت: ٢٤٨هـ).

و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ).

و«المتناثر في الحديث المتواتر» للكتاني (ت: ١٣٤٥هـ).

و«حاشية الخضري على شرح ابن عقيل»، وهو صاحب متن «نور اليقين».

* * *

المبحث الرابع
منهج التحقيق

وإن ممَّا شرَّفني الله تعالى بخدمة سنة نبيه صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب العظيم لعلَّامة حلب الشهباء ومؤرخها الشيخ محمد راغب الطباخ المسمى بـ: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، للشيخ محمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالخضري ـ رحمه الله ـ، خدمته وفق خطة أحسب أنها كافية لخدمة هذا الكتاب العظيم والسِّفر الجليل، على قدر الجهد والطاقة، مع الجهل والافتقار إلى العلم والعمل وضعف الحال، وإنما قوَّاه حسنُ الظن بالله سبحانه وتعالى، فكانت على النحو الآتي:

١ ـ نسخ نص كتاب «الفتح المبين» من النسخة الخطية التي كتبها المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ بخطه، ثم مقابلته بنسخة تلميذ المؤلف محمد أسعد طلس ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ وضع علامات الترقيم للنص، وتمييز نص «نور اليقين» بوضعه بين قوسين، وكتابته بخط ثخين، مع ضبط المشكِل من الكلمات والأعلام.

٢ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواردة في النص.

٣ ـ توثيق النصوص المنقولة من كتب أصحابها.

٤ ـ عزو الأشعار إلى دواوين أصحابها إن وجد، أو غيرها من كتب السيرة والتاريخ والأدب.

٥ ـ كتابة الآيات القرآنية برسم المصحف، وعزوها إلى مكانها في المصحف بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

٦ ـ إدراج متن «نور اليقين» في أعلى الصفحة، وذلك بالاعتماد على النسخة التي طبعت في حياة الشيخ محمد الخضري ـ رحمه الله تعالى ـ[1]، مع تخريج الأحاديث والآثار الواردة فيه مما لم يذكر الشارح تخريجه، وتوثيق الأقوال، وعزو الأبيات الشعرية لقائليها، وتوثيقها من الدواوين الشعرية، وكتب السير والأدب.

٧ ـ القيام بصنع الفهارس المناسبة للكتاب، والتي تسهل على القارئ الوصول لبغيته.

٨ ـ كتابة مقدمة للكتاب، وتتضمن: ترجمة المؤلف الشيخ محمد راغب الطباخ ـ رحمه الله ـ، وترجمة مؤلف المتن «نور اليقين» الشيخ الخضري ـ رحمه الله ـ، وبيان اسم الكتاب، ومنهجه، وموارده، ومنهج التحقيق، مع وصف النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق.

* * *

المبحث الخامس
وصف النسخ الخطية

* **النسخة الأولى:**

هي النسخة الخطية المحفوظة في مكتبة مؤلفها الخاصة في حلب، وتمَّ الحصول على صورة منها بواسطة ولده الأستاذ محمد يحيى الطباخ ـ حفظه الله تعالى ـ، وعدد أوراقها: (٢٤٥)، وعدد الأسطر في الورقة الواحدة: (١٩) سطراً، وهي نسخة المؤلف، كتبها بخطه، وقد أتم إنجازها في (١٣٤٣هـ).

كتب على ورقة الغلاف عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، وتاريخ بدء تأليفه، وفيما يلي نصُّه: «الفتح المبين على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضري المصري، وضعتُها حين قراءتي له في المدرسة الخسروية

---

(١) وهي النسخة التي طبعت في المطبعة الجامعة بمصر، ط١، عام (١٣١٥هـ).

بمدينة حلب حين افتتاحها في ربيع الأول سنة (١٣٤١هـ)، وفقني الله للإتمام وحسن الختام بمنِّه وكرمه، وأنا الفقير إليه تعالى محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم المعروف بالطباخ الحلبي مولداً ومنشأً ووطناً».

وكتب في الصفحة الأولى من هذه النسخة: «قوله ٢: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب. . .) إلخ: لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة. . .».

وكُتب على اللوحة الأخيرة من النسخة: تاريخُ إتمام تأليف الكتاب، وهذا نصُّه: «نجز تحرير هذه الحواشي اللطيفة سحر ليلة السبت، المصادف للسادس والعشرين من شهر ربيع الأول، سنة ألف وثلاث مئة وثلاث وأربعين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمُّ التحية، والحمد لله أولاً وآخراً، وأسأله حسن الخاتمة».

وهي النسخة الأصل التي تم الاعتماد عليها في التحقيق.

* **النسخة الثانية:**

وهي النسخة المحفوظة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت رقم (٥١٥٩)، وعدد صفحاتها: (٨٥)، وعدد الأسطر: (١٨) سطراً، وناسخها هو محمد أسعد عبد الوهاب طلس، تلميذ المؤلف، وتاريخ النسخ: ١٠/ جمادى الأولى/ ١٣٤٦هـ.

وهي نسخة ناقصة، سقط منها عددٌ من الصفحات في موضعين، من (ص: ١٦) إلى (ص: ٧٠)؛ أي: من (مبحث: إسلام حمزة) إلى أثناء (مبحث: الإيذاء)، ومن (ص: ١٤١) للآخر؛ أي: من (مبحث: معاهدة اليهود) لنهاية الكتاب.

كتب على صفحة الغلاف عنوان الكتاب، واسم مؤلفه: «كتاب الفتح المبين على نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تأليف سيدي المؤرخ الثقة، والأستاذ الفاضل، صاحب مؤلَّف: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، السيد الشيخ راغب

الطباخ، أدامه الله وحفظه، آمين».

وكُتب على الجهة اليسرى من صفحة الغلاف: اسمُ الناسخ، وتاريخُ النسخ، وهذا نصُّه: «خطته أنامل تلميذ حضرة المؤلف محمد أسعد عبد الوهاب[1]، ١٠/ جمادى الأولى/ ١٣٤٦هـ».

وكُتب بعد صفحة الغلاف: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وعلى جميع إخوانه النبيين، وعلى تابعيهم إلى يوم الدين، وبعد:

فهذه تقريرات وضعتها حين قراءتي لكتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) في المدرسة الخسروية، اقتصرت فيها على زبدة أقوال العلماء والمؤرخين، وذلك حين افتتاح المدرسة المذكورة في ربيع الأنور من سنة (١٣٤٦هـ)[2]، والله أسأل حسنَ الختام، والتوفيقَ للإتمام، محمد راغب الطباخ».

وكتب في الصفحة الأولى من النسخة: «عونك اللهم وتوفيقك، قوله: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب): لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة...».

وكتب في نهاية الصفحة الأخيرة: «فلما جاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم انصرف عنه قومه إلى الإسلام، فضغن ـ أي: أضمر العداوة ـ؛ لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكاً عظيماً».

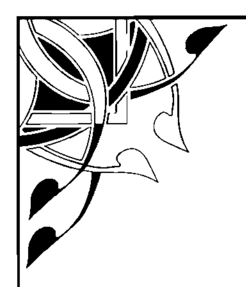
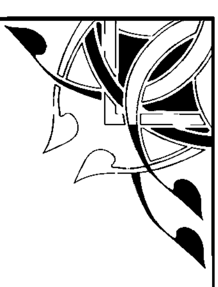
وتم الرمز لها بالنسخة «ب».

❐ ❐ ❐

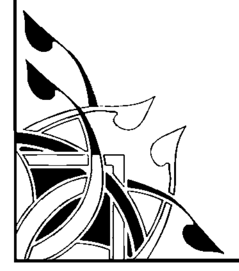
---

(١) كتب بعدها بخط مغاير: «طلس».

(٢) تقدم عند وصف النسخة الأولى أن تاريخ افتتاح المدرسة الخسروية كان في سنة (١٣٤١هـ).

صور المخطوطات




الفتح المبين

تقريظ

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد
الخضري المصري وضعته حين قراءتي له في المدرسة الخسروية
بمدينة حلب حين اشتغالي في ربيع الأول سنة ١٣٤٠
وفقني الله للإتمام وحسن الختام بمنه وكرمه
وأنا الفقير إليه تعالى
محمد راغب بن السيد محمود بن الشيخ هاشم المعروف
بالطباخ الحلبي مولداً ومنشأً ووطناً

صورة صفحة الغلاف من النسخة «الأصل»

(١)

قوله: واجعله المنقذ للإنسان احسن مرشد له ببيان التاريخ يصقل العقول وينير البصائر
وفيه للإنسان موعظة كبيرة وعبرة عظمى وحسبه في ذلك قوله تعالى في القرآن المبين مخاطبا
للنبي صلى الله عليه وسلم (وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك
في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)

وما احسن قول الإمام الزرهاني في بيان فوائد التاريخ

اذا ما درى الإنسان اخبار من مضى — تخيلته قد عاش من اول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره — الى الحشر ان ابقى الجميل من الذكر

قوله: وكانت [illegible] مشغلة [illegible] اي مع عناية السلف بتعلمه وتعليمه
[illegible] سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه كنا نعلم [illegible] مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible]
وقال الإمام الزهري [illegible] ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها. ومن فوائد السير ايضا
معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته وفضائل الصحابة وقريش وسائر العرب ونحو ذلك
من الأسباب المشوقة للإيمان. ومنها معرفة معاني كثير من الآيات القرآنية والأحاديث
النبوية وغير ذلك من الفضائل والفوائد

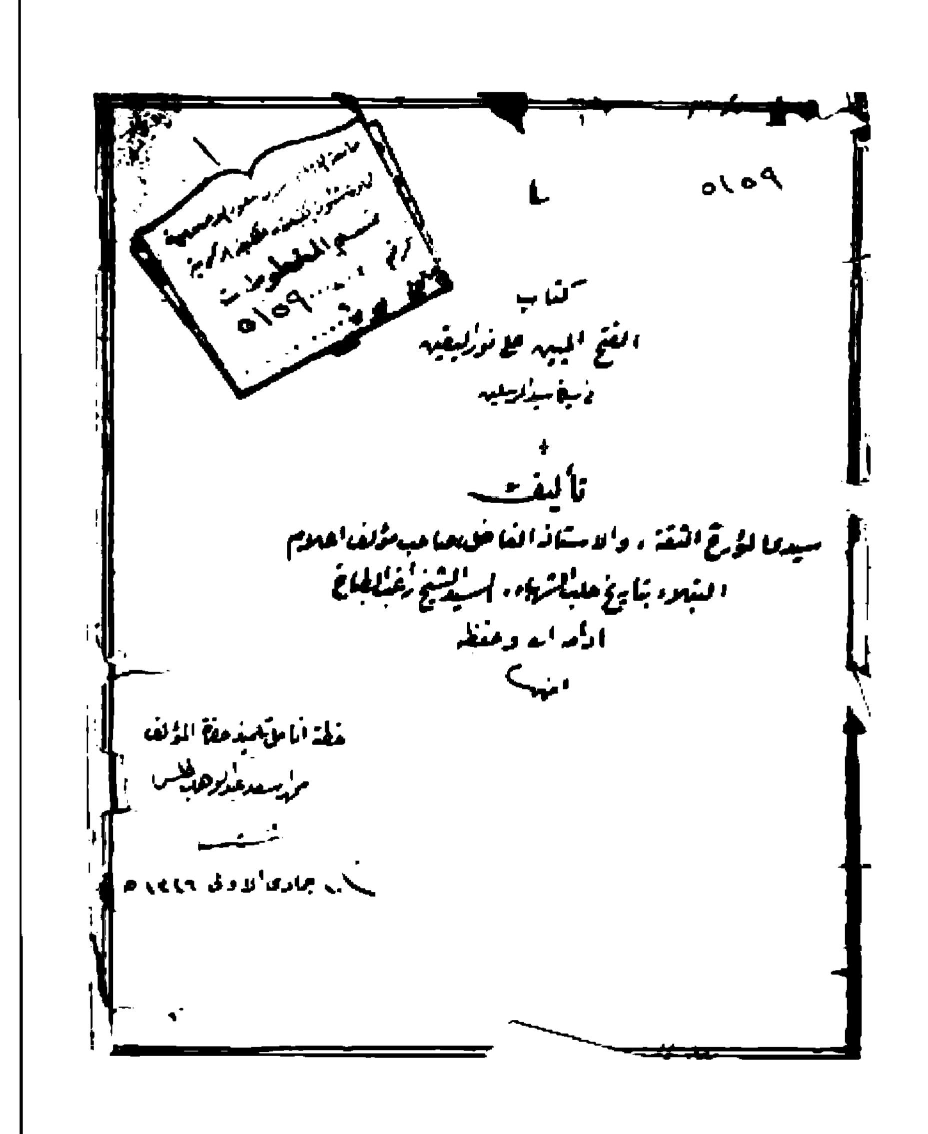
قوله: بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع قال في كشف الظنون اول من صنف في علم السير
الإمام المعروف محمد بن اسحق بن يسار امام المغازي المتوفى سنة ١٥١ فانه جمعها ودونها
ثم ابو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٨ فأحسن وأجاد (وكتابه
مطبوع متداول ويعرف بسيرة ابن هشام) وشرح هذا الكتاب الإمام ابو القاسم عبد الرحمن
السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسماه الروض الأنف (وهو مطبوع ايضا)

صورة ورقة اللوحة الأولى من النسخة «الأصل»

صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة «الأصل»

نجز تحرير هذه الحواشي اللطيفة سحر ليلة السبت المصادف للسادس والعشرين
من شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين من الهجرة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية والحمد لله أولاً وآخراً واسأل الله حسن الخاتمة

صورة الورقة الأخيرة من النسخة «الأصل»


٥١٥٩

قسم المخطوطات
٥١٥٩

كتاب
الفتح المبين على نونية
في مدح سيد المرسلين

تأليف
سيدنا المؤرخ الثقة، والأستاذ الفاضل صاحب مؤلف إعلام
النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، السيد الشيخ راغب الطباخ
أدام الله وحفظه
آمين

خطه أنا من تلامذة حضرة المؤلف
محمد أسعد عبد الوهاب طلس

في ... جمادى الأولى ١٣٤٦ هـ

صورة صفحة الغلاف من النسخة «ب»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، وعلى جميع إخوانه النبيين، وعلى تابعيهم إلى يوم الدين.
وبعد، فهذه تقريرات ومصطلحات قرأتها لكتاب [illegible] البيقونية في مسجد سيد المرسلين في المدينة المنورة، اقتصرت فيها على زبدة أقوال العلماء والمحدثين. وذلك حين افتتاح المدرسة المذكورة في ربيع الأنور سنة ١٤٢٦. والله أسأل حسن الختام والتوفيق للإتمام.

محمد عبد الفتاح

صورة ورقة اللوحة الأولى من النسخة «ب»

عونك اللهم وتوفيقك　　　　د

قوله [وأصدقها للعقول الأنساب حسب مهذب] لا ريب أن التاريخ يصقل العقول ويثير الهمة وفيه للإنسان من موعظة وذكرى، ومن حظ [illegible] وحسب فقد قال الله تعالى في القرآن المبين «وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين»

وأحسن قول الإمام ابن رجا في بيان فوائد التاريخ

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى　　توهمته قد عاش من أول الدهر

وتحسبه قد عاش آخر دهره　　إلى الحشر إن أبقى الجميل من الذكر

قوله [وكانت نفسي كثيرا ما تتشوق إلى تلك المسائل] ومع عناية السلف بفعلها وتعليمها وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يعلم بنيه مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها. وقال الإمام الزهري في علم المغازي علم الدنيا والآخرة وفي ذكر السيرة النبوية معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وكمالاته وفضائل الصحابة وقربهم ومآثر العرب وكل ذلك من الأسباب المقوية للإيمان. وفيها معرفة تفسير كثير من الآيات والأحاديث إلى غير ذلك من الفضائل والفوائد

قوله [فطالعت كتب المؤلفة في هذا الموضوع]. قال في كشف الظنون: وأول من صنف في علم السير الإمام المعروف بمحمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة ١٥١ فإنه جمعها ودونها ثم أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفى سنة ٢١٣ فأحسن وأجاد (والكتاب مطبوع متداول ويعرف بسيرة ابن هشام) وشرح هذا الكتاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ وسماه الروض الأنف (وهو مطبوع أيضا) وممن صنف في علم السير ابن أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة ٦٣٠ وشيخ الإمام أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس الأندلسي المتوفى سنة ٧٣٤ وهو في مجلد وسماه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير. ثم اختصره في مجلد وسماه العيون

صورة الورقة قبل الأخيرة من النسخة «ب»

١٤٠

قبل أن يدخلوا عليك فإذا أسلمت وسألتهم عني فإنهم قوم بهت. وأخفني ليعلموا أني
أسلمت قالوا في ما ليس في وخذ عليهم ميثاقاً أن اتبعوك وأشهد أن يؤمنوا
بك ويصدقوا بك. فلما دخل عليه اليهود ... قال أي
رجل فيكم ابن سلام ؟؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا
أرأيتم إن شهد أني رسول الله وآمن بالكتاب أتؤمنوا قالوا نعم. فدعاه
فخرج عليهم فشهد له صلى الله عليه وسلم بالرسالة فقالوا كذبت أنت شرنا وابن شرنا
قال ابن سلام هذا الذي كنت أخوفك يا رسول الله اهـ ملخصاً [1]
وكان ابن سلام قبل أن يسلم الحصين فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وهو من ولد يوسف
الصديق صلى الله عليه وسلم

المنافقون

٨٥ المنافقون قال الدمياطي ... هم جماعة من الأوس والخزرج دخلوا في دين الإسلام
تقية من القتل لما قدم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه وكانوا على دين آبائهم
من الشرك والتكذيب فكان هواهم مع اليهود ... مع المسلمين ...
شعوبا .

٨٦ عبد الله بن أبي . هو رأس المنافقين . ولد شهرته بالنفاق لم يعد بين الصحابة وكان من
أعظم أشراف أهل المدينة وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة قد نظموا له الخرز ليتوجوه
ثم يملكوه عليهم ... فلما جاءهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم انصرف قومه إلى الإسلام فضغنه أي أضمر العداوة لأنه رأى أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكا

صورة الورقة الأخيرة من النسخة «ب»




القسم الثاني

النص المحقق

الفتح المبين

مختصر

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

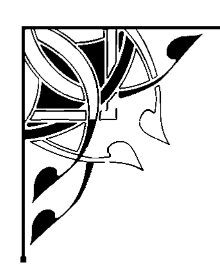
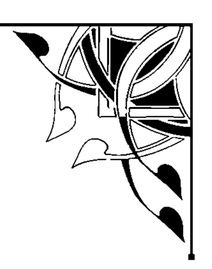
صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة المحدث المؤرخ

محمد راغب الطباخ



مُقَدِّمَةُ ٱلمؤَلِّف

نحمدك يا من أوضحت لنا سُبُل الهداية، وأزحت عن بصائرنا غشاوة الغواية، ونصلّي ونسلِّم على مَن أرسلته شاهداً ومُبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى الأصحاب الذين هجروا الأوطان، يبتغون من الله الفضلَ والرضوان، والأنصارِ الذين آوَوا ونصروا، وبذلوا لإعزاز الدين ما جمعوا وما ادَّخروا.

أمّا بعد:

فيقول محمد الخضري بن المرحوم الشيخ عفيفي الباجوري: كنت أجد من نفسي منذ النشأة الأولى ارتياحاً لقراءة تواريخ السالفين، وقصص الغابرين، وأجدها لعقل الإنسان أحسنَ مهذِّب، وأنصحَ معلِّم، وكنت أرى في تاريخ نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما لقيَهُ من أذى قومه حينما دعاهم إلى الحق، وعظيم صبره حتى هجر أوطانه وبلاده، أعظمَ مُربٍّ لأفكار المسلمين؛ فإنه يدلّهم على ما يجب اتباعه، وما يلزم اجتنابه؛ ليسودوا كما سادَ سابقوهم، . . . .

قوله: (وأجدها لعقل الإنسان أحسن مهذب. . .) إلخ: لا ريب أن التاريخ يصقل العقول، وينير البصيرة، وفيه للإنسان موعظة كبرى، وعبرة عظمى، وحسبه فضلاً قوله تعالى في القرآن المبين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾[غافر: ٧٨].

وخصوصاً ما يتعلق بالحكام؛ من اجتذاب النفوس النافرة، والتأليف بين القلوب المختلفة، وما يتعلق بقواد الجيوش؛ من تأليف الرجال، وإحكام المعدّات حتى يتمَّ لهم النصر على أعدائهم، وما يتعلق بالعامّة، من اتحاد قلوبهم، وصيرورتهم يداً على مَنْ سواهم.

فكنتُ أجد من قراءتها ارتياحاً عظيماً، وكانت نفسي كثيراً ما تأسف على تركِ المسلمين لها، فقلّما أجد من يشتغل بها، . . . .

وما أحسن قولَ الإمام الأرجاني في بيان فوائد التاريخ:

إذا ما درى الإنسان أخبارَ مَنْ مضى
تخيلته[1] قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخرَ دهره
إلى الحشر[2] إن أبقى الجميلَ من الذكر[3]

قوله: (وكانت نفسي تأسف على ترك المسلمين لها)؛ أي: مع عناية السلف بتعلمها وتعليمها، وكان سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ يُعلم بنيه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومغازيه وسراياه، ويقول: يا بني! هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها[4].

---

(١) في «ديوان الأرجاني»: «تحسبه»، ولا يستقيم الوزن بها.

(٢) في الأصل: «الخير»، والمثبت من «ديوان الأرجاني».

(٣) انظر: «ديوان الأرجاني» (٢/ ٦٧٢).

(٤) أورده الحلبي في «السيرة الحلبية» (١/ ٣) باللفظ المذكور. ورواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ١٩٥) عن إسماعيل بن محمد بن سعد قال: كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعدُّها علينا، وسراياه، ويقول: يا بني! هذه مآثر آبائكم، فلا تضيعوا ذكرَها.

ولكني كنت أُقدم لهم العذر بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع.

فلما قدمت مدينة المنصورة، جمعتني النوادي مع محمود بك سالم، القاضي بمحكمة المنصورة المختلطة، فوجدت منه علماً بدينه تقف دونه فحولُ الرجال، وتتأخر عن مسابقته فيه الأبطال، فقلّما توضع مسألة دينية إلا وجدته مبَرِّزاً فيها، مفصِحاً عن الجواب عنها.

وقال الإمام الزهري: في علم المغازي خير الدنيا والآخرة[1].

وفي ذكر السِّيَر أيضاً: معرفة فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، وكمالاته، وفضائل الصحابة وقريش وسائر العرب، وكل ذلك من الأسباب المقوية للإيمان.

وفيها: معرفة معاني كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إلى غير ذلك من الفضائل والفوائد.

قوله: (بتطويل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع): قال في «كشف الظنون»: أول من صنف في علم السير: الإمامُ المعروف بمحمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي المتوفى سنة (١٥١هـ)؛ فإنه جمعها ودونها، ثم أبو محمد عبد الملك بن هشام الحِمْيَري المتوفى سنة (٢١٨هـ)، فأحسن وأجاد ـ وكتابه مطبوع متداول، ويعرف بـ: «سيرة ابن هشام» ـ، وشرح هذا الكتاب الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى سنة (٥٨١هـ)، وسماه: «الروض الأنف» ـ وهو مطبوع أيضاً ـ، وممن صنف في السير: ابنُ أبي طي يحيى بن حميدة الحلبي المتوفى سنة (٦٣٠هـ)[2].

---

(١) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٠) باللفظ المذكور. ورواه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٢/ ١٩٥) بلفظ: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا.

(٢) انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١٠١٢).

أما علمه بسيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم، فعنده منها الخبر اليقين، وكنت كثيراً ما أسمعه يتشوّف لعمل سيرة خالية من الحشو والتعقيد تنتفع بها عامّة المسلمين، فقلت: يا لله! لقد وافق هذا السيد الكريم ما في نفسي، ولكني كنت أرى في عزيمتي قصوراً عن تنفيذ رغبته، وتتميم أمنيته؛ فإن المقام عظيم، وصعوباته أعظم، ولكن لم أرَ من الأمر بُدّاً تلقاء ما كنت أسمعه من كبار رجال المنصورة؛ فإنهم أكثروا من الأماني لعمل هذا الكتاب، العميم النفع، الجزيل الفائدة، فقمت معتمداً على الله، راجياً منه أن يوفّقني لما فيه رضاه، وواصلت السَّيْرَ بالسُّرى حتى بلغت المنى، فجاء بحمد الله، سهلَ المنال، عذبَ المورد، تنتفع به العامّة، وترجع إليه الخاصّة.

وقد كان موردِي في تأليفه: القرآن الشريف، وصحيح السنّة مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لا بدّ من تفهيم العبارات، فكان يساعدني «الشفا» للقاضي عياض، و«السيرة الحلبية» و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«إحياء علوم الدين» للغزالي.

هذا، وأسأل الله من فيض فضله أن يوفّق أئمتنا وأمراءنا للاقتداء بسيّدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإحياء معالِم دينه حتى يؤيَّدوا بروح من عند الله.

ومنهم: الإمام أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس الأندلسي المتوفى سنة (٧٣٤هـ)، وهو في مجلدين سماه: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، ثم اختصره في مجلد وسماه: «نور العيون في تلخيص سير الأمين المأمون»، وعلق الإمام برهان الدين إبراهيم بن محمد المتوفى سنة (٨٤١هـ). عليه حاشية سماها: «نور النبراس في شرح سيرة ابن سيد الناس»[1].

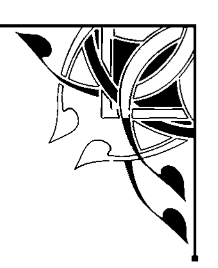
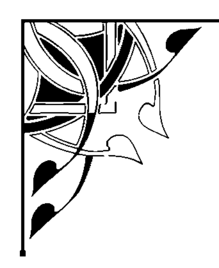
---

(١) انظر: «كشف الظنون» لحاجي خليفة (٢/ ١١٨٣).

وقد آن أن نشرع فيما قصدناه مستعينين بحول الله فنقول:

وهي في ثلاثة مجلدات، وهما موجودان في مكتبة المدرسة البهائية في حلب، ونسخة منه في مكتبة شيخنا بالإجازة حافظ العصر الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي، وقسم منه الأول والثاني في السلطانية بمصر.

❐ ❐ ❐

النسب الشريف

السيدُ الأكرمُ الذي شرَّف الناسَ بوجوده هو: (محمدُ بنُ عبدالله) من زوجه آمنةَ بنتِ وَهْبٍ الزُّهريةِ القرشيةِ. (ابنِ عبد المطلب) من زوجه فاطمةَ بنتِ عمرٍو المخزوميةِ القرشية. وكان عبد المطلب شيخاً معظماً في قريش يَصْدُرون عن رأيه في مشكلاتهم، ويقدمونه في مهماتهم. . . . .

النسب الشريف

قوله: (النسب الشريف): افتتح المصنف كتابه تبعاً لغيره ممن ألف في السيرة النبوية بذكر نسبه صلى الله عليه وسلم؛ لما في شرف النسب من عظيم الفائدة؛ لأن من رام القيام بالأعمال العظيمة ـ خصوصاً هداية الناس ودعوتهم إلى الله تعالى ـ إذا لم يكن معروفاً بشرف النسب وكرم الحسب، فقلما يطيعه الناس، وتجتمع عليه الكلمة. ودنيءُ الأصل تنفر منه القلوب، ولا يكون موضعَ احترام الناس وتبجيلهم، فلا ينجح في الوصول إلى آماله، والحصولِ على مقاصده.

ويرشدك إلى ذلك قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُم) على قراءة ابن عباس والزهري ـ بفتح الفاء وكسر السين ـ، ومعناه كما في «تفسير الخازن»: أنه من أشرفكم وأفضلكم[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إني خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح»[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٤٢٥).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢٨)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٤): وفيه محمد =

(ابنِ هاشم) من زوجه سلمى بنتِ عمرٍو النجاريـةِ الخزرجيـة. (ابـنِ عبـد مناف) من زوجه عاتكةَ بنتِ مُرّةَ السُّلَميةِ. (ابنِ قُصَيّ) من زوجه حُبَّى بنتِ حُلَيل الخزاعيةِ، وكان إلى قصيّ في الجاهلية حجابةُ البيت، وسـقايةُ الحـاج، وإطعامُه المسمى بالرفادة، والندوة ـ هي الشورى ـ لا يتم أمـر إلا فـي بيتـه، واللواءُ، لا تعقد راية لحرب إلا بيده. ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده عبدِ الدار، لكنْ بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بنـي عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر، . . . .

وقول هرقل سائلاً أبا سفيان: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسـب، ثم قال له: سألتك عن نسبه، فذكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسـلُ تبعـثُ في نسب قومها[1].

فلولا أهميةُ النسب وعظيمُ فائدته، لما سأل هرقل عنه أبا سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

وقد كان أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ من علماء النسب.

قوله: (حُبَّى بنت حليل): حبى ـ بضم الحاء وفتح الموحدة المشـددة ـ، وحُليل: ـ مصغَّر ـ، وحُبَّى هي زوجة قصيّ التي كانت وصيةً هي وأبو غُبشـان علـى مفتاح الكعبة بعد موت أبيها، ثم طلبه منها زوجها قصيّ فاحتجت بأبي غُبشـان، فعمل عليه الحيلة قصي. اهـ. من هامش «القاموس»[2].

قال الحلبي: قيل: إن حُليلاً أوصى بأمر البيت لأبي غُبشان بعد أن أوصى

= ابن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحـاكم فـي «المسـتدرك»، وقـد تُكلِّـم فيه، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان بن حرب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) القصة مذكورة في «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٢٧٤).

وكاد يُفضي الأمر إلى القتال لولا أن تدارك الأمرَ عقلاءُ الفريقين، فأعطَوا بني عبد المناف السقايةَ والرفادةَ، فدامتا فيهم إلى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب، ثم لبنيه من بعده، أما الحجابة، فبقيت بيد بني عبد الدار، وأَقَرَّها لهم الشرعُ، فهي فيهم إلى الآن. وهم بنو شيبةَ بنِ عثمان بن أبي طلحة بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار، وأما اللواء، فدام فيهم حتى أبطله الإسلام، وجعله حقًّا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحاً له، وكذلك الندوة. وقصي (بن كلاب) من زوجه فاطمةَ بنتِ سعد، وهي يمانيةٌ من أزد شَنُوءَة. (ابنِ مرةَ) من زوجه هندٍ بنتِ سرير من بني فهر بن مالك. (ابنِ كعب) من زوجه وحشيةَ بنتِ شيبانَ من بني فهرٍ أيضاً. (ابنِ لُؤَيّ) من زوجه أُم كعبٍ ماوِيةَ بنتِ كعبٍ من قُضاعة. (ابنِ غالب) من زوجه أم لؤي سلمى بنتِ عمرٍو الخزاعي. (ابنِ فهر) من زوجه أم غالب ليلى بنتِ سعد من هُذيل. وفهرٌ هو قريش ـ في قول الأكثرين ـ. وكانت قريش اثنتي عَشْرَة قبيلة: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار بن قصي، وبنو أسد بن عبد العُزَّى بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو مخزوم بن يقظة بن مُرَّة، . . . .

بذلك لابنته زوجِ قصيّ، وقالت له: لا قدرة لي على فتح البيت وإغلاقه، وإن قصيًّا أخذ ذلك منه بزق خمر، فقالت العرب: أخسرُ صفقةً من أبي غُبشان.

وقيل: إن قصيًّا أعطاه أثواباً وأبعرة. اهـ[1].

وسيأتي لذلك زيادة بيان في آخر الكلام على بناء الكعبة.

قوله: (ابنِ كلاب): قال الحلبي: اسمه: حكيم، وقيل: عروة، لقب بكلاب؛ لأنه كان يحب الصيد، وأكثرُ صيده كان بالكلاب. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٥).

وبنو تيم بن مرّة، وبنو عديّ بن كعب، وبنو سهم بن عمرو بن هُصيص بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو تيم بن غالب، وبنو الحارث بن فهر، وبنو مُحارب بن فهر، والمقيمون منهم بمكة يسمون: قريش البطاح، والذين بضواحيها: قريش الظواهر. (ابنِ مالك) من زوجه جندلةَ بنتِ الحارث من جُرْهُم. (ابنِ النضْر) من زوجه عاتكةَ بنتِ عَدْوان من قيسِ عَيْلانَ. (ابنِ كنانة) من زوجه بَرَّةَ بنتِ مُرّ بنِ أُدّ. (ابنِ خُزَيمة) من زوجه عَوانةَ بنتِ سعدٍ من قيس عيلان. (ابنِ مُدركة) من زوجه سلمى بنتِ أسلمَ من قُضاعة. (ابنِ إلياس) من زوجه خِنْدِفٍ المضروبِ بها المثلُ في الشرف والمنعة. (ابنِ مُضَر) من زوجه الربابِ بنتِ جُنْدَةَ بنِ معدّ. (ابنِ نزار) من زوجه سَودةَ بنتِ عَكّ. (ابنِ معدّ) من زوجه مُعَانةَ بنتِ جوشمٍ من جُرهم. (ابنِ عدنان).

هذا هو النسب المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدِّثين، أما النسبُ فوق ذلك، فلا يصح فيه طريق، غايةُ الأمر أنهم أجمعوا على أن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم. . . . .

قوله: (**هُصيص**): ـ بالتصغير ـ، وقوله: (**جُمَح**): ـ بضم الجيم وفتح الميم ـ.

قوله: (**البطاح**): جمع الأبطح، سيلٌ واسع فيه دِقاقُ الحصى، ويجمع على أباطح، وقريش البطاح الذين ينزلون بين أخشبي مكة. والأخشبان: جبلا مكة: أبي قُبيس والأحمر، وجبلا منى.

قوله: (**خِنْدِف**): ـ بكسر الخاء والدال وسكون النون ـ.

قوله: (**جُنْدة**): ـ بضم الجيم وسكون النون ـ.

وقوله: (**عَك**): بفتح العين ـ.

وقوله: (**جُرْهُم**)؛ كقنفد: حيّ من اليمن تزوج فيهم إسماعيل.

ينتهي إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ أبي العرب المستعربة[1].

نسبٌ شريف كما ترى: آباء طاهرون، وأمهات طاهرات، لم يزل عليه السلام يتنقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء حتى اختاره الله هادياً مهديًّا من أوسط العرب نسباً. فهو من صميم قريش التي لها القدمُ الأولى في الشرف وعلو المكانة بين العرب، ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً، ليس فيهم مسترذَل، بل كلهم سادة قادة، وكذلك أُمهاتُ آبائه من أرفع قبائلهنّ شأناً، ولا شك أن شرف النسب وطهارةَ المولد من شروط النبوة، وكلُّ اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعيًّا بحسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه شيء من سفاح الجاهلية، بل طهَّره الله من ذلك، والحمدُ لله.

قوله: (أبي العرب المستعربة): قال أبو الفداء: قسمت المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام: بائدة، وعاربة، ومستعربة.

أما البائدة: فهم العرب الأُوَل الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم؛ لتقادم عهدهم، وهم: عاد، وثمود، وجرهم الأولى، وكانت على عهد عاد، فبادوا ودرست أخبارهم.

وأما جرهم الثانية: منهم من ولد قحطان، وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل.

وأما العرب العاربة: فهم عرب اليمن من ولد قحطان.

وأما العرب المستعربة: فهم ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. اهـ[2].

وفي «القاموس»: عرب عاربة: صُرَحاء، ومستعربة: دُخَلاء، ويعرُب بن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٦).

(٢) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ٩٩).

كان عبدالله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه، . . . .

قحطان: أبو اليمن، قيل: أول مَن تكلم العربية[1].

زواج عبدالله بآمنة، وحملُها

قوله: (من أحبِّ ولد أبيه[2] إليه. . .) إلخ: سبب كونه أحبَّ ولده إليه؛ لأنه كان أحسنَهم خَلْقاً وخُلُقاً، وأكملَ بني أبيه، وأعفَّهم وأحبَّهم إلى قريش، وكان نورُ النبي صلى الله عليه وسلم بيِّناً في وجهه.

وأيضاً: فإنه كان أمر عبد المطلب في المنام أن يحفر بئر زمزم، فنذر أن يذبح ولداً إن سهل له حفر زمزم، ولما تم له ذلك، قيل له: قَرِّبْ أحدَ أولادك، فذبح كبشاً، فقيل له: أكبر من ذلك.

وهكذا إلى أن قيل له: قرب أحدَ أولادك، فضرب القِداحَ على أولاده، فخرج على عبدالله، فأخذه بيده، وأخذ الشفرة، وأقبل على إسافٍ ونائلةَ، ووضع رجلَه على عنقه، فجذب العباسُ عبدَالله من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبدالله إلى أن مات[3].

ولهذا ورد في الحديث: «أنا ابن الذبيحين»[4]، فهذه الحادثة أيضاً كانت

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عرب).

(٢) سقطت من الأصل، والمثبت من «م».

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٠٣٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ: كنا عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله! خلَّفتُ البلادَ يابسة، والماءَ يابساً، هلك المال، وضاع العيال، فَعُدْ عليَّ بما أفاء الله عليك يا بنَ الذَّبيحين، فتبسَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر عليه.

فزوَّجَه آمنةَ بنتَ وهبِ بنِ عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، وسنُّه ثماني عشرةَ سنة، وهي يومئذٍ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً، ولما دخل عليها، حملت بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يلبث أبوه أن توفي بعد الحمل بشهرين، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني عَدِيِّ بنِ النجار؛ فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيتُه بالمدينة وهو راجع، ولما تمّت مدة حمل آمنة، وضعت ولدها، فاستبشر العالَمُ بهذا المولود الكريم الذي بثّ في أرجائه روح الآداب، وتمم مكارم الأخلاق(١).

وقد حقق المرحوم محمود باشا الفلكي: أن ذلك كان صبيحة يوم الاثنين تاسع ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من أبريل . . . .

من أسباب محبة أبيه له.

قوله: (فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة): قال الدحلاني: سبب زواجه من بني زهرة: أنه كان عبدُ المطلب قدمَ اليمنَ مرة، فنزل على حبر من اليهود، فقال: ممن الرجل؟ قال: من بني هاشم، قال: أتأذن لي أن أنظر بعضك؟ قال: نعم، ما لم يكن عورة، ففتح إحدى منخريَّ فنظر فيها، ثم نظر إلى الأخرى، فقال: أشهد أن في إحدى يديك ملكاً، وفي الأخرى نبوة، وإنما تجد ذلك من الملك والنبوة في بني زهرة، فهل لك من زوجة من بني زهرة؟ قلت: أما اليوم فلا، فقال: إن تزوجت، فتزوج منهم، فتزوج عبدُ المطلب هالةَ بنتَ وهيب بن عبد مناف، وزوَّج ولدَه عبدَالله آمنةَ بنت وهب؛ رجاءً لما أخبر به الحبر(٢).

قوله: (وقد حقق محمود باشا الفلكي. . .) إلخ: يقرب من قول محمود

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٧١ ـ ٧٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٣).

سنة (٥٧١) من الميلاد، وهو يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بِشِعْب بني هاشم، وكانت قابلته الشِّفاء أم عبد الرحمن ابن عوف، ولما ولد، أرسلت أمه لجدِّه تبشِّره، . . . .

باشا ما ورد في الآثار من أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت لعشر ليال[1]، وصححه الحافظ الدمياطي[2].

قوله في الذيل: (أن ملكاً من ملوك الحبشة. . . إلخ): هو أبرهة بن الصباح بن يكسوم، وسبب قصده لها: أن أبرهةَ رأى الناسَ يتجهزون أيام الموسم إلى مكة، فبنى كنيسة بصنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب، فسمع بذلك مالكُ بنُ كنانة، فخرج لها ليلاً، فدخل وتغوط فيها، ولطخ بالعذرة قِبلَتَها، فبلغ ذلك أبرهةَ، فحلف ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها، فسار إليها ومعه فيل عظيم، ولما وصل إلى مكة، أصاب لعبد المطلب مئتي بعير، ثم أرسل إليه رسولاً وقال له: إني لم آتِ لقتال، وإنما جئت لهدم هذا البيت، وأنصرف عنكم، فقال للرسول: هذا بيتُ الله الحرام، وبيتُ إبراهيمَ خليلِه، فإن يمنعْه فهو بيته وحرمُه، وإن يخل بينه وبين ذلك، فوالله! ما لنا به قوة.

ثم إن عبد المطلب ذهب مع الرسول إلى أبرهة، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك إلى الملك؟ فقال له: حاجتي أن يرد عليَّ مئتي بعير أصابها، فقال أبرهة لترجمانه: قل له: كنت قد أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، قال: لِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيت هو دينُك ودين آبائك، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمَه، لم تكلمني فيه، وتكلمني في مئتي بعير أصبتُها، قال عبد المطلب: أنا ربُّ هذه الإبل،

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٠٠) عن الواقدي بإسناده إلى أبي جعفر محمد بن علي.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» للدمياطي (ص: ٢٩ ـ ٣٠).

فأقبل مسروراً، وسمّاه محمداً، ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبلُ عند العـرب، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدّره وذكره في الكتب التي جاءت بها الأنبياء؛ كالتوراة والإنجيل، فألهم جدَّه أن يسمّيه بذلك إنفاذاً لأمره، . . . .

ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه منك، قال: ما كان ليمنعه مني، وأمر بإبله فردَّتْ عليه، وفي ذلك يقول من أبيات:

لا هُـــمَّ إنَّ العبـــدَ يمـــ ـــنعُ رَحْلَـهُ فـامنعْ رحالَـكْ

وانصـــرْ علـــى آلِ الصليـــ ـــبِ وعابديـهِ اليـومَ آلَـكْ

ثم لما أصبح أبرهة، تهيأ للدخول، وهيأ جيشه وفيلَه، فأرسل الله عز وجل طيراً من البحر أمثالَ الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجران في رجليه، وحجر في منقاره أمثال الحصى والعدس، فلما غَشينَ القومَ، أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك، وليس كل قوم أصابت، وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق، وذلك قولُه تعالى في سورة الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾[الفيل: ٣]؛ يعني: طيراً كثيرة متفرقة، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[الفيل: ٤]: من طين مطبوخ، وقيل: ﴿سِجِّيلٍ﴾: حجر وطين مختلط، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل: ٥]؛ يعني: كزرع أكله الدود. اهـ. ملخصاً من الخازن[1].

وهذه السورة سيقت من باب الامتنان على رسوله صلى الله عليه وسلم، وكانت حادثة الفيل تمهيداً لنبوته صلى الله عليه وسلم.

قوله: (وسماه محمداً): قال عبد المطلب: أردت أن يحمَدَه الله تعالى في السماء، وخلقُه في الأرض[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٧٠ ـ ٤٧٤).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١١٣) عن أبي الحكم التنوخي.

وكانت حاضِــنته أمُّ أيمنَ بركةُ الحبشيةُ، أَمَةُ أبيه عبدِاللَّهِ، وأولُ مَنْ أرضعه ثُوَيْبَةُ أَمَةُ عمه أبي لهب[1].

الرضاع

وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المَراضعَ لمواليدهم في البـوادي؛ ليكون أنجبَ للولد، وكانوا يقولون: إن المربَّى فـي المـدن يكـون كليـلَ الذهن، فاترَ العزيمة، فجاءت نِسوة من بني سعدِ بـنِ بكـر يطلـبن أطفـالاً يرضعْنَهم، فكان الرضيع المحمودُ من نصيب حليمةَ بنتِ أبي ذؤيب السـعدية، واسمُ زوجها: أبو كبشة، وهو الذي كانت قريش تنسبُ له الرسول صـلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به، . . . .

الرضاع

قوله: (فجاءت نسوة من بني سعد. . .) إلـخ: سـبب مجيـئهن أن السـنة كانت سنةً شهباءَ؛ أي: ذاتَ جدب وقحط، فخرجن يطلبن الرضعاء؛ ومعهـن ناقـة مُسنة ما تبض بقطرة لبن، قالت حليمة: وما كنا نام ليلتنا أجمعَ من صبينا الـذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يكفيه بحيث يرفع رأسه، ولمـا قـدمنا مكـة لـم تبق امرأة معي إلا وأخذت رضيعاً غيري، وكل امرأة عرض عليهـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم كانت تأباه إذا قيل لها: يتيم، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبي اليتيم[2]، فكنا نقول: يتيم، ما عسى أن تصنع أمه وجدُّه؟!

ولما أجمعنا على الانطلاق، قلت لصاحبي: والله! إني لأكره أن أرجـع ولـم آخذ رضيعاً، والله! لأذهبن إلى ذلك الرضيع فلآخذنه، قال: لا عليـكِ أن تفعلـي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٨٩).

(٢) في المصادر: «من أبي الوليد»، وفي بعضها: «من أبي الصبي».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٩٨ ـ ٣٠٠).

فيقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء. ودَرّت البركات على أهل ذاك البيت الذين أرضعوه مدة وجوده بينهم، وكانت تربو عن أربع سنوات[1].

وفي رواية عن حليمة قالت: استقبلني عبد المطلب، فقال: من أنت؟ فقلت: امرأة من بني سعد، قال: ما اسمُك؟ قال: حليمة، فتبسم عبد المطلب وقال: بخ بخ سعدٌ وحِلْم. خصلتان فيهما خيرُ الدهر وعزُّ الأبد، يا حليمة! إن عندي غلاماً يتيماً، وقد عرضته على نساء بني سعد، فأبين أن يقبلن، وقلن: ما عند اليتيم من الخير، إنما نلتمس الكرامة من الآباء، فهل لكِ أن ترضعيه فعسى أن تسعدي به، فقالت: ألا تذرني حتى أشاور صاحبي؟ ولما شاورته، قال لها: خذيه، فأخذته. اهـ. حلبي ملخصاً[2].

قوله: (وكانوا يقولون...) إلخ: في الحلبي: إن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرَّ بنا حبُّ الوليد ـ يعني: ولده ـ؛ لأنه لمحبته له أبقاه مع أمه في الحضَر، ولم يسترضعه في البادية مع الأعراب، فصار لحاناً لا عربيةَ له، وأخوه سليمانُ استُرضع في البادية مع الأعراب، فصار عربيًّا غيرَ لحان. اهـ[3].

قوله: (ودرت البركات...) إلخ: قالت حليمة السعدية ـ رضي الله عنها ـ: ثم قدمنا منازل بني سعد، ولا أعلمُ أرضاً من أراضي الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً، فنحلب ما شئنا، والله! ما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر في المنازل من قومنا يقول لرعاتهم: ويلكم! اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ـ يعنونني ـ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٢٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٦).

وحصل له وهو بينهم حادثة مهمة، وهي شَقُّ صدره، وإخراجُ حظِّ الشيطان منه، فأحدثَ ذلك عند حليمة خوفاً، فردته إلى أمه، وحدّثتها قائلة: بينما هو وإخوتُه في بَهْمٍ لنا خلف بيوتنا، إذ أتى أخوه يعدو، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشَقَّا بطنه فهما يَسُوطانه. فخرجتُ أنا وأبوه نحوه، فوجدناه منتقَعاً لونُه، فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بنيّ؟ فقال: «جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا يبتدراني، فأضجعاني فشقَّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً، فأخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو»[1].

تعالى الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه، وفصلتُه. اهـ[2].

حادثة شق الصدر

قوله في الذيل في تفسير قوله: (يسوطانه)؛ أي: يحركانه بسوط: هذا التفسير غير صحيح، والصواب في تفسيره: أنهما كانا يُدخلان يديهما في بطنه، كما في الحلبي والدحلاني[3].

قوله: (ولا[4] أدري ما هو): قال الحلبي بعد نقله لهذه العبارة: وسيأتي

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٣٥) عن حليمة السعدية، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٩٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٤٨). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٥٢)، وانظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٥٨).

(٤) في الأصل: «وما»، والمثبت من «م»، وهو موافق لما في «نور اليقين»، طبعة الجامعة.

ثم إن أمه أخذته منها، وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بني عَدِيٍّ بنِ النجار، وبينما هي عائدة، أدركتها منيتُها في الطريق، . . . . .

أن هذا الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه: «وما أدري ما هو» أنه علقة سوداء استخرجاها من قلبه فطرحاها[1]، زاد في رواية: وقيل: هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله[2].

وفاة آمنة، وكفالة جده له ووفاته، وكفالة أبي طالب

قوله: (وتوجهت به إلى المدينة): قيل: كان عُمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتئذ أربعَ سنين، وقبل: خمساً، وقيل: ستًّا، وقيل: أكثر من ذلك[3].

وروى الزهري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين، خرجت به أمه إلى أخوال جده، وهم بنو عدي بن النجار بالمدينة تزورهم، ومعه أم أيمن بركةُ الحبشية، فأقامت به عندهم شهراً. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (أدركتها منيتها): قال الدحلاني: وكان عمرها حين توفيت في

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (١/ ٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٤٦) من طريق ابن إسحاق، كلاهما عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، دون لفظ: «وما أدري ما هو».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٥٢، ١٥٧)، والرواية المشار إليها رواها البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ١٤١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ورواها مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوها.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١١٦).

فماتت بالأبواء، فحضنته أُمُّ أيمن، وكفله جده عبد المطلب، ورقَّ له رِقَّةً لم تُعْهَد له في ولده؛ لما كان يظهر عليه مما يدلّ على أن له شأْناً عظيماً في المستقبل، وكان يكرمه غاية الإكرام، . . . .

حدود العشرين سنة[1].

قوله: **(فماتت بالأبواء)**؛ أي: دُفنت فيها، وقيل: بالحَجُون، وقيل جمعاً بين الروايتين: إنها دفنت أولاً بالأبواء، ثم نبشت ونقلت إلى مكة، ودفنت بالحجون. اهـ. دحلاني[2].

قوله: **(وكفله)**: كَفَلَ من باب (قتل)، والكافل: هو الذي يعول إنساناً وينفق عليه. اهـ. «مصباح»[3].

قوله: **(ورق له رقة لم تعهد له في ولده. . .)** إلخ: في الدحلاني: كان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول: عليَّ بابني؛ أي: احضروه، ويُجلسه بجنبه، وربما أقعدَه على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه[4].

قوله: **(لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً)**: في الدحلاني: روي عن عبد المطلب أخبار كثيرة تقتضي أنه عرف بها نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك: أن قوماً من بني مدلج ـ وهم القافة المعروفون بالآثار والعلامات ـ قالوا له في حق النبي صلى الله عليه وسلم: احتفظ به، فإنا لم نر قدماً أشبهَ بالقدم الذي في المقام منه.

وبينا عبدُ المطلب يوماً في الحِجْر، وعنده أسقفُ نجران ـ رئيس النصارى في دينهم ـ وذلك الأسقف يحدثه ويقول: إنا نجد صفة نبي تقيٍّ من ولد إسماعيل،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٥).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: كفل).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٧٢).

ولكن لم يلبث عبد المطلب أن تُوفي بعد ثماني سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فكفله شقيقُ أبيه أبو طالب، فكان له رحيماً، وعليه غيوراً، وكان أبو طالب مُقلًّا من المال، فبارك الله له في قليله، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثالَ القناعة والبعد عن السفاسف التي يشتغل بها الأطفال عادة، كما روت ذلك أُم أيمن حاضنتُه، فكان إذا أقبل وقتُ الأكل، جاء الأولاد يختطفون، وهو قانع بما سييسرُهُ الله له[1].

وهذا البلد مولده، ومن صفته كذا وكذا، فأتي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فنظر إليه، وإلى عينيه، وإلى ظهره وقدميه، فقال: هو هو، ما هذا منك، قال: هذا ابني، قال: ما نجدُ أباه حيًّا، قال: هو ابن ابني، وقد مات أبوه وأمه حبلى به، قال: صدقتَ، قال عبد المطلب لبنيه: تحفظوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه؟[2].

قوله: (لكن لم يلبث [عبد المطلب] أنه توفي): قال الدحلاني: وكان عمر عبد المطلب حين توفي مئة وأربعين سنة، وقيل: مئة وعشرة، وقيل: أقل، ودفن بالحَجون عند قبر جده قصيّ، ولما حضرته الوفاة، أوصى به إلى عمه شقيق أبيه أبي طالب[3].

قوله: (فكان إذا أقبل وقت الأكل): في الدحلاني: كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان أولَ بكرة النهار شيئاً يأكلونه، فيجلسون وينتهبون، فيكفُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، ولا ينتهب معهم؛ تكرماً منه واستحياء ونزاهةَ نفس وقناعةَ قلب، فلما رأى ذلك أبو طالب، عزل له طعاماً على حدته. اهـ[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٧٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٨٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٨٨).

السفر إلى الشام

ولما بلغت سنُّه عليه الصلاة والسلام اثنتي عشرة سنة، أراد عمّه وكفيلُه السفرَ بتجارة إلى الشام، فاستعظم الرسولُ صلى الله عليه وسلم فراقَه، فرقّ له، وأخذه معه، وهذه هي الرحلة الأولى، ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً، وقد أشرف على رجال القافلة ـ وهم بقرب بُصرى ـ بَحِيرا الراهبُ، فسألهم عمّا رآه في كتبهم المقدسة من بعثة نبيٍّ من العرب في هذا الزمن، . . . .

وكأن لسان حال النبي صلى الله عليه وسلم يقول قول[1] الشنفرى:

وإن مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ   بأَعْجَلِهم إذْ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ[2]

السفر إلى الشام

قوله: (فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه): في الدحلاني: مسك بزمام ناقة أبي طالب وقال: «يا عم! إلى من تكلني، لا أبَ لي ولا أم؟!»، فأخذه معه، وأردفَه خلفه[3].

قوله: (بُصرى): بضم الباء، و(**بَحِيرا**): بفتح الباء وكسر الحاء.

قوله: (فسألهم. . .) إلخ: ليس فيما رأيناه في سياق قصة بَحيرا ما يفيد أنه سألهم عما رآه في كتبهم. . . إلخ ما ذكره المؤلف هنا، وخلاصة القصة كما في الدحلاني: أن قريشاً كثيراً ما تمر على بَحيرا، فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام، فإنه لما أقبلوا، رأى غمامة تُظِلُّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم، ثم لما نزلوا في ظل شجرة، نظرَ الغمامةَ قد أظلت الشجرة، ومالت أغصانها عليه

---

(١) سقطت من الأصل، والمثبت من «م».

(٢) انظر: «ديوان الشنفرى» (ص: ٥٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٧)، وأورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٥٣).

صلى الله عليه وسلم، ثم أرسل لهم أني قد صنعت لكم طعاماً وأُحِبُّ أن تحضروا كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم لحداثة سنه في رحال القوم، فلما نظر بَحيرا في القوم، ولم يَرَ الغمامة على أحد منهم، ورآها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا معشر قريش! لا يتخلفْ أحدٌ منكم عن طعامي، فقالوا: لم يتخلف إلا غلام، قال: لا تفعلوا ذلك، فليحضرْ، ثم قام إليه عمه الحارث، فاحتضنه وجاء به مع القوم، فلما رآه بحيرا، جعل يلحظه [لحظاً][1] شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ [القوم][2] من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرا فقال له: أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسألني باللات والعزى، فوالله! ما أُبغض شيئاً قَطّ بغضَهما»، فقال بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: «سلني عما بدا لك»، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، فيخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفة النبي المبعوث آخر الزمن.

ولما فرغ، أقبل على عمه أبي طالب فقال: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني، قال: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا؟ قال: فإنه ابن أخي، فقال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقتَ، ثم قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال: صدقتَ، فارجع بابن أخيك إلى بلاده، واحذر عليه يهود، وحينئذ خرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة. اهـ[3].

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لدحلان.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لدحلان.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٨ ـ ٩٩)، وهذه القصة أوردها ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٥٣ ـ ٥٥).

فقالوا: إنه لم يظهر للآن. وهذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل بعثة الرسول، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩][1].

حرب الفجار

ولما بلغت سنّه عليه الصلاة والسلام عشرين سنة، حضر حرب الفِجَارِ، وهي حرب كانت بين كِنانة ومعها قريش، وبين قيس........

ونحو ذلك في ابن هشام، والحلبي، وليس فيهما كما ترى أنه سألهم عن بعثة نبي من العرب في هذا الزمن، وأنهم قالوا: لم يظهر إلى الآن[2].

الرد على من قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى العلم من بحيرا الراهب

[...][3].

حرب الفجار

قوله: (الفِجار)؛ أي: بكسر الفاء، بمعنى المُفاجَرة، كالقِتال بمعنى المقاتلة.

قوله: (عشرين سنة): هذا ليس بالصواب، ففي ابن هشام: كان عمره صلى الله عليه وسلم أربعَ عشرةَ سنة، أو خمسَ عشرةَ سنة[4].

وعلى الرواية الثانية اقتصر الحلبي، والدحلاني[5]، ويؤيد الثانية والثالثة

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لابن هشام (١/ ٣١٩ ـ ٣٢٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٣ ـ ١٩٥).

(٣) بياض في الأصل و«م» بمقدار سبعة أسطر.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٤).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٧)، و«السيرة النبوية» =

وسببها: أنه كانَ للنعمان بن المنذر ملكِ العرب بالحيرة تجارةٌ يرسلها كل عام إلى سوق عُكاظ لتُباع له، وكان يرسلها في أمان رجل ذي منعةٍ وشرف في قومه ليجيزها، فجلس يوماً وعنده البرَّاضُ بنُ قيسٍ الكنانيُّ ـ وكان فاتكاً خليعاً، خلعه قومه لكثرة شرّه ـ وعروةُ بنُ عتبةَ الرحَّال، فقال: مَنْ يُجيز لي تجارتي هذه حتى يبلغها عكاظ؟ فقال البرَّاض: أنا أُجيزها على بني كنانة، فقال النعمان: إنما أُريد مَنْ يُجيزُها على الناس كلهم. فقال عروة: أبيتَ اللعنَ أكلبٌ خليع يجيزها لك؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقَيْصوم من أهل نجدٍ وتهامةَ. فقال البَرَّاض: أو تُجيزها على كنانةَ يا عروة؟. . . . . . .

رواية: أنه حضرها وهو غلام[1]؛ لأن ابن العشرين لا يسمى غلاماً.

قوله: (إلى سوق عكاظ): عُكاظ: كـ (غُراب): سوق بصحراءَ بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلالَ ذي القعدة، وتستمر عشرين يوماً، تجتمع قبائل العرب فيتعاكظون؛ أي: يتفاخرون ويتناشدون الأشعار، وهو من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن، وهي صحراء مستوية لا جبل فيها، وكان يقام فيها السوق في ذي القعدة نحواً من نصف شهر، ثم يأتون موضعاً دونه إلى مكة يقال له: سوق مَجَنَّة، فيقام فيه إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له: ذو المجاز، فيقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى، وكان سوق عكاظ لثقيف، وقيس عيلان. اهـ. دحلاني، وقاموس. انظر: «شرح العيني» للبخاري[2].

قوله: (وعروة بن عتبة الرحّال) القيسي قيس هوازن.

= لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٩).

(١) أوردها اليعقوبي في «تاريخه» (٢/ ١٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٦٠)، و«القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عكظ)، و«عمدة القاري» للعيني (٦/ ٣٥).

قال: وعلى الناس كلهم، فأسرَّها في نفسه، وتربَّص له حتى إذا خرج بالتجارة، قتله غدراً، ثم أرسل رسولاً يخبر قومه كنانة بالخبر، ويحذرهم قيساً قومَ عروة. وأما قيس، فلم تلبث بعد أن بلغها الخبر أن همّت لتدرك ثأرها، حتى أدركوا قريشاً وكنانة بنخلة، فاقتتلوا، ولما اشتدّ البأس وحميت قيس، احتمت قريش بحرمها، وكان فيهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن قيساً قالوا لخصومهم: إنّا لا نترك دمَ عروة، فموعدُنا عكاظ العامَ المقبل، وانصرفوا إلى بلادهم يحرض بعضهم بعضاً، فلما حالَ الحَوْلُ، جمعت قيسٌ جُمُوعها، وكانت معها ثقيف وغيرُها، وجمعت قريش جموعها من كنانة والأحابيش ـ وهم حلفاء قريش ـ وكان رئيسَ بني هاشم الزبيرُ بنُ عبد المطلب ومعه إخوته: أبو طالب، وحمزة، والعباس وابنُ أخيه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكان على بني أميّة حربُ بنُ أميّة، وله القيادة العامة؛ لمكانِه في قريش شرفاً وسناً. وهكذا كان على كل بطن من بطون قريش رئيس، ثم تناجزوا الحرب، . . . .

قوله: (قتله غدراً)؛ أي: وكان ذلك في الشهر الحرام.

قال ابن هشام: فلذلك سمي حرب الفجار[1].

وقال بعد ذلك: وإنما سمي يوم الفجار بما استَحل هذان الحيان ـ كنانة، وقيس عيلان ـ فيه من المحارم بينهم[2].

قوله: (ويحذرهم قيساً)؛ أي: قيسَ هوازن، ولما بلغ بني كنانة الخبر، انطلقوا، وهوازن لا تشعر.

قوله: (والأحابيش): في «القاموس»: حُبْشِيٌّ: جبل بأسفل مكة، ومنه:

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٢٦).

فكان يوماً من أشدّ أيام العرب هَولاً، ولما استُحِلَّ فيه مِنْ حُرُمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب سُمي يوم الفِجار. وكادت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها، ولكن أدركهم مَنْ دَعَا المتحاربين للصلح على أن يُحصُوا قتلى الفريقين، فمَن وجد قَتلاه أكثر، أخذ ديَة الزائد، فكانت لقيس زيادة أخذوا ديتها من قريش، وتعهد بها حربُ بن أمية، ورهن لسَدَادها ولده أبا سفيان. وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب، تبدؤها صغيراتُ الأمور حتى أَلّفَ الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[1].

أحابيش قريش؛ لأنهم تحالفوا بالله إنهم لَيَدٌ على غيرهم ما سَجَا ليلٌ، ووضح نهار، وما رسا حُبْشيٌّ. اهـ[2]؛ أي: ما بقي هذا الجبل.

قوله: (ولكن أدركهم من دعا المتحاربين للصلح): هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابنُ أخي حرب بن أمية الذي كان قائداً على بني أمية، فإنه خرج بغير إذن عمه، فلم يشعر به إلا وهو على بعير بين الصفين ينادي: يا معشر مضر! عَلامَ تفانون؟ فقالت هوازن: ما تدعو إليه؟ قال: الصلح الصلح؛ على أن ندفع لكم دية قتلاكم، ونعفوا[3] عن دمائنا، قالوا: ومن أنت؟ قال أنا عتبة بن ربيعة، فرضيت به هوازن وكنانة وقريش، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً رهناً إلى حين تأدية الديات، فيهم حكيمُ بنُ حزام ابنُ أخي خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ، فلما رأت هوازن الرهن في أيديهم، عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار. اهـ. حلبي ملخصاً[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حبش).

(٣) في النسختين و«السيرة الحلبية»: «وتعفوا»، والمثبت من «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٣٢١). الصواب: نعفو [من دون ألف؛ لأن الواو من أصل الكلمة].

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٠).

حِلف الفضول

وعند رجوع قريش من حرب الفِجَار تداعَوا لحلف الفُضُول، فتمَّ في دار عبدالله بن جُدْعَان التَّيْمِي أحدِ رؤساء قريش، . . . .

حلف الفضول

قوله: (حلف الفضول): الحلف: اليمين والعهد.

والفضول: ما يؤخذ ظلماً.

وسبب هذا الحلف: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان من أهل الشرف والقدر بمكة، فحبس عنه حقَّه، فاستدعى عليه الزبيديُّ الأحلافَ من بني عبد الدار ومخزوم وجُمَحَ وغيرِهم، فأبوا أن يعينوا على العاص، فرقى الزبيدي جبل أبي قبيس، وأنشد أبياتاً شكى فيها مظلمته، فبلغ ذلك الزبيرَ وعبدَالله بن جدعان، وقيل: قام فيه العباس وأبو سفيان، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يردوا إليه حقه، شريفاً أو وضيعاً، ثم مشوا إلى العاص، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها له. اهـ. دحلاني ملخصاً[1].

قوله: (في دار عبدالله بن جدعان): كان عبدالله ذا شرف وسن، وهو من جملة من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية بعد أن كان مغرقاً بها، وسبب ذلك أنه سكر ليلة، فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه، فضحك منه جلساؤه، ثم أخبروه بذلك حين صحا، فحلف لا يشتريها أبداً.

وكان من الكرماء المشهورين، يذبح في داره كل يوم جزوراً وينادي مناديه: من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان، وكان يطبخ عنده الفالوذج ويطعمه قريشاً. اهـ. دحلاني ملخصاً[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٠٦).

وكان المتحالفون: بني هاشم وبني المطلب ابنَي عبد مناف، وبني أسد بن عبد العزّى، وبني زهرة بن كلاب، وبني تَيْم بن مُرّة، تحالفوا وتعاقدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، حتى تُردّ إليه مَظْلِمتُه، وقد حضر هذا الحلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مع أعمامه، وقال بعد أن شرّفه الله بالرسالة: «لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جُدعان ما أُحبّ أن لي به حُمْرَ النَّعَم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[1]، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام مبعوث بمكارم الأخلاق، وهذا منها، وقد أقر دينُ الإسلام كثيراً منها، يرشدك إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2]، وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا[3].

قوله: (فأنصفوا): توضيحه: أنه كان بين الحسين بن علي وبين الوليد بن عتبة منازعة في مال، فقال الحسين للوليد: أحلف بالله لتنصفني من حقي، أو لآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لأدعون لحلف الفضول؛ أي: لحلفٍ كحلفِ الفضول، وهو نصرةُ المظلوم على الظالم.

ووافقه على ذلك جماعة، منهم: عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ؛ لأنه كان إذ ذاك في المدينة، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة، أنصف الحسين من حقه

---

(١) رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٢٥٧)، من حديث عائشة وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٨٩٤٩)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٥): ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن رزق، وهو ثقة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١١ ـ ٢١٣).

رحلته إلى الشام المرة الثانية

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وعشرين سنة، سافر إلى الشام المرّة الثانية، وذلك أن خديجةَ بنتَ خُويلدٍ الأسديةَ كانت سيدة تاجرة ذاتَ شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه، فلما سمعت عن محمد صلى الله عليه وسلم من الأمانة وصِدق الحديث ما لم تعرفه في غيره حتى سمّاه قومه الأمين، استأجرته ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ممّا كانت تعطي غيره، فسافر مع غلامها مَيْسرةَ، فباعا وابتاعا، وربحا ربحاً عظيماً، وظهر للنبي الكريم في هذه السفرة من البركات ما حبّبه في قلب ميسرة غلام خديجة[1].

حتى رضي. اهـ. حلبي[2].

رحلته إلى الشام المرة الثانية

قوله: (سافر إلى الشام المرة الثانية): سبب ذلك: أن عمه أبا طالب قال له: يا بن أخي! أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد علينا الزمان، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها، فلو جئتها، لفضلتك على غيرك؛ لما يبلغها عنك من طهارتك، فقال صلى الله عليه وسلم: «**لعلها ترسل إليّ في ذلك**»[3].

انظر إلى علو نفسه صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٥).

(٣) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٥٨) عن نفيسة بنت منية، وعزاه لابن سعد وابن السكن وأبي نعيم.

فبلغ خديجةَ ما كان من محاورة عمه له، فأرسلت إليه وقالت: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعفَ ما أعطي رجلاً من قومك، فذكر ذلك لعمه، فقال: هذا رزق ساقه الله إليك.

فخرج ومعه ميسرةُ غلامُ خديجة في تجارة لها، فسار صلى الله عليه وسلم حتى بلغ سوق بصرى، فنزل تحت شجرة قريبة من صومعة نسطورا الراهب، فاطلع نسطورا إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة! من هذا الذي تحت الشجرة؟ فقال: رجل من قريش من أهل الحرم، فدنا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن عرف العلامات الدالة على نبوته في الكتب القديمة؛ كحمرة عينيه، وقبَّل رأسه وقدميه، وقال: آمنتُ بك، وأنا أشهد أنك الذي ذكر الله في التوراة[1].

وفي رواية: قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ فقال ميسرة: نعم، لا تفارقُه أبداً، قال: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليتني أدركه حين يؤمر بالخروج، فوعى ذلك ميسرة[2].

ثم حضر صلى الله عليه وسلم سوق بصرى، فباع سلعته التي خرج بها، وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال: «ما حلفت بهما قط»، فقال الرجل: القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة ـ وخلا به ـ: هذا نبي، والذي نفسي بيده! إنه الذي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم، فوعى ذلك ميسرة، وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يُظلانه في الشمس.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٠)، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

وقبل أن يصلوا إلى بصرى عيي بعيران لخديجة، وتخلف معهما ميسرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الركب، فخاف ميسرةُ على نفسه، فانطلق يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده على أخفافهما وعوَّذهما، فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء.

وألقى الله محبة النبي صلى الله عليه وسلم في قلب ميسرة حتى كأنه عبده.

ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهيرة، وخديجةُ في عُلِّيَة لها رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعير ومَلَكان يُظلانه، فأرته نساءها، فعجبن لذلك[1].

وذكر ابن إسحاق: أنه كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش! إنه يوشك فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له، فلتفعلْ، فحصبنه بالحجارة، وقبحنه وأغلظن له، وأغضت خديجة على قوله، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء، ووقر ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرةُ بما رأى من الآيات مع ما رأته هي، قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً، ما ذاك إلا هذا[2].

زواجه خديجة

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٠ ـ ١٣١، ١٥٦) عن نفيسة بنت منية ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٢/ ١٥٨ ـ ١٦٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢١٩).

(٢) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٦٤)، وعزاه لابن إسحاق. ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٥) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فلما قَدِما مكة، ورأت خديجة ربحَها العظيم، سُرَّت من الأمين عليه الصلاة والسلام، وأرسلت إليه تخْطُبُهُ لنفسها، وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسباً، وأوسعِهم مالاً، فقام الأمين عليه الصلاة والسلام مع أعمامه حتى دخل على عمّها عمرِو بنِ أسد، فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب، فزوّجها عمُّها.

قوله: (ورأت خديجة ربحها العظيم...) إلخ: ليس سبب زواجها به ما رأته من ربحها العظيم، ونحن نحاشي السيدة خديجة من ذلك.

قال السيد الدحلاني: سبب عرضها نفسَها: ما حدثها به غلامها ميسرةُ، مع ما رأته هي من الآيات، وقد ذكرت ما رأته من الآيات، وما حدثها به ميسرة لابن عمها ورقةَ بنِ نوفل، فقال لها: إن كان هذا حقّاً يا خديجة؛ فإن محمداً نبيُّ هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبيٌّ منتظَر، وهذا زمانه. اهـ[1].

قوله: (وأرسلت إليه تخطبه لنفسها): كان الرسولُ نفيسةَ بنتَ منيةَ ـ رضي الله عنها ـ.

روي عنها: أنها قالت: أرسلتني خديجةُ دسيساً ـ أي خفيةً ـ إلى محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقالت: يا محمد! ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: «ما بيدي ما أتزوج به»، قلت: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيت إلى المال والجمال، والشرفِ والكمال، ألا تجيب؟ قال: «فمن هي؟» قلت: هي خديجة، قال[2]: «وكيف لي بذلك؟» قلت: علَيَّ[3]، [قال][4]: «وأنا أفعل»، فذهبتُ إليها فأخبرتها، فأرسلت إليه: أن ائتِ الساعةَ كذا، وأرسلت إلى عمها

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٣).

(٢) في الأصل: «قلت»، والتصويب من «الطبقات الكبرى» و«السيرة النبوية» لدحلان.

(٣) في الأصل: «بلى»، والتصويب من «الطبقات الكبرى».

(٤) ما بين معكوفتين من «الطبقات الكبرى».

وقد خطب أبو طالب في هذا اليوم فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرعِ إسماعيل، وضِئْضِئِ معدّ، وعنصر مُضَر، وجعلَنا حَضَنةَ بيته، وسُوّاس حرمه، وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلَنا حكّام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمدَ بنَ عبدالله لا يُوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظِلٌّ زائل، وأمر حائل، وعارية مستردّة، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجةَ، وقد بذل لها من الصَّدَاقِ كذا[1]. وعلى ذلك تم الأمر.

عمرِو بنِ أسد ليزوجها[2].

فذكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأعمامه، ففرحوا، وخرج معه أبو طالب وحمزة حتى دخلا على خويلدٍ أبيها، ـ وقيل: عمها عمرو ـ، فخطبها أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم، فرضي، وأصدَقَها عشرين بكرة، وقيل: اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، والنَّشُّ: نصف أوقية، وقيل: أربع مئة دينار. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وضئضئ)؛ أي: أصل، وهو كجِرْجِر وجرجير وضُؤْضُوء وضَؤضَوء.

وكان زَواجه بها بعد مجيئه من سفره بشهرين وعشرين يوماً[4].

---

(١) رواه العسكري في «الأوائل» (ص: ٢٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣١ ـ ١٣٢) عن نفيسة بنت منية ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢). وقال الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٦٥): «قال ابن إسحاق في المبتدأ: وكان تزويجه لها بعد مجيئه من الشام بشهرين وخمسة وعشرين يوماً».

وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالةَ، توفي عنها وله منها ولد اسمُه هالـةُ، وهو ربيبُ المصطفى عليه الصلاة والسلام[1].

بناء البيت

ولما بلغت سنه عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة، جاء سـيل جارف فصدَّع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها قبل، فأرادت قـريش هـدمها ليرفعوهـا ويسـقفوها؛ فإنهـا كانـت رضـيمة فـوق القامـة، فاجتمعت قبائلُهم لذلك، ولكنهم هابوا هدمها؛ لمكانها في قلـوبهم. فقـال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإسـاءة؟ قـالوا: بـل الإصلاح، قال: إن الله لا يهلك المُصلِحين[2]، . . . .

قوله: (وقد كانت متزوجة قبله بأبي هالة): قال الدحلاني: وبعـد أبـي هالـة تزوجها عتيقُ بنُ عابد المخزومي، فولدت له بنتاً اسمُها هند، أسلمت وصحبت النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ترو شـيئاً، وقيـل: إن عتيقـاً تزوجهـا قبـل أبـي هالة. اهـ[3].

بناء البيت

قوله: (هابوا هدمها. . .) إلخ؛ أي: خشية أن يحصل لهم بسببه بلاء. اهـ. حلبي[4].

وروي لذلك سبب آخر: وهو أنهم لما أرادوا بناءها قام أبو وهب عمرو بن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٦ـ ١١٧)، و«السيرة الحلبيـة» لنـور الدين الحلبي (١/ ٢٢٦ـ ٢٢٧).

(٢) رواه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٥٩) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٢).

وشرع يهدم، فتبعوه وهدموا حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل، وهناك وجدوا صِحافاً نُقش فيها كثير من الحِكَم على عادة مَنْ يضعون أساس بناء شهير ليكون تذكرة للمتأخرين بعمل المتقدمين.

عائذ، فتناول منها حجراً، فوثب في يده حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك: يا معشر قريش! لا تُدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، وفي لفظ: لا تدخلوا في نفقة هذا البيت مهر بَغِيّ، ولا بيعَ رباً، وفي لفظ: لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً، ولا قطعتم فيه رحماً، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين الناس. اهـ. منه[1].

وهذا السبب نستبعد صحته، والذي ذكره المؤلف الصحيح المعقول.

قال الحلبي: وأبو وهب هذا خال عبدالله أبي النبي صلى الله عليه وسلم، وكان شريفاً في قومه[2].

قوله: (نقش فيها كثير من الحكم): قال الحلبي: وجدت قريش في الركن كتاباً بالسريانية، فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السماوات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا يزول أخشباها، يبارك لأهلها في الماء واللبن.

ووجدوا في المقام كتاباً آخر مكتوب فيه: مكة بلد الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاث سبل.

ووجدوا كتاباً آخر مكتوب فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شرّاً يحصد ندامة، تعملون السيئات وتجزون الحسنات، أجل ـ أي: نعم ـ كما يجنى من الشوك العنب؛ أي: الثمر[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٢).

ثم ابتدؤوا في البناء، وأعدّوا لذلك نفقة ليس فيها مَهرُ بغيٍّ، ولا بيعُ رِبًا، وجعل الأشرافُ من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم، وكان العباس ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيمن يحمل، وكان الذي يلي البناء نجار رومي اسمه باقوم، وقد خصّص لكل ركن جماعة من العظماء ينقلون إليه الحجارة، وقد ضاقت بهم النفقة الطيبة عن إتمامه على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْرَ، وبنوا عليه جداراً قصيراً، علامةً على أنه من الكعبة، ولما تم البناء ثمانية عشر ذراعاً؛ بحيث زِيدَ فيه عن أصله تسعةُ أذرع، . . . . .

وذكر الحلبي كتباً أخرى[1].

قوله: (وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل): في الحلبي: روى الشيخان عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما بنيت الكعبة، ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس ـ رضي الله عنهما ـ ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة ـ أي: كبقية القوم، فإنهم كانوا يضعون أُزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ـ، ففعل صلى الله عليه وسلم، فخر إلى الأرض، فطمحت عيناه[2] إلى السماء، ونودي: عورتك! فقال: «إزاري» ـ أي: شدوا عليَّ إزاري، فشدَّ عليه. اهـ[3].

قوله: (اسمه باقوم): قيل: إنه كان مولى لسعيد بن العاص، وقيل: إن البحر كان قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة، وكانت تلك السفينة لرجل من تجار الروم اسمه باقوم، وكان بانياً، وكان في السفينة رخام وخشب وحديد، فلما انكسرت السفينة، خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى السفينة، فابتاعوا

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٣).

(٢) في الأصل: «عينيه»، والتصويب من مصدري التخريج و«السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣١)، والحديث رواه البخاري (٣٨٢٩)، ومسلم (٣٤٠).

ورفع الباب عن الأرض بحيث لا يُصعد إليه إلا بدرج، أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه، فاختلف أشرافهم فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتى كادت تشبّ بينهم نار الحرب، ودام بينهم هذا الخصام أربع ليالٍ، وكان أسنّ رجل في قريش إذ ذاك أبو أميةَ بنُ المغيرة المخزوميُّ عمُّ خالد بن الوليد، فقال لهم: يا قوم! لا تختلفوا، وحكِّموا بينكم من ترضون بحكمه. فقالوا: نَكِلُ الأمر لأوّل داخل، فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام، فاطمأن الجميع له؛ لِمَا يعهدونه فيه من الأمانة وصدق الحديث، وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد؛ . . . .

خشبها، فأعدوه لسقف الكعبة، وجاؤوا بباقوم الرومي إلى مكة. اهـ. حلبي ملخصاً[1].

قوله: (حتى كادت تشب بينهم نار الحرب): في الحلبي: قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي؛ أي: تحالفوا على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا: لقعة الدم. اهـ[2].

قوله: (أبو أمية): اسمه حذيفة، وهو عم خالد بن الوليد، ووالد أم سلمة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ، وهو أحد أجداد قريش المشهورين بالكرم، وكان يعرف بزاد الراكب؛ لأنه إذا سار لا يتزود معه أحد، بل يكفي كلَّ من سافر معه الزادَ. اهـ. حلبي[3].

قوله: (فقالوا: نكل الأمر لأول داخل): عبارة الحلبي صريحة في أن القائل هو أبو أمية، ونصها: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يُداري ولا يُماري، فلما أخبروه الخبر، بسط رداءه وقال: «لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب»، ثم وضع فيه الحجر، وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه ووضعه فيه[1].

وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيراً ما يكون أمثالها سبباً في انتشار حروب هائلة بين العرب، لولا أن يمنَّ الله عليهم بعاقلٍ مثلِ أبي أمية يرشدهم إلى الخير، وحكيمٍ مثل الرسول صلى الله عليه وسلم يقضي بينهم بما يُرضي جميعهم.

ولا يُستغرب من قريش تنافسُهم هذا؛ لأن البيت قِبلَة العرب وكعبتهم التي يحجّون إليها، فكل عمل فيه عظيم به الفخر والسيادة، وهو أول بيت وُضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم، قال تعالى في سورة آل عمران: . . . .

مَن يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم، وهو باب بني شيبة. اهـ[2].

قوله: (لا يداري ولا يماري)؛ أي: لا يشاغب ولا يخالف، وهو مهموز، وروي في الحديث غير مهموز ليزاوج يماري. اهـ. «نهاية»[3].

وفي «زاد المعاد»: كنتَ تداري ولا تماري[4]، و(تدارئ) بالهمزة من المدارأة، وهي مدافعة الحق، فإن تُرك همزُها، صارت من المداراة، وهي المدافعة بالتي أحسن[5].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٦٨٣) عن عبدالله بن السائب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٦).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ١١٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٦)، من حديث السائب بن أبي السائب ـ رضي الله عنه ـ في وصفه لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

(٥) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم الجوزية (١/ ١٦١ ـ ١٦٢).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧]، وكان يلي أمره بعد ولد إسماعيل قبيلةُ جُرهم، فلما بَغَوا وظلموا مَنْ دخل مكة، اجتمعت عليهم خزاعةُ وأجلَوهم عن البيت، . . . .

قوله: (**﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ٩٦]. . . إلخ**): **﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾**؛ أي: وضع للعبادة، وجُعل متعبَّداً لهم.

وقوله: (**﴿مُبَارَكًا﴾**)؛ أي: كثير الخير والنفع.

(**﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦]**): لأنه قبلتهم.

(**﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾**): كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وإن كل جبار قصده بسوء قهره.

(**﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾**): مبتدأ خبره محذوف؛ أي: منها مقامُ إبراهيم، وقيل: عطف بيان على أن المراد بالآيات أثرُ القدم في الصخرة الصماء.

(**﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[آل عمران: ٩٦]**)؛ أي: ومنها: آمنٌ مَن دخله.

قال الحلبي: الحق أن الكعبة لم تبن جميعها إلا ثلاث مرات: المرة الأولى: بناء إبراهيم عليه السلام، والثانية: بناء قريش، وكان بينهما ألفا سنة وسبع مئة سنة وخمس وسبعون سنة، والثالثة: بناء عبدالله بن الزبير، وكان بينهما نحو اثنتين وثمانين سنة.

وأما بناء الملائكة وبناء آدم وبناء شيث؛ فلم يصح، وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي؛ فإنما كان ترميماً. اهـ[١].

قوله: (**وأجلوهم عن البيت**): ولهذا قال شاعرهم عامرُ بنُ الحارث الجرهميّ:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٧٩).

وولِيته خزاعةُ حيناً من الدهر، ثم أخذته منهم قريش في عهد قصيٍّ بن كلاب، وبسببه أَمِنوا في بلادهم، فكانت قبائل العرب تهابهم، وإذا احتموا به كان حصناً أميناً من اعتداء العادين، وامتنّ الله عليهم بذلك في تنزيله، فقال في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا . . . .

وكنا وُلاةَ البيت من بعد نابتٍ ... نطوفُ بذاك البيت والأمرُ ظاهرُ

كأن لم يكنْ بين الحَجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكةَ سامرُ

بلى نحن كنا أهلَها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

اهـ. أبو الفداء[1].

والعواثر: التعساء.

قوله: (وولِيته خزاعة حيناً. . .) إلخ: كانت ولاية البيت لخزاعة، وانتهت إلى خليل الخزاعي، فأوصى بها لابنته ـ اسمُها حُبَّى كما تقدم ـ زوجِ قصي، فقالت: لا قدرة لي على فتح البيت وإغلاقه، فجعل أبوها ذلك لأبي غُبشان الخزاعي، فاشترى منه قصي أمرَ البيت وأمرَ مكة بزقّ من خمر، ثم زاده أذواداً من الإبل وأثواباً، فنازعته خزاعة، فدعا قريشاً وبني كنانة لإعانته، فأعانوه حتى أزاح يدَ خزاعة، وذلك بعد أن اقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل والجرح في الفريقين، إلا أنه في خزاعة أكثر، ثم تداعَوا للصلح، وحَكَّموا يعمرَ بنَ عوف، فقضى لقصي بأنه أولى بولاية مكة، فتولاها. اهـ. دحلاني ملخصاً[2].

قوله: (في سورة القصص): الصواب: في سورة العنكبوت[3].

وقوله تعالى: (﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾)؛ أي: جعلنا بلدهم مصوناً عن النهب

---

(١) انظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١٠٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣).

(٣) وهي في طبعة «نور اليقين» التي أثبتناها في المتن مصححة.

﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧][1].

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

لم يَرث عليه الصلاة والسلام من والده شيئاً، بل ولد يتيماً عائلاً، فاستُرضع في بني سعد، ولما بلغ مبلغاً يمكِّنه أن يعمل عملاً، كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية، وكذلك لمّا رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريطَ كما ذكر البخاري في «صحيحه».

ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمر لا بدّ منه؛ . .

والتعدي، آمناً أهلُه عن القتل والسبي.

(﴿ وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]): يُختلَسون قتلاً وسبياً؛ إذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب. اهـ. بيضاوي[2].

معيشته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة

قوله: (لم يرث عليه السلام. . .) إلخ: هذا سهو، والصواب: أنه ورث خمساً من الإبل، وقطعة من غنم، وجارية هي أم أيمن بركة الحبشيةُ حاضنتُه، كما في «الحلبية»[3].

قوله: (بل ولد يتيماً): قال في «شرح الهمزية»: قال جعفر الصادق: وإنما يتم صلى الله عليه وسلم؛ لئلا يكون لمخلوق في عنقه حق[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٨٥).

(٤) انظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ١٣٦)، والخبر المذكور رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٥).

لأنهم لو وجدوا أغنياء، لألهتهم الدنيا، وشُغلوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقةً على استحسان الزهد فيها، والتباعدِ عنها، وحالُ الأنبياء السالِفين أعظمُ شاهد على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهدَ الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى، وإبراهيم. وكانت حالتهم في صغرهم ليست سَعَة، بل كلهم سَواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه؛ ليكونوا نموذجاً لمتبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافتِ عليها، وذلك سبب البلايا والمحن. وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها كما أخبر عن ذلك الصادقُ المصدوق صلى الله عليه وسلم في حديث للبخاري.

وقال في الحاشية على الشرح المذكور: ذكر بعضهم حكمة يُتمه: أنه لا يجب عليه طاعة لغير الله، وأن لا يكون عليه ولاية لغير الله. اهـ.

قوله: (كما أخبر الصادق المصدوق في حديث للبخاري...) إلخ: الحديث في (كتاب الإجارة)، ونصه فيه: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». اهـ[1].

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة: أن يحصل لهم التمرنُ برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يُحصِّل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سَبُع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرُّقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة؛ ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا

---

(١) رواه البخاري (٢٢٦٢).

وهذه أيضاً من بالغ الحِكَم؛ فإن الإنسان إذا استرعى الغنم ـ وهي أضعف البهائم ـ سكن قلبَه الرأفةُ واللطفُ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق، كان لما هُذِّب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال. . . . .

اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحمُّلهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك عن أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم.

وخُصَّت الغنم بذلك؛ لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرُّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها. اهـ[1].

قال في «الحلبية»: ووقع الافتخار بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فاستطال أصحابُ الإبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بُعث موسى وهو راعي غنم، وبُعث داود وهو راعي غنم، وبُعثتُ أنا وأنا راعي غنم أهلي بأجياد»[2]: موضعٍ بأسفلِ مكةَ من شعابها. اهـ[3].

قوله: (فكان عيسى أزهد الناس في الدنيا): أذكر هنا حكاية عنه عليه السلام كنت رأيتها في بطن الكتب، وغرب عن فكري في أي كتاب، وهي: إن عيسى عليه السلام كان معه ركوة في بعض سياحاته يشرب بها، فمر على نهر، فإذا برجل يغترف الماء بيديه ويشرب، فقال: لا حاجة إذاً إلى الركوة، وألقاها،

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٤/ ٤٤١).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٨٤) عن عبدة بن حَزْن النصري، وهو مختلفٌ في صحبته كما في «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص: ٣٦٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٦).

ولما شبّ عليه الصلاة والسلام كان يتجر، وكان شريكه السائب بن أبي السائب. وذهب بالتجارة لخديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى الشام على جُعْل يأخذه. ولما شرفت خديجة بزواجه، وكانت ذات يسار، عمل في مالها، وكان يأكل من نتيجة عمله. وحقق الله ما امتنّ عليه به في سورة الضحى بقوله جلّ ذكره: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ . . . . .

وصار يشرب بيديه.

قوله: (كان يتاجر)؛ أي: جرياً على ما كانت عليه قريش؛ لأنهم كانوا قوماً تجاراً، ومن لم يكن منهم تاجراً فليس عندهم بشيء. اهـ. دحلاني[1].

ويرشدك إلى ذلك: سورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾.

قوله: (على جعل يأخذه): في «الجامع الصغير» ما نصه: «آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص[2]». اهـ[3].

والقلوص: الشابة من الإبل.

قوله: قوله تعالى: (﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾[الضحى: ٧])؛ أي: ضالاً عما أنت عليه اليوم، فهداك إلى توحيده ونبوته، وقيل: وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، فهداك إليها. اهـ. خازن[4].

وفي البيضاوي: ﴿فَهَدَىٰ﴾: فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٠).

(٢) في الأصل: «قلوصين»، والمثبت من «دلائل النبوة»، و«الجامع الصغير».

(٣) أورده السيوطي في «الجامع الصغير»، وعزاه للبيهقي عن جابر، كما في «ضعيف الجامع الصغير وزياداته» (٢). ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٦٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٣٨).

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾[الضحى: ٦ ـ ٨] بالإيواء والإغناء قبل النبوة والهداية بالنبوة، هداه للكتاب والإيمان ودين إبراهيم عليه السلام، ولم يكن يدري ذلك قبل. قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى: ٥٢][1].

سيرته في قومه قبل البعثة

كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خُلقاً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدَهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، . . . .

وقوله: (﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾)؛ أي: فقيراً ذا عيال، (﴿فَأَغۡنَىٰ﴾[الضحى: ٨]): بما حصل لك من ربح التجارة. اهـ. منه[2].

قوله: (﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾)؛ أي: قرآناً، وقوله: (﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾)؛ أي: شرائع الإيمان ومعالمه، وقيل: الصلاة.

سيرته في قومه قبل البعثة

قوله: (أحسن قومه خلقاً. . .) إلخ: حسن وصف الله تعالى له في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[القلم: ٤]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وأُمر بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[المؤمنون: ٩٦] الآية.

قوله: (وأبعدهم عن الفحش): في الدحلانية: روى الترمذي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: «لم يكن

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).

حتى كان أفضلَ قومه مروءةً، وأكرمَهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدَقهم حديثاً، فسمَّوه الأمين؛ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة؛ من الحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والتواضع، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء[1].

فاحشاً ولا متفحشاً»[2]؛ أي: متكلفاً للفحش؛ أي: لم يقم به فحش طبعاً ولا تكلُّفاً، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. اهـ.

قال في «النهاية»: الفحش: كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال[3].

قوله: (أفضل قومه مروءة): قال في «المصباح»: المروءة: آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميلِ العادات، يقال: مَرُؤَ الإنسان، فهو مريء، مثل: قَرب فهو قريب: ذو مروءة، وقد تُشَدَّد فيقال: مروّة. اهـ[4].

وفي «أدب الدنيا والدين»: المروءة: مراعاة الأحوال التي تكون على أفضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق.

ثم قال: سئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل. اهـ[5].

وفي «الذريعة لمكارم الشريعة» للراغب: استحسن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٦) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤١٥).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: مرأ).

(٥) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٤٠١).

حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه النضرُ بنُ الحارث من بني عبد الدار حيث يقول: قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشَّيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله! ما هو بساحر[1].

من وفدِ عبدِ القيس لما سألهم: «ما المروءة؟» فقالوا: العفة والحرفة[2].

قوله: (وأصدقهم حديثاً) هذا تكرار مع ما قبله، والأَولى حذفُ الأولى لا الثانية؛ لأن لها تتمة، وهي قوله: **(فسموه الأمين...)** إلخ.

قوله: (حيث يقول: قد كان محمد...) إلخ: قال لهم ذلك بعد أن رام أبو جهل أن يفضخ رأس النبي صلى الله عليه وسلم بحجر، وعرض له دونه فحل من الإبل، فرعب منه ورجع، وأخبر قريشاً بما رآه؛ كما بسطه ابن هشام في فصل حديث النضر وما نزل فيه[3].

ثم قال ابن هشام: فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش! إنه والله! قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً... إلخ ما قاله المصنف[4].

وتتمة حديثه بعد قوله: **(ما هو بساحر)**: لقد رأينا السحَرةَ ونفثَهم وعقدَهم، وقلتم: كاهن، لا والله! ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالُجَهم، وسمعنا سجعَهم،

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٨).

(٢) أورده الراغب الأصبهاني في «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص: ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، ولم نقف عليه مسنداً. وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٩٥) عن حبيب التميمي: أن معاوية سأل رجلاً من عبد القيس: ما تعدون المروءة فيكم؟ قال: الحرفة والعفة.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب الذين يحضرون الموسم حتى يكونوا متفقين على قول مقبول يقولونه[1].

وقلتم: شاعر، لا والله! ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه ورَجَزَه، وقلتم: مجنون، لا والله! ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه والله! لقد نزل بكم أمر عظيم. اهـ[2].

قوله: **(قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب)**: القائل لهم في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب ليس النضر بن الحارث، بل هو الوليد ابن المغيرة.

قال الدحلاني: روى ابن إسحاق والحاكم والبيهقي بإسناد جيد: أنه اجتمع في بعض المواسم إلى الوليد نفر من قريش، وكان ذا سِنّ فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش! قد حضرتم هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمِعوا فيه رأياً، ولا تختلفوا فيكذبَ بعضُكم بعضاً، قالوا: فأنت أقم لنا رأياً نقوله فيه، قال: بل أنتم، فقولوا أسمعْ، قالوا: نقول: كاهن، قال: والله! ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: والله! ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا وسوسته، قالوا: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، قالوا: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده، قالوا: فما تقول أنت؟

قال: والله! إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق ـ عَذِق؛

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٨).

ولما سأل هِرَقْلُ ملكُ الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدعَ الكذب على الناس ويكذبَ على الله، ورد ذلك في أول «صحيح البخاري»[1].

وقد حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها وبُغِّضَتْ إليه الأوثان بغضاً شديداً؛ حتى ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عُبَّادُها[2].

كـ (كتف): طيب زكي ـ، وإن فرعه لجناة ـ الجناة: العسل ـ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا أعرفُ أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون في سُبل الناس حين قدموا الموسم لا يمرُّ بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره، فصدرت العرب من ذلك الموسم تتحدث بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها، بل في جميع الآفاق، وانقلب مكرهم عليهم. اهـ[3].

والذي أوقع المصنف في هذا السهو تشابه الكلام في آخر الحديثين.

قوله: (وبغضت إليه الأوثان. . .) إلخ: قال الحلبي: جاء عن أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ: أنها قالت: كان بُوانةُ صنماً تحضره قريش وتعظِّمه وتعكف

---

(١) رواه البخاري (٧، ٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣١ ـ ١٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٨٧٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لما نشأتُ بُغِّضَتْ إليّ الأوثان، وبُغِّض إليّ الشعر»[1]، و«لم أهمّ بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخلَ مكة فأسْمُر كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئتُ أول دارٍ من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست لذلك، فضرب الله على أذنيَّ فنمت، ....

عليه يوماً إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضر مع قومه، ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه، فيأبى ذلك، حتى قالت: رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشدَّ الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، ويقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً؟! فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن: ما دهاك؟ قال: «إني أخشى أن يكون بي لمم»؛ وهو المسُّ من الشيطان، فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: «إني كلما دنوت من صنم منها ـ أي: من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة ـ ؛ تمثَّل لي رجل أبيض طويل ـ أي: وذلك من الملائكة ـ يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسَّه»، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبَّأ صلى الله عليه وسلم. اهـ[2].

قوله: (فأسمر) أصل السمر: الحديث ليلاً.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢). والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٥٨).

فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ولم أقضِ شيئاً، ثم عراني مرة أخرى مثلُ ذلك»[1].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل ما ذبح على النصب، وحرّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، وذلك كله من الصفات التي يُحَلِّي الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقّي وحيه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوّة وبعدها، أما قبل النبوة، فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيُسند إليهم، وأمَّا بعدها، فليكونوا قدوة لأممهم. عليهم من الله أفضلُ الصلوات وأتمُّ التسليمات[2].

قوله: (لا يأكل مما ذبح على النصب): في الحلبي: روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سمعت زيدَ بنَ عمرِو ابنِ نُفيل يعيب كلَّ ما ذُبح لغير الله تعالى، فكان يقول لقريش: الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض الكلأ، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟! فما ذقت شيئاً ذُبح على النصب ـ أي: الأصنام ـ حتى أكرمني الله تعالى برسالته». اهـ[3].

قوله: (وحرم شرب الخمر على نفسه): قال الحلبي: روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: هل عبدت وثناً قط؟ قال:

---

(١) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٧٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٧٢)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥)، و«المواهب اللدنية» (٢/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥ ـ ٢٨٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠١). والحديث المذكور رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (١/ ١٨٨).

ما أكرمه الله به قبل النبوّة

أولُ منحة من الله : ما حصل من البركات على آل حليمة الـذين كـان مسترضَعاً فيهم ؛ فقد كانوا قبل حلوله بناديهم مجـدبين ، فلمـا صـار بيـنهم ، صارت غُنَيماتهم تؤوب من مرعاها وإن أضراعها لتسيلُ لبنـاً ، ويـرحم الله البوصيري حيث يقول في «همزيته» :

وإذا ســـخَّر الإلـــه أُناســـاً   لســـعيدٍ فـــإنَّهم سُـــعداءُ[1]

ثم أعقب ذلك ما حصل من شق صدره وإخراج حظِّ الشيطان منـه ، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى ، فمـن اسـتبعد ذلـك كـان قليـل النظر ، لا يعرف من قوة الله شيئاً ؛ لأن خرق العادات للأنبياء لـيس بـالأمر المستحدَث ولا المستغرَب[2] .

«لا» ، قالوا : هل شربت خمراً قط؟ قال : «لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان» . اهـ[3] .

ثم قال : وفي «الخصائص الصغرى» للسيوطي : وحرمت عليه الخمر مـن قبل ما يُبعث قبل أن تحرم على الناس بعشرين سنة . اهـ[4] .

ما أكرمه الله به قبل النبوة

---

(١) انظر : «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص : ٤٢) .

(٢) انظر : «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٩٥ ـ ٩٦) ، و«السـيرة الحلبيـة» لنـور الدين الحلبي (١/ ١٥٣ ـ ١٥٤) .

(٣) انظر : «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٠٤) . والحـديث المـذكور أورده ابن منظور في «مختصر تاريخ دمشق» (١/ ١٥٠) .

(٤) انظر : «أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب» للسيوطي (١/ ١٦١) .

ومن المكرمات الإلهية: تسخيرُ الغمامة له في سفره إلى الشام، حتى كانت تُظِله في اليوم الصائف، لا يشترك معه أحد في القافلة، كما روى ذلك ميسرةُ غلام خديجة الذي كان مُشاركاً له في سفره، وهذا ما حبّبه إلى خديجة حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً[1].

ولذلك لما جاءته النبوّة كانت أسرع الناس إيماناً به، ولم تنتظر آيةً أخرى زيادة على ما علمَتْه من مكارم الأخلاق، وما سمعته من خوارق العادات.

ومن منن الله عليه: ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار، فكان إذا خرج لحاجته، أبعدَ حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى أحداً، وقد حدَّث بذلك عن نفسه[2].

قوله: (وقد حدث بذلك عن نفسه): قال الحلبي: عن [جابر بن][3] سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرفُ حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن». اهـ[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٠٧)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٢٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

(٣) ما بين معكوفتين من مصدر التخريج.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٦١)، والحديث رواه مسلم (٢٢٧٧).

وليس في ذلك كبيرُ إشكال؛ فقد سخّر الله الجماداتِ للأنبياء قبله، فعصا موسى التقمت ما صنع سَحَرَة فرعون بعد أن تحوّلت حيّة تسعى، ثم رجعت كما كانت، . . . .

ثم قال: وإلى تسليم الأحجار قبل البعثة يشير الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ في «تائيته» بقوله:

وما جُزْتَ بالأحجار إلا وسلَّمَتْ عليكَ بنطقٍ شاهد قبل بعثةِ

قال السهيلي: يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاماً مقروناً بحياة وعلم، ويحتمل أن يكون صوتاً مجرداً غير مقترن بحياة وعلم، وعلى كلٍّ هو عَلَم من أعلام النبوة[1].

قال الشيخ محيي الدين بن العربي: أكثر العقلاء بل كلهم يقولون عن الجمادات: لا تعقل، فوقفوا عند بصرهم، والأمر عندنا ليس كذلك، فإذا جاءهم عن نبي أو ولي أن حجراً كلمه مثلاً يقولون: خلق الله فيه العلم والحياة في ذلك الوقت، والأمر عندنا ليس كذلك، بل سرُّ الحياة سارٍ في جميع العالم، وقد ورد أن كل شيء سمع صوتَ المؤذن من رطب ويابس يشهد له[2]، ولا يشهد إلا من علم. اهـ[3].

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٣٩٩).

(٢) روى أبو داود (٥١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤذن يُغفر له مدى صوته، ويشهد له كلُّ رطب ويابس».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

بحث شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في رسالته: «الكلام على الفطرة»، وبسط أدلّتَها من الكتاب والسنة، وخلص إلى أن الجمادات فُطرت على معرفة =

ولما ضرب بها الحجر، نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً؛ لكل سبط من أسباط بني إسرائيل عين. وكذلك غيره من الأنبياء سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم وخَطَارة شأنهم.

قوله: (ولما ضرب بها الحجر): كان منه ذلك لما صار بنو إسرائيل في التيه، فقالوا لموسى عليه السلام: قد صرنا في أرض لا ماء فيها ولا ظل ولا طعام، فأمر الله موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط

= ربِّها معرفةً تليق بها، ومما قاله رحمه الله: أخبر سبحانه أنه خاطب الجمادات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، والتأويب: هو ترجيع التسبيح، وأخبر سبحانه عن الحجارة أن منها لما يهبط من خشية الله، وهذا يدلُّ على أنها تعرفُ ربها معرفةً تليق بها، فإن الخشيةَ تستلزمُ العلم بالمَخشيِّ... والمقصود: إذا كانت هذه الجمادات قد فُطرت على معرفة ربِّها وتسبيحه وتنزيهه، الإنسان أشرف منها؛ فلأنْ يُفطر على معرفته بربِّه بطريق الأَولى والأحرى؛ لِما رَكَّب اللهُ فيه من العقل والتمييز والفطنة، لا سيما وقد نطق الكتاب والسنة بأنه فطره على الإسلام.

ثم نقل عن العز بن عبد السلام رحمه الله المذاهبَ في هذه المسألة فقال: قال ابن عبد السلام: للعلماء في الحجارة وأنها تهبط من خشية الله ثلاث مذاهب:

قالت الصوفية: هي حيوان، وفيها جزءٌ حيٌّ تسبح الله تعالى، وتخرُّ له، وتسجد له.

وقال آخرون: هذا من مجاز التشبيه.

وقال الأشعري: الله تعالى يخلق لها حياة عند إرادة ذلك منها.

ثم نقض شيخ الإسلام هذه الأقوال الثلاثة لمخالفتها لما قَرَّره. انظر: «مجموعة الرسائل الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٢).

تبشير التوراة به

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التي تناسب أهل ذاك الزمن، ونوّه فيها بذكر كثيرٍ من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم، فمما جاء فيها تبشيراً برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم خطاباً لسيّدنا موسى عليه السلام: وسوف أُقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به، ومَنْ لم يُطِعْ كلامه الذي يتكلم به باسمي، فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترئُ عليّ بالكبرياء، ويتكلم باسمي بما لم آمره به، أو باسم آلهة أخرى، فليقتلْ، وإذا أحببتَ أن تميز بين النبي الصادق والكاذب، فهذه علامتك: إنّ ما قاله ذلك النبي باسم الرب، ولم يحدث، فهو كاذب يريد تعظيم نفسه، ولذلك لا تخشاه». ويقول اليهود: إن هذه البشارة ليوشعَ بنِ نون خليفةِ موسى عليه السلام، . . . .

عين، وظلَّل الله عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى[1].

والمَنُّ: شيء كالصمغ، طعمه كالشهد، كان يقع كل ليلة على الشجر ويأكلون منه.

والسلوى: طائر يشبه السُّمانَى، كان يأتيهم كل يوم، فيسترسل إليهم فيأخذونه.

تبشير التوراة به

قوله: (ونوه فيها): قال في «المصباح»: نوه به تنويهاً: رفع ذكره وعظَّمه، وفي حديث عمر: أنا أول من نَوَّه بالعرب[2]؛ أي: رفع ذكرهم بالديوان

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) لم نقف عليه مسنداً، وأورده الأزهري في «تهذيب اللغة» (٦/ ٢٣٣).

مع أنهم كانوا ينتظرون في مدّة المسيح نبيّاً آخر غيرَ المسيح؛ فإنهم أرسلوا ليوحنا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه، فقالوا له: أنت إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنت النبي؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذاً تُعَمِّدُ إذا كنت لست إيليا ولا المسيحَ ولا النبي؟ فهذه تدلّ على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبيّ لم يأتِ حتى زمن المسيح، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي صلى الله عليه وسلم إنه مثلُ موسى، وقد نصّت في آخر سفْر التثنية على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبيٌّ مثلُ موسى، . . . .

والإعطاء. اهـ[1].

قوله: (مع أنهم كانوا ينتظرون. . .) إلخ: شروع في إبطال ما يقوله اليهود.

قال في «إظهار الحق»: وأيضاً وقع في البشارة: (سوف أُقيم)، ويوشع عليه السلام كان حاضراً عند موسى، داخلاً في بني إسرائيل نبيّاً في هذا الوقت، فكيف يصدق عليه هذا اللفظ؟!

وأيضاً: وقع في هذه البشارة لفظ: (أجعلُ كلامي في فمه)، وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب، وإلى أنه يكون أميّاً حافظاً للكلام، وهذا لا يصدق على يوشع؛ لانتفاء كلا الأمرين فيه. اهـ[2].

قوله: (ونبي لم يأت حتى زمن المسيح)؛ أي: فكيف يكون المراد به يوشعَ ابنَ نون كما تزعم اليهود، ويوشعُ قبل عيسى بكثير؟.

قوله: (نبي مثل موسى)؛ أي: فكيف يكون المراد به يوشع بن نون؟.

قال في «إظهار الحق»: لا مماثلة بين يوشع وبين موسى؛ فإن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامرَ ونواهٍ، ويوشعُ ليس كذلك، بل

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: نوه).

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١٢٠ ـ ١١٢١).

هو مُتَّبع لشريعة موسى.

وأيضاً: لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى؛ لأن عيسى كان إلهاً وربّاً على زعم النصارى، وموسى كان عبداً له.

وعيسى على زعمهم صار ملعوناً لشفاعة الخلق؛ كما صرَّح به بولس في الباب الثالث من «رسالته إلى أهل غلاطية»، وموسى ما صار ملعوناً لشفاعتهم.

وإن عيسى دخل الجحيم بعد موته؛ كما هو مصرَّح به في عقائد أهل التثليث، وموسى ما دخل الجحيم.

وإن عيسى صلب على زعمهم ليكون كفَّارة لأُمَّته، وموسى ما صار كفَّارة لأُمَّته.

وشريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيرات وغير ذلك، وشريعة عيسى فارغة عنها.

وموسى كان نبيّاً مطاعاً في قومه، نفَّاذاً لأوامره ونواهيه، وعيسى عليه السلام ليس كذلك. اهـ[1].

وقال ابن القيم في «هداية الحيارى»: والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل، لا من بني إسرائيل، فلو كان المراد بها هو المسيح؛ لقال: (أُقيم لهم نبيّاً من أنفسهم)؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[آل عمران: ١٦٤].

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولا يقال في لغة أمة من الأمم: إن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل، كما أن إخوة زيد لا يدخل فيهم زيدٌ نفسُه[2].

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١١٧ ـ ١١١٨).

(٢) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٢).

وورد في هذه البشارة: أن النبي الذي يفتري على الله يُقتل، ويُشْبهُ ذلك في القرآن قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ . . . . .

وقال بعد ذلك: قال في التوراة في السفر الخامس: (قال موسى لبني إسرائيل: لا تطيعوا العرَّافين والمنجِّمين، فسيقيم لكم الرَّبُّ نبيّاً من إخوتكم مثلي، فأطيعوا ذلك النبي)، ولا يجوز أن يكون هذا النبي الموعود به من أنفس بني إسرائيل كما[1] تقدم أن إخوة القوم ليسوا أنفسهم؛ كما يقال: بكر وتغلب أبناء وائل، ثم يقول: تغلب إخوة بكر، وبنو بكر إخوة ابن[2] تغلب، فلو قلت: إخوة بني بكر بنو بكر؛ كان مُحالاً.

ولو قلت لرجل: ائتني برجل من إخوة بني بكر بن وائل؛ [لكان] الواجب أن يأتيك برجل من بني تغلب بن وائل، لا بواحد من بني بكر. اهـ[3].

وقال قبل ذلك ـ في الرد على بعض اليهود القائلين: المراد به: شمويل النبي ـ: البشارةُ إنما وقعت بنبي من إخوتهم، وإخوةُ القوم هم بنو أبيهم، وهم بنو إسماعيل[4].

قوله: (يقتل)؛ أي: ولو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً، لكان يقتل.

قوله تعالى: (﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾)؛ أي: اختلق علينا.

(﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾)؛ يعني: أتى بشيء من عند نفسه لم نقله نحن، ولم نُوحِه إليه.

---

(١) في «هداية الحيارى»: «لما».

(٢) في «هداية الحيارى»: «بني».

(٣) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٢).

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. ونبينا صلى الله عليه وسلم مكث بين أعدائه الألِدَّاد من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنة يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم، وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، أكان يعجز الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ أن يعاقب من ينسب إليه ما لم يقله، وهو الذي قال في سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، ....

(﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾)؛ أي: لأخذناه بالقوة والقدرة، وانتقمنا منه باليمين؛ أي: بالحق.

قال ابن عباس: لأخذناه بالقوة والقدرة[١].

قال الشماخ يمدح عَرابةَ ملكَ اليمن:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تَلَقَّاها عَرابةُ باليمين[٢]

أي: بالقوة.

فعبر عن القوة باليمين؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه.

وقوله تعالى: (﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾)؛ يعني: نياط القلب، وقيل: هو حبل الظهر، وقيل: هو عِرْق يجري بالظهر حتى يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه.

قال ابن قتيبة: لم يرد أنَّا نقطعه بعينه، بل المراد منه: أنه لو كذب علينا، لأمتناه. اهـ. خازن ملخصاً[٣].

---

(١) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٣٩٠).

(٢) انظر: «ديوان الشماخ» (ص: ٣٣٦).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٣٨).

وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي نعرف بها صدق النبي من كذبه، وهي الإخبار بما سيأتي.

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشياء كثيرة، فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع معه الحَدْس والتخمين؛ كالإخبار بأن الروم سَيَغلِبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً. . . . .

قوله: **(وقد أخبرتنا هذه البشارة)**؛ أي: قوله في التوراة: وإذا أحببت أن تميز بين النبي الكاذب والنبي الصادق. . . إلخ.

قوله: **(كالإخبار بأن الروم سيغلبون. . .)** إلخ: روي أن فارس غزوا الروم، فوافوهم بأذرعات وبصرى ـ وقيل: بالجزيرة ـ وهي أدنى أرض الروم من الفرس، فغلبوا عليهم، وبلغ الخبر مكةَ، ففرح المشركون، وشمتوا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن عليكم، فنزلت، فقال لهم أبو بكر: لا يُقِرَّنَّ الله أعينكم، فوالله! لتظهرن الرومُ على فارس بعد بضع سنين، فقال له أُبيُّ بن خلف: كذبتَ، اجعل بيننا أجلاً أناحِبُك عليه ـ المناحبة: المراهنة ـ، فناحبه على عشر قلائصَ من كل واحد منهما، وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «البضعُ ما بين الثلاث والتسع، فزايدْه في الخطر، ومادّه في الأجل»، فجعلاها مئة قلوص إلى تسع سنين، ومات أُبي من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد، وظهرت الروم على فارس يومَ الحديبية[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٧ ـ ١٨) عن عكرمة. ورواه الترمذي (٣١٩٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه، وقال: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أيضاً برقم (٣١٩٤) من حديث نِيَار بن مُكْرَم الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال: حديث صحيح حسن غريب.

حتى كادوا يحتلون القُسْطَنْطِينية عاصمةَ مُلْكِهم، فالإخبار إذاً بأن الروم سَيَرُدُّون ما فُقد منهم بعد بضع سنين لا يكون إلا من عند الله، ولذلك استغربه جدّاً بعض المشركين من قريش وراهن على ذلك أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وقد حقق الله الخبر ـ فاستحق الصدِّيقُ الرهنَ. وهذا قليل من كثير سيأتيك تفصيله ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وروى القاضي عياض في «الشفا»: أن عطاء بن يسار سأل عبدالله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: أجل، والله! إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٥]، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ.....................

فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أُبي، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «تصدَّق به»[١].

والآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب. اهـ. بيضاوي[٢].

قوله: (حتى كادوا يحتلون القسطنطينية): قال عكرمة وغيره: إن شهرمان قائدَ جيش الفرس لما غلب الروم، لم يزل يطؤهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج، ثم إن كسرى حاول قتل شهرمان وأخيه فرحان لكلمةٍ بلغته عن فرحان، ولما علما بذلك، انضما إلى قيصر ملك الروم، فتقوَّتْ بذلك عزائمُ الروم، ونهضت لمحاربة الفرس، فغلبتها. اهـ. خازن ملخصاً[٣].

قوله: (ليس بفظ)؛ أي: سيئ الخلق.

---

(١) أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٤٧٦) عن الشعبي.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).

ولا غليظ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلـه إلا الله، ويفتَح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً وقلوباً غُلفاً[1].

(ولا غليظ)؛ أي: شديد القول، ولا سخاب (ويروى بالصاد) في الأسواق؛ أي: لا يصيح فيها، وقوله: **(حتى يقيم به الملة العوجاء)**؛ أي: ملة إبراهيم التي غيرتْها العرب، وأخرجتها عن استقامتها.

وقوله: **(وقلوباً غلفاً)**؛ أي: لا تفهم كأنها في غلاف. اهـ. حلبي[2].

ثم قال: قال عطاء: ثم لقيتُ كعبَ الأحبار ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فسألته عنه، فما أخطأ في حرف[3].

قوله: **(وحرزاً للأميين)**: في الحديث: «إنا أمة أُميَّة، لا نكتب ولا نحسب»[4]، أراد: أنهم على أصل ولادة أمهم، لم يتعلموا الكتابة والحساب، فهم على جبلَّتهم الأولى.

وفي الحديث أيضاً: «بُعثتُ إلى أُمة أُميَّة»[5]، قيل للعرب: الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة، ومنه قوله تعالى: ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[الجمعة: ٢]. اهـ. «نهاية»[6].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥)، والحديث المذكور رواه البخاري (٢١٢٥). وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٥٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٧). والحديث المذكور مع قول عطاء رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٣٧٤).

(٤) رواه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٥) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٩) من حديث أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

(٦) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٦٨).

وروي مثله عن عبدالله بن سَلام ـ رضي الله عنه ـ[1]، وهو الذي كان رئيسَ اليهود، فلم تُعْمِه الرياسةُ حتى يترك الدين القويم، وكذلك كعب الأحبار[2].

وفي بعض طرق الحديث: ولا صَخَّابٍ في الأسواق، ولا قوَّالٍ للخنا، أُسدِّدُه لكل جميل، وأَهبُ له كل خُلُق كريم، وأجعل السكينة لباسَه، والبرّ شعارَه، والتقوى ضميرَه، والحكمةَ مقولَه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملَّته، وأحمدَ اسمَه، أَهدي به بعد الضلالة، وأُعلِّم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأُسمي به بعد النكرة، وأُكثِّر به بعد القلّة، وأُغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأُؤلِّف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أُخرجت للناس[3].

قوله: (فلم تُعمه الرياسة...) إلخ؛ أي: لو أعمته، لترك الدين القديم وبقي على ضلالته.

قوله: (بعد الخمالة)؛ أي: بعد الانخفاض.

قوله: (وأسمي به بعد النكرة).

قال في «شرح الشفاء»: النكرة ـ بضم النون وسكون الكاف، وبفتح النون وكسر الكاف ـ: خلاف المعرفة، ويطلق بمعنى المجهول، والباء للسببية؛ أي:

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة» (٩٨٠).

(٢) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٣)، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٦) عن وهب بن منبه، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥ ـ ٢٦)، و«المواهب اللدنيَّة» للقسطلاني (٢/ ٥٥٠).

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن صفته في التوراة، فقال ـ وهو الصادق الأمين ـ : عبدي أحمدُ المختار، مولدُه مكة، ومهاجَرُه المدينة ـ أو قال: طَيْبَة ـ وأمته الحمَّادون اللهَ على كل حال[1].

تبشير الإنجيل

بشّر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط، ومعناه قريبٌ من محمد، أو أحمد، ويصدّقه في القرآن قولُ الله تعالى في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وقد وَصَفَ المسيحُ هذا الفارقليطَ بأوصاف لا تنطبق إلا على نبيّنا، ....

أعرف الناس بسببه ـ أو بما أوحيه إليه ـ الناس المجهولون، أو أعرفهم ما جهلوه من التوحيد وتمامه فيه.

تبشير الإنجيل به

قوله: (بشر عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط...) إلخ:
قال في «إظهار الحق»: جاء في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: (إن كنتم تحبونني، فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليطَ آخرَ يثبت معكم إلى الأبد، والفارقليط روحُ القدس الذي يرسله الأب باسمي، هو

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤٥٦) من حديث طلحة ـ رضي الله عنه ـ قال: وُجد في البيت كتابٌ في حجر منقور في الهدمة الأولى، فدُعي رجلٌ فقرأه، فإذا فيه: عبدي المنتخب المتمكن المنيب المختار، مولده بمكة، ومهاجرهُ طيبة، لا يذهب حتى يقيم السنة العوجاء، ويشهد أن لا إله إلا الله، أمته الحمادون، يحمدون الله تبارك وتعالى بكل أكمة. وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ١٠٣).

يعلمكم كل شيء، وهو يُذكركم كلَّ ما قلتُه لكم، والآن قد قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنون). اهـ. من البشارة الثامنة عشرة[1].

وقال ابن القيم في «هداية الحيارى»: وفي إنجيل يوحنا: الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء، وبخ العالمَ على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به، ويكلمكم ويسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب. اهـ[2].

قال الحلبي، قال بعد نقله هذه العبارة: وما جاء بذلك وأخبر بالحوادث والغيوب إلا محمد صلى الله عليه وسلم[3].

وقال ابنُ القيم بعد العبارة السابقة: قال يوحنا في إنجيله في موضع آخر: إن الفارقليط روحُ الحق الذي يرسله إلى[4] ـ يظهر أن الصواب: إليكم ـ باسمي، هو يعلمكم كل شيء.

وفي موضع آخر: إني سائل إلى[5] أن يبعث إليكم فارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يُعلمكم كل شيء. اهـ[6].

أقول: وقد جاءنا النبي الكريم بشريعة كاملة، فعلمنا منها كل شيء، وشريعته دائمة ثابتة، لا شريعة بعدها، ولا نبي بعد نبينا، فهو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم.

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١١٨٥).
(٢) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥).
(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٤٦).
(٤) في «هداية الحيارى»: «أبي».
(٥) في «هداية الحيارى»: «له».
(٦) انظر: «هداية الحيارى» لابن قيم الجوزية (ص: ٥٥).

فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلِّمهم جميع الحق؛ لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، . . . .

ومن أراد التوسع في هذا البحث، فعليه بكتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» لعبد الرحمن باجه جي، فقد أتى فيه بالعجب العجاب.

قوله: (فقال: إنه يوبخ العالم على خطيئته): قال الشيخ رحمةُ الله في «إظهار الحق»: وأما البشارات التي توجد في كتب أخرى؛ ليست معتبرة عندهم في زماننا، فما نقلتها، وبعد ما فرغت ـ أي: بعد ما فرغ من نقل البشارات من الكتب المعتمدة عندهم ـ أنقل عنها بشارة واحدة على سبيل النموذج، فأقول: نقل القسيس سيل في مقدمة ترجمته للقرآن المجيد من إنجيل برنابا بشارة محمدية هكذا: اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزي الله عليه؛ لأن الله غير راض عن الذنب، ولما اجتنى أمي وتلاميذي لأجل الدنيا، سخط الله لأجل هذا الأمر، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة؛ ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم، ولا يكون أذية هناك، وإني وإن كنت بريّاً، لكن بعض الناس لما قالوا في حقي: إنه الله، وابن الله؛ كره الله هذا القول، واقتضت مشيئته بأن لا تضحك الشياطين يوم القيامة عليَّ، ولا يستهزئون بي، فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا، ويظن كل شخص أني صُلبت، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله، فإذا جاء في الدنيا، يُنبه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس. اهـ[1].

أقول: وقد نبَّهنا الله على نفي هاتين الشبهتين بقوله تعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦] إلخ الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء: ١٥٧].

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١٢٠٦).

وهذا ما ورد في القرآن الكريم في سورة الـنجم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤]. وقد ورد في إنجيل برنابا ـ الـذي ظهـر منـذ زمن قريب، وأخفَتْه حجبُ الجهالة ـ ذكرُ اسم الرسول عليه الصلاة والسـلام صراحة.

قوله: (ذكر اسـم الرسـول صـراحة): قـال: فجـأر الشـيطان حينئـذ جـأراً مخوفاً، وقال: لما كنت تريد أن تصيـِّرني أردأ مما أنا عليه، فـإني أجعـل نفسـي كما أقدر أن أكون حينئذ، قال الله: انصـرف أيهـا اللعـين مـن حضـرتي، فانصـرف الشيطان، ثم قـال الله لآدم وحـواء اللذين كانا ينتحبان: اخرجا من الجنـة، وجاهـدا أبدانكما، ولا يضعف رجاؤكما؛ لأني أرسل ابنكما على كيفيـة يمكـن [بهـا][1] لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري؛ لأني سـأعطي رسـولي الـذي سيأتي كل شيء.

فاحتجب الله، وطردهما الملاك ميخائيل مـن الفـردوس، فلمـا التفـت آدم، رأى مكتوباً فوق الباب: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، فبكى عند ذلك وقـال: أيها الابن! عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً، وتخلصنا من هذا الشقاء[2].

قالوا: إذا لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبيّاً ما؛ فلماذا تبشر بتعلـيم جديـد، وتجعل نفسك أعظم شأناً من مسيّا؟ أجاب يسوع: إن الآيات التي يفعلها الله علـى يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله، ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون عنه؛ لأني لست أهلاً أن أحلَّ رباطاتِ جرموقِ أو سيورَ حذاء رسول الله الذي تسـمونه مسيّا الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي، وسـيأتي بكـلام الحـق، ولا يكـون لدينـه نهاية[3].

---

(١) ما بين معكوفتين من «إنجيل برنابا».

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩١).

(٣) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩٢).

وقال: لذلك أقول لكم: إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريباً؛ لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة، روح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر، التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه، ما أسعدَ الزمنَ الذي سيأتي فيه إلى العالم! صدقوني أني رأيته، وقدَّمت له الاحترام، كما رآه كل نبي؛ لأن الله يعطيهم روحه نبوة، ولما رأيته، امتلأت عزاءً قائلاً: يا محمد! ليكن الله معك، وليجعلني أهلاً أن أحلَّ سيرَ حذائك؛ لأني إذا نلت هذا، صرتُ نبيّاً عظيماً، وقُدوسَ الله[1].

أجاب يسوع: لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا؛ لأني لست أنا الذي خلقكم، بل الله الذي خلقكم ويحميكم، أما من خصوصي، فإني أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم، لكن احذروا أن تُغشوا؛ لأنه سيأتي أنبياء كَذَبَة كثيرون يأخذون كلامي، وينجسون إنجيلي.

حينئذ قال أندراوس: يا معلم! اذكر لنا علامة لنعرفه، أجاب يسوع: إنه لا يأتي في زمنكم، بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً، في ذلك الوقت يرحم الله العالم، فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحدُ مختاري الله، وهو سيُظهره للعالم، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار، ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وإني أسر بذلك؛ لأنه بواسطته سيُعلن ويمجد الله ويظهر صدقي، وسينتقم من الذين يقولون: إني أكبر من إنسان[2].

وقال: أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى: أن إلهنا سيرسل لنا

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٩٥ ـ ٩٦).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٣٠ ـ ١٣١).

مسيًّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم رحمة، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق: هل أنت مسيّا الله الذي تنتظره؟ أجاب يسوع: حقّاً إن الله وعدني هكذا، ولكن لست هو؛ لأنه خُلق قبلي، وسيأتي بعدي.

أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حبّاً في الله بأية كيفية سيأتي مسيّا.

أجاب يسوع: لَعمرُ الله الذي تقف بحضرته نفسي! إني لست مسيّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة؛ بأن يحمل عادمَ التقوى على الاعتقاد بأني اللهُ وابنُ الله، فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً، حينئذ يرحم الله العالم، ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله، الذي سيأتي من الجنوب بقوة، وسيبيد الأصنام وعَبدَة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً[1].

وقال فيه: فقال حينئذ يسوع: إن كلامكم لا يُعزِّيني؛ لأنه يأتي ظلام حين[2] ترجون النور، ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب [فيَّ][3]، وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره؛ لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم، وإن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه؛ لأن الله سيحفظه صحيحاً[4].

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) في «إنجيل برنابا»: «حيث».

(٣) ما بين معكوفتين من «إنجيل برنابا».

(٤) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٦٠ ـ ١٦١).

ثم قال: فقال حينئذ الكاهن: ماذا يسمى مسيًّا؟ وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟ أجاب يسوع: إن اسم مسيًّا عجيب؛ لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي، قال الله: اصبر يا محمد؛ لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجَمّاً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك، حتى إن من يباركك يكون مباركاً، ومن يلغيك يكون ملعوناً، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص، وتكون كلمتك صادقة، حتى إن السماء والأرض تهنان، ولكن إيمانك لا يهن أبداً، إن اسمه المبارك محمد[1].

وقال مخاطباً لبرنابا: إن الله سيصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن ـ يعني: يهوذا الذي دلَّ عليه اليهودَ بثلاثين قطعة ـ حتى يظنه كلُّ أحدٍ إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة، أمكثُ في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزول عني هذه الوصمة... وتمامه فيه[2].

وقال: وبعد هذه السنين ـ أي: وبعد بقاء المؤمنين العصاة في جهنم مدة ـ يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم، ويسمعهم يقولون: يا محمد! أين وعدك لنا أن من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد؟ فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع، فحينئذ يكلم الرسولُ اللهَ ـ أي: مستشفعاً ـ ويقول: ربي وإلهي! اذكر وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد، فيجيب الله: اطلب ما تريد يا خليلي؛ لأني أهبك كل ما تطلب[3].

وقال: أجاب يسوع: الحق أقول: إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٦١ ـ ١٦٢).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ١٧٨).

(٣) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢١٠).

حركة الأفكار قبل البعثة

وهذا يسهل لك فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبيل البعثة، فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسول منتظَر.

فقد حدَّث عاصمُ بنُ عمرَ بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: إنما دعانا للإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا ـ ما كنا نسمع من أحْبار يَهود، كنا أهل شِرك، وأصحابَ أوثان، وكانوا أهلَ كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقاربَ زمانُ نبي يُبعث الآن، نقتلكم معه قتلَ عاد وإرم، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله محمداً، أَجَبْنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، . . . .

يأتي من سلالته مسيّا الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض[1].

وقال ما نقلناه آنفاً فيما كتبناه على قوله: إنه يوبخ العالم على خطيئته، وقد جاء في آخرها ذكرُ اسمه صلى الله عليه وسلم صريحاً[2].

حركة الأفكار قبل البعثة

قوله: (وهذا يسهل لك. . إلخ)؛ أي: تلك البشارات التي أتت في التوراة والإنجيل تسهل لك فهمَ الحركة العظيمة. . . إلخ.

قوله: (يستفتحون)؛ أي: يستنصرون على المشركين.

قوله: (فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون)؛ أي: غلبناهم على أمرهم بشتم أو ضرب أو قتل.

---

(١) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢٨٢).

(٢) انظر: «إنجيل برنابا» (ص: ٢٤١).

فبادرناهم إليه، فآمنّا وكفروا[1].

وإنما قال لهم اليهود نقتلكم معه قتل عاد وإرم؛ لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم أن هذا النبيَّ يستأصل المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أَنَّ الحسد والبغي سيتمكنان من أفئدتهم، فينبذون الدين القيّم، فيحقّ عليهم العذاب في الدنيا والآخرة.

وكان أميّةُ بنُ أَبي الصَّلت المتَنَصّرُ العربي كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا[2].

قوله: (فآمنا وكفروا): قال الحلبي: ففي ذلك نزلت هذه الآيات في البقرة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٨٩]، اهـ[3].

قوله: (نقتلكم قتل عاد وارم)؛ أي: نستأصلكم بالقتل. اهـ. حلبي[4].

قوله: (وكان أمية بن أبي الصلت...) إلخ: قال الدحلاني: إن أمية بن أبي الصلت الثقفي قال لأبي سفيان: إني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا، فكنت أظن أني هو، وكنت أتحدث بذلك، ثم ظهر لي أنه من بني عبد مناف، فنظرت فلم أجد من هو متصف بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة، إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنه غيره، قال أبو سفيان: فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم قلت لأمية، فقال أمية: أما إنه حق فاتبعه، فقلت له:

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٠).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٩).

وحدَّث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ عن نفسه: أنه صحب قسيساً، فكان يقول له: يا سلمان! إن الله سوف يبعث رسولاً اسمُه أحمد، يخرج من جبال تِهامة، علامته أنه يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وهذا الحديث كان من أسباب إسلام سلمان[1].

ما يمنعك؟ قال: الحياء من نساء ثقيف، إني كنت أخبرهن أني هو، فكيف الآن أتبع فتًى من بني عبد مناف؟!. اهـ[2].

قوله: (وحدث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ. . .) إلخ: بسط الحلبي والدحلاني حديثه: ونحن نلخص ذلك عن الدحلاني، قال: قال سلمان: كنت رجلاً فارسيّاً من أهل أصبهان، من قرية يقال لها: جَيّ، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إلى أبي، ولمحبته لي حبسني في بيت كما تحبس الجارية، وأجهدت في المجوسية حتى كنت قَطِنَ النار ـ أي: خادماً ملازماً لها ـ، وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشغل عنها في بنيان له، فأمرني بالذهاب إليها، ثم قال لي: لا تحتبس عني، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، فدخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فأعجبتني صلاتهم، وقلت: هذا خير من الذي نحن فيه، وما برحت عنهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها.

ثم قلت لهم: أين أهل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، ثم إني رجعت إلى أبي، وكان قد بعث في طلبي، وحدثته بأمري، فخاف مني أن أهرب، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته، وبعثتُ إلى النصارى وقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام، فأخبروني بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى، فأخبروني، فألقيت الحديد من رجلي، ثم قدمتُ معهم إلى الشام، فسألت: مَنْ أجلُّ هذا الدين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١١٩).

علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته وخدمته، وصرت أتعلم منه، وأصلي معه إلى أن مات.

ثم إن أهل تلك البلاد جاؤوا برجل آخر، وجعلوه مكانه، فأقمت معه زماناً إلى أن حضرته الوفاة، فقلت له: فإلى من توصي بي؟ فقال: عليك برجل بالموصل، فذهبت إليها، وأقمت عنده مدة إلى أن مات، ثم أوصاني أن أذهب إلى رجل بنصيبين.

فلما مات، لحقتُ بصاحب نصيبن، فأقمت عنده، فوالله! ما لبثت أن نزل به الموت، فلما احتُضِر قلت له: فإلى من توصي بي؟ فقال: ما أعلم بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعموريةَ من أرض الروم.

فلما مات، لحقت بصاحب عمورية، فأقمت عنده، ثم نزل به أمر الله، فلما احتُضِر قلت له: إلى من توصي بي؟ فقال: أي بني! والله! ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبيٍّ مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، له علامات: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال سلمان: ثم مرَّ بي نفر من كلب تجاراً، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب، فحملوني حتى إذا بلغوا بي وادي القرى، باعوني من رجل يهودي، ثم باعني هذا إلى ابن عمٍّ له من بني قريظة، فحملني إلى المدينة، فوالله! ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها ـ أي: تحققتها بصفة صاحبي ـ، فأقمت بها. وبُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله! إني لفي عذق ـ أي: نخل لسيدي ـ أعمل فيه، وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابنُ عم له فقال: يا فلان! قاتلَ الله بني قيلةَ؛

يعني: الأوسَ والخزرجَ، إنهم الآن مجتمعون بقباء على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبيٌّ، قال سلمان: فلما سمعتها، أخذتني العرواء، وهي الحمى النافض.

قال: وكان عندي شيء جمعته ـ أي: من التمر أو الرطب ـ، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إني قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم، فقربته إليه، فقال لأصحابه: «كلوا»، وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة من العلامات.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة، فجئته فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

ثم جئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، وقد تبع جنازةَ رجل من أصحابه، وكان عليه شملتان، فجلس مع أصحابه، فسلمت عليه، ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره: هل أرى الخاتمَ الذي وصف لي؟ فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تحوَّل»، فتحوَّلت بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أسلم سلمان، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: «يا سلمان! كاتبْ صاحبك»، فكاتبت صاحبي على ثلاث مئة نخلة ودية، وهي الصغيرة أحييها له بالتفقير ـ أي: أحفر لها وأغرسها بتلك الحفر ـ وعلى أربعين أوقية من الذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعينوا أخاكم»، فأعانوني بالنخل، فخرج

ولما راسل عليه الصلاة والسلام ملوك الأرض، لم يُهِنْ كتابَه إلا كسرى الذي ليس عنده علم من الكتاب، وأما جميعُ ملوك النصارى؛ كالنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، وقيصر ملك الروم، فأكرموا وِفَادَةَ رسله. ومنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من ردّ رداً لطيفاً، . . . . .

معي، وغرس النخل بيده إلا نخلةً غرسها عمر، فأطعم النخلُ كله إلا تلك النخلةَ التي غرسها عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من غرسها؟» قالوا: عمر، فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فأطعمتْ من عامها، ودفع إليَّ المال ذهباً بقدر البيضة، فوزنت لصاحبي منه أربعين أوقية، وبقي عندي مثل ما أعطيته[1].

ثم قال الدحلاني: قال الحلبي في «السيرة»: نقل بعضهم الإجماع على أن سلمان عاش مئتين وخمسين سنة، وكان حبراً عالماً فاضلاً زاهداً متقشفاً، وكان يأخذ من بيت المال في كل سنة خمسة آلاف، وكان يتصدق بها، ولا يأكل إلا من عمل يده، وكان له عباءة يفترش بعضها، ويلبس بعضها.

قال بعضهم: دخلت عليه وهو أمير على المدائن، وهو يعمل الخوص، فقلت له: تعمل الخوص وأنت أمير، وهو يجري عليك رزقك؟ فقال: إني أحب أن آكل من عمل يدي. وربما اشترى اللحم وطبخه، ودعا المجذومين فأكلوا معه. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٢٢ ـ ١٢٥). وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٠٣ ـ ٣١١). وقصة إسلام سلمان رواها ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ٦٩)، والإمام أحمد في «المسند» من طريقه، كلاهما من حديث سلمان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٢٥). وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣١٧).

وكاد يسلمُ لولا غلبةُ الملك كقيصر، ومنهم من هادى كالمقوقس، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوّة يُرهِبُ بها هؤلاء الملوك، اللهمَّ ما ذاك إلا لأنهم يعلمون أن المسيح عليه السلام بشّر برسول يأتي من بعده، ووافقت صفات رسولنا ما عندهم، فأجابوا بالتي هي أحسن، وأما ما سُمع من الهواتف والكُهان قبيل زمنه، فهو ما لا يدخل تحت حصر.

قوله: (أما ما سُمع من الهواتف...) إلخ: في «الحلبية»: كان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يحدث: أن قوماً من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوساً، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم، فبينا الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفاً يهتف ويقول:

يا أيها الناسُ ذَوو الأحكام ... ومُسندو الحكمِ إلى الأصنام

أما تَرونَ ما أرى أمامي ... من ساطعٍ يجلو دُجَى الظلامِ

ذاك نبيٌّ سيدُ الأنامِ ... من هاشمٍ في ذروةِ السنامِ

مُستعلِنٌ بالبلدِ الحرام ... جاء يَهُدُّ الكفرَ بالإسلامِ

أكرمه الرحمنُ من إمام

قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك، ثم تفرقوا، فلم يَمْضِ بهم ثالثهم حتى فجأهم خبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة، فما أسلم الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عبراً عند أصنامهم. اهـ[1].

و«أعلام النبوة» للماوردي قال: لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو بعث؛ ارتجس إيوان كسرى، فسقطت منه أربعَ عشرةَ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠). والخبر أورده إسماعيل بن محمد الأصبهاني في «دلائل النبوة» (ص: ١٦٦ ـ ١٦٧) من طريق الواقدي.

وليس بعدَ ما ذكرتُه لك زيادةٌ لمستكثر. ومع ذلك كلـه، فالأعمـالُ التي جاد الله بها على يديه، والأقوالُ التي أتانـا بهـا أعظـمُ مُقَـوٍّ لحجتـه، ومؤيدٍ لدعوته. وسيأتي عليك بيان ذلك كله بـأجلى بيـان، فتأمَّلْـه ترشـدْ هداك الله إلى الصراط السويّ.

شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبـل ذلـك بـألف عـام، وغـارت بحيـرة ساوة، فأفزع ذلك كسرى، فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمع وزراءه ومرازِبتـه، وأخبرهم رؤياه.

فقال الموبذان: وأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلـة إبـلاً صـعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادنا، فقال: أي شي هذا يا موبـذان؟ فقال: حادثة تكون من ناحية العرب، فكتب إلى النعمان بن المنذر أن ابعث إليَّ برجل عالمٍ أسأله عما أريد، فوجه إليه عبدَ المسيح بنَ عمرِو بنِ بَقيلةَ الغسـاني، فلما قدم عليه أخبره فقال: أيها الملك! علمُ ذلك عند خالٍ لـي يسـكن مشـارف الشام يقال له: سَطيح، فقال: فأته فاسأله عما أخبرتك به، ثم ائت بجوابه.

فركب عبد المسيح راحلته حتى ورد على سطيح وقد أشفى على الموت، وَوُضـع على شفير قبره، فسلم عليه وحياه، فلم يرد سطيح جوابـاً، فأنشـأ عبـد المسيح يقول:

أصـــم أم يســـمع غطريـــفُ الـــيمن يـا فاضـلَ الخطـة أعيـتْ مـن ومـن

الغطريف: السيد.

فرفع سطيح رأسه، وقال: عبد المسيح، على جمل مشـيح ـ أي: سـريع ـ، وافى إلى سطيح، وقد أوفى به إلى الضريح ـ أي: القبر، والمراد بـه المـوت ـ، بعثك الملك ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها.

يا عبد المسيح! إذا كثرت التلاوة ـ أي: تلاوة القرآن ـ، وبعث من تهامة

بدء الوحي

لمّا بلغ عليه الصلاة والسلام سنَّ الكمال، وهي أربعون سنة، أرسله الله للعالَمين بشيراً ونذيراً، ليُخرجهم من ظُلمات الجهالة إلى نور العلم، وكان ذلك في أول فبراير سنة (٦١٠) من الميلاد كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكي، تبين بعد دقة البحث أَنَّ ذلك كان في (١٧) رمضان سنة (١٣) قبل الهجرة، وذلك يوافق يوليو سنة (٦١٠).

صاحب الهراوة ـ الهراوة بكسر الهاء: العصا الضخمة ـ، وفاض وادي سماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، يملك منهم ملك وملكات، بعدد الشرفات، وكل ما هو آت آت.

ثم قضى سطيح، فسار عبد المسيح على راحلته ـ وأنشد عند ذلك أبياتاً ذكرها الإمام الماوردي ـ ثم قال: فلما قدم عبد المسيح على كسرى وأخبره؛ قال كسرى: إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة ملوك أربع سنين، وزال ملكهم عن يزدجرد الرابع عشر بعد اثنتي عشرة سنة. اهـ[1].

وفي «الحلبية» والدحلاني وغيرِهما كثيرٌ من هذه الأخبار.

بدء الوحي

قوله: (بدء الوحي) قال أبو البقاء في «الكليات»: الوحي: هو أول الكلام الخفي يدرك بسرعة، ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة.

وفي «الأنوار»: أنه تلقى الكلام تلقياً روحانيّاً، ثم تمثل الكلام لبدنه، وانتقل إلى الحس المشترك، فانتقش به، من غير اختصاص بعضو وجهة[2].

---

(١) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ٢٤٠ ـ ٢٤٢)، وعزا هذا الخبر لأبي أيوب يعلى بن عمران البجلي عن مخزوم بن هانئ المخزومي عن أبيه.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٤/ ٤٣).

وهو كما نصَّ الله عليه على ثلاثة أوجه:

١ ـ بـلا واسطة، بـل يخلق الله في قلب المُوحى إليه علماً ضرورياً بإدراك ما شاء الله إدراكه من الكلام النفسي القديم القائم بذاته تعالى، وهذه حالـة محمديـة ليلة الإسراء.

٢ ـ أو بواسطة خَلْق أصواتٍ في بعض الأجسام؛ كحال موسى عليه السلام.

٣ ـ أو بإرسال ملَك، وما يدركه الملَك من النوع الأول، وهذا غالب أحـوال الأنبياء.

وإلى الأول الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾، وإلـى الثاني: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وإلى الثالث: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[الشورى: ٥١].

والثالث قد يطلع عليه غير المُوحى إليه؛ كما سمع السـبعون حـين مضـوا إلى الميقات مع موسى. اهـ[١].

قوله: (الرؤيا الصادقة): هكذا في «صحيح مسلم»، وكـذا رواه البخـاري في (كتاب التعبير)[٢]**، وفي رواية البخاري في «صحيحه»: «الصالحة»**[٣].

قال الدحلاني: والمراد بـ(الصالحة): الصادقة، وإنمـا بـدئ رسـول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤيا؛ لئلا يفجأه الملك الذي هـو جبريـل بـالنبوة؛ أي: الرسالة، فلا تتحملها القوى البشرية؛ لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤيا الملك، وإن لم يكن على صورته التي خلقه الله عليها، ولا على سماع صـوته، ولا علـى ما يجيء به، لا سيما الرسالة، فكانت الرؤيا تأنيساً له. اهـ[٤].

---

(١) انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص: ٩٣٦).

(٢) رواه مسلم (١٦٠)، والبخاري (٦٩٨٢)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه البخاري (٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦١).

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، وذلك لما جرت به عادة الله في خَلْقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصلَ إلى درجة الكمال.

ومن الصعب جدًّا على البشر تلقي الوحي من المَلَك لأول مرة، ثم حبّب إليه عليه الصلاة والسلام الخلاء؛ ليبتعد عن ظُلُمات هذا العالم، وينقطع عن الخلق إلى الله؛ فإن في العزلة صفاءَ السريرة.

وكان يخلو بغار حِراء، فيتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشراً، وتارة أكثر إلى شهر.

وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر، ثم أوحى إليه في اليقظة.

قوله: (مثل فلق الصبح): قال في «النهاية»: (فلَق الصبح) هو بالتحريك: ضوءُه وإنارته، والفلَق: الصبح نفسه. اهـ[١].

أي: كما لا يشك أحد في وضوح ضياء الصبح ونوره لا يشك أحد في الرؤيا الصالحة. اهـ. الدحلاني[٢].

قوله: (بغار حراء)؛ أي: بغار في حراء، وحراء ـ بالمد والقصر ـ: جبل على مقربة من مكة، بينه وبينها نحو ثلاثة أميال عن يسارك إذا سرت إلى منًى، له قُلَّة مشرفة إلى الكعبة منحنية. اهـ. عيني[٣].

وكل ثلاثة أميال فرسخ، والميل ألف باع.

قوله: (فيتعبد فيه الليالي ذوات العدد): قال الدحلاني: أي مع أيامها، وغلَّب الليالي؛ لأنها أنسبُ للخلوة، وأبهمَ العدد؛ لاختلافه بالنسبة للمُدَدِ؛ فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة تسع ليال، وتارة شهر رمضان أو غيره،

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦١).

(٣) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١/ ٤٩).

وكانت عبادته على دين أبيه إبراهيم عليه السلام، ويأخذ لذلك زاده، فإذا فرغ، رجع إلى خديجةَ، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فبينما هو قائم في بعض الأيام على الجبل، إذْ ظهر له شخص، وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام أميّ لم يتعلم القراءة قبلاً. فأخذه فغطَّه بالنَّمَطِ الذي كان ينام عليه حتى بلغ منه الجهد، . . . .

فـ (الليالي ذوات العدد) محمولة على القدر الذي يتزود له، فإذا فرغ زاده، يرجع إلى مكة، ويتزود إلى غيرها[1].

قوله: (وكان يتعبد على دين إبراهيم عليه السلام): هذا أحد أقوال.

قال الدحلاني: وقيل: بشرع موسى عليه السلام، وقيل: كان تعبده التفكر مع الانقطاع عن الناس، وقيل: كان تعبده صلى الله عليه وسلم بالذكر، وصححه بعضهم[2].

قوله: (حتى جاء الحق)؛ أي: الوحي والرسالة.

قوله: (ما أنا بقارئ)؛ أي: أنا أمي لا أحسن القراءة ـ فما نافية، وإنما نفى النبي صلى الله عليه وسلم القراءة والكتابة؛ لأنه فهم أن المراد: أمرُه بالإتيان بها نفسها على الفور، لا بتعلمها ـ.

وقوله: (فغطه بالنمط)؛ أي: غمه بذلك النمط؛ بأن جعله على فمه وأنفه، والنمط ـ بفتح النون والميم ـ: نوع من البسط. اهـ. الدحلاني[3].

قوله: (الجهد): ـ بنصب الدال على المفعولية، وبرفعها على الفاعلية ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٤).

ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فأخذه فغطّه ثانية ثم أرسله، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ، فأخذه فغطّه الثالثة، ثم أرسله فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فرجع بها عليه الصلاة والسلام يرجف فؤاده مما ألمَّ به من الروع الذي استلزمته مقابلة الملَك لأولِ مرة، فدخل على خديجة زوجِه، فقال: زملوني، زملوني؛ لتزول عنه هذه القُشَعْريرة، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي؛ لأن المَلك غطه حتى كاد يموت، ولم يكن له عليه الصلاة والسلام عِلم قبل ذلك بجبريل، ولا بشكله، فقالت: كلا والله! ما يُخزيك الله أبداً؛ إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، . . . .

قوله: (فرجع بها)؛ أي: الآيات، في رواية: «فقرأتها، وانصرف عني، وقد استقر ذلك في قلبي»[1]، وفي رواية: «فكأنما كتب في قلبي كتاباً»[2]؛ أي: حفظته. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (ما يخزيك الله... إلخ) الخزي هو: الفضيحة والهوان، وأخزى الله فلاناً: أبعده.

وقوله: (وتحمل الكل)؛ أي: الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك.

---

(١) لم نقف عليه باللفظ المذكور، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٢) من حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي بلفظ: «فقرأتُها ثم انصرف عني، وهببتُ من نومي».

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٢)، والطبري في «تاريخه» (١/ ٥٣٢)، من حديث عبيد بن عمير بن قتادة الليثي.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٤).

وتكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فلا يُسلط الله عليك الشياطين والأوهام. ولا مِراء أن الله اختارك لهداية قومك. ولتتأكد خديجة مما ظنته، أرادت أن تَتَثَبَتَ ممَّن لهم علمٌ، بحال الرُّسُل، ممن اطلعوا على كتب الأقدمين، فانطلقت به حتى أتت وَرَقَةَ بْنَ نَوفَلٍ ابنَ عمِّ خديجةَ، وكان امرأً قد تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا بنَ عمّ! اسمعْ من ابن أخيك، فقال: يا بن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى. فقال له وَرَقَةُ: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى؛ لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل، ثمَّ قال: يا ليتني فيا جَذَعاً ـ شابًّا جلداً ـ إذ يُخرجُك قومُك من بلادك التي نشأتَ بها، لمُعاداتهم إيَّاك، وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقاداتٍ وجدوا عليها آباءهم. فاستغرب عليه الصلاة والسلام ما نُسب لقومه، مع ما يعلمه من حبّهم له لاتصافه بمكارم الأخلاق،..........

وقوله: **(وتكسب)**: ـ بفتح التاء وضمها ـ.

و**(المعدوم)**: الذي لا مال له؛ لأن من لا مال له كالمعدوم؛ أي: توصل إليه الخير الذي لا يجده عند غيرك.

وقوله: **(وتعين على نوائب الحق)**؛ أي: حوادثه.

قوله: **(اسمع من ابن أخيك)** إنما أطلقت الأخوة؛ لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: **(هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى)**؛ أي: صاحب سر الوحي، وهو جبريل. اهـ. حلبي[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

وصدقِ القول، حتى سَمَّوه الأمين، وقال: «أومخرجيَّ هم؟»، قال: لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عُوديَ[1]. وقد نطق بذلك القرآن الكريم؛ قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾[إبراهيم: ١٣]**، ولتمام تصديقِ ورقة برسالة الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام قال: وإن يدْركْني يومُك أَنْصُرْكَ نصراً مؤزّراً ـ معضداً ـ. ثم لم يلبث ورقة أن توفي.**

وقال ابن ظفر في «شرح المقامات»: صاحب سر الخير: ناموس، وصاحب سر الشر: جاسوس. اهـ. عيني[2].

قوله: (أومخرجيَّ هم؟!): بتشديد الياء المفتوحة؛ لأنه جمع مخرج، والأصل: أومخرجوني، حذفت النون للإضافة، فصار مخرجوي، قلبت الواو ياء، وأدغمت، وهو استفهام إنكاري، وفيه دليل على شدة حب الوطن وعسرِ مفارقته، خصوصاً وذلك الوطن حَرَمُ الله، وهو جوار بيته، ومسقط رأسه. اهـ. حلبي[3].

قوله: (نصراً مؤزَّراً)؛ أي: شديداً قويّاً، من الأزر، وهو الشدة. اهـ. حلبي[4].

قوله: (ثم لم يلبث): الرواية: ثم لم ينشب[5]؛ أي: لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات، وهذه اللفظة كناية عن السرعة والعجلة.

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٨ ـ ١٢٥).

(٢) انظر: «عمدة القاري» للعيني (١/ ٥٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٣٩٢).

(٥) رواه البخاري (٣) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فترة الوحي

وَفَتَرَ الوحي مدّةً لم يتفق عليها المؤرخون، وأرجحُ أقوالهم فيها أربعون يوماً؛ . . . .

قال الدحلاني: قال سبط ابن الجوزي: وهو آخر من مات في الفترة، وقد أدرك النبوة، وصدَّق بنبوته، ولم يدرك الرسالة.

ولما توفي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد رأيت القسَّ في الجنة وعليه ثياب الحرير»[(١)]، وجزم ابن كثير بإسلامه، وأنه أدرك الدعوة[(٢)]، ومات في السنة الرابعة. اهـ. ملخصاً[(٣)].

فترة الوحي

قوله: (وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً): لم أرَ في كلامهم ما يفيد ترجيح هذا القول، ففي الدحلانية نقلاً عن «فتح الباري»: جزم ابن إسحاق بأن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وجزم السهلي بأنها كانت سنتين ونصفاً[(٤)].

وقيل: خمسة عشر يوماً، وقيل غير ذلك. اهـ[(٥)].

قال الحلبي: وفي رواية: كانت تلك المدة أربعين يوماً، وقيل: خمسة عشر، وقيل: اثني عشر يوماً، وقيل: ثلاثة، ثم نقل قول ابن إسحاق، وقول السهيلي[(٦)].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٥٥٥) من حديث أبي ميسرة عمرِو بنِ شرحبيلَ مرسلاً.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٤١٥)، وفيه: وتقدم الكلام على إيمان ورقة ابن نوفل بما وجد من الوحي، ومات في الفترة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٨).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٧).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٩).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢١).

ليشتدّ شوقُ الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتدّ به عليه الصلاة والسلام حتى صار كلما أتى ذِرْوَةَ جبل بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله له بعد أن أراهُ نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدّى له الملَك قائلاً: أنت رسول الله حَقاً، فيطمئن خاطره، ويرجع عمّا عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين، فعاد إليه الوحي[1].

وكلها كما ترى لم يذكر فيها ترجيح لقول منها.

قوله: (ليشتد شوق الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي. . .) إلخ: قال الدحلاني: وإنما فتر عنه الوحي؛ ليذهب ما كان يجده من الرعب، وليحصل له الشوق إلى العَوْد، فحزن لذلك حزناً شديداً، حتى غدا مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وافى ذروة جبل كي يلقي نفسه منها، تبدى له جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقّاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه ويرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي، غدا لمثلِ ذلك، فإذا وافى لذروة جبل، تبدى له مثل ذلك. اهـ[2].

وقبله في «الحلبية»[3].

ومقتضى [ما][4] جاء في[5] هذه الرواية من قوله: فإذا طالت عليه فترة

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٣٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٦٩)، والخبر المذكور رواه البخاري (٦٩٨٢) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

(٤) ما بين معكوفتين يقتضيه السياق.

(٥) في الأصل: «في جاء».

فبينما هو يمشي إذ سمع صوتاً من السماء، فرفع إليه بصره، فإذا المَلَك الذي جاءه بحِراء جالس بين السماء والأرض، فرُعب منه؛ لتذكّر ما فعله في المرة الأولى، فرجع وقال: «دثروني، دثروني»، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]: . . . .

الوحي . . . إلخ: أن مدَّة الفترة لم تكن ثلاثة أيام، ولا خمسة عشر، ولا أربعين يوماً، بل أزيدَ من ذلك، والله أعلم.

عود الوحي

قوله: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾)؛ أي: المتلفف بثيابه.

قال الدحلاني: وذكر السهيلي أن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمي المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو عليها، فلاطفه الحقُّ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٢]، فبذلك علم رضاه الذي هو غاية مطلوبة، وبه كان يهون عليه تحمُّل الشدائد.

ومن هذه الملاطفة قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وقد نام وقد ترب جبينه: «قم أبا تراب»[1].

قوله: (﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾): لم يقل بعد قوله: ﴿فَأَنذِرْ﴾ (وبشر)، مع أنه كما بُعث بالنذارة بُعث بالبشارة؛ لأن البشارة إنما تكون لمن آمن، ولم يكن أحد آمن من قبل. اهـ. دحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٠). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٤١ ـ ٤٢)، والحديث رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩)، من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٠).

حذِّر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾[المدثر: ٣]: خُصَّه بالتعظيم، ولا تشرك معه في ذلك غيره، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ٤]؛ لتكون مستعدًّا للوقوف بين يدي الله إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً، . . . .

قوله: (﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾): قال الخازن: فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن ينزل لفظ (الثياب) و(التطهير) على الحقيقة، وهو ما فسَّره به المؤلف هنا.

الثاني: أن ينزل لفظ (الثياب) على الحقيقة، و(التطهير) على المجاز؛ ومعناه: وثيابك فقصِّر، ذلك لأن المشركين كانوا يطولون ثيابهم، ويجرون أذيالهم على النجاسات، وفي الثوب الطويل من الخيلاء والكبر والفخر ما ليس في الثوب القصير، فنهى عن تطويل الثياب، وأمر بتقصيرها لذلك.

الثالث: أن ينزل لفظ (الثياب) على المجاز، و(التطهير) على الحقيقة؛ ومعناه: حمل الثوب على النفس، قال عنترة:

وشَككْت بالرمح الأصمِّ ثيابه ليس الكريمُ على القنا بمُحرَّم[1]

يريد نفسَه، والمعنى: ونفسَك فطهِّر عن الذنوب والريب وغيرهما، وكنى بالثياب عن الجسد؛ لأنها تشتمل عليه.

الرابع: أن ينزل لفظ (الثياب) و(التطهير) على المجاز؛ ومعناه: وقلبك فطهر عن الصفات المذمومة.

وقيل: معناه: وخُلُقك فحسِّن، والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: هو طاهر الثياب. اهـ. ملخصاً[2].

---

(١) انظر: «ديوان عنترة» (ص: ٢١٠)، وفيه: «الطويل» بدل «الأصم».

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٢).

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[المدثر: ٥]؛ أي: اهجر أسباب الرجز ـ وهو العذاب ـ بأن تطيع الله، وتنفذ أمره، ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[المدثر: ٦]: ولا تهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب أكثرَ مما وهبت، فهذا ليس من شأن الكرام، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾[المدثر: ٧] على ما يلحقُك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى الله[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾): الرجز: هي الأوثان في قول الأكثرين، وفي مسلم التصريحُ به[2]، وفي التفسير عن أبي سلمة التصريحُ به[3]، وقيل: الشرك، وقيل: الذنب، وأصل الرجز في اللغة: العذاب، وتسمى عبادة الأوثان وغيرها من أنواع الكفر رجزاً؛ لأنه سبب العذاب. اهـ[4].

قوله: (ولا تهب. . .) إلخ: وقيل: معناه: لا تمتنَّ عليهم بنبوَّتك، فتأخذ منهم على ذلك أجراً تستكثر به.

وقيل: معناه: لا تمنن على أصحابك بما تعلِّمهم من أمر الدين، وتبلِّغهم من أمر الوحي كالمستكثر بذلك عليهم. اهـ. خازن[5].

وفيه أقوال أخر ذُكرت في تفسير هذه الآية، وأرى أن هذين التفسيرين أليقُ بمقام وسياق الكلام من التفسير الذي ذكره المصنف.

قوله: (على ما سيلحقك من أذى قومك. . .) إلخ: قال الخازن: وقيل:

---

(١) الخبر المذكور رواه البخاري (٤، ٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٠٤).

(٢) رواه مسلم (١٦١/ ٢٥٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، وفيه: «﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾، وهي الأوثان».

(٣) رواه مسلم (١٦١/ ٢٥٦) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وفيه: ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: الأوثان.

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٢).

(٥) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٣).

فقام عليه الصلاة والسلام بالأمر، ودعا لعبادة الله أقواماً جُفاةً لا دينَ لهم إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا حجةَ لهم إلا أنهم متّبِعون لما كان يعبد آباؤهم، وليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزّة والأَنَفة، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب وإهراق الدماء، فجاءهم رسول الله بما لا يعرفونه.

معناه: أنك حملت أمراً عظيماً فيه محاربةُ العرب والعجم، فاصبر على ذلك لله عز وجل. اهـ[1].

الدعوة سرًّا

قوله: (الدعوة سرًّا): اعلم ـ رعاك الله ـ: أن كل من حاول إحداث انقلاب في أمة، سواء كان ذلك مما يرجع إلى عاداتها أو معتقداتها أو غير ذلك، فإنه يضطر أولاً أن تكون دعوته إلى ذلك الشيء سرًّا حتى يكون لديه المقدارُ الكافي ممن يميلون إلى آرائه، ويقولون بقوله، ومتى حصل له ذلك، ووجد صدقاً في غمرتهم، وإخلاصاً في أعمالهم، جاهر بما يدعو إليه، ونهض إلى ما يروم الوصول إليه من الأمور، وحينئذ تنجح مقاصده، ويحصل على رغائبه وأمانيه، تلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ومن حاول السير على غير هذه الطريقة، فإن المعارضين لآرائه، والمخالفين لطريقته يصادمونه صدمة قوية تقضي على ما أتى به، وتجعله هباءً منثوراً؛ لأن نزعَ العادات، وتبديلَ المألوفات، وتغيير المعتقدات أمرٌ صعب جداً، والمرءُ أسير عاداته، وعبدُ مألوفاته، فهو خاضع لها، مستسلمٌ لقيادها، وانتزاعُ ذلك منه، والأخذُ بيده إلى الطريقة المثلى ومحاسن الأمور لا يكون إلا بحكمة وروية وتأنٍّ وصبر كثير.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٣).

فذوو العقول السليمة بادروا إلى التصديق وخلع الأوثان، ومن أعْمَته الرياسة أدبرَ واستكبر كيلا تُسلَب منه عظمتُه.

وكان أولَ من سَطَع عليه نورُ الإسلام: خديجةُ بنتُ خويلد زَوجُه، ....

وعلى هذه الطريقة جرى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس إلى التوحيد واتباع الهدى، والنزوع عن سيئ العادات وقبيح المألوفات، فأخذ في بث الدعوة سرًّا؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾[النحل: ١٢٥] مبتدئاً بأقرب الناس إليه، ثم الأقرب فالأقرب، ولما حصل لديه المقدارُ الكافي، واجتمعت عليه الكلمة، والتف الناس حوله، جاهر بما جاء به من الدين الحق، ودعوة الناس كافة إلى توحيد الله تعالى وعبادته، مثابراً على ذلك، صابراً على ما سيلاقيه من ضُروب الأذى، وأنواع المصادمات، إلى أن صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وتم له ما أراد، وحصل على المراد، وأخرج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، وهداهم إلى الصراط المستقيم، والمنهاج القويم.

وقَلَّ من جَدَّ في أمرٍ يحاولُه واستعملَ الصبر إلا فازَ بالظفرِ[1]

قوله: (وكان أول من سطع عليه نور الإسلام خديجة)؛ أي: وذلك لما رأته وسمعت به من الآيات، ولما فيه من الصفات الحميدة؛ كقرى الضيف وحمل الكل، وعرفت أن من كان كذلك لا يخزى أبداً.

قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: وآزرته صلى الله عليه وسلم على أمره، فخفف الله بذلك عنه، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ وتكذيب إلا فرج الله

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. انظر: «ديوانه» (ص: ٤٤)، وفيه: «يطالبه» بدل «يحاوله»، «واستصحب» بدل «واستعمل».

وعلي بن أبي طالب ابنُ عمه، وكان مُقيماً عنده يُطعمه ويسقيه ويقوم بـأمره؛ لأن قريشاً كانوا قد أصابتهم مجاعة، وكان أبو طالب مُقِـلاً كثيـر الأولاد، فقال عليه الصلاة والسلام لعمّه العباس بن عبد المطلب: . . . .

عنه بها، إذا رجع تثبته وتخفِّف عنه، وتصدِّقه وتهوِّن عليه أمر الناس[1].

قال الدحلاني: قال الحلبي: وبناته صلى الله عليه وسلم كُـنَّ موجـوداتٍ عند البعثة، فيبعد تأخرُ إيمانهن[2].

فهنَّ من أول الناس إيماناً، بل هن ممن لم يتقدم لهن إشراك، فلم يُـذكَرْن مع أول من آمن؛ اكتفاء بذلك، ولإيمان أمهن، ولذلك قال الحافظ ابن كثير: إن أهل بيته صلى الله عليه وسلم آمنوا بـه قبـل كـل أحـد، خديجـةُ وبناتُهـا، وزيـدٌ وزوجتُه، وعلي ـ رضي الله عنهم ـ، وأما فاطمة، فما ولـدت إلا بعـد البعثـة، فـلا يحتاج إلى التنبيه عليها.

وقد روى ابن إسحاق عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوة، أسلمت خديجة وبناتُه صلى الله عليه وسلم. اهـ[3].

وبناته الكبار هن: زينب، ورقية، وأم كلثوم.

قوله: (وعلي بن أبي طالب. . .) إلخ: كان حين أسلم لم يبلـغ الحلـم، كان سنه ثمان سنين، وقيل: عشر.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بـن زينـي دحـلان (١/ ١٧٥). وانظـر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٧٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٣١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٠)، ولم نقف على الخبر المذكور من رواية عائشة ـ رضـي الله عنهـا ـ، وإنمـا أورده ابـن هشـام فـي «السيرة النبوية» (٣/ ٢٠٢)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبيـر» (٢٢/ ٤٢٧) كلاهمـا عن ابن إسحاق من قوله.

«إن أخاك أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه لنخفِّف من عياله، تأخذ واحداً، وأنا واحداً»، . . . .

قال الدحلاني: وسبب إسلامه ـ رضي الله عنه ـ: أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة وهما يصليان، فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دين الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسلَه، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى»، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدِّث أبا طالب، وكره صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي! إذا لم تسلم، فاكتمْ هذا»، فمكث عليٌّ ليلته، ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم على يديه[1].

وكان علي ـ رضي الله عنه ـ يخفي إسلامه خوفاً من أبيه إلى أن اطَّلع عليه، وأمره بالثبات عليه، فأظهره حينئذ.

ومما كتبه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ لمعاوية ـ رضي الله عنه ـ:

محمدٌ النبيُّ أخي وصِهْري ... وحمزةُ سيدُ الشهداء عَمّي

وجعفرٌ الذي يُضحي ويمسي ... يطير مع الملائكة ابنُ أُمِّي

وبنتُ محمدٍ سَكَني وعِرْسي ... مَشوبٌ لحمُها بدمي ولحمي

وسِبْطا أحمدٍ ابناي منها ... فمن منكم له سهمٌ كسهمي

سبقتكمو إلى الإسلام طُرّاً ... صغيراً ما بلغتُ أوانَ حلمي[2]

---

(١) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ١٠١) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣)، والأبيات المذكورة رواها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٥٢١).

فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباسُ جعفرَ بنَ أبي طالب، وأخذ عليه الصلاة والسلام علياًّ[1]، فكان في كفالته كأحد أولاده إلى أن جاءت النبوّة وقد ناهز الاحتلام، فكان تابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم في كل أعماله، ولم يتدنس بدَنَس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتّباع الهوى، وأجاب أيضاً: زيدُ بنُ حارثةَ بنِ شُرحبيلَ الكلبيُّ، مولاه عليه الصلاة والسلام، . . . . . .

قوله: (ولم يتدنس بدنس الجاهلية): في «القاموس»: الدَّنَس ـ محركة ـ: الوسخ، دَنِس الثوبُ والعِرض؛ كـ (فرح)، دَنَساً، ودَناسةً، فهو دَنِسٌ: اتَّسخ، وقوم أدناسٌ ومَدانيسُ، ودنَّس ثوبَه وعِرضَه تدنيساً: فعل به ما يَشينه. اهـ[2].

قوله: (وأجاب أيضاً زيدُ بنُ حارثة): قال الدحلاني: وهبته له خديجة ـ رضي الله عنها ـ لما تزوج بها، وكان اشتراه لها ابنُ أخيها حكيمُ بنُ حزامٍ من سوق عكاظ، وكان ممن سُبي في الجاهلية وعمره ثمان سنين.

قال السهيلي: خرجت به أمه تريد أهلها بني طَيّ، فأصابتها خيل فأخذته، فباعوه، فاشتراه حكيمٌ لعمته خديجةَ، ولما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها، أُعجب به، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبنَّاه قبل الوحي.

ثم جاء أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبا فداءه بمال يدفعونه، فقال: «ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء، وإن اختارني فوالله! ما أنا بالذي أختار على الذي اختارني فداءً».

ولما أتى زيد قال: ما أنا بالذي أختارُ عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد، تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٦٣) من حديث مجاهد مرسلاً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٣٢).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: دنس).

وكان يُقال له: زيدُ بنُ محمد؛ لأنه لما اشتراه أعتقه وتبنَّاه، وكان المتبنَّى معتبراً كابنٍ حقيقيّ يرث ويورث. وأجابت أيضاً أُمُّ أيمنَ حاضنتُه التي زوّجها لمولاه زيد[1].

وأول مَنْ أجابه من غير أهل بيته: أبو بكر بنُ أبي قُحافةَ بنِ عامرِ بنِ عمرِو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تَيْمِ بنِ مرّةَ التيميُّ القرشي، . . . .

وأهل بيتك؟! قال: نعم، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى، أخرجه إلى الحِجْر الذي هو محلُّ جلوس قريش، فقال: «إن زيداً ابني، أَرِثُه ويرثني»، فطابت أنفسهما، وانصرفا. اهـ[2].

وذكرني صنيعُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتين كان أنشدنيهما بعض الأفاضل من سنين، فعلقا في ذاكرتي، وهما:

وأَدِّ زكاةَ الجاه واعلمْ بأنها[3] ... كمثلِ زكاةِ المال تمَّ نصابُها
وأحسنْ إلى الأحرار تملكْ رقابَهم ... فخيرُ تجاراتِ الكرام اكتسابُها[4]

قوله: (وأول من أجابه من غير أهل بيته أبو بكر . . .) إلخ: في الدحلانية: كان ـ رضي الله عنه ـ يتوقع ظهور نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لما سمعه من

---

(١) انظر: «المواهب اللدينة» للقسطلاني (١/ ١٣٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٥ ـ ١٨٦). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، والقصة المذكورة رواها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤٠ ـ ٤٢) عن محمد بن السائب الكلبي، وجميل بن مرثد الطائي.

(٣) في الأصل: «بأنه»، والمثبت من «ديوان الشافعي».

(٤) البيتان للإمام الشافعي. انظر: «ديوانه» (ص: ٢٧).

كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل النبوّة، يعلم ما اتّصف به من مكارم الأخلاق، ولم يَعْهد عليه كذباً منذ اصطحبا، فأوّل ما أخبره برسالة الله أسرعَ بالتصديق، وقال: بأبي أنت وأمي! أهل الصدق أنت، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأنك رسول الله. . . . .

ورقة ومن غيره من الأحبار والرهبان والكهان، حتى إنه أولُ من بادر إلى التصديق به صلى الله عليه وسلم.

يروى: أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان يوماً عند حكيم بن حزام، إذ جاءت مولاة لحكيم فقالت: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبيٌّ مرسَل مثل موسى عليه السلام، فانسل أبو بكر حتى أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فسأله عن خبره، فقصَّ عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحي له، وأخبره بأن الله أرسله، فقال: صدقتَ بأبي وأمي أنت، وأهلُ الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فسماه يومئذ: الصدِّيقَ بوحي من الله.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣]: أن الذي جاء بالصدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ[١].

وقال السهيلي في «الروض الأنف»: وكان من أسباب توفيق الله إياه فيما ذكر: رؤيا رآها قبل ذلك، وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة، ثم رآه قد تفرَّق على جميع منازل مكة وبيوتها، فدخل في كل بيت منه شعبة، ثم كأنه جمع في حجره، فقصها على بعض الكتابيين، فعبرها له بأن النبي المنتظر الذي قد أظل زمانُه تتبعه، وتكون أسعدَ الناس به، فلما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام لم يتوقَّف[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٧٧).

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ٤٣١).

وكان ـ رضي الله عنه ـ صدراً معظّماً في قريش على سَعَة من المال وكرم الأخلاق، وكان من أعفّ الناس، سخيًّا، يبذل المال، محبباً في قومه، حسن المجالسة، ولذلك كلِّه كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنزلة الوزير، فكان يستشيره في أموره كلها، وقال في حقه: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»[1].

وكانت الدعوة إلى الإسلام سرًّا حَذَراً من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلا مَنْ يثق به.

ودعا أبو بكر إلى الإسلام مَنْ يثق به من رجال قريش، ....

قوله: (إلا كانت له كبوة): الذي في الحلبية والدحلاني (عنده) بدل (له)[2].

وفي «النهاية» جمع بينها، حيث أورد الحديث هكذا: «ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت عنده له كبوة غير أبي بكر؛ فإنه لم يتلعثم». اهـ[3].

قال صاحب «النهاية»: الكبوة: الوقفة؛ كوقفة العاثر، أو الوقفة عند الشيء يكرهه الإنسان. اهـ[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٠) عن محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الحصين التميمي. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٢)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ١٧٧).

(٣) والحديث أورده رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (٥/ ٥٨٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، دون قوله: «عنده». وانظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٤٥).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٤٦).

فأجابه جمع منهم: عثمانُ بنُ عفانَ بنِ أبي العاص بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ ابنِ عبدِ منافٍ الأمويُّ القرشيُّ، ولما علم عمه الحَكَمُ بإسلامه، أوثقه كتافاً، وقال: ترغب عن دين آبائك إلى دين مستحدَث؟ والله! لا أَحُلُّك حتى تدعَ ما أنت عليه، فقال عثمان: والله! لا أدعه ولا أُفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في الحق، تركه، وكان كهلاً يناهز الثلاثين من عمره[1].

ومنهم: الزبيرُ بنُ العوّامِ بنِ خُوَيلدِ بنِ أسدِ بنِ عبد العزى بنِ قُصَيٍّ القرشيُّ، وأمه صفيةُ بنتُ عبد المطلب، وكان عمُّ الزبير . . . .

قوله: (منهم عثمان بن عفان . . .) إلخ: ذكر في الدحلاني سبب إسلامه - رضي الله عنه -، فقال: قال عثمان - رضي الله عنه -: أخبرتني خالتي سعدى - رضي الله عنها -: أن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وحثّتني على اتباعه، وكان لي مجلس من الصديق - رضي الله عنه -، فجئته فأصبته وحده، وصرت متفكراً، فسألني عن سبب تفكري، فأخبرته بما سمعت من خالتي، فحثني أبو بكر - رضي الله عنه - ورغَّبني في الإسلام، قال: فما كان بأسرع من أن مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي - رضي الله عنه - يحمل له ثوباً، فقام أبو بكر - رضي الله عنه - فسارَّ النبيُ صلى الله عليه وسلم، فقعد ثم أقبل عليَّ فقال: «أجب الله تعالى إلى جنته، فإني رسولُ الله إليك وإلى جميع خلقه»، قال: فما تمالكتُ حين سمعته أن قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، ثم لم ألبث أن زوَّجني بنته رقيةَ - رضي الله عنها -[2].

قوله: (وكان عم الزبير . . .) إلخ: في «الإصابة» في ترجمة الزبير: كان

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٥) عن إبراهيم بن الحارث التيمي، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٧)، والحديث المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٣ - ٢٥).

يرسل الدخان عليه وهو مقيد ليرجع إلى دين آبائه، فقوّاه الله بالثبات، وكان شابًّا لا يتجاوز سن الاحتلام[1].

ومنهم: عبد الرحمن بنُ عوفِ بنِ عبدِ عوفِ بنِ الحارثِ بنِ زهرةَ بنِ كلابٍ القرشيُّ الهاشميّ، وكان اسمه في الجاهلية: عبدَ عمرو، فسمّاه عليه الصلاة والسلام: عبدَ الرحمن[2].

عم الزبير، واسمه نوفل من خويلد، يعلقه في حصير، ويُدخِّن عليه ليرجع إلى الكفر، فيقول: لا أكفر أبداً[3].

قوله: (لم يتجاوز سن الاحتلام): في «الاستيعاب» لابن عبد البر: إنه أسلم وهو ابنُ ستَّ عشرةَ سنة، قال: وهو الأصح[4].

قوله: (ومنهم: عبد الرحمن بن عوف): قال الدحلاني: سبب إسلامه: ما أخرجه ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: سافرت إلى اليمن قبل بعثه صلى الله عليه وسلم، فنزلت على عسكلان الحِمْيري، وكان شيخاً كبيراً، وكنت أنزل عليه إذا جئت اليمن، فسألني مرة عن مكة والكعبة وزمزم، وقال: هل ظهر منكم أحد خالف دينكم؟ فقلت: لا.

ثم قدمت عليه بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم وقد ضَعُف وثَقُل سمعه،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٩) من حديث عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: كان اسمي عبدَ عمرو، فتسمَّيتُ حين أسلمت عبد الرحمن، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧).

(٣) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٥٥٤)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣٩) عن أبي الأسود.

(٤) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٥١١).

ومنهم: سعد بنُ أبي وقاص مالكِ بنِ أُهيبِ بنِ عبدِ منافِ بنِ زهرةَ بنِ كلابٍ الزهريُّ القرشيُّ. ولما علمت أمه حَمْنَةُ بنتُ أبي سفيان بنِ أمية بإسلامه، قالت له: يا سعد! بلغني أنك قد صبأت، فوالله! لا يُظلُّني سقف من الحر والبرد، وإنَّ الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد، . . . .

فنزلت عليه، فقال: يا أخا زهرة! ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة؟ قلت: بلى، قال: إن الله قد بعث في الشهر الأول من قومك نبياً، وارتضاه رسولاً صفيّاً، وأنزل عليه كتاباً، وجعل له ثواباً، ينهى عن الأصنام، ويدعو إلى الإسلام، ويأمر بالحق ويفعله، وينهى عن الباطل ويبطله، وهو من بني هاشم، امض ووازرْه، وحَمّلَه أبياتاً تفيد إسلامه.

قال عبد الرحمن: فحفظت الأبيات وانصرفت إلى مكة، فلقيت أبا بكر وأخبرته الخبر، فقال: هذا محمد قد بعثه الله، فأته، فلما أتيت بيتَ خديجة ـ رضي الله عنها ـ رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، وقال لي: «أرى وجهاً خليقاً أن أرجو له خيراً، فما وراءك؟» فقلت: وديعة، فقال: «أرسلك مرسل برسالة؟ هاتها»، فأخبرتُه وأسلمتُ، فقال: «أخو حِمْير مؤمنٌ مصدِّق بي وما شاهدني، أولئك من إخواني حقّاً». اهـ. ملخصاً[١].

قوله: (ومنهم: سعد بن أبي وقاص): قال الدحلاني: لقيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فدعاه إلى الإسلام ورغبه فيه، وحثه عليه، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وسأله عن أمره، فأخبره به، فأسلم، وكان عمره تسعَ عشرةَ سنة، وهو من بني زهرة، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم وقد أقبل عليه سعد: «هذا خالي، فَلْيرِني امرؤ خاله»[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٣١ ـ ١٣٢، ١٨٨)، والحديث رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٥/ ٢٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٨)، والحديث رواه =

وبقيتْ كذلك ثلاثة أيام، فجـاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكا إليه أمر أمه، فنزل في ذلك تعليماً قولُ الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨][١].

وصَّاه جلَّ ذكـره بوالديـه، وأمـره بالإحسـان إليهمـا، مـؤمنينِ كانـا أو كافرين، أما إذا دعواه للإشراك، فالمعصية متحتمـةٌ؛ لأن كـل حـق ـ وإن عظم ـ ساقط هنا، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثـم قـال: ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مَنْ آمن منكم ومَنْ أشرك، فأُجازيكم حقّ جزائكم.

وفي ختام هذه الآية فائـدتان: التنبيـهُ علـى أن الجـزاء إلـى الله، فـلا تحدّث نفسك بجفوتهما لإشراكهما، والحضُّ على الثبات في الدين؛ لئلا ينال شرّ الجزاء في الأخرى.

ومنهم: طلحةُ بنُ عبيدِالله بنِ عثمانَ بنِ عمرِو بنِ كعبٍ........

قوله: قوله تعالى: (﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾)؛ أي: بإلهيته[٢]، عبر عن نفيهـا بنفي العلم بها؛ إشعاراً بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعُه، وإن لـم يعلـم بطلانـه فضلاً عما علم بطلانه. اهـ. بيضاوي[٣].

قوله: (ومنهم: طلحة بن عبيدالله)؛ أي: أحد المبشرين بالجنة، دعاه أبو

= البخاري (٣٧٥٢)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وقـال: حـديث حسن غريب.

(١) رواه مسلم (١٧٤٨/ ٤٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، وانظـر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٧).

(٢) في الأصل: «بآلهته»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٩).

ابنِ سعدِ بنِ تيمِ بنِ مرّةَ التيميُّ القرشيُّ، وقد كان عَرَف من الرهبان ذكرَ الرسول صلى الله عليه وسلم وصفته، فلما دعاه أبو بكر، وسمع من رسول الله ما نفعه الله به، ورأى الدين متيناً بعيداً عمّا عليه العرب من المثالب، بادر إلى الإسلام[1].

بكر، ورغبه في الإسلام، فلما استجاب له، أخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم.

وقوله: (وقد كان عرف من الرهبان ذكر الرسول وصفته): قال الدحلاني: وقد كان ذلك هو السبب الأول في إسلامه ـ رضي الله عنه ـ، قال: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهب في صومعة يقول: سلوا أهل هذا الموسم: هل ثم من أهل الحرم أحد؟ فقلت: نعم، أنا، قال: هل ظهر أحمد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبدالله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى أرض ذات نخل وسباخ، فإياك أن تُسبَق إليه.

قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمدُ بنُ عبدالله الأمينُ يدعو إلى الله تعالى، وقد تبعه ابن أبي قحافة.

فخرجت حتى دخلت على أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فأخبرته بما قال الراهب، فخرج أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، فسرَّ به، فأسلمتُ. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٨٩)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٥٨٦)، من حديث طلحة بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ.

ومِمن سبقوا إلى الإسلام: صُهَيبٌ الروميُّ، وكان من الموالي، وعمّارُ ابنُ ياسرٍ العنسيُّ، وقد قال ـ رضي الله عنه ـ: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر[1]، وكذلك أسلم أبوه ياسرٌ وأمه سُمَيَّة[2].

ومن السابقين الأولين: عبدالله بن مسعود، كان يرعى الغنم لبعض مُشرِكي قريش، ....

قوله: (ومِمن سبقوا إلى الإسلام: صهيب الرومي): قال الدحلاني: سبب إسلامه: أن أباه كان عاملاً لكسرى، فأغارت الروم عليهم، فسبت صهيباً وهو غلام صغير، فنشأ في الروم حتى كبر، ثم ابتاعه جماعة من العرب، وجاؤوا به إلى سوق عكاظ، فابتاعه منهم عبدُالله بنُ جدعان، فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مر صهيب على دار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى عمارَ بنَ ياسر، فقال عمار بن ياسر: أين تريد يا صهيب؟ قال: أريد أن أدخل على محمد فأسمعَ كلامه وما يدعو إليه، قال عمار: وأنا أريد ذلك، فدخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهما بالجلوس، فجلسا، وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما من القرآن، فتشهَّدا، ثم مكثا عنده يومها حتى أمسيا، ثم خرجا مستخفيين، فدخل عمار على أمه وأبيه، فسألاه أين كان؟ فأخبرهما بإسلامه، وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن، فأعجبهما، فأسلما على يده، وكان صهيب وعمار تكملة بضع وثلاثين رجلاً. اهـ[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٠، ٣٨٥٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٥)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٥٥٨٦)، من حديث طلحة بن عبيدالله ـ رضي الله عنه ـ.

فلما رأى الآيات الباهرة، وما يدعو إليه عليه السلام من مكارم الأخلاق، ترك عبادة الأوثان، ولزم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ـ رضي الله عنه ـ كثيرَ الدخول على الرسول لا يُحْجَب، ويمشي أمامه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويُلبسهُ نعليه إذا قام، . . . .

قوله: (فلما رأى الآيات الباهرة): قال الدحلاني: سبب إسلامه: ما حدَّث به، قال: كنتُ في غنم لآل عقبةَ بنِ أبي مُعَيط، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل عندك من لبن؟» فقلت: نعم، ولكني مؤتمن، فقال: «هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل؟» قلت: نعم، فأتيته بشاة شصوص ـ وهي التي لا ضرع لها، وقيل: لا لبن لها ـ، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم مكان الضرع، فإذا ضرع حافل مملوء لبناً، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم بصخرة منقورة، فاحتلب النبي صلى الله عليه وسلم، فسقى أبا بكر وسقاني، ثم شرب، ثم قال للضرع: «اقلص»، فرجع كما كان، وإلى ذلك أشار السبكي في «تائيته» بقوله:

ورُبَّ عَناقٍ ما نزا الفحلُ فوقَها مسحتَ عليها باليمين فدرَّتِ[1]

فلما رأى ابن مسعود هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم، وقال: يا رسول الله! علمني، فمسح رأسه وقال: «بارك الله فيك؛ فإنك غلام معلَّم»[2].

قوله: (لا يحجب. . .) إلى آخره: قال الدحلاني: ولذلك كان مشهوراً عند الصحابة بأنه صاحبُ سرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبشره بالجنة،

---

(١) انظر: «شرح تائية السبكي» لأحمد الترمانيني (ص: ١٠٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠ ـ ١٩١)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٠ ـ ١٥١)، والإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٦٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٠٤)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

فإذا جلس، أدخلهما في ذراعيه[1].

ومن السابقين الأوّلين: أبو ذَرٍّ الغِفاريُّ، وكان من أعراب البادية فصيحاً حلوَ الحديث، ولما بلغه مَبْعَثُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لأخيه: اركبْ إلى هذا الوادي فاعلمْ لي علمَ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيٌّ يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله، ثم ائتني.

فانطلق الأخ حتى قدم مكة، وسمع من قول الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردتُ.

وقال: «رضيتُ لأمتي ما رضي لها ابنُ أم عبد، وسخطتُ لها ما سخطه لها ابنُ أم عبد». اهـ[2].

قوله: (أبو ذر الغِفاري): ـ بكسر المعجمة ـ، واسمه: جُندبُ بن جُنادةَ ـ بضم الجيم فيهما ـ اهـ. حلبي[3].

قوله: (قال لأخيه): اسمُه أنيس.

قوله: (ويقول كلاماً ما هو بالشعر): في الحلبي والدحلاني بعد قوله: **(رأيته يأمر بمكارم الأخلاق)**: قلتُ: فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، والله! إنه لصادق، وإنهم لكاذبون، فقلت: اكفني حتى أذهب

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩١)، والحديث رواه البزار في «مسنده» (١٩٨٦) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٠): وفي إسناد البزار محمد بن حميد الرازي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله وثِّقوا.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠).

فتزوّدَ، وحمل قِربة له فيها ماء، حتى قَدِمَ مكةَ، فأتى المسجد، فالتمس النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكَرِه أن يسأل عنه؛ لما يعرفه من كراهة قريش لكل مَنْ يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا أدركه الليل، رآه عليٌّ، فعرف أنه غريب، فأضافه عنده، ولم يسأل أحد منهما صاحبه عن شيء، على قاعدة الضيافة عند العرب: لا يُسأل الضيف عن سبب قدومه إلا بعد ثلاث.

فلما أصبَحَ، احتمل قِربته وزادَه إلى المسجد، وظل ذلك اليوم ولا يراه الرسول حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ، فقال: أما آنَ للرجل أن يعرف منزلَه الذي أُضيف به بالأمس؟ فأقامه، فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث عاد عليٌّ مثل ذلك.

ثم قال له علي: ألا تحدّثني ما الذي أقدمَكَ؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلتُ، ففعل فأخبره، قال: فإنه حقّ، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمتُ كأني أُريق الماء، . .

فأنظر، قال: نعم، وكن على حذرٍ من أهل مكة. اهـ[1].

قوله: (أما آن[2] للرجل. . .) إلخ؛ أي: أما حان، يقال: نال له؛ بمعنى: آن له، ويروى: أما آن[3]. اهـ. «فتح الباري»[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ١٩١).

(٢) في الأصل: «نال»، والتصويب من متن «نور اليقين».

(٣) وهي إحدى روايات صحيح مسلم (٢٤٧٤) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٧/ ٥١١).

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ١٧٤).

فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخلَ مدخَلي، ففعل، فانطلق يتبع أثره حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، قال: والذي نفسي بيده! لأصرخنّ بها بين ظَهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباسُ فأكبَّ عليه وقال: ويلكم! أوَلَستمُ تعلمون أنه من غِفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليه؟ فأنقذه منهم.

ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبَّ العباس عليه. رواه البخاري[1].

كان ـ رضي الله عنه ـ من أصدق الناس قولاً، وأزهدِهم في الدنيا.

قوله: (فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله...) إلخ: في الدحلاني: لما قال ذلك قالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فمال عليَّ أهلُ الوادي بكل مَدَرة وعظم حتى خررتُ مغشياً عليَّ، فأكب عليَّ العباس، وقال: ويلكم... إلخ ما في المصنَّف[2].

قوله: (من أصدق الناس قولاً، وأزهدهم في الدنيا): قال الدحلاني: جاء أن أبا ذر أولُ من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: السلامُ عليك، التي هي تحية الإسلام، وبايع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أن لا تأخذه في الله

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٠ ـ ٤٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٨٦١)، ومسلم (٢٤٧٤)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ومن السابقين: سعيد بنُ زيدٍ العَدَوِيُّ القرشيّ، وزَوجُه فاطمةُ بنتُ الخطاب أختُ عمر، وأُم الفضل لُبابةُ بنتُ الحارث الهلاليةُ، زوجُ العباس ابن عبد المطلب، . . . .

لومة لائم، وعلى أن يقول الحق ولو كان مراً، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أظلَّتِ الخضراءُ ـ أي: السماء ـ ولا أقلَّتِ الغبراءُ ـ أي: الأرض ـ أصدقَ من أبي ذر»، رضي الله عنه[1].

وقال صلى الله عليه وسلم في حقه: «أبو ذَرٍّ يمشي في الأرض على زهدِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام»[2].

وفي الحديث: «أبو ذر زاهد أمتي وأصدقها»[3].

ولما عاد إلى بلاده، أسلم أخوه وأمه، وأسلم نصفُ قومه، ولما جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم النصف الثاني[4].

قوله: (سعيد بن زيد): هو أحدُ العشرة المبشرين بالجنة.

وقوله: (وزوجه فاطمة): قال الدحلاني: هي ثانية النساء إسلاماً، وقيل:

---

(١) رواه الترمذي (٣٨٠١) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وقال: حديث حسن.

(٢) روى الترمذي (٣٨٠٢) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شِبه عيسى ابن مريم عليه السلام»، وقال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روى بعضهم هذا الحديث، فقال: «أبو ذر يمشي في الأرض بزهد عيسى ابنِ مريم عليه السلام».

(٣) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث» للهيثمي (٩٦٥)، من حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

وعُبيدة بنُ الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، ابنُ عـم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة عبدُالله بنُ عبدِ الأسد المخزوميُّ القرشيُّ ابنُ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوجُه أم سـلمةَ، وعثمـان بـنُ مظعـون الجمحيُّ القرشيُّ، وأخواه: قُدامة، وعبـدالله، والأرقـم بـنُ أبـي الأرقـم المخزوميُّ القرشيُّ.

ومن السابقين الأوّلين: خالد بنُ سعيد بنِ العاصِ بنِ أميـةَ بـنِ عبـدِ شمسٍ الأمويُّ القرشيّ، كان أبوه سيدَ قريش، إذا اعـتمَّ لـم يعـتمّ قرشـيٌّ إجلالاً له، ....

الثانية أُم الفضل لبابةُ بنتُ الحارث الهلاليةُ[1].

قوله: (وعبيدة بن الحارث) هو المستشهد يوم بدر كما سيأتي.

قوله: (وأبو سلمة): هو زوجُ أم سلمة قبل النبيِّ صـلى الله عليـه وسـلم، أسلم بعد تسعة أنفس، وقيل: هو الحادي عشر. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (والأرقم بن أبي الأرقم) هو الذي ينسب إليه دار الأرقم.

قوله: (كان أبوه سيد قريش...) إلخ: يقال لأبيه: أبو أُحيحة.

وقوله: (لم يعتم قريشي إجلالاً له): قال الدحلاني: ومن ثم قال فيه القائل:

أبـا أُحيحـةَ مـن يعـتمُّ عِمَّتَـهُ ... يومـاً وإن كـان ذا مـالٍ وذا عـددِ[3]

وفي الحلبي: (يضرَبْ) بدل (يوماً)[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بـن زينـي دحـلان (١/ ١٩٤)، وانظـر: «جمهـرة الأمثال» للعسكري (١/ ٣٣٥)، ولم يعزه لأحد.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٤).

وكان خالد بن سعيد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية، . . . .

قوله: (سيقع في هاوية. . .) إلخ: قال الدحلاني: سبب إسلامه: أنه رأى في النوم النار، ورأى فظاعتها وأهوالها أمراً مهولاً، ورأى أنه على شفيرها، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بحجزته[1] يمنعه من الوقوع فيها.

فقام من نومه فزعاً، وعلم أن نجاته من النار تكون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ، فذكر ذلك، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أُريد بك خير، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعْه، فأتاه فقال: يا محمد! ما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع»، فأسلم خالد[2].

ثم قال: عند إسلامه أرسل والده في طلبه، فانتهره وضربه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، ثم قال: اتبعتَ محمداً وأنت ترى خلافه لقومه، وما جاء به من عيب آلهتهم وعيب من مضى من آبائهم؟! فقال: والله! تبعته على ما جاء به، فغضب أبوه وقال: اذهب يا لكع[3] حيث شئت، وقال: والله! لأمنعنك القوتَ، قال: إن منعتني فالله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه، وقال لبنيه ولم يكونوا أسلموا: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به مثلَه.

فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمه ويعيش معه

---

(١) في هامش الأصل: «الحجزة ـ بضم الحاء وسكون الجيم وفتح الزاي ـ: مَعْقِد الإزار، ومن السراويل: موضع التكة. اهـ. قاموس».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٣) في هامش الأصل: «اللكع: اللئيم والعبد والأحمق. اهـ منه».

فأدركه رسول الله، وخلّصه منها، فجاء إليه وقال: إلامَ تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، والإحسان إلى والديك، وأن لا تقتل ولدَك خشيةَ الفقر، وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، وأن لا تقتل نفساً حرّم الله إلا بالحق، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه، وأن توفي الكيل والميزان بالقسط، وأن تعدل في قولك ولو حكمتَ على ذوي قرباك، وأن توفي لمن عاهدت»، فأسلم ـ رضي الله عنه ـ، وحينئذٍ غضب عليه أبوه وآذاه حتى منعه القوت، فانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان يلزمه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه في ضواحي مكة، وأسلم بعده أخوه عمرو بنُ سعيد[1].

وهكذا دخل هؤلاء الأشرافُ في دين الإسلام، . . . .

ويغيب عن أبيه في نواحي مكة حتى خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فكان خالد أول من خرج إليها. اهـ[2].

قوله: (وأسلم بعده أخوه عمرو بن سعيد): قال الدحلاني: سبب إسلامه: أنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت منه نخيل المدينة حتى رأى البُسرَ فيها، فقص رؤياه، فقيل له: هذه بئر بني عبد المطلب، وهذا النور منهم يكون، فكان سبباً لإسلامه. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٤)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٩٤ ـ ٩٥) عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٤).

ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين، وليس معه ما يرغّب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم، وذوي الثروة منهم، ويتبعوا الرسول ليأكلوا من فضل ماله، بل كان الكثير منهم واسع الثروة أكثر منه عليه الصلاة والسلام؛ كأبي بكر وعثمان وخالد بن سعيد وغيرهم، والذين اتّبعوه من الموالي اختاروا الأذى والجوع والمشقّات مع اتّباع الرسول، بحيث لو اتبعوا سادتهم، لكانوا في هذه الدنيا أهدأ بالاً، وأنعم عيشة، اللهمّ ليس ذلك إلا من هداية الله وسطوعِ أنوار الدين عليهم، حتى أدركوا ما هم عليه من الضلالة، وما عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الهدى.

قوله: (ولم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف يضرب به أعناقهم. . .) إلخ: قال الإمام الماوردي في «أعلام النبوة»: فإن قيل: مجيء الأنبياء موضوع لمصالح العالم، وهم مأمورون بالرأفة والرحمة، ومحمد جاء بالسيف وسفك الدماء وقتل النفوس، فصار منافياً لما جاء به موسى وعيسى، فزال عن حكمهما في النبوة لمخالفتهما في السيرة، فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الله تعالى بعث كل نبي بحسب زمانه، فمنهم من بعثه بالسيف؛ لأن السيف أنجعُ، ومنهم من بعثه باللطف؛ لأن اللطف أنفع، كما خالف بين معجزاتهم بحسب أزمانهم، فبعث موسى بالعصا في زمان السحر، وبعث عيسى بإحياء الموتى في زمان الطبّ، وبعث محمداً بالقرآن في زمان الفصاحة؛ لأن الناس في بدء أمرهم يتعاطفون مع القلة، ثم يتنافرون ويتحاسدون مع الكثرة، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نجا أولُ هذه الأمة باليقين، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل»[1].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٢٠) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

والجواب الثاني: أن السيف إذا كان لطلب الحق كان خيراً، واللطف إذا كان مع إقرار الباطل كان شراً؛ لأن الشرع موضوع لإقرار الفضائل الإلهية، والحقوق الدينية والأخلاقية، ولذلك جاء الشرع بالقتل والحدود؛ ليستقر به الخير، وينتفي به الشر؛ لأن النفوسَ الأَشِرَةَ لا يكفيها إلا الرهبةُ، فكان القهر لها أبلغَ في انقيادها من الرغبة، وكانت العرب أكثر الناس شرّاً وعتوّاً؛ لكثرة عددهم، وقوة شجاعتهم، فلذلك كان السيف فيهم أنفعَ من اللطف.

والجواب الثالث: أنه لم يكن في جهاده بالسيف بدعاً من الرسل، ولا أولَ مَنْ أثخن في أعداء الله تعالى، وقبل هذا إبراهيمُ عليه السلام جاهدَ الملوك الأربعة الذين أتوا إلى بلاد الجزيرة للغارة على أهلها، وحاربهم حتى هزمهم بأحزابه وأتباعه.

وهذا يوشعُ بنُ نون قتل نيفاً وثلاثين ملكاً من ملوك الشام، وأباد من مدنها ما لم يبق له أثر من غير أن يدعوهم إلى دين، أو يطلب منهم أتاوة، وساق الغنائم.

وغزا داود من بلاد الشام، فلم يدع فيها رجلاً ولا امرأة إلا قتلهم، وهو موجود في كتبهم.

ومحمد صلى الله عليه وسلم بدأ بالاستدعاء، وحارب بعد الإباء، وتمامه فيه[1].

الجهر بالتبليغ

قوله: (مضت كل هذه المدة): لم يذكر المصنف تلك المدة التي مضت.

---

(١) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ٢١٤ ـ ٢١٥).

في مجامع قريش العمومية، ولم يكن المسلمون يتمكّنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش، فكان كلُّ من أراد العبادة ذهب إلى شِعاب مكة يصلّي مستخفياً، ولمّا دخل في الدين ما يربو على الثلاثين، وكان من اللازم اجتماعُ الرسول صلى الله عليه وسلم بهم ليرشدهم ويعلّمهم، اختار لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ وهو ممّن ذكرنا إسلامهم ـ . . . .

قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: كان صلى الله عليه وسلم يدعو الناس خفية بعد نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ثلاث سنين[1].

وقال قبل ذلك نقلاً عن الإمام الزهري: إن الجهر بالدعوة كان في سنة أربع من النبوة، وقيل: في سنة خمس[2].

قوله: (يصلي مستخفياً): قال الدحلاني: فبينما سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شِعْب من شعاب مكة؛ إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعدٌ رجلاً منهم بلَحْيِ بعيرٍ فشجَّه، فهو أول دم أهريق في الإسلام[3].

قوله: (ما يربو على الثلاثين): كانوا تسعة وثلاثين، وخرجوا بعد أن كملوا أربعين بإسلام عمرَ وحمزةَ ـ رضي الله عنهما ـ. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (اختار لذلك دار الأرقم): هي المعروفة الآن بدار الخيزران؛ لأن المنصور لما اشترى الدار المذكورة وهبها لولده المهدي، فوهبها المهدي لجاريته

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦)، والخبر المذكور أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

ومكث عليه الصلاة والسلام يدعو سرّاً حتى نزل عليه قوله تعالى في سورة الحِجر: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤]، فبدّل بالدعوة سرًّا الدعوة جهراً ممتثلاً أمر ربه، واثقاً بوعده ونصره، فصعد على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فِهر! يا بني عَديٍّ! لبطون قريش، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً لينظر الخبر، فجاء أبو لهب بنُ عبد المطلب وقريشٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، . . . .

الخيزران، فوقفتها مسجداً. اهـ. دحلاني[١].

قوله: قوله تعالى: (﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾)؛ أي: فاجهر به؛ من صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً، أو فافرقْ به بين الحق والباطل، وأصله: الإبانة والتمييز، و(ما) مصدرية أو موصولة، والراجع محذوف؛ أي: بما تؤمر به من الشرائع.

وقوله تعالى: (﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾)؛ أي: فلا تلتفت إلى ما يقولون. اهـ. بيضاوي[٢].

وفي «المصباح»: الصدع: مأخوذ من الشق؛ أي: شُقَّ جماعاتهم بالتوحيد، وقيل: افرق بين الحق والباطل، وقيل: أظهر ذلك، وصدعتُ بالحق: تكلمتُ به جهاراً[٣].

قوله: (فصعد على الصفا)؛ أي: وذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤] أيضاً كما صرح به الحلبي في أوائل باب استخفائه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٣٨٢).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: صدع).

قال: «فإنِّي نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله في شأنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ ....

صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم[1].

وفي الخازن في تفسير سورة ﴿تَبَّتْ﴾ رامزاً إلى الصحيحين: عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى: «يا بني فهر! يا بني عدي! . . .» إلخ ما ذكره المصنف هنا[2].

فقوله بعد ذلك: (ثم نزل عليه في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ . . .) إلخ: فيه ما فيه؛ لأنه يفيد أن نزولها كان بعد الاجتماع الأول، وما نقلناه صريح في أن نزولها كان قبله.

قوله: قوله تعالى: (﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾): معنى ﴿تَبَّتْ﴾: خابت وخسرت، والتباب: هو الخسار المفضي إلى الهلاك، والمراد من اليد: صاحُبها وجملةُ بدنه، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله جميعه.

وقيل: إنه رمى النبي صلى الله عليه وسلم بحجر فأدمى عقبه، فلهذا ذكرت اليد، وإن كان المراد جملة البدن، فهو كقوله: خسرت يده، وكسبت يده، فأضيفت الأفعال إلى اليد.

وقوله: (﴿وَتَبَّ﴾): قيل: الأول أخرج مخرج الدعاء، والثاني أخرج مخرج الخبر، كما يقال: أهلكه الله، وقد هلك. اهـ. الخازن[3].

قوله: قوله تعالى: (﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾): في الخازن:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤)، والحديث رواه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤).

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[المسد: ١ ـ ٥].

والقصد من حمل الحطب: المشيُ بالنميمة؛ لأنها كانت تقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأكاذيبَ في نوادي النساء.

قال ابن مسعود: لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرباءه إلى الله تعالى؛ قال أبو لهب: إن كان ما تقول يا ابن أخي حقّاً؛ فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾؛ أي: أي شيء يغني عنه ماله؛ أي: ما يدفع عنه عذابَ الله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾؛ يعني: من المال[1].

قوله تعالى: (﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾): قال النسفي: نصبَ عاصمٌ ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ على الشتم، والتقدير: أعني: حمالةَ الحطب، وغيرُه رفعُ ﴿حَمَّالَةُ الحطب﴾ على أنها خبر.

قيل: كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: كانت تمشي بالنميمة، فتشعل نار العداوة بين الناس.

وقوله تعالى: (﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾): حال، أو خبر آخر، والمسد: الذي فُتل من الحبال فتلاً شديداً، من ليف كان أو جلد أو غيرِهما.

والمعنى: في جيدها حبل مما مسد من الحبال، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون؛ تحقيراً لها، وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات، لتجزع من ذلك، ويجزع بعلُها، وهما في بيت العز والشرف، وفي منصب الثروة والجِدَة. اهـ[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٦٢).

ثم نزل عليه في سورة الشعراء: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو نوفل، وبنو عبد شمس أولاد عبد مناف، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ﴾[الشعراء: ٢١٥ - ٢١٦]؛ أي: العشيرة والأقربون، ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ٢١٦]، فجمعهم عليه الصلاة والسلام وقال لهم: «إن الرائد لا يكذِب أهلَه، والله! لو كذبتُ الناس جميعاً، ما كَذَبتكم، ولو غررتُ الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو! إني لرسولُ الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله! لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتُحَاسبنّ بما تعملون، ولتُجزونّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنّة أبداً، أو لنار أبداً».

فتكلم القوم كلاماً ليّناً غيرَ عمه أبي لهب الذي كان خصماً لدوداً؛ فإنه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب، . . . .

قوله: (فجمعهم عليه السلام)؛ أي: بعد أن مكث أياماً، ونزل عليه جبريل عليه السلام، وأمره بإمضاء أمر الله تعالى.

قوله: (إن الرائد لا يكذب أهله): أصل الرائد: الذي يتقدم القومَ يبصر لهم الكلأ ومساقطَ الغيث، وقد راد يرود رياداً. اهـ. «نهاية»[1].

قوله: (أو لنار أبداً): تتمة الحديث كما في الدحلاني: «يا بني عبد المطلب! ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضلَ مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»، فتكلم القوم. . . إلخ. اهـ[2].

قوله: (خذوا على يديه)؛ أي: اقبضوه وامنعوه عن هذا الأمر بحبس أو

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٨)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٢٦ - ١٢٧).

فإن أسلمتموه إذاً ذللتم، وإن منعتموه قُتلتم، فقال أبو طالب: والله! لنمنعنَّه ما بقينا، ثم انصرف الجمع[1].

ولما جهر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالدعوة، سَخِرت منه قريش، واستهزؤوا به في مجالسهم، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلَّم من السماء، وهذا غلام عبد المطلب يُكلم من السماء، لا يزيدون على ذلك، فلما عاب آلهتهم، . . . .

غيره. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فإن أسلمتموه): في «المصباح»: أسلمتُه: بمعنى: خذلتُه[3].

وفي «القاموس»: أسلم العدو: خذله[4].

وقوله: (وإن منعتموه)؛ أي: نصرتموه.

في «القاموس»: يقال: هو في عزٍّ ومنعة ـ محركة ويسكن ـ؛ أي: معه من يمنعه من عشيرته. اهـ[5].

قوله: (فقال أبو طالب . . .) إلخ: قال أبو طالب ذلك بعد أن قالت صفية عمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبة أخاها أبا لهب: أي أخي! أيحسن بك خذلانُ ابن أخيك، فوالله! ما زال العلماء يخبرون أنه من ضِئضِئ ـ أي: أصل ـ عبد المطلب نبي، فهو هو.

قال: هذا ـ والله ـ الباطلُ والأماني، وكلام النساء في الحجال، إذا قامت

---

(١) رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» (١/ ٥٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ١٩٨).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سلم).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سلم).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: منع).

وسَفَّهَ عقولهم، وقال لهم: «والله يا قوم! لقد خالفتم دينَ أبيكم إبراهيم»[1]، ثارت في رؤوسهم حميةُ الجاهلية غَيْرَةً على تلك الآلهة التي كان يعبدها آباؤهم، فذهبوا إلى عمه أبي طالب سيدِ بني هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه، فطلبوا منه أن يُخلي بينهم وبينه، أو يكفّه عمّا يقول، فردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريده، لا يصده عن مراده شيء، فتزايد الأمر، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحث بعضهم بعضاً على ذلك.

ثم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، وقالوا له: إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة منّا، وإنّا قد طلبنا منك أن تنهى ابنَ أخيك، فلم تَنْهَهُ عنّا، وإنّا ـ والله ـ لا نصبر على هذا؛ من شتمِ آبائنا، وتسفيه عقولنا، وعيب آلهتنا؛ فإنهم كانوا إذا احتجوا بالتقاليد في استمرارهم على عدم اتّباع الحق، ذمّهم لعدم استعمال عقولهم فيما خُلقت له . . . .

بطون قريش، وقامت معها العرب، فما قوتنا بهم؟! فوالله! ما نحن عندهم إلا أكلة رأس، فقال أبو طالب: والله! لنمنعنه ما بقينا. اهـ. حلبي[2].

قوله: (لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم): في الحلبي: قال لهم ذلك لما مر عليهم يوماً وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام، فقال: «يا معشر قريش! والله! لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم»، فقالوا: إنما نعبد الأصنام حبًّا إلى الله لتقربنا إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١][3].

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٥٠) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٥٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦١).

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، وقال في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤]، وقال في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[لقمان: ٢١]، وقال في سورة الزخرف في بيان حجتهم الداحضة: ﴿قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، ولما شبّههم بمن قبلهم من الأمم في هذه المقالة الدّالة على التعصب والعناد قال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[الزخرف: ٢٤]، ......

قوله: (﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾): الواو للحال أو العطف، والهمزة للرد والتعجب، وجواب (لو) محذوف؛ أي: لو كان آباؤهم جهلة لا يتفكرون في أمر الدين، ولا يهتدون إلى الحق، لاتبعوهم. اهـ. بيضاوي[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾): أي: على دين مجتمع، اهـ. نهاية[2].

قوله: قوله تعالى: (﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ﴾)؛ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بهدي أهدى من دين آبائكم؟.

وقوله: (﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾)؛ أي: وإن كان أهدى، فإنا بما أرسلتم به كافرون.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٤٧).

(٢) لم نقف عليه باللفظ المذكور، ولكن ذكر ابن الأثير معناه في مادة (أمم). انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٥٨).

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم، جرَّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية، فهاج ذلك أضغانَهم، وقالوا لأبي طالب: إما أن تكفَّهُ، أو ننازله وإيَّاك في ذلك حتى يَهْلِكَ أحد الفريقين، ثم انصرفوا، فعظم على أبي طالب فراقُ قومه، ولم يَطِبْ نفساً بخذلان ابن أخيه، فقال له: يا ابن أخي! إن القوم جاؤوني فقالوا لي كذا، فأبقِ على نفسك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن الرسول أن عَمَّه خاذِلُهُ، فقال: «والله! يا عمِّ! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت، حتى يُظهِره الله، أو أهلك دونه»، ثم بكى وولى. فقال أبو طالب: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه، فقال: اذهب، فقلْ ما أحببتَ، والله! لا أُسلمك[1].

قوله: (وقالوا لأبي طالب) هذا تتمة كلامهم لما مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى واقع بعد قولهم: وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا.

قوله: (فأبق على نفسك): العبارة في الحلبي: فأبق عليَّ وعلى نفسك[2].

قوله: (والله يا عم... إلخ) هذا مثال عظيم من أمثلة الثبات والصبر والحزم، وفي هذا فليقتد المقتدون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قوله: (والله! لا أسلمك)؛ أي: لا أخذلك، وأنشد أبو طالب حينئذ أبياتاً منها:

والله لن يصلوا إليكَ بجمعهم حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دفينا
فأصدعْ بأمرك ما عليكَ غضاضةٌ وابشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونا

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣٥) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٢).

ودعـوتني وزعمـت أنـك ناصـحي ... ولقـد صـدقتَ وكنـتَ ثَـمَّ أمينـا

وعرضـــتَ دينـــاً لا محالـــةَ أنـــه ... مـــن خيـــر أديـــانِ البريـــة دينـــا

لـــولا الملامـــةُ أو حـــذاري سُـــبَّةً[1] ... لوجـــدتني ســـمحاً بـــذاك مبينـــا[2]

قال الحلبي: ولما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد أنهدُ ـ أي: أشدُّ وأقوى ـ فتًى في قريش وأجملُه، فخذه لك ولداً ـ أي: بأن تتبناه ـ، وأسلمْ إلينا ابنَ أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعةَ قومك، وسَفَّه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل، فقال لهم أبو طالب: والله! لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟! هذا ـ والله ـ لا يكون أبداً، أرأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها.

قال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال أبو طالب: والله! ما أنصفوني، ولكن قد أجمعتَ ـ أي: قصدتَ ـ خذلاني، ومظاهرةَ القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك.

فعند عدم قبول أبي طالب ما أرادوه اشتد الأمر.

ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى، دعا بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك غير أبي لهب، فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الأصل: «حذار مسبَّة» بدل «حذاري سبة»، والمثبت من «ديوان أبي طالب».

(٢) أورده مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (١/ ٣٤٢) بنحوه، وانظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٩١).

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين كثير الأذى، وعظيمَ الشدّة، خصوصاً إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت، وكان من أعظمهم أذًى لرسول الله: جماعةٌ سُمّوا ـ لكثرة أذاهم ـ بالمستهزئين.

فأوّلهم وأشدّهم: أبو جهل عمرُو بنُ هشام بنِ المغيرة المخزوميُّ القرشيّ، قال يوماً: يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد أتى ما ترون من عيب دينكم، وشتم آلهتكم، وتسفيه أحلامكم، وسبّ آبائكم، إني أُعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته، رضَختُ به رأسه، فأَسْلِمُوني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فلما أصبح، أخذ حجراً كما وصف، . . . .

ولكل من آمن به، وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من معه. اهـ[1].

الإيذاء

قوله: (بحجر) الباء للمصاحبة على حد قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطۡ[2] بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: ٤٨].

قوله: (رضخت به رأسه): في «القاموس»: رضخَ الحصى؛ كمنع وضرب: كسرها[3].

قوله: (ما بدا لهم): في الحلبي بعد هذه العبارة: فقالوا: والله! لا نسلمك

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٣)، والخبر المذكور أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٢/ ١٣٣).

(٢) في الأصل: «اهبطوا»، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رضخ).

ثم جلس لرسول الله ينتظره، وغدا عليه الصلاة والسلام كما كان يغدو إلى صلاته، وقريش في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعِل، فلما سجد عليه الصلاة والسلام احتمل أبو جهل الحجر وأقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونُه من الفزع، ورمى حجره من يده. فقام إليه رجال من قريش فقالوا: ما لكَ يا أبا الحَكَم؟ قال: قمت إليه لأفعلَ ما قلت لكم، فلما دنوت منه، عرض لي فَحْلٌ من الإبل، ....

لشيء أبداً، فامض لما تريد، فلما أصبح... إلخ[1].

قوله: (منهزماً منتقعاً لونه)؛ أي: متغيراً بالصفرة مع الكدرة من[2] الفزع، وقد يبست يداه على حجره حتى قذفه من يده بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدروا. اهـ. حلبي[3].

وقال بعد ذلك: وذُكِر في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾[يس: ٨]؛ أي: إنا جعلنا أيديهم متصلة بأعناقهم، واصلة إلى أذقانهم، ملصقة بها، رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، من أقمح البعير: رفع رأسه.

إن الآية نزلت في أبي جهل، لما حمل الحجر يرضخ به رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه؛ أثبتت إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، فلما عاد إلى أصحابه، أخبرهم، فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد. اهـ[4].

قوله: (فحل من الإبل): الفحل: الذكر من كل حيوان. قاموس[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) في الأصل: «مع»، والمثبت من «السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٥).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: فحل).

والله! مـا رأيت مثلـه قـطّ هَمَّ بي أن يأكلني، فلما ذُكِـر ذلـك لرسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ذاك جبريل، ولو دنا لأخذه»[1].

وكان أبو جهل كثيراً ما ينهى الرسولَ عن صلاته في البيت، فقال له مرة بعد أن رآه يصلي: ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القول وهدده، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟ فـأنزل الله تهديـداً له في آخر سورة اقـرأ: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ....

قوله: قوله تعالى: (﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ...﴾) إلخ الآية: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لأبـي جهـل عن نهيه عن عبادة الله، وأمرِه بعبادة الأصنام.

(﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾)؛ أي: لنأخذن بناصيته، فلنجرنه إلى النار، يقال: سـفعت بالشيء: إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً، والسفع: الضـرب، والناصـية: شـعر مقدم الرأس.

وقوله: (﴿نَاصِيَةٍ﴾): بدل من (الناصية)؛ لأنها وصفت بالكـذب والخطـأ بقوله: ﴿كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها حقيقة، أي: صـاحبها كاذب خاطئ.

وقوله: (﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾): لما نهى أبو جهل النبي صـلى الله عليـه وسـلم عن الصلاة، أَغْلَظَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم القولَ، فقال: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً[2]؟!

ومعنـى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾؛ أي: عشـيرته وقومـه، فلينتصـرْ بهـم، وأصـل النادي: المجلس الذي يجمع الناس، ولا يسمى نادياً ما لم يكن فيه أهل.

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٨١) عن شيخ من أهل مكة.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣٠٤٥) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[العلق: ١٥ ـ ١٩][1].

ومن أذيته للرسول صلى الله عليه وسلم: ما حكاه عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ من رواية البخاري قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وهو يصلي، فقال أبو جهل: ألا رجلٌ يقوم إلى فَرْثِ جزورِ بني فلان، فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبةُ بنُ أبي مُعَيط بنِ أبي عمرِو بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمس، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه؛ لضعفهم عن مقاومة عدوهم، . . . .

(﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾): يعني: الملائكة الغلاظ الشداد، يريد: زبانية جهنم، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يدفعون أهل النار إليها بشدة، مأخوذ من الزبْن، وهو الدفع.

وقوله: (﴿كَلَّا﴾) ردعٌ لأبي جهل، وإعلامٌ له أن الأمر ليس ما هو عليه.

وقوله: (﴿لَا تُطِعۡهُ﴾)؛ أي: في ترك الصلاة، واثبت على ما أنت عليه من عصيانه.

وقوله: (﴿وَٱسۡجُدۡ﴾)؛ أي: صلِّ لله.

وقوله: (﴿وَٱقۡتَرِب﴾)؛ أي: من الله. اهـ. نسفي وخازن[2].

قوله: (إلى فرث جزور بني فلان) الفرث: الروث الذي في الكرش.

قوله: (فألقاه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد)؛ أي: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك، قال ابن مسعود: فهبنا أن نلقيه عنه صلى الله عليه وسلم، وفي لفظ: وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٤٩)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٤٩).

ولم يزل عليه الصلاة والسلام ساجداً حتى جاءت فاطمةُ بنتُه، فأخذت القذر ورمته، فلما قام، دعا على مَنْ صنع هذا الصنع القبيح، فقال: «اللهمّ عليك بالملأ من قريش»، وسمّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قُتلوا يوم بدر[1].

لطرحته عن ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ ؛ أي: بعد أن ذهب إليها إنسان، وأخبرها بذلك، واستمر صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عنه.

واستمراره في الصلاة عند فقهائنا لعدم علمه بنجاسة ما أُلقي عليه، ولما ألقته، أقبلتْ عليهم تشتمهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (عليكَ بالملأ من قريش): الملأ: أشراف الناس ورؤسائهم ومقدموهم الذين يُرجَع إلى قولهم، وجمعه: أملاء. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (وسمى أقواماً): في رواية: فلما قضى صلاته، رفع يديه ثم دعا ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش»، فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك، وهابوا دعوته، ثم قال: «عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبةَ ابن ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، والوليدِ بن عتبةَ، وعقبةَ بنِ أبي معيط، وعمارةَ بنِ الوليد، وأميةَ بنِ خلف»[4].

قوله: (فرأيتهم قُتلوا يوم بدر)؛ أي: أكثرهم؛ لأن عمارة مات بالحبشة

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٩)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٤٠)، ومسلم (١٧٩٤)، من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٣٥١).

(٤) رواه البخاري (٥٢٠)، ومسلم (١٧٩٤)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

ومما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي جهل: أن هـذا ابتاع أجمالاً من رجل يقال له: الإراشي، فمطله بأثمانهـا، فجـاء الرجـل مجمعَ قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله، . . . .

كافراً، وعقبة لم يقتل ببدر، وإنما أخذ أسيراً منها، وقتل بعرق الظبية.

قوله: (الإراشي): هو ـ بكسر الهمزة ـ نسبة إلى إراشة، بطنٍ مـن خـثعم. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (فجاء الرجل مجمـع قريش): تفصيل القصة كما فـي الـدحلاني: أن أبا جهل لما مطل الإراشي بأثمان إبله، دلته قريش على النبي صـلى الله عليـه وسـلم لينصفه من أبي جهل؛ استهزاء منهم برسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لـزعمهم أنـه لا قدرة له على أبي جهل، وكان ذلك بعد أن وقف على ناديهم وقال: يـا معشـر قريش! من يعينني على أبي الحكم بن هشام؛ فإني غريب وابنُ سبيل، وقد غلبني على حقي، فقالوا له: أترى ذلك الرجل ـ يعنون: رسول الله صلى الله عليه وسـلم ـ؟ اذهب إليه، فهو يعينك عليه.

فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له حاله مـع أبـي جهـل، فقال مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم: يا عبدالله! إن أبا الحكم بن هشام غلبني على حق لي قِبلَه، وأنا غريب وابن سبيل، وقد سـألت هـؤلاء القـوم عـن رجـل يأخذ لي بحقي منه، فأشاروا إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله.

فقام النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبـي جهـل، وضـرب عليـه بابه، فقال: من هذا؟ قال: «محمد»، فخرج إليه وقد انتقع لونه، فقـال: «أعـط هذا حقه»، فقال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل وأخرج مـا هـو لـذلك الرجل، فدفع إليه.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٤).

فدلّوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُنصفه من أبي جهل استهزاء؛ لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول صلى الله عليه وسلم، فتوجه الرجل إليه، وطلب منه المساعدة على أبي جهل، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه، فقال: مَنْ هذا؟ قال: «محمد»، فخرج منتقعاً لونُه، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «أعطِ هذا حقَّه»، فقال أبو جهل: لا تبرحْ حتى تأخذه، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دَيْنه، فقالت قريش: ويلك يا أبا الحكم! ما رأينا مثل ما صنعت؟! قال: ويحكم! والله! ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي حتى سمعت صوته، فمُلئت منه رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله[1].

قال: ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على أهل ذلك المجلس الذي بعثوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء فقال: جزاه الله خيراً ـ يعني: النبيَّ صلى الله عليه وسلم ـ، فقد ـ والله ـ أخذ لي بحقي.

وكانوا قد أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: انظر ماذا يصنع، فلما رجع الرجل، قالوا له: ماذا رأيت؟ فقال: رأيت عجباً من أعجب العجب، والله! ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه فزعاً مرعوباً، وكأنه ليس معه روحه، فقال: «أعط هذا حقه»، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه، فعند ذلك قالوا لأبي جهل: ما رأينا مثل ما صنعت! فقال: ويحكم! والله! ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته، فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله قط، لو أبيت أو تأخرت، لأكلني. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥) =

ومن جماعة المستهزئين: أبو لهب بنُ عبد المطلب، عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان أشدّ عليه من الأباعد، فكان يرمي القذر على بابه؛ لأنه كان جاراً له، . . . .

قوله: (على بابه): في الدحلانية: قال صلى الله عليه وسلم: «كنت بين شر جارين؛ أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، إن كانا ليأتياني بالفروث، فيطرحانها على بابي». اهـ[1].

وقال فيه: إن هذه الأذايا ليست منقصة له صلى الله عليه وسلم، بل هي مما تزيده رفعة، وهي دليل على فخامة قدره، وعلو مرتبته، وعظم رفعته ومكانته عند ربه؛ لكثرة صبره واحتماله، مع علمه باستجابة دعائه، ونفوذ كلمته عند الله تعالى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء»[2]، وذلك سُنة من سنن النبيين السابقين، وإلى هذا أشار صاحب «الهمزية» بقوله:

لا تَخَلْ جانبَ النبيِّ مُضاما ... حين مَسَّتْه منهمُ الأسواءُ

كلُّ أمر نابَ النبيين فالشِّدَّ ... ةُ فيه محمودةٌ والرخاءُ

لو يمسُّ النُّضارَ هونٌ من النا ... ر لما اختير للنضار الصِّلاءُ[3]

= عن عبد الملك بن عبدالله بن أبي سفيان الثقفي.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٢٦)، والحديث المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٠١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٦٩) من حديث فاطمة بنت اليمان ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٩٢): وإسناد أحمد حسن.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٠). وانظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٤٦).

فكان الرسول يطرحه ويقول: «يا بني عبد مناف! أيُّ جوار هذا؟»، وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجُه أُمّ جميل بنتُ حربِ بنِ أمية، فكانت كثيراً ما تسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصاً بعد أن نزل فيها وفي زوجها سورة أبي لهب[1].

ومن المستهزئين: عُقبة بن أبي مُعيط، كان الجارَ الثانيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يعمل معه كأبي لهب، صنع مرة وليمة، ودعا لها كبراء قريش، وفيهم رسولُ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «والله! لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله»، فتشهَّد، فبلغ ذلك أُبيَّ بنَ خلف الجُمحيَّ القرشيّ، وكان صديقاً له، فقال: ما شيء بلغني عنك؟ قال: لا شيء، دخل منزلي رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يَطعم، فشهدت له، قال أُبيّ: وجهي من وجهك حرام إن لقيتَ محمداً فلم تطأ عنقَه، وتبزق في وجهه، وتلطم عينه، فلما رأى عقبةُ رسولَ الله، . .

قال الحلبي: أي: لو كان يمس الذهبَ هوانٌ من إدخاله النار، لما اختير له العرض على النار، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالذهب، والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يعرض عليها الذهب؛ فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسناً، فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة. اهـ[2].

قال الضحاك: لما بزق عقبة، لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وصلت إلى وجهه كشهاب نار، فاحترق مكانها، وكان أثر الحرق

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٠١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٤٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٥).

فعل به ذلك، فأنزل الله فيه في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩][1].

في وجهه إلى الموت. اهـ[2].

قوله: (**فعل به ذلك**)؛ أي: في دار الندوة، وكان صلى الله عليه وسلم ساجداً، فقال له: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوتُ رأسك بالسيف، فأسر يوم بدر، فأمر علياً فقتله، وطعن أبياً بأُحد في المبارزة، فرجع إلى مكة ومات. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ . . .﴾) إلخ: قال البيضاوي: عضُّ اليدين وأكلُ البنان وحرقُ الأسنان ونحوها كناياتٌ عن الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفهما.

وقوله: (﴿سَبِيلًا﴾)؛ أي: طريقاً إلى النجاة.

وقوله: (﴿لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾) يعني: من أضلَّه، و﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الأعلام.

وقوله: (﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾)؛ أي: ذكرِ الله، أو كتابه، أو موعظة الرسول، أو كلمة الشهادة.

وقوله: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾) يعني: الخليل المضل، أو إبليس؛ لأنه حمله على مخالته ومخالفة الرسول، أو كل من تشيطن من جن أو إنس.

وقوله: (﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾) يواليه حتى يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٣٠)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥٠٨).

(٣) في الأصل زيادة: «وقال الدحلاني ١/ ٢٢٤/ ٧»، وانظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

ومن أشدِّ ما صنعه ذلك الشقيُّ برسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رواه البخاري في «صحيحه»، قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حِجْر الكعبة؛ إذ أقبل عقبةُ بن أبي مُعَيط، فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[غافر: ٢٨].

ومن جماعة المستهزئين: العاصُ بنُ وائلٍ السهميُّ القرشيّ والدُ عمرِو بنِ العاص، كان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يقول: غرَّ محمدٌ أصحابَه أن يحيوا بعد الموت، . . . .

ولا ينفعه. اهـ. بيضاوي[1].

قوله: (ما رواه البخاري في صحيحه)؛ أي: عن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم. . . إلخ[2].

قال الحلبي: ولعل أشديةَ ذلك باعتبار ما بلغ عبدَالله بنَ عمرو ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أو ما رآه. اهـ[3].

قوله: (فأقبل أبو بكر. . . إلخ): دفاعه عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموقف الحرج يفيدك صدقَ الصحبة، وحقيقةَ الأخوة، وأن جلائل الأخطار في الأخطار.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٣).

والله! ما يهلكنا إلا الدهر، فقال الله رداً عليه في دعواه في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[الجاثية: ٢٤]، وكان عليه دين لخبَّاب بن الأرتّ أحدِ رجال المسلمين، فتقاضاه إياه، فقال العاص: أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما يبتغي أهلها من ذهب، أو فضة، أو ثياب، أو خدم؟ قال خبَّاب: بلى، قال: فأنظرني إلى هذا اليوم، فسأوتى مالاً وولداً، فأقضيك دينك، فأنزل الله في سورة مريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ . . . .

قوله: (وكان عليه دين لخباب): كان الدَّين ثمنَ سيوف؛ لأن خباباً كان قيناً بمكة؛ أي: حداداً يعمل السيوف.

قوله: قوله تعالى: (﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا . . .﴾) إلخ: قال البيضاوي: لما كانت الرؤية أقوى سند الإخبار، استعمل (أرأيت) بمعنى الإخبار، والفاء على أصلها، والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك.

وقوله: (﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾)؛ أي: قد[1] بلغ من عظمة شأنه إلى أن ارتقى إلى عالم الغيب الذي توحد به الواحد القهار حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أو اتخذ من علام الغيوب عهداً بذلك؟! فإنه لا يتوصل إلى العلم به إلا بأحد هذين الطريقين.

وقوله: (﴿كَلَّا﴾) ردعٌ وتنبيه على أنه مخطئ فيما تصوره لنفسه.

(﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾) سنظهر له أنا كتبنا قوله على طريقة قوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ[2]

---

(١) في «تفسير البيضاوي»: «أقد».

(٢) صدر بيت لزائد بن صعصعة، وعجزه: =

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾[مريم: ٧٧ ـ ٨٠][1].

ومن جماعة المستهزئين: الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، الزهريُّ، القرشيّ، من بني زُهرة، أخوالِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مقبلين يقول: قد جاءكم ملوك الأرض؛ استهزاءً بهم؛ لأنهم كانوا متقشفين، ثيابهم رثّة، وعيشهم خشن، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم سخرية: . . . .

أي: تبين أني لم تلدني لئيمة، أو سننتقم منه انتقام من كتب جريمة العدو وحفظها عليه؛ فإن نفس الكتابة[2] لا تتأخر عن القول؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[قٓ: ١٨].

وقوله: (﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾): ونطول له من العذاب ما يستأهله، أو نزيد عذابه ونضاعف له؛ لكفره وافترائه واستهزائه على الله.

(﴿وَنَرِثُهُۥ﴾) بموته (﴿مَا يَقُولُ﴾) يعني: المال والولد (﴿وَيَأۡتِينَا﴾) يوم القيامة (﴿فَرۡدٗا﴾) لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا، فضلاً أن يؤتى ثمة زائداً. اهـ[3].

وقوله: **(قد جاءكم ملوك الأرض)** زاد الحلبي والدحلاني: الذين يرثون كسرى وقيصر[4].

= ولم تجدي من أن تُقِرِّي بها بُدّا

انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٦١)، و«التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٥/ ٢٥٦).

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٠ ـ ٥١١).

(٢) في الأصل: «الكتبة»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١١)، و«السيرة النبوية» =

أما كُلِّمْتَ اليوم من السماء؟![1].

ومنهم: الأسودُ بنُ عبد المطلب الأسديُّ، ابنُ عم خديجةَ، كان هو وشيعتُه إذا مرّ عليهم المسلمون يتغامزون، وفيهم نزل في سورة المطفِّفِيْن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ ....

قوله: (يتغامزون)؛ أي: ويصفرون إذا رأوهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: قوله تعالى: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾)؛ أي: أشركوا؛ يعني: كفار قريش: أبا جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأصحابهم من مترفي مكة.

(﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾)؛ أي: من عمارٍ وخبابٍ وصُهيبٍ وبلالٍ وأصحابهم من فقراء المؤمنين.

(﴿يَضۡحَكُونَ﴾)؛ أي: منهم، ويستهزئون بهم.

(﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ﴾): يعني: مر المؤمنون الفقراء بالكفار الأغنياء.

(﴿يَتَغَامَزُونَ﴾) يعني: يتغامز الكفار، والغمز: الإشارة بالجفن والحاجب؛ أي: يشيرون إليهم بالأعين استهزاء بهم.

(﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾)؛ أي: معجبين بما هم فيه، وقيل: ينقلبون بذكرهم كأنهم يتفكهون بحديثهم.

(﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ﴾): يعني: رأوا أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم.

= لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣٠).

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٢).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٢][1].

ومنهم: الوليد بن المغيرة، عمُّ أبي جهل، كان من عظماء قريش، وفي سَعَة من العيش، سمع القرآن مرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لقومه بني مخزوم: والله! لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإنَّ له لحلاوة، . . . .

(**﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾**)؛ أي: هم في ضلال، يأتون محمداً ويرون أنهم على شيء. اهـ. خازن[2].

قوله: (الوليد بن المغيرة)؛ أي: ابن عبدالله بن عمرو بن مخزوم والدُ خالد ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (وفي سعة من العيش): قال الدحلاني: كان يطعم الناس أيام منى حيساً، وينهى أن توقد نار لأجل طعام غير ناره[3]، وينفق على الحاج أيام الموسم نفقة واسعة، وكانت الأعراب تثني عليه، وكانت له البساتين من مكة إلى الطائف، وكان من جملتها بستان لا ينقطع نفعه شتاءً ولا صيفاً، ثم إنه أصابته الجوائح والآفات في أمواله حتى ذهبت بأسرها، ولم يبق له في أيام الحج ذكر.

وكان هو المقدم في قريش فصاحة، وكان يقال له: ريحانة قريش، ويقال له: الوحيد؛ أي: في الشرف والسؤدد والجاه والرياسة، وإياه عنى سبحانه بقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا . . .﴾ الآيات في سورة المدثر [١١ ـ ٣٠]. اهـ[4].

قوله: (سمع القرآن مرةً) قال الخازن في تفسير سورة المدثر: إن الله تعالى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٠٦).

(٣) في الأصل: «غيره» بدل «غير ناره»، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن زيني دحلان.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٣١).

وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمُثمر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه يعلو وما يُعلى، فقالت قريش: صبأ ـ والله ـ الوليد، لتصبأنَّ قريش كلها، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه.

فتوجه وقعد إليه حزيناً، وكلّمه بما أحماه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمداً مجنون، . . . .

لما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾[غافر: ١ـ٣]؛ قام للنبي صلى الله عليه وسلم يسمع قراءته، فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماعه، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال: «والله! لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً. . .» إلخ ما في كلام المصنف[1].

قوله: (وإن عليه لطلاوة): الطلاوة: ـ بالضم، والفتح لغة ـ، وعليه طلاوة؛ أي: بهجة. اهـ. مصباح[2].

قوله: (وإن أسفله لمغدق): يقال: أغدق المطر يُغدِق إغداقاً فهو مغدِق، والغَدَق ـ بفتح الدال ـ: المطر الكبار. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (فكلمه بما أحماه): قال في الخازن في تفسير سورة المدثر: انطلق أبو جهل حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد: ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ فقال: وما يمنعني أن لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد، وأنك تدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم، فغضب الوليد وقال: ألم تعلم قريش

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: طلي).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٣٤٥).

فهل رأيتموه يُهوِّس؟ وتقولون: إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قطّ؟ وتزعمون أنه كذَّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا في كل ذلك: اللهمّ لا، ثم قالوا: فما هو؟ ففكَّر قليلاً ثم قال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فارتجّ النادي فرحاً، فأنزل الله في شأن الوليد في سورة المدّثر مخاطباً لرسوله صلى الله عليه وسلم: . . . .

أني من أكثرهم مالاً وولداً؟! وهل يشبع محمد وأصحابه حتى يكون لهم فضل طعام؟! ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون. . . إلخ ما في المصنف[1].

قوله: (يهوس): الهَوَس: طرفٌ من الجنون، وهو مهوَّس. اهـ. قاموس[2].

قوله: (إنه كاهن): الكاهن: هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدَّعي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كهنة؛ مثل: شِقّ وسَطِيح، وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن، ورَئِيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدِّماتٍ وأسبابٍ يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله [أو] حاله، وهذا يخصُّونه باسم العراف؛ كالذي يدعي معرفة الشيء المسروق، ومكانَ الضَّالَّة، ونحوهما. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (اللهم لا): تستعمل (اللهم) على ثلاثة أوجه:

١ ـ النداء المحض.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هوس).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، وما بين معكوفتين منه.

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ . . . .

---

٢ ـ أن يذكرها المجيب تمكيناً للجواب في ذهن السامع؛ نحو: اللهم نعم، في جواب: أزيد قائم؟ وهو المراد هنا.

٣ ـ أن تستعمل دليلاً على الندرة وقلة الوقوع أو بُعده؛ نحو: أنا أزورك اللهم إذا لم تدعني، إذ الزيارة مع عدم الطلب قليلة، ومنه قول المؤلفين: اللهم إلا أن يقال كذا، [قيل]: وهي على هذين موقوفة لا معربة ولا مبنية؛ لخروجها عن النداء، فهي غير مركبة. اهـ. «حاشية الخضري على ابن عقيل»، وتمامه فيها[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾): ﴿وَحِيدًا﴾ حال من الياء؛ أي: ذرني وحدي معه؛ فإني أكفيكه، أو من التاء؛ أي: ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، أو من العائد المحذوف؛ أي: ومن خلقته فريداً لا مال له ولا ولد.

وقوله تعالى: (﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾)؛ أي: مبسوطاً كثيراً، أو ممداً بالنماء.

وقوله: (﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾)؛ أي: حضوراً معه بمكة يتمتع بلقائهم، لا يحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته.

قيل: كان له عشرة بنين أو أكثر، كلهم رجال، فأسلم منهم ثلاثة: خالد وعمار وهشام.

وقوله: (﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾)؛ أي: وبسطت له الرياسة والجاه العريض.

(﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾): على ما أوتيه.

(﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾): ردعٌ له عن الطمع، وتعليلٌ للردع على سبيل الاستئناف بمعاندة آيات المنعم المناسبة لإزالة النعمة النافعة عن الزيادة، قيل:

---

(١) انظر: «شرح الخضري على ابن عقيل» (٢/ ٧٦)، وما بين معكوفتين منه.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[المدثر: ١١ ـ ٢٦][١].

ما زال بعد نزول الآية في نقصان حاله حتى هلك.

(﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾): سأغشيه عقبة شاقة المصعد، وهو مَثَل لما يلقى من الشدائد.

(﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾): فكر فيما تخيل طعناً في القرآن، وقدر في نفسه ما يقول فيه.

(﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾): تعجيب من تقديره استهزاءً به.

(﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾): تكرير للمبالغة.

(﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾)؛ أي: في أمر القرآن مرة أخرى.

(﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾): قطب وجهه لما لم يجد فيه مطعناً[٢]، ولم يدر ما يقول.

(﴿وَبَسَرَ﴾) زاد في التقطيب والكلوح.

(﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾) [عن] الحقِّ أو الرسول.

(﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾) عن اتباعه.

(﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾): يروى ويُتعلَّم.

(﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾): كالتأكيد للجملة الأولى، ولذلك لم يعطف عليها.

(﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾) بدل من ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. اهـ. بيضاوي ببعض اختصار[٣].

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٧٢ ـ ٧٣)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٢) في الأصل: «طعناً»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤١٢ ـ ٤١٤).

وأنزل فيه أيضاً في سورة نٓ : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ : كثير الحلف، وكفى بهذا زاجراً لمن اعتاد الحلف ﴿مَّهِينٍ﴾ : حقير، وأراد به الكذاب؛ لأنه حقير في نفسه ﴿هَمَّازٍ﴾ : عيّاب طعان ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ : بنقل الأحاديث للإفساد بين الناس ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ﴾ غليظ جاف بَعدَ ذَلك ﴿زَنِيمٍ﴾ دخيل ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أكرم عضو والأنف أشرف ما فيه، ....

قوله: قوله تعالى: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾)؛ أي: يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإنفاق والعمل الصالح.

(﴿مُعْتَدٍ﴾): مجاوز في الظلم.

(﴿أَثِيمٍ﴾): كثير الإثم.

(﴿زَنِيمٍ﴾): دخيل، قيل: هو الوليد بن المغيرة، ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة من مولده.

وقيل: الأخنس بن شريق، أصله في ثقيف، وعداده في زهرة.

وقوله: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾) قرئ على الخبر، ومعناه: فلا تطع كل حلاف مهين؛ لأن كان ذا مال وبنين؛ أي: لا تطعه لماله وبنيه، وقرئ: ﴿أأن كان﴾ بالاستفهام، ومعناه: ألأن كان ذا مال وبنين؟

(﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾).

قوله: (﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾)؛ أي: أباطيل وترهات، واحدها: أُسطورة وإسطارة، ويقال: ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ : ما سطره الأولون من الكتب.

قوله: (﴿سَنَسِمُهُۥ﴾): كناية عن الإذلال والتحقير، وقيل: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ بالكي ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ : الأنف، وقد أصاب أنفَ الوليد جراحة يوم بدر، فبقي أثرها. اهـ.

ولذلك اشتقوا منه كلَّ ما يدل على العظمة، كالأنفة وهي: الحمية. فالوسم على أشرف عضو دليل الإذلال والإهانة.

ومن المستهزئين: النضرُ بن الحارث العبدريُّ، من بني عبد الدار بن قصيّ. كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً للناس يحدّثهم، ويذكرهم ما أصاب مَنْ قبلهم، قال النضر: هلمّوا يا معشرَ قريش؛ فإني أَحْسَنُ منه حديثاً، ثم يحدِّث عن ملوك فارس، وكان يعلَم أحاديثهم، ويقول: ما أحاديث محمد إلا أساطير الأوّلين، وفيه نزل في سورة لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[لقمان: ٦ ـ ٧]، وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال الله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ . . . .

بيضاوي[١].

قوله: قوله تعالى: (﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾)؛ أي: لأنه كان ذهب إلى الحيرة، واشترى منها أحاديث الأعاجم، ثم قدم بها مكة، فكان يحدث بها ويقول: هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود وغيرهم[٢].

وقيل: نزلت في شراء المغنيات[٣].

قوله: (﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ . . .﴾) إلخ: الجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٠١، ٥/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ١٨ ـ ١٩).

(٣) رواه الترمذي (١٢٨٢)، من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، وقال: وقد تكلم بعض أهل العلم في علي بن يزيد، وضعَّفه، وهو شامي.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾[الحجر: ٩٥ ـ ٩٦][١].

وقد وضع الله جلَّ ذكره الوعد في صورة الماضي؛ للتحقق من وقوعه؛ لأن الآية مكية، وهلاك هذه الفئة كان بعد الهجرة، فمنهم من قُتل كأبي جهل، والنضر بن الحارث، وعقبةَ بن أبي مُعَيط، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة، فهلك منها؛ كأبي لهب، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة.

به، فأهلكهم الله، وهم:

الوليد بن المغيرة؛ مرَّ بنبَّال، فتعلق بثوبه[٢] سهم، فأصاب عرقاً في عقبه، فقطعه، فمات.

والعاص بن وائل؛ دخل أخمصيه شوكة، فانتفخت رجله، فمات.

والأسود بن عبد المطلب؛ عَمِيَ.

والأسود بن عبد يغوث؛ جعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات.

والحارث بن قيس؛ امتخط قيحاً ومات. اهـ. نسفي[٣]، وكذا في الخازن[٤].

وفي البيضاوي: عدي بن قيس بدل الحارث[٥].

وصنيع المؤلف يفيد أنها شاملة لأبي جهل والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب، وليس كذلك؛ لما نقلناه عن النسفي وغيره في أنها نزلت في هؤلاء الخمسة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٥١٧).

(٢) في الأصل: «به»، والمثبت من «تفسير النسفي».

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٤٨).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٦٤ ـ ٦٥).

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٣٨٣).

إسلام حمزة

وكان بعض إيذائهم هذا سبباً لإسلام عمّه حمزةَ بنِ عبد المطلب، فقد أدركته الحميّةُ عندما عيّرته بعض الجواري بإيذاء أبي جهل لابن أخيه، فتوجه إلى ذلك الشقي، وغاضبه وسبّه، . . . .

إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ

قوله: (عندما عيرته بعض الجواري): في الدحلانية: أن أبا جهل مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا ـ وقيل: عند الحجون ـ، فآذاه وشتمه، ونال منه ما يكرهه، فلم يكلِّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهناك مولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك وتبصر، ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً بسيفه راجعاً من قنصه، فمر على تلك المولاة، فأخبرته الخبر، وقالت له: لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده هاهنا جالساً، فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه حتى قام على رأسه، ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ عليَّ ذلك إن استطعت.

فقامت رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل لينصروا أبا جهل، فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه أنه رسولُ الله؛ والذي يقول حق، والله! لا أفزع، فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني ـ والله ـ لقد أسمعتُ ابن أخيه شيئاً[1].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٢)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩) عن رجل من أسلم.

وقال: كيف تسبّ محمداً وأنا على دينه؟ ثُمَّ أنار الله بصيرته بنور اليقين حتى صار من أحسن الناس إسلاماً، وأشدّهم غيرة على المسلمين، وأقواهم شكيمة على أعداء الدين حتى سمي: أسدَ الله[1].

وكما أُوذي الرسول عليه الصلاة والسلام، أُوذي أصحابه؛ لاتّباعهم له، خصوصاً من ليس له عشيرة تحميه، وتردّ كيدَ عدوه عنه، وكل هذا الأذى كان حلواً في أعينهم ما دام فيه رضاء الله، . . . .

قوله: (ثم أنار الله بصيرته): هذا تلميح لما عرض له بعد ذلك من الوسوسة، ففي الدحلانية: أن حمزة لما رجع إلى بيته قال لنفسه: أنت سيد قريش اتبعتَ هذا الصابئ، وتركتَ دين آبائك، الموت خير لك مما صنعت، ثم قال: اللهم إن كان رشداً، فاجعل تصديقي في قلبي، وإلا، فاجعل لي مما وقعت مخرجاً.

فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه بأمره، فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكَّره ووعظه، وخوَّفه وبشَّره، فألقى الله في قلبه الإيمان، فقال: أشهد إنك لصادق، فأظهرْ يا ابن أخي دينك، وسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلام حمزة سروراً كثيراً؛ لأنه كان أعز فتًى في قريش[2].

قوله: (وأقواهم شكيمة)؛ أي: أعظمهم في عزَّة النفس وشهامتها. اهـ. دحلاني[3].

قال في «القاموس»: الشَّكيمة: الأنفة، والانتصار من الظلم، وفلان شديد الشَّكيمة: أَنِفٌ أبيٌّ لا ينقاد[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٣).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شكم).

فلم يفتتنوا عن دينهم، بل ثبتهم الله حتى أتمّ أمره على أيديهم، وصاروا ملوك الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، كما قال جلّ ذكره في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص: ٥]، وقد حقق ما أراد.

ومن الذين أُوذوا في الله: بلال بن رباح، كان مملوكاً لأميّةَ بن خلف الجمحيِّ القرشيّ، فكان يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، لم يَشْغَلْهُ ما هو فيه عن توحيد الله. وكان أمية يخرج به في وقت الظهيرة في الرمضاء ـ وهي الرمل الشديد الحرارة، لو وضعت عليه قطعة لحم لَنَضِجَتْ ـ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفرَ بمحمد وتعبدَ اللات والعزّى، فيقول: أحد أحد، مرَّ به أبو بكر يوماً فقال: يا أمية! . . . .

قوله: (فلم يفتتنوا عن دينهم)؛ أي: إلا نفر قليل، منهم: الحارث بن ربيعة ابن الأسود، وأبو القيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص ابن منبه بن الحجاج، وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم بدر. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾): المراد بهم: بنو إسرائيل حين أخرجهم فرعون من مصر حيث تفضل الله عليهم بإنقاذهم من بأس فرعون.

وقوله تعالى: (﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾)؛ أي: مقدمين في الدارين.

(﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾) لما كان في ملك فرعون وقومه.

قوله: (كان يخرج به وقت الظهيرة)؛ أي: بعد أن يجيعه ويعطشه يوماً وليلة. اهـ. دحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢١٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١).

أما تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته، فأنقذه مما ترى. فاشتراه منه وأعتقه، فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ : أميةُ بنُ خلف ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ : الصدِّيق ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ . . . .

قوله: (فاشتراه منه): قال له: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى على دينك أعطيكه به؟ قال: قبلتُ، هو لك، فأعطاه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه. اهـ. دحلاني[1].

ويروى: أنه لما ساوم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أميةَ بن خلف. . . إلخ ما هو على هامش نسخته نقلاً عن الدحلانية[2].

قوله: (﴿تَلَظَّىٰ﴾): تتلهب.

(﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾): لا يلزمها مقاسياً شدَّتها.

قوله: (﴿يَتَزَكَّىٰ﴾)؛ أي: يطلب أن يكون عند الله زاكياً، لا يريد به رياءً ولا سُمعة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٣)، والخبر المشار إليه: لما ساوم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أمية بن خلف في بلال؛ قال أمية لأصحابه: لألعبن بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد، ثم تضاحك وقال له: أعطني عبدك قسطاس، فقال أبو بكر: إن فعلتُ تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تعطيني معه امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تعطيني ابنته مع امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال: نعم، قال: قد فعلت، فتضاحك وقال: لا والله! حتى تزيدني مئتي دينار، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنت رجل لا تستحي من الكذب، قال: واللات والعزى لئن أعطيتني لأفعلن، فقال: هي لك، فأخذه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾[الليل: ١٤ ـ ٢١] بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله. وقد نبّه الله جلّ ذكره على أن بذل الصديق ماله في شراء بلال وعتقه لم يكن إلا ابتغاء وجه ربه، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً للصدّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ، وقد أعتق غيرَ بلال جماعةً من الأرقاء أسلموا فعذبهم مواليهم[1].

ومنهم: حَمَامَةُ أُم بلال، وعامرُ بن فُهَيرة، كان يعذب حتى لا يدري ما يقول، وأبو فُكَيهة، كان عبداً لصفوانَ بنِ أمية بن خلف[2].

ومنهم: امرأة تسمى: زنيرة، عذّبت في الله حتى عميت، ....

قوله: قوله تعالى: (﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ...﴾) إلخ: قال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ...﴾ إلخ الآية[3].

قوله: (وأبو فكيهة): أسلم أبو فكيهة حين أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فمر به أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقد أخذه صفوان في شدة الحر مقيداً بالرمضاء، فوضع على بطنه صخرة، فأخرج لسانه، وأبيُّ بنُ خلف عم صفوان يقول: زده عذاباً حتى يأتي محمداً فيخلصه بسحره، فاشتراه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فأعتقه. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (زنيرة): زِنِّيرة؛ كـ(سِكِّينة): مملوكة رومية صحابية. اهـ. قاموس[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٧٨ ـ ٤٨١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٢).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٤).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زنر).

فلم يزدها ذلك إلا إيماناً، وكان أبو جهل يقول: ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم؟ لو كان ما أتى به محمد خيراً، ما سبقونا إليه، أفتسبقنا زِنِّيرةُ إلى رشد؟ فأنزل الله في سورة الأحقاف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾[الأحقاف: ١١].

ومِمن أعتق أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعد شرائه: أم عبيس، وكانت أمةً لبني زهرة، وكان يعذبها الأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ[١].

وهي في اللغة: الحصاة الصغيرة.

ولما اشتد الضرب والعذاب على زنيرة، عميت وذهب بصرُها، فقال المشركون: ما أصاب بصرَها إلا اللاتُ والعزى.

وجاءها أبو جهل ـ لعنه الله ـ، وقال لها: إنما فعل بك ما ترين اللات والعزى، وتبعه كفار قريش على ذلك، فقالت لهم: والله! ما هو كذلك، وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يرد عليَّ بصري، فردَّ الله عليها بصرها صبيحة تلك الليلة، فقالت قريش: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فأعتقها. اهـ. دحلاني[٢].

قوله: (في سورة الأحقاف): جمع (حِقْف)، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن.

قوله: قوله تعالى: (﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ﴾): ظرف لمحذوف مثل ظهر عنادهم.

وقوله: (﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾): مسبب عنه؛ أي: كذب متقادم، وهو كقولهم: أساطير الأولين.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥).

وممّن عُذب في الله: عمار بن ياسر، وأخوه، وأبوه، وأمه، كانوا يعذبون بالنار، فمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «صبراً آلَ ياسر، فموعدُكم الجنة، اللهمّ اغفر لآل ياسر وقد فعلت»[1].

أما أبو عمار وأمه، فماتا تحت العذاب ـ رحمهما الله ـ، وأما هو، فثقل عليه العذاب، فقال بلسانه كلمةَ الكفر؛ فإن أبا جهل كان يجعل له دروعاً من الحديد في اليوم الصائف، ويلبسه إيّاها، فقال المسلمون: كفر عمار، فقال عليه الصلاة والسلام: «عمارٌ ملئ إيماناً من فرقه إلى قدمه»، وأنزل الله في شأنه استثناءً في حكم المرتد، فقال جلّ ذكره في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل: ١٠٦][2].

قوله: قوله تعالى: (﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ...﴾) إلخ: ﴿مَن﴾ شرط مبتدأ حذف جوابه؛ لأن جواب ﴿مَّن شَرَحَ﴾ دال عليه، كأنه قيل: من كفر بالله فعليهم غضب. اهـ. نسفي[3].

قال البيضاوي: روي: أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسميةَ على الارتداد، فربطوا سميةَ بين بعيرين، ووجئ بحربة في قُبلها، وقالوا: إنك

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٦٢)، من حديث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وروى أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٠) الجزء الأول من الحديث عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٧٢).

وممّن أوذي في الله: خبَّاب بنُ الأرَتِّ، سُبي في الجاهلية، فاشترته أُم أنمار، وكان حداداً، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يألفه قبل النبوّة، فلما شرّفه الله بها، أسلم خباب، فكانت مولاته تعذبه بالنار، فتأتي بالحديدة المحمّاة، فتجعلها على ظهره ليكفر، فلا يزيده ذلك إلا إيماناً.

وجاء خباب مرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. . . . .

أسلمت من أجل الرجال، فقتلت، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا مكرهاً، فقيل: يا رسول الله! إن عماراً كفر، فقال: «كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه»، فأتى عمارٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه، فقال: «ما لك؟ إن عادوا لك، فعُد لهم بما قلت». اهـ[1].

قوله: (فتجعلها على ظهره): الصواب: على رأسه، وتتمة القصة كما في الدحلانية: فشكى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اللهم انصر خباباً»، فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فكانت تأمر خباباً فيأخذ الحديدة، فيكوي بها رأسها. اهـ[2].

وفيها: وعن خباب أيضاً يحكي عن نفسه قال: لقدر رأيتني يوماً وقد أوقد لي نار، ووضعوها على ظهري، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهري؛ أي: دهنه[3].

قوله: (وجاء خباب. . .) إلخ الحديث: قال الحلبي: رواه الإمام البخاري

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٢٢)، والحديث المذكور رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤٥) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١)، والخبر المذكور أورده ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ١٤٢) عن أبي صالح.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤١)، والأثر رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٤).

وهو متوسدٌ بُرْدَةً في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد عليه الصلاة والسلام محمراً وجهُه فقال: «إنه كان مَنْ قبلكم ليمشط أحدُهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشقّ، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموتَ لا يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه».

قال ذلك عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحال الشديدة التي لا يتصور فيها أعقل العقلاء، وأنبل النبلاء، قوة منتظرة، أو سعادة مستقبلة، اللهمّ إلا أن ذلك وحي يوحى إليه، ثم أنزل الله تعالى تثبيتاً للمؤمنين أول سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ . . .

عن خباب بن الأرت، وفيه زيادة: وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، بعد قوله: في ظل الكعبة، وزيادة: «ما يصرفه ذلك عن دينه» بعد قوله: «من لحم وعصب»[1].

قوله: (اللهم إلا أن): الصواب أن يقول: اللهم إن ذلك إلا وحي يوحى إليه، ويظهر أن السهو من الطبع.

قوله: قوله تعالى: (﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾): في الخازن: عن ابن عباس: أراد بالناس: الذين آمنوا بمكة: سلمةَ بنَ هشام، وعياشَ بنَ [أبي] ربيعة، والوليدَ بنَ الوليد، وعمار بن ياسر، وغيرهم[2].

وقوله تعالى: (﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾)؛ أي: بل يمتحنهم بمشاق التكاليف؛ كالمهاجرة، والمجاهدة، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٣)، والحديث رواه البخاري (٣٨٥٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٧٥).

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[العنكبوت: ١ ـ ٣].

ومِمَّن أُوذي في الله: أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، ولما اشتد عليه الأذى، أجمع أمره على الهجرة من مكة إلى جهة الحبشة، فخرج حتى أتى برْكَ الغِماد، فلقيه ابن الدُّغُنَّة ـ وهو سيد قبيلة عظيمة اسمها: القَارَةُ ـ، فقالَ: إلى أين يا أبا بكر؟ فقال: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبدَ ربي، فقال ابن الدغنة: مِثْلُك يا أبا بكر لا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتَصِل الرَحم، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع، وارتحل ابن الدغنة معه، وطاف في أشراف قريش، فقال لهم: أبو بكر لا يُخْرَجُ مثلُه، أتخرِجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، . . .

المضطرب فيه. وتمامه في البيضاوي[1].

وقوله تعالى: (﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا. . .﴾) إلخ: المعنى: أن ذلك سنة قديمة جارية في الأمم كلها، فلا ينبغي أن يتوقع خلافه. اهـ. منه[2].

قوله: (الدغنة): ـ بفتح الدال وكسر الغين وتخفيف النون ـ واسمه الحارث.

و**(القارة)**: قبيلة مشهورة كان يضرب بهم المثل في قوة الرمي، ومن ثم قيل لهم: رماة الحَدق، لا سيما ابن الدغنة.

والقارة: أكمة سوداء نزلوا عندها، فسُمُّوا بها.

قوله: (إنك تكسب المعدوم. . .) إلخ: قال الحلبي: تأمل فيما وصف به ابنُ الدغنة أبا بكر بين أشراف قريش بتلك الأوصاف الجليلة المساوية لما وصفت به خديجةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ولم يطعنوا فيها، مع ما هم متلبسون به من

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٧).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٠٨).

ويقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق؟

فلم تُكذِّب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا له: مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصلِّ فيها ما شاء، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن، فإنَّا نخشى أن يفتِن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره.

ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بِفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان رجلاً بكَّاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشرافَ قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، . . . .

عظيم بغضه ومعاداته بسبب إسلامه، وإن هذا منهم اعتراف؛ أي: اعتراف بأن أبا بكر كان مشهوراً بينهم بتلك الأوصاف شهرة تامة، بحيث لا يمكن لأحد أن ينازع فيها، ولا أن يجحد شيئاً منها، وإلا لبادر إلى جحدها بكل طريق أمكنهم؛ لما تحلوا به من قبيح العداوة له بسبب ما كانوا يرون منه من صدق موالاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعظيم محبته له[1].

قوله: (فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة)؛ أي: لم يردوا جواره.

ورُوي: فيتقذف ـ بالتاء الفوقية ـ؛ أي: يتدافعون على أبي بكر، فيقذف بعضهم بعضاً فيتساقطون، ورُوي: فيتقصف؛ أي: يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعض فيكاد ينكسر، قال الخطابي: وهو المحفوظ. اهـ. «شرح مختصر البخاري» للشرقاوي[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٥).

(٢) انظر: «فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي» للشرقاوي (٣/ ١٠٣). وانظر: «أعلام الحديث» للخطابي (٣/ ١٦٩٠).

فقالوا: إنَّا كنَّا قد أجَرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربه بفناء داره، فعل، وإن أبى إلّا أن يعلن ذلك، فَسَلْه أن يردّ إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نُخْفِرَكَ، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان.

فأتى ابنُ الدغنة أبا بكر، فقال: لقد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن تُرْجع إليَّ ذمتي؛ فإني لا أُحب أن تسمع العرب أني أُخْفِرْتُ في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أردُّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله. رواه البخاري(١).

وكان ذلك سبباً لإيصال أَذًى عظيمٍ إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (أن نخفرك): في «المصباح»: خفرتُ بالرجل من باب ضرب: غدرتُ به، وأخفرتُه ـ بالألف ـ: نقضتُ عهده(٢).

قوله: (عقدت له): في الدحلانية زيادة: (ذمَّةً) بعد قوله: عقدت له(٣).

قوله: (وكان ذلك سبباً لإيصال أذى عظيم إلى أبي بكر...) إلخ: قال الحلبي: ولما رد جوار ابن الدغنة، لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر عليه بعض كبراء قريش من المشركين، فقال له أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ألا ترى ما صنع هذا السفيه؟ فقال له: أنت فعلت بنفسك، فصار أبو بكر يقول: ربِّ ما أحلمك! قال ذلك ثلاثاً. اهـ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٧، ٣٩٠٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: خفر).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٥).

وبالجملة: فلم يخل أحد من المسلمين من أَذِيّةٍ لحقَته، ولكن كل ذلك ضاع سدًى تلقاء ثباتهم وعظيم إيمانهم؛ فإنهم لم يسلموا لغرض دنيوي يرجون حصوله، فيسهل إرجاعهم، ولكن وفقهم الله لإدراك حقيقة الإيمان، فرأوا كل شيء دونه سهلاً.

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يُجْدِهم نفعاً، بل كلما زادوا المسلمين أذًى، ازداد يقينُهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم عتبة بن ربيعةَ العبشميُّ من بني عبد شمس بن عبد مناف ـ وكان سيداً مطاعاً في قومه ـ: يا معشر قريش! ألا أقوم لمحمد فأُكلِّمُه وأعرضُ عليه أموراً علَّه يقبل بعضَها، فنعطيه إياها، ويكفَّ عنّا؟ فقالوا: يا أبا الوليد! فقمْ إليه فكلِّمْه، فذهب إلى رسول الله وهو يصلي في المسجد، . . . .

قوله: (اجتمعوا للشورى): كان ذلك حين أسلم حمزة ـ رضي الله عنه ـ، ورأوا أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، وتفصيل القصة في تفسير الخازن في سورة فصلت نقلاً عن البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ[1].

قوله: (ألا أقوم لمحمد)؛ أي: وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً في المسجد وحده. حلبي[2].

ثم قال: وفي رواية: إن نفراً من قريش اجتمعوا وقالوا: ابعثوا إلى محمد حتى تعذروا فيه، فقالوا: انظروا أعلمَكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل، فقالوا: لا نعلم أحداً غير عتبة[3].

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٨٤ ـ ٨٥). وانظر: «تفسير البغوي» (٤/ ١١٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦).

وقال: يا بن أخي! إنك منّا حيث قد علمتَ من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ أحلامهم، وعِبتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها، فقال عليه الصلاة والسلام: «قل يا أبا الوليد أسمع».

فقال: يا بن أخي! إن كنتَ تريدُ بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تُريد شرفاً؛ سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونك، وإن كنتَ تُريد مُلكاً؛ مَلَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك؛ طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد فرغتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصِّلت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ ....

قوله: (وكفرت من مضى من آبائهم): ذكر الحلبي بعد هذا أن من جملة ما قاله عتبة للنبي صلى الله عليه وسلم: لقد أفضحتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد منا إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى، فاسمع مني... إلخ ما ذكره المصنف هنا[1].

قوله: (﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾): ميزت، وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ، ووعد ووعيد وغيرِ ذلك.

وقوله: (﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾)؛ أي: لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ....

الآيات المفصَّلة المبينة بلسانهم العربي.

وقوله: (﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾)؛ أي: لا يقبلون.

وقوله: (﴿فِي أَكِنَّةٍ﴾): أغطية، جمع كِنان، وهو الغطاء.

وقوله: (﴿حِجَابٌ﴾)؛ أي: ستر، وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده.

وقوله: (﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾)؛ أي: فاعمل على دينك وفي إبطال أمرنا، إننا عاملون على ديننا وفي إبطال أمرك[1].

وقوله: (﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾) لست ملكاً ولا جنيًّا لا يمكنكم التلقي منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبو الأسماع والعقول عنه، وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة في العمل.

وقوله: (﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾)؛ أي: في أفعالكم متوجهين له، أو فاستووا لله بالتوحيد والإخلاص في العمل[2].

وقوله: (﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾) استفهام بمعنى الإنكار، وذكر عنهم شيئين: الكفر، وإثبات الشركاء، والمعنى: كيف نجوز جعل هذه الأصنام أنداداً

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٨٣).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٠٦).

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ . . . .

مع أنه تعالى هو الذي خلق الأرض في يومين الأحد والإثنين[1].

وقوله: (﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾): في تتمة أربعة أيام؛ كقولك: سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر؛ أي: تتمة خمسة عشر، ولا بد من هذا التقدير، وإلا تكون الأيام ثمانية.

وقوله: (﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾) معناه: سواء لمن سأل عن ذلك؛ أي: فهذا الأمر سواء لا زيادة فيه ولا نقصان جواباً لمن سأل: في كم خلقت الأرض؟

وقوله: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾)؛ أي: قصد نحوها، من قولهم: استوى إلى مكان كذا: إذا توجه إليه توجهاً لا يلوي[2] على غيره.

وقوله: (﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾)؛ أي: فأحكم خلقهن، وأتقنَ أمرهن.

وقوله: (﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾) قيل: خلق السماوات يوم الخميس، والشمس والقمر والنجوم يوم الجمعة.

قوله: (﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ﴾)؛ أي: ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات ونحو ذلك.

وقوله: (﴿وَحِفۡظٗاۚ﴾)؛ أي: وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً، وقيل: مفعول على المعنى؛ كأنه قال: وخصصنا سماء الدنيا بمصابيح زينة وحفظاً.

---

(١) في الأصل: «والخميس»، والتصويب من «تفسير النسفي» (٤/ ٨٤).

(٢) في النسختين: «يكون»، والتصويب من «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٠٨).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٤].

فأمسك عتبة بفيه، وناشده الرحم أن يَكُفَّ عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله! لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قطُّ، والله! ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر، يا معشر قريش! أطيعوني فاجعلوها لي، . . . .

وقوله: (﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾): أصل الصاعقة: رعد معه نار، والمراد بها: عذاب شديدُ الوقع كأنه صاعقة عاد وثمود.

وقوله: (﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾)؛ أي: أتوهم من كل جانب، وعملوا فيهم كل حيلة، فلم يروا منهم إلا الإعراض.

وقوله: (﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾) مفعولُ ﴿شَاءَ﴾ محذوف؛ أي: لو شاء إرسالَ الرسل.

وقوله: (﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾)؛ أي: زعمكم.

وقوله: (﴿كَافِرُونَ﴾)؛ أي: إنا لن نؤمن بكم إذ أنتم بشر ولستم بملائكة.

قوله: (أن يكف عن ذلك) قال الحلبي: ثم انتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى السجدة، فسجد فيها، ثم قال: «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك»[(١)].

قوله: (فلما رجع عتبة): قال الحلبي: لما قام عتبة إلى أصحابه، قال بعضهم لبعض يحلف: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به[(٢)].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧)، والحديث المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨) من حديث محمد بن كعب مرسلاً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧).

خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله! ليكونَنَّ لكلامه الذي سمعت نبأ، فَإِنْ تُصِبْهُ العرب، فقد كُفيتُموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فعزُّه عزُّكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيي[1].

ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم في عبادتهم، ويشاركوه في عبادته، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾ . . . .

قوله: (فعزه عزكم) قبلَها: فملكُه ملككم، وبعدها: وكنتم أسعدَ الناس به[2].

قوله: (عرضوا عليه أن يشاركهم في عبادتهم...) إلخ: قالوا له: تعبد آلهتنا اللاتَ والعزى سنة، ونعبد إلهك سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبده خيراً مما نعبد، كنت أخذتَ منه بحظك، وإن كان الذي نعبده خيراً مما تعبد، كنا قد أخذنا منه بحظنا، فقال لهم: «حتى أنظر ما يأتي من ربي»، فجاء الوحي بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولما نزلت، غدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم، فأيسوا[3].

قوله: (﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾): ﴿لَآ﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال؛ كما أن، ﴿مَآ﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال.

قوله: (﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾) ذكر بلفظ ﴿مَآ﴾ ليتقابل اللفظان، أو

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٢٤١ ـ ٢٤٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٧).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٣٠/ ٣٣١)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وسعيد بن مينا مولى البختري.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون: ١ ـ ٦].

فلا تتوهموا أني أجيبكم لطلبكم من الإشراك بالله، فأيسوا منه، وطلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان والوعيد الشديد، فيأتي بقرآن غيره أو يبدله، فأنزل الله جواباً لهم في سورة يونس: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[يونس: ١٥][1].

المراد به الصفة؛ أي: لا أعبد الباطلَ، ولا تعبدون الحق[2].

وقوله: (﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾)؛ أي: لكم كفرُكم، ولي إخلاصي وتوحيدي، والمقصود منه: التهديدُ، فهو كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[فصلت: ٤٠]، وهذه الآية منسوخة بآية القتال[3].

قوله تعالى: (﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ . . .﴾) إلخ الآية: أول الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ . . .﴾ إلخ.

قال البيضاوي: أي: ائتِ بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب بعد الموت، أو ما نكرهه من معايب آلهتنا، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى، ولعلهم سألوا ذلك كي يسعفهم إليه فيلزموه.

وقوله: (﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ﴾)؛ أي: ما يصح لي (﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِيَ﴾): من قِبل نفسي، وإنما اكتُفي بالجواب عن التبديل؛ لاستلزام امتناعه امتناعَ الإتيان بقرآن آخر[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٩).
(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٣٦١).
(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٨٦).
(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٨٩).

وقد حصل له مع كفار قريش نادرة تكون لمن استهان بالضعيف كمصباح يستضيء به، وهو أنه بينما الرسول عليه الصلاة والسلام مع كُبراء قريش وأشرافهم يتألفهم، ويعرض عليهم القرآن وما جاء به من الدين، إذ أقبل عليه عبدالله ابنُ أم مكتوم الأعمى ـ وهو ممّن أسلموا قديماً ـ والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بالقول، وقد لقي منهم مؤانسة حتى طمع في إسلامهم، فقال له عبدالله: يا رسول الله! علِّمني مما علّمك الله، وأكثرَ عليه القولَ، فشقّ ذلك على الرسول، وكره قطعه لكلامه، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يكون التفاته لذلك المسكين ينفر عنه قلب أولئك الأشراف، فأعرض عنه، فعاتبه الله على ذلك بقوله أوّلَ سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ ....

قوله: (والنبي صلى الله عليه وسلم مشتغل بالقوم): قال الخازن: هم عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأُبي بن خلف، وأخوه أمية. اهـ[1].

قوله: قوله تعالى: (﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾) ذكر الأعمى؛ للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقوم، والدلالة على أنه أحق بالرأفة والرفق.

وقوله: (﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾)؛ أي: يتطهر من الآثام بما يتلقف منك، وفيه إيماء بأن إعراضه كان لتزكية غيره.

وقوله: (﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾)؛ أي: أو يتعظ فتنفعه موعظتك.

وقوله: (﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾): تتعرض بالإقبال عليه، وأصله تتصدى.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٤).

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠].

فما عبس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها في وجه الفقير، وكان إذا كان أقبل عليه عبدالله بنُ أم مكتوم يقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»(١).

ولمّا رأى المشركون أن هذه المطالب التي يعرضونها لا تُقبل منهم، أرادوا أن يدخلوا في باب آخر، وهو تعجيز الرسول بطلب الآيات، فاجتمعوا، وقالوا: يا محمدا! إن كنت صادقاً، فأرِنا آيةً نطلبها منك، وهي أن تشقّ لنا القمر فرقتين، فأعطاه الله هذه المعجزة، وانشقَّ القمر فرقتين، فقال رسول الله: «اشهدوا».

وقوله: (﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾)؛ أي: وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام حتى يبعثك الحرص على إسلامه عن الإعراض عمن أسلم، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله: (﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾): يسرع طالباً للخير (﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾) اللهَ، أو أذيةَ الكفار (﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾): تتشاغل. اهـ. بيضاوي(٢).

قال الخازن: واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين، وكان من المهاجرين الأولين، وقيل: قتل شهيداً بالقادسية، قال أنس: رأيته يوم القادسية وعليه درع، ومعه راية سوداء. اهـ(٣).

قوله: (وانشق القمر فرقتين. . .) إلخ: في البخاري: بينما نحن مع

---

(١) أورده الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ١٣١). وأورده الديلمي في «الفردوس» (٦٥١٠) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩٠).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٣٩٤)، وقول أنس ـ رضي الله عنه ـ رواه عبد الرزاق الصنعاني في «تفسيره» (٣/ ٣٤٨).

رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى، إذا انفلق القمر فلقتين: فلقة فوق الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشهدوا»[(١)].

وعن جبير بن مطعم: انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فقالت قريش: سحر محمد أعيننا، فقال بعضهم: لئن كان سحرنا، ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم. أخرجه الترمذي[(٢)]، وزاد غيره: فكانوا يتلقَّون الركبان[(٣)]، فيخبرونهم بأنهم قد رأوه، فيكذبونهم. اهـ. خازن[(٤)].

قال الحلبي: وفي لفظ: فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه، فأخبروهم أنهم رأوه منشقاً، فعند ذلك قالوا: هذا سحر مستمر؛ أي: مُطَّرد، وفي لفظ: قالوا: هذا سحر أسحر السحرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ١ ـ ٢]، وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقاً أهل مكة، بل جميع أهل الآفاق.

وبه يرد قول بعض الملاحدة: لو وقع انشقاق القمر لاشترك أهل الأرض كلهم بمعرفته، ولم يختص بها أهل مكة.

ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة خاصة، فاختصت رؤيته ممن اقترح وقوعه، ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض، ولا بقول بعضهم: إن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦٩، ٤٨٦٤) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ومسلم (٢٨٠٠)، واللفظ له.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٨٩).

(٣) في النسختين: «الركاب»، والمثبت من «تفسير الخازن»، و«جامع الأصول».

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢١٧)، والزيادة المذكورة أوردها رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (١١/ ٣٩٨).

وهذه القصة رواها عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو من السابقين الأوّلين، رُويت عنه من طرق كثيرة، ورواها عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنه[1] ـ وغيره، ورواها عنهم جمع غزير حتى صار الحديث كالمتواتر. وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى في أول سورة القمر: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾. فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى، قال بعضهم: لقد سحركم ابن أبي كبشة، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[القمر: ٢].

طائفة في جنح ليلة ومعظمُ الناس نيام[2].

قوله: (حتى صار الحديث كالمتواتر...) إلخ: في كتاب «المتناثر في الحديث المتواتر» لنزيل دمشق الشام ومحدثها الآن السيد الشيخ محمد الكتاني ـ حفظه الله وأطال بقاءه ـ ما ملخصه: إن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق. ورواه من الصحابة: علي، وابن مسعود، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس.

وقال القرطبي: رواه العدد الكثير من الصحابة، ونقله عنهم الجم الغفير من التابعين فمن بعدهم[3].

وفي «الشفا»: أما انشقاق القمر، فالقرآنُ نص بوقوعه، وأخبر بوجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، فلا يوهن عزمنا خلافُ أخرقَ منحلِّ عرى الدين، ولا يُلتفَت إلى سخافة مبتدع

---

(١) رواه البخاري (٤٨٦٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

(٣) انظر: «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» لمحمد الكتاني (ص: ٢١١ ـ ٢١٢).
وانظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للقرطبي (٧/ ٤٠٣).

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بذلك إلا العنت والعناد، فمنها: أن قالوا كما في سورة الإسراء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾[الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]، ولم يجبهم الله إلا بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]؛ لأن الله علم ما تُكِنُّه جوانحُهم من التعصب والعناد، فلا يؤمنون مهما جاءهم من البينات؛ كما قال جلّ ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ١٠٩]، ....

يلقي الشك في قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه. اهـ[1].

قوله: (﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ...﴾) إلخ: يعنون قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[سبأ: ٩]، و﴿كِسَفًا﴾ ـ بفتح السين ـ؛ أي: قطعاً.

وقوله: (﴿قَبِيلًا﴾)؛ أي: كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته.

وقوله: (﴿مِّن زُخْرُفٍ﴾)؛ أي: من ذهب.

وقوله: (﴿كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾): فيه تصديقك، وأمرنا فيه باتباعك.

وقوله: (﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾)؛ أي: أنا رسول كسائر الرسل، بشر مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليَّ، إنما هو إلى الله. اهـ. نسفي[2].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥٥).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٣٠٠).

وكيف يرجى الخير ممّن قالوا كما في سورة الأنفال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ولم يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إليه، وهذه سنَّة من سُنن الأنبياء إذا رأوا من طلاب الآيات عناداً، وأنهم يطلبونها تعجيزاً، لا يسألون الله إنفاذ هذه الآيات كيلا يحلّ بقومهم الهلاك كما حصل لعاد وثمود وغيرهم. وهذا هو المراد من قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

قوله: (﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا...﴾) إلخ الآية: روي: أن النضر بن الحارث لما قال: إن هذا إلا أساطير الأولين؛ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ويلك! إنه كلام الله»، فقال: ﴿قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ...﴾ إلخ الآية[1].

والمراد منه: التهكم، وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً.

قوله: قوله تعالى: (﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ...﴾) إلخ: المراد بالآيات: التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً، ومن إحياء الموتى، وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا، وسنةُ الله في الأمم أن من اقترح منهم آية، فأجيب إليها ثم لم يؤمن: أن يعاجَل بعذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا، وقد قضينا أن لا نستأصلهم؛ لأن فيهم من يؤمن، أو يلد من يؤمن.

وقد ذكر من تلك الآيات ـ التي اقترحها الأولون، ثم كذبوا بها لما أُرسلت، فأُهلكوا ـ واحدةً، وهي ناقة صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٣]؛ أي: جحدوا أنها من عند الله، فعاجلناهم بالعقوبة،

---

(١) أورده البيضاوي في «تفسيره» (٣/ ١٠٤) باللفظ المذكور. وروى الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٣٢) عن سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء: أن الآية المذكورة نزلت في النضر بن الحارث.

وقد حصل للمسيح عليه السلام: أنه لمّا وقفَ أمام هيرودس، طلب منه آية، فلم يُجِبْهُ إلى طلبه، فلما رأى ذلك، سخر منه، وردّه إلى عدوه بيلاطس بعد أن كان يأسف عليه، ويتمنى لقاءه، وذلك مذكور في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل لوقا.

هذا، ولما رأى المشركون ضعفهم عن مقاومة المسلمين بالبرهان، تحولوا إلى سياسة القوة التي اختارها قوم إبراهيم عندما عجزوا عنه . . . .

وآثارُ هلاكهم قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. اهـ. نسفي وخازن وبيضاوي[1].

قوله: (وقد حصل للمسيح عيسى عليه السلام. . .) إلخ: خلاصة القصة: أن الكهنة والكتبة جاؤوا بعيسى إلى بيلاطس، وابتدؤوا يشتكون عليه قائلين: إنا وجدنا هذا يفسد الأمة، فقال بيلاطس لهم: إني لا أجد علةً في هذا الإنسان، فقالوا: إنه يهيج الشعب، وهو يُعَلِّم في اليهود مبتدئاً من الجليل إلى هنا، فلما سمع بيلاطس ذكر الجليل سأل: هل الرجل جليلي؟ وحين علم أنه من سلطنة هيرودس، أرسله إليه إذ كان تلك الأيام في القدس.

وأما هيرودس، فإنه لما رأى يسوع، فرح جدّاً؛ لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه، وترجى أن يرى آية تُصْنَع منه، وسأله بكلام كثير، فلم يجبه بشيء، فرده حينئذ إلى بيلاطس. اهـ.

والقصد من سياق القصة: أن يبين أنه قد سئل غيرُ نبينا صلى الله عليه وسلم شيئاً من الآيات فلم يجب؛ لأن ظهور الآيات راجع لمشيئة الله تعالى، لا لما طلبه المتعنتون.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٩١)، و«تفسير الخازن» (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٥٣).

حيث قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[الأنبياء: ٦٨] كما في سورة الأنبياء. أما هؤلاء، فازدادوا بالأذى على كل مَن أسلم رجاء صدّهم عن اتّباع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يتركوا باباً إلا ولجوه، فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تفرقوا في الأرض؛ فإن الله سيجمعكم»، فسألوه عن الوجه، فأشار إلى الحبشة[1].

هجرة الحبشة الأولى

فعند ذلك تجهزَ ناس للخروج من ديارهم وأموالهم فراراً بدينهم كما أشار عليه الصلاة والسلام، وهذه هي أول هجرة من مكة، . . . .

قوله تعالى: (﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾)؛ أي: الانتقام لها.

هجرة الحبشة الأولى

قال الدحلاني: روى ابن إسحاق: أن سبب الهجرة إلى الحبشة: أنه صلى الله عليه وسلم لما رأى المشركين يؤذون أصحابه، ولا يستطيع أن يكفهم عنهم، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلَم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرجوا إليها مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة[2].

---

(١) رواه ابن عبد البر في «الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص: ٥٠) من حديث عروة بن الزبير مرسلاً، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٢٥٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٩١ ـ ٤٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٦٤).

وعدّة أصحابها عشرةُ رجال، وخمسُ نسوة، وهم: عثمان بن عفان وزوجه رقيّة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سلمة وزوجه أُم سلمة، وأخوه لأمه أبو سَبْرة بنُ أبي رُهْم، وزوجه أم كلثوم، وعامر بن ربيعة وزوجه ليلى، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سُهَيل، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وسُهَيْل بن البيضاء، والزبير بن العوّام، وجُلّهم من قريش، وكان عليهم ـ فيما روى ابن هشام ـ عثمانُ بن مظعون، فساروا على بركة الله، ولما انتهوا إلى البحر، استأجروا سفينة أوصلتهم إلى مقصدهم، فأقاموا آمنين من أذًى يلحق بهم من المشركين، ولم يبق مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا القليل[1].

إسلام عمر

وفي ذلك الوقت أسلم الشهمُ الهمام عمرُ بنُ الخطاب العدويُّ القرشيُّ بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم.

ثم قال: وخرجوا مشاة متسللين سرّاً، ثم استأجروا سفينة بنصف دينار، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا إلى البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً.

ولما وصلوا الحبشة، أكرمهم النجاشي، وأقاموا عنده آمنين، وقالوا: جاورنا بها خير جار على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه[2].

إسلام عمر رضي الله عنه

قوله: (وفي ذلك الوقت)؛ أي: بعد خروج من خرج مِنْ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣١ ـ ٣٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

قالت ليلى ـ إحدى المهاجرات لأرض الحبشة مع زوجها ـ : كان عمر بن الخطاب من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أُريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة، إذا أنا به، فقال لي: إلى أين يا أُم عبدالله؟ فقلت: قد آذيتمونا في ديننا، نذهبُ في أرض الله حيث لا نؤذى، فقال: صحبكم الله، فلما جاء زوجي عامر، أخبرته بما رأيت من رِقَّةِ عمر، فقال: ترجين أن يُسْلم؟! والله! لا يسلم حتى يسلم حمارُ الخطاب[1].

وذلك لما كان يراه من قسوته وشدته على المسلمين، ولكن حصلت له بركة دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قال قبيل إسلامه: «اللهم أعِزّ الإسلام بعمر»[2].

وكان إسلامه في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي كان المسلمون يجتمعون فيها. وقد حقق الله بإسلامه ما رجاه عليه الصلاة والسلام؛ فقد قال عبدالله بنُ مسعود من رواية البخاري: . . . .

قال ابن إسحاق: أسلم عمر ـ رضي الله عنه ـ سنة ست من المبعث، وقيل: سنة خمس، وكان المسلمون تسعة وثلاثين رجلاً، فكمل الله به الأربعين[3].

قوله: (وقد كان إسلامه بدار الأرقم): قال الدحلاني في سبب إسلامه ما خلاصته: كان عمر يحدث عن إسلامه، قال: لقيني رجل من قريش فقال:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٥/ ٢٩) عن ليلى بنت أبي حثمة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٤٥٦) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. ورواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٦٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٥٦).

تزعم أنك هذا ـ أي: أنك الصلب القوي في دينك ـ وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، وهذه أختك قد صبأت ـ وكانت تحت سعيد بن زيد، واسمها فاطمة ـ، فذهب إلى بيتها، فقال لها: يا عدوةَ نفسها! بلغني أنك صبأتِ، ثم ضربها فقالت: أتضربني يا عدو الله على أن أوحد الله، لقد أسلمنا على رغم أنفك، فما كنت فاعلاً فافعل.

فاستحييتُ حين رأيت الدم، فقمت وجلست على السرير وأنا مغضَب، فإذا كتاب في ناحية البيت، فأخذت الصحيفة، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، وفي رواية: فيها: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ ـ ٢] ـ ويُجمع بين الروايتين تعددُ الصحف ـ، ولما وصلتُ إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]؛ فعظمت في صدري، وقلت: من هذا فرت قريش، ولما بلغ إلى قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، قال: ما ينبغي لمن يقول هذا أن يعبد معه غيره، دلوني على محمد صلى الله عليه وسلم، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم وأسلمت[١].

وسبب تسميته بالفاروق ـ كما ذكره الطبري في «الرياض النضرة» ـ: عن ابن عباس قال: سألت عمر: لأي شيء سُمِّيت الفاروق؟ فقال: أسلم حمزةُ قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام، فقلت: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، فما في الأرض نسمة هي أحبُّ إلي من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: أين رسول الله؟ قالت أختي: هو في دار الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار، وحمزةُ في أصحابه جلوس في الدار، ورسولُ الله في البيت، فضربت

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، والخبر المذكور رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٤١٠ ـ ٣٤١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢٩ ـ ٣٠).

«ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر»[1]؛ فإنه طلب من رسول الله أن يعلن صلاته في المسجد، ففعل، وقد أدرك الكفارَ كآبةٌ شديدة حينما رأوا عمر أسلم، وكانوا قد أرادوا قتله حتى اجتمع جمع حول داره ينتظرونه، فجاء العاص ابن وائل السَّهْمي وهو من بني سهم حلفاء بني عدي قوم عمر، وعليه حُلَّة حِبَرَة، . . . .

الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بمجامع ثوبه، ثم نتره نترة، فما تمالك أن وقع على ركبتيه، فقال: «ما أنت بمنتهٍ يا عمر؟» قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد، قال: فقلت: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده! إنكم على الحق إن متم وإن حييتم»، قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق! لنخرجن، فأخرجناه صلى الله عليه وسلم في صفين: حمزةُ في أحدهما، وأنا في الآخر، ولي كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إليَّ قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلُها، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: الفاروق، فرَّق الله بي بين الحق والباطل[2].

قوله: (حبرة): على وزن (عِنَبة): ثوب يماني من قطن أو كتان مخطَّط، يقال له: بردٌ حِبَرةٌ على الوصف، وبردُ حِبَرةٍ على الإضافة. اهـ. مصباح[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٤).

(٢) انظر: «الرياض النضرة» لمحب الدين الطبري (٢/ ٢٧٢)، والحديث رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٤٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٠ـ ٣١).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: حبر).

وقميص مكفوف بحرير، فقال لعمر: ما بالُكَ؟ فقال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إنْ أسلمتُ، قال: لا سبيل إليك، فأنا لك جار، فأَمِنَ عمر، وخرج العاص، فوجد الناس قد سال بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد هذا ابنَ الخطاب الذي صبأ، قال: لا سبيل إليه، فرجع الناس من حيث أتوا[1].

رجوع مهاجري الحبشة

وبعد ثلاثة أشهر من خروج مهاجري الحبشة رجعوا إلى مكة حيث لا تتيسر لهم الإقامة فيها؛ لأنهم قليلو العدد ـ وفي الكثرة بعضُ الأُنس ـ وأَضِف إلى ذلك: أنهم أشراف قريش ومعهم نساؤهم، وهؤلاء لا يطيب لهم عيش في دار غربة بهذه الحالة.

وقد أُولع بعض المؤرخين بحكاية ....

وقوله: (وقميص مكفوف): قال في «القاموس»: كفَّ الثوب كفّاً: خاط حاشيته، وهو الخياطة الثانية بعد الشَّلِّ. اهـ[2].

قوله: (فرجع الناس من حيث أتوا): قال الدحلاني بعد هذه العبارة: ثم رد عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى العاص جواره، قال: فما زلت أضرب وأُضرب حتى أعزَّ الله الإسلام. اهـ[3].

رجوع مهاجري الحبشة

---

(١) رواه البخاري (٣٨٦٤) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كفف).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٠)، والخبر المذكور رواه البزار في «مسنده» (٢٧٩).

يجعلونها سبباً في رجوع مهاجري الحبشة، وهي أنه بلغهم إسلامُ قومهم حينما قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم سورة النجم، وتكلم فيها كلاماً حسناً عن آلهتهم حيث قال بعد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[النجم: ١٩ ـ ٢٠]: تلك الغرانيق ـ جمع غرنوق: وهي الطيور، ويراد بها: الملائكة ـ، العلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى، فسجدوا إعظاماً لذلك وفرحاً[١].

قوله: (﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾): ﴿ٱللَّٰتَ﴾: اسم لصنم كانت لثقيف بالطائف، وقيل: كانت بنخلة تعيدها قريش.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: قيل: شجرة، وقيل: صنم وضعه سعدُ بنُ ظالم الغطفاني في نخلة، وهو موضع على ليلة من مكة، وكانت العزى لقريش وجميعِ بني كنانة.

(﴿وَمَنَوٰةَ﴾): هي صنم للأوس والخزرج ومَنْ دان دينهم.

وسيأتي زيادة بيان لهذه الأصنام بعد فتح مكة.

ومعنى الآية: هل رأيتم هذه الأصنام حقَّ الرؤية، وإذا رأيتموها، علمتم أنها لا تصلح للعبادة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع.

قوله: (﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾): صيغتان للتأكيد؛ كقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقيل: ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ نعتٌ لـ (مناة)، و﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ للثلاثة.

وقيل: هي صفة ذم، كأنه تعالى قال: ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة.

قوله: (جمع غُرنُوق): هو طير طويل العنق، وهو الكركي أو يشبهه، وهذه الطيور تعلو وترتفع في السماء، فشبهت الأصنام بها في علو القدر وارتفاعه. اهـ. حلبي[٢].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٤٧ ـ ١٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦).

وهـذا ممـا لا تجـوز روايتُـه إلا من قليلي الإدراك الذين ينقلون كل ما وجدوه غير متثبتين من صـحته، وهـا نحـن أُولاء نسـوق لـك أدلـة النقـل والعقل على بطلان ما ذكر.

أما الحديث، فسندُه ومتنه قلقان، فالسند قال فيه القاضي عياض في «الشفا»: «لم يخرّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سـليم»، وأمـا المتن، فليس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا المشـركون مجـانين حتى يسمعوا مدحاً أثناء ذم، ويجوز ذلك عليهم، فبعد ذكر الأصنام قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[النجم: ٢٣]. فـالكلام غير مُنْتَظِم، ولو كان ذلك قد حصل، لاتَّخذه الكفار عليه حجة يحاجّونه بهـا وقت الخصام، وهم من نعرفهم من العناد فيما ليس فيه أدنى حجة، . . . . .

قوله: (نسوق إليك أدلة النقل والعقل. . .) إلخ: قال الحلبي: هـذه القصـة طعن في صحتها جمع، وقالوا: إنها باطلة وضعها الزنادقـة، ومـن ثـم أسـقطها القاضي البيضاوي، ومن جملة المنكرين لهـا القاضي عياض؛ فقـد قـال: هـــذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب.

وقال البيهقي: رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم.

وقال الإمام النووي نقلاً عنه: وأما ما يرويه الأخبـاريون والمفسـرون: أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جـرى علـى لسـانه [من الثناء][1] على آلهتهم، فباطل لا يصح منه شيء، لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل؛ لأن مدح إلهٍ غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله صـلى الله عليه وسلم.

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

فكيف بهذه؟ وليس ذلك القيل أقلَّ من تحويل القبلة إلى الكعبة، وهذا قالوا فيه ما قالوا حتى سمَّاهم الله سفهاء، وأنزل فيهم في سورة البقرة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ﴾[البقرة: ١٤٢]. ولكن لم يُسمع عن أي واحد من رجالاتهم، والمتصدرين للعناد منهم أن قال: ما لك ذَممتَ آلهتنا بعدَ أن مدحتها؟ وكان ذلك أولى لهم من تجريد السيوف، وبذلِ مُهج الرجال[1].

على أن المؤرخين الذين ينقلون هذه العبارة، ويجعلونها سبباً لرجوع مهاجري الحبشة، يقولون أثناء كلامهم: إن الهجرة كانت في رجب، والرجوع كان في شوال، ونزول سورة النجم كان في رمضان، فالمدة بين نزول السورة ورجوع المهاجرين شهر واحد، والمتأمّل أدنى تأمل يرى أن الشهر كان لا يكفي في ذاك الزمن للذهاب من مكة إلى الحبشة والإيابِ منها، . . . . . .

ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك، وإلا، يلزمُ عدمُ الوثوق بالوحي.

وقال الفخر الرازي: هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها، قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: ٣ ـ ٤]، والشيطان لا يجترئ أن ينطق بشيء من الوحي[2].

قوله: **(وهذا قالوا فيه ما قالوا)**: قيل: نزلت في مشركي مكة، وذلك أنهم قالوا: قد تردد على محمد أمره، واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم، لعله يرجع إلى دينكم. اهـ. خازن[3].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ١٢٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٨ ـ ٩).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٨٦ ـ ٨٧).

لأنه لم يكن ـ إذ ذاك ـ مراكبُ بخارية تسهّل السير في البحر، ولا تلغراف يوصل خبر إسلام قريش لمن بالحبشة، فلا غرابةَ بعد ذلك إن قلنا: إن هذه الخرافة من موضوعات أهل الأهواء الذين ابتلى الله بهم هذا الدين، ولكن الحمد لله، فقد منَّ علينا بحفظ كتابنا المجيد الذي يحكم بيننا وبين كل مُفترٍ كذاب؛ ففي السورة نفسها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[النجم: ٣] والذي يلقيه الشيطان من أقبح ما يروى، فكيف يقوله عليه الصلاة والسلام، أو يجري على لسانه مما يثبت الشكوك في الوحي؟ الأمر الذي يريده السفهاء، رد الله كيدهم في نحرهم.

والذي ورد في الصحيح في موضوع هذا السجود: ما رواه عبدالله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فسجد، وسجد مَنْ كان معه، إلا رجلاً أخذ كفّاً من حصى وضعه على جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته قُتِلَ بعدُ كافراً[1].

وليس في هذا الحديث أدنى دلالة على أن الذين سجدوا معه هم مشركون، بل الذي يفيده قوله: فرأيته قُتِل بعدُ كافراً: أنه كان مسلماً، ثم رأيته ارتدّ، وهذا ما حصل من بعض ضعاف القلوب الذين لم يتحملوا الأذى فكفروا، منهم: علي بن أمية بن خلف.

هذا، ولما رجع مهاجرو الحبشة إلى مكة، لم يتمكن من الدخول إليها إلا مَنْ وجد له مُجيراً، فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب، . . . . .

قوله: (فدخل أبو سلمة في جوار خاله أبي طالب): قال الحلبي: أبو سلمة بن[2] عبد الأسد، وهو ابن عمته صلى الله عليه وسلم، ولما أجاره خاله

---

(١) رواه البخاري (١٠٦٧)، ومسلم (٥٧٦).

(٢) في النسختين: «اسمه» بدل «أبو سلمة بن».

ودخل عثمان بن مظعون في جوار الوليد بن المغيرة، وقد ردّ عليه جواره حينما رأى ما صنعه بالمسلمين، فلم يَرَ أن يكون مرتاحاً وإخوانه معذبون[1].

أبو طالب، مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا: يا أبا طالب! منعت منا ابن أختك، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا، فقال: إنه استجار بي، وهو ابن أختي، وأنا إن لم أمنع ابن أختي، لم أمنع ابن أخي، فقام أبو لهب على أولئك الرجال وقال لهم: يا معشر قريش! لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره من قومه، والله! لتنتهن، أو لأقومن معه في كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد، قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة. اهـ[2].

قوله: (وقد رد عليه جواره. . .) إلخ: قال الحلبي: وممن دخل بجوارٍ: عثمان بن مظعون، دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى ما يفعل بالمسلمين من الأذى؛ قال: والله! إن غدوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهلُ ديني يلقون من الأذى في الله ما لا يصيبني، لنقصٌ كبير، فمشى إلى الوليد فقال: يا أبا عبد شمس! وفت ذمتك، وقد رددت إليك جوارك، فقال له: يا بن أخي! لعله آذاك أحد من قومي وأنت في ذمتي فأكفيك ذلك؟ قال: لا، والله! ما اعترض لي أحد ولا آذاني، ولكن أرضى بجوار الله عز وجل، وأريد أن لا أستجير بغيره، قال: انطلق إلى المسجد، فاردد إليَّ جواري علانية كما أجرتك علانية.

فانطلقا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردُّ عليَّ جواري، فقال عثمان: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكني لا أستجير بغير الله عز وجل، قد رددت عليه جواره، فقال الوليد: أشهدكم أني بريء من جواره إلا أن يشاء.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠ ـ ١٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٢).

ثم انصرف عثمان، ولَبيدُ بن ربيعة بن مالك في مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه، فجلس عثمان معهم، فقال لبيد:

ألا كــلُّ شــيء مــا خــلا الله باطــل

فقال عثمان: صدقت.

فقال لبيد:

وكــلُّ نعــيمٍ لا محالــةَ زائــلُ[1]

فقال عثمان: كذبتَ، نعيمُ الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش! ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل: إن هذا سفيه، فمن سفاهته فارق ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان، فقام ذلك الرجل فلطم عينه، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي! كانت عينك عما أصابها لغنيّة، ولقد كنتَ في ذمة منيعة، فخرجت منها، وكنتَ عن الذي لقيتَ غنياً، فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً، والله! إن عيني الصحيحة التي لم تلطم لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله عز وجل، ولي فيمن هو أحب إليَّ منكم أسوة، وإني لفي جوار من هو أعز منك[2].

ثم قال: وأسلم بعد ذلك لَبيد، وحسن إسلامه، وعاش في الإسلام ستين سنة لم يقل فيها بيتَ شعر، فسأله عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته عن تركه للشعر، فقال: ما كنتُ لأقولَ شعراً بعد أن علمني الله تعالى البقرةَ وآلَ عمران، فزاده عمر في عطائه خمسَ مئة من أجل هذا القول، فكان عطاؤه ألفين وخمس مئة. اهـ[3].

---

(١) انظر: «شرح ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ٢٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠ ـ ١١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٢).

كتابة الصحيفة

ولما ضاقت الحيلُ بكفار قريش؛ عرضوا على بني عبد مناف الـذين منهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام دية مضاعفة، ويسلمونه، فأبوا علـيهم ذلك، ثم عرضوا على أبي طالب أن يُعطوه سيداً من شبانهم يتبناه، ويسلم إليهم ابنَ أخيه، فقال: عجباً لكم؛ تعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطـيكم ابني تقتلونه؟[1].

فلما رأوا ذلك، أجمعوا أمرهم على منابذة بني هاشم وبني المطلب وَلَدَيْ عبد مناف، وإخراجِهم من مكة، ....

كتابة الصحيفة

قوله: (ولما ضاقت الحيل بقريش)؛ أي: لِما رأته من عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه، وبإسلام عمر ـ رضي الله عنه ـ، وعزة أصـحابه بالحبشـة، ونشوء الإسلام في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا النبي صلى الله عليـه وسـلم، وقالوا: قد أفسد أبناءنا ونساءنا.

قوله: (سيداً من شبانهم): هو عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي ذهب مع عمرو بن العاص إلى النجاشي بهدايا ـ كما سيأتي في الفصل الآتي ـ.

قوله: (على منابذة بني هاشم): قال في «أساس البلاغة»: انتبذ الرجـل: اعتزل ناحية[2].

وفي «القاموس»: الانتباذ: التنحي، وتحيز كل من الفريقين في الحـرب؛ كالمنابذة[3].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٠٢).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: نبذ).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نبذ).

والتضييقِ عليهم، فلا يبيعونهم شيئاً، ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمداً للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم ـ بسبب ذلك ـ في شِعْب أبي طالب، ودخل معهم بنو المطلب، سواء في ذلك مسلمُهم وكافرهم، ما عدا أبا لهب؛ فإنه كان مع قريش، وانخذلَ عنهم بنو عَمَّيْهم: عبد شمس، ونوفل ابنَي عبد مناف، . . . .

قوله: (فانحاز بنو هاشم بسبب ذلك في شعب أبي طالب): قال الدحلاني: لما بلغ ذلك أبا طالب، جمع بني هاشم وبني المطلب، فأمرهم فدخلوا شِعْبهم، وأدخلوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم معهم، ومنعوه ممن أراد قتله، وأجاب كل منهم لذلك؛ مؤمنُهم وكافرهم، وإنما فعلوا ذلك حميةً على عادة العرب في المناصرة[(١)].

قال الحلبي: والشعب: مكان كان خارجاً عن مكة، وكان دخولهم إليه هلال المحرم سنة سبع من النبوة، وكان سنه صلى الله عليه وسلم ستاً وأربعين سنة[(٢)].

قال الدحلاني: أقاموا على ذلك سنتين ـ وقيل: ثلاث سنين، وجزم به موسى بنُ عقبة إمامُ المغازي ـ حتى جهدوا؛ لقطعهم عنهم الميرةَ والمادة، وكانوا لا يصل إليهم شيء إلا سراً[(٣)].

قوله: (وانخذل عنهم بنو عميهم: عبد شمس، ونوفل): قال الحلبي: ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته:

جزى الله عنا عبدَ شمس ونوفلاً ... عقوبةَ شرٍّ عاجلاً غيرَ آجلِ[(٤)]

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٦٩).

فجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، وكان أعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم وفي مقدمة المانعين أبو لهب[١].

وقال في قصيدة أخرى:

جزى الله عنا عبدَ شمسٍ ونوفلاً وتَيْماً ومخزوماً عُقوقاً ومأثما[٢]

قوله: (فجهد القوم...) إلخ: المدة قد طالت عليهم، حيث إنهم أقاموا على ذلك سنتين، وقيل: ثلاث سنين، وجزم به موسى بن عقبة إمامُ المغازي[٣]، وكانوا لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً، ويخرجون من الموسم إلى الموسم لأجل الحج، فلا يمنعونهم من ذلك.

قوله: (يأكلون ورق الشجر): قال الدحلاني: وفي الصحيح: أنهم جهدوا في الشعب حتى كانوا يأكلون ورق الشجر. اهـ[٤].

قال في «المصباح»: خبطتُ الورق من الشجر خبطاً من باب ضرب: أسقطته، فإذا سقط، فهو خَبَط ـ بفتحتين ـ[٥].

(وفي مقدمة المانعين أبو لهب): قال الدحلاني: كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام ليقتاته، فيقوم أبو لهب فيقول:

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٤٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٦٣، ٢/ ٣٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٦). وانظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٧٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤)، والحديث المشار إليه رواه البخاري (٦٤٥٣)، ومسلم (٢٩٦٦)، من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: خبط).

وبعد دخول الرسول صلى الله عليه وسلم وقومِهِ الشِّعْبَ، أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعد بعضهم بعضاً على الاغتراب، فهاجر معظمهم، وكانوا نحو ثلاثة وثمانين رجلاً، وثماني عشرة امرأة، وكان من الرجال: جعفر بن أبي طالب وزوجُه أسماءُ بنتُ عُمَيْس، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود، وعبيدالله بن جحش، وامرأته أم حبيبة بنتُ أبي سفيان، وتوجه لهم الذين أسلموا من جهة اليمن، وهم الأشعريون: أبو موسى، وبنو عمه. . . . .

يا معشر قريش التجار! غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم حالي، ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم ـ أي: السلعة ـ قيمتها أضعافاً مضاعفة حتى يرجع الرجل منهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، فيغدو التجار على أبي لهب بما كسد في أيديهم، فيربحهم، ويضعف لهم الثمن، وخروجُ أحدهم إلى السوق عند قدوم العير لا ينافي منعهم من الأسواق والمبايعة عموماً[1].

هجرة الحبشة الثانية

قوله: (عبيدالله بن جحش): هذا تنصر هناك، ثم مات على النصرانية، وبقيت زوجته أم حبيبة على إسلامها، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي. اهـ. حلبي[2].

قوله: (وهم الأشعريون: أبو موسى، وبنو عمه): قال الحلبي: رُوي عن أبي موسى: أنه بلغه مخرجُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باليمن، فخرج هو

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧).

ولما رأتْ قريش ذلك، أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص، وعُمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي ليُسَلِّم المسلمين، فرجعا شَرَّ رجعة، ولم ينالا من النجاشي إلا إهانة لما خاطبوه به من إخفار ذمته في قوم لاذوا به، . . . . .

ونحو خمسين رجلاً في سفينة مهاجرين إليه صلى الله عليه وسلم، فألقتهم السفينة إلى النجاشي بالحبشة، فوجدوا جعفراً وأصحابه، فأمرهم جعفر بالإقامة، واستمروا كذلك حتى قدموا عليه صلى الله عليه وسلم هم وجعفر عند فتح خيبر كما سيأتي[1].

قوله: (ليسلم المسلمين): قائلاً له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، فرغبوا عنا وعن آلهتنا، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم[2] أشرافَ قريش لنردهم.

فأرسل في طلبهم، فلما جاؤوا، قال جعفر لمن معه: أنا خطيبكم اليوم، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قال جعفر: نقول ما علمنا وما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ودع[3] يكون ما يكون.

وهنا ساق الحلبي الحديث الذي دار بينهم وبين النجاشي.

وأخيراً قال لهم[4]: انزلوا حيث شئتم سيوم بأرضي ـ أي: آمنون ـ، ثم أمر بهدية عمرو ورفيقه، فردَّت عليهما[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧)، والحديث المذكور رواه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٥٠٢).

(٢) في النسختين: «فهم»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) سقط من الأصل: «وأخيراً قال لهم».

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).

أما بنو هاشم، فمكثوا في الشِّعْب قريباً من ثلاث سنوات في شدة الجهد والبلاء، لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية[1].

نقض الصحيفة

وقد قام خمسة من أشراف قريش.......................

قوله: (لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية): قال الحلبي: كان ممن ينقل الطعام إليهم خفية: حكيمُ بن حزام، وهشام بن عمرو بن الحارث.

وبسط ثمةَ ما لحق كلَّ واحد منهما من الأذى بسبب ذلك[2].

نقض الصحيفة

قوله: (نقض الصحيفة): سببه ـ كما في الحلبي ـ: أن الله أطلع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أن الأَرَضَة أكلت ما في الصحيفة من عهد وميثاق ـ أي: الألفاظ المتضمنة للظلم وقطيعة الرحم ـ، ولم تدع منها اسماً للهِ تعالى إلا أثبتته فيها، فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فقال له عمه: والثواقبِ! ما كذبتني قط، وفي رواية أنه قال له: أربُّك أخبرك بهذا الخبر؟ قال: «نعم».

فانطلق في عصابة من بني هاشم وبني[3] عبد المطلب إلى المسجد، فتكلم معهم أبو طالب، وأعلمهم بما جرى على الصحيفة، ولما فتحوا الصحيفة، وجدوا الأمر كما قال صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا سحر ابنِ أخيك، وزادهم ذلك طغياناً وعدواناً، وحينما بان الأمر، مشى طائفة من قريش يطالبون بنقض الصحيفة... إلخ ما ذكره المؤلف هنا[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٤٨٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤).

(٣) في النسختين: «بن»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤ ـ ٣٥). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

يطالبون بنقض هذه الصحيفة الظالمة، وهم: هشام بنُ عمرِو بنِ ربيعةَ بنِ الحارث العامريُّ، وهو أعظمُهم في ذلك بلاءً، وزهير بنُ أبي أميةَ المخزوميُّ ابنُ عمةِ الرسول عاتكةَ، والمُطْعِمُ بنُ عديّ النوفليُّ، وأبو البَخْتَريّ بنُ هشام الأسديّ، وزمْعَة بنُ الأسود الأسديّ، واتفقوا على ذلك ليلاً، فلما أصبحوا، غدا زهير وعليه حُلّة، فطاف بالبيت، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونلْبَسُ الثياب، وبنو هاشم والمطلب هَلْكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟! والله! لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة القاطعة، فقال أبو جهل: كذبتَ، فقال زَمْعة لأبي جهل: أنت ـ والله ـ أكذبُ، . . . .

قوله: (وهو أعظمهم في ذلك بلاء): فإنه أول من مشى إلى زهير، فقال: يا زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالُك حيث قد علمتَ؟ فقال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد، والله! لو كان معي رجل آخر، لقمتُ في نقضها، فقال: أنا معك، فقال: ابغنا ثالثاً، ومشيا إلى المطعم بن عدي، فقالا له: أرضيتَ أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد؟ فقال: إنما أنا واحد، فقالا: إنَّا معك، فقال: ابغنا رابعاً، فذهبوا إلى أبي البختري، فقال: ابغنا خامساً، فذهبوا إلى زمعة بن الأسود، فوافقهم على ذلك.

فقعدوا ليلاً بأعلى مكة، وتعاقدوا وتعاهدوا على نقض تلك الصحيفة، وإخراج بني هاشم من الشعب، وقال لهم زهير: أنا أبدؤكم، وأكونُ أول من يتكلم. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (أبو البختري) ـ بفتح الباء وبالخاء المعجمة، أو بالحاء المهملة ـ.

و**(زمعة)**: ـ بفتح وسكون الزاي والميم ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦).

ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة، وقال المطعم ابن عدي: صدقتما، وكذب من قال غيرَ ذلك، وصدّق على ما قيل هشامُ ابنُ عمرو، فقام إليها المطعمُ بن عديّ فشقّها، وكانت الأَرَضة قد أكلتها، فلم يبقَ فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يفعل ما ذكر، فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة[1].

وفود نجران

وقد وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الخروج من الشِّعب وفدٌ من نصارى نجران بلغهم خبرُهُ من مهاجري الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته، مع ما ذكر منها في كتبهم، . . . .

قوله: (وصدق على ما قيل هشامُ بن عمرو): لما صدق على ذلك هشام، قال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، واضطرب الأمر بينهم، وكثر القيل والقال[2].

قوله: (فقام إليها المطعم بن عدي): قال الدحلاني: هذا مات كافراً، وأما أبو البختري وزمعة، فقتلا يوم بدر كافرين، وأما هشام وزهير، فإنهما أسلما بعد ذلك ـ رضي الله عنهما ـ، وقد قام هؤلاء الخمسة، ومعهم جماعة، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، ففعلوا. اهـ[3].

وفود نجران

قوله: (وفود نجران): قال الحلبي: نجران بلدة بين مكة واليمن على نحو

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥ ـ ٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

وكانوا عشرين رجلاً، أو قريباً من ذلك، فقرأ عليهم القرآن، فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركباً أحمقَ منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل، فصبأتم! فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه، ولنا ما اخترناه، فأنزل الله في ذلك قوله في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾ ....

من سبع مراحل من مكة، كانت منزلاً للنصارى[1].

قوله: (فآمنوا كلهم)؛ أي: لأنهم عرفوا منه ما هو موصوف في كتابهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (فأنزل الله في ذلك): صنيع المؤلف يفيد الاتفاق على نزول هذه الآيات في وفد نجران، وليس كذلك، ففي البيضاوي: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل: في أربعين من أهل الإنجيل؛ اثنان وثلاثون جاؤوا مع جعفر ـ أي: من الحبشة ـ، وثمانية من الشام[3].

وفي الخازن: أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب: عبدِالله بن سلام وأصحابِه، وقيل: بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة، وآمنوا به صلى الله عليه وسلم، وهم أربعون.

وعن ابن عباس: نزلت في ثمانين من أهل الكتاب؛ أربعون من نجران، و(٣٢) من الحبشة، و(٨) من الشام. اهـ[4].

قوله: (﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾) الضمير للقرآن، وهو كالمستكن في قوله تعالى:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٩٧).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٣٦٧)، وأثر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٢٦٦).

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥][1].

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر سول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة، رموه بالسحر مرة، وبالكذب أخرى، وبالجنون طوراً، وبالكهانة تارةً، كل ذلك شأن المعاجز المعاند الذي لا يستحي ـ لمزيد عناده ـ أن يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢][2].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ الآية.

قوله: (﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾)؛ أي: من قبل نزول القرآن أو تلاوته.

قوله: (﴿مَّرَّتَيْنِ﴾): مرة على إيمانهم بكتابهم، ومرة على إيمانهم بالقرآن.

وقوله: (﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾)؛ أي: لا نطلب صحبتهم، ولا نريدها. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (**وبالجنون طوراً**): قال الحلبي: وفد ضماد الأزدي من أزد شنوءة على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي ـ وقد كان يرقي من الريح، ولعل المراد به: اللمسة من الجن ـ، قال: فأتيته فقلت: يا محمد! إني أرقي من الريح؛ فإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال

---

(١) أورده ابن إسحاق في «سيرته» (٤/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ

وبعد خروجه عليه الصلاة والسلام من الشِّعب بقليل، وقبل الهجرة بثلاث سنين، توفيت خديجة بنتُ خُوَيلد زوجُه ـ رضي الله عنها ـ، كان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يذكرها، ويترحم عليها، ولا غرابة، فهي أول نفس زكية صدَّقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به عن ربه، . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»، فقال له ضماد: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وعلى قومك»، قال: وعلى قومي. اهـ[1].

وفاة خديجة ـ رضي الله عنها ـ

قوله: (وفاة خديجة): كانت وفاتها في رمضان سنة تسع أو عشر من النبوة، وكان عمرها خمساً وستين سنة، وأقام معها صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة، وبعد قليل كانت وفاة عمه أبي طالب، وحزن عليها وعلى عمه حزناَ شديداً حتى سمي: عامَ الحزن، وقالت له خولة بنت حكيم: يا رسول الله! كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ـ رضي الله عنها ـ، فقال: «أجل، أم العيال وربة البيت»[2]، ودفنت بالحَجُون، ونزل صلى الله عليه وسلم في حفرتها.

وفي «صحيح البخاري»: عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما غِرتُ على

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩)، والحديث المذكور رواه مسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٥٧) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب.

وقد جاء منها بأولاده كلهم ما عدا إبراهيم. فمنها: زينبُ، وهي أكبر بناته تزوجها في الجاهلية أبو العاص بن الربيع، وأعقبَ منها أمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، ومنها: رقيّة، وأُم كلثوم، تزوجهما عثمان؛ الأولى بمكة قبل الهجرة، وهاجر بها إلى الحبشة، والثانية بالمدينة بعد أَنْ ماتت أختها، ومنها: فاطمة، وهي أصغر بناته، تزوجها علي بن أبي طالب، وقد جاءت خديجة بأولاد توفّوا صغاراً، ولم يعش بعد رسول الله من أولاده إلّا فاطمة، عاشت بعده قليلاً.

ولما توفيت خديجة، حزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً؛ لما كانت عليه من الرقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاجزة الكفار عنه؛ لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد. ومنها: القاسم، وكان به يكنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وعبدالله الملقب بالطيب، والطاهر.

زواج سَوْدَة

وعقد عليه الصلاة والسلام في الشهر الذي ماتت فيه خديجة على سَوْدةَ بنتِ زَمْعَةَ العامريةِ القرشيةِ بعد أن توفي عنها زوجُها..........

أحد من نساء النبي صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يُقطِّعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة، فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد». اهـ[1].

زواج سودة

قوله: **(على سودة بنت زمعة)**: في الدحلانية: عن خولة بنت حكيم ـ وهي

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٨). ورواه مسلم (٢٤٣٥) بنحوه.

وابنُ عمها السكرانُ بنُ عمرو، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله، وخالفت أقاربها وبني عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوفَ الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فلم يكن ثم أجمل مما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم بزوج رجل آمن به، ولو تركت لقومها، مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام، لفتنوها، وكرمُ نسبِها في قومها يمنعها من التزوّج برجل أقلَّ منها نسباً وشرفاً[1].

زوجة عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ قالت: دخلتُ على سودة بنت زمعة، فقلت لها: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟! قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك عليه، قالت: وددت ذلك، ادخلي على أبي، فاذكري ذلك له، وكان شيخاً كبيراً باقياً على دين قومه، لم يسلم، قالت: فدخلت عليه، وحييته بتحية الجاهلية، فقال: من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم، قال: فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودةَ، قال: كفء كريم، فما تقول صاحبتك؟ قلت: تحب ذلك، قال: ادعيها إليّ، فدعوتها، قال: أي بنية! إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبين أن أزوجك منه؟ قالت: نعم، فقال لخولة: ادعيه لي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فزوجه إياها. اهـ[2].

قال الحلبي: وأصدقَها أربعَ مئةِ درهم[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٦٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢).

زواج عائشة ـ رضي الله عنها ـ

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشةَ بنتِ صديقه أبـي بكـر ـ رضـي الله عنه ـ، وهي لا تتجاوز السابعةَ من عمرها، ولم يتزوج عليه الصـلاة والسـلام بكراً غيرَها، ودخل عليها بالمدينة، أما سَودةُ، فدخل عليها بمكة.

زواج عائشة ـ رضي الله عنها ـ

قوله: (عقد على عائشة): قال الحلبي: ذهبت خولة إلى أم رومـان أم عائشـة، فقالت لها: ماذا أدخل الله عليكم مـن الخيـر والبركـة؟! قـد أرسـلني رسـول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتـى يـأتي، فجـاء أبو بكر، فقالت له: يا أبا بكر! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركـة؟! قـال: وما ذاك؟ قلت: قد أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشـة، قال: وهل تصلح له ـ أي: تحل له ـ، إنما هي بنت أخيه؟!

فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـذكرت لـه ذلـك، فقـال: ارجعي إليه فقولي له: «أنا أخوك، وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي»؛ أي: تحل، فرجعت فذكرت ذلك له، قالت أم رومان ـ رضي الله عنها ـ: إن مطعـم ابن عدي قد كان ذكرها على ابنه جبير، ووعده، ووالله! ما وعد وعداً قـط فأخلفـه؛ تعني: أبا بكر.

فدخل أبو بكر على مطعم، وعنده امرأته أم ابنه المذكور، فكلمت أبا بكر بما أوجب ذهاب ما كان في نفسه من عدته لمطعم؛ فإن المطعم لما قال له أبو بكر: ما تقول في أمر هذه الجارية؛ أقبل المطعم على امرأته، وقال لها: ما تقـولين يـا هـذه؟ فأقبلت على أبي بكر وقالت له: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم، تصـيبه، وتُدخلـه في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكر على المطعم، وقال له: ماذا تقول أنـت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع.

فقام أبو بكر، وليس في نفسه من الوعد شيء، فرجع فقال لخولة: ادعي

لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعته، فزوجه إياها. اهـ[1].

الحكمة في تعدد أزواجه صلى الله عليه وسلم

قال العلماء: لما كان الحر لفضله على العبد يستبيح من النسوة أكثر مما يستبيحه العبد، وجب أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة.

وحكى القرطبي في «تفسيره»: أنه أُحل لنبينا صلى الله عليه وسلم تسع وتسعون امرأة[2]، وفي ذلك فوائد:

(١) منها: نقل محاسنه الباطنة؛ فإنه صلى الله عليه وسلم مكمل الظاهر والباطن.

(٢) ومنها: نقل الشريعة التي لم يطلع عليها الرجال.

(٣) ومنها: تشريف القبائل بمصاهرته.

(٤) ومنها: شرح صدره بكثرتهن عما يقاسيه من أعدائه.

(٥) ومنها: زيادة التكليف في القيام بهن مع تحمل أعباء الرسالة، فيكون ذلك أعظم لمشاقه، وأكثر لأجره.

(٦) ومنها: أن النكاح في حقه عبادة، قالوا: وقد تزوج أم حبيبة، وأبوها في ذلك الوقت عدوُّه، وصفيةَ، وقد قتل أباها وعمها وزوجها، فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق؛ لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢١٠) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، ويحيى بن عبد الرحمن بن حاطب.

(٢) نقله السيوطي عنه في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٤٢٧).

وبعد وفاة خديجة بنحو شهر، توفي عمه أبو طالب، الذي كان يمنعه من أذى أعدائه، ومع أنه كان لا يُكَذِّب رسول الله فيما جاء به، بل يعتقد صدقه، لم ينطق بالشهادتين حتى آخر لحظة من حياته، وفيه نزل في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

آبائهن وقرابتهن.

وكان في كثرة النساء عنده بيان لمعجزاته وكماله باطناً كما عرفه الرجال منه ظاهراً صلى الله عليه وسلم. اهـ. من «الخصائص» للجلال السيوطي. طبع الهند[1].

قوله: (لم ينطق بالشهادتين. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقلُه، قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وفشا أمر محمد، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب يأخذ لنا على ابن أخيه ويعطه منا؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء ـ يعنون: القتلَ للنبي صلى الله عليه وسلم ـ، فتعيرنا العرب، يقولون: تركوه حتى إذا مات عمه، تناولوه.

فمشى إليه أشراف قريش، فأخبروه بما جاؤوا له، فبعث أبو طالب إليه صلى الله عليه وسلم، وقال له: يا بن أخي! هؤلاء أشراف قومِك، وقد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك، أعطِ سادات قومك ما سألوك؛ فقد أنصفوك: أن تكف عن شتم آلهتهم، ويدعوك وإلهَك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيتكم إن أعطيتكم ما سألتم، هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟» فقال أبو جهل: لنعطيكها وعشراً معها، فما هي؟ قال: «تقولوا: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه»، فصفقوا بأيديهم وقالوا: يا محمد! أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن أمرك لعجيب!.

---

(١) انظر: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٤٢٧).

وفي رواية قالوا: يسع لحاجاتنا جميعاً إله واحد، سلنا غير هذه الكلمة، وقال أبو طالب: يا بن أخي! هل من كلمة غير هذه الكلمة؛ فإن قومك قد كرهوها؟ قال: «يا عم! ما أنا بالذي يقول غيرها»، ثم قال: «لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرَها»، فقال لهم أبو طالب عند ذلك: والله يا بن أخي! ما رأيتك سألتهم شحَطاً ـ أي: أمراً بعيداً ـ، فلما قال ذلك، طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فجعل يقول: «أي عم! فأنت فقلها، أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة».

فلما رأى حرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: والله يا بن أخي! لولا مخافةُ السب عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت؛ لأقررتُ بها عينك؛ لما أرى من شدة وجدك، لكني أموت على ملة الأشياخ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦] الآية[1].

وقال الدحلاني قبل ذلك: وألف عليُّ بنُ حمزةَ البصريُّ الرافضيُّ جزءاً جمع فيه شعر أبي طالب، وقال: إنه كان مسلماً، وإنه مات على الإسلام، وإن الحشوية تزعم أنه مات كافراً، وأنهم بذلك يستجيزون لعنه، ثم بالغ في سبهم والرد عليهم.

قال الحافظ ابن حجر: قد أكثر في هذا الجزء من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب، ولا يثبت شيء من ذلك، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٣ ـ ٩٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٤٦)، كلاهما عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٤٩٦، ٧/ ١٩٥).

ولكن لأعماله العظيمة التي عملها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نرجو أن يُخفف عنه، وعدمُ إسلامه هو وغالب أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم فيه من الحكمة ما لا يخفى؛ فإنهم لو بادروا باتباعه، لقيل: قوم يطلبون سيادة وفخراً ليسا لهم، فجاؤوا بهذا الأمر المفترى، ولكن لما رأى المعاندون أن متبعيه هم الغرباء عنه، الذين ليسوا من عشيرته، بل من أعدائها أحياناً؛ كعثمان بن عفان من بني أمية، لم يكن عندهم أدنى حجة يقيمونها، اللهم! إلا دعاويهم الكذابة التي كانوا يتمسكون بها حين تصدَعُهم الحجة من قولهم: ساحر يُفرِّق بين المرء وزوجه، وكاهن يتكهن بالغيب.

والحاصل: أن مذهب أهل السنة من المذاهب الأربعة عدمُ إسلامه وانقياده على حسب ما نطق به القرآن، وجاءت به السنة، وإن كان عنده تصديق قلبيّ بنبوته؛ فإن ذلك غيرُ نافع بدون انقياد ظاهري، وأطال الكلام في أخباره وأحاديث إسلامه[1].

قوله: (نرجو أن يخفف عنه): في صحيح البخاري ومسلم: عن العباس ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك، ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته في غمرات النار، فأخرجته إلى ضحضاح». اهـ. دحلاني[2].

والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض.

قوله: (وعدم إسلامه...) إلخ: في «السيرة الحلبية» نقلاً عن «الهدي»: وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاؤه على دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٠ ـ ٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٩٢)، والحديث رواه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩).

وقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العام الـذي فقـد فيـه زوجَه وعمَّه: عامَ الحزن.

ولما مات أبو طالب، نالت قريش من رسول الله ما لم يمكنهـا نيلُـه في حياة أبي طالب، واشتد الأمر عليه، حتى كانوا ينثرون التراب على رأسـه وهو سائر، ويضعون أوساخ الشاة عليه في صلاته، وتعلقت به كفـار قـريش مرة يتجاذبونه ويقولون له: ....

التي تبدو لمن تأملها[1].

وكذلك أقرباؤه وبنو عمه، تأخر إسلام من أسلم منهم، ولـو أسـلم أبـو طالب، وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به، لقيل: قـوم أرادوا الفخـر برجـل منهم، وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد، وقاتلوا على حبه من كان منهم، حتى إن الشخص منهم يقتل أباه وأخاه؛ عُلم أن ذلك إنمـا هـو عـن بصـيرة صـادقة، ويقين ثابت. اهـ[2].

قوله: (حتى كانوا ينثرون التراب علـى رأسـه): فـي الحلبيـة: أن بعـض سفهاء قريش نثر على رأس النبي صلى الله عليه وسلم التراب بعد موت أبي طالـب، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه، فقامت إليـه بعـض بناتـه، وجعلـت تزيلـه عن رأسـه وتبكي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول لهـا: «لا تبكي، لا تبكي يا بنية؛ فإن الله تعالى مانعٌ أباك». اهـ[3].

قوله: (نالـت قريـش من رسول الله...) إلخ: قـال في الحلبيـة: كـان

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٥٠)، والحـديث المـذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٠) من حديث عبـدالله بـن جعفـر ـ رضـي الله عنهما ـ.

أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ فما تقدم أحد من المسلمين حتى يخلصه منهم؛ لما هم عليه من الضعف، إلا أبو بكر، فإنه تقدم، وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[غافر: ٢٨][1].

صلى الله عليه وسلم يقول: «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه ـ أي: أشدَّ الكراهة ـ حتى مات أبو طالب»[2]، ولما رأى قريشاً تهجموا عليه قال: «يا عم! ما أسرع ما وجدتُ فقدَكَ!»[3].

ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام أبو لهب بنصرته أياماً، وقال له: يا محمد! امض لما أردتَ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حيّاً فاصنعه، لا واللات والعزى! لا يوصَل إليك حتى أموت.

واتفق أن ابن العيطلة ـ وهو أحد المستهزئين ـ سب النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليه أبو لهب، ونال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش! صبأ أبو عتبة، فأقبلت قريش على أبي لهب، وقالوا له: فارقتَ دين عبد المطلب؟ قال: ما فارقت، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل وعقبة بن أبي مُعيط إلى أبي لهب، فقالا له: أخبرك ابنُ أخيك أين مدخل أبيك؟

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٠) من حديث عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٨١٨) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٥): ابن سعيد الرازي؛ قال الدارقطني: ليس بذاك، وعيسى بن عبد السلام لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

هجرة الطائف

فلما رأى عليه الصلاة والسلام استهانة قريش به، أراد أن يتوجه إلى ثقيف بالطائف، يرجو منهم نُصرته على قومه، ومساعدته حتى يتمّم أمر ربه؛ لأنهم أقرب الناس إلى مكة، وله فيهم خؤولة؛ فإن أم هاشم بن عبد مناف عاتكةَ السلميةَ من بني سُلَيم بن منصور، وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم، ومعه مولاه زيد بنُ حارثة، قابل رؤساءهم، وكانوا ثلاثةً: . . . .

يزعم أنه في النار، فقال له أبو لهب: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار»، فقال أبو لهب: لا برحت لك عدوًّا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتد عليه هو وسائر قريش. اهـ[1].

هجرة الطائف

قوله: **(هجرة الطائف)**: كان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف سنة عشر من النبوة، ومن ثم ـ أي: من أجل أنه خرج إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره ـ جعل الله الطائف مستأنساً لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة، فهي راحة الأمة، وتنفس كل ذي ضيق وغمه. اهـ. دحلاني[2].

قوله: **(سُلَيم بن منصور)** ـ بالتصغير ـ، وهو أبو قبيلة من قيس عيلان.

قوله: **(ومعه مولاه زيد بن حارثة)**، وقيل: لم يكن معه، بل كان وحده.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠ ـ ٥١)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢١٠ ـ ٢١١) عن حكيم بن حزام، وعبدالله ابن ثعلبة بن صُعَير ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٠).

عبد ياليْل، ومسعود وحَبيب أولاد عمرِو بنِ عميرٍ الثقفيّ، فعرض عليهم نصرته حتى يؤدي دعوته، فردّوا عليه ردًّا قبيحاً، ولم يرَ منهم خيراً، وحينذاك طلب منهم أن لا يُشيعوا ذلك عنه؛ كيلا تعلم قريش، فيشتدّ أذاهم؛ لأنه استعان عليهم بأعدائهم، فلم تفعل ثقيف ما رجاه منهم عليه الصلاة والسلام، بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون في وجهه في الطريق، ويرمونه بالحجارة، . . . .

قوله: (عبد ياليلَ): في «القاموس»: ياليل كـ(هابيل): رجل وصنم[1].

وقال في (مادة: ك ل ل): عبد يا ليل بن عبد كُلال؛ كـ(غراب)، عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه عليه، فلم يجبه إلى ما أراد. اهـ[2].

قال الحلبي: واسمه: كنانة، لم يُعرَف له إسلام، وأخوه مسعود، وهو عبد كلال، لم يعرف له إسلام أيضاً، وأما حبيب، ففي صحبته نظر[3].

قوله: (فردوا عليه ردًّا قبيحاً): قال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة ـ أي يقطعها وينتفها ـ إن كان الله أرسلك، وقال آخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟! وقال له الثالث: والله! لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولَ الله كما تقول، لأنت أعظمُ خطراً ـ أي: قدراً ـ من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي ليّ أن أكلمك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد أيس من خير ثقيف، وقال لهم: «اكتموا عليّ»، وكره صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومَه ذلك، فيشتد أمرُهم عليه. اهـ[4].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: يلل).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كلل).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢).

(٤) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٦٧) ـ عن محمد بن كعب القرظي.

حتى أَدْمَوا عَقِبه، وكان زيد بن حارثة يدرأ عنه إلى أن انتهى إلى شجرة كرْم، واستظلّ بها، وكانت بجوار بستان لعُتبة وشَيبة ابنَي ربيعة، وهما من أعدائه، وكانا في البستان، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهما، فدعا اللهَ قائلاً: «اللهمّ إني أشكو إليكَ ضعفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهَواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، . . .

قوله: (وكان زيد بن حارثة. . .) إلخ؛ أي: بناءً على أنه كان معه صلى الله عليه وسلم. اهـ. حلبي[1].

قوله: (وكانت بجوار بستان): عبارة الحلبي: فلما خلص منهم، ورجلاه تسيلان دماً، عمد إلى حائط من حوائطهم ـ أي: بستان من بساتينهم ـ، فاستظل في حَبَلَة ـ بفتح الباء ـ: شجرة كرم[2].

وهي تفيد أن الشجرة كانت داخل البستان، لا بجواره كما تفيده عبارة المؤلف.

قوله: (كره مكانهما)؛ أي: رؤيتهما.

قال الحلبي: لِما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله[3].

قوله: (اللهم إني أشكو إليك. . .) إلخ: في السيرة الدحلانية: يروى أنه صلى الله عليه وسلم لما تخلص من ثقيف، واطمأن في ظل الحبَلة، دعا بالدعاء المشهور بدعاء الطائف، وهو: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني؟! إلى عدو بعيد يتجهمني، أم إلى صديق قريب

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣).

إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، [ولكن عافيتك هي أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبَك، أو يحلَّ عليَّ سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»](1).

فلما رآه ابنا ربيعة، رَقَّا له وأرسلا إليه بِقِطْفٍ من العنب مع مولًى لهما نصراني اسمُه: . . . .

ملكته أمري؟! إن لم تكن غضباناً عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبُك، أو يحل عليَّ سخطُك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»، رواه الطبراني في كتاب «الدعاء» عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب. اهـ(2).

وقوله: (يتجهمني)؛ أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

و(العتبى): الرجوع عن الذنوب.

قوله: (رقا له): عبارة الحلبي: ولما رأيا ما لقي من سفهاء أهل الطائف، تحركت له رحمُهما(3).

وهي أولى من عبارة المؤلف؛ لبيانها سببَ الرقة.

قوله: (قِطْف): ـ بكسر القاف وسكون الطاء ـ.

---

(1) ما بين معكوفتين من «نور اليقين» (ط: دار الإيمان).

(2) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (1/ 272 ـ 273)، والحديث رواه الطبراني في «الدعاء» (1036) من حديث عبدالله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ.

(3) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (2/ 53).

عَدَّاس. فلما ابتدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال عَدَّاس: هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟»، فقال: نصراني من نِيْنَوى، فقال له عليه الصلاة والسلام: «من قرية الرجل الصالح يُونُسَ بنِ متَّى؟» قال: وما علمُك بيونس؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس، فلما سمع ذلك عداس، أسلم.

وقوله: (عداس)[١]: ـ بتشديد الدال؛ كـ (شداد) ـ كما في «القاموس»[٢].

قوله: (وما علمك بيونس): تتمة العبارة كما في الحلبي: فإني ـ والله ـ لقد خرجت منها ـ يعني: نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما متَّى، فمن أين عرفت ابن متى وأنت أمِّي، وفي أمة أمِّيَّة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيٌّ أميٌّ»[٣]، وفي رواية: «أنا رسول الله، واللهُ أخبرني خبره، وما وقع له مع قومه». اهـ[٤].

قوله: (أسلم): قال الدحلاني: لما سمع عداس ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، أكبَّ على يديه ورأسه ورجليه يقبلها، وأسلم ـ رضي الله عنه ـ، وفي رواية أنه قال: أشهدُ أنك عبدالله ورسوله، ونظر إليه ابنا ربيعة، فقال أحدهما للآخر: أما غلامُك، فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك! ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي! ما في الأرض شيء خير من هذا، فقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك

---

(١) في النسختين: «كعداس».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عدس).

(٣) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» لابن الأثير (٤/ ٦) عن محمد بن كعب القرظي، دون لفظ: «أمي».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٤).

وأتى جبريل برسالة من الله جلّ ذكره، وقال: إن الله أمرني أن أطيعك في قومك لِما صنعوه معك، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»، فقال جبريل: صدقَ من سمّاك: الرؤوف الرحيم[1].

ولما كان بنَخْلَة، وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن، وهم ممّن ينتمون إلى موسى صلواتُ الله عليه، فلما سمعوه، أنصتوا له، ورجعوا إلى قومهم منذرين، وأبلغوهم خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم نزل في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ . . . .

يا عداس! لا يصرفك عن دينك؛ فإنه خير من دينه[2].

قوله: (اللهم اهد قومي. . .) إلخ: الذي في الحلبي: «أرجو أن يخرج الله تعالى ـ وفي رواية: أستأني فيهم لعل الله أن يخرج ـ من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً»[3].

قوله: (بنخلة): هو محل بين مكة والطائف.

قوله: (﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾)؛ أي: أَمَلْنا إليك.

قوله: (﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾): النفر: ما دون العشرة، وجمعه أنفار، وهم من جن نصيبين بلد بالجزيرة، قيل: كان عددهم سبعة، وقيل: تسعة، وقيل: إنهم كانوا من اليهود فأسلموا.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٥٧ ـ ١٦١)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨)، والحديث المذكور رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، أما رواية: «أستأني بهم. . .»، فأوردها ابن كثير في «السيرة النبوية» (٣/ ٦٦٦).

﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ . . . .

وقد كان سماعهم منه حينما كان يصلي في جوف الليل، وبقي صلى الله عليه وسلم يقرأ عليهم إلى الفجر[١].

قال أبو البقاء في «الكليات»: حدُّ الجن أنه حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة، وجمهورُ أرباب الملل المصدقين بالأنبياء قد اعترفوا بوجوده، واعترف به جمع من قدماء الفلاسفة[٢].

وفي «المواقف»: إنها تقدر أن تلج في بواطن الحيوانات، وتنفذ في منافذها الضيقة نفوذَ الهواء المستنشَق. اهـ. ملخصاً[٣].

وفي «الرسالة الحميدية»: وبعد النظر في أعمال الرياح التي تقلع الأشجار العظيمة، وأعمال قوة الكهربائية التي تجر الأثقال التي تعجز عنها ألوف الرجال، فلا غرابة في أعمال الملائكة والجن، لا سيما أن الذي يقدرهم [على ذلك][٤] هو الله تعالى الذي لا يعد ذلك بالنسبة إلى عظمة قدرته شيئاً صعباً، والله تعالى قادر على إعطاء اللطيف قوة في الصلب الكثيف. اهـ. ملخصاً[٥].

وفي الرسالة المذكورة كلام نفيس على الملائكة والجن، فارجع إليه إن أردت المزيد.

قوله: (﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾)؛ يعني: الكتب الإلهية.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ص: ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٣) انظر: «المواقف» للإيجي (٢/ ٦٩٩).

(٤) ما بين معكوفتين من «الرسالة الحميدية».

(٥) انظر: «الرسالة الحميدية» لحسين الجسر (ص: ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

وقد قصّ الله قصة الجن بعبارة أطول في سورة سميت باسمهم أولها: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢][1].

الاحتماء بالمُطْعِمِ بن عَدِي

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من الطائف هكذا، . . . .

وقوله: (﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾): هو محمد صلى الله عليه وسلم.

وقوله: (﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾)؛ أي: لا ينجيه منه مهرب.

(﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾) يمنعونه منه.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾)؛ حيث أعرضوا عن إجابة مَنْ هذا شأنُه. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (﴿عَجَبًا﴾)؛ أي: بديعاً مبايناً لكلام الناس في حسن نظمه، ورقة معناه.

وقوله: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾) على ما نطقت به الدلائل القاطعة على التوحيد[3].

الاحتماء بالمطعم بن عدي

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٦٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩ ـ ٦١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٨٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٩٧).

لم يتمكن من دخوله مكة؛ لما علمه كفار قريش من أنه توجه إلى الطائف يستنصرُ بأهليها عليهم، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى المُطْعِم بن عديٍّ بنِ نوفلِ بنِ عبد مناف يخبره أنه سيدخل مكة في جواره، فأجاب إلى ذلك، وتسلح هو وبنوه، وتوجهوا مع رسول الله إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أَمُجِيرٌ أنت أم تابع؟ فقال: بل مجير، قالوا: إذاً لا تُخْفَرُ ذِمَّتُكَ[1].

وفد دَوْس

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة الطُّفَيْلُ......

قوله: (فأرسل عليه السلام إلى المطعم بن عدي): أرسل عليه السلام قبل ذلك إلى الأخنس بن شريق الثقفي، ثم إلى سهيل بن عمرو العامري، فاعتذرا، ولم يجيراه.

قال في الدحلانية: ولهذا المعروف الذي فعله المطعمُ بن عدي قال صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر: «لو كان المطعم حيّاً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتُهم له»، وأسلم جبير بن المطعم بين الحديبية وفتح مكة، ومات المطعم قبل وقعة بدر، وله تسعون سنة، ورثاه حسان بن ثابت بقصيدة منها:

فلو كان مجدٌ يخلد الدهرَ واحداً ... من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مطعِما[2]

قوله: (فقال له بعض المشركين): هو أبو سفيان.

وفد دوس

قوله: (وقدم على رسول الله وهو بمكة الطفيلُ...) إلخ: قال الدحلاني:

---

(١) أورده الطبري في «تاريخه» (١/ ٥٥٥) بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١ ـ ٦٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٤). وانظر: «ديوان حسان ابن ثابت» (ص: ٢٦٠).

ابنُ عمرٍو الدَّوسيُّ، من قبيلة دَوْس، عشيرةِ أبي هريرةَ الصحابيِّ الشهير، وكان الطفيل شريفاً في قومه، شاعراً نبيلاً، فلما قرأ عليه القرآن، أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب إلى قومك فادعُهم إلى الإسلام»، . . . .

لما قدم مكة، مشى إليه رجال من قريش، فقالوا: يا أبا الطفيل ـ كنوه باسمه تعظيماً له ـ إنك قد قدمت بلادنا، وهذا الرجل بين أظهُرنا، وقد أعضل أمره بنا ـ أي: اشتد ـ ، وفرق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمع منه.

قال الطفيل: فوالله! ما زالوا بي حتى أَجمعتُ على أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً ـ أي: قطناً ـ ؛ فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله، فغدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن أسمع بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: أنا ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أعلم من هذا الرجل ما يقول؟!

فمكثتُ حتى انصرف إلى بيته، فقلت: يا محمد! اعرض عليّ أمرك، فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، فلما سمعه قال: والله! ما سمعت قط قولاً أحسنَ من هذا، ولا أمراً أعدلَ منه، فأسلمتُ[1].

قوله: (فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذهب إلى قومك فادعهم إلى الإسلام. . .») إلخ: العبارة في الدحلاني والحلبي تفيد أنه الطالب لذلك، ونصّ عبارة الدحلاني: قلت: يا نبي الله! إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يكون عوناً عليهم، فقال: «اللهم اجعل

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٥).

ودعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهمّ اهدِ دَوْساً»، فتوجه إليهم الطفيلُ، ودعاهم، فآمن بدعوته كثير منهم.

وستأتي وِفَادَتُهُ على الرسول صلى الله عليه وسلم مرة ثانية بقومه في المدينة[1].

له آية»، قال: فخرجت حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر ـ هم الحاضرون المقيمون على الماء لا يرحلون عنه ـ وكان ذلك في ليلة مظلمة، وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: في غير وجهي؛ فإني أخشى أن يظنوا أنه مُثلة، فتحول في رأس سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور كالقنديل المعلوم[2].

قوله: (ودعا لهم رسول الله. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أتى قومَه دعا أباه وزوجه إلى الإسلام فأجابوا، قال: ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطؤوا عليَّ، ثم جئت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله! قد غلبتني دوس، قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: «اللهم اهد دوساً وأتِ بهم»[3]، قال: فرجعت، فلم أزل بأرض قومي أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، فأسلموا، فقدمت بمن أسلم من قومي عليه وهو بخيبر مع سبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ومنهم أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، فأسهم لنا مع المسلمين[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٥٨٦ ـ ٥٨٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩ ـ ٧٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦). وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٦). وخبر الطفيل ـ رضي الله عنه ـ رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨).

الإسراء والمعراج

وقبل الهجرة أكرمه الله بالإسراء والمعراج، أما الإسراء، فهو توجهه ليلاً إلى بيت المقدس بإيلياء، ورجوعُه من ليلته، وأما المعراج، فهو صعوده إلى العالم العلوي، وقد قال جمهور أهل السنّة: إن ذلك كان بجسمه الشريف.

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تمنع رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّه، وتقول: من قال: إن محمداً رأى ربه، فقد أعظمَ الفِريةَ على الله[1].

والإسراء مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى في أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا . . . .

الإسراء والمعراج

قوله: (أما الإسراء): كان الإسراء سنة إحدى عشرة من البعثة، وقيل: قبل الهجرة بسنة، وقيل: في شهر ربيع الأول، وقيل: في رمضان، وقيل: في شهر رجب، وهو المشهور، وعليه عملُ الناس، وكان ليلة الاثنين كبقية أطواره صلى الله عليه وسلم من الولادة والهجرة والوفاة. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فقد أعظم الفرية): أجيب بأنه لا يصلح للاحتجاج؛ إذ لم تحدث به عن مشاهدة؛ إذ لم تكن وقت المعراج زوجة، ولا في سن الضبط، بل لعلها لم تولد بعد بناءً على ما قيل: إن المعراج كان قبل البعثة.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٦٨) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٧٧).

﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١][1].

وأما المعراج، فقد ورد في صحيح السنّة، وأصحُّ أحاديثه ما رواه الشيخان، ونقله القاضي عياض في «شفائه» عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُتيتُ بالبُراق، وهو دابّة فوق الحمار ودونَ البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفه»، قال: «فركبته حتى أتيتُ بيتَ المقدس، فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

قوله تعالى: (﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾) ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي، ومتعبَّد الأنبياء من لَدُنْ موسى عليه السلام، ومحفوفٌ بالأنهار والأشجار.

(﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾)؛ كذهابه في برهة من الليل مسيرةَ شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له، ووقوفه على مقاماتهم[2].

قوله: (أتيت البراق): قيل: سمي به؛ لشدة صفائه وتلألئه وبريقه، وقيل: لكونه أبيض.

وقال القاضي عياض: يحتمل أنه سمي بذلك؛ لكونه ذا لونين، يقال: شاة بَرْقاء: إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقاتٌ سود. اهـ. نووي[3].

قوله: (التي تربط بها الأنبياء): قال النووي: في ربط البراق الأخذُ

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٤٩٣)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٣١).

(٣) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٢١٠ ـ ٢١١). وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (١/ ٤٩٩).

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابنَيِ الخالة يحيى وعيسى ابنِ مريم، فرحبا بي، ودَعَوَا لي بخير.

ثم عُرَج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففتح لنا، وإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[مريم ٥٧].

ثم عُرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عُرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.

بالاحتياط في الأمور، وتعاطي الأسباب، وذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى[1].

---

(١) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٢١١).

ثمَّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقُها كآذان الفِيَلَة، وإذا ثمرُها كالقلال، فلما غشيها من أمر ربي ما غشيها، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

فنزلت إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم»، قال: «فرجعت إلى ربي وقلت له: يا ربي! خفف عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى، فقلت: حطَّ عني خمسة، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فسله التخفيف»، قال: «فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال سبحانه: يا محمد! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشراً، . . . .

قوله: (ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة): (هم)؛ أي: قصد الفعل راجحاً، فبالأولى العزم الذي فيه الحزم، ثم إن اطلاع الكرام الكاتبين على الهم والعزم يكون بطريق الكشف، أو بإعلام من الله، أو بريح تظهر من القلب طيبة للحسن، وخبيثة للخبيث، وإنما كتب الهم حسنة؛ لأنه سبب لعمل الخير، وسببُ الخير خير.

والهم بالسيئة، وإن كان شرًّا، فإنه يدفع بكف النفس، وهو حسنة، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود: ١١٤]. اهـ. «شرح الأربعين النووية».

قوله: (كتبت له عشراً)؛ لأنه أخرجها من الهم إلى العمل، فكتبت له بها حسنة، ثم ضوعفت فصارت عشراً، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وهذا أقل ما وعد به من التضعيف، وقد تضاعف إلى سبع مئة

ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، ومن همَّ بسيئة فعملها، كتبت له سيئة واحدة». قال: «فنزلتُ حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[1].

ثم رجع عليه الصلاة والسلام من ليلته، فلما أصبح، غدا إلى نادي قريش، فجاء إليه أبو جهل بنُ هشام، فحدَّثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى له، فقال أبو جهل: يا بني كعب بن لؤي! هلمّوا، فأقبل عليه كفار قريش، فأخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر، فصاروا بين مصفق، وواضعٍ يدَه على رأسه تعجباً وإنكاراً، وارتدَّ ناس ممن كان آمن به من ضعاف القلوب، وسعى رجال إلى أبي بكر، فقال: إن كان قال ذلك، لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟! قال: إني لأصدقُه على أبعدَ من ذلك، فسُمِّي من ذلك اليوم: صدِّيقاً.

ثم قام الكفار يمتحنون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه نَعْتَ بيت المقدس، وفيهم رجال رأوه، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلم يكن رآه قبل ذلك، فجلاَّه الله له، فصار يصفه لهم باباً باباً، . . . .

ضعف، إلى أضعاف كثيرة كما ورد في الحديث.

قوله: (فلم يعملها)؛ أي: خوفاً من الله، وأما لتعطيل أسبابها، فلا يكتب له ولا عليه شيء. اهـ. منه.

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٧) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ. ورواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٥٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

وموضعاً موضعاً، فقالوا: أما النعت، فقد أصاب، فأخبِرْنا عن عيرنا، وكانت لهم عير قادمة من الشام، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: «تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس، يَقدُمها جمل أورقُ»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه ـ والله ـ الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه ـ والله ـ العيرُ قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، فلم يزدهم ذلك إلا كبراً وعناداً، حتى قالوا: هذا سحر مبين[(١)].

قوله: (تقدم) هو ـ بفتح الدال ـ.

وقوله: (يقدُمها) هو ـ بضمها ـ؛ أي: يتقدمها.

وقوله: (أورق): الأَوْرَق من الإبل: ما في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً، لا سيراً وعملاً. اهـ. قاموس[(٢)].

*** تتمة لهذا البحث:**

إن آية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ . . .﴾ إلخ، والأحاديث الصحيحة تدل على أن المعراج كان في اليقظة بالجسد، أما دلالة الأحاديث، فالحديث المذكور هنا في غاية الظهور.

وأما دلالة الآية، فلأن لفظ العبد يطلق على مجموع الجسد والروح، وقال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٠]، وقال أيضاً في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، ولا شك أن المراد في الموضعين من العبد: مجموعُ الروح والجسد، فكذا المراد بالعبد هنا.

ولأن الكفار استبعدوا هذا المعراج وأنكروه، وارتد بسماعه ضعفاء

---

(١) رواه أبو يعلى في «معجمه» (١٠) من حديث أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ورق).

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل، وعلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيفية الصلاة وأوقاتها، فيصلي ركعتين إذا ظهر الفجر، وأربع ركعات إذا زالت الشمس، ومثلها إذا ضوعف ظل الشيء، وثلاثاً إذا غربت، وأربعاً إذا غاب الشفق الأحمر. وكان عليه الصلاة والسلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً، ومثلهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام[1].

المسلمين، وافتتنوا به، فلو لم يكن المعراج بالجسد وفي اليقظة، لما كان سبباً لاستبعاد الكفار وإنكارهم، وارتداد ضعفاء المسلمين؛ إذ مثلُ هذا في المنامات لا يعد من المحال، ولا يستبعد ولا ينكر، ألا ترى أن أحداً لو ادعى أنه سار في نومه مرة في المشرق، ومرة في المغرب، وهو لم يتحول عن مكانه، ولم تتبدل حاله، لم ينكره أحد، ولم يستبعد؟

ولا استحالة فيه عقلاً ونقلاً. أما عقلاً، فلأن الخالق العالم القادر على كل الممكنات، وحصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن، فوجب كونه تعالى قادراً عليه، وغايةُ ما في الباب أنه خلاف العادة، والمعجزات كلها تكون كذلك.

وأما نقلاً، فلأن صعود الجسم العنصري إلى الأفلاك ليس بممتنع عند أهل الكتاب؛ فإن المسيحيين مسلِّمون بعروج عيسى إلى السماء، وأنه دخل بجسده في ملكوت السماء. اهـ. «إظهار الحق»، وتتمته فيه[2].

ثم إن قطع المسافات الطويلة في وقت يسير من الأمور الممكنة، وقد حصل ذلك معجزةً لسليمان عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ: ١٢].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ١٨٨).

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٤/ ١٠٢٣).

قال البيضاوي في تفسير آية الإسراء: ثبت في الهندسة: أن ما بين طرفَي قرص الشمس ضعفُ ما بين طرفي كرة الأرض مئة ونيفاً وستين مرة، ثم طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى في أقل من ثانية، وقد برهن في الكلام أن الأجسام متساوية في قبول الأعراض، وأن الله قادر على كل الممكنات، فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة في بدن النبي صلى الله عليه وسلم، أو فيما يحمله، والتعجب من لوازم المعجزات. اهـ[1].

وفيما نشاهده من سير القطار ذلك السير السريع بواسطة البخار، وصعود الطيارات وسيرها في الفضاء، وقطعها المسافات البعيدة بوقت قريب دليلٌ ناصع على إمكان المعراج وحصوله، مع أن هذه الأشياء من صنع عبد مخلوق، وأين ذلك من قدرة الإله الخالق القادر على كل شيء، والذي لا يعجزه شيء.

وفي «شرح العقائد النسفية»: إن ادعاء استحالة المعراج إنما يبتنى على أصول الفلاسفة، وإلا فالخرقُ والالتئام على السماوات جائز، والأجسام متماثلة، يصح على كلٍّ ما صح على الآخر، والله قادر على الممكنات كلها. اهـ[2].

أقول: ويجاب عما يورده علماء الطبيعة من أن الجسم الإنساني إنما يمكنه الصعود مسافة مخصوصة، وقد قدروها بنحو سبع كيلو مترات، وبعد ذلك لا يمكنه الصعود، بل يموت إما من كثرة الهواء، أو من شدة حرارته.

بأنكم قد اكتشفتم على أشياء إذا تناولها أو استعملها الإنسان يمكنه أن يقاوم الحر العظيم، والبردَ الشديد؛ كما يفعله الذاهبون إلى استكشاف القطب الشمالي أو الجنوبي، وبهذه الواسطة قد تمكن هؤلاء من الوصول إلى الدرجة الخامسة والثمانين أو أزيدَ من خطوط الطول، والله تعالى قادر أن يجعل في

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٣١).

(٢) انظر: «شرح العقيدة النسفية» للتفتازاني (ص: ١١٠).

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يجد من قريش مَنَعَةً من تأدية الرسالة، وتَسَلُّطَ الكبر والعظمة على قلوبهم، أراد الله أن يُظهر أمرَ الدين على أيدي غيرهم من العرب، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج في المواسم العربية ـ وهي أسواق كانت العرب تعقدها للتجارة والمفاخرة ـ ويعرض نفسه على القبائل ليحموه حتى يؤدي رسالة ربه، . . . .

جسمه صلى الله عليه وسلم خاصية تقاوم ما هناك من الحرارة والبرودة، وحينئذ يتمكن من الصعود إلى مسافة بعيدة لا يعلم منتهاها، ولا يدرَك مداها. والله الهادي إلى سواء السبيل.

العرض على القبائل

قوله: (فكان صلى الله عليه وسلم يخرج في المواسم العربية):

قال في الدحلانية: أخفى صلى الله عليه وسلم رسالته في أول أمره بأمر من الله تعالى، ثم أعلن بها في السنة الرابعة من النبوة، ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافي المواسمَ كلَّ عام، يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف، يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة، ويسأل عن منازلهم، ويأتي إليهم في أسواق المواسم، وهي: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز[1].

قال الحلبي: وكانت العرب إذا أتت للحج، تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مَجَنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج[2].

قوله: (ليحموه): قال في الدحلانية نقلاً عن الهشامية: عن بعضهم قال:

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٣).

فكان بعضهم يردُّ ردًّا جميلاً، وآخرون ردًّا قبيحاً. وكان من أقبح القبائل ردًّا: بنو حنيفةَ رهطُ مُسَيْلِمَة الكذاب، وطلب منه بنو عامر. . . . .

إني غلام شاب مع أبي بمنى، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقف في منازل القبائل من العرب فيقول: «يا بني فلان! إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنبئ عن الله ما بعثني به»، وخلفَه رجل أحولُ له غديرتان عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، قال ذلك الرجل: يا بني فلان! إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، فقلت لأبي: من هذا الرجل الذي يتبعه يرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ـ يعني: أبا لهب ـ. اهـ[1].

قوله: (وآخرون ردًّا قبيحاً):

روى الواقدي: أنه صلى الله عليه وسلم أتى بني عبس، وبني سليم، وبني محارب، وبني فزارة، ومرة، وبني النضر، وعذرة، والحضارمة، فردوا عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد، وقالوا: أسرتك وعشيرتك أعلمُ بك حيث لم يتبعوك. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (وطلب منه بنو عامر. . .) إلخ: قال في الدحلانية: قال له رجل

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٠)، والحديث المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد الديلي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٦٠) من طريق الواقدي عن عاصم بن عمر ابن قتادة، ويزيد بن رومان، وغيرهما.

ـ إنْ هم آمنوا به ـ أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده، فقال لهم: «الأمرُ لله يضعه حيث يشاء»[1].

وكان من الذين يحجّون البيت عربُ يثربَ، وهي مدينة بين مكة والشام يقطنها قبيلتان: إحداهما من ولد الأوس، والثانية من ولد الخزرج، وهما أَخَوان، وكان بين أولادهما من العداوة ما يجعل الحرب لا تضع أوزارها بين الفريقين، فكانوا دائماً في شقاق ونزاع، وكان يجاورهم في المدينة أقوام من اليهود، ....

منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظفرك الله على مَنْ خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: فقال له: أنقاتل العرب دونك؟ وفي رواية: أنهدف نحورنا للعرب دونك؟ أي: نجعل نحورنا هدفاً لنبلهم، فإذا أظفرك الله، كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، وأبوا عليه، وتمامه فيها[2].

قوله: (عرب يثرب): قال في «المصباح»: ثَرَبَ عليه يثرِب، من باب ضرب: عَتَبَ ولامَ، وبالمضارع بياء الغائب سمِّي رجل من العمالقة، وهو الذي بنى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، فسميت المدينة باسمه. قاله السهيلي. اهـ[3].

قوله: (لا تضع أوزارها): كناية عن الانقضاء، والمعنى: حتى يضع أهل الحرب أثقالهم، فأسند الفعل إلى الحرب مجازاً. اهـ. مصباح[4].

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٢) ـ عن الزهري، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٣)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٢) ـ عن الزهري.

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: ثرب).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: وزر).

وهم : بنو قَينُقاع، وبنو قُرَيظة، وبنو النَّضيرِ، وكان لهـم الغَلَبـة علـى يثـربَ أولاً، فحاربهم العرب حتى صاروا ذوي النفوذ فيها والقوة، وكـان اليهـود إذا خذلوا، يستفتحون على أعدائهم باسم نبيّ يُبعَث قد قرب زمانُه.

ولما اختلفت كلمة العرب فيما بينهم، وشُقَّت عصا الألفة، . . . . .

قوله : (قينقاع . . .) إلخ : ـ بفتح القاف وتثليث النون ـ: شعب من اليهود كانوا بالمدينة.

و(قُرَيظة)؛ كـ (جُهَينة): قبيلة من يهود خيبر.

و(النَّضِـير): على وزن أَمير: حيّ من يهود خيبـر، والنسـبة نَضَـريّ. اهـ. قاموس[1].

وفي تاريخ المدينة المسمى بـ «وفاء الوفا» للعلامة السمهودي فصل طويل في سبب نزول اليهود بالمدينة، وذكر في ذلك أقوالاً متعددة، منها: ما روي عن بعض أهل السير عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بلغني أن بني إسرائيل لمـا أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر عليهم، وفرقتهم وذلتهم، تفرقوا، وكـانوا يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم منعوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هـذه القرى العربية في قرية ذات نخل، ولما خرجوا من أرض الشام، كـانوا يعبـرون كـل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب، فينزل بها طائفة منهم، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه، حتى نزل من بنـي هـارون ممـن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمـد صـلى الله عليه وسلم أنه جاءٍ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء، فأدركه من أدركـه مـن أبنائهم، فكفروا به وهم يعرفونه حسداً من الأنصار، فسبقوهم إليه[2].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نضر).

(٢) انظر: «وفاء الوفا» للسمهودي (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، والخبر المذكور رواه ابن عسـاكر في «تاريخ دمشق» (٣/ ٤١٦).

حالفوا اليهود على أنفسهم، فحالف الأوس بني قريظة، وحالف الخزرج بني النضير وبني قينقاع، وآخر الأيام بينهم يومُ بُعاث، قُتل فيه أكثر رؤسائهم، ولم يبق إلا عبدُالله بنُ أُبَيّ ابنُ سلولَ من الخزرج، وأبو عامرٍ الراهبُ من الأوس، ولذلك كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: كان يوم بُعاث يوماً قدَّمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشاً على الخزرج، فأرسلوا إياسَ بنَ معاذ، وأبا الحَيسر أنسَ بن رافع مع جماعة يلتمسون ذلك الحلف في قريش، فلما جاؤوا مكة، جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده، . . . .

قوله: (يوم بُعاث): بعاث: ـ بضم الموحدة ـ، وهو مكان قريب من المدينة على ليلتين منها عند بني قريظة، ويقال: إنه حصن للأوس، كان به القتال قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة بخمس سنين بين الأوس والخزرج، وكان النصر فيها أولاً للخزرج، ثم صار للأوس.

والأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأم، فوقعت بينهما العداوة، وتطاولت بينهما الحروب، فمكثوا على المحاربة والمقاتلة نحو مئة وعشرين سنة. اهـ. حلبي، وبسط ثمة سبب يوم بعاث بما يطول ذكره[2].

قوله: (وكانت عائشة تقول: كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي: أن هذه الأمور كانت سبباً لمجيء الأوس ثم الخزرج إلى مكة حتى اجتمع هذان الوفدان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ودعاهما إلى الإسلام، فهذه الحرب قد مهدت السبيل أمام الدعوة.

---

(١) رواه البخاري (٣٧٧٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٩).

ولا تشركوا به شيئاً، وقد أرسلني الله إلى الناس كافة»، ثم تلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ: يا قوم! هذا ـ والله ـ خير مما جئنا له، فحصبه أبو الحيسر، وقال له: دعنا منك، لقد جئنا لغير هذا، فسكت[1].

بدء إسلام الأنصار

ولما جاء الموسم، تعَرَّض رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر منهم يبلُغون السِّتَّةَ، وكلهم من الخزرج، وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بنُ مالك من بني زريق، وقُطْبة بن عامر من بني سَلِمة، وعقبة بن عامر من بني حَرَام، وجابر بن عبدالله من بني عبيد ابن عديّ، ودعاهم إلى الإسلام، وإلى معاونته في تبليغ رسالة ربه، . . . .

قوله: (فسكت): قال الحلبي بعد قوله: (فسكت): وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم، فلما دنا موت إياس، صار يحمد الله ويسبحه ويهلله ويكبره حتى مات، ثم انصرف أولئك الرهط من الخزرج راجعين إلى بلادهم[2].

بدء إسلام الأنصار

قوله: (يبلغون الستة): وقيل: كانوا ثمانية، هؤلاء الستة، وعبادة بن الصامت، وأبو الهيثم بن التيهان، وقد لقيهم عند العقبة التي تضاف إليها الجمرة، فيقال: جمرة العقبة، وهي على يسار القاصد منى من مكة، وبها الآن مسجد يقال له: مسجد البيعة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (سَلِمة): ـ بفتح السين وكسر اللام ـ.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٥) عن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٦١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٦١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٧).

فقال بعضهم لبعض: إنه للنبيُّ الذي كانت تَعِدُكم به يهودُ، فلا يَسْبِقُنَّكُمْ إليه، فآمنوا به وصدّقوه، وقالوا: إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم، فإن يجمعْهم الله عليك، فلا رجل أعزّ منك، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل، وهذا هو بَدء الإسلام لعرب يثرب[1].

العقبة الأولى

فلما كان العام المقبل، قدم اثنا عشر رجلاً، منهم: عَشَرة من الخزرج، ....

قوله: (وهذا هو بدء الإسلام): قال ابن هشام: لما رجع هؤلاء إلى المدينة، دَعَوا قومهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

العقبة الأولى

قوله: (العقبة الأولى): صوابه: الثانية؛ لأن إسلام الستة أو الثمانية من الأنصار الذين تقدم ذكرهم كان عند العقبة التي تضاف إليها الجمرة، فيقال: جمرة العقبة.

قوله: (قدم اثنا عشر رجلاً): قال الدحلاني: وهي العقبة الثانية[3].

قوله: (من الخزرج): قال في القاموس: الخزرج ريح، أو الجنوب، والأسد، وقبيلة من الأنصار[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٧) ـ عن عاصم ابن عمر بن قتادة، عن أشياخ من قومه، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٧٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٨).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خزرج).

واثنــان مــن الأوس، وهــم: أســعــد بــن زرارة، وعــوف ومعــاذ ابــنــا الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعُبادة بن الصامت، ويزيـد ابن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عـامر، وهـؤلاء من الخزرج، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان، وعُوَيمُ بن سـاعدة وهمـا مـن الأوس، فاجتمعوا به عند العقبة، وأسلموا، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تفترض الحرب ـ: علـى ألا يشـركوا بـالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، . . . .

و(**الأوس**): الإعطاء، والتعويض من الشـيء، والـذئـب، وبـلا لام: أبو قبيلة. اهـ[١].

والأوس والخزرج ابنا قَيْلَة، وهي أمهما، نسبا إليها، وهما أبناء حارثة من اليمن. اهـ. من هامش القاموس نقلاً عن شارحه[٢].

قوله: (على بيعة النساء): آية مبايعة النساء في سورة الممتحنـة، وقـد كانـت المبايعة لهن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة.

قوله: (ولا يأتوا ببهتان. . .) إلخ الآية؛ أي: لا يلحقن بأزواجهن ولداً لـيس منهم.

قال النسفي: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هو ولـدي منـك، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الـذي تُلحِقـه بزوجهـا كـذباً؛ لأن بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: أوس).

(٢) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: خزرج).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٤٠).

ولا يعصونه في معروف، فإن وَفَوا، فلهم الجنة، وإن غَشُوا من ذلك شيئاً، فأمرُهم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر، وإن شاء عذب، وهذه هي العقبة الأولى.

فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مصعبَ بنَ عُمير العبدريَّ، وعبدالله ابنَ أُم مكتوم ـ وهو ابنُ خالة خديجة ـ يُقرئانهم القرآن، ويفقهانهم في الدين، ونزل مصعب على أحد المبايعين أبي أُمامةَ أسعدَ بنِ زرارة، وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام. وبينما هو في بستان مع أسعد بن زرارة، إذ قال سعد بن معاذ ـ رئيس قبيلة الأوس ـ لأُسَيْد بن حُضير ابن عم سعد: ألا تقوم إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يُسَفِّهان ضعفاءنا لتزجرهما؟ فقام لهما أسيد بحربته، فلما رآه أسعد، قال لمصعب: هذا سيد قومه، . .

قوله: (في معروف): في الدحلانية بعد قوله: (في معروف): ونعطيه السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمرَ أهلَه، وأن نقول بالحق حيث كنا لا نخاف في الله لومة لائم. اهـ[1].

قوله: (وهذه هي العقبة الأولى): قدمنا أنها الثانية.

قوله: (مصعب): ـ بضم الميم وسكون الصاد وفتح العين ـ.

قوله: (وصار يدعو بقية الأوس والخزرج للإسلام): قال الدحلاني: وأسلم خلق كثير من الأنصار على يده بعد أن اشتد عليهم أمره في أول مجيئه، وكادوا يقتلونه، ثم هداهم الله به[2].

قوله: (لأُسَيد) ـ بالتصغير ـ، وكذا حُضَير.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٨)، والحديث رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٨٩).

وقد جاءك، فاصدُقِ الله فيه، فلما وقف عليهما قال: ما جاء بكما تُسَفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلا إن كان لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب: أوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

فقرأ عليه مصعب القرآن، فاستحسن دينَ الإسلام، وهداه الله له، فتشهَّدَ، ورجع إلى سعد، فسأله عمّا فعل، فقال: والله! ما رأيتُ بالرجلين بأساً، فغضب سعد، وقام لهما متغيظاً، ففعل معه مصعب كسابقه، فهداه الله للإسلام.

قوله: (ما تكره) قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليها.

قوله: (فاستحسن دين الإسلام): حيث قال: ما أحسنَ هذا وأجملَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك، وتشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين، ففعل ذلك، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما، لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أَحلفُ بالله لقد جاءكم أُسيدُ بنُ حُضَير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله! ما رأيت بها بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعلُ ما أحببتَ، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه.

فقام سعد مغضَباً، وقال: ما أراك أغنيتَ شيئاً، ثم خرج إليهما، ولما أقبل سعد، قال أسعدُ لمصعب: لقد جاءك سيدٌ من ورائه قومُه، إن يتبعْك لا يتخلفْ عنك منهم اثنان، فلما رآهما مطمئنين، عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متبسماً وجرى بينه وبينهما كما جرى بين أسيد بن حضير وبينهما، ولما أسلم رجع إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا إلا قليلاً، وقد

ورجع لرجال بني عبد الأشهل، وهم بطن من الأوس، فقال لهم: ما تعدُّونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، قال: كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تُسلموا، فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا أجابه، وقد انتشر الإسلام في دور يثربَ حتى لم يكن بينهم حديث إلا أمر الإسلام[1].

العقبة الثانية

ولما كان وقت الحج في العام الذي يلي البيعة الأولى، قدم مكة كثيرون منهم يريدون الحج، وبينهم كثير من مُشركيهم، ولما قابل وفدُهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، واعدوه المقابلة ليلاً عند العقبة، فأمرهم أن لا يُنبِّهوا في ذلك الوقت نائماً، ولا ينتظروا غائباً؛ لأن كل هذه الأعمال كانت خفيةً من قريش كيلا يطّلعوا على الأمر، فيسعَوا في نقض ما أبرم، . . .

بسط ذلك السيد الدحلاني ـ رحمه الله ـ[2].

العقبة الثانية

قوله: (العقبة الثانية) صوابه: الثالثة؛ لما قدمنا.

قوله: (قدم مكة كثيرون منهم)؛ أي: ومعهم مصعب بن عمير، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بمن أسلم، سُرَّ بذلك. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (عند العقبة)؛ أي: أن يوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدروا من منى أسفل العقبة؛ حيث المسجدُ اليوم الذي يقال له: مسجد العقبة، ومسجد البيعة.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦) عن عبيدالله ابن المغيرة بن معيقيب، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول أمره.

ولما فرغ الأنصار من حجهم، توجهوا إلى موعدهم كاتمين أمرهم عمّن معهم من المشركين، وكان ذلك بعد مضي ثلث الليل الأول، فكانوا يتسللون الرجل والرجلان حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً، منهم اثنان وستون من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، ومعهم امرأتان، وهما: نُسَيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سَلِمة، ووافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك، وليس معه إلا عمه العباس بن عبد المطلب، وهو على دين قومه، ولكن أراد أن يحضر أمر ابن أخيه؛ ليكونَ متوثقاً له، فلما اجتمعوا، عرَّفهم العباس بأن ابن أخيه لم يزل في مَنَعة من قومه؛ حيث لم يمكِّنوا منه أحداً ممّن أظهر له العداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة، ثم قال لهم: إن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، . . . . . .

اهـ. دحلاني[1].

قوله: (عمن معهم من المشركين): قال الدحلاني: قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: كان معنا من جملة المشركين أبو جابر عبدُالله بن حرام سيدٌ من ساداتنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر! إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه للإسلام، فأسلم، وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشهد معنا العقبة. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٢)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١) من حديث أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ.

وإلا، فدعوه بين عشيرته؛ فإنه لبمكان عظيم.

فقال كبيرهم المتكلمُ عنهم البَراءُ بن معرور: والله! لو كان لنا في أنفسنا غيرُ ما ننطق به، لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذلَ مُهَجنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وعند ذلك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ لنفسك ولربك ما أحببت، فقال: «أشترط لربي: أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمتُ عليكم».

فقال له أبو الهيثم بن التَّيِّهانِ: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال عهوداً، وإنّاً قاطعوها، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، . . . .

قوله: (فإنهم لبمكان عظيم): قال الدحلاني: وفي رواية أن العباس قال: قد أبى محمد الناسَ كلهم غيرَكم، فإن كنتم أهل قوة وجلَد وبصيرة في الحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبةً ترميكم عن قوس واحد؛ فأروا[1] رأيكم، وائتمروا بينكم، ولا تفرقوا إلا عن ملأ واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه. اهـ[2].

قوله: (متى قدمت عليكم): قال الدحلاني: فقال له ابن رواحة: فإذا فعلنا فما لنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكم الجنة»، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. اهـ[3].

قوله: (وبين الرجال) يعني: أي اليهود.

---

(١) في «الطبقات الكبرى»: «فارتؤوا».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٣)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٢٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٣)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٣٥) عن محمد بن كعب القرظي.

ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ فتبسم عليه الصلاة والسلام، وقال: «بل الدَّمَ الدَّمَ، والهَدْمَ الهَدْمَ»؛ أي: إن طالبتم بدم طالبتُ به، وإن أهدرتموه أهدرته.

وحينذاك ابتدأت المبايعة، وهي العقبة الثانية، فبايعه الرجال على ما طلب، وأولُ من بايع: أسعدُ بن زرارة، وقيل: البراء بن معرور، ثم تخير منهم اثني عشر نقيباً، لكل عشيرة منهم واحد: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وهم: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وأسعد بن زرارة، وأسيد ابن حُضير، والبراء بن معرور، ورافع بن مالك، وسعد بن خيثمة، وسعد ابن الربيع، وسعد بن عبادة، وعبدالله بن رواحة، وعبدالله بن عمرو، وعبادة ابن الصامت، والمنذر بن عمرو، . . . .

قوله: (والهدم الهدم) يروى بسكون الدال وفتحها، فالهدَم ـ بالتحريك ـ: القبر؛ يعني: أني أقبر حيث تقبرون، وبالسكون وبالفتح أيضاً هو إهدار دم القتيل، يقال: دماؤهم بينهم هدم؛ أي: مهدرة، والمعنى: إن طُلب دمكم فقد طلب دمي، وإن أُهدر دمكم فقد أهدر دمي؛ لاستحكام الألفة بيننا، وهو قول معروف للعرب، يقولون: دمي دمك، وهدمي هدمك، وذلك عند المعاهدة والنصرة. اهـ. «نهاية»[1].

قوله: (فبايعه الرجال على ما طلب): قال الدحلاني: وكانت هذه البيعة على حرب الأسود والأحمر؛ أي: العرب والعجم، ولما انتهت المبايعة، قال لهم العباس: عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم، وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم، لتجدّن في نصرته وتشدَّن أزره؟ قالوا جميعاً: نعم، قال العباس: اللهم إنك سامع شاهد، وإن ابن أخي

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٢٥٠).

ثم قال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي».

ولأمر ما أراده الله بَلَغَ خبرُ هذه البيعة مشركي قريش، فجاؤوا ودخلوا شِعْبَ الأنصار، وقالوا: يا معشر الخزرج! بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا، وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك، وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم أنهم لم يَحْصُل منهم شيء في ليلتهم، وعبدالله بن أُبَيّ كبيرُ الخزرج يقول: ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بشيء من ذلك[١].

قد استرعاهم ذمته، واستحفظهم نفسه، اللهم كن لابن أخي شهيداً. اهـ[٢].

قوله: **(وأنا كفيل على قومي)**؛ يعني: المهاجرين.

قوله: **(ما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بشيء من ذلك)**: ثم قال: ولو كنت بيثرب، ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني. اهـ[٣].

أي: فأوجب هذا الكلام اطمئنان قلوب قريش، فرجعت من عندهم.

قال الدحلاني: ثم نفر الناس من منى، وبحثت قريش عن خبر الأنصار، فوجدوه حقًّا، فلما تحققوا الخبر، اقتفَوا آثارهم، فلم يدركوا إلا سعدَ بن عبادة، والمنذر بن سعد، فأما سعد، فمسك وعذب في الله، وأما المنذر، فأفلت، ثم

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٣) عن عدد من الصحابة، دخل حديث بعضهم في بعض. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٠) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٤)، والخبر المذكور رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠٤) عن الزهري.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٦).

هجرة المسلمين إلى المدينة

ولما رجع الأنصار إلى المدينة، ظهر بينهم الإسلام أكثرَ من المرة الأولى، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابُه، فازداد عليهم أذى المشركين لما سمعوا أنه حالف قوماً عليهم، فأمر عليه الصلاة والسلام جميع المسلمين بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسلَّلون خيفة قريش أن تمنعهم.

أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين. اهـ[1].

وفي «القاموس»: افتأت عليّ الباطل: اختلقه[2].

الهجرة إلى المدينة

قوله: (فازداد عليهم أذى المشركين...) إلخ: لأن قريشاً لما علمت أنه صلى الله عليه وسلم أوى إلى قوم أهل حرب ونجدة؛ ضيقوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من الشتم والأذى، وجعل البلاء يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وبين معذَّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد، وشكوا إليه صلى الله عليه وسلم، واستأذنوه في الهجرة، فمكث أياماً لا يأذن، ثم أذن لهم بالهجرة إلى المدينة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فصاروا يتسللون خيفة قريش...) إلخ: عن علي قال: ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مستخفياً إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه لما همَّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى أسهماً في يديه، واختصر عنزته، ومشى قِبَلَ الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف سبعاً، ثم أتى المقام فصلى ركعتين،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: فأت).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٧).

وأول من خرج: أبو سلمةَ المخزوميُّ زوجُ أم سلمة، ومعه زوجُه، وكان قومها منعوها منه، ولكنهم أطلقوها بعدُ، فَلحقت به.

وتتابع المهاجرون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذي امتزج حبّه بلحمهم ودمهم، ....

ثم وقف على الحلق واحدةً واحدةً، ثم قال: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه ـ أي: تفقده ـ وترمل زوجته، ويوتم ولدُه، فَلْيلْقَني وراء هذا الوادي، قال علي: فما تبعه أحد، ثم مضى لوجهه. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (ومنعوها منه)؛ أي: وأخذ منها ولدها، أخذه قوم أبيه.

قال الدحلاني: فكانت تخرج كل غداة إلى الأبطح تبكي حتى مضت سنة، فمر بها رجل من بني عمها، فرحمها، وقال لقومها: أما ترحمون هذه المسكينة؟! فرَّقتم بينها وبين ولدها وزوجها، فقالوا لها: الحقي زوجك، فلما بلغ ذلك قوم أبي سلمة، ردُّوا عليها ولدها، فركبت بعيراً، وجعلت ولدها في حجرها، وخرجت تريد المدينة، وما معها أحد من خلق الله تعالى، حتى إذا كانت بالتنعيم، لقيت عثمان بن طلحة الحجبي، وكان مشركاً يومئذ، فشيعها إلى المدينة، حتى إذا وافى على قباء، قال لها: هذا زوجك.

وكانت أم سلمة تقول: ما رأيت صاحباً أكرمَ من عثمان بن طلحة، فإنه لما رآني قال: إلى أين؟ قلت: إلى زوجي، قال: أوما معك أحد؟ قلت: لا، ما معي إلا الله تعالى، وابني هذا، فقال: والله! لا أتركك، ثم أخذ بخطام البعير، وسار معي، فكان إذا وصلنا المنزل، أناخ بي، ثم استأخر، حتى إذا نزلت، جاء وأخذ البعير، فحط عنه، ثم قيده في شجرة، ثم أتى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٩)، والخبر المذكور رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/ ١٦٤).

حتى صاروا لا يعبؤون بمفارقة أوطانهم والابتعاد عن آبائهم ما دام في ذلك رضا الله ورسوله، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعليّ وصهيب وزيدُ بن حارثة، وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكِّنهم حالُهم من الهجرة.

دنا الرواح، قام إلى بعيري فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت، أخذ بخطامه. اهـ[1].

قوله: (وصهيب) قال الدحلاني: لما أراد صهيب الهجرة، وكانت هجرته بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، ثم تريد أن تخرج بمالك، لا ـ والله ـ لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي، أتخلوا سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلتها لكم، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ربح صهيب»، وفيه نزل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢٠٧][2].

قال: فلما قدمتُ المدينة وجدتُ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر جالسين، فلما رآني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، قام فبشرني بالآية التي نزلت فيَّ. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩)، ورواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦) ـ من حديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٢٧) عن أبي عثمان النهدي، و(٣/ ٢٢٨) عن سعيد بن المسيب.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠١)، والخبر رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣٠٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٥٢)، من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٦٤): رواه الطبراني، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك.

وقد أراد أبو بكر الهجرة، فقال له عليه الصلاة والسلام: «على رِسْلك؛ فإني أرجو أن يؤذَن لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر استعداداً لذلك[1].

دار الندوة

أما قريش، فكانوا كأنهم أُصيبوا بمَسِّ الشيطان حينما طرق مسامعهم مبايعة الأنصار له على الذَّود عنه حتى الموت، فاجتمع رؤساؤهم وقادتهم في دار الندوة ـ وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه، . . . .

قوله: (وعلف راحلتين): قال الدحلاني: علفهما أربعة أشهر[2].

و**(السمر)** ـ بفتح السين وضم الميم ـ: واحده سمرة، ويقال له: الخَبَط ـ بفتحتين ـ.

قال في «النهاية»: وهو ضرب من شجر الطلح[3].

دار الندوة

قوله: (دار الندوة): دار الندوة هي دار قصي بن كلاب، وهي من جهة الحجر عند مقام الحنفي الآن، وكان لها باب إلى المسجد أُحدث للاجتماع والمشورة، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، وكانوا لا يُدخلون فيها غيرَ قرشي

---

(١) رواه البخاري (٢٢٩٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٢).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٣٩٩).

فقال قائل منهم: نخرجه من أرضنا كي نستريح منه، فرُفِض هذا الرأي؛ لأنهم قالوا: إذا خرج، اجتمعت حوله الجموع؛ لما يرونه من حلاوة منطقه، وعذوبة لفظه.

وقال آخر: نُوْثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرُفِض هذا الرأي كسابقه، لأنهم قالوا: إن الخبر لا يلبث أن يبلغ أنصاره، ونحن أدرى الناس بمن دخل في دينه؛ حيث يُفَضِّلونه على الآباء والأبناء، فإذا سمعوا ذلك، جاؤوا لتخليصه، وربما جرّ هذا من الحرب علينا ما نحن في غِنًى عنه.

وقال لهم طاغيتهم: بل نقتله، ولنمنعَ بني أبيه من الأخذ بثأره، نأخذ من كل قبيلة شابًّا جَلْداً يجتمعون أمام داره، فإذا خرج، ضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم، بل يرضون بالدية، فأقرّوا هذا الرأي[1].

إلا إن بلغ الأربعين سنة؛ بخلاف القرشي، وقد أدخلوا أبا جهل ولم تتكامل لحيته. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فقال قائل منهم. . .) إلخ: هو الأسود بن ربيعة.

وقوله: (وقال آخر): هو أبو البختري بن هشام.

قوله: (وقال لهم طاغيتهم) هو أبو جهل ـ لعنه الله ـ.

قوله: (فأقروا هذا الرأي. . .) إلخ: ولما كان الليل، اجتمعوا على بابه

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦ ـ ٨) ـ عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٩ ـ ١٩١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

هذا مكرُهم، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال: ٣٠]. فأعلم نبيَّه بما دبره الأعداء في سرّهم، وأمره باللحاق بدار هجرته، بدار فيها ينشر الإسلام، . . . .

يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه، وكانوا مئة.

وقيل: أحدقوا ببابه وعليهم السلاح يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه ظاهراً، فيذهب دمه في جميع القبائل بمشاهدة بني هاشم، فلا يتم لهم أخذ ثأره.

قوله: (فأعلم نبيه. . .) إلخ: قال الحلبي: فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا تبتْ هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه، وأخبره بمكرهم[1].

قال الدحلاني: فأمر عليه الصلاة والسلام عليًّا فنام مكانه، وغُطي ببردٍ له صلى الله عليه وسلم بقوله صلى الله عليه وسلم: «اتشح ببردي هذا الحضرميّ الأخضر فنم فيه؛ فإنه لن يخلُص إليك شيء تكرهه منهم»، وكان صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام، فكان عليٌّ أولَ من شرى نفسه ابتغاء مرضاته، ووقى بنفسه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم[2].

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب عليهم، وقد أخذ الله على أبصارهم فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٩١).

(٢) أورده الثعلبي في «تفسيره» (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٩) ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ويكون فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم العزةُ والمنعة .

وهذا من الحكمة بمكان عظيم؛ فإنه لو انتشر الإسلام بمكة، لقال المبغضون: إن قريشاً أرادوا مُلْكَ العرب، فعمَدوا إلى شخص منهم، وأوعزوا إليه أنْ يدَّعي هذه الدعوى حتى تكون وسيلة لنيل مآربهم، ولكنهم كانوا له أعداء ألدَّاء، آذَوْه شديدَ الأذى حتى اختار الله له مفارقةَ بلادهم والبعدَ عنهم .

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

فتوجه من ساعته إلى صديقه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وأعلمَه أن الله قد أذِنَ له في الهجرة، فسأله أبو بكر الصحبةَ، فقال: «نعم»، ثم عرض عليه إحدى راحلتيه اللتين كانتا معدَّتين لذلك، فجهزهما أحثّ الجهاز، . . . .

هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

قوله: (هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ: كان خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة أول يوم من ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، وكانت مدة مقامه بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة. اهـ. دحلاني[1].

قال الحلبي: إن بين ابتداء هجرة الصحابة، وبين هجرته صلى الله عليه وسلم شهرين ونصف[2].

قوله: (فجهزاهما أحث الجهاز. . .) إلخ: الذي في الحلبي والدحلاني: قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، فيكون المجهز: أبو بكر وعائشة وأسماء؛ خلافاً لما يفيده ظاهر العبارة هنا من أن المجهز هو النبي صلى الله عليه وسلم،

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٩).

وصُنعت لهما سُفْرَة في جِرَاب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ نِطاقها، وربطت به على فم الجراب، واستأجرا عبدَ الله بنَ أُرَيقط من بني الدِّيل بنِ بكر، وكان هادياً ماهراً، وهو على دين كفار قريش، فأمِنَاه، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليالٍ.

ثم فارق الرسول عليه الصلاة والسلام أبا بكر، وواعده المقابلةَ ليلاً خارج مكة، وكانت هذه الليلة هي ليلة استعداد قريش لتنفيذ ما أقرّوا عليه، فاجتمعوا حول باب الدار، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم داخله، فلما جاء ميعاد الخروج، أمر ابنَ عمه عليّاً ـ رضي الله عنه ـ بالمبيت مكانه؛ كي لا يقع الشك في وجوده أثناء الليل؛ . . . .

وأبو بكر.

وأحثُّ الجهاز: أسرعُه[1].

قوله: (سفرة)؛ أي: زاداً في جراب؛ لأن السفرة في الأصل: الزادُ الذي يصنع للمسافر، ثم استعمل في وعاء الزاد، وكان في السفرة شاة مطبوخة.

قوله: (واستأجرا عبدالله بن أريقط. . .) إلخ: في رواية: أنهما أرسلا أسماء بعد ثلاث إلى علي، فاستأجر لهما عبدالله، وأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث. اهـ. حلبي[2].

قوله: (فأمناه) ـ بفتح الهمزة وكسر الميم ـ؛ أي: ائتمناه. اهـ. «شرح الشرقاوي على مختصر الزبيدي» للبخاري.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (١/ ٣٠٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

فإنهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجودَه، ثم سَجَّى عليّاً ببُرده، وخرج على القوم وهو يقرأ: «﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩]»، فألقى الله النوم عليهم حتى لم يره أحد، ولم يزل عليه الصلاة والسلام سائراً حتى تقابل مع الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، وسارا حتى بلغا غارَ ثور، فاختفيا فيه[1].

أما المشركون، فلما علموا بفساد مكرهم، وأنهم إنما باتوا يحرسون عليَّ بنَ أبي طالب، لا محمدَ بنَ عبدالله، هاجت عواطفهم، فأرسلوا الطلب من كل جهة، وجعلوا الجوائز لمن يأتي بمحمد، أو يدلُّ عليه، وقد وصلوا في طلبهم إلى ذلك الغار الذي فيه طِلْبَتُهم؛ بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه، لنظرهما، حتى أبكى ذلك أبا بكر، فقال له عليه الصلاة والسلام: «﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]»[2].

قوله: (من شقوق الباب... إلخ)، وإنما لم يتسوروا الجدار مع قصره؛ لأن ذلك كان عاراً عند العرب.

قوله: (فألقى الله النوم عليهم): قدمنا أنه نثر على رؤوسهم التراب، فأخذ الله على أبصارهم فلم يروه.

قوله: (فأرسلوا الطلب): جمع طالب، وهو ـ بفتح الطاء واللام، وبضم الطاء وتشديد اللام ـ.

قوله: (﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾): يروى: أن أبا بكر لما رأى القافة، اشتد حزنه وبكى، وقال: إن قتلتُ فإنما أنا رجل واحد لا تهلك الأمة بقتلي،

---

(١) رواه ابن إسحاق ـ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٨) ـ عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٤١٢) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

فأعمى الله أبصار المشركين حتى لم يَحِنْ لأحد منهم التفاتة إلى ذلك الغار، بل صار أعدى الأعداء أميةُ بنُ خلف يبعِّد لهم اختفاءَ المطلوبين في مثل هذا الغار[١].

فأقاما فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب. وكان يبيتُ عندهم عبدالله ابن أبي بكر، وهو شابٌّ ثَقِفٌ ولَقِنٌ، فَيُدْلِج من عندهما بسَحَر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت بها، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فُهَيرة يروح عليهما بقطعة من غنم يرعاها حين تذهب ساعةٌ من العشاء، ويغدو بها عليهما، . . . .

فلا يفوتُهم نفع، ولا يلحقهم ضرر، وإن هلكتَ أنتَ، هلكت الأمةُ بهلاك الدين، فعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾»[٢].

قوله: **(وهو شاب ثَقِفٌ)** كحِبْر وككَتِف؛ أي: حاذق خفيف.

واللقن ـ بفتح اللام وكسر القاف ـ: السريع الفهم.

وقوله: **(فيدلج)**: ـ بالتشديد ـ؛ لأنه بالتشديد: السيرُ في آخر الليل، وبالتخفيف: السير في أوله. اهـ. قاموس وهامشه[٣].

قوله: **(يُكتادان)**: وفي رواية: يُكادان به[٤] ـ؛ أي: يطلب لهما فيه المكروه.

قوله: **(وكان عامر بن فهيرة)**: في الدحلاني: هو مولى أبي بكر رضي الله عنه، وكان أميناً مؤتمناً حسن الإسلام، وكان ممن يعذب في الله، فاشتراه أبو بكر

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) أوردها السهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٣١٧).

(٣) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: دلج).

(٤) رواه البخاري (٥٨٠٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فإذا خرج من عندهما عبدُالله، تَبع أثرَه عامرٌ بالغنم كيلا يظهر لقدميه أثـر.
ولما انقطع الطلب، خرجا بعد أن جاءهما الدليلُ بالراحلتين صبحَ ثلاث،
وسارا متبعين طريق الساحل.

وفي الطريق لحقهم طالباً سُراقةُ بن مالك المُدْلِجيُّ، وكـان قـد رأى
رُسُلَ مشركي قريش يجعلون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكـر
ـ رضي الله عنه ـ دية كل واحد منهما مئة ناقة لمن قتلـه، أو أسـره. فبينمـا
هو في مجلس من مجالس قومه بني مُدلِج، إذ أقبل رجل منهم حتـى قـام
عليهم وهم جلوس فقال: يا سُراقة! إني رأيت آنفاً أَسْوِدَةً بالسـاحل أراهـا
محمداً وأصحابه، فعرف سراقةُ أنهم هم، ولكنه أراد أن يثني عزم مُخبـره
عن طلبهم، فقال: إنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننـا يبتغـون ضَـالَّةً
لهم، ثم لبث في المجلس ساعة، وقام وركب فرسه، ثم سار، حتـى دنـا
من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، فعثرت به فرسُه، فخرّ عنها، ثـم
ركبها ثانياً، وسار حتى صار يسمع قراءة المصطفى، وهـو لا يلتفـت، وأبـو
بكر يُكثِر الالتفات، . . . .

وأعتقه، واستشهد ببئر معونة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم[1].

قوله: (دية) هي مئة ناقة.

وقوله: (بني مدلج)؛ أي: بقديد، وهو محل قريب من رابغ.

وقوله: (أسودة)؛ أي: أشخاصاً.

وقوله: (بأعيننا)؛ أي: بمعرفتنا.

قوله: (وأبو بكر يكثر الالتفات): قال الدحلاني: فلما دنا منا، وكان بيننا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٤).

فساخت قائمتا فرس سراقة في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخرّ عنها، ثم زجرها حتى نهضت، فلم تكد تُخرج يديها حتى سَطَع لأثرهما غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فعلِمَ سراقة أن عمله ضائع سُدًى، وداخلَه رعبٌ عظيم، فناداهما بالأمان، فوقف عليه الصلاة والسلام ومَنْ معه حتى جاءهم، ويقول سُراقة: وقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أَنْ سيظهر أمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرَهما بما يريد بهما الناس، وعرض عليهما الزاد والمتاع، فلم يأخذا منه شيئاً، بل قالا له: أخفِ عنّا، فسأله سراقة أن يكتب له كتابَ أمنٍ، . .

وبينه رمحان أو ثلاثة، قلت: هذا الطلب قد لحقنا، وبكيتُ، قال صلى الله عليه وسلم: «ما يبكيك؟» قلت: أما والله! ما على نفسي أبكي، ولكن عليك، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اكفناه بما شئت»، فساخت قوائم فرسه حتى بلغت الركبتين[1].

وقوله: (ساخت)؛ أي: غابت.

قوله: (فناداهما بالأمان): قال الدحلاني: روي في بعض التفاسير: أنه عاهد الله سبع مرات، ثم ينكث العهد، وكلما ينكث العهد، تغوص قوائم فرسه في الأرض. اهـ[2].

قوله: (فلم يأخذا منه شيئاً): قال الدحلاني: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا سراقة! إذا لم ترغب في دين الإسلام؛ فإني لا أرغب في إبلك ومواشيك»[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢) من حديث أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٩)، والخبر المذكور =

فأمر أبا بكر فكتب[1].

وبذلك انقضت هذه المشكلة التي أظهر الله فيها عنايته برسوله صلى الله عليه وسلم.

وكان أهل المدينة حينما سمعوا بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدومه عليهم، يخرجون إلى الحَرَّة حتى يردّهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد أن طال انتظارُهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود.......

قوله: (فأمر أبا بكر فكتب): صوابه: فأمر عامرَ بنَ فهيرة ـ كما في الدحلاني ـ[2]، أو لعله رواية أخرى.

قوله: (وبذلك انقضت هذه المشكلة): قال الدحلاني: وجاء في الحديث من تمام القصة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسراقة: «كيف بك إذا لبستَ سوارَيْ كسرى؟»، وفي رواية: «إذا تسوَّرت بسواري كسرى؟» قال: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم»، فعجب من ذلك، وقد حصل ذلك في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ كما بسطه الدحلاني[3].

قوله: (أوفى)؛ أي: أشرفَ.

= أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٢١٨).

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦) عن سراقة بن جعشم ـ رضي الله عنه ـ، ولكن فيه: فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم. وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٧٥ ـ ١٧٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢١٧ ـ ٢٢٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٩)، وكذا عند البخاري (٣٩٠٦) من حديث سراقة بن جعشم ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣١٩)، والخبر المذكور أورده ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٣٩٧) من حديث الحسن البصري.

على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبَصُر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يزول بهم السراب، يُظهرهم تارة، ويُخفيهم أخرى، فقال اليهودي بأعلى صوته: يا معشر العرب! هذا جَدُّكُم ـ أي: حظكم ـ الذي تنتظرون، فثاروا إلى السلاح فتلقَّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحَرَّة[1].

النزول بقُباء

فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء[2].

والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي: أن ذلك كان في اليوم الثاني من ربيع الأول الذي يوافق (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، وهذا أول تاريخ جديد لظهور الإسلام بعد أن مضى عليه ثلاثَ عشرةَ سنة، وهو مُضَيَّق عليه من مشركي قريش، ....

وقوله: (أطم): ـ بضم الهمزة وسكون الطاء، وبضمها ـ.

قوله: (يظهرهم تارة... إلخ) تفسير لقوله: يزول بهم السراب.

قوله: (فتلقوا رسول الله): كان المستقبلون له صلى الله عليه وسلم يزيدون على خمس مئة من الأنصار. اهـ. دحلاني[3].

النزول بقباء

قوله: (النزول بقباء): قال في «معجم البلدان»: قبا أصلُه: اسم بئر هناك عُرفت القريةُ بها، وهو يُمَدّ ويقصر، ويصرف ولا يصرف، وهي على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة، وهي مساكن بني عمرو بن عوف، بها أثر بنيان

---

(١) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٢).

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ممنوع من الجهر بعبادة ربه، أما الآن، فقد آواه الله هو وصحابته ـ رضوان الله عليهم ـ بعد أن كانوا قليلاً يتخطفهم الناس[1].

هجرة الأنبياء

وبهذه الهجرة تمّت لرسولنا صلى الله عليه وسلم سُنَّةُ إخوانه من الأنبياء من قَبله، فما من نبي منهم إلا نبَتْ به بلاد نشأته، فهاجر عنها، من إبراهيم أبي الأنبياء، وخليل الله، إلى عيسى كلمة الله وروحه، كلهم ـ على عظيم درجاتهم، ورفعة مقامهم ـ أهينوا من عشائرهم، فصبروا ليكونوا مثالاً لمن يأتي بعدهم من متّبعيهم في الثبات والصبر على المكاره ما دام ذلك في طاعة الله.

فَسَلْ مصر وتاريخها تُنبْئكَ عن إسرائيل (يعقوب) وبنيه: أنهم هاجروا إليها حينما رأوا من بَنِيها ترحيباً بهم، وتركهم وما يعبدون إكراماً ليوسف وحكمته، ولما مضت سنون، نسي فيها المصريون تدبير يوسف وفضلَه عليهم، فاضطَهدوا بني إسرائيل وآذَوْهم، خرج بهم موسى وهارون ليتمكنوا من إعطاء الله حقه في عبادته، ....

كثير، وهناك مسجد التقوى، قدَّامه رصيف وفضاء حسن، وآبار ومياه عذبة. اهـ[2].

والميلان: ساعة.

هجرة الأنبياء

قوله: (إلا نبت به): في «القاموس»: نبا به منزله: لم يوافقه[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٢).

(٢) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٤/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نبو).

وهرب المسيح عليه السلام من اليهود حينما كذَّبوه، فأرادوا الفتكَ به، حتى كان من ضمن تعاليمه لتلاميذه: طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات ثم قال بعد: افرحوا وتهلّلوا؛ لأن أجركم عظيم في السماوات، فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

وسَل القرى التي حلّت بها نقمةُ الله بكفرِ أهلها؛ كديار لوط وعاد وثمود، تنبئْكَ عن مُهَاجَرة الأنبياء منها قبل حلول النقمة، فلا غرابة أنْ هاجر عليه الصلاة والسلام من بلاد منعه أهلُها من تتميم ما أراده الله ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[الأحزاب: ٦٢].

قوله: **(كديار لوط)**: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾[الحجر: ٦٥]، فأخرج الله لوطاً إلى الشام.

وقوله: **(وعاد)**: هم قوم هود؛ فإنه لما أهلك الله قومه بالريح، اعتزل مع مَنْ آمن به، وأتى من الأحقاف إلى حضرموت، ومات بها، وقيل: بالحجر بمكة.

وقوله: **(وثمود)**: هم قوم صالح، وما إن أهلكهم الله بالصيحة لما عقروا الناقة، وأصبحوا في ديارهم جاثمين، سار صالح من بلادهم إلى الشام، ونزل فلسطين، ثم انتقل إلى مكة فمات بها.

قوله: **(فلا غرابة أن هاجر عليه السلام. . .)** إلخ: يعجبني هنا ما أنشده الصفدي في شرح لامية العجم من قصيدة لأبي الغنائم، أولها:

سِرْ طالباً غاياتها إمَّا تُرى ... فوق الثُّريا أو تُرى تحت الثرى
لا تُخلدنَّ إلى المُقام فإنما ... سيرُ الهلال قضى له أن يُقمِرا[1]

---

(١) انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» (قسم شعراء العراق) للعماد الأصبهاني (٦/ ٤٣٣)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» لنور الدين اليوسي (١/ ٣٤٩).

ومنها:

لو ينتجُ الوطن العلا ما سار عن غمدانَ سيدُ حِمْيَرٍ مستنصِرا

ولو استتمَّ بمكةٍ لمحمدٍ ما رام لم ينصِبْ بيثرِبَ مِنبرا

والليثُ لو وجدَ الفريسة رابضاً أو ناهضاً في خِيسه[1] ما أَصْحَرا

لا عارَ في بيع النفوس على الرَّدى عندي إذا كان العلاءُ المُشتَرى[2]

وقول ابن منير الطرابلسي المدفون في جبل الجوشن بحلب في مطلع قصيدة:

وإذا الكريمُ رأى الخمولَ نزيلَه في منزلٍ[3] فالحزمُ أن يترحَّلا

كالبدرِ لما أنْ تضاءل جَدَّ في طلب الكمال فحازه متنقّلا

سَفَهاً لحلمِكَ إن رضيتَ بمشربٍ رنقٍ ورزقُ الله قد ملأ المَلا

ساهَمْتَ عِيسَكَ مُرَّ عيشِك قاعداً أفلا فليتَ[4] بهنَّ ناصية الفلا

فارقْ تَرُقْ كالسيفِ سُلَّ فبان في مَتْنَيْهِ ما أخفى القِراب وأخملا

للقفر لا للفقر هبها إنما مغناك ما أغناك أن تتوسَّلا[5]

---

(١) في هامش الأصل: «الخيس: موضع الأسد».

(٢) انظر: «خريدة القصر وجريدة العصر» (قسم شعراء العراق) للعماد الأصبهاني (٦/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥).

(٣) في «ديوان ابن منير الطرابلسي»: «بلدة»، والمثبت موافق لما في «صبح الأعشى» (١/ ٢٢٢).

(٤) في هامش الأصل: «فليت: خربت».

(٥) انظر: «ديوان ابن منير الطرابلسي» (ص: ١٠٢ ـ ١٠٣).

أعمال مكة

هذا، ولْنبيّنْ لك مجملَ ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بمكة من أصول الدين، وذلك أمران:

الأول: الاعتقاد بوحدانية الله، وأن لا يُشرَك معه في العبادة غيرُه، سواء كان ذلك الغير صنماً؛ كما يفعل مُشرِكو مكة، أو أباً أو زوجةً أو بنتاً؛ كما عليه بعض الطوائف الأخرى كالنصارى، ولولا الاعتقاد بوحدانية الله، ما كَلَّف أحد نفسه تكاليف الحياة من آداب الأخلاق، بل كان يسير فيما تأمره به نفسه من شهواتها وملذاتها ما دام ذلك خافياً عن الناس.

الثاني: الاعتقاد بالبعث والنشور، ....

أعمال مكة

قوله: (ولولا الاعتقاد): هذا لا يصلح علة لقبول التكاليف، والذي أراه علة ذلك: هو خوف العذاب والعقاب، ورجاء الحصول على الجزاء والثواب، إلا كل العارفين بالله تعالى.

ويعجبني[1] هنا قول أبي العلاء المعرِّي:

وأعبدُ الله لا أرجو مثابَتَهُ ... لكنْ تعبد إجلال وإعظام[2]

وقول رابعة العدوية في بعض مناجاتها بما معناه: إلهي! ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن عبدتك لأنك تستحق العبادة لعظمتك وجلالك[3].

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) انظر: «نكث الهميان» للصفدي (ص: ٨٥)، وفيه: «إكرام وإجلال» بدل «إجلال وإعظام».

(٣) أورده الآلوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٢٥٠) بنحوه.

وأن هناك يوماً ثانياً للإنسان يُجازى فيه على ما صنعه في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، وعلى هذين الأمرين جاء غالب الآي المكيّة، فقلّما نرى سورة من سور مكة إلا مشحونة بالاستدلال عليهما، وتوبيخ من تركهما، وكل ذلك بأساليبَ تأخذ بالعقل، وبراهينَ لا تحتاج لفلسفة الذين يشغلون أنفسهم بما لا طائل تحته ممّا يضيع الوقت سدًى.

ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة من القرآن معظمُه، وهو ما عدا ثلاثاً وعشرين سورة منه، وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الحج، النور، الأحزاب، القتال، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، النصر، هذه كلها مدنية، وباقي القرآن مكّي.

ولما نزل عليه الصلاة والسلام بقُباء، نزل على شيخ بني عمرو كُلثومِ ابن الهدم، وكان يجلس للناس، ويتحدث لهم في بيت سعد بن خَيثمة؛ . . .

قوله: (التغابن): هو يوم القيامة؛ لأن أهل الجنة تغبن فيه أهل النار.

قوله: (كلثوم): كلثم لحم الوجه كلثمة: اجتمع بلا جهومة، والكلثوم ـ بضم الكاف ـ: الكثير لحم الخدين والوجه، وسمي الهدم ـ بفتح الهاء وسكون الدال ـ.

قال الدحلاني: وكان كلثوم يومئذ مشركاً، ثم أسلم، وقيل: أسلم قبل وصوله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعند وصوله صلى الله عليه وسلم نادى كلثوم: يا نجيح! لغلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: «أنجحت يا أبا بكر». اهـ[1].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٢)، والخبر المذكور =

لأَنَه كان عزباً. ونزل أبو بكر بالسُّنْح (محلة بالمدينة) على خارجةَ بنِ زيد من بني الحارث من الخزرج[1].

مسجد قُباء

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ليالي أسّس فيها مسجد قباء..

قوله: (بالسنح): ـ بضم السين وسكون النون ـ.

مسجد قباء

قوله: (لياليَ): قال الحلبي: قال بعضهم: كانت أربع ليال، بقية يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وخرج يوم الجمعة، وقيل: لبث بضع عشرة ليلة، وهو المنقول عن البخاري[2].

وفي «صحيح مسلم» أنه أقام أربعة عشر يوماً. اهـ[3].

قوله: (أسس فيها مسجد قباء) قال الحلبي: كان محل قباء مِرْبَداً ـ أي: محلًّا يُجفف فيه التمر ـ لكلثومِ بنِ الهدم، وهو أولُ مسجد بني في الإسلام لعموم المسلمين[4].

ثم قال: وجاء: أنه صلى الله عليه وسلم لما أراد بناءه قال: «يا أهل قباء!

= رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٥/ ٢٣٩١) من حديث عبد الرحمن بن يزيد ابن جارية.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٢).

(٢) روى البخاري (٣٩٣٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؛ نزل في علو المدينة في حيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيهم أربع عشرة ليلة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٦)، والخبر المذكور رواه مسلم (٥٣٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٦).

الذي وصفه الله بأنه مسجد أُسس على التقوى من أول يوم، وصلَّى فيه عليه الصلاة والسلام بمن معه من الأنصار والمهاجرين، وهم آمنون مطمئنون، وكانت المساجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غاية من البساطة، ليس فيها شيء مما اعتاده بُناة المساجد في القرون الأخيرة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكن جُلُّ همّهم إلا منصرفاً لتزيين القلوب، وتنظيفها من حظ الشيطان، فكان سور المسجد لا يتجاوز القامة، وفوقه مِظلةٌ يُتَّقى بها حرّ الشمس[1].

الوصول إلى المدينة

ثم تحوَّل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة . . . .

إيتوني بأحجار من الحَرَّة»، فجمعت عنده أحجار كثيرة، فخط القبلة، وأخذ حجراً فوضعه، ثم قال: «يا أبا بكر! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجري»، ثم قال: «يا عمر! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر أبي بكر»، ثم قال: «يا عثمان! خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر»[2].

قال بعضهم: كأنه صلى الله عليه وسلم أشار إلى ترتيب الخلافة[3].

قوله: (الذي وصفه الله بأنه مسجد أسس على التقوى).

الوصول إلى المدينة

قوله: (ثم تحول عليه السلام إلى المدينة): قال الدحلاني: ولما ركب

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ٢٧٠).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٥٣)، من حديث سفينةَ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه زيادة: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هؤلاء الخلفاء من بعدي».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٧).

والأنصارُ محيطون به متقلدي سيوفهم، وهنا حدّثْ ولا حَرَج عن سرور أهل المدينة، فكان يومُ تحوله إليهم يوماً سعيداً لم يُروا فرحين بشيء فرحَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البَدرُ علينا من ثَنِيَّاتِ الوداع

صلى الله عليه وسلم وخرج من قباء، سار الناس معه ما بين ماش وراكب، ولا زال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة حرصاً على كرامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً له، حتى دخل المدينة الشريفة، وقال بنو عمرو بن عوف له حين أراد الخروج من قباء: يا رسول الله! أخرجْتَ ملالاً لنا، أو تريد داراً خيراً من ديارنا؟ قال: «إني أُمرت بقرية تأكل القرى[1] ـ أي: تغلبها وتقهرها، والمراد هنا: أن أهلها يفتحون القرى ـ ، فخلُّوا سبيلَها»[2].

قوله: (وخرج النساء والصبيان): قال الحلبي: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، أضاء منها كل شيء[3].

وصعِدت ذواتُ الخدر على الأجاجير ـ أي: الأسطحة ـ عند قدومه صلى الله عليه وسلم يُعْلِنَّ: طلع البدر علينا، ولعبت الحبشةُ بحرابها فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم[4].

قوله: (من ثنيات الوداع): الثنية: العقبة، وتجمع على ثنيات، وثنيات

---

(١) روى البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي المدينة».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤)، والخبر المذكور رواه البيهقي (٢/ ٤٩٧ ـ ٥٠١) عن موسى بن عقبة.

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٨)، وقال: حديث غريب صحيح.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٤، ٢٤٠).

وجـــب الشـــكر علينـــا مـــا دعـــا لله داع

أيُّهـــا المبعـــوثُ فينـــا جئـــتَ بـــالأمرِ المُطـــاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين ماشٍ وراكب يتنازعون زمامَ ناقته، كلٌّ يريد أن يكون نزيله[1].

أول جمعة

وأدركته عليه الصلاة والسلام صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فنزل وصلاّها، وهذه أولُ جمعة له عليه الصلاة والسلام، وأول خطبة خطبها عليه الصلاة والسلام حَمِدَ الله، وأثنى عليه، . . . .

الوداع: هي من جهة الشام، إلا أنه صلى الله عليه وسلم جاء من جهتها في دخوله للمدينة عند خروجه من قباء.

وقيل لها: ثنية الوداع؛ لأن المودِّع يمشي مع المسافر من المدينة إليها، وهو اسم قديم جاهلي، وقيل: إسلامي، سمي ذلك المحل لذلك، وقيل غيرُ ذلك. اهـ. حلبي[2].

أول جمعة

(في بني سالم بن عوف): قال الدحلاني: ثم أدركته صلاة الجمعة في مسجد بني عوف، وهو المسجد الذي في بطن الوادي على يمين السالك إلى مسجد قباء، ويسمى: مسجد الجمعة، فصلاها بمن معه من المسلمين، وكانوا مئة. اهـ[3].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤).

ثم قال: «أما بعد: أيها الناس! فقدموا لأنفسكم، تَعْلُمنَّ ـ والله ـ ليُصْعَقَنَّ أحدُكم، ثم ليَدَعَنَّ غَنمه ليس لها راعٍ، ثم ليقولَنَّ له ربه ـ ليس له تَرجمان ولا حاجب يحجبه دونه ـ: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً، وأفضَلتُ عليك؟ فما قدَّمْتَ لنفسك؟ فَلَينظُرنَّ يميناً وشِمالاً فلا يرى شيئاً، ثم ليَنظرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يَقِيَ وجهه من النار ولو بشِقٍّ تمرة فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة؛ فإنّ بها تُجْزَى الحسنةُ عشرة أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

النزول على أبي أيوب

ثم ساروا، وكلما مرّوا على دار من دور الأنصار، يتضرّعُ إليه أهلها بأن ينزل عندهم، ويأخذون بزمام الناقة، فيقول: «دعوها فإنها مأمورة»، . . .

قوله: (ليصعقن أحدكم): الصعق: أن يُغشى على الإنسان من صوت شديد يسمعه، وربما مات منه، ثم استعمل في الموت كثيراً. اهـ. «نهاية»[2].

النزول على أبي أيوب

قوله: (يتضرع إليه)؛ أي: فبعضهم كان يقول له: يا رسول الله! هلُمَّ إلى القوة والمنعة، وبعضهم يقول: أقم عندنا في العز والثروة والمنعة، وبعضهم يقول: انزل فينا؛ فإن فينا العدد والعدد والحلقة ـ أي: السلاح ـ ونحن أصحاب للحلائف والدرك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم وهو مبتسم: «بارك الله فيكم، خلوا سبيلها ـ أي: الناقة ـ فإنها مأمورة»[3].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٤) من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٤٢).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٠١) عن موسى بن عقبة بنحوه، =

ولم تَزَل سائرةً حتى أتت بِفنَاء بني عَدِيٍّ بنِ النجار ـ وهم أخواله الذين تزوج منهم هاشمٌ جدُّه ـ ، فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي أيوبَ الأنصاريِّ، واسمه: خالدُ بنُ زيد، وذلك مَحلُّ مسجده الشريف، فقال عليه الصلاة والسلام: «هاهنا المنزل إن شاء الله، ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[المؤمنون: ٢٩]»[1].

وفي ذلك حكمة بالغة هي أن يكون تخصيصه عليه السلام لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب فيها النفوس، وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صدر أحدهم شيئاً. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (بفناء بني عدي بن النجار): قال الدحلاني: لما وصلت إليهم، قالوا له صلى الله عليه وسلم: نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة والعزة مع القرابة، لا تجاوزنا لغيرنا يا رسول الله، ليس أحد من قومك أولى بك منا لقرابتنا، فأجابهم بمثل ما تقدم، وبأنها مأمورة، فانطلقت حتى بركت بمحلة من محلاتهم. اهـ[3].

وقال بعد ذلك: وجاء في رواية: أن ناقته صلى الله عليه وسلم حين بركت في دار بني النجار جاء رجل من بني سلمة، وهو جبار بن صخر ـ رضي الله عنه ـ، وكان من صالحي المسلمين، فجعل ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل في دار سلمة، فلم تفعل. اهـ[4].

= و(٢/ ٥٠٨) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(١) رواه مسلم (٢٢١٩/ ٩٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «هذا المنزل إن شاء الله»، وانظر: «سبل الهدى والرشاد» للصالحي (٣/ ٢٧٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٧).

فاحتمل أبو أيوب رَحْله، ووضعه في منزله، وجاء أسعدُ بنُ زرارةَ فأخذ بزمام ناقته، فكانت عنده، وخرجت ولائدُ بني النجار يقلن:

نَحْنُ جَوارٍ من بني النَّجَّارِ يا حبّذا محمدٌ مِنْ جَارِ

فخرج إليهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أتحببنني؟» فقلن: نعم، فقال: «الله يعلم أن قلبي يحبكن»[1].

واختار عليه الصلاة والسلام النزول في الدَّوْرِ الأسفل من دار أبي أيوب؛ ليكون أريحَ لزائريه، ولكن لم يرضَ ـ رضي الله عنه ـ ذلك كرامة لرسول الله؛ لما يمكن أن يصيبه من التراب الذي يُحدِثه وطء الأقدام، أو الماء الذي يهراق، فقد اتفق أن كُسرت من زوجته جرّةُ ماء بالليل، فقام هو وهي بقطيفتهما التي ليس لهما غيرُها، يمسحان الماء خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم يَزَلْ أبو أيوب يستعطفه حتى كان في العُلْو، وكانت تأتيه الجِفَانُ كل ليلة من سرَاة الأنصار؛ كسعد بن عبادة، وأسعدَ بن زرارة، وأُم زيد بن ثابت، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد[2].

قوله: (في الدور الأسفل): قال الدحلاني: قال أبو أيوب ـ رضي الله عنه ـ: لما نزل صلى الله عليه وسلم في بيتي، نزل في السُّفْل، وكنت أنا وأم أيوب في العُلْو، فقلت: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي! إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت وكن في العلو، وننزل نحن ونكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب! إن الأرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٠٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٤ ـ ١٨٦).

نزول المهاجرين

ولما تحول مع رسول الله أغلبُ المهاجرين، تنافسَ فيهم الأنصار، فحكَّموا القرعةَ بينهم، فما نزل مُهاجريٌّ على أنصاري إلا بقُرعة[1].

أُخُوَّةُ الإسلام

ومن يتأملْ إلى هذه المحبة التي يستحيل أن تكون بتأثير بشر، بل بفضل من الله ورحمته، يفهمْ كيف انتصر هؤلاء الأقوام على معانديهم من المشركين وأهلِ الكتاب مع قلّة العَدد والعُدد.

فلما خلوت إلى أم أيوب، قلت لها: رسول الله أحقُّ بالعلو منا، تنزل عليه الملائكة، وينزل عليه الوحي، فما بت تلك الليلة لا أنا ولا أم أيوب بحالة هنيئة، بل بشرٍّ ليلةٍ لتلك الفكرة، فلما أصبحت قلت: يا رسول الله! ما بت الليلة أنا ولا أم أيوب، والذي بعثك بالحق! لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً، فلم يزل يتضرع إليه حتى تحول إلى العُلْو. اهـ[2].

باختصار قليل: ومكث صلى الله عليه وسلم في دار أبي أيوب سبعة أشهر إلى أن بنى المسجد وبعض مساكنه. اهـ. منه[3].

نزول المهاجرين

قوله: (فما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة)؛ أي: وكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم. اهـ. دحلاني[4].

أخوة الإسلام

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨).

وكان الأنصار يؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، قال تعالى في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

قوله تعالى: (﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ...﴾) إلخ: قال الواحدي في «أسباب النزول»: سبب نزول الآية: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله! اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين، فقال: «لا، ولكنهم يكفونكم المؤونة، وتقاسمونهم الثمرة، والأرضُ أرضكم»، قالوا: رضينا، فأنزل الله تعالى الآية. اهـ[1].

قال البيضاوي: والمراد: أنهم لزموا المدينة والإيمان، وقيل: المعنى تبوؤوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحذف المضاف إليه من الأول، والمضاف من الثاني، أو تبوؤوا الدار، وأخلصوا الإيمان؛ كقوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[2]

قوله تعالى: (﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾)؛ أي: ما يحمل عليه الحاجة كالطلب والحزازة والحسد والغيظ.

وقوله: (﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾)؛ أي: يقدمون المهاجرين على أنفسهم، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوجها من أحدهم. اهـ[3].

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٨٠)، والخبر المذكور رواه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ١٠٦) عن يزيد بن الأصم.

(٢) البيت من الرجز، وهو لذي الرُّمَّة. انظر: «ديوانه» (ص: ٦٢٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢٠).

وهذا أعلى درجات الأخوة، وكل ذلك كانوا يرونه قليلاً بالنسبة لما وجب عليهم لإخوانهم؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُمَكِّنَ بينهم الإخاء، آخى بين المهاجرين والأنصار، فكان كل أنصاري ونزيلُه أخوين في الله[1].

قوله: (آخى بين المهاجرين والأنصار): كان ذلك بعد قدومه صلى الله عليه وسلم المدينةَ بخمسة أشهر، وإنما فعل ذلك؛ لتذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، وكان جملة الذين آخى بينهم تسعين رجلاً؛ خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ولما عز الإسلام، واجتمع الشمل، أبطلَ المواريثَ بين المتواخين، وجعل المؤمنين كلهم أخوة، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبذل الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ جهدَهم في ذلك. اهـ. دحلاني[2].

ومن جملة من آخى بينهما: سعدُ بن الربيع وعبدُ الرحمن بن عوف، فقال سعد له: إني من أكثر الأنصار مالاً، فأنا مقاسمك، وعندي امرأتان، فأنا مطلِّق إحداهما، فإذا انقضت عدتها فتزوجْها، فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك. اهـ. منه[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٧٨١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.
وفي هامش الأصل: «هنا ننقل ما في «وفاء الوفا» للسمهودي (تاريخ المدينة) (ص: ١٩١) من قوله: وأخرج الحاكم... إلخ».
والنص المشار إليه هو ما قاله السمهودي في «وفاء الوفا» (١/ ٢٠٨): «وأخرج =

ومن العبث أن نكلف القلم أن يوضّح للقارئ أن هذه الأخوة كانت أرقى بكثير من الأخوة العصبية، بل نَكِلُ ذلك للإحساس الإسلامي؛ فإنه أفصحُ منطقاً من القلم. وعلى الإجمال، فتلك قلوب أَلَّفَ الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً في أجسام متفرقة، وعسى الله أن يوفّق مسلمي عصرنا إلى هذا الإخاء حتى يسودوا كما ساد المتحدون، وكان هذا الإخاء على المواساة والحق، وأن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لكل اثنين: «تآخيا في الله أخَوين أخوين»[1].

ودام هذا الميراث إلى أن أنزل الله سبحانه قوله في سورة الأحزاب: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأحزاب: ٦].

هجرة أهل البيت

ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة، أرسل زيدَ بنَ حارثة وأبا رافع إلى مكةَ ليأتيا بمن تخلّف من أهله، . . . .

قوله: (ومن العبث): العبث: هو عملُ ما لا فائدة فيه. اهـ. مصباح[2].

هجرة أهل البيت

= الحاكم وابن عبد البر بسند حسن: أنه صلَّى الله عليه وسلَّم آخى بين الزبير وابن مسعود، وهما من المهاجرين».

رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٧٢) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٥١١).

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٤/ ١٨٣٠) من حديث عبد الرحمن بن عويم ابن ساعدة الأنصاري، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عبث).

وأرسل معهما عبدَالله بن أُرَيقط يدلهما على الطريق، فقَدِما بفاطمةَ وأُم كلثوم ابنتيه عليه الصلاة والسلام، وسَودةَ زوجِه، وأُمِّ أيمنَ زوجِ زيدٍ، وابنهما أسامة، وأما زينبُ فمنعها زوجُها أبو العاص بن الربيع، وخرج مع الجميع عبدُالله بن أبي بكر بأُمّ رومان، زوجِ أبيه، وعائشة أختِه، وأسماءَ زوجِ الزبير بن العوّام، وكانت حاملاً بابنها عبدِالله، وهو أولُ مولود للمهاجرين بالمدينة[1].

حُمَّى المدينة

ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة، فأصاب كثيراً منهم الحُمَّى، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعُودهم، فلما شَكَوا إليه الأمر، قال: «اللهمّ حبب إلينا المدينة كما حببتَ إلينا مكةَ وأشدَّ، وبارك لنا في مُدِّها وفي صاعها، وانقل وباءها إلى الجُحْفَة». فاستجاب الله جَلَّ وعلا دعوته، وعاش المهاجرون في المدينة بسلام[2].

قوله: (فمنعها زوجها) دام ذلك إلى أن أُسر ببدر، فلما منَّ عليه، أرسلها إلى المدينة.

قوله: (وعائشة)، وبنى بها صلى الله عليه وسلم على رأس تسعة أشهر من الهجرة في شوال.

حُمّى المدينة

قوله: (موافقاً للمهاجرين): قال الدحلاني: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وُعِكَ أبو بكر وبلال ـ رضي الله عنهما ـ بالحمى.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٠٣).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٨٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٣).

وروى النسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وهي أوبأ أرض الله، أصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم، وأصابت الحمى أبا بكر وبلالاً وعامر بن فهيرة، فاستأذنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم، وذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب، فأذن لي، فدخلت عليهم وهم في بيت واحد، فقلت: يا أبت! كيف تجدك؟ وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ إذا أخذته الحمى يقول إذا قيل له: كيف تجدك:

كل امرئ مصبح في أهله والموتُ ... أدنى من شِراكِ نعلِه

قالت: فقلت: إنا لله، إن أبي يهذي، وما يدري ما يقول، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقه ... إن الجنان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطَوْقه ... كالثور يحمي أنفَه برَوْقه

فقلت: هذا ـ والله ـ ما يدري ما يقول، أي: لأنها سألتهم عن حالهم، فأجابوها بما لا تعلق له.

والطوق: الطاقة.

والروق: القَرْن، يضرب مثلاً في الحث على حفظ الحرم.

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يقول: ـ وفي ابن هشام: رفع عقيرته فقال[1] ـ:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ

وهل أردَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ ... وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣٢).

والمراد بالوادي: وادي مكة، والإذخر والجليل: نباتان، وشامة وطفيل: ماءان بقرب مكة.

اللهم العنْ عتبةَ بنَ ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، وأميةَ بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فجئت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته، وقلت: يا رسول الله! إنهم ليهذون وما يفعلون من شدة الحمى، فنظر إلى السماء وقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا لمكة أو أشدَّ، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدِّنا، وصَحِّحْها لنا، وانقلْ حُماها إلى الجُحْفَة»[1]، فاستجاب الله له، فطيب هواءها وترابها، وسُكناها والعيشَ بها، حتى إن من أقام بها يجد من تربتها وحيطانها رائحة طيبة لا تكاد توجد في غيرها. اهـ[2].

قال الحلبي: ودعاؤه صلى الله عليه وسلم أن يحبب إليهم المدينة إنما هو لِما جبلت عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه، ومن ثم جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رجلاً بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له: كيف تركت مكة، فذكر من أوصافها الحسنة ما اغرورقت[3] عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لا تشوقْنا يا فلان»[4]، وفي رواية قال له: «دع القلوب تقر». اهـ[5].

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧٤٩٥). ورواه البخاري (١٨٨٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٣) في «السيرة الحلبية»: «غرغرت منه».

(٤) أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ١٣٧).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٣)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «دع القلوب تقر» رواه أبو الفتح الأزدي في «المخزون في علم الحديث» =

منع المستضعفين من الهجرة

ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة، وحبسوهم وعذبوهم، منهم: الوليد بن الوليد، وعيَّاش بن [أبي] ربيعة، وهشام بن العاص، فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته[1].

روي عن الأصمعي قال: سمعت أعرابيًّا يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل، فانظر كيف محبتُه إلى أوطانه، وشوقُه إلى إخواته.

قال المؤلف في الذيل: والجُحْفَةُ: قرية على اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وهي ميقات أهل الشام.

قال الحلبي: وهي قريبة من رابغ محل إحرام من يجيء من جهة مصر حاجًّا، وكان سكانها إذا ذاك يهوداً. اهـ[2].

منع المستضعفين من الهجرة[3]

قوله: (وعياش بن [أبي][4] ربيعة) قال الدحلاني: إن أبا جهل وأخاه

= (ص: ٤٧) من حديث بديح بن سدرة السلمي. وانظر: «الإصابة» لابن حجر (١/ ٩٢).

(١) رواه البخاري (٨٠٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرفع رأسه يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» يدعو لرجال فيسميهم بأسمائهم، فيقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٣).

(٣) سقط من الأصل: «منع المستضعفين من الهجرة».

(٤) ما بين معكوفتين من «نور اليقين» (ط دار الإيمان)، وقد تم التصويب في المتن المثبت أعلى الصفحة.

وهذا أصل القنوت، وقد حصل في أوقات مختلفة، وَمحالَّ في الصلاة مختلفة، فكان في وتر العشاء، وصلاة الصبح بعدَ الركوع وقبلَه، فروى كل صحابي ما رآه، وهذا سبب اختلاف الأئمة في مكان القنوت[١].

الحارث بن هشام ـ هذا أسلم بعد ذلك ـ قدما المدينة، فكلما عياشاً ـ وكان أخاهما لأمهما وابنَ عمهما ـ فقالا له: إن أمك نذرت أن لا تغسل رأسها، ولا يمسَّ رأسها مشط، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، وأنت في دين منه البر للوالدين، فارجع إلى أمك، واعبد ربك كما تعبد في المدينة، فرقت نفسه وصدقهما، وأخذ عليهما المواثيق أن لا يغشياه بسوء.

ونصحه عمر ـ رضي الله عنه ـ، وشاطره ماله، فأبى، ولما خرج راجعاً معهما، كتفاه وجلداه نحواً من مئة جلدة، ودخلا به مكة موثقاً، وقالا: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهائكم، ولما جيء به مكة، أُلقي في الشمس، وحلفت أمه أنه لا يخلى عنه حتى يرجع عما هو عليه، ثم حُبس بمكة مع هشام بن العاص وغيره، وجُعل كل منهما في قيد، وكان ذلك قبل هجرته صلى الله عليه وسلم، ولما أتى المدينة، صار يدعو لهم في قنوت الصبح.

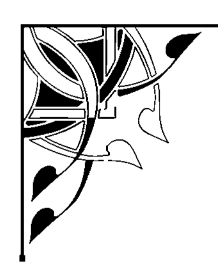
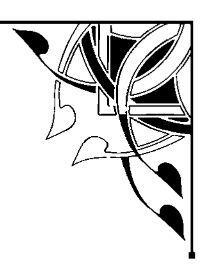
والوليد هو أخو خالد، وكان مع كفار قريش يوم بدر، فأُسر مع من أُسر، وافتكه أخواه خالدٌ وهشام بن الوليد، وذهبا به إلى مكة، فأسلم وأراد الهجرة، فحبس، وقيل له: هلا أسلمت قبل أن تفتدى، فقال: كرهت اليسار، ثم نجا وتوصل إلى المدينة، ثم رجع إلى مكة مستخفياً، وخلص عيّاشاً وهشاماً، وجاء بهما المدينة، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وشكر صنيعه. اهـ. ملخصاً[٢].

❑ ❑ ❑

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٨٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٠٠).

السَّنة الأولى

بناء المسجد

ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده في مَبْرك ناقته أمام محلّة بني مالك بن النجار، وكان محله مِرْبَداً للتمر يملكه غلامان يتيمان في حِجر أسعدَ بنِ زرارة، فدعا الغلامين، وساومهما بالمِربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهَبُهُ لك يا رسول الله، فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة، بل ابتاعه منهما، وكان فيه قبورٌ للمشركين، وبعضُ حفر ونخل، فأمر بالقبور فنُبشتْ، وبالحفر فَسُوِّيَت، وبالنَّخل فقُطع، . . . .

السنة الأولى

بناء المسجد

قوله: (ثم شرع عليه الصلاة والسلام في بناء مسجده) كان ابتداء شروعه في بنائه من شهر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، وذلك اثنا عشر شهراً.

قوله: (في حجر أسعد بن زرارة) وقيل: كانا في حجر معاذ بن عفراء، وقيل: في حجر أبي أيوب الأنصاري، قال بعضهم: والظاهر أن الكل كانوا يتكلمون لليتيمين؛ لأنهم بنو عمٍّ، فنسبا إلى حجر كلٍّ. اهـ. حلبي[1].

قوله: (بل ابتاعه منهما) ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك، ويكون وصفهما باليتم باعتبار ما كان. اهـ. حلبي[2].

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٢).

ثم أمر باتخاذ اللبِن فاتُّخِذ، وشرعوا في البناء به، وجعلوا عِضادَتي الباب من الحجارة، وسقفوه بالجريد، وجُعلت عمدُه من جذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً، وقد عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه؛ ليرغِّب المسلمين في العمل، وصاروا يرتجزون، وهو يقول معهم:

«اللهمَّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخِرَهْ

قوله: **(وسقفوه بالجريد)** الجريد: سَعَف النخل، الواحدة: جريدة فَعيلة، بمعنى مفعولة، وإنما تسمى جريدة إذا جُرِّد عنها خُوصُها.

والسعف: أغصان النخل ما دامت بالخُوص، فإن زال الخُوص منها، قيل: جريد، الواحدة سَعَفَة؛ مثل قَصَب وقَصَبة.

والخُوص: ورق النخل، واحده: خُوصة.

والجذع: ساق النخلة، والجمع جذوع وأجذاع. اهـ. مصباح[1].

قوله: **(يرتجزون)**؛ أي: ينشدون شعراً من بحر الرجز، ووزنه مستفعلن ست مرات، والأرجوزة: القصيدة من هذا البحر.

قوله: **(الله لا خير...)** إلخ: وفي رواية: «اللهم إن الأجر أجر الآخرهْ»[2].

وهذا القول لامرأة من الأنصار، وتمامه:

وعافهم من حرٍّ نار ساعرهْ ... فإنها لكافر وكافرهْ

اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جرد، سعف، خوص، جذع).

(٢) رواه البخاري (٣٩٠٦) من حديث عروة بن الزبير.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥٥).

فـــارحَمِ الأنصـــارَ والمُهـــاجِرَهْ»[1]

وجُعلت قبلةُ المسجد في شماله إلى بيت المقدس، وجُعل له ثلاثـة أبواب، ثم حُصِبت أرضه؛ لأن المطر كان قد أثَّر فيه، فـأمر عليـه الصـلاة والسلام بحَصْبه، ولم يزين المسجد بِفُرُشٍ، حتى ولا بالحُصر، وبُني بجانبه حجرتان، إحداهما لسَودةَ بنتِ زمعة، والأخرى لعائشة، ولم يكـن عليـه الصلاة والسلام متزوجاً غيرَهمـا إذ ذاك، وكانـت الحجرتـان متجـاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، . . . .

قوله: (ثم حصبت أرضه): سببه أن المطر جاء ذات ليلة، فأصـبحت الأرض مبتلة، فجعل الرجل يأتي بالحصا في ثوبه، فيبسطه تحته ليصلي عليـه، فلمـا قضـى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: «ما أحسنَ هذا!». اهـ. حلبي[2].

قوله: (على شكل بنائه)؛ أي: أنهما كانا من لبن، وجعـل سقفهمـا مـن جذوع النخل والجريد. اهـ[3].

قال الحلبي: وعند شروعه في بناء المسجد، قدم رجل مـن أهـل اليمامـة يقال له: طَلْق، من بني حنيفة، فرأى النبيَّ صلى الله عليـه وسـلم يبنـي مسـجده والمسلمون يعملون معه فيه، قال: وكنت صاحب علاج الطين، فأخذت المسحاة، وخلطت بها الطين، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله امْرَأً أحسـن صنعته»، وقال لي: «الزم أنت هذا الشغل، فإني أراك تحسنه»[4].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) عن الزهري.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)، والخبـر المـذكور رواه أبو داود (٤٥٨) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٧٣)، والحديث المذكور =

وصارت الحُجُرات تُبنى كلما جاءت زوج[1].

بدء الأذان

أوجب الله الصلاة على المسلمين ليكونوا دائماً متذكرين عظمة العليّ الأعلى، فيتبعون أوامره، ويجتنبون نواهيه، ولذلك قال في مُحكم كتابه في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وجعل أفضل الصلاة ما كان جماعة؛ . . . .

بدء الأذان

قوله: (بدء الأذان)؛ أي: والإقامة، وكلٌّ منهما من خصائص هذه الأمة.

قوله: (أوجب الله . . . إلخ) المراد بالوجوب في كلامه: الواجب اللغوي، وهو الثبوت؛ أي: جعل الله الصلاة على المسلمين ثابتة مستحقة.

قوله: (﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾) والفحشاء: ما قبح من الأعمال، والمنكر: ما لا يعرف في الشرع.

وعن أنس: كان فتًى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فوُصف لرسول صلى الله عليه وسلم حالُه، فقال: «إن صلاته تنهاه يوماً»، فلم يلبث أن تاب، وحَسُن إسلامه. اهـ[2]. «نزهة الناظرين».

= أورده رزين كما في «جامع الأصول» لابن الأثير (١١/ ١٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٥١).

(٢) قال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٩٧): «قال الحافظ ابن حجر: لم أجده، قال الولي العراقي: لم أقف عليه». =

ليذاكر المسلمون بعضُهم بعضاً في شؤونهم واحتياجاتهم، ويقوّوا روابط الألفة والاتحاد بينهم، ومتى حان وقت الصلاة، فلا بدّ من عمل ينبه الغافل، ويذكّر الساهي حتى يكون الاجتماع عامّاً، فائتمر النبي عليه الصلاة والسلام مع الصحابة فيما يفعل لذلك، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا ذلك؛ لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب، فلم يُقبل أيضاً، وأشار آخرون ببوق، وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم، فكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يكن يحب تقليد اليهود في عمل ما، وأشار بعضهم بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً، وأشار بعضهم بالنداء، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها، فقُبِل هذا الرأي.

وكان أحد المنادين عبدالله بن زيد الأنصاري، . . . .

قوله: (فلم يقبل أيضاً)؛ أي: وقال: ذلك للمجوس.

قوله: (وينادي بها)، وكان اللفظ الذي ينادي به: الصلاة جامعة، كما رواه ابن سعد. اهـ. حلبي[1].

= وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما يقول». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٥٨): رجاله رجال الصحيح.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٧)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٦) عن نافع بن جبير، وعروة بن الزبير، وزيد ابن أسلم، وسعيد بن المسيب.

فبينما هو بين النائم واليقظان، إذ عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النداء بالصلاة؟ قال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر الله أكبر مرتين، وتشهَّد مرتين، ثم قل: حيَّ على الصلاة مرتين، ثم قل: حيَّ على الفلاح مرتين، ثم كبر ربك مرتين، ثم قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ، توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبره خبر رؤياه، فقال: «إنها لرؤيا حق»، ثم قال له: «لقِّنْ ذلك بلالاً؛ فإنه أندى صوتاً منك»، وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمرُ يجر رداءه، فقال: والله! لقد رأيتُ مثلَه يا رسول الله[1].

وكان بلال أحدَ مؤذنيه بالمدينة، والآخرُ عبدُالله ابنُ أُم مكتوم، وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حيّ على الفلاح: الصلاةُ خيرٌ من النوم، مرتين، وأقرّه الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك[2].

قوله: (يجر رداءه)؛ أي: عَجِلاً.

قوله: (وأقره الرسول على ذلك) قال المقريزي في «خطط مصر»: أول من قال في الأذان بالليل: محمدٌ وعليٌّ خيرُ البشر: الحسينُ المعروف بأمير، وكان أول تأذينه بذلك في أيام سيف الدولة بن حمدان في سنة سبع وأربعين وثلاث مئة، ولم يزل الأذان بحلب يزاد فيه: حيَّ على خير العمل، ومحمدٌ وعليٌّ خيرُ البشر إلى أيام نور الدين محمود؛ فإنه لما فتح المدرسة الكبيرة المعروفة بالحلاوية؛ استدعى أبا الحسن البلخي إليها، فجاء ومعه جماعة من الفقهاء، وألقى بها الدروس، فلما سمع الأذان، أمر الفقهاء أن يصعدوا المنارة وقت الأذان، وقال

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٩)، والترمذي (١٨٩)، من حديث عبدالله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨) من حديث بلال ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تثوبن في شيء من الصلوات إلا في صلاة الفجر».

وكان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين: أولُهما يوقَظ به الغافلون حتى يَنْتَبِهوا للسحور، والثاني للصلاة[1].

وأما الأذان للجمعة، فكان أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان، وكثر الناس، زاد نداءً آخرَ على الزوراء. رواه البخاري[2].

لهم: مروهم يؤذنوا الأذان المشروع، ومن امتنع، كبوه على رأسه، فصعدوا، وفعلوا ما أمرهم به، واستمر الأمر على ذلك[3].

قوله: (بأذانين)؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «إن بلالاً يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم»؛ فإنه يؤذن وقد حل [وقت] الصلاة[4]. اهـ. الجواهر المدنية.

قوله: (الزوراء): ع[5] في المدينة قرب المسجد. اهـ. قاموس[6].

---

(١) رواه البخاري (٦١٧) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٢) رواه البخاري (٩١٢) من حديث السائب بن يزيد ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

(٣) انظر: «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقريزي (٤/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٤) رواه البخاري (٦١٧)، ومسلم (١٠٩٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً، ولفظ البخاري: «إن بلالاً يؤذِّن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابنُ أمِّ مكتوم»، ثم قال: وكان رجلاً أعمى، لا ينادي حتى يقال له: أصبحتَ أصبحتَ.

(٥) في النسختين: «عين»، والصواب المثبت، وهو اختصار لـ: موضع.

(٦) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زور).

ولما تولى هشامُ بنُ عبد الملك، أخذ الأذانَ الذي زاده عثمان بالزوراء، وجعله على المنار، ثم نقل الأذان الذي كان على المنار حين صعود الإمام على المنبر في العهد الأول بين يديه.

فعُلم بذلك: أن الأذان في المسجد بين يدي الخطيب بدعة أحدثها هشام بن عبد الملك، ولا معنى لهذا الأذان؛ لأنه هو نداء إلى الصلاة، ومن هو في المسجد لا معنى لندائه، ومن هو خارج المسجد لا يسمع النداء إذا كان النداء في المسجد. ذكر ذلك الشيخ محمد بن الحاج في «المدخل».

قال الحافظ في «فتح الباري»: وأما ما أحدث الناس قبل الجمعة من الدعاء إليها بالذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو في بعض البلاد دون بعض، واتباعُ السلف الصالح أولى[1]. اهـ.

فعُلم من ذلك كله: أن سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أذان الجمعة أنه كان إذا جلس على المنبر أذّن مؤذنُه على المنار، فإذا انتهت الخطبة، أُقيمت الصلاة، وما عدا ذلك فكلُّه ابتداع.

وقال صاحب «المدخل»: هو موضع بالسوق[2].

قوله: (بين يديه): قال في «المدخل» بعد أن ذكر ما ذكره المؤلف هنا عن هشام بن عبد الملك: وسنة النبي صلى الله عليه وسلم أولى أن تتبع. اهـ[3].

قوله: (فكله ابتداع): قال في «المدخل»: قسم العلماء البدعة إلى خمسة أقسام:

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٣٩٤).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٠٨).

(٣) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٠٨).

أما الإقامة، وهي الدعوة للصلاة في المسجد، فقد اختلفت الروايات في نصها، فرواها محمدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ مفردةً إلّا لفظ: (قد قامت الصلاة)، فمَثْنَى، ورواها مالك بن أنس مفردةً كلها، ورواها أبو حنيفة النعمان مَثْنَى كلها[1].

يهود المدينة

هذا، وكما ابتلى الله المسلمين في مكة بمُشركي قريش، ابتلاهم في المدينة بيهودها، وهم: بنو قينقاع، وقريظة، والنضير؛ . . . .

بدعة واجبة: مثل كَتْبِ العلم؛ فإنه لم يكن من فعلِ مَنْ مضى؛ لأن العلم كان في صدورهم، وشَكْلِ المصحفِ ونقْطِه.

وبدعة مستحبة: قالوا: مثل بناء القناطر، وتنظيف الطرق لسلوكها، وتهييءِ الجسور، وبناء المدارس والرُّبط، وما أشبه ذلك.

وبدعة مباحة: كالمنخل.

وبدعة مكروهة: مثل الأكل على الخوان، وما أشبهه.

وبدعة محرمة: وهي أكثر من أن تنحصر. اهـ[2].

يهود المدينة

قوله: (ابتلاهم الله بيهودها) قال الدحلاني: عند ظهور الإسلام وقوته

---

(١) حديث إفراد الإقامة رواه البخاري (٦٠٧) من حديث إسماعيل بن إبراهيم، عن خالد، عن أبي قلابة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: أُمر بلالٌ أن يشفع الأذان، وأن يوتر الإقامة، قال إسماعيل: فذكرت لأيوب، فقال: إلا الإقامة. وحديث شفع الإقامة رواه الترمذي (١٩٤) من حديث عبدالله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ. وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٨٣ ـ ٨٥).

(٢) انظر: «المدخل» لابن الحاج (٢/ ٢٥٧).

فإنهم أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق، وكانوا قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم يستفتحون على المشركين من العرب ـ إذا شبّت الحرب بين الفريقين ـ بنبيٍّ يُبعث قد قَرُب زمانه، فلما جاءهم ما عرفوا، استعظم رؤساؤهم أن تكون النبوّة في ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغياً، مع أنهم يرون أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأتِ إلّا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله التي أنزلها على من سبقه من المرسلين، مبيّناً ما أفسده التأويل منها، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

ومما عابوه على الإسلام: نسخُ الأحكام، وما دَرَوا أن القادر العليم يعلم ما يحتاج إليه الإنسان أكثر منهم، فإنه ميال بطبعه للترقّي، . . . .

بالمدينة قامت نفوس أحبار اليهود، ونصبوا العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بغياً وحسداً؛ لما خُصَّ به العرب، وأنزل الله فيهم: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[آل عمران: ١١٨] الآيات.

فمن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته: حُيَيٌّ، وأبو ياسر، وجُدَيّ بنو أخطبَ، وسلام بن مِشْكَم ـ كمنبر ـ، وكنانة بن الربيع، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن صوريا، وابن صلوبا، ومخيريق، ثم أسلم، وصحبَ ـ رضي الله عنه ـ، وكان له سبع حوائط، فأوصى بها للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان نصبُهم له العداوة عند مشروعية الأذان، والإعلانِ بالشهادة له صلى الله عليه وسلم. اهـ[1].

قوله: (ومما عابوه على الإسلام: نسخُ الأحكام): قال ابن ملك في شرح المنار: أنكر اليهود وبعض الروافض النسخ؛ متمسكين بأن الأمر يدل على حسن المأمور به، والنسخ يوجب الجهل بعواقب الأمور، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٣٥).

والرسول عليه الصلاة والسلام وجد باديً بدء بين جماعة من العرب أُميين، ليسوا على شيء من الاعتقادات الإلهية، فكانت الحكمة داعية لأن يكون التشريع لهم على التدريج، لأنه لو حرَّم الله عليهم شرب الخمر وأكلَ الربا، وأمرَهم بالصلاة والزكاة، وهكذا إلى آخر الأوامر والمناهي التي جاء بها الشرع الإسلامي، لما أجابه أحد من هؤلاء النافرة قلوبُهم، المختلفة أهواؤهم، الذين كانوا منغمسين في كثير من الأضاليل، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر شيئاً فشيئاً حتى رُوِّضت عقولُهم، وهُذِّبت نفوسُهم، وكانت الأحكام لا يُنزلها الله عليه إلا عقب الحوادث التي تقتضيها، ليكون التأثير في النفوس أشدَّ، ولكن اليهود أرادوا غَلَّ يد القدرة عن أن تفعل إلا ما يشتهون، وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البُعد عن الحق، فقال في سورة البقرة: . . . .

وجوابه: أن الفعل قد يكون مصلحة في وقت دونَ وقت؛ كشرب الأدوية، فلا يلزم الجهل.

والنسخ فيه جهتان: ففي حق الله تعالى بيان محض لانتهاء الحكم الأول ليس فيه معنى التبديل؛ لأنه كان معلوماً عند الله تعالى أنه ينتهي في وقت كذا بالناسخ، فكان الناسخ بالنسبة إلى علمه تعالى مبيناً للمدة لا رافعاً، وهو في حق البشر تبديل؛ لأنه زال ما كان ظاهر الثبوت، وخلفَه شيء آخر. اهـ[1].

قال في «إظهار الحق»: ثم إن النسخ في اللغة: الإزالة، وفي اصطلاح أهل الإسلام: بيان مدة انتهاء الحكم العملي الجامع للشروط؛ لأن النسخ لا يطرأ عندنا على القصص، ولا على الأمور القطعية العقلية؛ مثل أن صانع العالم موجود، ولا على الأمور الحسية؛ مثل ضوء النهار وظلمة الليل، ولا على الأدعية، ولا على

---

(١) انظر: «شرح منار الأنوار» لابن ملك (ص: ٢٤٢).

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: ٩٤]، . . . .

الأحكام التي تكون واجبةً نظراً إلى ذاتها؛ مثل: آمنوا ولا تشركوا، ولا على الأحكام المؤبَّدة؛ مثل: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾[النور: ٤]، [ولا على الأحكام المؤقتة قبل وقتها المعين؛ مثل: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٠٩]]، بل يطرأ على الأحكام التي تكون عمليةً محتملة للوجود والعدم، غيرَ مؤبدة، [وغير مؤقتة]، وتسمى: الأحكام المطلقة، وتمامه فيه(١).

ثم قال بعد ورقة: والنسخ ليس بمختص بشريعتنا، بل وجد في الشرائع السابقة بكثرة، وأورد ثمة أمثلة؛ **منها**: أن يعقوب جمع بين الأختين ليا وراحيل، وهذا الجمع حرام في الشريعة الموسوية.

ومنها: أن أبا موسى تزوج عمَّته، وهذا النكاح حرام فيها أيضاً لما جاء: لا تكشف عورة عمتك؛ لأنها قرابة أبيك(٢).

أي: وإذا كان النسخ واقعاً في شريعتهم بكثرة، فلا وجه لانتقادهم ذلك على الإسلام.

قوله: (﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾)؛ أي: خاصة بكم كما قلتم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[البقرة: ١١١].

(﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾) سائرهم، أو المسلمين، (﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾)؛ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة، اشتاقها، وأحبَّ التخلص إليها كما قال [عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ]: لا أبالي سقطتُ على الموت أو سقط الموتُ

---

(١) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٣/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «إظهار الحق على الخلق» لرحمة الله الكيرانوي (٣/ ٦٥٠ ـ ٦٥١).

ثم حتَّم جلّ ذكره عدمَ إجابتهم بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٩٥].

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق، لما تأخروا عمّا طُلب منهم مع سهولته، وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين، ولم ينقل لنا عن أحد منهم أنه تمنى ذلك، ولو نُطْقاً باللسان.

وقد تبّين الهدى لأحد رؤساء بني قينقاع، وهو عبدالله بن سَلام، فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن، وبعد أن كان اليهود يعدّونه من رؤسائهم، عدّوه من سفهائهم حينما بلغهم إسلامه، . . . .

عليَّ[1].

وقال عمار بصفِّين: الآن ألاقي الأحبة، محمداً ثم حزبه[2].

وقال حذيفة حين احتُضِر:

وجاء حبيبٌ على فاقة ... فلا أفلح اليوم من قد ندم[3]

قوله: (﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾)؛ أي: من موجبات النار[4]؛ كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وتحريف التوراة. اهـ. بيضاوي[5].

قوله: (وأسلم): قال: لما أسلمت كتمت إسلامي، ثم جئته صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب، وقلت له: لقد علمتِ اليهودُ أني سيدُهم وابن سيدهم،

---

(١) أورده البيضاوي في «تفسيره» (١/ ٣٦٤)، ولم نقف عليه مسنداً.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٥٧).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٢٠٣).

(٤) في الأصل: «الكفار».

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٣٦٤).

فـ ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]، ولما استحكمت في قلوبهم عداوة الإسلام، صاروا يجهدون أنفسهم في إطفاء نوره: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

المنافقون

وأعلمُهم وابن أعلمهم، فأخبئني يا رسول الله قبل أن يدخلوا عليك، فادعُهم واسألهم عني؛ فإنهم قوم بُهُت، وإنهم إن يعلموا أني أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، وخذ عليهم ميثاقاً إني إن اتبعتك وآمنت بك أن يؤمنوا بك وبكتابك.

ولما دخل عليه اليهود، دعاهم مراراً إلى الإسلام فأبوا، فقال لهم: «أي رجل فيكم ابن سلام؟» قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أفرأيتم إن شهد أني رسول الله، وآمن بالكتاب أن تؤمنوا؟» قالوا: نعم، فخرج عليهم وشهد له صلى الله عليه وسلم بالرسالة، فقالوا: كذبتَ، أنت أشرُّنا وابنُ أشرِّنا، قال ابن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. اهـ. دحلاني ملخصاً[١].

وكان قبل أن يسلم اسمه الحصين، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله[٢]، وكان من ولد يوسفَ الصدِّيق[٣].

المنافقون

قوله: (المنافقون): قال الدحلاني: هم جماعة من الأوس والخزرج دخلوا في دين الإسلام تقيةً من القتل لما قهرهم الإسلام بظهوره، واجتماعِ قومهم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٤٠)، والحديث رواه البخاري (٤٤٨٠) من حديث عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه يعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤٩) عن سعيد بن عبد العزيز.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٢٤).

وكان يُساعِدُهُم على مقاصدهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم، فأخفَوا كفرهم خوفاً على حياتهم، وكان يرأس هذه الجماعة عبدُالله بنُ أبيّ ابنُ سَلولَ الخزرجيُّ، الذي كان مرشحاً لرياسة أهل المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شكَّ أن ضررَ المنافقين أشدُّ على المسلمين من ضرر الكفار؛ لأن أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً.

عليه، وكانوا على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، فكان هواهم مع اليهود في السِّرِّ، وفي الظاهر مع المسلمين، وكان عددهم ثلاث مئة[1].

قوله: (عبدالله بن أبيّ) هو رأس المنافقين، ولاشتهاره بالنفاق لم يُعد في الصحابة، وكان من أعظم أشراف أهل المدينة، وكانوا قبل مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملِّكوه عليهم؛ لأن الأنصار من آل قحطان، ولم يتوجِ من العرب إلا قحطان، فلما جاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، انصرف عنه قومه إلى الإسلام، فضغن ـ أي: أضمر العداوة ـ؛ لأنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلبه ملكاً عظيماً[2].

قوله: (يدخلون بين المسلمين): قال الحلبي: من المنافقين الذين كانوا ينقلون الحديث: نبْتَل ـ بنون مفتوحة وباء ساكنة وتاء مفتوحة ـ ابنُ الحارث، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان، فلينظر إلى نبتل بن الحارث»[3]، كان يجلس إليه صلى الله عليه وسلم، ثم ينقل حديثه للمنافقين،

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٣٩).

(٣) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٥٥).

والأساس الـذي كـان عليـه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل مـا ظهر، ويترك لله مـا بطن، ولكنـه عليـه الصلاة والسلام مـع ذلك كـان لا يأمنهم في عمل ما، فكثيراً ما كان يتغيب عـن المدينـة، ويـولي عليهـا بعض الأنصار، ولكن لم يُعْهَد أنه وَلَّى رجلاً ممّن عُهِدَ عليه النفاق؛ لأنـه عليه الصلاة والسلام يعلم ما يكون منهم لو وُلُّوا عمـلاً؛ فـإنهم بـلا شـك يتخذون ذلك فرصة لإضرار المسلمين، وهذا درس مهم لرؤسـاء الإسـلام، يعلِّمهم ألّا يثقوا في الأعمال المهمة إلا بمن لم تظهر عليهم شبهةُ النفاق، أو إظهار ما يخالف ما في الفؤاد.

معاهدة اليهود

هذا، وقد علمتَ أنه كان يضادُّ المسلمين في المدينة فئتان: اليهود، والمنافقون، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قَبِـلَ من هؤلاء ظـواهرهم، وعقـد مـع أولئك عهـداً مقتضاه: تركُ الحـرب والأذى، فـلا يُحَـارِبهم، ولا يؤذيهم، ولا يُعينون عليه أحداً، . . . .

وجاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: يجلـس إليـك رجـل معـك صفته كذا نقّال الذي تحدِّث به، كبدُه أغلظُ من كبد الحمار، ينقل حـديثك إلـى المنافقين[1].

معاهدة اليهود

قوله: **(فئتان: اليهود، والمنافقون)**: قال ابن القيم في «زاد المعاد»: لمـا قدم النبي صلى الله عليه وسلم، صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبـي (٢/ ٣٣٨)، والخبـر المـذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٠١٧) عن الزبير بن بكّار.

وإن دهمه بالمدينة عدو، ينصرونه، وأقرّهم على دينهم[1].

مشروعية القتال

قد عُلم مما تقدم: أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يقاتل أحداً على الدخول في الدين، بل كان الأمر قاصراً على التبشير والإنذار، . . . .

قسم صالحهم ووادَعَهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وهم يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاباً، وبادر حبرُهم وعالمُهم عبدُالله بن سلام، فدخل في الإسلام، وأبى عامتُهم إلا الكفر.

وقسم حاربوه، ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصالحوه ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمرُ أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصارَه في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارَهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن؛ ليأمن الفريقين، وهؤلاء المنافقون، فعامل كل طائفة بما أمره به تعالى، وتمامه فيه[2].

مشروعية القتال

قوله: (مشروعية القتال)؛ أي: الإذن فيه.

قال في «زاد المعاد»: روى الحاكم في «مستدركه» عن ابن عباس: لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ . . .﴾

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩١).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٢٦).

وكان الله سبحانه يُنزل عليه من الآي ما يقوّيه على الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش، ومن ذلك: قوله في سورة الأحقاف: . . . .

[الحج: ٣٩] إلخ[١].

وقال الحلبي في أوائل باب المغازي: ثم أُذِن له في القتال ـ أي أُبيح الابتداء به ـ حتى لمن لم يقاتل؛ أي: لكن في غير الأشهر الحرم التي هي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ٥] الآية[٢]، ثم أمر به وجوباً في السنة الثانية[٣].

فخرج فيها غازياً لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر صفر حتى بلغ ودَّان ـ كما سيأتي ـ.

قوله: (ما يقويه على الصبر): قال الدحلاني: قد نُهي صلى الله عليه وسلم عن القتال في نيف وسبعين آية غالبُها بمكة، كلها يأمره فيها هو ومن معه بالصبر على الأذى، ثم أنجز الله وعده؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[غافر: ٥١][٤].

وقال في أوائل باب المغازي: وحكمةُ تأخير الإذن له بالقتال: أنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر الله المسلمين وهم قليل بالقتال، لشق عليهم، فلما بغى المشركون، وأخرجوه من مكة، وهمُّوا بقتله، واستقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة، واجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وقاموا بنصره،

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٧١)، والحديث رواه الحاكم في «المستدرك» (٢٣٧٦).

(٢) في هامش الأصل: «أقول: ويؤيد ذلك: أن السريتين الآتيتين قريباً كانتا في رمضان وشوال».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥١).

وصارت المدينة دار إسلام، ومعقلاً يلجؤون إليه؛ شرع الله جهاد الأعداء. اهـ[١].

قال الحلبي: أُذن له في القتال؛ أي: أبيح قتال من قاتل، ثم أبيح قتال من لم يبدأ به في غير الأشهر الحرم، ثم أُمر به مطلقاً؛ أي: لمن قاتل ومن لم يقاتل في كل زمن؛ أي: في الأشهر الحرم وغيرها. اهـ[٢].

قوله: (﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾) عن ابن عباس وقتادة: أن أولي العزم هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى أصحابُ الشرائع، فهم مع محمد صلى الله عليه وسلم خمسة[٣]، وقد ذكرهم الله تعالى على التخصيص في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[الأحزاب: ٧].

وروى البغوي بسنده عن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة! إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد، يا عائشة! إن الله لم يرض من أولي العزم إلا بالصبر على مكروهها، والصبر على محبوبها[٤]، ولم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم، فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وإني ـ والله ـ لا بد لي من طاعته، والله! لأصبرن كما صبروا، ولأجهدن [كما جهدوا]، ولا قوة إلا بالله». اهـ. خازن[٥].

قوله: (﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾)؛ أي: لا تستعجل بنزول العذاب عليهم؛ فإنه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

(٣) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٥٤) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢٠١) عن قتادة.

(٤) في «تفسير البغوي»: «مجهودها».

(٥) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٨)، والخبر المذكور رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ١٧٦).

وكان كثيراً ما يقصّ الله عليه أنباء إخوانه من المرسلين قبله؛ ليثبت به فؤاده، ولما ازداد طغيان أهل مكة، ألجؤوه إلى الخروج من داره بعد أن ائتمروا على قتله، فكانوا هم البادئين بالعِداء على المسلمين؛ حيث أخرجوهم من ديارهم بغير حق، فبعد الهجرة أَذِن الله للمهاجرين بقتال مشركي قريش بقوله في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾[الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

ثم أمرهم بذلك في قوله في سورة البقرة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣].

نازل بهم لا محالة. اهـ. منه[1].

قوله: (﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾)؛ أي: بالابتداء بالقتال.

وقوله: (﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ﴾)؛ أي: المحنة بالإخراج من الوطن أصعبُ من القتل؛ لدوام تعبها، وقيل: شركُهم في الحرم أشدُّ من القتل. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾)؛ أي: شرك.

وقوله: (﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾)؛ أي: فلا تعتدوا على المنتهين؛ إذ لا يحسن أن يُظلَم إلا من ظَلَم. اهـ. بيضاوي[3].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٨).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٧٦).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (١/ ٤٧٧).

وبذلك لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرض إلا لقريش دون سائر العرب، فلما تمالأ على المسلمين غيرُ أهل مكة من مشركي العرب، واتحدوا عليهم مع الأعداء، أَمر الله بقتال المشركين كافة، بقوله في سورة التوبة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[التوبة: ٣٦]، وبذلك صار الجهاد عامّاً لكل مَنْ ليس له كتاب من الوثنيين، وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام: «أمرتُ أن أُقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءَهُم وأموالهم إلا بحق الإسلامِ، وحسابُهم على الله»[1].

ولما وجد المسلمون من اليهود خيانة للعهود؛ حيث إنهم ساعدوا المشركين في حروبهم، أمر الله بقتالهم بقوله في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ....

قوله: (إلا بحقها): قيل: وما حقها؟ قال: «زِناً بعد إحصان، وكفرٌ بعد إسلام، أو قتلُ نفس. اهـ. حلبي[2].

قوله: (خيانة للعهود) أولُ من خان العهود من اليهود: بنو قينقاع، وذلك بعد وقعة بدر في السنة الثانية، ثم نقض العهدَ بنو النضير، وذلك في السنة الرابعة، ثم بنو قريظة في السنة الخامسة ـ كما سيأتي تفصيله في هذه السنين ـ.

قوله: (﴿مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾)؛ أي: نقضاً للعهد بما يظهر لك من آثار الغدر.

وقوله: (﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾)؛ أي: فاطرح إليهم عهدَهم، وارمِ به إليهم.

(﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾) يعني: على طريق ظاهر مستوٍ؛ يعني: أَعلمْهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾[الأنفال: ٥٨] وقتالُهم واجب حتى يدينوا، أو يُعطوا الجزيةَ عن يد وهم صاغرون؛ ليأمن المسلمون جانبهم، وصار قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعداء على هذه المبادىء الآتية:

١ ـ اعتبار مُشرِكي قريش محاربين؛ لأنهم بدؤوا بالعدوان، فصار للمسلمين قتالُهم ومصادرةُ تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة، أو تعقد هدنة وَقتيةٌ بين الطرفين.

٢ ـ متى رُئِيَ من اليهود خيانةٌ وتحيّزٌ للمشركين، قوتلوا حتى يؤمَنَ جانبُهم بالنفي أو القتل.

٣ ـ متى تعدّت قبيلة من العرب على المسلمين، أو ساعدت قريشاً، قوتلت حتى تدين بالإسلام.

٤ ـ كلُّ من بادأ بعداوة من أهل الكتاب، كالنصارى، قوتل حتى يُذعن بالإسلام، أو يعطي الجزية عن يدٍ وهو صاغر.

٥ ـ كلُّ من أسلم، فقد عصم دمه وماله إلا بحقه، والإسلامُ يقطع ما قبلَه.

وقد أنزل الله في القرآن الكريم كثيراً من الآي . . . .

سواء، فلا يتوهمون أنك نقضت العهد أولاً بنصب الحرب معهم. اهـ. خازن[1].

وقوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾) تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (حتى يدينوا)؛ أي: يوحدوا.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٧).

تحريضاً على الإقدام في قتال الأعداء، وتبعيداً عن الفرار من الزحف، فقال في الموضوع الأول في سورة النساء: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٤]. وقال في الموضوع الثاني في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

قوله تعالى: (﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .﴾) إلخ: قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾[النساء: ٧٢] إلخ؛ أي: إن أبطأ هؤلاء عن القتال، فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسَهم في طلب الآخرة. اهـ. بيضاوي[1].

وقوله: (﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾)؛ أي: يبيعون، يقال: شريتُ بمعنى: بعتُ، والمعنى: فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم في الدنيا بثواب الآخرة. اهـ. خازن[2].

قوله: (﴿زَحْفًا﴾)؛ أي: مجتمعين متزاحفين، وأصل الزحف: مشي مع جَرّ الرجل؛ كانبعاث الصبي قبل أن يمشي، وقيل: الزحف: المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء.

وقوله: (﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾)؛ أي: إلّا من يُظهر الانهزام وقصدُه الكرُّ عليه بعد الفَرّ، وهذا من خِدع الحرب.

وقوله: (﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾)؛ أي: منضمًّا إلى فئة أخرى من المسلمين

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣٩٨).

بدء القتال

كانت عادة قريش أن تذهَب بتجارتها إلى الشام لتبيع وتبتاع، ويُسمى الركبُ السائر بهذه التجارة: عِيْراً، وكان يسير معها لحراستها كثير من أشراف القوم وسَرَاتِهم، ولا بد لوصولهم إلى الشام من المرور على دار الهجرة، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُصادِرَ تجارتهم ذاهبةً وآيبة؛ ليكون في ذلك عقاب لمشركي مكة، حتى تضعف قوتهم المالية، فيكون ذلك أدعى لخذلانهم في ميدان القتال الذي لا بدّ أن يكون؛ لأن قريشاً لم تكن لتسكتَ عمّن سفَّه أحلامهم، وعاب عبادتهم، خصوصاً وهم قدوة العرب في الدين.

سرية [حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ]

ليستعين بهم[1].

بدء القتال

قوله: (عيراً) العِير ـ بالكسر ـ: الإبل تحمل المِيرَةَ، ثم غلب على كل قافلةٍ، اهـ. مصباح[2].

قوله: (ليكون [في] ذلك عقاب لمشركي مكة)؛ أي: وليكون ذلك سبباً لافتتاح القتال، ولتقوى قلوب أصحابه على القتال شيئاً فشيئاً، وينتفعوا بما يحصل لهم من الغنائم التي يغنمونها من تلك العير، فيستعينوا بها. اهـ. دحلاني[3].

سرية

قوله: (سرية): السرية ـ كما ذكر المصنف في الذيل ـ: قطعة من الجيش، ونريد بها: كلَّ غزاة لم يكن فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، والتي كان فيها

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٩٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عير).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

ففي شهر رمضان أرسل عمَّه حمزةَ بنَ عبد المطلب في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وعقد لهم لواء أبيضَ حمله أبو مَرْثَدٍ حليفُ حمزة؛ ليعترض عِيراً لقريش آيبةً من الشام، فيها أبو جهل، وثلاثُ مئةٍ من أصحابه المشركين، فسار حمزة حتى وصل ساحل البحر من ناحية العِيص، فصادف العير هناك، فلما تصافُّوا للقتال، حجز بين الفريقين مَجدِيُّ بنُ عمرٍو الجُهنيُّ، فأطاعوه وانصرفوا، وشكر عليه الصلاة والسلام مجدِيّاً على عمله؛ لما كان من قلة عدد المسلمين، وكثرةِ عدوِّهم[1].

تسمى: غزوة. اهـ.

وجملةُ سراياه صلى الله عليه وسلم: سبعة وأربعون، وجملةُ غزواته: تسعة وعشرون.

قوله: (ففي شهر رمضان): قال الدحلاني: وقيل: في ربيع الأول[2].

قوله: (وثلاث مئة من أصحابه): قال الدحلاني: وقيل: كانوا في مئة وثلاثين[3].

قوله: (من ناحية العيص) فسرها المصنف بعرض من أعراض المدينة؛ أي: ناحية منها، والعرض: ـ بضم العين وبكسرها، وبسكون الراء ـ.

قوله: (وشكر عليه الصلاة والسلام مجديًّا): حيث قال: «إنه ميمون النقيبة، مبارك الأمر»، أو قال: «رشيد الأمر»[4]، ولما قدم رهط مجديٍّ على

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٣٥ ـ ١٣٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٤) أورده الصالحي الشامي في «سبل الهدى والرشاد» (٦/ ١١)، وعزاه لمحمد بن عمر.

سرية [عبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ]

وفي شوال أَرسلَ عُبيدةَ بن الحارث ابنَ عم حمزة في ثمانين راكباً من المهاجرين، وعقد له لواء أبيض حمله مِسْطَحُ بنُ أُثَاثة . . . .

النبي صلى الله عليه وسلم، كساهم، ومجديٌّ هذا لم يُعلَم له إسلام، ولم يذكره أحد من الصحابة[1].

وقوله في الحديث: إنه ميمون النقيبة[2]؛ أي: مُنَجَّح الفِعال، مظفَّر المطالب، والنقيبة: النفس، وقيل: الطبيعة والخليقة. اهـ. «نهاية»[3].

سرية [عبيدة بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ]

قوله: (في ثلاثين من المهاجرين): قال الدحلاني: وإنما بعث النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين، ولم يبعث معهم أحداً من الأنصار، بل أبقاهم حتى غزا بهم بدراً؛ لأنهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم، ولم يذكر لهم وقت البيعة أنهم يخرجون من دارهم حتى جاء الأمر بالتدريج، ورضوا به، وطابت نفوسهم، فقاتلوا معه خارج المدينة. اهـ[4].

قوله: (أرسل عبيدة): قال ابن هشام: سرية عبيدة هي أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام، وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معاً، فاشتبه ذلك على الناس، فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا، فعبيدة بن

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٤).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٢٧٥) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً، ذلك في ذكره لمناقب خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ١٠١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٥).

ليعترض عيراً لقريش، فيها مِئَتا رجل، فوافوا العير ببطن رابغ، فكان بينهما الرميُ بالنبل، ثم خاف المشركون أن يكون للمسلمين كمين، فانهزموا، ولم يتبعهم المسلمون، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقدادُ بنُ الأسود، وعتبةُ بنُ غَزْوان، وكانا قد أسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين[1].

وفيات

وفي هذه السنة توفي من المهاجرين عثمانُ بنُ مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع، أسلم قديماً، ....

الحارث أول من عقد له. اهـ[2].

قوله: (فكان بينهم الرمي بالنبل): الرامي بالنبل هو سعد بن أبي وقاص لا غير، فكان أول سهم رمي به في الإسلام، وقيل: إنه نثر كنانته، وتقدم في أصحابه، فرمى بما في كنانته، وكان فيها عشرون سهماً، ما منها سهم إلا ويجرح إنساناً أو دابة. اهـ. دحلاني[3].

وفيات

قوله: (أسلم قديماً): قال ابن حجر في «الإصابة»: أسلم عثمان بن مظعون بعد ثلاثةَ عشرَ رجلاً، وهاجر إلى الحبشة هو وابنه السائبُ الهجرةَ الأولى في جماعة، فلما بلغهم أن قريشاً أسلمت، رجعوا، فرجع معهم.

وروى ابن شاهين بسنده إلى عثمان بن مظعون قال: قلت: يا رسول الله! إني رجل تشق عليَّ العزبةُ في المغازي، فتأذن لي في الخَصْي فأختصي؟ فقال:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٣٦)، وفيه: ستون راكباً.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٥).

وهاجر الهجرتين، ولما دفن، أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُرَشَّ قبرُه بالماء، ووضعَ على قبره حجراً، وقال: «أَتَعَلَّمُ به قبرَ أخي، وأَدفنُ إليه من مات من أهلي»[1].

وهذا كان القصد من وضع الأحجار على المقابر، لا ما يقصده أهل العصور الأخيرة من تشييد الهياكل على القبور، وتصويرها بصور تُرَى في عين الناظر كالأصنام، ليأتي أقارب الميت ويصنعوا عندها احتفالاتٍ كثيرة، تشبه ما كان يفعله مشركو مكة عند معابدهم، ومن العبث فعلُ شيء لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بأمور الآخرة.

«لا، ولكن عليك يا ابن مظعون بالصوم»[2].

ثم قال: وهو أولُ من مات بالمدينة من المهاجرين، وأولُ من دفن بالبقيع منهم.

وروى الترمذي عن عائشة قالت: قبَّل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عثمانَ بنَ مظعون وهو ميت، وهو يبكي وعيناه تذرفان[3].

ولما توفي إبراهيمُ ابنُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: «الحَقْ بسلفنا الصالح عثمانَ بنِ مظعون»[4].

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٠٦) من حديث المطلب بن عبدالله بن حنطب، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

(٢) لم نقف عليه في المطبوع من مصنفات ابن شاهين، ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٠).

(٣) رواه الترمذي (٩٨٩)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٧) من حديث الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٠٢): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.

ومـات من الأنصـار أسعـدُ بن زُرارة أحـدُ النقبـاء الاثني عشرَ، كان ـ رضي الله عنه ـ نقيبَ بني النجار، ولما مات، اختار رسولُ الله نفسَه للنقابـة عليهم؛ لأن ابنَ أختِ القوم منهم[1]، . . . .

وقالت امرأة ترثيه:

يـا عـينُ جـودي بـدمعٍ غيـرِ ممنـونِ   علـى رزيـةِ عثمـانَ بـنِ مظعـونِ

اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (أسعد بن زرارة): قال في «الإصابة»: هـو قـديم الإسـلام، شـهد العقبتين، وكان نقيباً على قبيلته، ولم يكن في النقباء أصغر سناً منه، ويقال: إنـه أول من بايع ليلة العقبة.

وروى أبو داود قال: كان أسعد أولَ من جمَّع بنا بالمدينة قبل مقـدم النبـيِّ صلى الله عليه وسلم في حَرَّةِ بني بَياضة[3].

وذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة[4].

وروى أيضـاً: أن أول مـن دفن بالبقيـع أسعـدُ بـنُ زرارة[5]، هـذا قـول الأنصار.

---

(١) رواه البخاري (٣٥٢٨)، ومسلم (١٠٥٩)، من حديث أنس بن مالـك ـ رضـي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ١٩٠).

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٤٦١).

(٣) رواه أبو داود (١٠٦٩) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٥٧) من طريق الواقدي عـن عبـد الـرحمن بـن أبي الرجال.

(٥) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٨٥٧) من طريق الواقدي عن عبدالله بن أبي بكـر ابن عمرو بن حزم.

ومات أيضاً البراءُ بنُ معرورٍ أحدُ النقباء، وهو الذي كان يتكلم عن القوم في العقبة الثانية.

ومات من مشركي مكة في هذه السنة الوليدُ بن المغيرة، ولما احتُضر، جزع، فقال له أبو جهل: ما جزعُك يا عم؟ فقال: والله! ما بي من جزع من الموت، ولكن أخاف أن يظهر دينُ ابنِ أبي كبشةَ بمكةَ، فقال أبو سفيان: لا تخفْ، إني ضامنٌ ألّا يظهر[1].

وأما المهاجرون، فقالوا: أولُ من دفن به عثمانُ بنُ مظعون. اهـ. ملخصاً[2].

قال في «نزهة الناظرين»: قال ابن سيرين: جمّع أهل المدينة قبل قدومه عليه الصلاة والسلام المدينةَ، وقبل أن تنزل الجمعة، وقالوا: لليهود يوم يجتمعون فيه كل أسبوع، وللنصارى يوم، فلنجعلْ لنا يوماً نجتمعُ فيه نذكر الله تعالى، ونصلي له، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى بهم ركعتين، وذكَّرَهم، فسموه: يوم الجمعة. اهـ[3].

قوله: (البراء بن معرور): قال في «الإصابة»: كان من النفر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة، وهو أول من بايع في قول ابن إسحاق، وأولُ من استقبل القبلة، وأول من أوصى بثلث ماله.

وكان قد أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبل وصيته، ثم ردَّها على ولده، وصلى على قبره[4].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (٢٩٢) عن الشعبي.

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (١/ ٥٤ ـ ٥٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥١٤٤).

(٤) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٨٤) من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

وفيها أيضاً مات العاصُ بنُ وائلٍ السهميُّ .

وقد كفى الله المسلمين شرَّ هذين الشقيّين[1] .

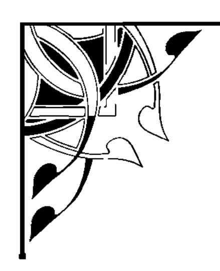
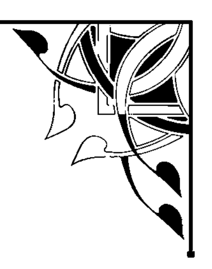
وقال ابن إسحاق : مات البراء بن معرور قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم بشهر . اهـ[2] .

أقول : فتكون صلاته على قبره بعد مجيئه صلى الله عليه وسلم للمدينة .

❒ ❒ ❒

(١) انظر : «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٩٩) .

(٢) انظر : «الإصابة» لابن حجر (١/ ٢٨٢) .

السنَّة الثانية

غزوة وَدَّان

ولاثنتي عشرة ليلة خَلَت من السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ـ بعد أن استخلف عليها سعدَ بنَ عبادة ـ؛ ليعترض عيراً لقريش، فسار حتى بلغ وَدّان، وكان يحمل لواءه عمّه حمزةُ، ولم يلقَ هناك حرباً؛ لأن العير كانت قد سبقته، وفي هذه الغزوة صالحَ بني ضمرةَ. . . .

السنة الثانية

غزوة وَدَّان

قوله: (خلت من السنة الثانية): عبارته تفيد أن خروجه صلى الله عليه وسلم كان لاثنتي عشرة ليلة مضت من محرم، والصواب: أن خروجه كان لاثنتي عشرة ليلة مضت من صفر من السنة الثانية من الهجرة؛ أي: مكث في المدينة باقي الشهر الذي قدم فيه، وهو شهر ربيع الأول، وباقي ذلك العام كله إلى صفر من السنة الثانية من الهجرة ـ كما في الحلبي ـ[1].

قوله: (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي: وكان معه ستون من المهاجرين، وقيل: سبعون.

قوله: (وَدَّان) ـ بفتح الواو وتشديد الدال ـ: قرية بين مكة والمدينة، بينها وبين الأبواء ستة أميال.

قوله: (صالحَ بني ضمرة) وسيدُهم مجديُّ بنُ عمرٍو.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

على أنهم آمنون على أنفسهم، ولهم النصرُ على مَن رامَهم، وأن عليهم نُصْرَةَ المسلمين إذا دُعوا، ثم رجع إلى المدينة بعد مضيٍّ خمسَ عشرةَ ليلة[1].

غزوة بُواط

ولم يمض على رجوعِه غيرُ قليل حتى بلغه أن عيراً لقريش آيبـةٌ مـن الشام، فيها أميةُ بنُ خلف ومئةٌ من قريش، وألفان وخمس مئة بعير، فسار إليها في مئتين من المهاجرين، وذلك في ربيع الأول، وكان يحمـل لـواءه سعدُ بنُ أبي وقاص، . . . .

قوله: (على مَنْ رامهم)؛ أي: قصدهم، إلا أن يحاربوا في دين الله ما بلَّ بحرٌ صُوفة؛ أي: ما بقي فيه ما يبلُّ الصوفة. اهـ. حلبي[2].

غزوة بواط

قوله: (بواط): ـ بضم الباء وفتحها، وفتح الواو ـ.

قوله: (في ربيع الأول)، وقيل: في ربيع الثاني.

قوله: (وكان يحمل لواءه سعد. . .) إلخ: كان اللواء أبيض، وهو كذلك في الغزوة التي قبلها.

قال الحلبي: اللواء: هو العلم الذي [يحمل] في الحرب، يعرف بـه موضـعُ أمير الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يجعله في مقدم الجيش.

وأولُ من عقد الألويةَ إبراهيمُ الخليل، بلغه أن قوماً أغاروا على لوط عليه السلام، فعقد لواءً، وسار إليهم بعبيده ومواليه. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٨).

فسار حتى بلغ بُواط، فوجد العير قد فاتته، فرجع ولم يلقَ كيداً، وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم، والاجتهادِ في تعمية أخبارهم عن أهل المدينة[1].

غزوة العُشَيرة

وأعقبَ رجوعَه عليه الصلاة والسلام خروجُ قريش بأعظم عيرٍ لها؛ فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشيٌّ أو قرشيةٌ لها مثقالٌ فصاعداً إلا بعث به في تلك العير، وكان يرأسها أبو سفيان بنُ حرب، ومعه بضعة وعشرون رجلاً، فخرج لها الرسول في جمادى الأولى، ومعه مئة وخمسون من المهاجرين، واستخلف على المدينة أبا سلمَةَ بنَ عبدِ الأسد، وحمل لواءه عمُّه حمزةُ، ولم يزل سائراً حتى بلغ العُشَيْرةَ، فوجد العيرَ قد مضتْ.

وحالفَ عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة بني مُدلِج وحلفاءهم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع[2].

غزوة العشيرة

قوله: (العشيرة): ـ بضم العين المهملة مصغراً، وبالشين أو بالسين ـ.

قوله: (لها مثقال فصاعداً) يقال: إن فيها خمسين ألفَ دينار، وألفَ بعير.

قوله: (بضعة وعشرون رجلاً) منهم: مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (ينتظر هذه العير حينما ترجع): وهي العير التي خرج إليها حين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٤٩).

غزوة بدر الأولى

وبعد رجوعه عليه الصلاة والسلام بقليل، جاء كُرْزُ بنُ جابرٍ الفِهريُّ، وأغار على سَرْح المدينة، وهربَ، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في طلبه، واستخلف على المدينة زيدَ بنَ حارثةَ الأنصاريَّ، وحمل لواءه عليُّ بن أبي طالب، فسار حتى بلغ سَفَوان، وفاته كُرزٌ فلم يلقَ حرباً، وتُسمى هذه الغزوة: بدراً الأولى[1].

سرية [عبدالله بن جحش إلى نخلة لرصد قريش]

وفي رجب من هذه السنة أَرسل سريةً عدّتُها ثمانيةُ رجال، يرأسها عبدُالله بنُ جحش، ....

رجعت من الشام، وكان بسببها وقعة بدر. اهـ. دحلاني[2].

غزوة بدر الأولى

قوله: (**على سَرْح المدينة**)؛ أي: الإبل والمواشي التي تسرح للمرعى بالغداة، وكان كرزٌ من رؤساء المشركين، ثم أسلمَ وصحبَ ـ رضي الله عنه ـ، وأُمِّر على سريةٍ، واستُشهد في فتح مكة.

قوله: (**سفوان**) ـ بفتح السين والفاء، وقيل: الفاء ساكنة ـ، وهو وادٍ من ناحية بدر، ولذا قيل لها: غزوة بدر الأولى.

سرية [عبدالله بن جحش إلى نخلة لرصد قريش]

قوله: (**عبدالله بن جحش**) هو أحد السابقين إلى الإسلام، وهو ابنُ عمته

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٧).

وأعطاه كتاباً مختوماً لا يَفُضُّه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه، فسار عبدُالله يومين، ثم فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرتَ كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نَخْلَةَ، فترصُدَ بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم».

وإنما لم يخبرهم عليه الصلاة والسلام بمقصدهم وهم بالمدينة؛ . . . . .

صلى الله عليه وسلم، واستُشهد بأحد.

قال الدحلاني: روى البغوي عن سعد بن أبي وقاص قال: بعثنا صلى الله عليه وسلم في سرية قال: «لأبعثنَّ عليكم رجلاً أصبركم على الجوع والعطش»، فبعث علينا عبدَالله بنَ جحش ـ رضي الله عنه ـ، وسماه صلى الله عليه وسلم: أمير المؤمنين، فهو أول من تسمَّى به في الإسلام؛ أي: في عصره صلى الله عليه وسلم، فلا ينافي ذلك القول بأن عمر ـ رضي الله عنه ـ أولُ من تسمى بأمير المؤمنين؛ لأن المراد: أولُ من تسمَّى به من الخلفاء[1].

قوله: (لا يفضّه): يقال: فضضْتُ الختمَ فضّاً، من باب قتل: كسرتُه. اهـ. مصباح[2].

قوله: (حتى تنزل نخلة): هو موضع على ليلة من مكة بين مكة والطائف. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وتعلم لنا من أخبارهم): قال الدحلاني: وأخبر أصحابه أنه نهاه [أن] يستكره أحداً منهم، ولم يتخلف منهم أحد[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨)، والخبر المذكور رواه البغوي في «معجم الصحابة» (٣/ ٥٢٥).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: فضض).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨)، وما بين معكوفتين منه.

حذراً من شيوع الخبر، فيدل عليهم أحدُ الأعداء من المنافقين أو اليهـود، فترصد لهم قريش. ولا يخفى أن عدد السرية قليل لا يمكنه المقاومة، ثم سار عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، وفي أثناء السير تخلَّف سعدُ بنُ أبـي وقّـاص، وعُتبة بن غَزوان؛ لأنهما أضلاًّ بعيرَهما الذي كانا يعتقبانه، وسـار البـاقون حتى وصلوا نخلة، فمرّت بهم عِير قرشية تريد مكة، فيها عمرو بن الحَضرميّ، وعثمانُ بنُ عبدالله بنِ المغيرة، وأخوه نوفلٌ، والحَكَمُ بن كَيسان، فأجمـع المسلمون أمرَهم على أن يحملوا عليهم، ويأخذوا ما معهم، فحملوا علـيهم في آخر يوم من رجب، فقتلوا عمرَو بنَ الحضرميِّ، وأسروا عثمانَ والحكـمَ، وهرب نوفلٌ، واستاقوا العِير، وهي أولُ غنيمة غنمها المسلمون من أعـدائهم قريش، ثم رجعوا، ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم.

قوله: (عير قرشية): كانت تلك العير تحمل زبيباً وأَدَماً ـ أي: جلوداً ـ من تجارات قريش. اهـ. دحلاني[1].

و(أدم) بفتحتين: وقيل: بضمتين، وهو القياس؛ مثل: بَريـد وبُـرُد. اهـ. مصباح[2].

قوله: (فأجمع المسلمون أمرهم): لما نزل الركب، نزل عبدُالله ومن معه قربهم، فهابوهم، فأرشدهم عبدُالله بن جحش إلى ما يزيل رعبهم، فحَلَق بعضُ أصحابه رأسه، وأشرف عليهم، فلما رأوهم، أمنوا، وقالوا: عُمَّار ـ أي: معتمرون ـ لا بأس عليكم منهم، فقيدوا ركابهم، وسرحوها، وصنعوا طعاماً، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، أو في أول يوم من شعبان ـ أي: شكوا فـي اليوم: أهو من الشهر الحرام أم لا ـ؟ فإن قاتلناهم، هتكنا حرمة الشهر الحرام،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: أدم).

فلما قدموا المدينة، وشاع أنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، وعابتهم قريشٌ واليهودُ بذلك، عَنَّفَهم المسلمون، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتُكم بقتال في الأشهر الحُرم»، فندموا، فأنزل الله في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ . . . .

وإن تركناهم، دخلوا حرم مكة، فامتنعوا به، ثم شجعوا أنفسهم، وأجمعوا على قتالهم. اهـ. دحلاني[١].

قوله تعالى: (﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾): قيل: السائلون هم المسلمون، وكانوا يعلمون أن القتال في الحرم لا يحل، فلما كتب عليهم القتال، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال في الشهر الحرام.

وقيل: هم المشركون، وإنما سألوه على وجه العيب على المسلمين.

وقوله: (﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾) بدلُ اشتمالٍ من ﴿ٱلْحَرَامِ﴾.

وقوله: (﴿كَبِيرٌ﴾)؛ أي: عظيمٌ مستنكَر.

وقوله: (﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾) هذا ابتداء كلام.

وقوله: (﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾) معطوف عليه.

وقوله: (﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾) عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وذلك على حد قوله:

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ... ونارٍ تَوَقَّدُ بالليلِ نارا[٢]

وقوله: (﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ﴾)؛ أي: أهل المسجد، وهم: رسولُ الله وأصحابه

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٨).

(٢) البيت لأبي دؤاد جارية بن الحجاج. انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ٦٦).

﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾[البقرة: ٢١٧]، فَسُرِّيَ عنهم[١].

وقد طلب المشركون فداءَ أسيريهما، فقال عليه الصلاة والسلام: «حتى يرجعَ سعدٌ وعتبةُ»، فلما رجعا، قَبِلَ عليه الصلاة والسلام الفديةَ في الأسيرين[٢].

فأما الحَكَمُ بنُ كيسانَ، فأسلمَ، وحَسُنَ إسلامُه، وبقي مع المسلمين، وأما عثمان، فلحق بمكةَ كافراً[٣].

حين آذوهم، وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهلَه؛ لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين.

وقوله: (﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾)؛ أي: أعظمُ وِزْراً من القتال في الشهر الحرام؛ أي: من قتلِ ابنِ الحضرميّ.

وهذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[التوبة: ٥]، وبقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾[التوبة: ٣٦] يعني: في الأشهر الحرم، وغيرها. اهـ. خازن وبيضاوي[٤].

قوله: (حتى يرجع سعد وعتبة): وقال لهم: فإن تقتلوهما، نقتلْ صاحبكم.

قوله: (وبقي مع المسلمين)؛ أي: إلى أن قُتل يومَ بئرِ معونةَ شهيداً. اهـ.

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٨) عن عروة بن الزبير.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٥٠).

(٣) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٤٠ ـ ١٤٢).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة ستةَ عشرَ شهراً يستقبل بيتَ المقدس في صلاته، . . . .

دحلاني[1]. وسيأتي ذكر السرية التي أرسلت إلى هذا المكان.

تحويل القبلة

قوله: (تحويل القبلة): حُوِّلت في شهر رجب من السنة المذكورة، وقيل: في نصف شعبان، وقيل: في جمادى الآخرة، والأكثرون على أن تحويلها كان في صلاة الظهر.

ففي الحديث: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً أم بِشْرِ بنِ البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه في مسجد هنالك، فلما صلى ركعتين، نزل جبريل، فأشار إليه أن صلِّ إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، واستدار النساءُ مكانَ الرجال، والرجالُ مكانَ النساء[2].

فيكون قد تحول من مقدم المسجد إلى مؤخره، وفيه: أن هذا يستدعي عملاً كثيراً في الصلاة، وهو مفسدٌ لها عندنا إذا توالى، وقد يقال: لا مانع من

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٤٢) من طريق الواقدي بإسناده إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٢٠٧) من حديث تُويلة بنت أسلم ـ رضي الله عنها ـ. وخبرُ تحويل القبلة رواه البخاري (٧٢٥٢)، ومسلم (٥٢٥)، من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، وفي رواية البخاري: أن ذلك كان في صلاة العصر، ورواه مسلم (٥٢٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: أن ذلك كان في صلاة الفجر.

وكان يحبّ أن تكون قبلتُه الكعبةَ، ويقلِّبُ وجهه في السماء داعياً الله بذلك. فبينما هو في صلاته، إذ أوحى الله إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة، فتحوّل، وتحوَّلَ مَنْ وراءه، وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعُفت قلوبُهم، فارتدوا على أعقابهم. . . . .

الجواز أن يكون ذلك قبل تحريم العمل الكثير في الصلاة، أو أن هذا العمل لم يكن على التوالي. اهـ. حلبي[١].

قوله: (وكان يحب أن يكون قبلته الكعبة): قال الحلبي: كان صلى الله عليه وسلم يعجبه أن تكون قبلته الكعبة، سيما لما بلغه أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد، ويتَّبع قبلتنا، وقالوا للمسلمين: لو لم نكن على هدًى، ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها.

وكان يحب أن يستقبل الكعبة محبةً لموافقة إبراهيمَ وإسماعيل، وكراهةً لموافقة اليهود، ولقول كفار قريش: لمَ تقولون: نحن على ملة إبراهيم، وأنتم تتركون قبلته، وتصلون إلى قبلة اليهود؟! اهـ[٢].

وقد وُصف صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة بأنه يصلي إلى القبلتين، وقد عرفت اليهود ذلك، ففي تحويلها تحقيقٌ لما وصف به، وحجةٌ على اليهود، وتحويلُها إلى الكعبة أَدعى لاستسلام مشركي العرب ودخولهم في الدين الإسلامي؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا عبادة الأوثان عندها، وهي معظمة لديهم، ويحجون إليها من حين بناء إبراهيم الخليل لها.

قوله: (وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين. . . إلخ): قال ابن القيم في «زاد المعاد»: في تحويل الصلاة إلى الكعبة حِكَم عظيمة، ومحنة

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٣).

وقد أكثر اليهودُ من التنديد على الإسلام بهـذا التحويـل، ومـا دَرَوا أن لله المشرقَ والمغرب، يهدي مَنْ يشاءُ إلى صراط مستقيم[1].

للمسلمين والمشركين واليهود والمنافقين، فأما المسلمون، فقالوا: سمعنا وأطعنا، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[آل عمران: ٧]، ولـم يكـن كبيـرة علـيهم. وأمـا المشركون، فقالوا: كما رجع إلى قبلتنا يوشك أن يرجع إلى ديننا، وما رجع إليها إلا أنه الحق. وأما اليهود، فقالوا: خالف قبلةَ الأنبياء قبلَه، ولو كان نبيًّا، لكـان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون، فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجَّـه؛ إن كانت الأولى حقًّا، فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق، فقد كان على باطل.

وكثرت أقاويل السفهاء من الناس، وكانت كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[البقرة: ١٤٣]، وكانت محنة [من الله][2] امـتحن بهـا عباده؛ ليرى من يتبع الرسول ممَّن ينقلب على عقبيه[3].

ولعلمِ الله بما سيقوله هؤلاء عند تحويلها أخبـرَ نبيـه بـذلك قبـل وقوعـه، فأنزل عليه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ...﴾[البقرة: ١٤٢] إلخ الآية، وقد أقـام علـيهم الحجـة بقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢].

قال الخازن: يعني: أن له قُطْري المشرق والمغرب وما بينهما ملكاً، فـلا يستحق شيء أن يكون لذاته قبلة؛ لأن الجهاتِ كلَّها شـيء واحـد، وإنمـا تصـير قبلة لأن الله تعالى هو الذي جعلها قبلة، فلا اعتراض عليه[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ، وانظـر: «السـيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٥).

(٢) ما بين معكوفتين من «زاد المعاد».

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٧).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٨٧).

وفي شعبان من هذه السنة أوجب الله صومَ شهر رمضانَ على الأمة الإسلامية، . . . .

قال في «زاد المعاد»: ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً، وطَّأ سبحانه قبلها أمر النسخ، وقدرته عليه، وأنه يأتي بخير من المنسوخ، أو مثلِه[1].

قال الخازن: أما النسخ بالمثل؛ فكنسخ التوجه إلى بيت المقدس وصرفهِ إلى المسجد الحرام، واستواء الأمر في ذلك؛ لأن على المصلي التوجُّهَ إلى حيث أمره الله تعالى. اهـ[2].

صوم رمضان

قوله: (صوم رمضان): ليس الصوم من خصائص هذه الأمة، بل كانت الأمم قبلنا تصومه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣].

قال في «نزهة الناظرين»: قال سعيد بن حبير: كان صوم مَنْ قبلَنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام[3].

وقال جماعة من أهل العلم: أراد: أن صيام رمضان كان واجباً على النصارى كما فُرض علينا، فربما كان يقع في الحر الشديد، والبرد الشديد، وكان يشق عليهم في أسفارهم، ويضرهم في معاشهم، فاجتمع رأيُ علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرةً كفارةً لما صنعوا، فصار أربعين.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٧).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٦٩).

(٣) أورده البغوي في «تفسيره» (١/ ١٤٨).

وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. والصيام من دعائم هذا الدين، والفرائض التي بها يتمّ النظام؛ فإن الإنسان مجبول على حبّ نفسه، والسعي فيما يعود عليها بالنفع الخاص، تاركاً ما وراء ذلك من حاجات الضعفاء والمساكين، فلا بدّ من وازِعٍ يَزَعُه لحاجات قومٍ أقعدتهم قواهم عن إدراك حاجاتهم، ولا أقوى من ذوقِ قوارصِ الجوع والعطش؛ إذ بهما تلين نفسه، ويتهذب خُلُقه، فيسهل عليه بذلُ الصدقات[1].

ثم إن ملكاً لهم اشتكى فمه، فجعل لله عليه إن برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً، فبرئ، فزاد فيه أسبوعاً، ثم مات ذلك الملك، ووليهم ملك آخر، فقال: أتموه خمسين[2].

قوله: (ثلاثة أيام من كل شهر)؛ أي: وهي الأيام البيض، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، قيل: وجوباً، وقيل: كان الواجب عليه قبل فرض رمضان صوم عاشوراء، ثم نسخ وجوبَه رمضان.

وعن عائشة: كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان صلى الله عليه وسلم يصومه موافقة لهم، ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه، فلما قدم المدينة، صامه، وأمر بصيامه[3].

لأنه لما قدمها، وجد اليهودَ تصومه وتعظِّمه، فسألهم عن ذلك، فقالوا: يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومَه من الغرق، وأغرق فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحقُّ بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٣) رواه البخاري (٣٨٣١)، ومسلم (١١٢٥).

(٤) رواه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

صدقة الفطر

ولذلك أوجب الشّارِع الحكيم عقبَ الصومِ زكاةَ الفطر، فترى الإنسان يبذلها بسخاءِ نفسٍ ومحبةٍ خالصة[1].

زكاة المال

وفي هذا العام فُرضت زكاة الأموال، وهذه هي النظام الوحيد الذي به يأكل الفقراء والمساكين من إخوانهم الأغنياء بلا ضرر على هؤلاء، فإذا بلغت الدنانير عشرين، أو الدراهمُ مئتين، وحال عليها الحول، وجب عليك أن تؤدي ربعَ عُشرِها؛ أي: اثنين ونصفاً في كل مئة، وما زاد فبحسابه، وإذا بلغت الشياه أربعين، والبقر ثلاثين، والإبل خمساً، وحال عليها الحول، وجب عليك كذلك أن تؤدي منها جزءاً مخصوصاً حدَّده الشّارِع، . . . .

صدقة الفطر

قوله: **(صدقة الفطر)**: فرضت قبل العيد بيومين، وكان صلى الله عليه وسلم يخطب قبل العيد بيومين يعلم الناس زكاةَ الفطر، وكان فرضها قبل فرض زكاة الأموال. اهـ. حلبي[2].

زكاة المال

قوله: **(زكاة المال)**: قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

وقال عليه السلام لمعاذ: «ثم أعلمْهم: أن الله تعالى فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، وتُرَدُّ في فقرائهم»[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٥٨ـ ٣٥٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٦٤).

(٣) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٠)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ومثلُها عروض التجارة، ومحصولاتُ الزراعـة، كـل هـذا يقبضـه الإمـام، ويوزعه على مستحقيه من الفقراء والمساكين، وبقيـةِ المـذكورين فـي آيـة الصـدقة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: ٦٠][1].

واللبيب العاقل البعيدُ عن التعصب يحكم لأول مرة نظره؛ . . . . . .

وسميت صدقة؛ لدلالتها على صدق العبد في العبودية. اهـ. «كفاية».

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ . . .﴾) إلخ: الفقير: هـو: مـن لـه أدنـى شيء، والمسكين: من لا شيء له، والعامل عليها: هو الساعي والعاشر، والمؤلفة قلوبهم: قوم أسلموا ونيتُهم ضعيفة فيه، فيستألف قلوبهم، أو أشرافٌ يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظرائهم.

قال البيضاوي: كان سهم المؤلفة لتكثير سواد الإسلام، فلما أعزه الله، وأكثرَ أهلَه، سقط.

وقوله: (﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾)؛ أي: وللصرف في فَـكِّ الرقـاب؛ بـأن يعـاون المكاتَب بشيء على أداء النجوم، وقيل: بأن تبتاع الرقاب فتعتق.

وقوله: (﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾)؛ أي: المدينين لأنفسهم في غير معصـية إذا لـم يكن لهم وفاء.

وقوله: (﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: وللصرف في الجهاد بالإنفاق علـى المتطوعة، وابتياع آلات الحرب.

وقوله: (﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾)؛ أي: المسافر المنقطع عن ماله.

وقوله: (﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾) مصدر لما دلت عليه الآية؛ أي: فرض لهم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٤).

أن هذا النظام ـ مع عدم إضراره بالأغنياء ـ مقللٌ لمصائب الفقر التي ألجأت كثيراً من فقراء الأمم أن يخالفوا نظامَ دولهم، ويؤسسوا مبادئ تقويض العمران وتداعي الأمن كم يفعله الاشتراكيون وغيرهم.

غزوة بدر الكبرى

لم يطل العهد بتلك العِير العظيمة التي خرج لها عليه الصلاة والسلام وهي متوجهة إلى الشام، فلم يدركها، ولم يزل مترقباً رجوعَها، فلما سمع برجوعها، نَدَبَ إليها أصحابَهُ، وقال: «هذه عيرُ قريش، فاخرجوا إليها؛ لعلّ الله أن ينفلَكُموها»[1]، ....

الصدقات فريضة، أو حال من الضمير المستكنّ في ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. اهـ. بيضاوي[2].

غزوة بدر الكبرى

قوله: (غزوة بدر الكبرى): ويقال: العظمى، ويوم وقعة بدر هو يوم الفرقان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[الأنفال: ٤١]؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، وهو يوم البطشة الكبرى المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[الدخان: ١٦]. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (بتلك العير): أشار إلى ما تقدم في غزوة العشيرة.

قوله: (أن ينفلكموها)؛ أي: يجعلها لكم غنيمة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٢ ـ ١٨٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

فأجاب قوم، وثَقُلَ آخرون؛ لظنهم أن الرسول عليه السلام لم يُرِدْ حرباً؛ فإنه لم يحتفل بها، بل قال: «من كان ظهره حاضراً، فليركبْ معنا».

ولم ينتظر من كان ظهرُه غائباً، فخرج لثلاثٍ ليالٍ خَلَوْنَ من رمضان بعد أن ولَّى على المدينة عبدَالله ابنَ أم مكتوم، وكان معه ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً: مئتان ونيفٌ وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فَرَسان، وسبعون بعيراً يعتقبونها،...................

في «المصباح»: النفل: الغنيمة(١).

قال الشاعر:

إنَّ تقــوى ربِّــــنا خيــرُ نفَــلْ(٢)

قوله: (ظهره)؛ أي: ما يركبه.

قوله: (من الأنصار): وكان عدد الخزرج مئة وسبعين، والباقون من الأوس، وإنما قلَّ عدد الأوس، وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبرَ عند اللقاء؛ لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتةً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضراً»، فاستأذنه رجال ظهورُهم كانت في عُلْو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى. اهـ. «زاد المعاد»(٣).

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: نفل).

(٢) صدر بيت لبيد بن ربيعة، وعجزه:

وبـــإذنِ الله رَيْثــي وعَجَـــلْ

انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١٧٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٨٨)، والخبر المذكور رواه مسلم (١٩٠١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

والحامل للواء مصعبُ بنُ عُمَير العَبْدريُّ. ولما علم أبو سفيان بخروج الرسول صلى الله عليه وسلم، استأجر راكباً ليأتي قريشاً ويخبرهم الخبر، فلما علموا بذلك، أدركتهم حميتُهم، وخافوا على تجارتهم، فنفروا سِراعاً، ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بنُ عبد المطلب؛ فإنه أرسل بدله العاصَ بنَ هشام بنِ المغيرة. وأراد أمية بنُ خلف أن يتخلَّف؛ لحديث حدَّثه إياه سعد بن معاذ حينما كان معتمراً بعد الهجرة بقليل؛ . . . .

قوله: **(استأجر راكباً)**: هو ضمضم بن عمرو الغفاريُّ.

قوله: **(ويخبرهم الخبر)**: لما دخل مكة، صرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدعَ بعيرَه، وحوَّل رحلَه، وشقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش! اللطيمةَ اللطيمةَ؛ أي: أدركوا اللطيمة، وهي العير التي تحمل الطيب والبز، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، إن أصابها محمد، لم تفلحوا أبداً، الغوثَ الغوثَ[1].

فتجهز الناس سراعاً، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأعان قويُّهم ضعيفَهم، وقام أشرافُ قريش يحضُّون الناس على الخروج.

وقال سهيلُ بنُ عمرو: يا آل غالب! أتاركون أنتم محمداً والصُّباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم؟ من أراد مالاً، فهذا مالي، ومن أراد قوتاً، فهذا قوتي[2].

قوله: **(ولم يتخلف من أشرافهم إلا أبو لهب بنُ عبد المطلب)**: سبب الخلفة: الرؤيا التي رأتها عاتكةُ بنتُ عبد المطلب أختُ أبي لهب، وهي مبسوطة في الدحلانية: وهي بمعنى ما حصل من ضمضم الغفاري حينما أتى مكة مستصرخاً

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٩ ـ ٣١) بنحوه عن عروة بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٢).

حيث قال ـ كما رواه البخاري ـ : سمعتُ من رسول الله يقول : «إنهم قاتلوك» ، قال : بمكة؟ قال : لا أدري . ففزع لـذلك ، وحلـف ألَّا يخـرج ، فعابـه أبـو جهل ، ولم يزل به حتى خرج قاصداً الرجوعَ بعد قليل ، . . . .

أهلها[١] .

قوله : (كما رواه البخاري) : نص حديث فيه : انطلق سعدُ بنُ معاذ معتمراً ، قال : فنزل على أميةَ بنِ خلفٍ أبي صفوانَ ، وكان أميةُ إذا انطلق إلـى الشـام ، فمـر بالمدينة ، نزل على سعد ، فقال أمية لسعد : انتظر ، حتى إذا انتصف النهار ، وغفل الناس ، انطلقتُ فطفتُ ، فبينا سعدٌ يطوف ، إذا أبو جهل ، فقـال : مـن هـذا الـذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد : أنا سعد ، فقال أبو جهل : تطوف بالكعبـة آمنـاً ، وقـد آويتم محمداً وأصحابه؟! فقال : نعم ، فتلاحيا بينهما ، فقال أميـةُ لسـعد : لا ترفـع صوتك على أبي الحكم ؛ فإنه سيد أهل الوادي ، ثم قال سعد : والله! لـئن منعتنـي أن أطوف بالبيت ، لأقطعن متجرَك بالشام ، قال : فجعل أميةُ يقول لسعد : لا ترفـع صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعدٌ فقال : دعنا عنـك ؛ فـإني سـمعتُ محمـداً صلى الله عليه وسلم يزعم أنه قاتلُك ، قال : إياي؟ قال : نعم ، قال : والله! ما يكـذب محمدٌ إذا حدَّث .

فرجع إلى امرأته فقال : أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟ قالت : ومـا قـال؟ قال : زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي ، قالت : فوالله! ما يكذب محمد .

قال : فلمـا خرجـوا إلى بدر ، وجاء الصريخ ، قالت لـه امرأتـه : أما ذكـرتَ ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال : فأراد أن لا يخرج ، فقال له أبو جهل : إنـك مـن أشراف الوادي ، فسر يوماً أو يومين ، فسار معهم[٢] ، فقتله الله . اهـ[٣] .

---

(١) انظر : «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٢) .

(٢) في الأصل زيادة : «يومين» ، وليست هذه اللفظة عند البخاري .

(٣) رواه البخاري (٣٦٣٢) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ .

ولكن إرادة الله فوق كل إرادة؛ فإن منيته ساقته إلى حتفه رغم أنفه وكـذلك عَزَمَ جماعةٌ من الأشراف على القعود، فَعِيبَ عليهم ذلك، وبهذا أجمعـتْ رجالُ قريش على الخروج، فخرجوا على الصعب والذلول، أمامهم القَيْناتُ يغنـين بهجـاء المسـلمين: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨]. **وقـد ضـرب الله عمل الشيطان هذا مثلاً يعتبر به ذوو الرأي من بعدهم، . . . .**

قوله: (جماعة من الأشراف): منهم: أمية بن خلف، وعتبة بـن ربيعـة، وأخوه شيبة، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، فجاءهم أبو جهـل، وحـثهم على الخروج، وأعانه على ذلك عقبةُ بنُ أبي معيط، والنضرُ بـن الحـارث. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (على الصعب والذلول)؛ أي: مسرعين.

قوله: (﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ . . .﴾) إلخ: قال البيضاوي فـي سورة الأنفال في تفسير هذه الآية: قيل: لما أجمعت قريش على المسير، ذكرت ما بينهم وبين كنانة من الإحنة، وكاد[2] ذلك يثنيهم، فتمثل لهـم إبلـيسُ بصـورة سُراقةَ بنِ مالكٍ الكنانيِّ، وقال: لا غالبَ لكم اليوم، وإني مجيركم من بنـي كنانـة، فلما رأى الملائكة تنزل، نكص، وكان يدُه في يد الحارث بن هشام، فقـال لـه: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقـال: إنـي أرى مـا لا تـرون، ودفـع فـي صـدر الحارث وانطلق، وانهزموا، فلما بلغوا مكة، قالوا: هزم النـاس سـراقة، فبلغـه ذلك فقال: والله! ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فلما أسلموا، علمـوا أنه من الشيطان. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٣).

(٢) في الأصل: «وكان»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٣).

فقال في سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الحشر: ١٦]، وهكذا كان عمله في هذه الواقعة: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[الأنفال: ٤٨]. وكان عِدَّةُ مَنْ خرج من المشركين تسع مئة وخمسين رجلاً، معهم مئة فرس، وسبع مئة بعير.

قوله: (﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾): قال البيضاوي: أي: مَثَلُ المنافقين في إغراء اليهود على القتال كَمَثَلِ الشيطان.

(﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾): أغراه على الكفر إغراءَ الآمر المأمور.

(﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾): تبرأ منه مخافةَ أن يشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك، كما قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الحشر: ١٦ـ١٧][1].

قوله: (﴿تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾)؛ أي: تلاقى الفريقان.

وقوله: (﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾): رجع القهقرى؛ أي: بطل كيده، هذه الآية هي تتمة الآية الأولى، فالأولى أن تكون معها، وتؤخر قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ...﴾[الحشر: ١٦] إلخ.

(﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾): يجوز أن يكون من كلامه، وأن يكون مستأنفاً. اهـ. البيضاوي[2].

قوله: (تسع مئة وخمسين رجلاً): وقيل: كانوا ألفاً، وكان حامل لوائهم السائب بن يزيد، ثم أسلم ـ رضي الله عنه ـ، وهو الجدُّ الخامس للإمام الشافعي

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢٢).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١٣ ـ ١١٤).

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يعرف شيئاً مما فعله المشركون، ولم يكن خروجه إلا للعير، فعسكر ببيوت السُّقْيا خارج المدينة، واستعرض الجيشَ، فردَّ مَنْ ليس له قدرة على الحرب، ثم أرسل اثنين يتجسسان الأخبار عن العير. ولما بلغ الرَّوْحاء، جاءه الخبر بمسير قريش لمنع عيرهم، . . . .

ـ كما سيأتي ـ، وكان المطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً، كل واحد ينحر كل يوم عشر[ة] جزر، وفيهم نزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾[الأنفال: ٣٦]. اهـ. دحلاني[١].

وعُلم عددُهم من الجمال التي كان ينحرونها ـ كما سيأتي ـ.

قوله: (ببيوت السُّقيا): قال الحلبي: هي عين بينها وبين المدينة يومان، كان يُستقى له صلى الله عليه وسلم الماءُ منها. اهـ[٢].

وفي «القاموس»: السُّقيا: عين بين المدينة ووادي الصفراء[٣].

قوله: (واستعرض الجيش): قال الدحلاني: ولما نظر إلى أصحابه، قال: «اللهم إنهم حُفاة فاحملْهم، وعُراة فاكسُهم، وجياع فأشبِعْهم، وعالة فأغْنِهم من فضلك»، فما رجع منهم أحد إلا وله البعيرُ والبعيران، واكتسى من كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزواد قريش، وأصابوا فداء الأسارى، فاغتنى به كلُّ عائل. اهـ[٤].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سقي).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٦)، والخبر المذكور رواه أبو داود (٢٧٤٧) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

وجاءه مخبراه بأن العير ستصل بدراً غداً، أو بعد غد، فجمع عليه الصلاة والسلام كبراء الجيش، وقال لهم: «أيّها الناس! إنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين أنها لكم: العير، أو النفير»[1].

فتبين له عليه الصلاة والسلام أن بعضهم يريدون غيرَ ذات الشوكة، وهي العير؛ ليستعينوا بما فيها من الأموال، ....

قوله: (فرد من ليس قدرة): كان ممن رده: أسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأُسَيد بن حُضَير، وزيد بن أرقم، وزيد بن ثابت، وردَّ عُميرَ ابن أبي وقاص، فبكى، فأجازه، وقُتل وعمرُه ستة عشر عاماً[2].

قوله: (ستصل بدراً غداً، أو بعد غد): لأن الرجلين مضيا حتى نزلا بدراً، فأناخا إلى تل قريب من الماء، وأخذا يستقيان من الماء، فسمعا جاريتين تقول إحداهما لصاحبتها: إن أتاني العير غداً أو بعدَ غد، أعملْ لهم ـ أي: أخدمهم ـ ثم أقضيكِ الذي لك، فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبراه بما سمعا. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (أو النفير)؛ أي: القوم النافرين للحرب؛ يعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم خيَّر أصحابه بين أن يذهبوا للعير، أو إلى محاربة النفير، وأخبرهم عن قريش بسيرهم.

قوله: (وهي العير): فقد قال بعضهم: يا رسول الله! عليك بالعير،

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٦١) من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢١٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٦).

فقد قالوا: هلاّ ذكرتَ لنا القتالَ فنستعدَّ؟ وجاء مصداقُ ذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٧].

ثم قام المقدادُ بنُ الأسود ـ رضي الله عنه ـ فقالَ: يا رسول الله! امضِ لما أَمرك الله، فو الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: . . . . . .

ودع العدوّ، فتغير وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو أيوب: وفي ذلك أنزل الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥][(١)].

قوله[(٢)]: سبب قولهم لموسى ذلك: أن الله وعد موسى أن يورثه الأرض المقدسة، فأرسل من قومه (١٢) رجلاً إلى مدينة أريحا، وهي مدينة الجبارين؛ ليتجسسوا الأخبار، ولما دخلوها، وجدوهم أمةً ذاتَ بأس شديد، فهالَهم أمرُهم، واتفقوا أن لا يخبروا بني إسرائيل بما رأوا، ويكتموا ذلك بينهم كي لا يفشلوا، وأخذ بعضُهم على بعض ميثاقاً، ثم إن هؤلاء نكثوا العهد، وأخبروا قومهم، إلا رجلين منهم، وهما: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا.

ثم إن موسى أمر بني إسرائيل بالمسير، وقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة: ٢١]، فإن الله سيفتحها عليكم، فقالوا له: يا موسى! إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، فكرر عليهم النصيحة، فلم يقبلوا قوله، وردوا عليه أمره، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤][(٣)].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٥٩) عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أي: لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى.

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٢٧ ـ ٢٨).

﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنَّا معكما مقاتلون، واللهِ! لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فدعا له بخير، ثم قال عليه السلام: «أشيروا عليّ أيّها الناس»، وهو يريد الأنصار؛ لأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لا تَجِب عليهم نصرتُه إلا ما دام بين أظهرهم، فإن فيها: يا رسول الله! إنَّا بُرآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلتَ إليها، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فقال سعد بن معاذ سيدُ الأوس: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل»، فقال سعد: قد آمنا بك وصدّقناك، وأعطيناك على ذلك عهودنا، فامضِ لما أمرك الله، . . . .

قوله: (برك الغماد): ـ بالكسر ويفتح ـ: موضع[1] باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض. اهـ. قاموس[2].

وفي الدحلانية: برك الغماد: مدينة بالحبشة[3].

وقوله: (لجالدنا معك)؛ أي: ضاربنا معك.

قوله: (فقال سعد)؛ أي: بعدما كرر النبي صلى الله عليه وسلم كلمة: «أشيروا عليَّ».

قوله: (فامض لما أمرك الله): في الدحلانية: ومما قاله سعد: ولعلك يا رسول الله خرجت لأمر، فأحدثَ الله غيرَه، فامض لما شئت، وصِلْ حبالَ من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطِنا ما شئت، وما أخذتَ منا كان أحبَّ إلينا مما تركت،

---

(١) في الأصل: «عين»، والتصويب من «القاموس المحيط».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: برك).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٧).

فو الذي بعثك بالحق! لو استعرضت بنا هذا البحرَ فخضته لنَخوضَنَّه معك، وما نكره أن تكون تلقى العدو بنا غداً، إنّا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، ولعلّ الله يُريك منّا ما تقرّ به عَيْنُك، فسر على بركة الله. فأشرق وجهه عليه السلام، وسُرّ بذلك، وقال كما في رواية البخاري: «أبشروا، والله! كأني أنظر إلى مصارع القوم»[1].

فَعلم القومُ من هذه الجملة أن الحرب لا بدّ حاصلة، وحقيقةً حصلت؛ فإن أبا سفيان لما علم بخروج المسلمين له، . . . .

ما أمرت به من أمر فأمرْنا نتبعْ أمرك. اهـ[2].

قوله: (إلى مصارع القوم): قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم ليرينا مصارعَ أهل بدر ويقول: «إن هذا مصرعُ فلان غداً ـ إن شاء الله تعالى ـ»، ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، فما ماط أحدهم ـ أي ما تنحى ـ عن موضع يده عليه الصلاة والسلام[3]، فهو معجزة ظاهرة.

قوله: (فإن أبا سفيان. . .) إلخ: قال الحلبي: إن أبا سفيان تقدم العير

---

(١) لم نقف عليه عند البخاري، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٨٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه، وروى مسلم (٢٨٧٣/ ٧٦) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «هذا مصرع فلان غداً ـ إن شاء الله ـ»، قال: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢١١)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٨)، والخبر المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٦٠) من حديث علقمة بن وقاص مرسلاً.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٣)، من حديث أنس بن مالك، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

ترك الطريق المسلوكة، وسار متّبعاً ساحل البحر فنجا، وأرسلَ إلى قريش يُعلِمهم بذلك، ويشير عليهم بالرجوع، فقال أبو جهل: لا نرجعُ حتى نحضرَ بدراً، فنقيمَ فيه ثلاثاً: ننحر الجُزر، ونطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتسمع بنا العربُ، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فقال الأخنسُ بنُ شريق الثقفيُّ لبني زهرة ـ وكان حليفاً لهم ـ: ارجعوا يا قوم؛ فقد نجَّى الله أموالكم فرجعوا، ولم يشهد بدراً زهريٌّ ولا عدويّ، ثم سار الجيش حتى وصلوا واديَ بدر، فنزلوا عُدوَتَه القُصوى عن المدينة في أرض سهلة لينة.

أما جيش المسلمين، فإنه لمّا قارب بدراً، أرسل عليه السلام عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بنَ العوّام ليعرفا الأخبار، فصادفا سُقاةً لقريش، فيهم غلام لبني الحجاج، وغلام لبني العاص السهميين، فأتيا بهما، والرسول عليه السلام قائم يصلي، ثم سألاهما عن أنفسهما، فقالا: نحن سُقاة لقريش، بعثونا نسقيهم الماء، فضرباهما؛ . . . .

حذراً حتى ورد الماء، فلقى رجلاً، فقال له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شنٍّ لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مناخَهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففتته، فإذا فيه النوى، فقال: والله! علائفُ يثربَ، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فصوب عيرَه عن الطريق، وترك بدراً بيسار الطريق، وانطلق حتى أسرع، فلما علم أنه قد أحرز عيرَه، أرسل إلى قريش ـ وكان قد بلغه مجيئُهم ليحرزوا العير، وكانوا حينئذ بالجحفة ـ: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيرَكم ورجالَكم وأموالكم، وقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل . . . إلخ[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٠).

لأنهما ظنا أن الغلامين لأبي سفيان. فقال الغلامان: نحن لأبي سفيان، فتركاهما. ولما أتمَّ الرسول عليه السلام صلاته، قال: «إذا صَدَقاكم، ضربتُموهما، وإذا كذباكم، تركتموهما؟ صدقا والله! إنهما لقريش». ثم قال لهما: «أخبراني عن قريش؟» قالا: هم وراء هذا الكَثيب، فقال لهما: «كم هم؟» فقالا: لا ندري. قال: «كم ينحرون كل يوم؟». قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً. قال: «القوم ما بين التسع مئة والألف»، ثم سألهما عمّن في النفير من أشراف قريش، فذكرا له عدداً عظيماً، فقال عليه السلام لأصحابه: «هذه مكةُ قد ألقتْ إليكم أفلاذَ كبدها»[1].

ثم ساروا حتى نزلوا بعُدْوَةِ الوادي الدنيا من المدينة بعيداً عن الماء في أرض سبخة، فأصبح المسلمون عطاشاً؛ بعضهم جُنُب، وبعضهم مُحْدِث، فحدَّثهم الشيطان بوسوسته، ولولا فضلُ الله عليهم ورحمتُه لثُنيت عزائمُهم، ....

قوله: (الكثيب): هو التل من الرمل.

قوله: (فذكرا له عدداً عظيماً): قال الدحلاني: هم: عتبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وسهيل بن عمرو. اهـ[2].

قوله: (أفلاذ): مفرده: فِلذَة.

قوله: (سبخة): ـ محركةً ومسكنةً ـ: أرض ذات نزٍّ وملح.

قوله: (فأصبح المسلمون عطاشاً... إلخ)؛ أي: لأن المشركين سبقوهم إلى الماء.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٢٧) عن عروة بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٦٩).

فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون منكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذهِبَ قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله لهم الغيثَ حتى سال الوادي، فشربوا، واتخذوا الحِياض على عُدْوَةِ الوادي، واغتسلوا وتوضؤوا، وملؤوا الأسقية، ولبدت الأرض، حتى ثبتت عليها الأقدام، على حين أن كان هذا المطر مصيبة على المشركين؛ فإنه وَحَّل الأرض حتى لم يعودوا يقدرون على الارتحال. ومصداقُ هذا: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، ....

قوله: (فإنه قال لهم: ما ينتظر المشركون...) إلخ: قال الدحلاني: ووسوس الشيطان لبعضهم، وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبيُّ الله، وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عِطاش، وتصلُّون محدثين مجنبين، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويُذهب قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا؟[1].

قوله: (فإنه وَحَّل الأرض)؛ أي: لأنها كانت سهلة لينة.

قوله: (﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾): لطخه وما يدعو إليه من الكفر. اهـ. سجستاني[2].

وقوله: (﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾)؛ أي: بالصبر على مجالدة العدو، وبالوثوق على لطف الله، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ حتى لا تسوخ في الرمل. اهـ. دحلاني[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٠).

(٢) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٢٤٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٠).

وقد أرى الله رسولَه في منامه الأعداءَ كما أراهموه وقتَ اللقاء قليلي العدد؛ كيلا يفشل المسلمون، وليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣ ـ ٤٤].

قوله: (﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ...﴾) إلخ: قال البيضاوي: مقدر بـ (اذكر)، أو بدلٌ ثان من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، أو متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢] ـ أي: في آخر كلمة من الآية التي قبلها ـ؛ أي: يعلم المصالح إذ يقللهم في عينك في رؤياك، وهو أن تخبر به أصحابك ليكون تثبيتاً لهم، وتشجيعاً على عدوهم.

وقوله: (﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾)؛ أي: جَبُنتم.

وقوله: (﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾)؛ أي: أمر القتال، وتفرقت آراؤكم بين الثبات والفرار[1].

قوله: (﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾): قال البيضاوي: وإنما قللهم حتى قال ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ لمن في جنبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مئة[2]؛ تثبيتاً لهم، وتصديقاً لرؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم.

قوله: (﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾) حتى قال أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ولا يستعدوا لهم، ثم كثرهم حتى يرونهم مثليهم؛ لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم، وهذا من عظائم آيات تلك الوقعة؛ فإن النصر وإن كان قد يرى الكثيرين قليلاً والقليل

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١١).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٦٧) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

ثم سار جيش المسلمين حتى نزل أدنى ماء من بدر، فقال له الحُباب ابن المنذر الأنصاريُّ، وكان مشهوراً بجودة الرأي: فقال: يا رسول الله! أهذا منزل أنزلَكَهُ الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والحرب والمَكِيدة؟ فقال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة»، فقال: يا رسول الله! ليس لك هذا بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فإني أعرفُ غزارةَ مائه وكثرته، فننزله ونُغَوِّر ما عداه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً، فنملؤه ماء، فنشرب ولا يشربون، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «لقد أشرت بالرأي»[1]، ونهض حتى أتى أدنى ماء من القوم، ثم أمر بالآبار التي خلفهم فَغُوِّرت لينقطع أملُ المشركين في الشرب وراء المسلمين، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه.

ثم قال له سعد بن معاذ سيدُ الأوس: يا نبي الله! ألا نبني لك عريشاً . . .

كثيراً؛ لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحد، وإنما يتصور ذلك بصدِّ الله الأبصارَ عن إبصار بعضٍ دون بعض مع التساوي في الشروط[2].

قوله: (فنشرب ولا يشربون)؛ أي: لأن القُلُب كلَّها حينئذ تصير خلف ذلك القليب. اهـ. حلبي[3].

قوله: (عريشاً): قال الحلبي: هو شيء كالخيمة من جريد يُستظل به[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٧) عن رجال من بني سلمة، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٢٩٣).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١١١ ـ ١١٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله! ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولا أطوعَ لك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك، إنما ظنوا أنها العير، يمنعك الله بهم، ويناصحونك ويجاهدون معك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أويقضي الله خيراً من ذلك»[1].

ثم بُني للرسول صلى الله عليه وسلم عريشٌ. . . . .

قوله: (ونعد عندك): هكذا في الحلبية[2]، ومعناه نُهيِّئ.

وفي الدحلانية: وندع[3]؛ أي: نترك.

قوله: (أو يقضي الله. . .) إلخ؛ أي: وهو نصرهم وظهورهم على عدوهم، و(أو) هنا بمعنى (بل).

قال في «المغني»: تأتي (أو) للإضراب، قال جرير:

كانوا ثمانين أو زادوا ثمانية ... لولا رجاؤك قد قتلت أولادي[4]

وفي الدحلانية: بدون (أو)[5].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٨) بنحوه. وروى الجملة الأخيرة الواقدي في «المغازي» (١/ ٦١) من حديث محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٢).

(٤) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٩١).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٢).

فوق تل مشرف على ميدان الحرب، ولما اجتمعوا، عدَّل عليه الصلاة والسلام صفوفهم، مناكبهم متلاصقة، فصاروا كأنهم بنيان مرصوص، ثم نظر لقريش فقال: «اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخُيلائها وفخرها تحادُّك وتُكذِّب رسولك. اللهم فنصرَك الذي وعدتني به»[1].

وفي هذا الوقت وقع خُلْفٌ بين رؤساء عسكر المشركين؛ فإن عتبة ابن ربيعة أراد أن يمنع الناس من الحرب، ويحمل دم حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قُتل في سرية عبدالله بن جحش، ويحمل ما أُصيب من عيره ودعا الناس إلى ذلك، فلما بلغ أبا جهل الخبرُ، وَسَمَه بالجبن، وقال: والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

قوله: (بخيلائها)؛ أي: كِبْرها وعجبها.

وقوله: (تحادّك): المحادة: المعاداة والمخالفة والمنازعة. اهـ. «نهاية»[2].

قوله: (وفي هذا الوقت وقع خلاف...) إلخ: سببه كان في الحلبي: أن قريشاً لما اطمأنت أرسلوا عُمَير بنَ وهب الجمحيَّ رضي الله عنه ـ لأنه أسلم بعد ذلك ـ وقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد، فأتى إليهم ثم رجع فقال: ثلاث مئة رجل يزيدون قليلاً، ولكني ـ يا معشر قريش ـ رأيت البلايا تنزل على قبر صاحبها، وهم لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم زرق العيون كأنهم الحصا تحت الحجف، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٦٨) بنحوه، انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٥).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٣٥٣).

وقبل أن تقوم الحرب على ساقها، خرج من صفوف المشركين الأسود بن عبدالله المخزومي وقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم، . . .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك، مشى في الناس، فأتى عتبةَ بن ربيعة، وأشار إليه أن يرجع بالناس، فقام عتبة خطيباً، وأشار على قريش بالرجوع، وأن يخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه، فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون، يا قوم! اعصبوها اليوم برأسي ـ أي: اجعلوا عارها لي ـ وقولوا: جَبُن عتبة، وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم.

ثم قال حكيم بن حزام لعتبة: أرى أن تجير بين الناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، فوافق على ذلك، ثم قال لحكيم بن حزام: انطلق إلى أبي جهل، قال: فانطلقت إليه، فوجدته قد سل درعاً له من جرابها، فقال له: إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره ـ أي: رئته، كلمة تقال للجبان ـ.

وفي رواية: أنه أتى إليه بنفسه، فقال: أنت تقول هذا؟ والله! لو غيرك يقول هذا، لأعضضته ـ أي: قلت له: اعضض على بظر أمك ـ كلا والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وقال لحكيم: ما بعتبة ما قال، ولكن قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ـ أي: في قلة بحيث يكفيهم الجزور ـ وفيهم ابنه حذيفة، فقد تخوفكم عليه.

ثم قال: يا معشر قريش! إنما يشير عليكم عتبة بهذا؛ لأن ابنه مع محمد، ومحمد ابن عمه، فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه، فغضب عتبة، وسب وقال: سيعلم أينا أفسد لقومه[1].

قوله: (الأسود بن عبد الأسد المخزومي): قال الحلبي: كان رجلاً شرساً، شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أنه أولُ من يعطى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧).

أو لأهدمنَّه، أو لأموتنَّ دونه، فخرج إليه حمزةُ بنُ عبد المطلب، وضربه ضربة قطع بها قدمه بنصف ساقه، فوقع على ظهره، فزحف على الحوض حتى اقتحم فيه لِيَبَرَّ قسمه، فأتبعه فقتله.

ثم وقف عليه الصلاة والسلام يحرض الناس على الثبات والصبر، وكان فيما قال: «وإن الصبر في مواطن البأس مما يُفَرِّجُ الله به الهم، وينجي به من الغمِّ»[1].

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة، فخرج من صفوف المشركين ثلاثةُ نفر: عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فطلبوا أكفاءهم، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: لا حاجة لنا بكم، إنما نريد أكفاءنا من بني عمنا، فأخرج لهم عليه الصلاة والسلام عُبيدةَ بنَ الحارث بنِ عبد المطلب للأول، وحمزةَ بنَ عبد المطلب للثاني، وعليَّ بنَ أبي طالب للثالث. فأما حمزةُ وعليٌّ فقتلا صاحبيهما، وأما عبيدةُ وعتبة، فاختلفا بضربتين، كلاهما جرح صاحبه، فحمل رفيقا عبيدةَ على عتبةَ فأجهزا عليه، وحُمِل عبيدة بين الصفوف جريحاً يسيل مُخُّ ساقه، وأضجعوه إلى جانب موقفه صلى الله عليه وسلم، فأفرشه صلى الله عليه وسلم قدمه الشريفة، فوضع خدَّه عليها، . . . .

كتابه بشماله، كما أن أخاه أبا سلمة أول من يعطى كتابه بيمينه[2].

قوله: **(ثلاثة من الأنصار)**: هم إخوة أشقاء: مُعاذ، ومُعَوَّذ، وعوف بنو عفراء.

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٧٠) عن عمر بن حسين. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٩٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٠)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «الأوائل» (٨٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً.

وبشره عليه الصلاة والسلام بالشهادة، فقال: وَدِدْت والله! أن أبا طالب كان حيّاً ليعلم أننا أحقُّ منه بقوله:

ونُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ... ونَذْهَلَ عَنْ أَبنائِنا والحَلائِلِ[1]

قوله: (وبشره عليه الصلاة والسلام بالشهادة)؛ أي: بعدما قال له عبيدة: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشهد أنك شهيد»، وتوفي بالصفراء، ودفن بها عند مرجع المسلمين إلى المدينة[2].

قوله: (ونسلمه. . .) إلخ: البيت قبله:

كذبتم وبيتِ الله نُبزى محمداً ... ولما نطاعِنْ دونَه ونناضلِ[3]

---

(١) هذا البيت من أبيات في قصيدة لأبي طالب، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، قالها لما تمالأت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم، ونفروا عنه من يريد الإسلام، وأولها:

ولمَّا رأيت القوم لا ودَّ عندهم ... وقد قَطَعوا كلَّ العرى والوسائل

وقد جاهرونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

أعبدَ منافٍ أنتُم خير قومكم ... فلا تشركوا في أمركم كلَّ واغلِ

فقد خفتُ إن لم يصلح الله أمركم ... تكونوا كما كانت أحاديث وائلِ

أعوذ بربِّ الناس من كل طاعن ... علينا بسوءٍ أو ملحٍّ بباطلِ

وثورٍ ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراقٍ لبر في حراءٍ ونازلِ

وبالبيت حق البيت في بطن مكة ... وتالله إن الله ليس بغافلِ

كذبتم وبيتِ الله نبزى محمداً ... ولمَّا نطاعنْ دونَه ونناضل

انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ١١٣).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/ ٢٥٩) عن محمد بن علي بن حسين ابن ربيعة، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠١).

(٣) انظر: «ديوان أبي طالب» (ص: ٦٦).

وبعد انقضاء هذه المبارزة، وقف عليه الصلاة والسلام بين الصفوف يعدِلها بقضيب في يده، فمرّ بسواد بن غَزِيَّةَ حليفِ بني النجار وهو خارج من الصف، فضربه بالقضيب في بطنه وقالَ: «استقم يا سواد»، فقال: أوجعتني يا رسول الله، وقد بُعثتَ بالحق والعدل، فَأَقِدْني من نفسك، فكشف الرسول عليه الصلاة والسلام عن بطنه، وقال: «استقِدْ يا سواد»، فاعتنقه سواد وقبَّل بطنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما حملك على ذلك؟» فقال: يا رسول الله! قد حضر ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد أن يمسّ جلدي جلدَك، فدعا له بخير[1].

ثم ابتدأ عليه السلام يوصي الجيش فقال: «لا تحملوا حتى آمركم، وإن اكتَنَفَكم القوم فانضحوهم بالنبل، . . . .

قوله: (غزية): ـ بفتح الغين وكسر الزاي وتشديد الياء ـ. اهـ. حلبي[2].

قوله: (أن يمس جلدي جلدك): قال الحلبي نقلاً عن «الخصائص الصغرى»: ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم: أنه ما التصق ببدنه مسلم وتمسه النار.

ومنها أيضاً: لا تأكل النار شيئاً من جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم. اهـ[3].

قوله: (وإن اكتنفكم القوم)؛ أي: دانَوْكم.

(فانضحوهم بالنبل)؛ أي: ادفعوا عنكم بالنبل.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٣) عن حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٣).

ولا تَسُلُّوا السيوف حتى يَغْشَوكم»[1].

ثم حضّهم على الصبر والثبات، ثم رجع إلى عريشه ومعه رفيقه أبو بكر، وحارسُه سعدُ بن معاذ واقفٌ على باب العريش متوشحٌ سيفَه، وكان من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام ذاك الوقت كما جاء في صحيح البخاري: «اللهمّ أنشدك عهدَك ووعدَك، اللهمّ إن شئتَ لم تُعبد»، فقال أبو بكر: حَسْبُك؛ فإن الله سينجز لك وعده. فخرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥][2].

ثم قال عليه الصلاة والسلام يُحَرِّض الجيش: «والذي نفس محمد بيده! لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غيرَ مدبر، إلا أدخله الله الجنة، ومن قتل قتيلاً فله سَلَبُه»، فقال عُمَير بن الحمام ـ وبيده تمراتٌ يأكلها ـ: بخ بخ! ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء! ثم قذف التمرات، ....

قوله: (اللهم إن شئت لم تعبد): وفي الحلبي: وكان يقول أيضاً: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تُعبد»[3].

قوله: (محتسباً)؛ أي: طالباً وجهَ الله تعالى والأجرَ والثواب. اهـ. «نهاية»[4].

قوله: (بخ بخ): كلمة تقال لتعظيم الأمر والتعجبِ منه.

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٦٤) من حديث أبي أسيد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٢٩١٥) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٠٥)، والخبر المذكور رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٣٨٢).

وأخذ سيفه وقاتل حتى قُتل[1].

واشتد القتال، وحمي الوطيس، وأيد الله المسلمين بالملائكة. . . .

قوله: (قاتل حتى قتل): قال الحلبي: وكان يقول:

ركضـــاً إلـــى الله بغيـــر زادِ　　إلا التقـــى وعمـــل المعـــادِ

والصـبر فـي الله علـى الجهـاد　　وكـــلُّ زادٍ عرضـــةُ النفـــادِ

غيـــرَ التقـــى والبـــرِّ والرشـــاد[2]

قوله: (وحمي الوطيس): الوطيس: التنور، وهو كناية عن شدة الأمر واضطرام الحرب، ويقال: إن هذه الكلمة أول من قالها النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد البأس يومئذ؛ أي: يوم حنين، ولم تُسمع قبله، وهي من أحسن الاستعارات. اهـ. «نهاية»[3].

قوله: (وأيد الله المسلمين بالملائكة): قال الدحلاني: لما التحم القتال، وعجَّ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء، أنزل الله الملائكة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: ٩]؛ أي: متتابعين، فكان مع جبريل خمس مئة، ومع ميكائيل خمس مئة، وجاء أن الله أيده بثلاثة آلاف: ألف مع جبريل، وألف مع ميكائيل، وألف مع إسرافيل[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٣) إلا قوله صلى الله عليه وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، فقد رواه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١)، من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «من قتل قتيلاً له عليه بينةٌ فله سلبه»، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١١).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٤٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).

بُشرى لهم، ولتطمئن به قلوبهم، فلم تكن إلا ساعة حتى هُزم الجمع، وولّوا الدُّبُرَ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فقتل من المشركين نحوُ السبعين، منهم من قريش: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، قُتلوا مبارزة أول القتال، وأبو البَخْتري بنُ هشام، . . . .

ثم قال: وجاء أن الملائكة كانوا على صور الرجال، فكان الملك يمشي أمام الصف في صورة رجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم عليهم، ويظن المسلمون أنه منهم، وجاء أنهم يقولون للمسلمين: اثبتوا فإن عدوكم قليل[١].

قوله: (حتى هزم الجمع): في الحلبي: بعدما اشتد القتال، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب، ورمى بها قريشاً، ثم قال: «شاهت الوجوه»؛ أي: قبحت الوجوه، فلم يبق من المشركين رجل إلا ملأت عينه لا يدري أين يتوجه ليعالج التراب لينزعه من عينيه، فانهزموا، وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون[٢]، وفي رواية أن ذلك كان في غزوة أحد. اهـ. ملخصاً[٣].

قوله: (وأبو البختري بن هشام): هذا ممن نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن قتله؛ لأنه كان ممن نقض الصحيفة، فلقيه المُجذَّر ـ رضي الله عنه ـ فقال له: قد نُهينا عن قتلك، فقال: وزميلي ـ أي: رفيقي ـ؟ وكان معه زميل له خرج معه من مكة يقال له: جنادة بن مليحة، فقال له المجذر: لا والله! ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بك وحدَك، فقال: لا والله! إذاً لأموتن أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عني نساء مكة أني تركت زميلي

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٣٧٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٢٠٥) عن محمد بن قيس، ومحمد بن كعب القرظي.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٢).

والجراح والدُ أبي عبيدة، قتله ابنه بعد أن ابتعد عنه فلم يزدجر، وقُتل أُميةُ بن خلف، وابنُه علي، اشترك في قتلهما جماعة من الأنصار مع بلال بن رباح وعمّار بن ياسر، وقد سعيا في ذلك؛ لما كان يفعله بهما أُمَيّةُ في مكة[١].

يقتل حرصاً على الحياة، فقتله المجذرُ بعد أن قاتله، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: والذي بعثك بالحق! لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني، فقتلته. اهـ. حلبي[٢].

قوله: (والجراح والد أبي عبيدة قتله ابنه): قال الحلبي: إن والد أبي عبيدة قصد أبا عبيدة ليقتله، فولى عنه لينكفَّ عنه، فلم ينكفَّ عنه، فرجع عليه وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[المجادلة: ٢٢] الآية[٣].

قوله: (وأمية بن خلف، وابنه علي): قال الحلبي: قال عبد الرحمن بن عوف: كان معي أدراع استلبتها، فأنا أحملها، فرآني أمية فقال لي: هل لك فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه علي وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، ثم قال لي: يا عبد الإله! من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

ثم خرجت أمشي بهما، فوالله! إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، فقال بلال: رأسُ الكفر أميةُ بن خلف، لا نجوتُ إن نجا، فقلتُ: أي بلال! أفبأسيريّ ـ أي

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٥).

ومن القتلى: حنظلة بنُ أبي سفيان، وأبو جهل بنُ هشام، أثخنه فَتيان صغيران من الأنصار، لما كانا يسمعانه من أنه كان شديدَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجهز عليه عبدُالله بن مسعود، . . . . . .

تفعل ذلك بهما ـ؟ قال: لا نجوتُ إن نجا، وكَرَّرت، وكررَ ذلك، ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأسُ الكفر أمية بن خلف، فأحاطوا بنا، فأصلتَ بلالٌ السيفَ فضرب رجلَ ابنه فوقع، وصاح أمية[1] صيحة ما سمعت مثلها قط، فضربوهما بأسيافهم فهبروهما. اهـ.

فلما قُتلا صار يقول عبد الرحمن: يرحم الله بلالاً، فلا درعي، ولا أسيريَّ[2].

قوله: (وأبو جهل بن هشام): في البخاري: قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم! أرني أبا جهل، فقلت: يا بن أخي! وما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، قال: فما سرّني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدوا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، هما ابنا عفراء. اهـ[3].

قال الحلبي: ثم رآه عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بآخر رمق، فعرفه، فوضع رجله على عنقه، ثم احتز رأسه، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الأصل تكرر: «أمية».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٣٠١) من حديث عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(٣) رواه البخاري (٣٩٨٨).

وقُتل نوفلُ بنُ خويلد، قتله علي بن أبي طالب، وقُتل عبيدة والعاصي ولدا أبي أُحَيْحَةَ: سعيدِ بنِ العاصِ بنِ أمية، وقُتِل كثيرون غيرُهم[1].

أما الأسرى، فكانوا سبعين أيضاً، قتلَ منهم عليه السلام وهو راجع عقبةَ بنَ أبي مُعَيط، والنضرَ بنَ الحارث اللذين كانا بمكة من أشدِّ المستهزئين[2].

وقال له: هذا رأس عدوِّ الله أبي جهل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «آللهِ الذي لا إله غيره؟»[3]، ورددها ثلاثاً، وحمد الله تعالى، وسجد خمس سجدات شكراً[4].

قوله: (ونوفل بن خويلد): قال الحلبي: لما التقى الصفان، نادى نوفل بصوت رفيع: يا معاشر قريش! اليوم يوم الرفعة والعلاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم اكفني نوفلَ بنَ خُويلد»، فخرج إليه جبار بن صخر فأسره، فبينما هو يسوقه، رآه علي، فقال نوفل: يا أخا الأنصار! من هذا؟ واللات والعزى! إنه ليريدني، فقال: هذا علي بن أبي طالب، فعمد له علي ـ كرم الله وجهه ـ فقتله. اهـ[5].

قوله: (والنضر بن الحارث): قال الحلبي: كان المقداد ـ رضي الله عنه ـ أسرَ النضرَ. . . إلخ، إلى قوله: «لو بلغني هذا الشعر قبل قتله، لمننت عليه»[6].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣٧) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٢٠).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٧)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٩٤ ـ ٩٥) عن الزهري بنحوه.

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤١)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٣٠٩).

وكانت هذه الواقعة في (١٧) رمضان، وهو اليوم الذي ابتدأ فيه نزول القرآن، وبين التاريخين (١٤) سنة قمرية كاملة.

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالقتلى فنُقلوا من مصارعهم التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام أخبر بها قبل حصول الموقعة إلى قليب بدر؛ لأنه عليه الصلاة السلام كان من سُننه في مغازيه إذا مرّ بجيفة إنسان، أمر بها فدُفنت، لا يسأل عنه مؤمناً أو كافراً، ولما ألقي عتبة والدُ أبي حذيفة أحدِ السابقين إلى الإسلام تغير وجه ابنه، ففطن الرسول عليه السلام لذلك، فقال: «لعلّك دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: لا والله! ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه الله للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه، أحزنني ذلك، فدعا له الرسول عليه السلام بخير[1]، ثم أمر عليه السلام براحِلته، فشُدَّ عليها حتى قام على شَفَةِ القليب الذي رُمي فيه المشركون، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلان! . . . .

قوله: (فنقلوا من مصارعهم. . .) إلخ؛ أي: إلا أميةَ بنَ خلف؛ فإنه انتفخ في درعه فملأه، فذهبوا ليحركوه فتزايل ـ أي: تقطعت أوصاله ـ فأخروه، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة. اهـ. حلبي[2].

(حزنني ذلك): صوابه: أحزنني، كما في الحلبي[3].

قوله: (فشد عليها)؛ أي: شد عليها رحلُها، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقائهم في القليب، وذلك ليلاً.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٩٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٠).

أيسرّكم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله؟! فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟!»، فقال عمر: يا رسول الله! ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال: «والذي نفسُ محمد بيده! ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم»[1].

قوله: (أيسركم أنكم): ومما قاله لهم أيضاً: «كنتم كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس»[2].

قوله: (ما أنتم بأسمع . . .) إلخ: وفي رواية: «لقد سمعوا ما قلتُ، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً»[3].

وعن قتادة ـ رضي الله عنه ـ: أحياهم الله حتى سمعوا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لهم، وتصغيراً ونقمة وحسرة[4].

قال الحلبي: أقول: والمراد بإحيائهم: شدةُ تعلق أرواحهم بأجسادهم حتى صاروا كالأحياء في الدنيا للغرض المذكور؛ لأن الروح بعد مفارقة جسدها يصير لها تعلق به، أو بما يبقى منه، ولو عجب الذنَب؛ فإنه لا يفنى وإن اضمحل الجسم بأكل التراب أو بأكل السباع أو الطير أو النار، وبواسطة ذلك التعلُّق يعرف الميت من يزوره ويأنس به، ويرد سلامه إذا سلم عليه؛ كما ثبت في الأحاديث، وتمامه فيه[5].

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٦) من حديث أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٨٨) عن بعض أهل العلم.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٣) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) رواه البخاري (٣٩٧٦).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣١).

وتقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أَنَّ ما كنتُ أقول لهم حق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر: ٢٢]، ....

قوله: (وتقول عائشة...) إلخ: المقصود بإيراد ما قالته عائشة: إنكارُ ما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك لعمر، وإن الذي قاله لعمر هو قوله: «إنهم الآن ليعلمون...» إلخ مستدلةً بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ [النمل: ٨٠] إلخ الآية، **وقد ذكر الحديث هنا مختصراً، ولذلك لم يظهر المقصود** منه تمام الظهور، والحديث كما في البخاري: ذُكر عند عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن ابن عمر رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يعذَّب في قبره ببكاء أهله، فقالت: إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن»، قالت: وذاك مثلُ قوله: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على القليب، وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: إنهم ليسمعون ما أقول، إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[النمل: ٨٠]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، تقول: حين تبوؤوا مقاعدهم من النار. اهـ[1].

وروي عن ابن عمر قال: وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قليب بدر فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً»، ثم قال: «إنهم الآن يسمعون ما أقول»، فذكر لعائشة، فقالت: إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق»، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية[2].

قال الحلبي: ويجاب بأنه لا مانع من إبقاء السمع هنا على حقيقته؛ لأنه

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٨، ٣٩٧٩) من حديث عروة بن الزبير.

(٢) رواه البخاري (٣٩٨٠، ٣٩٨١).

يقول: «يعلمون ذلك حينما تبوّؤوا مقاعدهم من النار». رواه البخاري[1].

ثم أرسل عليه السلام المبشرين، فأرسل عبدَالله بنَ رواحةَ لأهل العالية، وأرسل زيدَ بنَ حارثةَ لأهل السافلة راكباً على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المنافقون والكفار من اليهود قد أرجفوا بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ....

إذا قوي تعلقُ أرواح الكفار بأجسادهم، لا مانع من سماعهم بحاسة سمعهم؛ لبقاء محلٍّ تلك الحاسة منهم، والسماعُ المنفيُّ في الآيتين بمعنى السماع النافع؛ لأنه تعالى شبه الكفار الأحياء بالأموات في القبور، فإنهم لا ينتفعون بالدعاء إلى الإسلام النافع. اهـ[2].

قوله: (وكان المنافقون...) إلخ: في الحلبي: قال رجل من المنافقين لأبي لبابة: قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون بعده أبداً، قد قُتل محمد وغالبُ أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب، قال أسامة: فجئت حتى خلوتُ بأبي لبابة، وسألته عما أسره له الرجل، فأخبرني بما أخبره به، فقلت: أحق ما تقول؟ قال: أي والله! حق ما أقول يا بني، فقويت نفسي، ورجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجِفُ برسول الله صلى الله عليه وسلم؟ لنقدمنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم فتضرب عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه[3]، وكان هذا قبل أن يجتمع أسامة بأبيه زيد بن حارثة. اهـ[4].

قوله: (قد أرجفوا بالرسول[5] صلى الله عليه وسلم): في «القاموس»:

---

(١) رواه البخاري (٣٩٧٩)، ومسلم (٩٣٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٥).

(٣) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣) عن الواقدي.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٧).

(٥) في الأصل: «بالمدينة»، والمثبت موافق لما في «نور اليقين» (ط الجامعة).

عادة الأعداء في إذاعة الضرّاء، يقصدون بذلك فتنة المسلمين، فجاء أولئك المبشرون بما سرّ أهلَ المدينة، وكان ذلك وقت انصرافهم من دفن رقيةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجِ عثمان. ثم قفل رسول الله راجعاً[1].

وهنا وقع خُلف بين بعض المسلمين في قسمة الغنائم، فالشبان يقولون: باشرنا القتال، فهي لنا خالصة، والشيوخ يقولون: . . . .

أرجف القوم: خاضوا في أخبار الفتن ونحوها. اهـ[2].

قوله: (رُقَـيَّـة): ـ بضم الراء وفتح القاف وتشديد الياء؛ كسُمَيَّة ـ. اهـ. قاموس[3].

ولما عُزِّي فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، قال: «الحمد لله، دفنُ البنات من المَكْرمات»[4].

قوله: (في قسمة الغنائم): كانت الغنائم (١٥٠) من الإبل، وعشرة أفراس، ومتاعاً وسلاحاً، وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيرة حملها المشركون. اهـ[5].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٠٩ ـ ٢٢٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٧٤ ـ ٤٣٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رجف).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رقي).

(٤) رواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» للهيثمي (٧٩٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٠٣٥)، كلاهما من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إلا أن عند البزار: «موت» بدل «دفن»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٢): وفيه عثمان بن عطاء الخراساني، وهو ضعيف.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٧).

كنا ردءاً لكم فنشارككم. ولما كان هذا الاختلاف مما يدعو إلى الضعف، ويزرع في القلوب العداوة والبغضاء المؤديين إلى تشتت الشمل، أنزل الله حسماً لهذا الخلاف أولَ سورة الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، فسطع على أفئدتهم نور القرآن، فتألّفت بعد أن كادت تفترق، وتركوا أمر الغنائم لرسول الله يضعها كيف شاء ـ كما حكم القرآن ـ فقسمها عليه الصلاة والسلام على السواء، الراجل مع الراجل، والفارس مع الفارس، وأدخل في الأسهام بعض مَنْ لم يحضر لأمر كُلف به، وهم: أبو لُبابة الأنصاري؛ لأنه كان مخلَّفاً على أهل المدينة، والحارث ابن حاطب؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلفه على بني عمرو بن عوف ليحقّق أمراً بلغه، والحارثُ بنُ الصمَّة، وخَوَّات بنُ جُبير؛ لأنهما كُسِرا بالرَّوْحَاءِ، فلم يتمكنا من السير، وطلحةُ بنُ عبيدالله، وسعيدُ بن زيد؛ . . . .

قوله: (ردءاً): الردء: المعين.

قوله: (﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾)؛ أي: أمرها مختص بهما، يقسمهما الرسول على ما يأمره الله به.

وقوله: (﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾)؛ أي: في الاختلاف والمشاجرة.

وقوله: (﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾)؛ أي: الحال التي بينكم بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم، وتسليم أمره إلى الله والرسول.

وقوله: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)؛ أي: كاملي الإيمان. اهـ. بيضاوي[1].

قال الحلبي: ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ . . .﴾ [الأنفال: ٤١] إلخ الآية[2].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٨٧ ـ ٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٣٨).

لأنهما أُرسِلا يتجسسان الأخبار، فلم يرجعا إلا بعد انتهاء الحرب، وعثمان بن عفان؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلَّفه على ابنته رقيّة يمرضها، وعاصمُ بن عدي؛ لأنه خلفه على أهل قُباء والعالية، وكذلك أسهم لمن قتل ببدر، وهم أربعةَ عشرَ، منهم: عُبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الذي جُرح في المبارزة الأولى، فإنه ـ رضي الله عنه ـ مات عند رجوع المسلمين من بدر، ودفن بالصَّفراء. ولما قارب عليه السلام المدينة، تلقته الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيّها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المُطاع

أسرى بدر

ولما دخلوا المدينة استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه فيما يفعل بالأسرى، ....

قوله: (وهم أربعة عشر): قال في «زاد المعاد»: ستة من المهاجرين، وستة من الخزرج، واثنان من الأوس. اهـ[1].

أسرى بدر

قوله: (ولما دخلوا المدينة): قال الحلبي: لما قدمت الأسارى، فرقهم بين الصحابة وقال: «استوصوا بهم خيراً». اهـ[2].

وقوله: (استشار عليه الصلاة والسلام أصحابه): حيث قال لهم: «ما ترون

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٨٨).

(٢) أورده ابن كثير في «السيرة النبوية» (٢/ ٤٧٥) عن نبيه بن وهب أخي بني عبد الدار.

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! قد كذّبوك وقاتلوك وأخرجوك، فأرى أن تمكِّنني من فلان ـ لقريب له ـ فأضربَ عنقه، وتمكن حمزةَ من أخيه العباس، وعلياً من أخيه عَقيل. وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس في قلوبنا مودّة للمشركين، ما أرى أن تكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. ووافقه على ذلك سعد بن معاذ، وعبدالله بن رواحة، وقال أبو بكر: يا رسول الله! هؤلاء أهلك وقومك، . . . .

في هؤلاء الأسرى، إن الله قد مكنكم منهم»[١].

قوله: **(فقال عمر)**: كان المستشار أولاً أبا بكر، ثم عمر، على خلاف ما ذكره هنا.

قوله: **(ما أرى أن تكون لك أسرى)**؛ أي: أرى أن تقتلهم ولا تبقي على أحد منهم كما قال ابن[٢] أذينة الشاعر:

لا تقطعَنْ ذنَب الأفعى وترسلَها   إن كنت شهماً فأتبع رأسَها الذنبا[٣]

قوله: **(وعبد الله بن رواحة)**: هذا قال: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً، فقال العباس ـ رضي الله عنه ـ وهو يسمع: ثكلتك رحمُك، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ولم يردَّ عليهم، فقال بعض الناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال بعض الناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ولم يقل قائل: يأخذ بقول عمر[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) في الأصل: «أبو»، والصواب المثبت.

(٣) ذكره أبو القاسم الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (١/ ٣٠١)، وعزاه لبعض الغسانيين يحرض الأسود بن المنذر على قتل أعدائه.

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٣) من حديث عبدالله بن مسعود =

قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم، أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله ليُليـِّن قلوب أقوام حتى تكونَ ألينَ من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم: ٣٦]........................

قوله: (فقال عليه الصلاة والسلام)؛ أي: خروجه من بيته.

قوله: (ليشدد): الصواب: ليشدنَّ، كما في الحلبي[١]، أو يقول: ليشدُّ بالإدغام، وهو واجب هنا.

قوله: (وإن مثلك يا أبا بكر): في الحلبي: «مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم حيث يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ...﴾[إبراهيم: ٣٦] إلخ الآية، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل نزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ...﴾[نوح: ٢٦] إلخ الآية، ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٨٨]»[٢].

= ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: «وقال ناس: يأخذ بقول عمر».

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ١٢١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

وإن مثلك يا عمر مثل نوح قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]»[١]، ورأى عليه الصلاة والسلام رأي أبي بكر بعد أن مدح كلاً من الصاحبين؛ لأن الوجهة واحدة، وهي إعزازُ الدين، وخذلانُ المشركين، ثم قال لأصحابه: «أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء»[٢].

وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الأسرى، فناحت على القتلى شهراً، ثم أشير عليهم من كبارهم ألّا يفعلوا؛ كيلا يبلغ محمداً وأصحابَه جزعُهم، فيشمتوا بهم، . . . .

قوله: (بفداء)؛ أي: أو قتلٍ كما في الحلبي[٣].

قوله: (عالة): العيلة: الفقر، ويجمع على عالة. اهـ. مصباح[٤].

قوله: (﴿دَيَّارًا﴾)؛ أي: أحداً، ولا يتكلم به إلا في الجحد، يقال: ما في الدار أحد ولا ديار. اهـ. سجستاني[٥].

قوله: (وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه. . .) إلخ: صوابه: أنهم أخذوا في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٦٩٠)، والطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٤ ـ ٤٥)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨). وأصله عند مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٨)، وفيه: «بفداء أو ضرب عنق». رواه الترمذي (٣٠٨٤) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: عيل).

(٥) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٢٢١).

فسكتوا وصمّموا على ألا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثأرهم، وتواصوا فيما بينهم ألّا يعجلوا في طلب الفداء؛ لئلا يتغالى المسلمون فيه[1].

الفداء

فلم يلتفت إلى ذلك المطَّلب بنُ أبي وَدَاعة السهمي، وكان أبوه من الأسرى، فخرج خفيةً حتى أتى المدينة، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم، وعند ذلك بعثت قريش في فداء أسراها، وكان أربعة آلاف درهم، ومن لم يكن معه فداء، وهو يحسن القراءة والكتابة، أعطوه عشرة من غلمان المدينة يُعلِّمهم، وكان ذلك فداءَه.

النوح من حين وصول الخبر لمكة بخبر الوقعة ومن قتل فيها، وكان أول من قدم بالخبر ابن عبد عمرو، فقال لهم: قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم وفلان وفلان، ثم قدم أبو سفيان بن الحارث فأخبر أبا لهب، وفشا الخبر حينئذ في الناس.

قوله: (وتواصوا فيما بينهم. . .) إلخ: صوابه: وتواصوا فيما بينهم على ذلك، وأن لا يعجلوا في طلب الفداء؛ لأن التواصي كان على الأمرين.

الفداء

قوله: (وفدى أباه): قال الحلبي: وقد كان صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ لما رأى أبا وداعة أسيراً: إن له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنكم به قد جاء في طلب فداء أبيه، فكان أول أسير فُدي، واسم أبي وداعة: الحارث[2].

قوله: (وهو يحسن القراءة والكتابة): قال في «المطالع النصرية» للشيخ نصر الهوريني ما خلاصته: أن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام، وأن

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٢٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥١).

حروفه كلها كانت متصلة حتى الألف والراء، بعكس الحِمْيرية، إلى أن فصلها من بعضها ولداه: قيدار، والهميسع[1].

وقال الحلبي: الصحيح أن أول من كتب بالعربي من ولد إسماعيل نزارُ بنُ معدِّ بنِ عدنان[2].

وقال السيوطي في «المزهر»: المشهور عند أهل العلم أن أول من كتب بخطنا هذا، وهو الجزم ـ أي: القطع ـ مرامرُ بنُ مرة، وأسلمُ بنُ سدرة، وعامرُ بن جدرة، وهم من عرب طيئ، تعلموه من كاتب الوحي لسيدنا هود عليه السلام، ثم علَّموه أهلَ الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق الحيرة وغيرها، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومةِ الجندل، وكان له صحبة بحرب بن أمية؛ لتجارته عندهم في بلاد العراق، فتعلم منه حرب الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكة، فتزوج الصهباء بنت حرب أختَ أبي سفيان، فتعلم منه جماعة من أهل مكة، فهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبل الإسلام، ولذلك قال رجل كِنْدي من أهل دومةِ الجندل يمُنُّ على قريش:

لا تجحدوا نعماءَ بشرٍ عليكمو	فقد كان ميمونَ النقيبة أزهرا
أتاكم بخطِّ الجزمِ حتى حفظتمو	من المال ما قد كان شتى مبعثرا
وأتقنتمو ما كان بالمال مهملاً	وطامنتمو ما كان منه مبقرا
فأجريتم الأقلام عَوداً وبَدْأةً	وضاهيتم كُتَّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتم عن مسندِ الحي حِمْيراً	وما زبرت في الصحف أقلامُ حميرا[3]

---

(١) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (١/ ٢٨).

(٣) انظر: «المزهر» للسيوطي (٢/ ٢٩٧).

إنما قال: (بالجزم)؛ لكونه جزم؛ أي: اقتطع ووُلِّد من المسند الحميري[1].

قال السيوطي: وقد قيل للمهاجرين من قريش: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الحيرة، وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتابة؟ فقالوا: من الأنبار[2].

ولذا قال ابن خلدون في «المقدمة»: إن القول بأن أهل الحجاز إنما لُقِّنوها ـ يعني: الكتابة ـ من الحيرة، [و] لقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو أليقُ الأقوال[3].

وقد جاء الإسلام وعمرُ بن الخطاب ممن يكتب ويقرأ المكتوب كما يدل لذلك قصة إسلامه، واشتهر بالكتابة من عظماء الصحابة: عمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، وأبو عبيدة، وغيرهم، لكن معرفة شرذمة قليلة من قريش للكتابة لا تنفي عن العرب الأمية التي وصفهم الله بها.

هذا ما يتعلق بوجود الكتَّاب بمكة، وأما المدينة، فلم تكثر الكتابة العربية إلا بعد الهجرة بأكثر من سنة، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من قريش وغيرهم في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة؛ جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال، وعلى كل من عجز عن الافتداء بالمال أن يُعلِّم الكتابة لعشرة من صبيان المدينة، فلا يطلقونه إلا بعد تعليمهم، فبذلك كثرت الكتابة فيها، وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته عليه السلام وبعده[4].

هذا وقد كانت الكتابة في المصاحف العثمانية وغيرِها وكتبِ الحديث

---

(١) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٥٣).

(٢) انظر: «المزهر» للسيوطي (٢/ ٢٩٤).

(٣) انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٤١٨).

(٤) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٥٥ ـ ٥٦).

ومن الأسرى: عَمرو بن أبي سفيان، ولمَّا طُلب من أبيه فداؤه، أبـى، وقال: والله! لا يجمـع محمد بين ابني ومالي، دعـوه يمسكوه في أيـديهم ما بدا لهم. فبينما أبو سفيان بمكة، إذ وجـد سـعد بـن النعمـان الأنصـاري معتمراً، فعدا عليه فحبسه بابنه عمرو، فمضى قـوم سـعد إلـى رسـول الله، وأخبروه، فأعطاهم عَمْراً ففكّوا به سعداً[1].

على صورة حروف الجزم التي سميت فيما بعد بالخط الكوفي، واستمرت علـى ذلك مدة ثلاثة قرون إلى أن جاء ابن مقلة الوزيرُ أو أخوه، وحولها أواخـر القـرن الثالث، فهو أولُ من نقل الكتابة من الخط الكوفي إلى هذه الطريقة، وأبرزها في هذه الصورة، ثم جاء بعده علي بن هلال البواب، فهذب طريقته ونقحهـا، وكسـاها طلاوة وبهجة[2].

قال ابن خلدون: وهكذا شأن الصناعات، تكون في أولها غير حسنة، ثـم تتحسن شيئاً فشيئاً. اهـ[3].

قوله: (ومن الأسرى: عمرو بن أبي سفيان) هو أخو معاوية، أسره علي بـن أبي طالب.

وقوله: (لا يجمع محمد بين ابني ومالي): العبـارة فـي الحلبـي هكـذا: يجمع عليّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة ـ يعني: ابنـه ـ وأفـدي عمـراً، دعـوه... إلخ[4]، وهي أوضح مما هنا.

قال الحلبي: ولم يذكروا عَمراً هذا فيمن أسلم من الأسارى، والظاهر أنه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٢) انظر: «المطالع النصرية» لنصر الهوريني (ص: ٦٤ ـ ٦٥).

(٣) نقله نصر الهوريني في «المطالع النصرية» (ص: ٦٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٢).

ومن الأسرى: أبو العاص بن الربيع زوجُ زينبَ بنتِ الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته؛ فإنه لما استحكمت العداوة بين قريش ورسولِ الله صلى الله عليه وسلم بمكة، طلبوا من أبي العاص أن يطلِّق زينبَ كما فعل ابنا أبي لهب بابنتي الرسول، فامتنع وقال: والله! لا أفارق صاحبتي، وما أحبُّ أن لي بها امرأة من قريش، ولما أُسر، أرسلت زينبُ في فدائه قِلادةً لها كانت حلَّتها بها أمها خديجةُ ليلة عرسها. . . . .

مات على شركه. اهـ[1].

قوله: (أبو العاص): هذا كنيته، واسمه: لقيط، وقيل: مِقْسم ـ بكسر الميم ـ، وقيل: هُشَيم، وقد اشتهر بكنيته، وهو من بني عبد مناف. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (قد أثنى عليه خيراً في مصاهرته)؛ أي: في قيامه في حقوق المصاهرة، وهو امتناعُه من تطليقَ زينب، وقوله: لا أفارق صاحبتي. . . إلخ ما سيأتي؛ فإنه لما قال هذا القول، شكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وأثنى عليه بذلك خيراً؛ كما في الحلبي[3].

قال الدحلاني: ولم يكن في ذلك الوقت تزوجُ الكافر بالمسلمة محرماً، وإنما حرم ذلك بعدُ؛ لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (بابنتي الرسول): هما: رقية، وأم كلثوم. اهـ. حلبي[5].

---

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٣).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٣).

فلما رأى عليه الصلاة والسلام تلك القلادة، رَقَّ لها رقّةً شديدة، وقال لأصحابه: «إنْ رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرَها، وتردّوا لها قلادتها، فافعلوا»، فرضي الأصحابُ بذلك، فأطلقه عليه الصلاة والسلام بشرط أن يترك زينبَ تهاجر إلى المدينة. فلما وصل إلى مكة، أمرها باللحاق بأبيها، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل لها من يأتي بها، فاحتملوها[(١)].

هذا، ولما أسلم أبو العاص بنُ الربيع قُبيل الفتح، ردّ عليه امرأته بالنكاح الأول[(٢)].

ومن الأسرى: سُهيلُ بنُ عمرٍو، . . . .

قوله: **(أرسل لها من يأتي بها)**: في الحلبي: أرسل لها زيدَ بنَ حارثة، ورجلاً من الأنصار[(٣)].

قوله: **(بالنكاح الأول)**: قال الدحلاني: وقيل: عقد له عليها عقداً آخر[(٤)].

قوله: **(سهيل بن عمرو)**: قال الحلبي: كان من أشراف قريش وخطبائها، فقد سئل سعيد بن المسيب عن خطباء قريش في الجاهلية، فقال: الأسود بن المطلب[(٥)]، وسهيل بن عمرو، وسئل عن خطبائهم في الإسلام، فقال: معاوية ابن أبي سفيان، وابنه يزيد، وسعيد بن العاص، وابنه عمرو، وعبدالله بن الزبير. اهـ[(٦)].

---

(١) رواه أبو داود (٢٦٩٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٢).

(٣) المرجع السابق، الموضع نفسه.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٤).

(٥) في الأصل: «عبد المطلب»، والمثبت موافق لما في «السيرة الحلبية».

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥).

وكان من خطباء قريش وفصحائها، وطالما آذى المسلمين بلسانه، فقال عمر ابن الخطاب: دَعْني يا رسول الله أنزعْ ثنيتَي سهيل، يَدْلع لسانُهُ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا أُمثِّل فيُمَثِّل الله بي، وإن كنت نبيّاً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه»[1]، وقدم بفدائه مكْرَزُ بنُ حفص، ولما ارتضى معهم على مقدارٍ، حبس نفسه بدله حتى جاء بالفداء. هذا، وقد حقّق الله خبر الرسول في سهيل؛ فإنه لما مات عليه الصلاة والسلام أراد أهل مكة الارتداد كما فعل غيرُهم من الأعراب، . . . .

قوله: (ثنيتي سهيل): الثَّنِيَّة من الأضراس: الأربع التي في مقدم الفم: ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل. اهـ. «قاموس»[2].

قوله: (يدلع): في «القاموس»: دلع لسانه؛ كمنع: أخرجه. اهـ[3].

قوله: (مكرز) ضبطه بـ«القاموس»: بضم الميم وفتح الراء[4].

قال شارحه الزبيدي: بكسر الميم؛ كمنبر[5].

قوله: (الارتداء): صوابه: الارتداد.

قال الحلبي: حتى خافهم أمير مكة عتابُ بنُ أسيد ـ رضي الله عنه ـ وتوارى، ولما خطب سهيل خطبته هذه، وتراجع الناس، ظهر عتاب بن أسيد[6].

و(أَسيد) على وزن كَريم، قال في «المصباح»: أسدٌ أسيدٌ؛ مثلُ كريم؛

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٠٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ثني).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: دلع).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كرز).

(٥) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: كرز).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

فقام سهيل هذا خطيباً، وقال بعدَ أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله: أيها الناس! مَنْ كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤]، ثم قال: والله! إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّنكم هذا ـ يريد: أبا سفيان ـ من أنفسكم؛ فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسدُ بني هاشم، وتوكلوا على ربّكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصِر من نصره، ومقوٍّ دينه، وقد جمعكم الله على خيركم ـ يريد: أبا بكر ـ وإن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتدَّ ضربنا عنقه. فتراجع الناس عمّا كانوا عزموا عليه، وكان هذا الخبر من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم[1].

ومن الأسرى: الوليد بن الوليد، افتكَّه أخواه: خالدٌ، وهشام، فلما افْتُدِيَ، ورجع إلى مكة، أسلم فقيل له: هلاّ أسلمت قبل الفِداء؟ فقال: خفت أن يعدّوا إسلامي خوفاً. . . . .

أي: متأسِّد جريء، وبه سُمِّي، ومنه عتاب بن أسيد. اهـ[2].

قوله: (﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾): يعني: أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل، وترجعون إلى دينكم الأول؟! يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه: رجع وراءه ونكص على عقبيه. اهـ. خازن[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: أسد).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣٠٤).

ولما أراد الهجرة، منعه أخواه، ففرّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضاء[1].

ومن الأسرى: السائب بن يزيد، وكان صاحبَ الراية في تلك الحرب، فدى نفسه. وهو الجدُّ الخامس للإمام محمد بن إدريس الشافعي[2].

ومنهم: وَهب بنُ عُمَيْرٍ الجُمَحِيّ، كان أبوه عمير شيطاناً من شياطين قريش، كثيرَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، جلس يوماً بعد انتهاء هذه الحرب مع صفوان بن أمية يتذاكران مُصاب بدر، فقال عمير: والله! لولا دَيْنٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعِيالٌ أخشى عليهم الفقر بعدي، كنت آتي محمداً فأقتله؛ فإن ابني أسير في أيديهم، فقال صفوان: دَيْنُك عليَّ وعيالك مع عيالي، فأخذ عُمير سيفه، وشحذه وسَمَّه، ....

قوله: (ولما أراد الهجرة...) إلخ: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو له في القنوت[3].

قوله: (وكان صاحب الراية)؛ أي: التي كان يقال لها في الحرب: العُقاب، ويقال لها: راية الرؤساء، ولا يحملها في الحرب إلا رئيس القوم، وكانت لأبي سفيان، أو لرئيس مثلِه، ولغيبةِ أبي سفيان في العير حملها السائبُ لشرفه.

وولدُ السائب هو شافع، وإليه ينسب الإمام الشافعي، لقي النبي صلى الله عليه وسلم وهو مترعرع، فأسلم. اهـ. حلبي[4].

قوله: (وشحذه)؛ أي: سَنَّه.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

(٣) رواه البخاري (٨٠٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٦).

وانطلق حتى قَدِم المدينة، فبينا عمرُ مع نفر من المسلمين، إذ نظر إلى عمير متوشحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدوٌّ لله ما جاء إلا بشرٍّ، ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام: هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، فقال: «أدخلْه عليّ». فأخذ عمر بحمائل سيفه وأدخلَه. فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: «أطلقه يا عمر، ادنُ يا عمير» فدنا، وقال: أنعِموا صباحاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد أبدلَنا الله تحيةً خيراً من تحيتك، وهي: السلام»، ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه، فقال: «فما بالُ السيف؟» قال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال عليه الصلاة والسلام: «اصدُقني ما الذي جئتَ له؟» قال: ما جئت إلا لذلك. قال عليه الصلاة والسلام: «كلا، بل قعدتَ أنت وصفوان في الحِجْرِ، وقلتما كيت وكيت»، فأسلم عُمير، وقال: كنّا نكذّبك بما تأتي به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، ....

قوله: (بحمائل سيفه) جمع حِمال ـ بالكسر ـ: العِلاقة.

قوله: (وأدخله): هنا قال عمر لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاجلسوا عنده؛ فإن هذا الخبيث غيرُ مأمون[1].

قوله: (وهي السلام)؛ أي: وهو تحية أهل الجنة.

قوله: (كيت وكيت): ـ بالفتح فيها وبالكسر ـ؛ أي: ما كان من الأمر.

قوله: (إلا أنا وصفوان): ثم قال: فو الله! إني لأعلمُ ما أتاك به إلا الله

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢١٣) عن عروة بن الزبير.

فقال عليه الصلاة والسلام: «فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا أسيره»، فعاد عمير إلى مكة، وأظهر إسلامه[1].

تعالى، والحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. اهـ. حلبي[2].

قوله: (وأطلقوا أسيره): وبعد ذلك قال: يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله، فأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا، آذيتهم في دينهم كما كنتُ أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلحق بمكة، وأسلم ولدُه وهب.

وأما صفوان، فكان حين خرج عمير يقول: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، وأن لا ينفعه بنفع أبداً.

ولما قدم عمير مكة، لم يبدأ بصفوان، بل بدأ ببيته، وأظهرَ الإسلام، ودعا إليه، فبلغ ذلك صفوانَ فقال: قد عرفت حيث لم يبدأ بي قبل منزله أنه قد نكس وصبأ، ولا أكلمه أبداً، ولا أنفعه ولا عياله بنافعة.

ثم إن عميراً وقف على صفوان وناداه: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة الحجر والذبح له، أهذا دين؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فلم يجبه صفوان بكلمة، وعند فتح مكة هو الذي استأمنه صلى الله عليه وسلم لصفوان. اهـ. حلبي[3].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤) عن عروة ابن الزبير، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨).

ومن الأسرى: أبو عزيز بنُ عُمير، أخو مصعب بن عُمير. مرّ به أخوه، فقال للذي أسره: شُدَّ يدك به؛ فإن أمه ذاتُ متاع لعلّها تفديه منك. فقال له: يا أخي! هذه وصايتك بي؟ ثم بعثت أمه بفدائه أربعة آلاف درهم[1].

ومن الأسرى: العباسُ بنُ عبد المطلب عَمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان قد خرج لهذه الحرب مُكْرَهاً، ولما وقع في الأسر، طُلب منه فداء نفسِه وابنِ أخيه عَقيلِ بن أبي طالب، فقال: علامَ ندفع، وقد استُكرهنا على الخروج؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد كنتَ في الظاهر علينا»، فأُخذت منه فديه نفسه وابن أخيه، ثم قال للرسول صلى الله عليه وسلم: لقد تركتني فقير قريش ما بقيت، . . . .

قوله: (ومن الأسارى: العباس): قال الحلبي: لما أُسر، شدُّوا وَثاقه، فأَنَّ، فلم يأخذه صلى الله عليه وسلم نوم، فقيل: ما سهرك يا رسول الله؟ قال: «لأنينِ العباس»، فقام رجل وأرخى وثاقه، وفعل ذلك بالأسارى كلهم، والذي أسره أبو اليسر كعبُ بن عمرو، وكان دميماً صغير الجثة، والعباس جسيماً طويلاً، فقيل للعباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ: لو أخذته بكفك لوسعَتْه كفُّك، فقال: ما هو إن لقيته فظهر في عيني كالخدمة: اسمُ جبلٍ من جبال مكة.

وفي رواية: أن العباس لما قيل له ما تقدم قال: والله! إن هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أبلجُ، من أحسن الناس وجهاً على فرسٍ أبلقَ، فما أراه في القوم، فقال الذي جاء به: والله! أنا الذي أسرته يا رسول الله، فقال: «اسكتْ، فقد أيدك الله بملَك كريم». اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨)، والرواية المذكورة رواها الإمام أحمد في «مسنده» (١/ ١١٧) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

قال: «كيف وقد تركتَ لأُم الفضلِ أموالاً؟ وقلتَ لها: إن متُّ فقد تركتك غنية»، فقال العباس: والله! ما اطَّلع على ذلك أحد. وهذا العمل غاية ما يفعل من العدل والمساواة؛ فإنه عليه الصلاة والسلام لم يُعفِ عمَّه، مع علمه بأنه إنما خرج مُكرَهاً، وقد أعفى غيره جماعة تحقق له فقرُهم، فهكذا العدل، ولا غرابة، فذلك أدب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء: ١٣٥][(١)].

ومن الأسرى: أبو عَزَّة الجُمَحِيُّ الشاعر، كان شديدَ الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فلما أُسر قال: يا محمد! إني فقير، وذو عيال، وذو حاجة قد عرفتها، فامْنُنْ، فمنَّ عليه فضلاً منه[(٢)].

قال الحلبي: وبعد دفعه الفداء أسلم سرّاً، ولم يُظهر النبي صلى الله عليه وسلم إسلامَ العباس رفقاً به؛ لأن العباس كان له ديون متفرقة في قريش، وكان يخشى إن أظهرَ إسلامَه ضاعت عندهم، ولما كان يومُ فتح مكة، أظهرَ إسلامه، وكان كثيراً ما يطلب الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيكتب له: «مقامُك بمكة خيرٌ لك»[(٣)].

قوله: (﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾)؛ أي: مراعين للقسط، وهو العدل.

قوله: (فمن عليه فضلاً منه): ولما أطلقه، أخذ عليه أن لا يُظاهر عليه أحداً، ولما وصل إلى مكة قال: سحرتُ محمداً، ولما كان يوم أحد، خرج مع

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٦٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٦٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٦١)، والخبر المذكور أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٨١٢).

ولما تَمَّ الفداءُ، أنـزل الله فـي شـأنه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ . . . .

المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره، فأُسر وقُتل صبراً، وحُملت رأسه إلى المدينة.

قال الدحلاني: لما أُسر، أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه، فقال: أعتقني وأطلقني، فإني تائب، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا يُلدَغ المؤمن من جُحْر مرتين»[1]، فضُربت عنقه، وأنزل الله فيه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾[الأنفال: ٧١][2].

العتاب في الفداء

قوله: (﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ . . .﴾): الآية في سورة الأنفال، وهي الآية السابعة[3] والستون.

وقوله: (﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾)؛ أي: يغلب على كثير من الأرض، ويبالغ في قتل أعدائه. اهـ. سجستاني[4].

والإثخان: كثرة القتل والمبالغةُ فيه؛ من الثخانة، وهي الغِلَظ والكثافة؛ يعني: حتى يذلَّ الكفر بإشاعة القتل في أهله، ويعزَّ الإسلام بالاستيلاء والقهر،

---

(١) المتن المذكور رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤٠٨).

(٣) في الأصل: «الثامنة»، والصواب المثبت.

(٤) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٥٣٢).

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

ثم الأسر بعد ذلك. اهـ. نسفي[1].

وقوله: (﴿تُرِيدُونَ...﴾) إلخ: الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ أي: تريدون ـ أيها المؤمنون ـ عرض الدنيا بأخذكم الفداء من المشركين، وإنما سَمَّى منافعَ الدنيا عَرَضاً؛ لأنه لا ثبات لها ولا دوام، فكأنها تعرض ثم تزول.

وقوله: (﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾)؛ أي: يريد لكم ثواب الآخرة.

وقوله: (﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾)؛ أي: بقهر الأعداء.

(﴿حَكِيمٞ﴾): في عتاب الأولياء.

وقوله: (﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: حُكمٌ من الله سبق أن لا يعذب أحداً على العمل بالاجتهاد، وكان هذا اجتهاداً منهم؛ لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم، وأن فداءهم يُتقوى به على الجهاد، وخفي عليهم أن قتلهم أعزُّ للإسلام، وأهيبُ لمن وراءهم.

وقوله: (﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾)؛ أي: من الفداء.

ورُوي: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله! أخبرني، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: «أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة»، لشجرةٍ قريبة منه[2].

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لو نزل عذاب من السماء، لما نجا

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

نهى سبحانه عن اتخاذ الأسرى قبل الإثخان في قتل الـذين يصـدّون عن سبيل الله، ويمنعون دين الله مـن الانتشـار، وعـابَ بعـضَ المسـلمين على إرادة عَرَضِ الدنيا، وهو الفدية، ولولا حكمٌ سابق من الله ألا يُعَاقِـبَ مجتهداً على اجتهاده ما دام المقصد خيراً، لكان العـذاب، ثـم أَبـاح لهـم الأكلَ من تلك الفدية المبني أخذُها على النظر الصحيح.

وهذا من أقوى الأدلة على صدق نبيّنا عليه الصلاة والسلام فيما جاء به؛ لأنه لو كان من عنده، ما كان يعاتب نفسَه على عمل عمله بنـاءً علـى رأي كثير من الصحابة. وقد وعد الله الأسرى الذين يعلم في قلوبهم خيـراً بأن يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، ويغفر لهـم، فقـال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٧٠].

منه غيرُ عمرَ وسعدِ بنِ معاذ؛ لقوله: كان الإثخان في القتل أحـبَّ إلـيَّ»[١]. اهـ. نسفي، وخازن[٢].

قوله: (ثم أباح لهم الأكل من الفدية)؛ أي: في الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[الأنفال: ٦٩].

قوله: (﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم . . .﴾) إلخ: نزلت في العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، وكان أحدَ العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا النـاس الـذين خرجـوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من الـذهب لـيطعم بهـا إذا جاءت نوبته، فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم، فاقتتلوا، فلم يطعم شيئاً، وبقيـت العشرون أوقيـة معـه، فلمـا أسر أُخـذت منـه، فكلَّم

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٨) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٧٣)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨).

وهذه الغزوة هي التي أعزّ الله بها الإسلام، وقوّى أهلَه، ودمغ فيه الشرك، وخرّب محلَّه، مع قلّة المسلمين وكثرةِ عدوِّهم، فهي آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالإسلام وأهله، مع ما كان عليه العدو من القوة بسوابغ الحديد، والعُدّة الكاملة، والخيل المسوَّمة، والخيلاء الزائدة، ولذلك قال الله ممتناً على عباده بهذا النصر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]؛ **أي: قليل عددكم، . . . .**

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقيةً من فدائه، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «أما شيء خرجتَ به لتستعينَ به علينا، فلا أتركه لك»، وكُلِّفَ فداءَ ابني أخيه: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد! تتركني أتكفف قريشاً ما بقيتُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فأين الذهب الذي دفنته أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث، فهذا لك، ولعبدالله، ولعبيدالله، والفضل، وقثم؟»؛ يعني: بنيه، فقال العباس: وما يدريك يا ابنَ أخي؟ فقال: أخبرني ربي، قال العباس: أشهد إنك لصادق، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، لم يطلع عليه أحد إلا الله[1].

قوله: (ودمغ فيه الشرك): قال الزمخشري في «أساس البلاغة»: دمغ الحقُّ الباطل: إذا علاه وقهره، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[الأنبياء: ١٨][2].

قوله: (﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾): المسومة: المعلَّمة، من السيماء: وهي العلامة، وقيل: المسومة: المطهمة، والتطهيم: التحسين.

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣) عن الزهري بنحوه، وانظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: دمغ).

لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، فهي أعظم غزوات الإسلام؛ إذ بها كان ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نورُه؛ فقد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الأعداء الألدّاء للإسلام، ودخل الرعبُ في قلوب العرب الآخرين، فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش، ويهزمون الرجال، فلا جَرَمَ إن شَكَرْنا العليَّ الأعلى على هذه العناية، واتخذنا يوم النصر في بدر ـ وهو السابع عشر من شهر رمضان ـ عيداً نتذكر فيه نعمة الله على رسوله وعلى المسلمين[1].

قوله: (﴿لَا جَرَمَ﴾) هي في الأصل بمعنى: لا بدَّ ولا مَحالةَ، ثم كثرت، فحولت إلى معنى القسم، وصارت بمعنى حقّاً، ولهذا تجاب باللام؛ نحو: لا جرم لأفعلن. اهـ. مصباح[2].

خاتمة في فضل أهل بدر

قال الدحلاني: وقد جاء في فضل أهل بدر أحاديثُ وآثار، فمنها: أن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: ما تَعدُّون أهلَ بدر فيكم؟ قال: «من أفضل المسلمين»، أو كلمة نحوها، قال جبريل: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة[3].

وفي رواية: إن للملائكة الذين شهدوا بدراً في السماء لفضلاً على من تخلَّف منهم[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: جرم).

(٣) رواه البخاري (٣٩٩٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٤٣٥) من حديث رافع بن خديج =

هذا، وإذا كان للشخص عدوَّان، فانتصر على أحدهما، . . . .

وروى الطبراني بسند جيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم، أو: فقد وجبتْ لكم الجنة»[1]؛ أي: غفرتُ لكم ما مضى، وما سيقع من الذنوب مغفوراً، وقيل: إن ذلك كناية عن الحفظ من الوقوع في الذنوب في المستقبل[2].

ثم قال: وجاء عن كثير من العلماء أن تلاوة أسمائهم، والتوسلَ بها وكتابتها وحملَها وتعليقَها في الدور سببُ الحفظ والنصر والفتح، والسلامة من كيد الأعداء وظلم الظالمين، إلى غير ذلك من الفوائد والخواص، وقد أفردت التآليف تلك الخواص مع بقية مناقبهم، وكذلك غزوة بدر، وذكر ما فيها أُفردت بالتآليف[3].

أقول: وممن ترجم أهلَ بدر: العلامةُ طه بن مهنا الجبريني الحلبي المتوفى سنة (١١٧٨هـ)، يوجد نسخة بخط المؤلف عند خليل أفندي المرتيني بحلب، ونسخة أخرى بخطه أيضاً هي عندي، كانت ناقصة بعض أوراق، فأكملتها من نسخة في المكتبة الخسروية من كتب محمود أفندي الجزار.

غزوة بني قينقاع

قوله: (قينقاع) ـ بضم النون، وقيل: بكسرها، وقيل: بفتحها، والضم

= ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٠٦): وفيه جعفر بن مقلاص، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٦٠): إسناده حسن.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤١٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (١/ ٤١٤).

حَرَّكَ ذلك شجو الآخر، وهاج فؤاده، فتبدو بغضاؤه غيرَ مكترث بعاقبة عدائه، وهذا ما حصل من يهود بني قينقاع عند تمام الظفر في بدر؛ فإنهم نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنونَ ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، وانتهكوا حرمةَ سيدةٍ من نساء الأنصار، . . . .

أشهر ـ، وهم قوم من اليهود، وكانوا صاغة، وكانوا حلفاء عبادةَ بنِ الصامت ـ رضي الله عنه ـ، وعبدالله بن أبي ابن سلول. اهـ. حلبي[1].

قوله: **(نبذوا ما عاهدوا المسلمين عليه)**: وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، هم وبنو قريظة وبنو النضير أن لا يحاربوه، وأن لا يُظاهروا عليه عدوه، وقيل: أن لا يكونوا معه ولا عليه، وقيل: أن ينصروه صلى الله عليه وسلم على من دهمه. اهـ. حلبي[2].

قوله: **(وانتهكوا حرمة سيدة من الأنصار)**: تفصيل الحادثة: أن زوجةَ بعض الأنصار قدمت بجلب لها ـ أي: وهو ما يُجلب ليباع من إبل وغيرها ـ، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ منهم، فجعل جماعة منهم يراودونها عن كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقدَه إلى ظهرها، فلما قامت، انكشفت سوءتُها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون على بني قينقاع، ولما غضبوا عليهم، قال لهم صلى الله عليه وسلم: «ما على هذا أقررناهم»؛ تبرأ عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ من حلفهم وقال: يا رسول الله! أتولى اللهَ ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار، وتشبث به عبدُالله بنُ أبي ابن سلول ـ أي: لم يتبرأ ـ، فنزل فيه:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).

وهذا ما يدعو المسلمين للتحرّز منهم، وعدمِ ائتمانهم في المستقبل إذا شبّت الحرب في المدينة بين المسلمين وغيرهم، فأنزل الله في سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فدعا عليه الصلاة والسلام رؤساءهم، وحذّرهم عاقبة البغيِ ونكثِ العهد، فقالوا: يا محمد! لا يغرنّك ما لقيتَ من قومك؛ فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لَتعلمَن أنّا نحن الناس، وكانوا أشجعَ يهود، فأنزل الله في سورة آل عمران: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ . . . . .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥١][1].

قوله: (وحذرهم عاقبة البغي): حيث قال: «يا معشر يهود! احذروا من الله مثلَ ما أنزل بقريش من النقمة ببدر، وأسلِموا؛ فإنكم قد عرفتم أني مرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعهدِ الله إليكم»[2].

قوله: (﴿ٱلْمِهَادُ﴾)؛ أي: الفراش، والمعنى: بئس ما مهد لهم في النار.

قوله: (﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾)؛ أي: يرى المشركون المؤمنين مثلَيْ عدد المشركين، وكان قريب ألف، أو مثلي عدد المسلمين، وكانوا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً، وذلك كان بعدما قللهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم، وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم، كثروا في أعينهم حتى غلبوا مدداً من الله تعالى للمؤمنين. اهـ. بيضاوي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٥)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥) بمعناه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٢) عن ابن إسحاق.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

وعند ذلك تبرّأ من حلفهم عبادةُ بنُ الصامت، أحدُ رؤساء الخزرج، وتشبث بالحلف عبدُالله بنُ أُبي، وقال: إني رجل أخشى الدوائر، فأنزل الله تعالى تعليماً للمسلمين في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٢].

قوله: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾) يعني: الذي ذكر من النصرة، وقيل: رؤية الجيش مثليهم. اهـ. خازن[١].

قوله في الآية: (﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾) إلخ؛ أي: لا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب، ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا النهي للتشديد في وجوب مجانبتهم، والله لا يهدي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، يسارعون في موالاتهم ومعاونتهم.

(﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾)؛ أي: ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار.

(﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾) لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه، وإظهار المسلمين.

(﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾) يقطع شأفةَ اليهود؛ من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم.

(﴿فَيُصْبِحُوا﴾)؛ أي: هؤلاء المنافقون.

(﴿عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾) على ما استبطنوه من الكفر والشك في

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٢٢٩).

وعندما تظاهر يهود قينقاع بالعداوة، وتحصنوا بحصونهم، سار إليهم عليه الصلاة والسلام في نصف شوال من هذه السنة، يحمل لواءه عمُّه حمزةُ، وخلَّف على المدينة أبا لبابةَ الأنصاريَّ، فحاصرهم خمس عشرة ليلة[1].

جلاء بني قينقاع

ولما رأوا من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين، وأدركهم الرعب، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخلِّي سبيلَهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساءُ والذريّة، وللمسلمين الأموال. فقَبِل ذلك عليه الصلاة والسلام، ووكَّل بجلائهم عبادةَ بنَ الصامت، وأمهلهم ثلاث ليالٍ، فذهبوا إلى أَذْرِعات، ولم يحل عليهم الحَوْل حتى هلكوا، . . . .

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: **(فحاصرهم خمس عشرة ليلة)**، وكان عددهم أربعَ مئة حاسر، وثلاث مئة دارع.

جلاء بني قينقاع

قوله: **(فلم يحل عليهم الحول. . .)** إلخ: سببه: ما قيل: إنهم نزلوا على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بهم أن يكتفوا، فكتفوا، فأراد قتلهم، فكلمه فيهم عبدُالله بن أبي ابن سلول، وألح عليه، وفي آخر الأمر قال صلى الله عليه وسلم: «خلوهم، لعنهم الله ولعنه معهم»، وتركهم من القتل، وقال له: «خذهم،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥).

وخمَّس عليه الصلاة والسلام أموالهم، وأعطى سهم ذوي القربى لبني هاشم ولبني المطلب دون بني أخويهما عبدِ شمسٍ ونوفل، ولما سُئِل عن ذلك قال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد في الجاهلية والإسلام هكذا»، وشبك بين أصابعه[1].

لا بارك الله لك فيهم»، وذهبوا إلى أذرعات، ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعين بدعوته صلى الله عليه وسلم. اهـ. دحلاني ملخصاً[2].

قوله: (ولما سئل عن ذلك): السائل له عثمانُ بنُ عفان من بني عبد شمس، وجبيرُ بنُ مطعم من بني نوفل، قال: يا رسول الله! هؤلاء إخواننا من بني هاشم، لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب؟ أعطيتهم وتركتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا»، وشبك أصابعه[3].

زاد في رواية: «إنهم لم يفارقونا لا في جاهلية ولا في إسلام»[4]؛ أي: لأن الصحيفة إنما كتبت على يد بني هاشم والمطلب؛ لأنهم هم الذين قاموا دونه صلى الله عليه وسلم ودخلوا الشعب. اهـ. حلبي ملخصاً[5].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٠٢)، والنسائي (٤١٣٧)، من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣ ـ ١٤)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٤٩) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٣) رواه البخاري (٣٥٠٢)، والنسائي (٤١٣٧)، من حديث جبير بن مطعم.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٧٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٢٤٠)، من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٧).

غزوة السَّويق

كان أبو سفيان متهيجاً؛ لأنه لم يشهد بدراً التي قتل فيها ابنه وذوو قرباه، فحلف ألّا يمسّ رأسَه الماءُ حتى يغزو محمداً، وليبرّ بقسمه خرج بمئتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قارَبها، أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم، ويستعين بهم على حرب المسلمين، فأتى سيدَهم حُيَيَّ بنَ أَخْطَبَ، فلم يرضَ مقابلته، فأتى سَلاّمَ بنَ مِشْكم، فأذن له، واجتمع به، . . . . . .

غزوة السويق

قوله: **(أن لا يمس رأسه الماء)**؛ أي: لا يأتي النساء، ولعل هذه العبارة وقعت من بعض الصحابة، ومرادُه بها ما ذُكر، أو أن ذلك قاله أبو سفيان بناء على أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة. اهـ. حلبي، وتمامه فيه[1].

قوله: **(ولما قاربها)**؛ أي: أصبح بينه وبين المدينة بريد، والبريدُ أربعة فراسخ.

قوله: **(من بني النضير)** هم حيّ من يهود خيبر، ينسبون إلى هارونَ أخي موسى عليهما السلام.

قوله: **(حيي بن أخطب)** هو أبو صفيةَ أُمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ.

وقوله: **(فلم يرض مقابلته)**: لأنه خافه. اهـ. حلبي[2].

قوله: **(سلام بن مشكم)** مِشْكَم ـ كمنبر ـ، وكان صاحب كنزهم، يجمعون عنده المال الذي يدخرونه لنوائبهم وما يعرض لهم. اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩).

ثم خرج من عنده، وأرسل رجالاً من قريش إلى المدينة، فحرَّقوا في بعض نخلها، ووجدوا أنصاريًّا فقتلوه، ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، خرج في أثرهم في مئتين من أصحابه، لخمسٍ خَلَونَ من ذي الحجة، بعد أن ولّى على المدينة بَشِيرَ بنَ عبد المنذر، ولكن لم يلحقهم؛ لأنهم هربوا، وجعلوا يخفّفون ما يحملونه ليكونوا أقدرَ على الإسراع، فألقوا ما معهم من جُرُبِ السَّوِيق، فأخذه المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق[1].

صلاة العيد

وفي هذا العام سنّ الله للعالم الإسلامي سنّة عظيمة، . . . .

قوله: (ووجدوا أنصاريّاً) هو معبد بن عمرو.

قوله: (جرب السويق): الجُرُب ـ بضمتين ـ: جمع جِراب ـ بكسر الجيم ـ: الوعاء، والسويق قمح أو شعير يقلى ثم يطحن ليسف تارة بماء، وتارة بسمن، وتارة بعسل وسمن، وهو عامة أزوادهم، فيأخذه المسلمون، وكانت مدة هذه الغزوة خمسة أيام[2].

صلاة العيد

الأصل فيهما[3]: أن كل قوم لهم يوم يتجملون فيه، ويخرجون من بلادهم بزينتهم، وتلك عادة لا ينفكُّ عنها أحد من طوائف العرب والعجم، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينةَ ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟»

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٣)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٠).

(٣) أي: العيدين.

قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال: «قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما؛ يومَ الأضحى، ويومَ الفطر»[1].

قيل: هما النيروز والمهرجان، وإنما بدلا؛ لأنه ما من عيد في الناس إلا وسببُ وجوده تنويهٌ بشعائر دين، أو موافقةُ أئمة مذهب، أو شيء مما يضاهي ذلك، فخشي النبي صلى الله عليه وسلم إن تركَهم وعادتَهم أن يكون هناك تنويهٌ بشعائر الجاهلية، أو ترويجٌ لسنة أسلافها، فأبدلهما بيومين فيهما تنويه بشعائر الملة الحنيفية، وضَمَّ مع التجمُّل فيهما ذِكْرَ الله، وأبواباً من الطاعة؛ لئلا يكون اجتماع المسلمين بمحض اللعب، ولئلا يخلو اجتماع المسلمين منهم من إعلاء كلمة الله.

أحدهما: يوم فطر صيامهم، وأداء نوع من زكاتهم، فاجتمع الفرح الطبيعيُّ من قِبَل تفرغهم عما يشق عليهم، وأخذ الفقير الصدقات، والعقليُّ من قِبَل الابتهاج مما أنعم الله عليهم.

والثاني: يوم ذبح إبراهيم ولده إسماعيل عليهما السلام، وإنعام الله عليهما بأن فداه بذبح عظيم.

وهناك مقصد آخر من مقاصد الشريعة، وهو: أن كل ملة لا بد لها من عرضة يجتمع فيها أهلها لتظهر شوكتهم، وتعلم كثرتهم، ولذلك استحب خروج الجميع، حتى الصبيان، والنساء، وذوات الخدر، والحُيَّض، ويعتزلن المصلى، ويشهدن دعوة المسلمين، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يخالف في الطريقين ذهاباً وإياباً[2]؛ ليطلع أهل كلتا الطريقين على شوكة المسلمين. اهـ. من

(١) رواه أبو داود (١١٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٨٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم عيد خالف الطريق.

بها يتمكن أبناء البلد الواحد من المسلمين أن يجددوا عهود الإخاء، ويقووا عُروة الدين الوثقى، وهي الاجتماع في يومي عيدِ الفطر وعيد الأضحى. وكان عليه الصلاة والسلام يجمع المسلمين في صعيد واحد، ويصلي بهم ركعتين تضرعاً إلى الله أن لا يَفْصِم عُروتهم، وأن ينصرهم على عدوهم، ثم يخطبهم حاضّاً لهم على الائتلاف، ومذكِّراً لهم ما يجب عليهم لأنفسهم، ثم يصافح المسلمون بعضُهم بعضاً، وبعد ذلك يخرجون لأداء الصدقات للفقراء والمساكين، حتّى يكون السرور عامّاً لجميع المسلمين، فبعد الفطر زكاته، وبعد الأضحى تضحيته[1]، نسأله تعالى أن يؤلّف بين قلوبنا، ويوفّقنا لأعمال سلفنا.

«حجة الله البالغة»، وتمامه فيه[2].

قوله: (وبعد ذلك)؛ أي: بعد أدائهم صلاة العيد.

(يخرجون. . .) إلخ: إن كان قصده بالصدقات ما يشمل زكاة الفطر، فيكون في العبارة تسامح؛ لأن أداة زكاة الفطر إنما هو قبل الصلاة، ففي البخاري عن ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة[3].

قال في «بداية المجتهد»: قال مالك في رواية ابن القاسم: تجب بطلوع الفجر من يوم الفطر، وروى عنه أشهب أنها تجب بغروب الشمس من آخر يوم من رمضان، وبالأول قال أبو حنيفة، وبالثاني قال الشافعي، وسبب اختلافهم هل هي عبادة متعلقة بيوم العيد، أو بخروج شهر رمضان؛ لأن ليلة العيد ليست

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٤).

(٢) انظر: «حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (ص: ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

(٣) رواه البخاري (١٥٠٣).

زواج علي بفاطمة عليهما السلام

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب وعمره إحدى وعشرون سنة بفاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنها خمسَ عشرةَ سنة، . . .

من شهر رمضان. اهـ[1].

ويؤيد أنها عبادة متعلقة بيوم العيد: ما أخرجه الدارقطني، وابن عدي، والحاكم في «علوم الحديث» عن ابن عمر بلفظ: «أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم»[2].

زواج علي بفاطمة

قوله: (زواج علي بفاطمة) قال الدحلاني: عقد عليها في المحرم من السنة الثانية، وقيل: في صفر، وقيل: في رمضان، ودخل بها في ذي الحجة، وهي أفضل نساء الدنيا، قال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا بنية! ألا ترضين أنك سيدةُ نساء العالَمين؟» قالت: يا أبت! فأين مريم؟ قال: «تلك سيدة نساء عالَمِها»[3].

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً قطُّ أفضلَ من فاطمةَ غير أبيها[4].

---

(١) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ٢٠٦).

(٢) رواه الدارقطني في «سننه» (٢/ ١٥٢)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٧/ ٥٥)، ولم نقف عليه عند الحاكم.

(٣) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٤٢) من حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٧٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠١): رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح.

وكان منها عَقِبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بنوه: الحسن، والحسين، وزينب. وفيها دخل عليه الصلاة والسلام بعائشةَ بنتِ أبي بكر وسِنُّها إذ ذاك تسعُ سنوات[١].

نبهه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ لخطبتها، قال: فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: تزوجني فاطمة؟ قال: «أوعندك شيء؟» فقلت: فرسي وبدني ـ يعني: درعه ـ، قال: «أما فرسك، فلابد لك منها، وأما بدنك، فبعها[٢]»، فباعها من عثمان بن عفان بأربع مئة وثمانين درهماً، ثم إن عثمان ـ رضي الله عنه ـ ردَّ الدرع إلى علي ـ رضي الله عنه ـ، ثم أتى عليٌّ بالدراهم فوضعها في حجر النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقبض قبضة، فقال لبلال: ابتع بها طيباً، وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سرير مشروط، ووسادة من أدم حشوها ليف... إلخ[٣] أن قال الدحلاني: ثم دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعد أيام علياً، وأمره أن يدعو أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، وعدةً من الأنصار، فلما اجتمعوا عنده، وأخذوا مجالسهم، خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبته المشهورة، ثم قال بعدها: «إن الله أمرني إن أزوج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أني قد زوجته إياها على أربع مئة مثقال فضة»[٤].

إلى أن قال: وكان جهاز فاطمة رضي الله عنها خميلة ـ أي: بساطاً له

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

(٢) في الأصل: «فبها»، والمثبت من «صحيح ابن حبان».

(٣) خبر زواج فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم رواه ابن حبان (٦٩٤٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

خَمَل ـ ، وقربة، ووسادة من أدم حشوها ليف، وسريراً مشروطاً، وكان فراشهما ليلة عرسهما جلد كبش[1].

نتكلم هنا على الجهازات الحاضرة ومضارها.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: جاءت فاطمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله! إني وابن عمي ما لنا فراش إلا جلد كبش ننام عليه، ونعلق عليه ناضحنا بالنهار، فقال: «يا بنية! اصبري؛ فإن موسى بن عمران أقام مع امرأته عشر سنين ما لهما فراش إلا عباءة قطوانية»[2].

ويجدر بنا أن نتكلم هنا على النظر إلى المرأة حين إرادة التزوج بها، وعلى المغالاة في المهور، وما في ذلك من المفاسد، فنقول:

قال حجة الإسلام الغزالي في كتاب آداب النكاح: وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، ولذلك استحب النظر، فقال: «إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة، فلينظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدمَ بينهما»[3]؛ أي: يؤلف بينهما، وقال: «إن في أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهنَّ، فلينظر إليهنَّ»[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨ ـ ٢١).

(٢) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٤٧٣)، ولم نقف عليه مسنداً.

(٣) رواه ابن ماجه (١٨٦٤) من حديث محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «إذا ألقى الله في قلب امرئ خطبة امرأة، فلا بأس أن ينظر إليها»، وضعفه الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٨٣)، ورواه الترمذي (١٠٨٧) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ: أنه خطب امرأة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «انظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدمَ بينكما»، وقال: حديث حسن.

(٤) رواه مسلم (١٤٢٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: جاء رجل إلى =

وكان بعض الورعين لا يُنكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغَرَر.

وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر فآخره هَمّ وغَمّ[1].

نورد هنا حالة المسيحيين واليهود في زواجهم، وما في ذلك من المفاسد الكبرى.

وأما المغالاة في المهور، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «خير النساء أحسنُهن وجوهاً، وأرخصُهن مهوراً»[2]، وتزوج صلى الله عليه وسلم بعضَ نسائه على عشرة دراهم، وأثاث بيت؛ وكان [الأثاث] رحى يدر، وجرة [ماء]، ووسادة من أدم حشوها ليف[3].

وكان عمر ينهى عن المغالاة في الصداق، ويقول: ما تزوج صلى الله عليه وسلم، ولا زوَّج بناته بأكثر من أربع مئة درهم[4].

= النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «هل نظرت إليها؟ فإن في عيون الأنصار شيئاً».

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٨ ـ ٣٩).

(٢) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه الشهاب في «مسنده» (١١٤٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً: «إن أعظم نساء أمتي بركة أصبحُهن وجهاً، وأقلهن مهراً».

(٣) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» للهيثمي (١٤٢٦)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم، قال البزار: لا نعلمه عن ثابت، عن أنس إلا من طريق الحكم، ورأيته في موضع آخر: تزوجها على متاع ورحًى قيمته أربعون درهماً.

(٤) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٤٠)، ورواه الترمذي (١١١٤) =

وقد تزوج بعض أصحابه على نواة من ذهب يقال قيمتها: خمسة دراهم[1].

نورد هنا حكاية تزويج سعيد بن المسيب بنته لتلميذه أبي وداعة التي ذكرها ابن خلكان في «تاريخه» في ترجمة سعيد ـ رضي الله عنه ـ[2]، ثم نذكر ما سبَّبه غلاء المهور في زماننا من المفاسد الأخلاقية والإسراف في الأموال إسرافاً أدى إلى فقر كثير من ذوي اليسار، ثم نتكلم على حال بعض الآباء إذا قصر أزواج بناتهن في شيء مما يطلبه بناتهم من المطالب التي ما أنزل الله بها من سلطان.

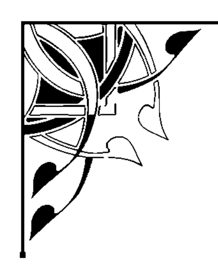
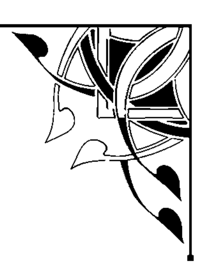
ثم نتكلم على لزوم المرأة لبيتها، وتعلمها إصلاح شأنه وشأن أولادها، وأن تعلُّمَها ما فوق ذلك لا فائدة فيه، بل يعود عليها وعلى زوجها وأولادها بالضرر.

❒ ❒ ❒

= بلفظ: ما علمتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من ثنتي عشرة أوقية، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، والأوقية عند أهل العلم أربعون درهماً، وثنتا عشرة أوقية أربع مئة وثمانون درهماً.

(١) رواه البخاري (٥١٥٣)، ومسلم (١٤٢٧)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، ولفظ مسلم: أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على وزن نواة من ذهب. وقال أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ١٩٠): وقد كان بعض الناس يحمل معنى هذا أنه أراد قدر نواة من ذهب كانت قيمتها خمسة دراهم، ولم يكن ثمَّ ذهب، إنما هي خمسة دراهم تُسمَّى نواةً، كما تُسمَّى الأربعون أوقيةً.

(٢) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٣٧٦).

السَّنة الثّالِثَة

يا لله يُقضى على الشقي بالشقاوة حتى لا يسـمع ولا يبصـر، فيتخـذ الغدر رداءً، والخيانة شعاراً، فلا ينجح معه إلا إراحة العالَم من شرّه. هذا كعب بنُ الأشرف اليهوديُّ عظيمُ بني النضير، أعمته عـداوة المسـلمين حتـى خلعَ بُرقُع الحياء، وصار يحرض قريشاً على حـرب رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، ويهجوه بالشعر، ويجتهد في إثارة الشحناء بـين المسـلمين، فكلما جبر عليه الصلاة والسلام كسراً، هاضه هـذا الشـقيُّ بمـا ينفثـه مـن سموم لسانه.

السنة الثالثة

قوله: (هاضه): في «القاموس»: هاض العظم: كسره بعد الجبور[١].

قوله: (كعب بن الأشرف): قال الدحلاني: كان أبو كعب عربيًّا[٢] مـن بنـي نبهان أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بنـي النضـير، فشـرف فـيهم، وتزوج عقيلةَ بنتَ أبي الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامـة، شاعراً مجيداً، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أحبار يهود، ويصلهم[٣].

ثم قال: وكان قد عاهد النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يعين عليه أحـداً، فنقض العهد، وسبه وسبَّ أصحابه، ولما قدم البشيران بقتل من قُتل ببدر، وأسرِ

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هيض).

(٢) في «السيرة النبوية»: «أعرابيًّا».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣).

قتل كعب بن الأشرف

ولما انتصر المسلمون ببدر، ورأى الأسرى مقرَّنينَ في الحبال، خرج إلى قريش يبكي قتلاهم، ويحرِّضُهُم على حرب المسلمين، فقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لكعب بنِ الأشرف؛ فإنه قد آذى الله ورسوله؟»، فقال محمد بن مَسلمةَ الأنصاريُّ الأوسيّ: أتحِبُّ أن أقتله؟ قال: «نعم»، . . . .

من أسر، قال كعب: أحقٌّ هذا ترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله! لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطنُ الأرض خير من ظهرها[1].

قتل كعب بن الأشرف

قوله: (خرج إلى قريش)؛ أي: في مكة، ونزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي، وعنده زوجته عاتكة بنتُ أسيد، فأنزلته وأكرمته.

قوله: (فقال عليه الصلاة والسلام: من لكعب؟)؛ أي: بعد أن بلغه تحريض كعب على النبي صلى الله عليه وسلم، وإنشاده الأشعار، ولما بلغه تحريضه، دعا حساناً، فهجا المطلبَ وزوجتَه ـ أسلما بعد ذلك ـ، فلما بلغ ذلك عاتكةَ، ألقت رحله وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟! فخرج من عندها، وصار يتحول من قوم إلى قوم، فيفعل مثل ما فعل عند عاتكة، ويبلغ خبره النبي صلى الله عليه وسلم، فيذكره لحسان، فيهجوه، فيفعلون معه مثل ما فعلت عاتكة، ثم رجع إلى المدينة، فتغزل في نساء المسلمين، وذكرهن بسوء، فلما أبى أن ينزع عنه أذاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لنا بابن الأشرف»[2]؛ أي: من ينتدب لقتله؟

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

قال: أنا لك به، وائذنْ لي أن أقول شيئاً أتمكن به، فأذن له، ثم خرج ومعه أربعة من قومه حتى أتى كعباً، فقال له: إن هذا الرجل ـ يريد: رسولَ الله ـ قد سألنا صدقة، وإنه قد عَنَّانا، وإني قد أتيتُك أستسلفك، قال: وأيضاً؟ والله! لتملّنهُ، قال: إنا قد اتّبعناه، فلا نحبُّ أن ندعه حتى ننظر إلى أيّ شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسْلِفنا وَسْقاً أو وَسْقين. قال: نعم، ولكن ارْهَنُوني. قالوا: أيَّ شيء تُريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، . . . .

وتتمة في الدحلاني[1].

قوله: (أنا لك به)؛ أي: أنا أقدم نفسي فداء لك بقتل كعب.

قوله: (أن أقول شيئاً)؛ أي: من الكذب وإظهارِ غيرِ ما أُضمر.

وقوله: (أتمكن به)؛ أي: يكون سبباً للوصول إلى المقصود، وهو قتل كعب.

قوله: (ومعه أربعة): ذكر أسماءهم.

قوله: (وأنه قد عنانا)؛ أي: حَمَّلنا العناءَ والمشقة بما كلفنا به من دفع الصدقة.

قوله: (وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين) لما قالوا له ذلك، قال لهم: وأين طعامكم، قالوا: أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه، قال: ألم يأنِ لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل؟ اهـ. دحلاني[2].

والوسق: حِمْلُ البعير.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٣٢١) عن عبدالله بن المغيث ابن أبي بردة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

قالوا: كيف نَرْهَنُك نساءنا وأنت أجملُ العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيُسَبُّ أحدُهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين؟ هذا عارٌ علينا، ولكن نرهنك اللأْمَةَ ـ يعني: السلاح ـ فرضي، فواعده ليلاً أن يأتيه، فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلةَ أخو كعبٍ من الرضاع، وعبَّادُ بن بِشر، والحارثُ بن أوس، وأبو عبس بنُ جَبْر ـ وكلهم أوسيّون ـ فناداه محمد بن مسلمة، فأراد أن ينزلَ، فقالت له امرأته: أين تخرج الساعة وإنك امرؤ تُحارب؟ فقال: إنما هو ابن أخي محمدُ بنُ مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب. ثم قال محمد لمن معه: إذا جاءني، فإني آخذ بشعره فأشَمُّهُ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فاضربوه، فنزل إليهم كعبٌ متوشِّحاً سيفَه، وهو يَنْفَحُ منه ريح المسك. . . . .

قوله: (وأنت أجملُ العرب): جعلوه من العرب؛ لما قدمنا من أن أباه كان عربيًّا من بني نبهان.

قال الدحلاني: وفي رواية أنهم قالوا له: وأي امرأة تمتنع منك لجمالك[1]؟ وقولهم هذا له على سبيل التهكم، وإن كان هو في نفسه جميلاً[2].

قوله: (نرهنك اللأمة) قال الدحلاني: إنما قالوا ذلك؛ لئلا ينكر عليهم مجيئهم بالسلاح[3].

قوله: (وإنك امرؤ تحارب)؛ أي: وإن أصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة.

قوله: (وهو ينفَح منه ريح المسك)؛ أي: لأنه كان حديثَ عهد بعرس.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٣) عن الزهري.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦).

فقال محمد: ما رأيت كاليوم ريحاً أطيب، أتأذن لي أن أَشمَّ رأسك؟ قال: نعم فشمَّه، فلما استمكن منه قال: دونكم فاقتلوه، ففعلوا، وأراح الله المسلمين من شر أعماله التي كان يقصدها بهم، ثم أتوا النبيَّ فأخبروه، وكان قتلُ هذا الشقي في ربيع الأول من هذا العام، وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى من رئيس غدراً، ومقاصدَ سوء، ومحبةً لإثارة الحرب، أرسل له من يُريحه من شرّه، . . . .

قال الدحلاني: إن كعباً لما نزل إليهم، تحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك أن تمشي إلى شعب العجوز ـ وكانت الليلة المقمرة، وهو اسم موضع كان قريباً منهم ـ نتحدث به بقية ليلتنا؟ فقال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، وأمسكه من شعره، وقال: اضربوا عدوَّ الله.

وفي البخاري: إن ابن مسلمة قال لأصحابه: إذا ما جاء كعب، فإني قائل بشعره ـ أي: آخذ به ـ، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فاضربوه، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفخ منه ريح المسك، فقال ابن مسلمة: ما رأيت كاليوم طيباً، فقال: عندي أعطرُ نساءِ العرب وأجملُهن، فقال: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ فقال: نعم، فشمه، ثم أشم أصحابه، فلما تمكن أبو نائلة، أو محمد بن مسلمة من إمساكه، ضربوه بأسيافهم[١].

ثم جزوا رأسه، واحتملوه في مخلاة كانت معهم، ثم عادوا إلى المدينة، واجتمعت اليهود من كل ناحية، فأخذوا على غير الطريق، ففاتوهم[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٧) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦ ـ ٢٧).

وقد فعل كذلك مع أبي عَفَك اليهودي، وكان مثل كعب في الشر[1].

غزوة غَطَفان

بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن بني ثعلبةَ ومحارب من غَطَفان تجمعوا برياسة رئيس منهم اسمُه دُعْثُور، يريدون الغارة على المدينة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يَغُلَّ أيديهم كيلا يتمكنوا من هذا الاعتداء، . . . .

قوله: (وقد فعل ذلك مع أبي عفك): قال الدحلاني: كان قتل أبي عَفَك ـ بفتح المهملة والفاء ـ في شوال قبل غزوة قينقاع، وكان شيخاً كبيراً، وقد بلغ من السنين عشرين ومئة سنة، وكان يحرض الناس على قتل النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول فيه الشعر، فقال صلى الله عليه وسلم: «من لي بهذا الخبيث؟» فقال سالم بن عُمَير: عليَّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموتَ دونه، فأمهل يطلب له غرة ـ أي: غفلة ـ حتى كانت ليلة صائفة نام أبو عفك بفِناء منزله، وعلم به سالم، فأقبل إليه، ووضع سيفه على كبده، ثم اعتمد عليه حتى خش ـ أي: دخل في الفراش، فصاح عدوُّ الله، فثار إليه ناس ممن كانوا على موافقته في الكفر والتحريض، فأدخلوه منزله، فمات، فقبروه، ورجع سالمُ بنُ عمير ـ رضي الله عنه ـ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فبشره بذلك، فدعا له بخير. اهـ[2].

غزوة غطفان

قوله: (دعثور) هو ـ بضم الدال ـ، وأبوه اسمُه: الحارث، وهو من بني غطفان.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٤٦ ـ ١٤٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥)، والخبر رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٦/ ٤٨) مختصراً.

فخرج إليهم من المدينة في أربع مئة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، وخلف على المدينة عثمان بن عفان ولما سمعوا بسير رسول الله صلى الله عليه وسلم، هربوا إلى رؤوس الجبال، ولم يَزَل المسلمون سائرين حتى وصلوا ماء يُسمى: ذا أَمَرَّ، فعسكروا به، وحدث أنه عليه الصلاة والسلام نزع ثوبه يجفِّفه من مطر بلَّله، وارتاح تحت شجرة والمسلمون متفرقون، فأبصره دُعثور، فأقبل إليه بسيفه حتى وقف على رأسه، وقال: مَنْ يمنعك مني يا محمد؟ فقال: «الله»، فأدركت الرجلَ هيبةٌ ورعبٌ أسقطا السيفَ من يده، فتناوله عليه الصلاة والسلام، وقال لدعثور: «مَنْ يمنعك مني»؟ قال: لا أحد، فعفا عنه، فأسلم الرجل، ودعا قومَه للإسلام، وحوّل الله قلبه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، . .

قوله: (فخرج إليهم من المدينة): لما خرج صلى الله عليه وسلم من المدينة، أصاب أصحابُه رجلاً من بني ثعلبة يقال له: حِباب ـ بكسر الحاء المهملة وبالباء الموحدة ـ[1]، فأُدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره من خبرهم، وقال له: إنهم لن يلاقوك، ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم، وضمه صلى الله عليه وسلم إلى بلال، وأخذ به ذلك الرجل طريقاً، وهبط به عليهم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (ذا أمر) هو ـ بتشديد الراء ـ. اهـ. حلبي[3].

قوله: (فأسلم الرجل، ودعا قومه للإسلام): قال الحلبي: وبذلك نزلت

---

(١) في الأصل: «الباء» بدل «الحاء المهملة وبالباء الموحدة».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١).

وَجمْعِ الناس لحربه إلى محبته، وجمعِ الناس له[1].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهذا ما ينتجه حسنُ المعاملة، والبعدُ عن الفظاظة وغلظ القلب، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ....

الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١][2].

وقيل: إن الآية نزلت لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض الصحابة على كعب بن الأشرف وبني النضير يستعينهم في بعض الديات بمقتضى المعاهدة التي كانت بينه وبينهم، وأراد هؤلاء الفتك بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فحفظه الله منهم، وقد بسط ذلك في الخازن في تفسير هذه الآية، وهي أوائل المائدة[3].

قوله: (﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ ...﴾) إلخ: (ما) صلة ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾؛ أي: سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك، ومعنى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: هو توفيقُ الله عز وجل نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم للرفق والتلطف بهم.

(﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾) يعني: جافياً.

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٨٠ ـ ١٨١) عن ابن أبي عتاب، وعثمان بن الضحاك بن عثمان، وعبدالله بن أبي بكر. وروى البخاري (٤١٣٥)، ومسلم (٨٤٣)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ نحو هذه الحادثة دون ذكر اسم الرجل. وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٢١).

﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾[آل عمران: ١٥٩].

(﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾) قاسِيَه.

(﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾)؛ أي: لنفروا عنك وتفرقوا.

(﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾)؛ أي: تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يومَ أحد.

(﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾)؛ أي: واسأل الله المغفرةَ لهم.

(﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾)؛ أي: استخرج آراءهم، واعلم ما عندهم، وقيل: هو عام مخصوص، والمعنى: وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، وذلك في أمر الحرب وغيره.

وقيل: أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورتهم تطييباً لقلوبهم.

وقيل: إنما أمر بمشاورتهم؛ ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم، لا ليستفيد منهم رأياً.

واتفق العلماء على أن كل ما نزل فيه وحي من الله تعالى لم يجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشاور فيه الأمة، وإنما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالحِ الحرب ونحوِ ذلك.

وقيل: أن يشاورهم في أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم شاورهم في أسارى بدر، وهو من أمر الدين.

ولبعضهم في مدح المشاور:

وشاوِرْ إذا شاورتَ كلَّ مهذَّبٍ ... لبيبٍ أخي حزمٍ لترشدَ في الأمرِ

ولا تكُ مِمَّن يستبدُّ برأيه ... فتعجزَ أو لا تستريحَ من الفكرِ

أَلَمْ ترَ أن الله قال لعبده ... وشاورهم في الأمر حتماً بلا نُكْرِ

غزوة بُحْران

بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من بني سُليم يريدون الغارة على المدينة، فسار إليهم في ثلاثِ مئةٍ من أصحابه لِستٍّ خَلَونَ من جمادى الأولى، وخلَّف على المدينة ابنَ أم مكتوم، ولما وصل بُحران، تفرقوا، ولم يلق كيداً، فرجع[1].

اهـ. خازن باختصار[2].

وقال ناصح الدين الأرجاني:

شاورْ سواك إذا نابَتْكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهل المَشوراتِ

فالعينُ تنظر منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسَها إلا بمِرْآةِ[3]

وقال بشار بن برد:

إذا بلغَ الرأيُ المَشورةَ فاستعنْ ... برأيِ نَصيحٍ أو نَصيحةِ حازمِ

ولا تجعلِ الشورى عليكَ غَضاضةً ... فإنَّ الخَوافي قوةٌ للقوادمِ[4]

غزوة بحران

قوله: (بحران) ـ بفتح الموحدة ويضم، وسكون الحاء ـ، وعبر عنها الحافظ الدمياطي بغزوة بني سليم[5]، وبحران: موضعٌ بالحجاز معروف، بينه وبين

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ٣١١ ـ ٣١٢).

(٣) انظر: «ديوان الأرجاني» (١/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧)، وفيه: «تلقى كِفاحاً ما نأى ودنا» بدل «تنظر منها ما دنا ونأى».

(٤) انظر: «ديوان بشار بن برد» (١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» للدمياطي (ص: ١٩٢).

سرية [زيد بن حارثة إلى القردة]

لما تيقنت قريشٌ أن طريق الشام من جهة المدينة أُغلق في وجه تجارتهم، ولا يمكنهم الصبرُ عنها؛ لأن بها حياتَهم، أرسلوا عِيراً إلى الشام من طريق العراق، وكان فيها جمعٌ من قريش، منهم: أبو سفيان بنُ حرب، وصفوان بنُ أمية، وحويطب بنُ عبد العزى، فجاءت أخبارهم لرسول الله، فأرسل لهم زيدَ بنَ حارثة في مئة راكب يترقبونهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة، فسارت السرية حتى لقيتِ العِيرَ على ماء اسمه: القَرْدَة بناحية نجد، فأخذت العِيرَ وما فيها، وهرب الرجال، وقد خمَّس الرسول عليه الصلاة والسلام هذه حينما وصلت له[1].

المدينة ثمانية بُرُد، وكانت الغيبة في هذه الغزوة عشر ليال.

سرية

قوله: عنونها السيد الدحلاني بسرية زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ إلى القَرْدَة ـ بفتح القاف وسكون الراء ـ: اسمُ ماء من مياه نجد[2].

قوله: (منهم أبو سفيان...) إلخ: قال الدحلاني: هؤلاء كلهم أسلموا عام الفتح[3].

قوله: (وقد خمس...) إلخ: قال الدحلاني: بلغ الخمسُ قيمة عشرين ألف درهم[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٣٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١).

غزوة أُحُد

ولما أصابَ قريشاً ما أصابها ببـدر، وأُغْلِقـت فـي وجـوههم طـرقُ التجارة، اجتمع مَنْ بقي من أشرافهم إلى أبي سفيان رئيسِ تلك العير التي جلبت عليهم المصائب، وكانت موقوفة بدار النـدوة، ولـم تكـن سُـلِّمت لأصحابها بعدُ، فقالوا: إن محمداً قد وَتَرنا، وقتل خيارنا، وإنّا رضـينا أن نتركَ ربحَ أموالنا فيها، استعداداً لحرب محمد وأصحابه، وقد رضي بـذلك كلُّ من له فيها نصيب، وكانَ ربحُها نحواً من خمسين ألفَ دينار، فجمعوا لذلك الرجال، فاجتمع من قريش ثلاثةُ آلاف رجل، ومعهم الأحـابيش ـ وهم حلفاؤهم من بني المصْطَلق، ....

غزوة أحد

(أحد): جبل من جبال المدينة، وهو على نحو ميلين منها.

قوله: (اجتمع من بقي من أشرافهم): منهم: عبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمـة ابن أبي جهل، وصفوان بن أمية ـ رضـي الله عـنهم ـ؛ لأنهـم أسـلموا بعـد ذلـك، وغيرُهم.

قوله: (قد وَتَرنا)؛ أي: قتل رجالنا.

قال السجستاني: يقال: وترت الرجل: إذا اقتلت له قتيلاً، أو أخذت له مـالاً بغير حق، وفي الحديث: «من فاتته صلاة العصر، فكأنما وُتِرَ أهلَه وماله». اهـ[1].

قوله: (وكان ربحها...) إلخ: قال الحلبـي: كـان رأس المـال خمسـين ألف دينار، وكان الربح لكل دينار دينار.

وقيل: أخرجوا خمسة وعشرين ألـف دينـار، وأنزل الله تعالى في تلك:

---

(١) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٥٢٤)، والحديث رواه البخـاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

وبني الهُون بن خزيمة، ومعهم أبو عامرٍ الراهبُ الأوسيُّ، وكان قد فارق المدينة كراهيةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه عدد ممّن هم على شاكلته، وخرج معهم جماعات من أعراب كِنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عَزّةَ الشاعر ـ الذي لا ينسى القارئ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مَنَّ عليه ببدر، وأطلقه من غير فداء ـ : إنك رجل شاعر، فأعِنّا بلسانك، فقال: إني عاهدتُ محمداً ألّا أُعِينُ عليه، وأخافُ إن وقعتُ في يده مرة ثانية ألا أنجو، فلم يزل به صفوان حتى أطاعه، وذهب يستنفر الناس لحرب المسلمين، ودعا جُبير بن مُطْعِمٍ غلاماً حبشيًّا له، اسمه: وَحْشِيّ، وكان رامياً قلّما يُخطئ، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلتَ حمزةَ بعمِّي طُعَيْمةَ، فأنت حُرّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾[الأنفال: ٣٦][1].

قوله: (الهُون) هو بضم الهاء.

قوله: (فلم يزل به صفوان...) إلخ: حيث قال له: لك عليَّ إن رجعت أن أغنيك، وأن أصبت أجعل بناتك مع بناتي يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر[2].

قوله: (وذهب يستنفر الناس)؛ أي: هو ومسافع أخذا يستنفران الناس بأشعارهما، أما مسافع، فلا يُعلَم له إسلام، وأما أبو عزة، فظفر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الوقعة بحمراء الأسد، فأمر فضربت عنقه، وحملت على رأسه إلى المدينة[3].

قوله: (بعمِّي طُعَيمة): هو ابن عَدِيّ، وإنما قال له ذلك، لأن حمزة

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨).

ثم خرج الجيش، ومعهم القِيانُ والدفوف والمعازف والخمور، واصطحب الأشرافُ منهم نساءهم كيلا ينهزموا، ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحُلَيفة.

أما رسول الله عليه الصلاة والسلام، فكان قد بلغه الخبر من كتاب بعث به إليه عمُّه العباسُ بنُ عبد المطلب، الذي لم يخرج مع المشركين في هذه الحرب، محتجّاً بما أصابه يوم بدر. ولما وصلت الأخبار باقتراب المشركين، جمع عليه الصلاة والسلام أصحابه، وأخبرهم الخبر، وقال: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن هم أقاموا، أقاموا بشر مقام، . . . .

هو القاتل له.

قوله: **(ثم خرج الجيش)**: قال الحلبي: كانوا ثلاثة آلاف، منهم مئتا فارس، وبينهم سبع مئة دارع، ومعهم ثلاثة آلاف بعير[1].

قوله: **(بذي الحليفة)**؛ أي: وهو ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه.

قوله: **(من كتاب بعث به إليه عمه العباس)**: قال الحلبي: أرسل العباس الكتاب مع رجل استأجره من بني غفار، وشرط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها، ففعل ذلك، فلما جاءه الكتاب، فك ختمه، ورفعه لأُبيّ، فقرأه عليه أبيُّ ابنُ كعب، واستكتم أبيّاً، ونزل صلى الله عليه وسلم على سعد بن الربيع، فأخبره بكتاب العباس، فقال: والله! إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه. اهـ[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٩).

وإن هم دخلوا علينا، قاتلناهم»[1].

فكان مع رأيه شيوخُ المهاجرين والأنصار، ورأى ذلك أيضاً عبدُالله ابن أُبيّ، أما الأحداث، وخصوصاً مَنْ لم يشهد بدراً منهم، فأشاروا عليه بالخروج، . . . .

قوله: (وإن هم دخلوا علينا، قاتلنا فيها)؛ أي: فأنا أعلم بها منهم، قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن. اهـ. حلبي[2].

قوله: (ورأى ذلك عبدُالله بن أبي): قال الحلبي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليه يستشيره، ولم يستشره قبل ذلك، قال: يا رسول الله! أقم بالمدينة ولا تخرج، فوالله! ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا، أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا، قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصبيان بالحجارة من ورائهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا. اهـ[3].

قوله: (أما الأحداث، فأشاروا. . .) إلخ: قالوا له: اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرونا جَبُنًا عنهم وضَعُفنا، فيكون ذلك جرأة منهم علينا، والله! لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا. اهـ. حلبي[4].

قال الماوردي في باب المشورة: كان يقال: إياك ومشاورةَ رجلين: شابٌّ متعجب بنفسه قليلُ التجارب في غيره، أو كبيرٌ قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٢٦) عن ابن شهاب الزهري، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩١).

وكان مع رأيهم حمزةُ بنُ عبد المطلب، وما زال هؤلاء بالرسول حتى تبع رأيهم؛ لأنهم الأكثرون عدداً، والأقوون جلداً، فصلى الجمعة بالناس في يومها لعشرٍ خَلَونَ من شوال، وحضّهم في خطبتها على الثبات والصبر، وقال لهم: «لكم النصرُ ما صبرتم»، ثم دخل حجرته، ولبس عُدّته، فظاهرَ بين درعَين، وتقلد السيف، وألقى الترس وراء ظهره، ولما رأى ذوو الرأي من الأنصار أن الأحداث استكرهوا الرسول على الخروج، لاموهم، وقالوا: ردّوا الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أَمَرَ ائتمرنا، فلما خرج عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله! نتَّبعُ رأيك، فقال: «ما كان لنبي لَبِسَ سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه»[1].

من جسمه. اهـ[2].

قوله: (وكان من رأيهم حمزةُ): فإنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي أنزل عليك الكتاب! لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة[3].

قوله: (حتى تبع رأيهم)؛ أي: وهو كاره للخروج.

قوله: (وقالوا: ردوا الأمر): القائلون سعدُ بنُ معاذ، وأسيد بن حضير.

قوله: (قالوا: يا رسول الله! نتبع رأيك): في الحلبي: قالوا له: ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج، فاصنع ما شئت[4].

قوله: (ما كان لنبي . . .) إلخ؛ أي: لأن الشروع في العمل ملزم لإتمامه.

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٩٦). ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٥١) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مختصراً.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٧٩).

(٣) أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٤/ ١٨٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٢).

ثم عقد الألوية، فأعطى لواءَ المهاجرين لمصعبِ بنِ عُمَير، ولواءَ الخزرج للحُبابِ بنِ المنذر، ولواءَ الأوس لأُسَيدِ بن الحُضَير، وخرج من المدينة بألف رجل، فلما وصلوا رأس الثنية، نظر عليه الصلاة والسلام إلى كتيبة كبيرة، فسأل عنها، فقيل: هؤلاء حلفاء عبدالله بن أُبيّ من اليهود، فقال: «إنّا لا نستعين بكافر على مشرك»[1]، وأمر بردّهم؛ لأنه لا يأمن جانبهم من حيث لهم اليد الطُّولى في الخيانة. ثم استعرض الجيش، فردَّ من استصغر، وكان فيمن ردّ: رافع بن خديج، وسَمُرَة بن جُندب، ثم أجاز رافعاً لمَّا قيل له: إنه رامٍ، فبكى سَمُرة، وقال لزوج أمه: أجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رافعاً وردّني مع أني أصرعه، فبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فأمرهما بالمصارعة، فكان الغالب سمرة، فأجازه.

ثم بات عليه الصلاة والسلام محله ليلة السبت، . . . .

قوله: (فقال: إنا لا نستعين بكافر. . .) إلخ: إنما قال ذلك بعد أن قال: «أسلموا»، فقيل: لا، فقال: «إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك»، فردهم كما في الحلبي[2].

قوله: (سَمُرة): ـ بفتح السين وضم الميم ـ، وجُندَب: ـ بضم الجيم وفتح الدال ـ.

قوله: (فرد من استصغر): قال الحلبي: كان فيمن رآهم: عرابة بن أوس، وعرابة هذا هو القائل فيه الشماخ:

رأيت عَرابةَ الأوسيَّ يسمو إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٨٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٣)، والحديث المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٣٨٣٢) عن سعد بن المنذر. (ط دار القبلة).

واستعمل على حرس الجيش محمدَ بنَ مسلمةَ، وعلى حرسه الخاصِّ ذكوانَ ابنَ عبد قيس. وفي السَّحَر سار الجيش، حتى إذا كان بالشَّوْطِ ـ وهو بستان بين أُحُد والمدينة ـ رجع عبدالله بن أُبَيَ بثلاث مئة من أصحابه، وقال: عصاني وأطاع الوِلْدان، فعلام نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبدالله بنُ عمرٍو والدُ جابر، وقال: يا قوم! أُذَكِّرُكُمُ الله ألا تخذلوا قومكم ونبيّكم، ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] فقال لهم: أَبْعَدَكُم الله، فسيغني الله عنكم نبيّه.

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقاها عرابةُ باليمينِ[١]

قوله: (وعلى حرسه الخاص ذكوان): قال الحلبي: فإنه لم يفارقه لما قال صلى الله عليه وسلم: «من يحفظنا الليلة؟» حتى كان السَّحَر[٢].

قوله: (وهو والد جابر): قال الحلبي: وكان في الخزرج كعبدالله بن أبي[٣].

قوله: (أن تخذلوا قومكم ونبيكم)؛ أي: تتركوا نصرتهم وإغاثتهم عندما حضر من[٤] عدوهم[٥].

قوله: (﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَٰكُمْ﴾)؛ أي: لو نعلم أنكم تقاتلون، لما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال، وأبوا إلا الانصراف، ولما رجعوا بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبع مئة رجل. اهـ[٦].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٣).
(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٤) في الأصل تكرر: «من».
(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).
(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).

ولما فعل ذلك عبدُالله بنُ أُبَيّ، همَّت طائفتان من المؤمنين أن تفشلا: بنو حارثة من الأوس، وبنو سَلِمة من الخزرج، فعصمهما الله. وقد افترق المسلمون فرقتين فيما يفعلون بالمنخذلين، فقوم يقولون: نقاتلهم، وقوم يقولون: نتركهم، فأنزل الله في سورة النساء: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[النساء: ٨٨]. ثم سار الجيش حتى نزل الشِّعبَ من أحد، وجعل ظهره للجبل، ووجَهه للمدينة، . . . .

قوله: (فعصمهما الله): قال الحلبي: قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[آل عمران: ١٢٢] إلخ[١].

قوله: (﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ . . .﴾) إلخ: قال النسفي والبيضاوي والخازن: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: ما لكم اختلفتم في المنافقين، وتفرقتهم فيهم فرقتين؟ و﴿فِئَتَيْنِ﴾ حال؛ كقولك: ما لك قائماً.

قال سيبويه: إذا قلت: ما لكَ [قائماً][٢]؟ فمعناه: لِمَ قمت[٣]؟

ونصبه على تأويل: أيُّ شيء مستقرٌّ لك في هذه الحال؟

وقوله: (﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾)؛ أي: نكسهم وردّهم إلى حكم الكفرة، وأصل الركس: ردُّ الشيء مقلوباً.

وقوله: (﴿بِمَا كَسَبُوا﴾) من ارتدادهم.

وقوله: (﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾) هذا خطاب للفئة التي دافعت عن المنافقين، والمعنى: أتبتغون ـ أيها المؤمنون ـ هدايةَ هؤلاء المنافقين الذين

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٤).

(٢) ما بين معكوفتين من «تفسير الخازن».

(٣) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٦١).

أما المشركون، فنزلوا ببطن الوادي من قِبَل أحد، وكان على ميمنتهم خالدُ ابن الوليد، وعلى الميسرة عكرمةُ بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوانُ بن أمية، فجعل عليه الصلاة والسلام الزبيرَ بنَ العوام بإزاء خالد، وجعل آخرين أمامَ الباقين، واستحضر الرماة، وكانوا خمسين رجلاً يرأسهم عبدُالله بنُ جُبير الأنصاري، فوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وقال: «لا تبرحوا: إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا»[1].

أضلهم الله عن الهدى[2]؟

قوله: (وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أقامهم النبي صلى الله عليه وسلم على الجبل، قال لهم: «احموا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل؛ فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم».

وفي رواية قال لهم: «إن رأيتمونا تخطَّفُنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ وأوطأناهم ـ أي: مشينا عليهم وهم قتلى ـ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[3].

وفي رواية: «فإن رأيتمونا نُقْتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، اللهم إني أشهدك عليهم». اهـ[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٠٤٣) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، و«تفسير النسفي» (١/ ٢٣٨)، و«تفسير الخازن» (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧ ـ ٣٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٨٧) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

ثم عدل عليه الصلاة والسلام الصفوف، وخطب المسلمين، وكان فيما قال: «ألقى في قلبي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا في طلب الرزق، لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله، المؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده»[1].

قوله: (وخطب خطبة): صنيع الحلبي يفيد أن هذه الخطبة كانت عند انتهاء النبي صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح[2].

قوله في الحديث: (ألقى في قلبي...) إلخ: هذا وسط الخطبة، وأولها كما في الحلبي: لما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صفوفاً، خطب خطبة حثهم فيها على الجهاد، ومن جملة ما ذكر فيها: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد[3]، ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه، وإنه قد نفث في روعي الروح الأمين؛ وهو جبريل...» إلخ ما هاهنا[4].

قوله: (تداعى له)؛ أي: دعا الأعضاء بعضها البعض للشكوى.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٩١٤) من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٧١): وفيه قدامة بن زائدة بن قدامة، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٧١٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٧٠): أبو معشر أقرب إلى الضعف، وعبد العظيم لم أجد من ترجمه.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

ثم ابتدأ القتال بالمبارزة، فخرج رجل من صفوف المشركين، فبرز له الزبيرُ فقتله، ثم حمل اللواءَ طلحةُ بنُ أبي طلحة، فقتله عليّ، . . . .

قوله: (فخرج رجل من صفوف المشركين. . .) إلخ: قال الحلبي: خرج الرجل على بعير له، فدعا للبِراز، فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير، فوثب حتى استوى معه على البعير، ثم عانقه، فاقتتلا فوق البعير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذي يلي حضيض الأرض مقتول، فوقع المشرك، فوقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «لكل نبيٍّ حَواريٌّ، وإن حواريَّ الزبير»[1].

قوله: (ثم حمل اللواء طلحة): هذا يفيد أن الرجل المتقدم كان حاملاً اللواء، وليس كذلك؛ فإن حامل اللواء في ذلك اليوم من أول الأمر هو طلحة.

قال الحلبي بعد أن ذكر قتل الزبير للرجل: وخرج رجل من المشركين بين الصفين، وهو طلحة بن أبي طلحة، وكان بيده لواء المشركين؛ لأن بني عبد الدار كانوا أصحابَ لواء المشركين؛ لأن اللواء كان لوالدهم عبدِ الدار. اهـ[2].

قوله: (فقتله علي): قال الحلبي: لما خرج طلحة، وطلب المبارزة مراراً،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٢٧) عن محمد بن شهاب الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعد بن معاذ، وغيرهم، وروى البخاري (٤١١٣) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «من يأتينا بخبر القوم؟» فقال الزبير: أنا، ثم قال: «إن لكل نبيٍّ حوارياً، وإن حواريَّ الزبير».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧).

فحمل اللواء أخوه عثمانُ، فقتله حمزةُ، فحمله أخ لهما اسمه أبو سعيد، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقضى عليه، فتناوب اللواءَ بعدَه أربعةٌ من أولاد طلحةَ بن أبي طلحة، وكلهم يُقتلون، وخرج من صفوف المشركين عبدُ الرحمن بن أبي بكر يريد البراز، فأراد أبوه أن يبرز له، فقال عليه الصلاة والسلام: . . . .

فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد! [زعمتم] أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار، وفي رواية: إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم [بسيوفنا] إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار، أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ كذبتم واللات والعزى، لو تعلمون ذلك، لخرج إليَّ بعضكم، فخرج إليه علي بنُ أبي طالب، فاختلفا ضربين، فقتله عليٌّ. اهـ[1].

قوله: (أخوه عثمان) قال الحلبي: هذا هو أبو شيبة الذي ينسب إليه الشيبيون، فيقال: بنو شيبة ـ وهم سدنة الكعبة وأصحابُ مفاتيحها إلى اليوم ـ، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره، فرجع حمزة وهو يقول: أنا ابن ساقي الحجيج؛ يعني: عبدَ المطلب. اهـ[2].

قوله: (أربعة من أولاد طلحة): هم: مسافع، والحارث، وكلاب، والجلاس، ثم حمله أرطاة بنُ شرحبيل، فقتله عليٌّ، وقيل: حمزة، ثم أبو زيد بن عمرو بن عبد مناف، فقتله قزمان، فحمله ولد لشرحبيل بن هاشم، فقتله أيضاً، ثم حمله غلام لهم وكان حبشياً، فقتله قزمان، وقيل: سعد. اهـ. حلبي[3].

وبقي اللواء مطروحاً إلى أن أخذته[4] امرأة يقال لها: عمرة الحارثية.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩).

(٤) في الأصل كلمة غير واضحة، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٦).

«متعنا بنفسك يا أبا بكر!»[1].

ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات، وفي كلها ينضحهم المسلمون بالنبل فيتقهقرون. ولما التقت الصفوف، وحميت الحرب، ابتدأ نساء المشركين يضربن بالدفوف، وينشدن الأشعار تهييجاً لعواطف الرجال، وكان عليه الصلاة والسلام كلما سمع نشيد النساء يقول: . . . . .

وقد كان أبو سفيان قال لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم على القتال: يا بني عبد الدار! أنتم تركتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما تؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهموا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع، وذلك الذي أراد أبو سفيان. اهـ. حلبي[2].

قوله: (متعنا بنفسك): قال الحلبي: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شِم سيفك، وارجع إلى مكانك، ومتعنا بنفسك». اهـ[3].

وفي «القاموس»: شام سيفه يشيمه: غَمَده[4].

قوله: (يضربن بالدفوف): قال الحلبي: لما التقى الناس، وحميت الحرب، قامت هند في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف [الرجال][5] ويقلن:

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٠٠٤) عن الواقدي، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤١٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٩٩)، والخبر المذكور أورده أبو القاسم الأصبهاني في «محاضرات الأدباء» (٢/ ٤٩١).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شيم).

(٥) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

«اللهم بك أحول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»[1].

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار ضرباً بكل بتار

و(ويهاً) كلمة إغراء وتحريض، كما تقول: دونَكَ يا فلان.

والأدبار: الأعقاب؛ أي: الذين يحملون أعقاب الناس.

والبتار: السيف القاطع.

ويقلن:

نحن بناتُ طارقْ نمشي على النمارقْ

مَشْيَ القطا النوازقْ والمِسْكُ في المفارقْ

والدرُّ في المخانِقْ إن تُقبلوا نعانقْ

ونفرشُ النمارقْ أو تُدبروا نفارقْ

فراقَ غيرِ وامقْ

النوازق: الخفاف.

وطارق: اسم رجل معروف؛ أي: نحن بنات طارق المعروف بالعلو والشرف.

وأصل طارق: النجم، والنمارق: الوسائد الصغار، والوامق: المحب[2].

قوله: (بك أحول): في «النهاية»: (بك أحول)؛ أي: أتحرك، وقيل:

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٩٢)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠١). وروى أبو داود (٢٦٣٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قال: «اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١).

وفي هذه المعمعة قُتل حمزة بنُ عبد المطلب عمٌّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدُ الشهداء، غافله وحشي وهو يجول في الصفوف، وضربه بحربة لم تخطئ ثنايا بطنه.

هذا، ولما قُتل حَمَلةُ اللواء من المشركين، ولم يقدر أحدٌ على الدنو منه، ولَّوا الأدبار، ونساؤهم يبكين ويُولولن، وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب، فلما رأى ذلك الرماةُ الذين يحمون ظهور المسلمين فوق الجبل، قالوا: ما لنا في الوقوف من حاجة، ....

أحتال، وقيل: أدفع وأمنع؛ من حال بين الشيئين: إذا منع أحدَهما عن الآخر، وفي حديث آخر: «بك أصاول، وبك أحاول»[1]، وهو من المفاعلة، وقيل: المحاولة: طلب الشيء بحيلة. اهـ[2].

قوله: (قتل حمزة): لم يُقتل ـ رضي الله عنه ـ حتى قتل في ذلك اليوم واحداً وثلاثين شخصاً، وقيل: ثلاثة وعشرين، قال وحشي غلامُ جبير: إني لأنظر إلى حمزة يهد الناس بسيفه ـ يهدّ بالدال المهملة: يهدم، وبالذال: يقطع ـ وقد عثر حمزة، فانكشف الدرع عن بطنه، فهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه، فوقعت في ثُنَّتِه ـ وهو موضع تحت السرة وفوق العانة ـ فندرته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغلب فوقع، فأمهلته حتى إذا مات، جئته فأخذت حربتي، ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لي حاجة غيره. اهـ. حلبي[3].

قوله: (يبكين ويولولن)؛ أي: بعد فرحهم وضربهم بالدفوف، وألقين الدفوف وقصدن الجبل كاشفاتٍ سيقانهن يرفعن ثيابهن. اهـ. حلبي[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٣٣) من حديث صهيب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

ونسوا أمر السيد الحكيم صلى الله عليه وسلم، فذكَّرهم رئيسُهم به، فلم يلتفتوا، وانطلقوا ينتهبون. أما رئيسُهم، فثبت، وثبت معه قليل منهم، فلما رأى خالدُ بن الوليد ـ أحدُ رؤساء المشركين ـ خُلُوَّ الجبل من الرماة، انطلق ببعض الجيش، فقتل من ثبت من الرماة، وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم، فلما رأوا ذلك البلاء، دهشوا وتركوا ما بأيديهم، وانتقضتْ صفوفهم، واختلطوا من غير شعور، حتى صار يضرب بعضُهم بعضاً، ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء، فاجتمعوا حوله، وكان من المشركين رجل يقال له: ابن قَمِئَةَ قَتل مُصعَبَ بنَ عُمَير صاحبَ اللواء، . . .

قوله: **(فذكرهم رئيسهم به)**: هو عبدالله بن جبير كما تقدم.

وقوله: **(ومعه قليل)** قال الحلبي: كانوا دون العشرة[1].

قوله: **(فقتل من ثبت من الرماة)**؛ أي: حتى رئيسهم، ثم إنهم مثلوا به، ومن كثرة طعنه بالرماح خرجت حشوته. اهـ. حلبي[2].

قوله: **(وتركوا[3] ما بأيديهم)**؛ أي: من الأموال والأسرى.

قوله: **(ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء)**: قال الدحلاني ـ بعد ذكره من قُتل من بني عبد الدار حملة اللواء ـ: ثم لم [يزل] اللواء طريحاً حتى أخذته عمرة ينت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش، ولاذوا به؛ أي: استداروا. اهـ[4].

قوله: **(ابن قمئة)**: هو: ـ بفتح القاف وكسر الميم وبعدها همزة ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣).

(٣) في الأصل: «وخلوا»، والمثبت موافق لما في «نور اليقين» (ط الجامعة).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٤١)، ورواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٦).

وأشاع أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد قُتل، فدخل الفشلُ في المسلمين حتى قال بعضُهم: علامَ نقاتل إذا كان محمد قد قُتل؟ فارجعوا إلى قومكم يؤَمِّنُوكم. وقال جماعة: إذا كان محمد قد قُتل، فقاتلوا عن دينكم. وكان من نتيجة هذا الفشل أن انهزم جماعةٌ من المسلمين، من بينهم: الوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ورِفاعة بن المعلى، وعثمان بن عفان، وتوجهوا إلى المدينة، ولكنهم استحيوا أن يدخلوها، فرجعوا بعد ثلاث، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه جماعة، منهم: أبو طلحة الأنصاري استمر بين يديه يمنع عنه بحَجَفَتِهِ، . . . .

اهـ. حلبي[1].

قوله: (إذا كان محمد قد قتل): قال الحلبي نقلاً عن «الإمتاع»: إن ثابت بن الدحداح قال: يا معشر الأنصار! إن كان محمد قد قتل، فإن الله حيٌّ لا يموت، قاتلوا عن دينكم؛ فإن الله مظفركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل على كتيبة فيها خالدُ بنُ الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، فحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله، وقتل من كان معه من الأنصار ـ رضي الله تعالى عنهم ـ. اهـ[2].

قوله: (فرجعوا بعد ثلاث): قال الحلبي: لما رجعوا، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذهبتم فيها عريضة»[3]؛ أي: يميناً وشمالاً متحيرين، وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾[آل عمران: ١٥٥]. اهـ[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣).
(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤).
(٣) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١١) من حديث عبدالله بن الزبير.
(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٤).

وكان رامياً شديد الرمي. فنثر كِنانته بين يدي رسول الله، وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقَاء. وكلٌّ من كان يمر ومعه كنانة يقول له عليه الصلاة والسلام: «انثرها لأبي طلحة»، وكان ينظر إلى القوم ليرى مواضع النبل، فيقول له أبو طلحة: يا نبي الله! بأبي أنت وأمي، لا تنظر يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[١].

وممّن ثبتَ: سعدُ بنُ أبي وقاص، فكان عليه الصلاة والسلام يقول له: «ارمِ سعد فِداك أبي وأمي»[٢].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ أي: طلب منهم الزلل، فأطاعوه، واقترفوا ذنوباً، ولمخالفة النبي صلى الله عليه وسلم بترك المركز، والحرص على الغنيمة أو الحياة، فمنعوا التأييد وقوة القلب. اهـ. بيضاوي[٣].

قوله: (وجهي لوجهك الفداء): في الحلبي: كان يقول له: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوِقاء[٤].

قوله: (بحجفة): ـ بتقديم الحاء على الجيم ـ.

وفي «القاموس»: الحجف ـ محركة ـ: التروس من جلود بلا خشب، الواحدة: حَجَفَة[٥].

قوله: (يقول له: ارم): قال الحلبي: عن علي ـ كرم الله وجهه ـ: ما سمعتُ

---

(١) رواه البخاري (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ورواه مسلم (٢٤١١)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٠٦).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٥).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حجف).

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «فداك أبي وأمي»، إلا لسعد ـ رضي الله عنه ـ[1].

وعن سعد: أجلسَني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمامه، فجعلت أرمي وأقول: اللهم سهمك فارم به عدوك، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدد رميته، وأجبْ دعوته»[2].

فكان سعد مجابَ الدعوة، ولما سعى أهل الكوفة به إلى سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ؛ أرسل جماعة للكوفة يسألون عن حاله من أهل الكوفة، فصاروا كلما سألوا عنه أحداً قال خيراً، وأثنى عليه معروفاً، حتى سألوا رجلاً يقال له: أبو سعدة، ذمَّه، وقال: لا يقسم بالسَّوِيَّة، ولا يعدل في القضية، فلما بلغ سعداً ذلك قال: اللهم إن كان كاذباً، فأطل عمره، وأدِمْ فقره، وأَعْمِ بصره، وعرّضه للفتن، فعمي، وافتقر، وكبر سنه، وصار يتعرض للإماء في سكك الكوفة، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة؟ يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد[3].

قيل لسعد: لِمَ تستجاب دعوتك من دون الصحابة؟ فقال: ما رفعت إلى فمي لقمة إلا وأنا أعلم من أين جاءت، ومن أين خرجت[4].

ولما كُفَّ بصرُه قيل له: لو دعوتَ الله سبحانه أن يرد عليك بصرك؟ فقال:

---

(١) رواه البخاري (٤٠٥٩)، ومسلم (٢٤١١) بنحوه.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (١٢١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٣): وفيه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، وهو متروك.

(٣) رواه البخاري (٧٥٥) من حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) أورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم الحكم» (ص: ١٠٧) عن عكرمة بن عمار عن الأصفر.

ومنهم: سهل بن حُنَيف، وكان من مشاهير الرماة، نضحَ عن رسـول الله بالنبل حتى انفرج عنه الناس.

ومنهم: أبو دُجانة سِمَاكُ بن خَرَشَة الأنصاريُّ، تترس على رسـول الله، فصار النبلُ يقع على ظهره وهو منحنٍ حتـى كثـر فيـه. وكـان يقاتـل عـن الرسول صلى الله عليه وسلم زيادةُ بنُ السكن حتى أصابت الجـراحُ مقاتلـه، فأمر به فأُدني منه، ووسده قدمه حتى مات.

وقد أصابه عليه الصلاة والسلام شدائدُ عظيمةٌ تحمَّلها بما أعطـاه الله من الثبات؛ فقد أقبل أُبيٌّ بن خلف يريد قتله، ....

قضاء الله أحبُّ إليَّ من بصري[1].

قوله: (نضح بالنبل)؛ أي: رمى بها.

قال الحلبي: وكان بايعه صلى الله عليه وسلم على الموت[2].

قوله: (خرشة) هو ـ بفتح الخاء والراء ـ كما في «القاموس»[3].

قوله: (فأقبل أبي بن خلف): قال الحلبي: لما أقبل، استقبله مصعب بن عمير، فقتل مصعباً، فاعترضه رجال من المسلمين، فأمرهم صـلى الله عليـه وسـلم أن يخلوا طريقه. اهـ[4].

وهذا ينافي ما تقدم في كلام المؤلف من أن قاتل مصعب هو ابن قمئة.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٥٠٦ ـ ٥٠٨)، والأثـر المـذكور أورده ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم الحكم» (ص: ٣٦٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٠٨).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خرش).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبـي (٢/ ٥١٠)، والخبـر المـذكور رواه موسى بن عقبة كما في «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢١١) عن سعيد بن المسيب.

فأخذ عليه الصلاة والسلام الحربة ممّن كانوا معه، وقال: «خلّوا طريقه»[1]، فلمّا قَرُب منه، ضربه ضربةً كانت سببَ هلاكه وهو راجع، ولم يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَه، لا في هذه الغزوة، ولا في غيرها.

وكان أبو عامرٍ الراهبُ قد حفر حُفراً وغطّاها ليقَع فيها المسلمون، فوقعَ الرسول صلى الله عليه وسلم في حفرة منها، فأُغمي عليه،. . . . . .

قوله: (فأخذ عليه السلام الحربة ممن كانوا معه): قال الحلبي: أخذها من الحارث بن الصمة، أو الزبير بن العوام، فخدشه بها في عنقه خدشاً غير كبير، احتقن الدم بسبب ذلك الخدش، فقال: قتلني ـ والله ـ محمد، فقالوا: ذهب ـ والله ـ عقلُك، إنك لتأخذ السهام من أضلاعك، فترمي بها، فما هذا ـ والله ـ ما بك من بأس، ما أخدعك! إنما هو خدش، ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره، فقال: واللات والعزى! لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز ـ السوق المعروف كان عند عرفة ـ ؛ لماتوا أجمعون، إنه قد كان قال لي بمكة: «أنا أقتلك»، فو الله! لو بصق عليَّ لقتلني[2].

قوله: (وهو راجع): مات عدو الله وهم قافلون به إلى مكة بسَرِف، وقيل: ببطن رابغ[3].

قوله: (أبو عامر الراهب) هو والد حنظلةَ غسيلِ الملائكة، ومات أبو عامر كافراً بأرض الروم، فر إليها لما فتحت مكة.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/ ١٦٧٣) عن ابن المسيب، وفيه: «استأخروا» بدل «خلوا طريقه»، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٠)، و«الشفا» للقاضي عياض (١/ ١١٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٢).

وخُدشت ركبتاه، فأخذ عليّ بيده، ورفعه طلحة بن عبيدالله ـ وهما ممّن ثبت ـ حتى استوى قائماً، فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته، فتبعه حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ فقتله، . . . .

قوله: (فرماه عتبة): هذا يفيد أنه لما استوى صلى الله عليه وسلم رماه عتبة، وليس كذلك، والذي في الحلبي والدحلاني: ورماه عتبة. . . إلخ[1]، وهو أولى.

قوله: (كسر رباعيته)؛ أي: اليمنى السفلى، وشَقَّ شفته السفلى كما في الدحلاني[2].

في «المصباح»: الرَّباعِيَة: بوزن (الثمانية): السنُّ التي بين الثنية والناب، والجمع رَباعِيَات ـ بالتخفيف أيضاً ـ. اهـ[3].

وفي «القاموس»: الثنية من الأضراس الأربع التي في مقدم الفم؛ ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل[4].

والناب: السن خلف الرباعية، مؤنث، جمعه: أُنيب وأنياب[5].

قوله: (فتبعه حاطب): في الحلبي: قال حاطب: لما رأيت ما فعل عتبةُ برسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت لرسول الله: أين توجه عتبة؟ فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى حيث توجه، فمضيت حتى ظفرت به، فضربته بالسيف،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٥٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٢).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: ربع).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ثني).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نيب).

وشَجَّ وجهَه عليه الصلاة والسلام عبدُالله بنُ شهاب الزهري، وجرحت وجنتاه بسبب دخول حلقتي المِغْفَر فيهما من ضربة ضربه بها ابنُ قَمِئَةَ ـ غضب الله عليه ـ، فجاء أبو عُبيدةَ وعالج الحلقتين حتى نزعهما، فكُسرت في ذلك ثنيتاه، وقال حينئذٍ عليه الصلاة والسلام: «كيف يُفلِح قوم خضَّبوا وجهَ نبيّهم؟!» فأنزل الله في سورة آل عمران: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ ....

فطرحت رأسه، فنزلتُ وأخذتُ فرسه وسيفَه، وجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: «رضي الله عنك، رضي الله عنك»، مرتين. اهـ[1].

قوله: (عبدالله بن شهاب): عبدالله أسلم بعد ذلك ـ رضي الله عنه ـ، وهو جدُّ الإمام الزهري من أئمة الحديث.

قوله: (من ضربة ضربه بها ابن قمئة): في الحلبي: أن ابن قمئة ـ لعنه الله ـ قال له لما ضربه: خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أقمأك الله»؛ أي: صغَّرك وأذلَّك، وقد استجاب الله فيه دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإنه بعد الوقعة خرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة الجبل، فأخذ يعترضها، فشدّ عليه كبشها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل، فتقطع[2].

قوله: (﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾): قال البيضاوي: المعنى: أن الله ما لك

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٣)، والخبر المذكور رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٣٠٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٤)، والخبر المذكور أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٦٦، ٣٧٣) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، وعزاه لابن عائذ في «المغازي». ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٧): وفيه حفص بن عمر العدني، وهو ضعيف.

﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[آل عمران: ١٢٨][1].

وكان أول من عرف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الدهشة كعبُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ، فنادى: يا معشر المسلمين! أبشروا، فأشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن اصمتْ، ثم سار بين سعد بن أبي وقاص وسعد بن عبادة يريد الشعب، ومعه جمع، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، والزبير، والحارث بن الصمة، وأقبل عليه إذ ذاك عثمانُ بنُ عبد المغيرة يقول: أين محمد؟........................

أمرهم، فإما أن يهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا، وليس لك من أمرهم شيء، وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. اهـ[2].

ومعنى: ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: يغيظهم ويخزيهم.

وقوله تعالى: (﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾)؛ أي: استحقوا العذاب بظلمهم.

قال البيضاوي: قيل: إنه صلى الله عليه وسلم هم أن يدعو عليهم، فنهاه الله؛ لعلمه بأن فيهم من يؤمن. اهـ[3].

قوله: (وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم...) إلخ: في الحلبي: كان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك، قال: عرفت عينيه تزهران ـ أي: تضيئان وتتوقدان ـ من تحت المغفر ـ وهو ما يجعل

---

(١) رواه مسلم (١٧٩١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٤٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٤).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٩٠).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٩٠).

لا نجوت إن نجا، فعثر به فرسه، ووقع في حفرة، فمشى إليه الحارثُ بنُ الصمة وقتله، ولما وصل الشعب، جاءت فاطمة، فغسلت عنه الدم، وكان عليٌّ يسكب الماء، ثم أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، ووضعتها على الجرح، فاستمسك الدم، ثم أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب، فلم يمكنه القيام؛ لكثرة ما نزل من دمه صلى الله عليه وسلم، فحمله طلحة بن عبيدالله حتى أصعده، فنظر إلى جماعة من المشركين على ظهر الجبل، فقال: «لا ينبغي لهم أن يعلونا، اللهم! لا قوة لنا إلا بك»، ....

على الرأس من الزرد ـ، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليَّ أن أنصت.

وفي رواية: لما نودي بقتله، لم نشك في أنه حق، وما زلنا كذلك حتى طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السعدين، فعرفناه بكتفيه إذا مشى، ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا. اهـ[١].

قوله: (ووقع في حفرة)؛ أي: من تلك الحفر التي حفرها أبو عامر الراهب كما تقدم.

قوله: (وقتله): لما قتل قال صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله الذي أحانه»[٢]؛ أي: أهلكه.

قوله: (فنظر إلى جماعة...) إلخ: قال الحلبي: كان معهم خالد بن الوليد[٣].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥١٧).

(٢) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٥١٨)، ولم نقف عليه مسنداً.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

ثم أرسل إليهم عمرَ بن الخطاب [في جماعة] فأنزلوهم[1].

وقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كثير من الجراحات؛ لأن الشخص منهم كان يتلقى السهم، خوفاً أن يصل للرسول، فوُجِد بطلحة نيفٌ وسبعون جراحة، وشلَّت يدُه، وأصاب كعبَ بنَ مالك سبعَ عشرةَ جراحة.

قوله: **(أرسل إليهم عمر بن الخطاب...)** إلخ: في بعض الروايات: أنه أمر سعداً رضي الله عنه ـ بردهم، قال سعد: فأخذت سهماً من كنانتي، فرميت به رجلاً منهم فقتله، وهكذا إلى أن قتل منهم خمسة، فهبطوا حينئذ[2].

قوله: **(فوجد بطلحة...)** إلخ: هو ابن عبيدالله.

وقوله: **(وشلت يده)**: قال الحلبي: في البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة بن عبيدالله شلاَّء، وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد[3]؛ أي: من سهم.

وقيل: من حربة، ونزف به الدم حتى غشي عليه، ونضح أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ الماء في وجهه حتى أفاق، فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال له أبو بكر: هو بخير، وهو أرسلني إليك، فقال: الحمد لله، كل مصيبة بعده جَلَل؛ أي: قليلة.

وكان يقال لطلحة: الفياض، سماه بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة، وسماه: طلحة الجود؛ لأنه أنفق في أُحد سبعَ مئة ألفِ درهم،

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١١) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٦٣).

أما القتلى، فكانوا نيفاً وسبعين، منهم ستةٌ من المهاجرين، والباقون من الأنصار. ومن المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب، . . . .

وسماه في أحد أيضاً: طلحة الخير. اهـ[1].

قوله: (ومن المهاجرين: حمزة): تقدم أن قاتله وحشيٌّ الحبشي، غلامُ جبير بن مطعم.

قال الحلبي: إن هنداً زوجَ أبي سفيان، والنسوةَ اللاتي خرجن معها صرن يمثلن بقتلى المسلمين، يجدَعْن من آذانهم وأنوفهم، واتخذن من ذلك قلائد، وبقرت هند بطنَ سيدنا حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجت كبده فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال: «هل أكلت منه شيئاً؟» قالوا: لا، [قال]: «إن الله قد حرم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً»[2]. أي: ولو أكلت منه، لم تمسها النار.

ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو حمزة، فوجده ببطن الوادي، فنظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجعَ لقلبه منه، وقال صلى الله عليه وسلم: «لن أصاب بمثلك، ما وقفتُ موقفاً أغيظَ لي من هذا»[3]، وقال: «رحمة الله عليك؛ فإنك كنت ما علمتك فعولاً للخيرات، وصولاً للرحم»[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢١ ـ ٥٢٢).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٢ ـ ١٣) عن محمد بن سيرين، وابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٤٥). وروى الحاكم في «المستدرك» (٤٨٨١) عن محمد بن عمر، عن شيوخه قالوا: لما أصيب حمزة، جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لن أصاب بمثلك أبداً».

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١١٩): وفيه صالح بن بشير المري، =

ثم قال: وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما رأينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم باكياً أشدَّ من بكائه على حمزة ـ رضي الله عنه ـ، وضعه على القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشق ـ أي: شهق ـ حتى بلغ به الغشي، يقول: «يا عمَّ رسولِ الله، وأسدَ الله، وأسدَ رسولِ الله، يا حمزة، يا فاعل الخيرات، يا حمزة، يا كاشف الكربات، يا حمزة، يا ذابَّ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

قال الحلبي: وليس هذا من الندب المحرم، ومحلُّ الكراهة: إذا كان على وجه التفاخر والتعاظم، ولم يكن وصفاً لنحو صالح للحث على سلوك طريقته[2].

قوله: (ومنهم مصعب بن عمير): قال الحلبي: قتل مصعب بن عمير يوم أحد، وكفن في نَمِرَة إن غطي بها رأسُه، بدت رجلاه، وإن غطي بها رجلاه، بدت رأسه، فقال صلى الله عليه وسلم: «غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[3].

وكان مصعب هذا قبل الإسلام فتى مكة شباباً وجمالاً ولباساً، ولما أسلم، تشعث[4].

قوله: (ومن الأنصار: حنظلة بن أبي عامر): قال الحلبي: سبب قتله:

= وهو ضعيف.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٩، ٥٣٣ ـ ٥٣٤)، والخبر المذكور أورده محب الدين الطبري في «ذخائر العقبي» (ص: ١٨١) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال: خرجه ابن شاذان وقال: غريب.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٤).

(٣) رواه البخاري (٤٠٤٧) من حديث خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦).

وعَمرو بنُ الجموح، وابنه خلاَّدُ بنُ عمرو، وأخـو زوجـه والـدُ جـابرِ بـنِ عبدالله، . . . .

أن حنظلة ضرب فرس أبي سفيان، فوقع على الأرض، فصـاح، وعـلاه حنظلـة يريد ذبحه، فرآه شداد بن الأسود، فحمل عليه فقتله، فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم: «إن صاحبكم لتغسلُه الملائكة» ـ وفي رواية: «رأيت الملائكة تغسـل حنظلة بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضـة» ـ فسئلت صـاحبته؛ أي: زوجته جميلةُ بنتُ عبدالله بنِ أبـي ابـن سـلولَ رأسِ المنـافقين أخـتُ ولـدِه عبدِالله ـ رضي الله عنهما ـ، فقالت: خـرج جنبـاً، فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم: «لذلك غسلته الملائكة»[1].

فإنه دخَل عليها عروساً تلك الليلة التي صبيحتُها أُحد، وقـد كـان اسـتأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في الدخول بها، فلما صـلى الصـبح، غـدا يريـد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلزمتـه، فكـان معهـا، فأجنـب منهـا، ونـادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى العـدو، فعجـل عـن الغسـل إجابةً للداعي[2].

قوله: (وعمرو بن الجموح): قال الحلبي: كان عمرو بن الجموح أعـرجَ شديدَ العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشـهدون مـع رسـول الله صـلى الله عليه وسلم المشاهد، فلما كان يوم أحد، أرادوا حبسه، وقالوا له: قـد أعـذرك الله، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فقـال: إن بنـيَّ يريـدون أن يحبسـوني عـن الخروج معك، فوالله! إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، فقال له: أمـا أنـت، فقد أعذرك الله، فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «مـا عليكم أن لا تمنعوه، لعل الله

---

(١) رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣١٢) عن محمود بن لبيد.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٥).

فأتت زوجُ عمرٍو هندُ بنتُ عمرِو بن حرام، وحملتهم: زوجَها وابنَها وأخاها على بعير لتدفنهم بالمدينة، فنهى عليه الصلاة والسلام عن الدفن خارج أحد، فرجعوا.

يرزقه الشهادة»[1]، فأخذ سلاحه وخرج، وأقبل على القبلة وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني خائباً إلى أهلي، فقُتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده! إن منكم من لو أقسم على الله لأبرّه، منهم عَمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ الجنة بعرجته»[2]؛ أي: كشف له عن حاله يوم القيامة. اهـ[3].

قوله: (لتدفنهم بالمدينة): قال الحلبي: حملتهم هند على بعير لها تريد أن تدفنهم بالمدينة، فلقيتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقد خرجت في نسوة يستروحن الخبر، فقالت لها عائشة ـ رضي الله عنها ـ: جاء خبر الجيش؟ فقالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصالح، وكل مصيبة بعده جَلَل، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ثم قالت لها: من هؤلاء؟ قالت: أخي عبدالله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنهم ـ، فبركُ بهم البعير، وصار كلما توجه إلى المدينة يبرك، وإن وجه إلى أرض أحد، نزع، فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته، فقال: «إن الجمل مأمور»، فقبرهم بأحد، وقال لهند: «يا هند! ما زالت الملائكة مظلةً على أخيك من لَدُنْ قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن». اهـ[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٩) عن أشياخ من بني سلمة.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٠٢٤) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٢٨).

وقتل سعدُ بن الربيع، وأرسل عليه الصلاة والسلام مَن يأتيه بخبره، فوجده بين القتلى، وبه رمق، فقيل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنك، فقال لمُبلغه: قُل لقومي: يقولُ لكم سعدُ بن الربيـع: الله الله وما عاهدتم عليه رسوله ليلة العقبة، فو الله! ما لكم عند الله عذر.

قوله: (وقتل سعد بن الربيع): في الحلبي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل من رجل ينظر إلى ما فعل سعدُ بنُ الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فإني رأيت الأسنة قد أُشرعت إليه»، فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله، فقال للمرسل: «إن رأيت سعد بن الربيع، فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تجدك؟» فنظر فوجده جريحاً وبه رمق ـ أي: بقيت روحه ـ فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: أنا في الأموات، قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وإني قد أنفذت مقاتلي، فأبلغْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيّاً عن أمته، وأبلغْ قومَك عني السلام، وقل لهم: إن سعدَ بنَ الربيع يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره[1].

وفي رواية قال له ما ذكره المؤلف هنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحمه الله، نصح لله ورسوله حيّاً وميتاً». اهـ[2].

---

(١) أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢/ ٥٩٠) عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ. ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٨٥) عن محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن المازني أحد بني النجار مختصراً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٢)، والخبر المذكور رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٤١٤) عن يحيى بن سعيد.

وقُتل أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك؛ فإنه لما سمع بقتل رسول الله قال: يا قوم! ما تصنعون بالبقاء بعده؟ موتوا على ما مات عليه إخوانكم، فلم يزل يقاتل حتى قُتل ـ رضي الله عنه ـ.

ومَثَّلتْ قريش بقتلى أُحُد، حتى إن هنداً زوجَ أبي سفيان بقرت بطنَ حمزة، وأخذت كبده لتأكلها، فلاكتها ثم أرسلتها، وفعلوا قريباً من ذلك بإخوانه الشهداء. ثم إن أبا سفيان صَعِد الجبل، ونادى بأعلى صوته: نِعْمَتْ فعالِ، ....

قوله: (موتوا على ما مات عليه إخوانكم): في الحلبي: قال لهم: موتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كما قال المؤلف كان سمع بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ ثم إنه استقبل القوم، وقال لسعد بن معاذ: هذه الجنة وربِّ الكعبة أجدُ ريحها دون أحد، وقاتل ـ رضي الله عنه ـ حتى قُتل، ووجدوا فيه بضعاً وثمانين جراحة؛ ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ولما قُتل، مثل به المشركون، فما عرفته أختُه إلا ببنانه، قال ابن أخيه أنسُ بنُ مالك ـ رضي الله عنه ـ: لما نزل قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣] الآية، قلنا: إن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين ـ رضي الله عنهم ـ. اهـ[1].

قوله: (نعمت فعال): صوابه: أنعمتْ؛ كما في ابن هشام والحلبي والدحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩).

إن الحربَ سِجالٌ، يومٌ بيوم بدر، وموعدكم بدر العام المقبل، ثـم قـال: إنكم ستجدون في قتلاكم مُثْلَةً لم آمر بها ولم تَسُؤْني.

ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة، ولم يُعَرِّجوا على المدينة، وهـذا مما يدل على أن المسلمين لم ينهزموا في ذلكَ اليوم، وإلا، لم يكن بـدٌّ مـن تعقب المشركين لهم حتى يُغِيروا على مدينتهم. ثم تفقَّد عليه الصلاة والسلام القتلى، وحزن على عمه حمزة حزناً شديداً، ودفن الشهداء كلهم بأُحُد، . . .

قال الدحلاني: وهـو بسكون التاء؛ أي: أجابـت بنعم في فعلهـا البـالغ، فـ (فعالِ) معدول عن فاعلة صـيغة مبالغـة؛ يعنـي: بالغـت هـذه الفعلـة ـ يعنـي: الوقعة ـ. اهـ[1].

وقوله: (إن الحرب سـجال. . .) إلـخ: تتمـة العبـارة كمـا فـي الحلبـي والدحلاني: حنظلة بحنظلة، يوم أحد بيوم بدر، اعْلُ هُبَل[2].

وسبب قوله ذلك: أنه حين أراد الخروج، كتب على سهم: نعـم، وعلـى الآخر: لا، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم (نعم)، فتوجه إلى أحـد، فلـذا قـال: اعل هبل؛ أي: زد علوّاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ـ رضـي الله عنه ـ: «أجبه»، فقال: الله أعلى وأجل. اهـ[3].

قوله: (ثم إن المشركين رجعوا إلى مكة. . .) إلخ: قال الحلبي: بعث

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٠)، و«السيرة النبوية» لأحمـد ابن زيني دحلان (٢/ ٥٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٥٩)، والخبـر المـذكور رواه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنـه ـ، ورواه البيهقـي في «دلائل النبوة» (٣/ ٢٧٠) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

كل شهيد بثوبه الذي قتل فيه. وكان يدفن الرجلين والثلاثة في لحد واحد؛ لما كان عليه المسلمون من تعب، فكان يشقّ عليهم أن يحفروا لكل شهيد حفرة.

ولما رجع المسلمون إلى المدينة، سخر منهم اليهود والمنافقون، وأظهروا ما في قلوبهم من البغضاء، وقالوا لإخوانهم: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾[آل عمران: ١٥٦][1].

رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ وقيل: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ فقال: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل ـ أي: جعلوها منقادةً بجانبهم ـ وامتطَوا الإبل ـ أي: ركبوا مطاها؛ أي: ظهورها ـ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل، وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده! إن أرادوها، لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزهم». قال علي كرم الله وجهه ـ أو سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة[2]؛ أي: بعد أن تشاوروا في نهب المدينة، فأشار عليهم صفوان بن أمية أن لا تفعلوا، وقال لهم: فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. اهـ[3].

قوله: (وأظهروا ما في قلوبهم): قال الحلبي: صاروا يظهرون أقبح القول، ومنه: ما محمد إلا طالبُ ملك، ما أصيب بمثل هذا نبي قط؛ أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٤٠ ـ ٢٥٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٨ ـ ٥٢٥).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٤٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

وهذا الذي ابتُلي به المسلمون درس مهمٌّ لهم، يذكِّرهم بأمرين عظيمين تركهما المسلمون فأُصيبوا، أولهما: طاعة الرسول في أمره؛ فقد قال للرماة: لا تبرحوا مكانكم إن نحن نُصرنا أو قُهرنا، فعصَوْا أمره ونزلوا. والثاني: أن تكون الأعمال كلها لله غير منظور فيها لهذه الدنيا التي كثيراً ما تكون سبباً في مصائب عظيمة، وهؤلاء أرادوا عَرَض الدنيا، والتهَوا بالغنائم حتى عُوقبوا، وفي ذلك أنزل الله في سورة آل عمران التي فصَّلَتْ غزوة أُحُد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ..........................

واستأذنه صلى الله عليه وسلم عمرُ في قتل هؤلاء المنافقين، فقال: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قال: بلى، ولكن تعوذاً من السيف، فقد بان أمرهم، وأبدى الله تعالى أضغانهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «نُهيت عن قتل من أظهر ذلك». اهـ[1].

قوله في الآية: (﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾)؛ أي: وَعْدَه إياهم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة؛ فإن المشركين لما أقبلوا، جعل الرماة يرشقونهم، والباقي[2] يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم.

(﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾) تقتلونهم، من حَسَّه: إذا أبطل حِسَّه.

(﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾): جَبُنْتُم وضعف رأيكم، أو مِلْتم إلى الغنيمة؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٤٩)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١١٣ ـ ١١٤) عن قتادة بمعناه، ولكن في غزوة أخرى.

(٢) في «تفسير البيضاوي»: «والباقون».

وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٥٢]. فسبب هذا الابتلاء التنازع، فينبغي الاتفاق، والفشل، فينبغي الثبات، والعصيان، فينبغي طاعة الرئيس، نسأل الله التوفيق.

غزوة حمراء الأسد

فإن الحرص من ضعف العقل.

(﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾): يعني: اختلافَ الرماة حين انهزم المشركون، فقال بعضهم: فما موقفنا هاهنا؟ وقال آخرون: لا نخالف أمر الرسول، فثبت مكانه أميرُهم في نفر دون العشرة، ونفر الباقون للنهب، وهو المعني بقوله: ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، وهو امتحنكم.

(﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾): وهم التاركون المركز للغنيمة.

(﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾): وهم الثابتون محافظةً على أمر الرسول عليه السلام.

(﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾): ثم كفكم عنهم حتى حالت الحال فغلبوكم.

(﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾) على المصائب، ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها.

(﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾) تفضلاً، ولِما علم من ندمهم على المخالفة.

(﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾) يتفضل عليهم بالعفو. اهـ. بيضاوي[1].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

لما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، أصبح حَذِراً من رجوع المشركين إلى المدينة ليتمموا انتصارهم، . . . .

قوله: (أصبح حذراً من رجوع المشركين): قال السيد الدحلاني: قال الواقدي: باتت وجوه الأنصار على بابه صلى الله عليه وسلم خوفاً من كثرة العدو، فلما طلع الفجر، وأذن بلال بالصلاة، جاء عبدُالله بنُ عمرٍو المزنيُّ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد أقبل من عند أهله بِمَلَلٍ ـ اسم موضع قرب المدينة ـ إذا قريش قد نزلوا، فسمعهم يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم، ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي، وصفوانُ بن أمية يأبى ذلك عليهم، ويقول: لا تفعلوا؛ فإن القوم قد غضبوا، وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف عن الخروج، فارجعوا والدولة لكم؛ فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أرشدهم صفوان، وما كان برشيد»[(١)].

وحينئذ دعا صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فذكر لهما ما أخبر به المزني، فقالا: يا رسول الله! اطلب العدو، لا يقتحمون على الذرية ـ أي: يدخلون ـ، فلما صلى الصبح، ندب الناس، وأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج[(٢)].

ثم قال: روى النسائي والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما رجع المشركون عن أحد، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، بئسَ ما صنعتم، ارجعوا، فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فندب المسلمين فانتدبوا، فخرج بهم[(٣)].

---

(١) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٥٥٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٤)، والخبر المذكور =

فنادى في أصحابه بالخروج خلف العدو، وألّا يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرح، فضمَّدوا جراحاتهم، وخرجوا واللواءُ معقودٌ لم يُحَلَّ، فأعطاه عليَّ بنَ أبي طالب، وولى على المدينة ابنَ أم مكتوم، ثم سار الجيش حتى وصلوا حمراءَ الأسد، وقد كان ما ظنه الرسول صلى الله عليه وسلم حقاً؛ فإن المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر، . . . . . .

قوله: (وأن لا يخرج إلا من خرج معه بالأمس): قال الدحلاني: أراد بذلك إظهارَ الشدة للعدو، فيعلمون من خروجهم مع كثرة جراحاتهم أنهم على غاية من القوة والرسوخ في الإيمان وحبِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وأراد أيضاً الزيادة في تعظيم من شهد أحداً، وأيضاً: خاف اختلاط المنافقين بهم، فيمنون عليهم بخروجهم معهم، وهم مسلمون ظاهراً، فلا يمكنه منعهم. اهـ[1].

قوله: (القرح): الجراح: ـ بفتح القاف وضمها ـ، وقيل: القَرح ـ بالفتح ـ: الجراح، ـ وبالضم ـ: ألم الجراح.

قوله: (فضمدوا جراحاتهم)؛ أي: شدوها بالضمادة، وهي العصابة، و(ضمد) من باب ضرب.

قوله: (شن الغارة): في «القاموس»: شن الغارة عليهم: صبها من كل وجه. اهـ[2].

= رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٦٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٢١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز، وهو ثقة.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شنن).

فأصرّوا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروجُ الرسول صلى الله عليه وسلم في أثرهم، ظنوا أنه قد حضر معه مَنْ لم يحضر بالأمس، . . . .

قوله: (ولكن لما بلغهم خروجُ الرسول صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ:

قال الدحلاني: قال ابن إسحاق: إن النبي صلى الله عليه وسلم لقي بحمراء الأسد معبدَ بنَ أبي معبدٍ الخزاعيَّ، وهو يومئذ مشرك، وأسلم بعدُ ـ رضي الله عنه ـ، وكان بنو خزاعة عَيبةَ نصح للنبي صلى الله عليه وسلم، مسلمُهم وكافرُهم، كلهم يحبونه صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد! والله! لقد عز علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله أعلى كعبك، وأن المصيبة كانت لغيرك، ثم مضى حتى أتى أبا سفيان وأصحابه وهم بالروحاء، وقد أجمعوا على الرجوع، وقالوا: أصبنا في أحد أصحاب محمد وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ عليهم فلنفرغَنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك؟ قال: محمد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثلَه قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويلك! ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل، قال: لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك، فملئوا رعباً من ذلك، ورجعوا إلى مكة. اهـ[1].

والعيبة ـ بفتح العين والباء وسكون الياء ـ. في «القاموس»: العيبة: زبيل من أَدَم، وما يجعل فيه الثياب، ومن الرجل: موضع سره[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٤ ـ ٧٥)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦) من طريق ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عيب).

وألقى الله الرعب في قلوبهم، فتمادوا في سيرهم إلى مكة، وظفر عليه الصلاة والسلام وهم في حمراء الأسد بأبي عزة الشاعر، الذي مَنَّ عليه ببدر بعد أن تعهد ألّا يكون على المسلمين، فأمر بقتله، فقال: يا محمد! أقلْني، وامنُن عليّ، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألّا أعود لمثل ما فعلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا والله! لا تمسح عارضيك بمكة تقول: خدعتُ محمداً مرتين، لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين، . . . .

والمعنى هنا: أن أفئدتهم ممتلئة نصحاً.

قوله: (فتمادوا في سيرهم. . .) إلخ؛ أي: أبعدوا فيه.

قوله: (وظفر عليه السلام. . .) إلخ: سبب الظفر به: أن المشركين لما نزلوا بحمراء الأسد، تركوه نائماً، فاستمر حتى ارتفع النهار، وكان الذي أخذه عاصم بن ثابت، وما أسر أحد من المشركين غيرُه في تلك الوقعة، وقيل: أسره عمير بن عبدالله. اهـ[1].

قوله: (والله لا تمسح عارضيك): العارض: الشعر الذي ينبت على عرض اللحية فوق الذقن.

ويظهر أنه كانت عادة العرب إذا أراد أن يحدث أحدهم حديثاً على طريق التفاخر والمباهاة، مسح عارضيه بيده، والمعنى ـ والله أعلم ـ: إني قاتلك لا محالة، ولا أدع لك مجالاً لأن تمسح عارضيك وتقول متفاخراً: خدعت محمداً مرتين.

قوله: (لا يلدغ المؤمن. . .) إلخ: وفي رواية: «لا يلسع»[2]؛ أي: لا يدهى المؤمن من جهة واحدة مرتين؛ فإنه بالأولى يعتبر.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٤).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٢٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

اضرب عنقه يا زبير»[1]، فضرب عنقه، وفي هذا تأديب عظيم من صاحب الشرع الشريف؛ فإن الرجل الذي لا يحترز مما أُصيب منه ليس بعاقل، فلا بدّ من الحزم لإقامة دعائم المُلْك[2].

حوادث [السنة الثالثة]

وفي هذه السنة زوَّج عليه الصلاة والسلام بنته أُم كلثوم لعثمانَ بنِ عفانَ بعد أن ماتت رقيةُ عنده، ولذلك كان يُسَمَّى: ذا النورين.

وفيها تزوَّج عليه الصلاة والسلام حفصةَ بنتَ عمر بن الخطاب، . . . .

قال الحلبي: والمعنى: أنه ينبغي للمرء أن يستعمل الحزم، وهذا المثل لم يسمع من غيره صلى الله عليه وسلم، ومورده: أن شخصاً جرد سيفه وقصد النبيَّ صلى الله عليه وسلم فضربه ليقتله، فأخطأت الضربة، فقال: كنت مازحاً يا محمد، فعفا عنه، ثم عاد لمثل ذلك مرة أخرى، وقال مثل ذلك، فأمر صلى الله عليه وسلم بقتله، وقال: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». اهـ[3].

حوادث [السنة الثالثة]

قوله: (وتزوج عليه السلام حفصة. . .) إلخ: قال الحلبي: كان ذلك في شعبان من السنة الثالثة لما انقضت عِدةُ وفاة زوجها خنيس بن حذافة من شهداء بدر بعد أن عرضها عمر على أبي بكر فلم يجبه لشيء، وعرضها على عثمان فلم

---

(١) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٥٥) عن أبي عبيدة بنحوه.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٧)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥)، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وأُمُّها أختُ عثمانَ بنِ مظعون، وكانت قبله تحت خُنيسِ بنِ حذافةَ السهميِّ ـ رضي الله عنه ـ، فتوفي عنها بجراحة أصابته ببدر، وفيها تزوج عليه الصلاة والسلام زينبَ بنتَ خزيمة الهلاليةَ من بني هلال بن عامر، كانت تدعى في الجاهلية: أُم المساكين؛ لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبدالله ابن جحش، فقُتل عنها بأُحُد، وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها.

يجبه لشيء، فقال عمر: يا رسول الله! قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان»، فتزوج عثمان أم كلثوم، وتزوج صلى الله عليه وسلم حفصة. اهـ[1].

وخنيس: ـ بضم الخاء وفتح النون ـ، وحذافة: ـ بضم الحاء ـ.

قوله: (وأمها أخت عثمان بن مظعون): تقدم ذكر وفاة عثمان ـ رضي الله عنه ـ في السنة الأولى، وهو أخوه صلى الله عليه وسلم من الرضاعة.

قوله: (خنيس بن حذافة): قال العلامة الجبريني: هو ـ بخاء مضمومة ونون مفتوحة ـ، وحذافة ـ بحاء مهملة مضمومة ـ كان من السابقين، هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى المدينة، وشهد بدراً، وأصابته جراحة يوم أحد، فمات منها بالمدينة، وقيل: بعد بدر، وجزم ابن سعد بأنه مات بعد قدومه عليه السلام المدينةَ من بدر، وبه جزم ابنُ سيد الناس. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (عبدالله بن جحش): وهو من البدريين.

قال العلامة الجبريني في «شرح أسماء أهل بدر»: إنه كان من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وكان

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ص: ٢٤).

وفيها ولد الحسن بن علي ـ رضي الله عنهما ـ[1].

وفيها حُرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج؛ لِما كان عليه العرب من المحبة الشديدة لها، فيصعب إذاً تحريمُها دفعة واحدة، وكان ذلك التحريم تابعاً لحوادث تُنَفِّر عنها؛ لأن المنكر إذا أُسند تحريمُه لحادثةٍ أَقرّ الجميع على تقبيحها، كان ذلك أشدّ تأثيراً في النفس.

يعرف بالمُجَدَّع في الله؛ لأنه مُثل به يوم أحد، وقطع أنفه وأذنه، وذلك أنه قال لسعد بن أبي وقاص يوم أحد: ألا تأتي فندعوَ الله عز وجل؟ فخلَوَا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب! إذا لقيت العدو غداً، فلقِّني رجلاً شديداً بأسُه، شديداً حَرَدُه ـ أي: غضبه ـ فأقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر فأقتله، وآخذ سلبه، فأمَّنَ عبدالله بن جحش، ثم قال عبدالله بن جحش: يا رب! ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله فيك، فيقتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتُك قلتَ: يا عبدالله! فيما جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد: كانت دعوة عبدالله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقان في خيط، ودفن هو وحمزة في قبر واحد. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (وفيها حرمت الخمر، وكان تحريمها بالتدريج): قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية: نزلت في الخمر أربع آيات: نزل قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣، ٣/ ٥٠٠).

(٢) انظر: «شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ص: ٤٧)، والخبر المذكور أورده محب الدين الطبري في «ذخائر العقبى» (ص: ٢٥٤ ـ ٢٥٥) عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

فأولُ ما بُيِّن فيها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢١٩] . . . .

وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾[النحل: ٦٧]، وكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم، ثم إن عمراً ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: يا رسول الله! أفتنا في الخمر، فإنها مذهبة للعقل، مسلبة للمال، فنزل فيها قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة: ٢١٩]، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فقام بعضهم يصلي فقرأ: (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون)، فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، فقل من شربها، ثم اجتمع قوم من الأنصار، وفيهم سعد بن أبي وقاص، فلما سكروا، افتخروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصار، فضربه أنصاري بلَحْي بعير، فشجه شجة موضحة، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩١]، فقال عمر: انتهينا يا رب.

قال القفال ـ رحمه الله ـ: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب: أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعةً واحدة، لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج، وهذا الرفق[1].

قوله: (﴿وَٱلْمَيْسِرِ ۖ﴾): هو القمار.

قوله: (﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾): قال الفخر: الإثم الكبير فيه أمور:

أحدها: أن عقل الإنسان أشرفُ صفاته، والخمر عدوُّ العقل، وكل من

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٣٥).

فمنفعة الميسر التصدق بربحه على الفقراء كما كانت عادة العرب، ومنفعة الخمر تقوية الجسم، ولما شربها بعض المسلمين وخلَّط في القراءة حُرِّمت الصَّلاة على السكران، فقال تعالى في سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[النساء: ٤٣]، ولما حدثَ من شربها اعتداء بعض المسلمين على إخوانهم، حُرِّمت قطعياً بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ . . . .

كان عدو الأشرف فهو أخس، فيلزم أن يكون شرب الخمر أخسَّ الأمور.

وثانيها: ما ذكره الله تعالى من ايقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة.

وأطال الكلام ثمةَ، ومما قاله بالجملة: فالخمر يزيل العقل، وإذا زال العقل، حصلت القبائح بأسرها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الخمر أم الخبائث»[1].

وأما الميسر، فالإثم فيه أنه يفضي إلى العداوة أيضاً، ولأن صاحبه إذا أخذ ماله مجاناً أبغضه جداً، وهو أيضاً يشغل عن ذكر ربه وعن الصلاة.

وأما المنافع في الخمر، فإنها تقوي البدن، وتسلي المحزون، وتشجع الجبان، وكانت مورد تجارة لهم، وأما المنفعة التي كانت لهم من الميسر؛ فلأن ما يحصِّله أحدُهم ولو كان مئة بعير، كان يصرفه إلى المحتاجين، فيكتسب منه المدح والثناء[2].

قوله: (﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾) إلخ الآية: أكد تحريم الخمر والميسر من وجوه، حيث صدر الجملة بـ (إنما)، وقرنها بعبادة الأصنام، ومنه الحديث:

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٤٧) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٦/ ٤٠ ـ ٤١).

﴿وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[المائدة: ٩٠ ـ ٩١](١).

وقد أجاب المسلمين على ذلك بقولهم انتهينا، فليجب المسلمون الآن.

«شارب الخمر كعابد الوثن»(٢)، وجعلهما من عمل الشيطان، ولا يأتي منه إلا الشر البحت، وأمر بالاجتناب، وجعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً، كان الارتكاب خساراً.

وقوله: (﴿رِجْسٌ﴾)؛ أي: نجس، أو خبيثٌ مستقذر.

وقوله: (﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾) يعني: من تزيينه وإغوائه ودعائه إياكم إليها، وليس المراد أنها من عمل يديه.

وقوله: (﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾) الضمير يرجع إلى الرجس، أو إلى عمل الشيطان، أو إلى المذكور.

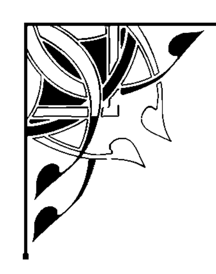
وإنما جمع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام أولاً، ثم أفردها آخراً؛ لأن الخطاب مع المؤمنين، وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطَوْنه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام؛ لتأكيد تحريم الخمر والميسر، وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال أهل الشرك، فكأنه لا مباينة بين عابد الصنم وشارب الخمر والمقامر، ثم أفردهما بالذكر؛ ليعلم أنهما المقصود بالذكر. اهـ. نسفي وخازن(٣).

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي ٢/ ٥٥٦.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٢٣٨٢) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٧٠): وفيه فطر بن خليفة، وهو ثقة، وفيه كلام لا يضر.

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (١/ ٣٠٠ ـ ٣٠١)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٧٥ ـ ٧٦).




السَّنة الرَّابعة

سرية [أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد]

في بدء السنة الرابعة بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن طُليحة وسلمة ابنَي خويلدٍ الأسديين يدعوان قومَهما بني أسد لحربه عليه الصلاة والسلام، فدعا أبا سلمةَ بنَ عبد الأسد المخزومي، وعقدَ له لواءً، وقال له: «سِرْ حتى تنزل أرضَ بني أسدِ بنِ خزيمةَ، فَأَغِرْ عليهم»، وأرسلَ معه رجالاً، فسار في هلال المحرم حتى بلغ قَطَناً، فأغار عليهم، فهربوا من منازلهم، ووجد أبو سلمة إبلاً وشاءً فأخذها، ولم يَلْقَ حرباً، ورجع بعد عشرة أيام من خروجه(١).

السنة الرابعة

سرية

قوله: (وأرسل معه رجالاً): قال السيد الدحلاني: كان معه مئة وخمسون رجلاً من المهاجرين والأنصار، منهم: أبو عبيدة، وسعد، وأسيد بن حضير، وأبو نائلة(٢).

قوله: (حتى بلغ قطناً) قال الدحلاني: قطن ـ بفتح القاف والطاء وبالنون ـ: جبل بناحية فَيْد ـ بفتح الفاء وسكون الياء وبالدال المهملة آخره ـ، وهو اسم ماء

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٢٠) عن سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة من ولد أبي سلمة بن عبد الأسد، وغيره أيضاً، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٧).

سرية [عبدالله بن أُنيس الجهني]

وفي بدئها أيضاً بلغه عليه الصلاة والسلام أن سفيان بن خالد بن نُبَيْح الهُذلي المقيم بعُرَنَة يجمع الجموعَ لحربه، فأرسل له عبدَالله بنَ أُنَيْسٍ الجهني وحدَه ليقتله، فاستأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يَتَقَوَّلَ حتى يتمكن، فأذن له، وقال: «انتسب لخزاعة»، فخرج لخمسٍ خَلَونَ من المحرم، ولما وصل إليه، قال له سفيان: ممّن الرجل؟ قال: من خُزاعة، سمعتُ بجمعك لمحمد، فجئت لأكون معك، فقال له: أجل، إني لفي الجمع له، فمشى عبدالله معه، وحدَّثه وسفيانُ يستحلي حديثه، فلما انتهى إلى خِبائه، تفرق الناس عنه، فجلس معه عبدالله حتى نام، فقام وقتله، ثم ارتحل حتى أتى المدينة، ولم يلحقه الطلب، وكفى الله المؤمنين القتال[1].

لبني أسد بنجد. اهـ[2].

سرية

قوله: (يجمع الجموع): قال الدحلاني: لما بلغه صلى الله عليه وسلم أنه جمع الجموع لحربة، قال لعبدالله: «ائته فاقتله»، فقال: صفه لي يا رسول الله حتى أعرفه، قال: «إذا رأيته هِبْتَه وفرقْتَ منه، ووجدتَ له قشعريرة، وذكرتَ الشيطان»، قال عبدالله: وكنت لا أهاب الرجال، فقلت: يا رسول الله! ما فرقت من شيء قط! فقال: «آية ما بينك وبينه ذلك»، واستأذنته أن أقول، فقال: «قل ما بدا لك»، وقال: «انتسب لخزاعة».

فأخذت سيفي، وخرجت أعتزي لخزاعة، فلما وصلت إليه بعرنة، لقيته

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٥٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٦ ـ ٧٧).

يمشي ووراءه الأحابيش، فهبتُه وعرفته بنعت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: صدق الله وصدق رسوله، وقد دخل وقت العصر حين رأيته، فصليت وأنا أمشي وأومئ برأسي إيماءً، ثم دنوت منه، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، فجئت لأكون معك، قال: أجل إني لفي الجمع له، فمشيت معه وحدثته، فاستحلى حديثي، فقلت له: عجباً لما أحدَثَ محمدٌ من هذا الدين المحدث، فارقَ الآباء، وسفَّه أحلامهم، قال: إنه لم يلق أحداً يشبهني.

ثم مشيت معه وهو يتوكأ على عصاً يهدّ الأرض حتى انتهى إلى خبائه، وتفرق عنه أصحابه إلى منازل قرية منه وهم يُطيفون به، فقال: هلم يا أخا خزاعة، فدنوت منه، فقال: اجلس، قال: فجلست معه، حتى إذا نام الناس، اغتررته وقتلته، وأخذت رأسه، ثم أقبلت فصعِدْت جبلاً، ودخلت غاراً، وأقبل الطلب وأنا كامن في الغار، وضربت العنكبوت على الغار، وأقبل رجل معه إداوة ضخمة ونعلان في يده، وكنت حافياً، فوضع إداوته ونعليه، وجلس يبول قريباً من الغار، ثم قال لأصحابه: ليس أحد في الغار، فانصرفوا راجعين، فخرجت، فشربت ما في الإداوة، ولبست النعلين، ولم يرني أحد، فطلبهما صاحبهما بعد ذلك فلم يجدهما، فرجع إلى قومه.

وكنت أسير الليل وأتوارى النهار خوفاً من الطلب أن يدركني حتى قدمت المدينة، فوجدته صلى الله عليه وسلم بالمسجد، فقال صلى الله عليه وسلم: «أفلح الوجه»، قلت: أفلح وجهُك يا رسول الله، ووضعت الرأس بين يديه، وأخبرته خبري، فدفع إليّ عصاً، وقال: تخصَّر بها في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل، فكانت العصا عنده، حتى إذا حضرته الوفاة، أوصى أن يدرجوها في أكفانه، ففعلوا[1].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٠) بنحوه.

سرية [عاصم بن ثابت الأنصاري]

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال عيوناً على قريش، مع رهط عَضَل والقَارَةِ، الذين جاؤوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يطلبون من يفقِّههم في الدين، وأمَّر عليهم عاصمَ بنَ ثابتٍ الأنصاري، فخرجوا يسيرون الليل ويكمنون النهار، حتى إذا كانوا بالرَّجيع، غدر بهم أولئك الرهط، ودلُّوا عليهم هذيلاً قومَ سفيانَ بنِ خالد الهذلي الذي كان قتله عبدُالله بنُ أنيس، . . . .

والتخصُّر: الاتكاء على قضيب ونحوه.

قال موسى بن عقبة: وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقتل عبدالله ابنِ أنيس لسفيان بن خالد قبل قدوم عبدالله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ. اهـ[1].

السرية المسماة بيوم الرجيع

قوله: **(سرية)**: عنونها ابنُ هشام بـ: ذكر يوم الرجيع، وقال: إنها كانت سنة ثلاث[2].

القصة أيضاً مبسوطة في الخازن نقلاً عن الإمام البخاري[3].

قوله: **(أرسل عليه الصلاة والسلام عشرة رجال)**: سبب إرساله هذه السرية: أن بني لحيان من هذيل بعد قتل سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي مشوا إلى عضل والقارة، وهما قبيلتان من بني الهُون بن خزيمة، فجعلوا لهم إبلاً أن يكلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج إليهم نفراً من أصحابه، فقدم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٧ ـ ٧٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٢٢).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (١/ ١٣٧)، والخبر المشار إليه رواه البخاري (٤٠٨٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

فنفروا إليهم فيما يقرب من مئتي رامٍ، واقتفَوْا آثارهم حتى قربوا منهم، فلما أحسَّ بهم رجال السرية، لجؤوا إلى جبل هناك، فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهدُ ألّا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم، . . . . . .

سبعة نفر مظهرين الإسلام، فقالوا: يا رسول الله! إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث معهم ستة من أصحابه ـ وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية، وفي البخاري: كانوا عشرة[1]، كما ذكره المؤلف هنا ـ وأمّر عليهم عاصمَ بنَ ثابت، وقيل: مرثدَ بن أبي مرثد، وتمامه في الدحلانية[2].

وهذه العبارة أوضحُ من عبارة المؤلف وأولى؛ لأن من أولها يستفاد أن مجيء هؤلاء كان مكراً وخديعة، بخلاف عبارة المؤلف، فإن ذلك لا يستفاد إلا من آخرها، وعاصمُ بن ثابت هو جدُّ عاصمِ بن عمر بن الخطاب.

قوله: (لجؤوا إلى الجبل): الذي في الدحلانية: لما أتتهم رجال هذيل، وهم نحو مئتي رجل، أخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم[3].

قوله: (فقال لهم الأعداء: انزلوا ولكم العهد. . .) إلخ: قال الدحلاني: إنهم قالوا لهم ذلك لأنهم يريدون أن يسلموهم لكفار قريش، ويأخذوا في مقابلتهم مالاً؛ لعلمهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يؤتَوا بأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يمثلون به ويقتلونه بمن قُتل منهم ببدر وأُحد[4].

قوله: (فنزل إليهم ثلاثة): هم خُبيب بن عديّ الأوسيُّ، وزيدُ بنُ الدَّثِنَة وعبدالله بن طارق.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٧٩).

وقاتلهم الباقون، ومعهم عاصمٌ غيرَ راضين بالنزول في ذمة مشرك. ولما رأى الثلاثة الذين سلَّموا عينَ الغدر، امتنع أحدُهم فقتلوه، وأما الاثنان، فباعوهما بمكة ممّن كان له ثأر عند المسلمين، وهناك قُتِلا. وقد قال أحدهما، وهو خُبيب بنُ عديّ حين أرادوا قتله:

قوله: (وقاتلهم الباقون): هم عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وقد قاتلوا حتى قتلوا، ولم يذكر ذلك المؤلف، وكان الأولى ذكره.

قوله: (امتنع أحدهم حتى قتلوه): هو عبدالله بن طارق، فإنه قال لهم: لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء ـ يعني القتلى ـ أسوةً، فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه.

قوله: (وأما الاثنان...) إلخ: هما خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وقد باعهما جامع وزهير الهذليان بأسيرين من هذيل بمكة، وقيل: باعوا خبيباً بأمةٍ سوداء، والذي اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل؛ لأن خبيباً هو الذي قتل عامر ابن نوفل يوم بدر، واشترى زيدَ بن الدثنة صفوانُ بن أمية، وكان شراؤهما في ذي القعدة، فحبسوهما حتى خرجت الأشهر الحرم، فقتلوا زيداً وخبيباً. اهـ. دحلاني[1].

قال الزرقاني في «شرح المواهب»: روي أن قريشاً طلبوا جماعة ممن قتل آباؤهم وأقرباؤهم ببدر، فاجتمع أربعون بأيديهم الرماح والحراب، وقالوا لهم: هذا الرجل قتل آباءكم، فطعنوه بالرماح والحراب، فتحرك على الخشبة، فانقلب وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته، فلم يستطع أحد أن يحوله[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٢/ ٤٨٩).

وَلَسْتُ أُبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أَيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ على أَوصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[1]

قوله: (أوصال شلو ممزع) الأوصال: المفاصل، أو مجتمَع العظام[2].

والشلو ـ بالكسر ـ: الجسد من كل شيء[3].

وممزع: مفرق، والتمزيع: التفريق. اهـ. قاموس[4].

قال الدحلاني: قد ذكر ابنُ إسحاق زيادة في الشعر المتقدم، وكذا الواقدي وغيره، وهذا لفظهم:

لقد جمع الأحزابُ حولي وأَلَّبُوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مجمَعِ
وكلُّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ ... عليَّ لأني في وثاقٍ مضيع
وقد جَمَّعوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبت من جذعٍ طويلٍ ممنَّعِ
إلى الله أشكو غُربتي ثم كُربتي ... وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شلوٍ ممزع
وقد خيروني[5] الكفرَ والموتُ دونَه ... وقد هَمَلَتْ عيناي من غير مجزَعِ
وما بي حذار الموتِ إني لميتٌ ... ولكنْ حذاري جَحْمُ نارٍ ملفع
ووالله ما أخشى إذا مت مسلماً ... على أي جنب كان في الله مضجعي
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشعاً ... ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

(١) رواه البخاري (٣٠٤٥، ٣٩٨٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.
(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: وصل).
(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شلو).
(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مزع).
(٥) في الأصل: «خيروا في»، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٠).

سرية [القُرَّاء]

وفي صَفَر وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو براء[1] عامرُ. . .

قال الحافظ ابن حجر: وفي هذا: إنشادُ الشعر عند الموت، وقوة نفس خبيب، وشدة قوته في دينه[2].

وكان خبيب هو الذي سَنَّ لكل مسلم قُتل صبراً الصلاةَ؛ لأنه فعل ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فاستحسن ذلك من فعله، وأخبر صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك.

وعن عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أرادوا قتل خبيب، ووضعوا فيه السلاح والرماح والحراب وهو مصلوب، نادَوْه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله! ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه[3].

وقيل: إن زيدَ بنَ الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله، فأجابهم بمثل ذلك، فقال أبو سفيان ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً. اهـ. ملخصاً[4].

سرية

قوله: (سرية): تسمى هذه السرية: سريةَ بئر معونة، وسريةَ القراء، وسرية المنذر بن عمرو؛ لأنه كان رئيسها، وكانت على رأس سنة وثلاثين شهراً من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أُحُد.

قوله: (أبو عامر)[5] الصواب: أبو براء عامرُ بنُ مالكٍ كما في الدحلاني

---

(١) سقطت من «نور اليقين» (المطبعة الجامعة)، والمثبت من طبعة دار الإيمان.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٣٨٥).

(٣) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٣٨٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٢ ـ ٨٣)، وقول أبي سفيان رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٣٤٣).

(٥) تقدمت الإشارة إلى السقط الحاصل في نسخة المتن.

ابنُ مالكٍ مُلاعِبُ الأسِنّة، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه عليه الصلاة والسلام إلى الإسلام، فلم يُسْلم ولم يبعد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، ولو بعثتَ معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني أخشى عليهم أهلَ نجد». فقال أبو براء عامر: أنا لهم جار[1].

فأرسل معه المنذرَ بنَ عمرٍو في سبعين من أصحابه كانوا يُسَمَّون: القرَّاء؛ لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، . . . .

وابن هشام[2].

قوله: (أنا لهم جار)؛ أي: هم في ذمامي وعهدي وجواري. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (كانوا يسمون: القراء): عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: كانوا يشترون الطعام لأهل الصفة، ويأتون به إلى حُجَر أزواجه صلى الله عليه وسلم، ويتدارسون القرآن بالليل ويصلون. اهـ. دحلاني[4].

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٧) عن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيره من أهل العلم.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٧).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥)، والخبر المذكور رواه مسلم (٦٧٧) بلفظ: فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القراء، فيهم خالي حرام، يقرؤون القرآن، ويتدارسون بالليل، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، فبعثوا حَرَام بنَ مِلحان بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيدِ بني عامر، فلما وصل إليه، لم يلتفت إلى الكتاب، بل عدا على حَرَام فقتله، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابَه من بني عامر، فلم يرضوا أن يخفروا جوارَ ملاعبِ الأسنة، فاستصرخ عليهم قبائلَ من بني سُليم، وهم رِعْلٌ وذَكوان. . . . .

قوله: (عامر بن الطفيل): قال الدحلاني: هو ابن أخي أبي براء، ومات كافراً بالإجماع، وليس هو عامر بن الطفيل الأسلمي الصحابي ـ رضي الله عنه ـ[(١)].

قوله: (بل عدا على حرام فقتله): قال الدحلاني: وفي رواية الطبري: فخرج حرام فقال: يا أهل بئر معونة! إني رسولُ رسولِ الله إليكم، فآمِنوا بالله ورسوله، فخرج رجل برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر[(٢)].

وفي الصحيح: فجعل يحدثهم، فأومؤوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه بالرمح، فقال: الله أكبر، فزتُ وربِّ الكعبة[(٣)].

قال ابن إسحاق: وهذا الذي طعنه هو عامرُ بن الطفيل. اهـ[(٤)].

قوله: (أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة)؛ أي: ينقضوا عهده وذمامه.

قوله: (سُليم): ـ بضم السين وفتح اللام ـ.

وقوله: (رعل وذكوان): هما قبيلتان من سليم، و(رعل): ـ بكسر الراء

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٨٢ ـ ٨٣) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه البخاري (٤٠٩١)، ومسلم (٦٧٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥).

وعُصَيَّة، فأجابوا وذهبوا معه، حتى إذا التقوا بالقرَّاء، أحاطوا بهم، وقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يُجْدِهم نفعاً؛ لقلّة عددهم وكثرةِ عدوهم، ولم ينجُ إلا كعب بن زيد، وقع بين القتلى حتى ظُنَّ أنه منهم، وعمرو بن أمية كان في سَرْح القوم. وَأُبْلِغَ عليه الصلاة والسلام خبرَ القراء، فخطب في أصحابه، وكان فيما قال: «إن إخوانكم قد لَقُوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا بلِّغ قومنا أنّا قد لقينا ربنا، فرضينا عنه ورضي عنّا»[1].

وسكون العين ـ، و(ذكوان): ـ بفتح الذال وسكون الكاف ـ كما ضبطهما في «القاموس» في مادة (رعل)[2].

و(**عُصَيَّة**): ـ بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء ـ.

قوله: (كعب بن زيد)؛ أي: الأنصاري الخزرجي البدري ـ رضي الله عنه ـ؛ فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً بإصابة سهم. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (وعمرو بن أمية)؛ أي: الضمري.

قال ابن إسحاق: كان عمرو في سرح القوم ـ أي: في رعي غنمهم ـ هو ورجل من الأنصار، وهو المنذر بن محمود بن عقبة، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطيرُ تحوم على المعسكر، فقالا: والله! إن لهذه الطير شأناً، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، والخيلُ التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري لعمرو: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فقال

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٩٣، ١٠٢٩٤) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ موقوفاً.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رعل).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

الأنصاري: لكني ما كنت لأرغبَ بنفسي عن موطنٍ قُتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل، وأما عمرو، فأسروه، ثم أخذه عامر بن الطفيل، وجز ناصيته ـ أي: الشعر المجاور لها ـ وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه[1].

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: جاء خبرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام في تلك الليلة، فقال: «هذا سببه عمل أبي براء حيث أخذهم في جواره، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً»، فبلغ ذلك أبا براء، فمات عقب ذلك أسفاً على ما صنع ابنُ أخيه عامرُ بن الطفيل[2].

وقال حسان ـ رضي الله عنه ـ لربيعة بن عامر يحرضه بعامر بن الطفيل بإخفاره ذمة أبي براء:

ألا مَنْ مبلغٌ عني ربيعاً	بما قد أحدث[3] الحِدثان[4] بعدي
أبوك أبو الفعال أبو براء	وخالك ماجدٌ حكمُ بنُ سعدِ
بني أُم البنين ألمْ يَرُعْكُم	وأنتم من ذوائبِ[5] أهلِ نجدِ
تحكم[6] عامرٌ بأبي براءٍ	ليخفرَه وما خطأ كعمدِ

فلما بلغ ربيعةَ هذا الشعر، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أيغسلُ عن أبي هذه الغدرةَ أن أضربَ عامراً ضربة أو طعنة؟ قال:

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٨١) من طريق ابن إسحاق.

(٣) في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١): «فما أَحْدَثْتَ» بدل «بما قد أحدث».

(٤) في هامش الأصل: «الحدثان: بكسر الحاء: نوائب الدهر».

(٥) في هامش الأصل: «من أشرافهم وأعزائهم».

(٦) في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١): «تهكم».

وكان وصول خبر هذه السرية وسرية الرجيع في يوم واحد، فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، وأقام يدعو على الغادرين بهم. . . .

«نعم»، فرجع فضرب عامراً ضربة أشواه بها، فوثب عليه قومُه، فقالوا لعامر: اقتصّ، فقال: قد عفوت. اهـ. دحلاني[1].

وفي «السيرة الهشامية»: قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل، فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه فأشواه، ووقع عن قوسه، فقال: هذا عمل أبي براء، إن أمت فدمي لعمي، فلا يتبعن به، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتى[2].

قوله: (في يوم واحد)؛ أي: ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين في دعاء واحد، ولهذا جمع البخاري القصتين في ترجمة واحدة حتى توهم بعضُهم أنها قصة واحدة، وليس كذلك، اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فحزن عليهم صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ؛ أي: لكونه لم يرسلهم لقتال، إنما هم مبلغون رسالة، وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لا تُقتل.

قوله: (وأقام يدعو على الغادرين. . .) إلخ: قال الزرقاني: لما أصيب أهل معونة، جاءت الحمى إليه صلى الله عليه وسلم، فقال لها: اذهبي إلى رعل وذكوان وعصية، فإنهم عصوا الله ورسوله، فأتتهم، فقتلت منهم سبعمئة رجل،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٦)، والخبر المذكور أورده ابن حجر في «الإصابة» (٢/ ٤٧٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٧)، وانظر: «صحيح البخاري» (٥/ ١٠٣)، وفيه: باب غزوة الرجيع، ورعل، وذكوان، وبئر معونة، وحديث عضل، والقارة، وعاصم بن ثابت، وخبيب وأصحابه.

شهراً في الصلاة[1].

غزوة بني النَّضِير

يا لله! ما أسوأ عاقبةَ الطيش؛ فقد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر، يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور، ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل ليهود بني النضير حلفاءِ الخزرج، الذين كانوا يجاورون المدينة؛ فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كلٌّ منهم الآخرَ، ولكنْ بنو النضير لم يوفوا بهذه العهود حسداً منهم وبغياً.

بكل رجل من المسلمين عشرة، وإنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك في كثير من الأشياء؛ لأنه سبق في علمه تعالى إكرامُهم بالشهادة. اهـ. دحلاني[2].

غزوة بني النضير

قوله: (غزوة بني النضير): قيل: إنها كانت بعد غزوة بدر، وقيل: أُحد، وذهب ابن إسحاق إلى إنها كانت بعد بئر معونة[3]، ورجَّح المحققون من الحفاظ قولَه، قالوا: وكانت في ربيع من السنة الرابعة.

وبنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود ينسبون إلى هارون أخي موسى عليهما السلام، سكنوا مع العرب ودخلوا فيهم. اهـ. دحلاني[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٧ ـ ٨٨). وانظر: «شرح المواهب اللدنية» للزرقاني (٢/ ٥٠٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩).

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضٌ من أصحابه في ديار بني النضير إذِ ائتمرَ جماعة منهم على قتله؛ بأن يأخذ أحدٌ منهم صخرةً ويلقيها عليه من علو، فأُطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم، فرجع وتبعه أصحابه، . . . .

قوله: (فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في ديار بني النضير. . .) إلخ: سبب وجوده في ديارهم مع بعض أصحابه: أن عَمرو بنَ أمية الضمريَّ الذي تقدم ذكره لما عاد من أسره من عند عامر بن الطفيل إلى المدينة، قَتل في طريقه رجلين ذُكرا له أنهما من بني عامر، وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يعلم بذلك، فلما أتى المدينةَ، وأخبرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك، قال له: «لقد قتلتَ قتيلين لأدِيَنَّهما»[1]؛ أي: أُعطي ديتَهما؛ للجوار والعهد الذي عقده لهما.

ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير ليستعين بهم في دية ذينك الرجلين، وكان بين بني النضير وبني عامر عقدٌ وحلف، فيسهل الدفع فيهم لكون المدفوع لهم من حلفائهم، وكان في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وطلحة وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة. دحلاني[2].

قوله: (إذِ ائتمرَ جماعة منهم. . .) إلخ: قال الدحلاني: لما أتاهم عليه السلام يستعينهم في دية القتيلين قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال منفرداً

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٣٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

ثم أرسل لهم محمدَ بنَ مسلمة يقول لهم: «اخرجوا من بلادي؛ فقد هممتم بما هممتم من الغدر»[1]؛ . . . .

ليس معه أحد من أصحابه إلا نحو العشرة، وكان صلى الله عليه وسلم قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم، فقالوا: من يعلو على هذا البيت، فيلقي هذه الصخرة عليه، فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ من السماء مع جبريل بما أراد القوم، فقام عليه الصلاة والسلام مُظهراً أنه يقضي حاجة؛ خوفاً أن يفطنوا له فيؤذوا أصحابه، ولذا ترك أصحابه في مجالسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة.

وبينما بنو النضير على إرادة إلقاء الحجر، إذ جاء رجل من اليهود فقال: ما تريدون؟ فذكروا له الأمر، فقال: أين محمد؟ قالوا: هذا محمد؛ يعنون تحت الجدار، فقال لهم: والله! لقد تركت محمداً داخل المدينة، فسُقِط في أيديهم ـ أي: ندموا ـ وقالوا: قد أُخْبِر بأمرنا.

ثم إن أصحابه صلى الله عليه وسلم استبطؤوه، فقاموا في طلبه، ولما انتهوا إليه قالوا: قمتَ ولم نشعر، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به[2].

قوله: (ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة. . .) إلخ: قال الدحلاني: روى ابن سعد: أن النبي صلى الله عليه وسلم حين هموا بغدره، وأعلمه الله بذلك، نهض إلى المدينة سريعاً، ثم بعث إليهم محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ: أن اخرجوا من بلدي، فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك، ضربت عنقه.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

إذِ الحزمُ كلُّ الحزم ألا يتهاون الإنسانُ مع مَنْ عُرف منه الغدر. فتهيأ القوم للرحيل، فأرسل لهم إخوانُهم المنافقون يقولون: لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١١ ـ ١٢].

فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون، واكترَوْا من أناس من أشجعَ إبلاً، فأرسل إليهم عبدُالله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي من العرب يدخلون حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم شيء، وتمدكم قريظةُ وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حييُّ بنُ أخطبَ فيما قاله عبدالله بن أبي، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك[(١)].

قوله: قوله تعالى: (﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ...﴾) إلخ: الآية في سورة الحشر، وأولها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ الآية.

وقوله: (﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾)؛ أي: في قتالكم وخذلانكم.

(﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾)؛ أي: من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

وقوله: (﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾): لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك، كما قال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا...﴾[الحشر: ١٢] إلخ الآية.

وقوله: (﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾)؛ أي: على الفرض والتقدير.

وقوله: (﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾)؛ أي: يخذلهم الله، ولا ينفعهم نصرة المنافقين

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩١ ـ ٩٢)، والخبر المذكور أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٥٧).

ولكن اليهود طمعوا بهذا الوعد، وتأخروا عن الجلاء، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لقتالهم، فلما اجتمع الناس، خرج بهم، واستعمل على المدينة ابنَ أم مكتوم، وأعطى رايته عليًّا، وأما بنو النضير، فتحصنوا في حصونهم، وظنوا أنهم مانعتُهم من الله، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام ستَّ ليالٍ، ثم أمر بقطع نخيلهم؛ ليكون أدعى إلى تسليمهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب، ولم يروا من عبدالله بنِ أُبَي مساعدةً، بل خذلهم، كما خذل بني قينقاع من قبلهم، . . . .

أو نفاقهم.

وفيه دليل على صحة النبوة، وإعجاز القرآن. اهـ. بيضاوي[1].

قوله: (فتحصنوا في حصونهم)؛ أي: كما قال الله تعالى مخبراً عنهم في سورة الحشر: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾[الحشر: ١٤].

قوله: (ثم أمر بقطع نخيلهم. . .) إلخ: في «السيرة الحلبية»: وعند ذلك قالوا: يا أبا القاسم! قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! ـ وفي رواية: قالوا: يا محمد! زعمت أنك تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطعُ النخل؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟ ـ وقالوا للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد، وأنتم تفسدون، وحينئذ وقع في نفوس بعض المؤمنين شيء، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الحشر: ٥]؛ أي: في قولهم: إن ذلك من الفساد، قال بعضهم: جميع ما قطعوا وحرقوا ست نخلات. اهـ[2].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٤).

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجليهم، ويكفَّ عن دمائهم، وأن لهم ما حملت الإبلُ من أموالهم، إلا آلةَ الحرب، ففعل، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم؛ كيلا يسكنها المسلمون[1].

ولما سار اليهود، . . . .

قوله: (وأن لهم ما حملت الإبل)؛ أي: ما يمكنها حملُه.

قال الحلبي: وكانت ستَّ مئة بعير[2].

قوله: (إلا آلة الحرب): في الحلبية: تركوا (٥٠) درعاً، و(٥٠) بيضة، و(٣٤٠) سيفاً[3].

قوله: (وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم): قال الحلبي: وفي رواية: جعل المسلمون يهدمون بأيديهم من حصونهم، ويهدم الآخرون ما يليهم[4].

قوله: (ولما سار اليهود): قال الدحلاني: إنهم حملوا النساء والصبيان على الهوادج، وعليهم الديباجُ والحرير والخزُّ الأخضر والأحمر والمعصفر وحُلِيُّ الذهب والفضة، وأظهروا تجلداً عظيماً.

قال ابن إسحاق: خرجوا بالنساء والأبناء والأموال، ومعهم الدفوف والمزامير والقينات يعزفن خلفهم بزهاء وفخر لم يُر مثلُه. اهـ[5].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٦٥).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٤٥).

نزل بعضهم بخيبر، ومنهم أكابرُهم حُيَيُّ بنُ أخطب، وسلاّمُ بنُ أبي الحُقَيْق، ومنهم من سار إلى أَذْرِعَات بالشام، وأسلم منهم اثنان: يامينُ بنُ عمـرو، وأبو سعدِ بنُ وهب، ولم يخمِّس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مـا أخـذ من بني النضير؛ فإنه فيءٌ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، ومثل هـذا يكـون لمعدّات الحرب، وللرسول، يطعم منه أهله، . . . .

قوله: (نزل بعضهم بخيبر): قال الدحلاني: لحق أكثرُهم بخيبـر، ودان لهم أهلها، فبقوا هناك إلى أن أهلكهم في غزوة خيبر كما سيأتي. اهـ[1].

قوله: (ومنهم من سار إلى أذرعات) قال الدحلاني: روى موسى بن عقبـة: أنهم قالوا: إلى أين نخرج يا محمد؟ قال: إلى الحشر؛ يعني: أرض المحشـر، وهي الشام[2].

قوله: (وأسلم منهم اثنـان: يامـين، وأبـو سعـد): وبإسلامهمـا أحـرزا أموالهما؛ أي: أمنا عليها.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض آل يامين: أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به في شأني؟»؛ يعني: عمـرو ابن جحاش الذي هم بإلقاء الحجر، فجعل يامين لرجل من قيس عشـرة دنـانير، وقيل: خمسة أوسق من ثمره على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتلـه غيلـة. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فإنه فيء)؛ أي: غنيمة.

وقوله: (لم يوجف عليـه بخيل ولا ركاب): الإيجـاف: سرعـة السـير،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٣). وانظر: «السيرة النبويـة» لابن هشام (٤/ ١٤٦).

ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما قال تعالى في سورة الحشر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧]**، فأعطى عليه الصلاة والسلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين، الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، وردّوا لإخوانهم من الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم أيام هجرتهم،** ....

والركاب: الإبل التي تحمل القوم، وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم، طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في آية: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦] أنهم لم يقطعوا إليها شقة، ولا نالوا مشقة، وإنما كان بنو النضير على ميلين من المدينة، فمشوا إليها مشياً، ولم يركب إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على جمل. اهـ. خازن(١).

قوله: (﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾)؛ أي: ما رَدَّ الله على رسوله.

وقوله: (﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾): الدولة: اسمُ الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، والمعنى: لئلا يكون الفيء الذي حقُّه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بُلْغة يعيشون بها جدًّا بين الأغنياء يتكاثرون به، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة، أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي بعده ما شاء، فجعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فيما أمره به. اهـ. نسفي وخازن(٢).

قوله: (فأعطى عليه السلام من هذا الفيء فقراء المهاجرين...) إلخ: قال الدحلاني: لما غنم صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير، دعا ثابت بن قيس،

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢٦٨).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٢٣١)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٧٠).

وأخذ عليه الصلاة والسلام أرضاً يزرعها ويدّخِر منها قُوت أهله عاماً[1].

فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «الأنصار كلها»، فدعا الأوسَ والخزرج، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار، وما صنعوا بالمهاجرين، وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وإيثارهم إياهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم، قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليّ من بني النضير، وإن أحببتم أعطيتُهم وخرجوا من دياركم»، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار كلهم: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»[2].

وفي رواية: أنه قال للأنصار: «ليس لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإن شئتم أمسكتم أموالكم، وقسمت هذه خاصة»، فقالوا: بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩]، فقال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: جزاكم الله خيراً يا معشر الأنصار، فوالله! ما مثلُنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقَتْ ... بنا نعلُنا في الواطئين فزلَّتِ

أَبَوْا أن يملُّونا وإن كان أُمُّنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملَّتِ[3]

---

(١) رواه مسلم (١٧٥٧) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٢٠) عن أم العلاء.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٤ ـ ٩٥)، والخبر المذكور رواه البلاذري في «فتوح البلدان» (ص: ٣٤) عن أبي بكر بن عياش. وانظر: «ديوان طفيل الغنوي» (ص: ١٣٠).

غزوة ذات الرقاع

وفي ربيع الآخر بلغه عليه الصلاة والسلام أن قبائل من نجد يتهيؤون لحربه، وهم: بنو محارب، وبنو ثعلبة، فتجهَّز لهم، وخرج في سبع مئة مقاتل، وولّى على المدينة عثمانَ بنَ عفان،. . . . .

قال الحلبي: ولما أعطى المهاجرين، أمرهم بردِّ ما كان للأنصار؛ لاستغنائهم عنهم، ولأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك، وإنما كانوا دفعوا لهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها. اهـ[1].

غزوة ذات الرقاع

قوله: (غزوة ذات الرقاع): سبب تسميتها بذات الرقاع: أنهم رقعوا فيها راياتهم.

وقيل: بشجرة في ذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع.

وذكر الدحلاني غير ذلك من الأقوال، ثم قال: قال السهيلي: وأصح الأقوال كلها: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة، ونحن ستة نفر ـ أي: من الأشعريين ـ بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت[2] قدماي، وسقطت أظفاري ـ أي: من الحفاء ـ، فكنا نلفُّ الخِرق على أرجلنا، فسميت غزوة ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب من الخِرَق على أرجلنا. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠).

(٢) في الأصل: «أو نقبت»، والمثبت موافق لما في «صحيح البخاري»، ومصدري التوثيق.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٦). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٣/ ٤٠١)، والحديث رواه البخاري (٤١٢٨)، ومسلم (١٨١٦).

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا ديار القوم، فلم يجدوا فيها أحداً غيرَ نسوة، فأخذهنّ، فبلغ الخبر رجالهم، فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال، ثم اجتمع جمع منهم وجاؤوا للحرب، فتقارب الناسُ، وأخافَ بعضهم بعضاً. ولما حانت صلاة العصر، وخاف عليه الصلاة والسلام أن يغدر بهم الأعداء وهم يصلّون، صلى بالمسلمين صلاة الخوف، فألقى الله الرعبَ في قلوب الأعداء، وتفرقت جموعهم خائفين منه صلى الله عليه وسلم.

قوله: (ولم يزالوا سائرين): في الدحلاني: لم يزل صلى الله عليه وسلم سائراً حتى وصل إلى موضع يسمى: وادي الشقرة، وبَثَّ السرايا، فرجعوا إليه من الليل، وأخبروه أنهم لم يروا أحداً، فساروا حتى ترك نخلاً، وهو من نجد من أراضي غطفان، فلم يجد في مجالسهم إلا نسوة... إلخ ما في كلام المؤلف[1].

قوله: (صلى بالمسلمين صلاة الخوف...) إلخ: قال الحلبي: وكانت أولَ صلاة صلاها للخوف. اهـ[2].

أقول: وسبب حصول هذا الخوف بيِّن في رواية، وهي كما في الحلبي: حانت صلاة الظهر، فصلاها صلى الله عليه وسلم بأصحابه، فهمَّ بهم المشركون، فقال قائلهم: دعوهم، فإن لهم صلاة بعد هذه هي أحبُّ إليهم من أبنائهم ـ أي: وهي صلاة العصر ـ، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فصلى صلاة العصر صلاة الخوف. اهـ[3].

وصفتها عند الحنفية: أن يجعل الإمام الناس طائفتين: طائفة إلى وجه العدو، وطائفة خلفه، فيصلي بهذه الطائفة ركعة وسجدتين، فإذا رفع رأسه من

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٢).

ومال الإمام البخاري إلى أن هذه الغزوة كانت في السنة السابعة، وأجمعَ أهلُ السِّيَرِ على خلافه[1].

السجدة الثانية؛ مضت هذه الطائفة إلى وجه العدو، وجاءت تلك الطائفة، فيصلي بهم الإمام ركعة وسجدتين، وتشهَّد وسلَّم، ولم يسلِّموا، وذهبوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الأولى، فصلوا ركعة وسجدتين وحداناً بغير قراءة؛ لأنهم لاحقون، وتشهدوا وسلموا، ومضوا إلى وجه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى وصلوا ركعة وسجدتين بقراءة؛ لأنهم مسبوقون، وتشهدوا وسلموا. اهـ. هداية[2].

وصفتها عند الشافعية: أن تصفَّ طائفة مع الإمام، وطائفة وجاهَ العدو، فيصلي بالتي معه ركعة، ثم يثبت قائماً، ويتمون لأنفسهم، ثم ينصرفون وجاهَ العدو، وتأتي الطائفة الأخرى فيصلي بهم الركعة الثانية التي بقيت من صلاتهم، ثم يثبت جالساً، ويتمون لأنفسهم، ثم يسلم بهم. اهـ. «بداية المجتهد»[3].

وفي «الدرر»: لم يجوزها أبو يوسف بعده صلى الله عليه وسلم؛ لأنها إنما شرعت على خلاف القياس؛ لإحراز فضيلة الصلاة خلف النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى انعدم بعده عليه الصلاة والسلام، وجَوَّزاها؛ لأن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أقاموها بعده صلى الله عليه وسلم، وسببها الخوف، وهو يتحقق بعده أيضاً. اهـ[4].

قوله: (كانت في السنة السابعة)؛ أي: بعد خيبر.

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٧١، ٢٧٣)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠ ـ ٥٧٦).

(٢) انظر: «الهداية شرح البداية» للمرغيناني (١/ ٨٩).

(٣) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ١٢٧).

(٤) انظر: «درر الحكام» لملا خسرو (٢/ ١٧٩).

قال الحلبي: احتج البخاري ـ رحمه الله ـ على أن هذه الغزاة كانت بعد خيبر بما رواه عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ، مما يدل على أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع، وهو: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر بيننا. . . إلخ الحديث المتقدم في أول الغزوة[1].

وإذا ثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع بعد خيبر، وثبت أنه لم يجئ إليه صلى الله عليه وسلم من الحبشة إلا بخيبر؛ لزم أن تكون غزوة ذات الرقاع بعد خيبر[2].

ثم قال: وقد ذكرها الشمس الشامي ـ من علماء السير ـ بعد خيبر[3]، ثم قال الحافظ ابن حجر: وادعى الدمياطي ـ من علماء الحديث ـ غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه، والاعتماد على ما في الصحيح من تأخيرها على خيبر أولى؛ لأن أصحاب المغازي مختلفون في زمانها. اهـ[4].

قال المحقق ابن القيم في «زاد المعاد»: قال ابن إسحاق وجماعة من أهل السير والمغازي: إن هذه الغزوة كانت في سنة أربع، وتلقاه الناس عنهم، وهو مشكل جدّاً؛ فإنه قد صح أن المشركين حبسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق من صلاة العصر حتى غابت الشمس[5].

وفي السنن، و«مسند أحمد» والشافعي ـ رحمهما الله ـ: أنهم حبسوه عن

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٠).

(٣) انظر: «سبل الهدى والرشاد» للشامي (٥/ ١١٥، ١٧٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧١). وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٤١٨).

(٥) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٦٢٧)، من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ.

صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً، وذلك قبل نـزول صـلاة الخوف[1].

والخندق بعد ذات الرقاع سنة خمس، والظاهر: أن النبي صـلى الله عليـه وسلم أول صلاة صلاها للخوف بعسفان كما قال أبو عياش الزرقي: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان، فصلى بنا الظهر، وعلى المشركين خالـدُ بـنُ الوليـد، فقالوا: لقد أصبنا منهم غفلة، ثم قالوا: إن لهم صلاة بعد هذه هي أحـبُّ إلـيهم من أموالهم وأبنائهم، فنزلت صلاة الخوف بين الظهر والعصر، ففرقنـا فـرقتين... وذكر الحديث، رواه أحمد ـ رحمه الله ـ، وأهلُ السنن[2].

وقال أبو هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم نـازلاً بـين ضـجنان وعسفان محاصراً للمشركين، فقال المشركون: إن لهؤلاء صلاةً هم أهوى إليهـا من أبنائهم وأموالهم، أجمِعوا أمركم، ثم ميلوا عليهم ميلةً واحدة، فجاء جبريل فأمره أن يقسم أصحابه نصفين...، وذكـر الحـديث، قـال الترمـذي: حـديث حسن صحيح[3].

ولا خلاف بينهم أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وقد صح عنه صـلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الخوف بذات الرقاع[4]، فعلم أنها بعد الخندق، وبعد عسفان.

---

(١) رواه النسائي (٦٦١)، والإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩)، والإمـام الشـافعي في «مسنده» (١/ ٣٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/٥٩)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي (١٥٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٣٠٣٥) وقال: حديث حسن غريب.

(٤) رواه البخاري (٤١٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبـي صلى الله عليه وسلم صلَّى بأصحابه في الخوف في غزوة السابعة، غزوة ذات الرقاع.

ويؤيد هذا: أن أبا هريرة وأبا موسى الأشعري شهدا ذاتَ الرقاع، كما في الصحيحين عن أبي موسى: أنه شهد غزوة ذات الرقاع، وأنهم كانوا يلفون على أرجلهم الخرق لما نقبت، فسميت: غزوة ذات الرقاع[1].

وأما أبو هريرة؛ ففي «المسند»، والسنن: أن مروان بن الحكم سأله: هل صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف؟ قال: نعم، قال: متى؟ قال: عام غزوة نجد[2].

وهذا يدل على أن غزوة ذات الرقاع بعد خيبر، وأن من جعلها قبل الخندق فقد وهم، وهذا ظاهر.

ولما لم يفطن بعضهم لهذا، ادعى أن غزوة ذات الرقاع كانت مرتين؛ فمرة كانت قبل الخندق، ومرة بعدها، على عادتهم في تعديد الوقائع إذا اختلفت ألفاظها وتاريخها، ولو صح لهذا القائل ما ذكره ـ ولا يصح ـ لم يمكن أن يكون قد صلى بهم صلاة الخوف في المرة الأولى؛ لما تقدم من قصة عسفان وكونها بعد الخندق، ولهم أن يجيبوا عن هذا بأن تأخير يوم الخندق جائز غير منسوخ، وأن في حال المسايفة يجوز تأخير الصلاة إلى أن يتمكن من فعلها، وهذا أحد القولين في مذهب أحمد ـ رحمه الله ـ، وغيره.

ولكن لا حيلة لهم في قصة عسفان أن أول صلاة صلاها للخوف بها، وأنها بعد الخندق، والصواب تحويلُ غزوة ذات الرقاع من هذا الموضع إلى بعد الخندق، بل بعد خيبر، وإنما ذكرناها هاهنا تقليداً لأهل المغازي والسير، ثم

---

(١) رواه البخاري (٤١٢٨، ومسلم (١٨١٦)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٢٠)، وأبو داود (١٢٤٠)، والنسائي (١٥٤٣).

غزوة بدر الآخرة

لما أهلّ شعبانُ هذا العام، كان موعد أبي سفيان؛ فإنه بعد انقضاء غـزوة أُحُد قال للمسلمين: موعدنا بدرٌ العامَ المقبل، فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وكان بدرٌ محلَّ سوق تُعقد كلَّ عام للتجـارة فـي شـعبان يقيم التجار فيه ثمانياً، فلما حَلَّ الأجلُ، وقريش مُجدِبون، لم يتمكن أبـو سفيان من الإيفاء بوعده، فأراد أن يخذل المسلمين عن الخروج كـيلا يُوسـم بخُلف الوعد، فاستأجر نُعيمَ بنَ مسعودٍ الأشجعيَّ، ليأتي المدينة، . . . . .

تبين لنا وهمُهم، وبالله التوفيق. اهـ[١].

وهو تحقيق بديع، وقد تبين من أن ما مال إليه الإمام البخاري من أن هـذه الغزوة كانت في السنة السابعة هو الصواب، وأن قول المصنف: (وأجمع أهــل السير على خلافه)، فيه ما فيه، إذ قد تبين مما نقلنـاه مـن التحقيـق عـن الحلبـي وعن ابن القيم أن لا إجماع، وأن الخلاف بينهم موجود.

غزوة بدر الآخرة

قوله: (غزوة بدر الآخرة): قال الدحلاني: وتسمى: غـزوة بـدر الصـغرى؛ لعدم وقوع القتال فيها، فهي صغرى بالنسبة للتي وقع فيها القتال وهي الكبرى[٢].

قوله: (لما أهل شعبان) قال الحلبـي: وقيـل: خـرج فـي شـوال، وكـان وصوله إلى بدرٍ هلالَ ذي القعدة، وكان ذلك موسماً لبدر في كـل سـنة يحضـره الناس، ويقيمون به ثمانية أيام. اهـ[٣].

قوله: (فاستأجر نعيم بن مسعود): سبب استئجاره له: أنه لما قرب الموعد

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٩).

ويُرجِفَ بما جمعه أبو سفيان من الجموع العظيمة، فقدم نُعيم المدينة، وقال للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣] **ولم يلتفت عليه الصلاة والسلام لهذا الإرجاف؛ اتِّكالاً على ربه، بل خرج بألف وخمس مئة من أصحابه، . . . .**

الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبي سفيان؛ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يهيئ أصحابه للخروج، فقدم نعيم بن مسعود مكة، فأخبر قريشاً بتهيؤ المسلمين لحربهم، فكره أبو سفيان الخروج، وجعل لنعيم عشرين بعيراً على أن يذهب إلى المسلمين ويخذلهم، وضمنها له سهيلُ بنُ عمرو، وحمله على بعير، فقدم نعيمٌ المدينةَ، وأرجف المسلمين بكثرة العدو حتى قذف في قلوبهم الرعب، ولم يبق لهم نية في الخروج، حتى خشي عليه الصلاة والسلام أن لا يخرج معه [أحد][1]، فجاء العمران ـ أي: أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما، فقالا: إن الله مظهرٌ دينه ومعزٌّ نبيه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسِرْ لموعدهم، فوالله! إن في ذلك لخيراً إن شاء الله.

فسر صلى الله عليه وسلم بذلك وقال: «والذي نفسي بيده! لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد»، فأذهب الله عن المسلمين ما كان الشيطان أرعبهم به. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ . . .﴾) إلخ الآية: المراد بالناس: أبو سفيان وأصحابه.

وقوله: (﴿فَزَادَهُمْ﴾)؛ أي: هذا القولُ، أو هذا القائل (﴿إِيمَٰنًا﴾).

قال البيضاوي: والمعنى: أنهم لم يلتفتوا إليه، ولم يضعفوا، بل ثبت به

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٩٩ ـ ١٠٠)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٢٦)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٥٩).

واستخلف على المدينة عبدَالله بنَ عبدالله بنِ أُبَيَ. ولم يزالوا سائرين حتى أتوا بدراً، فلم يجدوا بها أحداً، لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج على نيّة الرجوع بعد مسير ليلة أو ليلتين، ظانًّا أن إرجاف نُعيم يفيد، فيكون المخلف هم المسلمون، فسار حتى أتى مجنَّة ـ وهي سوق معروفة من ناحية مَرّ الظهران ـ فقال لقومه: إن هذا عام جدب، . . . .

يقينهم بالله، وازداد إيمانهم، وأظهروا حمية الإسلام، وأخلصوا النية عنده[1].

قوله: (واستخلف عبدالله بن عبدالله بن أبي): وقيل: استخلف عبدَالله بنَ رواحةَ الخزرجيَّ.

قوله: (لأن أبا سفيان أشار على قريش بالخروج. . .) إلخ: قال الحلبي: إن أبا سفيان قال لقريش: لقد بعثنا نعيماً ليخذل أصحاب محمد عن الخروج، ولكن نخرج فنسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع، فإن كان محمد لم يخرج، وبلغه أنا خرجنا، فرجعنا لأنه لم يخرج، كان هذا لنا عليه، وإن خرج، أظهرنا أن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام عشب، قالوا: نعمَ ما رأيتَ، فخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان وخمسون فرساً حتى انتهوا إلى مَجنة ـ أي: بفتح الميم والجيم وتشديد النون ـ وهو سوق معروف من ناحية مَرَّ الظهران ـ وقيل: عسفان ـ ثم قال: يا معشر قريش! لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه الماء، وإن عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس، فسماهم أهل مكة: جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم لتشربوا السويق. اهـ[2].

قوله: (مر الظهران) ـ بفتح الميم ـ: موضع[3] على مرحلة من مكة. اهـ. قاموس[4].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٠).

(٣) في الأصل: «فيها عين»، والتصويب من «القاموس المحيط».

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مرر).

ولا يصلحنا إلا عامُ عشب، فارجعوا، أما المسلمون، فأقاموا ببدر لا يشاركهم في تجارته أحد، ﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٤]**، ولما سمع بذلك صفوانُ بنُ أميةَ، قال لأبي سفيان: قد والله! نهيتُك أن تَعِدَ القومَ، قد اجترؤوا علينا، ورأوا أنا أخلفناهم**[١].

قوله: (فأقاموا ببدر): كانت مدة إقامتهم فيه ثمانية أيام. اهـ. دحلاني[٢].

قوله: (﴿فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾)؛ أي: فانقلبوا بعافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه.

(﴿وَفَضْلٍ﴾) ربح في التجارة، فإنهم باعوا ما معهم من التجارة الدرهم درهمين.

(﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾): من جراحة وكيدِ عدوّ.

(﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾) قد تفضل عليهم بالتثبيت والزيادة والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد، والتصلب في الدين، وإظهار الجراءة على العدو، وبالحفظ عن كل ما يسوءُهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله تعالى وفضل، وفيه: تحسير للمتخلف وتخطئة رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به. اهـ. بيضاوي[٣].

قوله: (ولما سمع بذلك صفوان): قال الحلبي: كان المخبر لقريش معبد ابن أبي معبد الخزاعي؛ فإنه بعد انقضاء الموسم خرج سريعاً إلى مكة، وأخبرهم بذلك. اهـ[٤].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٠٠).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ١١٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨١).

حوادث [السنة الرابعة]

وفي هذا العام ولد الحسينُ بن علي، وفيه توفيت زينبُ بنتُ خزيمةَ أُم المؤمنين، وفيه توفي أبو سَلَمة ـ رضي الله عنه ـ ابنُ عمةِ رسولِ الله، وأخوه من الرضاعة، وأولُ من هاجر إلى الحبشة . . . .

حوادث

قوله[1]: (زينب بنت خزيمة): هو ابن عبدالله بن عمر بن عبد مناف، وكانت يقال لها: أم المساكين؛ لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم، وكانت تحت عبدالله بن جحش، فاستشهد بأحد، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: كانت تحت الطفيل بن الحارث بن المطلب، ثم خلف عليها أخوه عبيدة، وكان دخوله بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وماتت. اهـ. «إصابة»[2].

قوله: (وفيه توفي أبو سلمة . . .) إلخ: عبدالله بن عبد الأسد المخزوميّ، وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة، وكان أخا النبيِّ صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وابنَ عمته، أمه برةُ بنتُ عبد المطلب، ومات بالمدينة، وروي من حديث ابن عباس: أولُ من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بنُ عبد الأسد، وأولُ من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان[3].

وقال أبو نعيم: كان أول من هاجر إلى المدينة، وهو ممن هاجر إلى الحبشة، وشهد بدراً وأحداً، وكانت وفاته في جمادى الآخرة. اهـ. ملخصاً من «الإصابة»[4].

---

(١) تكرر لفظ: «قوله» في الأصل.

(٢) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٧/ ٦٧٢).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «الأوائل» (٨٢).

(٤) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

وفيه تزوج عليه الصلاة والسلام أُمَّ سَلَمَةَ هنداً زوجَ أبي سلمة بعدَ وفاته[1].

قوله: (وفيه تزوج صلى الله عليه وسلم أم سلمة هنداً. . .) إلخ: هي بنتُ أبي أميةَ بنِ المغيرة من بني مخزوم، وهي بنت عم أبي سلمة، وهي ممن أسلم قديماً هي وزوجها، وهاجرا إلى الحبشة، فولدت له سلمةَ، ثم قدما وهاجرا إلى المدينة، فولدت له عُمر، ودرة، وزينب، وقيل: إنها أولُ امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة، وأولُ ظعينة دخلت المدينة.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن أم سلمة قالت: لما انقضت عِدَّة أم سلمة، خطبها أبو بكر، فلم تتزوجه، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم يخطبها عليه، فقالت: أخبرْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أني امرأة غَيْرَى، وأني امرأة مُصْبية، وليس أحد من أوليائي شاهداً، فقال: «قل لها: أما قولُك: غيرى؛ فسأدعو الله فتذهب غَيرتك، وأما قولك: إني امرأة مُصْبية؛ فستكفين[2] صبيانك، وأما قولك: ليس أحد من أوليائي شاهداً؛ فليس أحد من أوليائك شاهداً أو غائباً يكره ذلك»، فقالت لابنها عمر: قم فزوِّجْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فزوجه[3].

وروى عنها: أولادها، وأخوها، وابن أخيها، ومواليها، وروى عنها: الصحابة، والتابعون، وكانت وفاتها في شوال سنة تسع وخمسين، وقيل: سنة إحدى وستين، وهي آخرُ أمهات المؤمنين موتاً. اهـ. ملخصاً من «الإصابة»[4].

❐ ❐ ❐

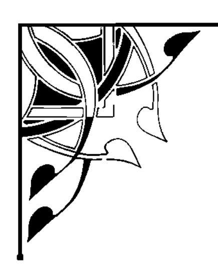
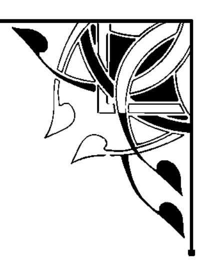
---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣).

(٢) في الأصل: «فسلي»، والمثبت من «سنن النسائي»، و«الإصابة» لابن حجر (٨/ ٢٢٣).

(٣) رواه النسائي (٣٢٥٤).

(٤) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٨/ ٢٢١ ـ ٢٢٤).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

دراسة الكتاب

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني
النص المحقق

الفتح المبين
على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❐ ❐ ❐

دولة قطر

أوقاف
AWQAF

الفتح المبين

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم

تأليف

العلامة المحدث المؤرخ

محمد راغب الطباخ

تحقيق ودراسة

الدكتور زكريا عبد العزيز الجاسم

المجلد الثاني

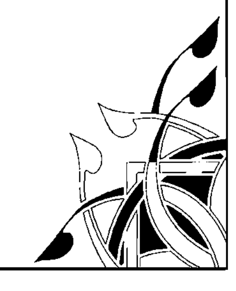
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

دولة قطر







الفتح المبين

على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين

صلى الله عليه وسلم



(٢)




طبعة خاصة

هذا الكتاب

وقف لله تعالى

طبع على نفقة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

وهو يوزع مجاناً ولا يجوز بيعه

turathuna@islam.gov.qa

إدارة الشؤون الإسلامية

ص. ب: ٤٢٢

ISBN 978-9933-549-20-6




الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قامت بعمليات التنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة



لبنان - بيروت

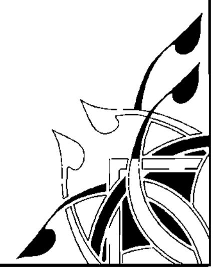
ص. ب: 4462/14

هاتف: 009611652528

فاكس: 009611652529

E-mail: info@daralnawader.com

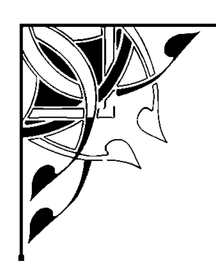
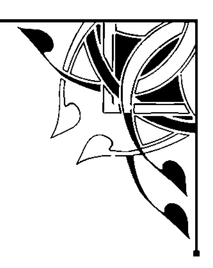
Website: www.daralnawader.com







السَّنة الخامِسَة

غزوة دُومة الجَنْدَل

وفي ربيع الأول من هذا العام بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من الأعراب بدُومةِ الجندلِ يظلمون مَنْ مَرَّ بهم، وأنهم يريدون الدنوَّ من المدينة، فتجهز لغزوهم، وخرج في ألف من أصحابه، بعد أن وَلَّى على المدينة سِبَاعَ بنَ عُرْفُطَةَ الغِفارِيَّ، . . . .

السنة الخامسة

غزوة دومة الجندل

قوله: (دومة الجندل) هي ـ بضم الدال، ويجوز فتحها، واقتصر الحافظ الدمياطي على الأول[1] ـ.

وقال الجوهري: الصوابُ الضمّ[2].

وأخطأ المحدثون في الفتح، سميت بدومى بنِ إسماعيلَ عليه السلام؛ لأنه كان نزلها.

قوله[3]: (سباع بن عرفطة): سباع؛ ككتاب، وعُرْفُطَة: ـ بضم العين والفاء وسكون الراء وفتح الطاء ـ. اهـ. قاموس[4].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» للدمياطي (ص: ١٩٩).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: دوم)، وفيه: أصحاب اللغة يقولونه بضم الدال، وأصحاب الحديث يفتحونها.

(٣) تكرر لفظ: «قوله» في الأصل.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عرفط).

ولم يزل يسير الليل ويكمُن النهار حتى قرب منهم، فلما بلغهم الخبر، تفرقوا، فهجم المسلمون على ماشيتهم ورعائهم، فأُصيب مَنْ أُصيبَ، وهرب من هرب، ثم نزل بساحتهم فلم يلقَ أحداً، وبثّ السرايا، فلم يجد منهم أحداً، فرجع عليه الصلاة والسلام غانماً، وصالحَ وهو عائد عُيينةَ بنَ حِصْنٍ الفَزاريَّ، وهو الذي كان يسمّيه عليه الصلاة والسلام: الأحمقَ المُطاع؛ لأنه كان يتبعُه ألفُ قَنَاة، وأقطعه عليه الصلاة والسلام أرضاً يرعى فيها بهمه على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة؛ لأن أرضه كانت قد أجدبت[1].

قوله: (فلم يجد منهم أحداً): في الحلبي: أخذ محمد بن سلمة رجلاً منهم، وجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم [عنهم][2]، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه الإسلامَ فأسلمَ. اهـ[3].

قوله: (ألف قناة): في الحلبي: عشرة آلاف[4].

وقوله: (وأقطعه عليه السلام أرضاً): في الحلبي: لما سمن حافره وخفه، وانتقل إلى أرضه، غزا على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة، فقيل له: بئس ما جزيتَ به محمداً صلى الله عليه وسلم، أَحَلَّكَ أرضَه حتى سمنَ حافرُك وخُفُّك، وتفعل معه ذلك؟ فقال: هو حافري.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢).

(٢) ما بين معكوفتين من «الطبقات الكبرى»، و«السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٢). وانظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٦٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٢).

غزوة بني المُصْطَلِق

في شعبان، بلغه عليه الصلاة والسلام أن الحارثَ بنَ أبي ضِرار، سيدَ بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أُحُد، يجمع الجموع لحربه، فخرج له عليه الصلاة والسلام في جمع كثير، . . . .

وأسلم عيينة هذا بعد الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلفة، ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذن، وأساء الأدب، فصبر النبي صلى الله عليه وسلم على جفوته، وقال فيه صلى الله عليه وسلم: «إن شر الناس من تركه الناس اتقاءَ فحشه»[1]، وارتدَّ في زمن الصدِّيق، فإنه لحق بطُلَيحَة بن خويلد حين تنبأ، وآمن به، فلما هرب طليحة، أسره خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وأرسل به إلى الصدِّيق في وثاق، فلما دخل المدينة، صار الأولاد ينخسونه بالحديد، ويضربونه ويقولون: أَيْ عدوَّ الله! كفرتَ بالله بعد إيمانك؟! فيقول: والله! ما كنتُ آمنتُ، فمنَّ عليه الصدِّيق، فأسلم. اهـ[2].

واللقاح ـ بكسر اللام ـ: الإبل.

غزوة بني المصطلق

قوله: (المصطلق): هو على وزن اسم الفاعل.

قال الحلبي: وبنو المصطلق بطنٌ من خزاعةَ، وهم بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق، من الصلق: وهو رفعُ الصوت[3].

قوله: (فخرج له عليه السلام. . .) إلخ: قبل أن يخرج إليه أرسل صلى الله عليه وسلم بُرَيدة ـ بالتصغير ـ ابنَ الحُصَيب ـ بضم الحاء وفتح الصاد ـ ليعلم علم

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٣).

وولَّى على المدينة زيدَ بن حارثة، وخرج معه من نسائه عائشةُ وأُم سلمة. وخرج معه ناس من المنافقين لم يخرجوا قطُّ في غزوة قبلها، يرجون أن يصيبوا من عَرَضِ الدنيا، وفي أثناء مسيره عليه الصلاة والسلام التقى بعَيْنِ بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو، فلم يجبْ، فأمر بقتله. ولما بلغ الحارثَ رئيسَ الجيش مجيءُ المسلمين لحربه، وأنهم قتلوا جاسوسه، خاف هو وجيشه خوفاً شديداً حتى تفرق عنه بعضُهم، ولما وصل المسلمون إلى الْمُرَيْسِيع، تَصَافَّ الفريقان للقتال، بعد أن عرض عليهم الإسلامَ فلم يقبلوا، فترامَوْا بالنبل ساعة، ....

ذلك، واستأذن بريدةُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فخرج حتى ورد عليهم، ورأى جمعهم، فقالوا له: من الرجل؟ قال: رجل منكم، قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يداً واحدة حتى نستأصلهم، فقال له الحارثُ: فنحن على ذلك، فعجل علينا، قال بريدة: أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي، فسرُّوا بذلك منه، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبر القوم، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إليهم، فأسرعوا الخروج. اهـ. حلبي[1].

قوله: (وخرج معه ناس من المنافقين...) إلخ: قال في الحلبي: منهم عبدالله بن أبي ابن سلولَ، وزيدُ بن الصلت[2].

قوله: (التقى بعين بني المصطلق): وكان وَجَّهه الحارثُ ليأتيه بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان القاتل له عمرَ بنَ الخطاب.

قوله: (بعد أن عرض عليهم الإسلام): بحيث أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عمرَ بنَ الخطاب أن يقول لهم: «قولوا: لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٤).

ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد، فلم يتركوا لرجل من عدوهم مجالاً للهرب، بل قتلوا عشرة منهم، وأسروا باقيهم مع النساء والذرية، واستاقوا الإبل والشياه، وكانت الإبل ألفي بعير، والشياه خمسة آلاف، واستعمل الرسول صلى الله عليه وسلم على ضبطها مولاه شُقرانَ، وعلى الأسرى بُرَيدةَ. وكان في نساء المشركين بَرَّةُ بنتُ الحارثِ سيدِ القوم، وقد أُخذ من قومها مئتا بنتٍ أسرى وُزِّعَتْ على المسلمين، وهنا يظهر حُسْن السياسة ومنتهى الكرم؛ فإن بني المصطلق من أعزِّ العرب داراً، فأسْرُ نسائهم بهذه الحال صعب جدًّا، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل المسلمين يَمُنُّونَ على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم، فتزوج بَرّةَ بنت الحارث التي سمّاها: جُوَيْرِيَةَ، فقال المسلمون: أصهارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أسرُهم في أيدينا، فمنّوا عليهم بالعتق، فكانت جويريةُ أيمنَ امرأةٍ على قومها كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ[1].

وأموالكم»، ففعل عمر ذلك، فأبوا[2].

قوله: (شقران): ـ بضم الشين ـ، واسمه: صالح، وكان حبشياً.

قوله: (فتزوج برة بنت الحارث): قال الحلبي: وقعت برةُ في سهم ثابتِ ابنِ قيس، فكاتبها على تسع أواق من ذهب، فدخلت عليه صلى الله علىه وسلم فقالت له: يا رسول الله! إني امرأة مسلمة ـ أي: أسلمت ـ؛ لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وإني برة بنتُ الحارث سيدِ قومه، وقد كاتبني ثابت على ما لا طاقة لي به، وإني رجوتك فأعنِّي في مكاتبتي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوخيرٌ من ذلكِ؟» قالت: ما هو؟ قال: «أُؤدي عنك كتابتك، وأتزوجك»،

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٣١).

(٢) أورده البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٤٨) عن الواقدي.

وتسبَّب عن هذا الكرم العظيم، وهذه المعاملة الجليلة: أن أسلم بنو المصطلق عن بَكْرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم.

وقد حصل في هذه الغزوة نادرتان، لولا أنْ صاحَبَتْهُما حكمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لعادتا بالتفريق على المسلمين.

قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت[1].

فأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى ثابت بن قيس، فطلبها منه، فقال ثابت ـ رضي الله عنه ـ: هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي! فأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان كاتبها عليه، وأعتقها وتزوجها، وهي ابنة عشرين سنة، وسماها: جويرية[2].

ثم قال: وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كانت جويرية امرأة حلوة، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم ونحن على الماء ـ أي: الذي هو المريسيع ـ إذ دخلت جويرية تسأله في كتابتها، فوالله! ما هو إلا أن رأيتها فكرهت دخولها على النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفت أنه سيرى منها مثل الذي رأيت، فقالت: يا رسول الله! إني امرأة مسلمة. . . الحديث. انتهى[3].

وفي «الدحلانية»: لما تزوج النبي صلى الله عليه سلم جويرية، وخرج الخبر إلى الناس؛ فقال الناس: أصهارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فما أعلم امرأة كانت أعظمَ بركةً على قومها منها ـ رضي الله عنها ـ[4].

---

(١) رواه أبو داود (٣٩٣١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٦)، والخبر المذكور تقدم تخريجه عند أبي داود (٣٩٣١).

(٤) تقدم تخريجه عند أبي داود (٣٩٣١).

فأولاهما: أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج، فضرب الأجيرُ الحليفَ حتى سال دمه، فاستصرخ بقومه الخزرج، واستصرخ الأجير بالمهاجرين، فأقبل الذعر من الفريقين، وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: . . . .

وقيل: إنها طلبت قومها من النبي صلى الله عليه وسلم ليلة دخوله بها، فوهبهم لها. اهـ[1].

قوله: (أن أجيراً لعمر بن الخطاب): في الدحلاني: هو رجل من المهاجرين اسمه: جهجاه بن مسعود، كان أجيراً لعمر ـ رضي الله عنه ـ، ويقود له فرسه، انطلق ليملأ قربَ النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فوجد الناس يزدحمون على الماء، فأمر الناس بالإمساك ليملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر، فنازعه رجل من الأنصار، وكان أجيراً لعبدالله بن أبي، فتنازعا، فضرب المهاجريُّ الأنصاريَّ، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فأقبل جمع من الجيش، وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟»، فأُخبر بالحال، فقال صلى الله عليه وسلم: «دعوها ـ أي: تلك الكلمة ـ فإنها مُنتنة»[2].

قوله: (فأقبل الذعر): الذعر ـ بالذال ـ: الفزع، وهو ليس مراداً هنا، والصواب: الزُّعر ـ بالزاي ـ: مفرده زَعِر؛ مثل شَرِس: الخلق وزناً ومعنى، وفيه زعارَّة ـ بتشديد الراء وتخفيفها ـ؛ أي: شراسة.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٠٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١١٠)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

«ما بال دعوى الجاهلية؟» وهي ما يقال في الاستغاثة: يا لَفُلان! فأُخبر الخبر، فقال: «دَعُوا هذه الكلمة؛ فإنها منتنة»[1]، ثم كلم المضروبَ حتى أسقط حقه، وبذلك سكنت الفتنة، فلما بلغ عبدَالله بنَ أُبَيٍّ هذا الخصام، غضبَ، وكان عنده رهط من الخزرج، فقال: ما رأيت كاليوم مذّلة أَوَ قد فعلوها؟ نافرونا في ديارنا، والله! ما نحن والمهاجرون إلا كما قال الأوَّل: سَمِّنْ كلبك يأكلْك، أما والله: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، ثم التفت إلى مَنْ معه، وقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالَكم، أما والله! لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسَكم غَرَضاً للمنايا دون محمد، فأيتمتم أولادكم، وَقَلَلْتُم وكثروا، . . . . .

قوله: (نافرونا في ديارنا)؛ أي: غلبونا وكاثرونا.

وقوله: (الأول) ـ بتشديد الواو ـ سهوٌ من الطبع، والصواب: الأُوَل ـ بضم الهمزة وفتح الواو ـ؛ أي: الأقدمون.

قوله: (ليخرجن الأعز منها الأذل): يعني بالأعز: نفسَه، وبالأذل: النبيَّ صلى الله عليه وسلم. اهـ. حلبي[2].

قوله: (غرضاً للمنايا): الغرض: الهدف الذي يُرمى إليه، والجمع: أغراض؛ مثل: سبب وأسباب. اهـ. مصباح[3].

وقوله: (دون محمد)؛ أي: فقُتلتم دون محمد.

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٦).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: غرض).

فلا تنفقوا عليهم حتى يَنْفَضُّوا من عنده، وكان في مجلسه شابٌّ حديثُ السن، قوي الإسلام، اسمه: زيد ابن أرقم، فأَخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، الخبر فتغير وجهه، وقال: «يا غلام! لعلك غضبتَ عليه فقلتَ ما قلت؟» فقال: والله يا رسول الله! لقد سمعته. قال: «لعلّه أخطأ سمعك»، فاستأذن عمرُ الرسولَ صلى الله عليه وسلم في قتل ابنِ أُبَيّ، أو أن يأمر أحداً غيرهَ بقتله، فنهاه عن ذلك. وقال: «كيف يا عمرُ إذا تحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه؟»[1].

قوله: (لقد سمعته)؛ أي: منه؛ كما في الحلبي[2]، والأَولى للمؤلف أن يذكرها.

قوله: (أن محمداً يقتل أصحابه): قال الحلبي: وفي لفظ: أن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كرهت أن يقتله مهاجريٌّ، فأمرْ به أنصاريّاً، فقال له: «ترعَدُ له إذن أُنُفٌ كثيرة بيثربَ»، اهـ[3].

يعني: يكون ذلك سبباً لإثارة فتنة كبيرة نحن في غنًى عنها.

وقال الحلبي عند ذلك: ولما نزلت سورة المنافقين، صار قوم عبدالله يعاتبونه ويعنفونه، ولما بلغه صلى الله عليه وسلم معاتبتهم له، قال لعمر: «كيف ترى يا عمر؟ إني ـ والله ـ لو قتلته يوم قلتَ، لأرعدت له أنوف لو أمرتُها اليوم

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مختصراً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٧)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» كما في «تخريج الأحاديث والآثار في تفسير الكشاف» للزيلعي (٤/ ٣٣).

ثم أذن بالرحيل في وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه الصلاة والسلام شَغْلَ الناس عن التكلم في هذا الموضوع، فجاءه أُسَيدُ بن حُضير، وسأله عن سبب الارتحال في هذا الوقت، فقال: «أَوَ ما بلغك ما قال صاحبكم؟ زعم أنه إن رجعَ إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذل». قال: أنت ـ والله ـ يا رسول الله تُخرجه إن شئتَ، هو ـ والله ـ الذليلُ، وأنت العزيزُ[1].

ثم سارَ عليه الصلاة والسلام بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس، فنزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض حتى وقعوا نياماً.

بقتله لقتلته»، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: قد ـ والله ـ علمتُ لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ بركة من أمري. اهـ[2].

قوله: (هو ـ والله ـ الذليل، وأنت العزيز): قال الحلبي: ثم قال: يا رسول الله! ارفقْ به، لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشَعَ اليهودي، فإنه ليرى أنك استلبته ملكاً. اهـ[3].

القصد بذلك: الاعتذارُ عن عبدالله بنِ أبي، وأن ما كان منه إنما هو نفثةُ مصدور.

قوله: (سار بالناس سيراً حثيثاً): في الحلبي: سار يومهم ذلك وليلَتهم وصدرَ ذلك اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، وإنما فعل

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٠٩) عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعن عبدالله بن أبي بكر، وعن محمد بن يحيى بن حبان، كلٌّ قد حدث بعضَ حديث بني المصطلق، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٣)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١١٦ ـ ١١٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٨).

وكلّم رجالٌ من الأنصار عبدَالله بن أُبيّ في أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم الاستغفار، فلوى رأسه واستكبر. وهنا نزل على الرسول سورةُ المنافقين التي فضحت عبدَالله بنَ أُبيّ وإخوانَه، وصدَّقت زيدَ بنَ أرقم. . . .

صلى الله عليه وسلم ذلك؛ ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس[1].

قوله: (وكلم رجال من الأنصار. . .) إلخ: صنيعه يفيد أن نزول سورة المنافقين كانت بعد طلب الأنصار من عبدالله بن أبي أن يطلب من الرسول الاستغفار، وليس كذلك.

قال الحلبي: جاء أنه لما نزلت سورة المنافقين، وفيها تكذيبُ ابن أُبي، قال له أصحابه: اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك، فلوى رأسه، ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة أموالي فأعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ الآية. اهـ[2].

لكنه قبل نزول السورة ذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم وردَّه على الغلام إلى ابن أُبي ـ لعنه الله ـ، فقال له: يا أبا الحباب! إن كنت قلت ما نُقل عنك، فأخبرْ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم فليستغفر لك، ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك، وإن كنت لم تقله، فأتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر له، واحلف له: ما قلته، فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً، ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له «يا بن أبي! إن كانت سبقت منك مقالة، فتبْ»، فجعل يحلف بالله ما قلتُ ما قال زيد، وما تكلمت به. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٨)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٥٤).

ولما بلغَ ذلك عبدَالله بنَ عبدالله بنِ أُبيّ، استأذن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه حذراً من أن يُكَلَّف بذلك غيره، فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد، فأمره عليه الصلاة والسلام بالإحسان إلى أبيه[1].

قوله: (ولما بلغ ذلك عبدَالله بنَ عبدالله بن أبي... إلخ): صنيعُ المؤلف يفيد أنه لما بلغه ما كان من أبيه، استأذن رسول الله في قتله، وليس كذلك، فقد استأذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم في قتله لما بلغه مقالة عمر ـ رضي الله عنه ـ.

ففي الحلبي: أن عبدالله لما بلغه مقالة عمر ـ رضي الله عنه ـ من قتل أبيه، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إنه قد بلغني أنك تريد قتلَ عبدِالله بنِ أبي ـ يعني: والده ـ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً، فمرني أن أحمل لك رأسه، فوالله! لقد علمتِ الخزرجُ ما كان بها رجل أبرُّ بوالده مني، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا»[2].

وفي رواية: فمرني فوالله! لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، وإني لأخشى ـ يا رسول الله ـ أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأدخل النار، فعفوُكَ أفضل، ومنتُك أعظم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أردت قتله، ولا أمرت به، ولنحسن صحبته ما كان بين أظهرنا». اهـ[3].

قال الحلبي: ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي العقيق،

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٧٨ ـ ٢٨١)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٩٥).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١١٦) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٥٩٩)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٥٦).

النادرة الثانية: وهي أفظعُ من الأولى، وأجلبُ منها للمصائب، وهي: رميُ عائشةَ الصدّيقةِ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإفك، فاتَّهموها بصفوانَ بنِ المعَطَّل..............................

تقدم عبدُالله بنُ عبدالله بن أبي، وجعل يتفحص الركاب حتى مر أبوه، فأناخ به ثم وطئ على يد راحلته، فقال أبوه: ما تريد يا لُكَع؟ فقال: والله! لا تدخل حتى تقر أنك الذليل، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز حتى يأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلم أيضاً الأعز من الأذل أنت أو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار يقول: لأنا أذلُّ من الصبيان، لأنا أذلُّ من النساء، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «خَلِّ عن أبيك»، فخلى عنه[1].

ثم قال: وفي لفظ قال لأبيه: لَئِن لم تقرَّ لله ولرسوله بالعزة، لأضربن عنقك، فقال: ويحك! أفاعل أنت؟ قال: نعم، ولما رأى منه الجد قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنه: «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً». اهـ[2].

حديث الإفك

قوله: (ابن المعطل) ـ بضم الميم وفتح الطاء مشددة ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٢)، والخبر المذكور أورده الشامي في «سبل الهدى والرشاد» (٤/ ٣٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٢)، والخبر المذكور أورده الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥) باللفظ المذكور، ولم نقف عليه مسنداً، وقال الزيلعي في «تخريج الأحاديث والآثار» (٤/ ٣٥): وذكره الثعلبي بتمامه، وعزاه لأصحاب السير، وكذلك الواحدي في «أسباب النزول».

السلميَّ، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة، أذن عليه الصلاة والسلام ليلةً بالرحيل، وكانت السيدة عائشةُ قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها، أقبلت إلى رَحْلها، فلمست صدرها، فإذا عِقْدٌ لها من جزْع ظَفَارِ قد انقطع، فرجعت تلتمس عقدَها، فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرهط الذين كانوا يَرْحلُونَها، فاحتملوا هودَجَها ظانِّين أنها فيه؛ لأن النساء كنَّ ـ إذ ذاك ـ خفافاً لم يُغَشِّهِنَّ اللحمُ، فلم يستنكر القوم خِفَّةَ الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدَها، وليس بالمنزل داعٍ ولا مُجيب، فغلبتها عيناها فنامتْ، وكان الذي يسيرُ وراء الجيش يفتقد ضائعه صفوان بن المُعَطَّل، فأصبح عند منزلها فعرفها؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه، وسترت وجهها.................................

وقوله: (السَّلِمي): ـ بفتح السين وكسر اللام ـ نسبة لبني سَلِمة، بطنٍ من الأنصار. اهـ. قاموس[١].

قوله: (من جزع ظفار): الجزع ـ بفتح الجيم وكسرها وإسكان الزاي ـ: الخرز اليماني الصيني فيه سواد وبياض، تُشبَّه به الأعين[٢].

وقوله: (ظفار): بلد باليمن قرب صنعاء، وهو على وزن قَطامِ.

قوله: (يرحلونها): هو ـ بتخفيف الحاء ـ؛ أي: يجعلون هودجها على الرحل، والهودج: مركب للنساء.

قوله: (لم يُغَشِّهِن) ـ بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشين ـ؛ أي: من التغشية، وهو التغطية.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سلم).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: جزع).

بجلبابها، فأناخ راحلته، وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشةَ وصفوانَ، والذي تَوَلى كِبْرَ الإفك عبدُالله بنُ أُبيّ.

ولما قدموا المدينة، مرضت عائشةُ شهراً، والناس يُفيضون في قول الإفك، وهي لا تشعر بشيء، وكانت تعرف في رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة إذا مرضت، فلم يعطها نصيباً منها في هذا المرض، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: «كيف حالكم؟»؛ مما جعلها في ريب عظيم..

قوله: (بجلبابها) قال الحلبي: هو ثوب أقصر من الخمار، ويقال له: المِقْنَعة، تغطي بها المرأة رأسها[1].

قوله: (كبر الإفك)؛ أي: معظمَه.

في الحلبي: إن عبدالله بنَ أبي ابنَ سلول كان أولَ من أشاعه في العسكر، فإنه كان ينزل مع جماعة المنافقين مبتعدين من الناس، فمرت عليهم، فقالوا: من هذه؟ قالوا: عائشةُ وصفوان، فقال: فَجَرَ بها ورَبِّ الكعبة.

وفي لفظ: ما برئت منه، وما برئ منها، وصار يقول: امرأة نبيِّكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم أشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم لها؛ لشدة عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ[2].

قوله: (كيف حالكم): في الحلبي والدحلاني وابن هشام: «كيف تيكم؟»[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٨)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٠٦)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٦٣).

فلما نَقِهَتْ، خرجت هي وأُم مِسْطَحِ بنِ أثاثة ـ أحدِ أهل الإفك ـ للتبرّز خارج البيوت، فعثرت أُم مسطح في مِرْطها، فقالت: تَعسَ مِسطح، فقالت عائشة: بئسَ ما قلتِ، أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: يا هَنْتاهُ! أو لم تسمعي ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك، فأخبرتها الخبر، فازدادت مرضاً على مرضها. ولما جاءها عليه الصلاة والسلام كعادته، . . . .

قوله: **(نَقِهت)**؛ أي: برئت، ونَقِهَ من باب تَعِب.

قوله: **(وأم مسطح بن أثاثة)**: قال الجبريني في «شرح أسماء أهل بدر»: مِسْطَح: ـ بكسر الميم وسكون المهملة وفتح الطاء المهملة ـ، وأُثاثة: ـ بضم الهمزة ـ، ومسطح لقبه، واسمه: عوف، وأم مسطح يقال لها: سلمى بنت أبي رُهْم، وأمها رائطة بنت صخر، أخت أم الخير والدةِ أبي بكر الصديق، واسمُ أم الخير: سلمى، فمسطح ابنُ بنتِ خالة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، شهد مسطح بدراً، وكان ممن خاض في الإفك على عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فجلده النبي صلى الله عليه وسلم فيمن جلد في ذلك[1].

قوله: **(في مرطها)**: المِرْط: كساء من صوف أو خَزّ يؤتَزَر به وتتلفع المرأة به، والجمع: مُروط؛ مثل حِمْل وحُمُول. اهـ. «مصباح»[2].

قوله: **(يا هَنْتاهُ)** ـ بفتح الهاء الأولى وسكون النون وضم الهاء الثانية ـ؛ أي: يا هذه. اهـ. حلبي[3].

وقال في الخازن: معناه: يا بلهاء[4]، وهو أَولى.

---

(١) انظر: «شرح أسماء أهل بدر» للجبريني (ص: ٧٤).

(٢) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: مرط).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٨).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٨٧).

استأذنته أن تمرّض في بيت أبيها، فأذن لها، فسألتْ أُمهَّا عمّا يقول الناس، فقالت: يا بنيّة! هوِّني عليك، فو الله! لقلّما كانت امرأة قطّ وضيئةٌ عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرْنَ عليها، فقالت عائشة: سبحان الله! أوَ قد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم. وفي خلال ذلك كان عليه الصلاة والسلام يستشير كبارَ أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة ـ لما يعلمه من براءة عائشة ـ: أهلك أهلك، ولا نعلم عليهم إلا خيراً. وقال علي بن أبي طالب: لم يُضَيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسلِ الجارية تَصْدُقْكَ، . . . .

قوله: (استأذنته أن تُمَرَّض في بيت أبيها): في الحلبي: فقلت: أتأذن لي أن آتي بيت أبويَّ، وأنا أريد أن أتثبت الخبر من قِبَلهما[1].

قوله: (وضيئة)؛ أي: جميلة.

قوله: (إلا أكثرن عليها) قال الحلبي: فيه: أن ضرائرها أمهاتِ المؤمنين لم يكنَّ السببَ في إشاعة ذلك، ولم ينقصنها به، إلا أن يقال: ظنت أمها ذلك على ما هو العادة في ذلك[2].

قوله: (يستشير كبار أهل بيته): في الحلبي: في رواية عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: استشار الصحابة، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: من زَوَّجها لك يا رسول الله؟ قال: «الله تعالى»، قال: أفتظن أن الله دلس عليك فيها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم، ودعا علي بن أبي طالب. . . إلخ ما ذكره المؤلف[3].

قوله: (وسَلِ الجارية)؛ أي: جاريةَ عائشة، وهي بَريرة؛ لأنها كانت

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٠٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٣).

فدعا عليه الصلاة والسلام بَريرةَ جاريةَ عائشةَ، وقال لها: «هل رأيتِ من شيء يَرِيْبُكِ؟» فقالت: والذي بعثك بالحق! ما رأيت عليها أمراً قطّ أغمِصه، غير أنها جارية حديثة السِّنِّ، تنام عن عجينها، فتأتي الداجنُ فتأكله.

فقام عليه الصلاة والسلام من يومه، وصَعِد المنبرَ والمسلمون مجتمعون، وقال: «مَنْ يَعْذِرُني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهلي؟ والله! ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي». فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أَعذِرُك منه، فإن كان من الأوس، ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتَنا ففعلنا أمرك، فقام سعدُ بن عبادة الخزرجي وقال: كذبتَ لعَمْرُ الله، . . .

تخدمها. اهـ. حلبي[1].

قوله: (أغمصه) ـ بالغين المعجمة والصاد المهملة بينهما ميم مكسورة ـ؛ أي: أعيبه عليها. اهـ. حلبي[2].

قوله: (الداجن): هي الدابة التي تألف البيوت، ولا تخرج للمرعى، وهي هنا الشاة. اهـ. حلبي[3].

قوله: (من يَعْذِرني)؛ أي: يُنصفني.

قوله: (ولقد ذكروا رجلاً. . .) إلخ: المراد به: صفوانُ بن المعطل السُّلَمي.

قوله: (فقال سعد بن معاذ): هو سيد الأوس.

قوله: (فقام سعد بن عبادة)؛ أي: وقد أجهلته الحمية؛ أي: حملته الحمية لهم على أن يجهل.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٣).

لا تقتله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببتَ أنه يُقتل، فقام أُسيد بن حُضير، وقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمرُ الله لنقتلنَّه؛ فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين. وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر، وخَفَّضَهم حتى سكتوا.

قوله: **(فقام أسيد بن حضير)** هو ابن عم سعد بن معاذ.

قوله: **(فإنك منافق)** المراد بكونه منافقاً: أنه يفعل فعل المنافقين، ومن ثم لم ينكر صلى الله عليه وسلم ذلك إن كان سمعه. اهـ. حلبي[1].

قوله: **(وخَفَّضهم)** ـ بتشديد الفاء ـ؛ أي: لَيَّنَ قولَهم.

ثم ذكر الحلبي نقلاً عن «الإمتاع»: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر حتى دخل على سعد بن عبادة، فتحدثوا ساعة، وقرَّب لهم سعد بن عبادة طعاماً، فأصابوا منه، ثم انصرفوا، فمكث أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن عبادة في نفر، فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ، فتحدثوا ساعة، وقرّب لهم سعد بن معاذ طعاماً، فأصابوا منه، ثم خرجوا، فذهب من أنفسهم ما كان. اهـ[2].

وهنا كلام نفيس لابن القيم ـ رحمه الله ـ ذكره في كتابه «زاد المعاد» في الكلام على غزوة المريسيع، قال: فإن قيل: فما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم توقف في أمرها، وسأل عنها، وبحث واستشار، وهو أعرفُ بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به؟ وهلاَّ قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب: إن هذا من تمام الحِكَم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولجميع الأمة إلى يوم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٧).

القيامة؛ ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضع آخرين، ويزيد الذين اهتدوا هدًى، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبِس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ شهراً في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء؛ لتتم حكمته التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله، وأهلِ بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله، والذل له وحسن الظن به والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيئس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفَّت لهذا المقام حقه لما قال لها أبواها: قومي إليه ـ وقد أنزل الله عليه براءتها ـ، فقالت: والله! لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا اللهَ، هو الذي أنزل براءتي.

وأيضاً: فكان من حكمة حبس الوحي شهراً: أن القضية نضجت وتمحضت، واستشرفت قلوبُ المؤمنين أعظمَ استشرافٍ إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحي أحوجَ ما كان إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأهلُ بيته، والصديقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيث على الأرض أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وألطفَه، وسُرُّوا به أتمَّ السرور، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك؛ لفاتت هذه الحكم وأضعافُها، بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً: فإن الله سبحانه أحب أن يُظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله صلى الله عليه وسلم عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والردَّ على أعدائه، وذمَّهم وعيبهم بأمر لا يكون له

أما عائشة، فبقيت ليلتين لا يَرْقَأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم. وبينما هي مع أبويها، إذ دخل النبي عليه الصلاة والسلام، فسلّم ثم جلس، فقال: «أما بعد: يا عائشة! إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله، وإن كنتِ ألممتِ بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف وتاب، تاب الله عليه»، ....

فيه عملٌ ولا يُنسب إليه، بل يكون هو وحده المتولي لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

وأيضاً: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو المقصود بالأذى، والتي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءاً قط، وحاشاه، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي؟ والله! ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»[1]، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثرُ مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته ورفقه، وحسنِ ظنه بربه وثقته به، وَفَّى مقامَ الصبر والثباتِ وحسنِ الظن بالله حقَّه حتى جاءه الوحي بما أقرَّ عينه، وسرَّ قلبه، وعظمَ قدره، وظهرَ لأمته احتفالُ ربه به واعتناؤه بشأنه. اهـ[2].

قوله: (ألممت بذنب) قيل: هو من اللَّمَم، وهو صغائر الذنوب، وقيل: معناه: مقارفة الذنب من غير فعل. اهـ. خازن[3].

وقوله: (فاستغفري الله): في الحلبي: قصد بذلك: الاعتراف، لا الأمر

---

(١) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٣).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٨٧).

فتقلص دمعُ عائشةَ، وقالت لأبويها: أجيبا رسولَ الله، فقالا: والله! ما ندري ما نقول، فقالت: إني ـ والله ـ لقد علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئة، لا تصدقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأمر ـ واللهُ يعلم أني منه بريئة ـ لتُصَدِّقُنِّي، فوالله! لا أجدُ لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف حيث قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨].

ثم تحولتْ، واضطجعتْ على فراشها، ....

بالستر، مع أنه المطلوب ممن أتى ذنباً لم يَطَّلع عليه أحد[1].

أي: فلا يكون قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لعائشة مثل قول العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾[يوسف: ٢٩].

قوله: (فتقلص دمع عائشة)؛ أي: ارتفع حتى ما أحس منه بقطرة. اهـ. حلبي[2].

قوله: (فقال: والله! ما ندري): الصواب: فقالا.

قوله: (إلا أبا يوسف) في الحلبي: والتمستُ اسمَ يعقوب، فلم أقدر عليه[3]؛ أي: أن هول الموقف أنساها اسمه، فلم تتذكره.

قوله: (ثم تحولت واضطجعت على فراشها): في الحلبي: ثم تحولتُ فاضطجعتُ على فراشي، وما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحياً يتلى ـ وفي

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٠)، والرواية المذكورة رواها ابن حبان في «صحيحه» (٤٢١٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٠)، والرواية المذكورة رواها البخاري (٤٧٥٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

ولم يزاولْ رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصدّيقةِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ . . . .

لفظ: قرآناً يقرأ به في المسجد، ويصلى به[1] ـ ولَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، وكنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في النوم يبرئني الله بها[2].

وعند ذلك قال أبو بكر: ما أعلمُ أهلَ بيت من العرب دخل عليهم ما دخل عليَّ، والله! ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا يُعبد الله، فيقال لنا في الإسلام، وأقبل على عائشة مغضَباً[3].

قوله: (ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه. . . إلخ): في الحلبي: أخذ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما كان يأخذه عند نزول الوحي من شدة الكرب، فسُجِّي بثوبه ـ أي غُطِّيَ ـ وَوُضعت له وسادة من أَدَم تحت رأسه، قالت عائشة: فأما أنا حين رأيت ما رأيت، فوالله! ما فزعت؛ لأني قد عرفت أني بريئة، وأن الله غيرُ ظالمي، وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده ما سُري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأُخبر بما أُخبر حتى ظننتُ لتخرجَنَّ أنفسُهما فَرَقاً ـ أي: خوفاً ـ من أن يأتي من الله تحقيقُ ما قال الناس[4].

قوله: (﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾)؛ أي: جماعة من العشرة إلى الأربعين، واعْصَوْصَبوا: اجتمعوا، وهم: عبدالله بن أبي رأسُ المنافقين، وزيد بن رفاعة، وحسان بن

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١١٣).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٠) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٠ ـ ٦١١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١١)، والرواية المذكورة رواها الطبري في «تاريخه» (٢/ ١١٤).

لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِنْهُم مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا . . . .

ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحَمْنة بنت جحش، ومن ساعدهم. اهـ. نسفي[1].

(﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم﴾) مستأنف، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان، والهاء للإفك.

(﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾) لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشرة [آية][2] في براءتكم، وتعظيم شأنكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن بكم خيراً.

(﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾): معظَمَه، وبدأ بالخوض فيه، وهو عبدالله بن أُبي.

(﴿مِنْهُمْ﴾) من العصبة.

(﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾) في الآخرة، أو في الدنيا؛ بأن جُلدوا ثمانين ثمانين.

(﴿لَوْلَآ﴾) هلاَّ (﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾)، وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة؛ مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين، والكفَّ عن الطعن فيهم[3].

قال النسفي: روي: أن أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنتَ بدلَ صفوان، أكنتَ تظن بحرم رسول الله سوءاً؟ فقال: لا، قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك[4].

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٣٧).

(٢) ما بين معكوفتين من «تفسير البيضاوي».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٤) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٣٧).

وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ....

({فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ})؛ أي: القاذفون.

قال النسفي: لأن الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوتُ شهادة الشهود الأربعة وانتفاؤها، والذين رموا عائشة لم يكن لهم بينة على قولهم، فكانوا كاذبين. اهـ[1].

({وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ}) لولا هذه: لامتناع شيء لوجود غيره، والمعنى: لولا فضل الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة، ورحمة في الآخرة بالعفو المقرر لكم، ({لَمَسَّكُمْ}) عاجلاً ({فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ}) خضتم فيه ({عَذَابٌ عَظِيمٌ}) يُستحقَر دونه اللوم والجلد.

({إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ}) على حذف إحدى التاءين، وقرئ: (تتلقونه) على الأصل، والمعنى: يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه حيث كان يقول بعضكم لبعض: هل بلغك حديث عائشة؟ حتى شاع فيما بينهم وانتشر.

({وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ}) إنما قُيد بالأفواه، مع أن القول لا يكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمهُ في القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب؛ كقوله: {يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ}[آل عمران: ١٦٧].

({وَتَحْسَبُونَهُۥ})؛ أي: خوضكم في عائشة ({هَيِّنًا}) سهلاً لا تبعةَ فيه، ({وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ})؛ أي: في الوزر.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٣٨).

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ ....

(﴿وَلَوْلَآ﴾): وهلاَّ (﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾): ما ينبغي لنا، وما يصح (﴿سُبْحَٰنَكَ﴾) تعجُّبٌ ممن يقول ذلك، وأصله أن يذكر عند كل متعجب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعب عليه مثله، ثم كثر فاستُعمل لكل متعجب، أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حرمةُ نبيه فاجرة (﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾)؛ لعظمة المبهوت عليه؛ فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها.

(﴿أَبَدًا﴾): ما دمتم أحياء مكلَّفين.

(﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾): فيه تهييج لهم ليتعظوا، وتذكيرٌ بما يوجب تركَ العود، وهو الإيمانُ الصادُّ عن كل قبيح.

(﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾) بالحدّ، (﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾) بالنار، (﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾) لعجل لكم العذاب، وكَرَّرَ المنةَ بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغةً في المنة عليهم، والتوبيخ لهم.

وقوله: (﴿لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾)؛ أي: آثاره ووساوسه؛ بالإصغاء إلى الإفك والقول فيه.

(﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾): بيانٌ لعلة النهي عن اتباعه، والفحشاء: ما أفرط قبحُه، والمنكر: ما أنكره الشرع.

وقوله: (﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾)؛ أي: ما طَهُر ولا صلح.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ١١ ـ ٢١]، فسُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، وبشَّر عائشة بالبراءة، فقالت لها أمها: قومي فاشكري رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا والله! لا أشكر إلا الذي بَرَّأَني. وبعد ذلك أمر عليه الصلاة والسلام بأن يُجلدَ مَنْ صرَّح بالإفك ثمانين جلدة ـ وهي حدُّ القاذف ـ وكانوا ثلاثة: حَمْنَةُ بنتُ جحش، ومِسْطَح بن أُثاثة، وحسان ثابت. وكان أبو بكر ينفق على مِسْطَح بن أثاثة؛ لقرابته منه، فلما تكلم بالإفك، قطع عنه النفقة، ....

(﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾) سميع لمقالتهم، عليم بنياتهم. اهـ. بيضاوي ونسفي[1].

قوله: (فسُري عن رسول الله...) إلخ: في الحلبي: سري عنه وهو يضحك، وإنه لَيتحدَّرُ منه العرق كالجمان، وهي حبوب مدحرجة تجعل من الفضة كأمثال اللؤلؤ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم، فكان أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة! أما إن الله قد برأك»[2].

قوله: (وبعد ذلك أمر عليه السلام...) إلخ: في الحلبي: ثم بعد نزول آيات الإفك، خرج صلى الله عليه وسلم إلى الناس، وخطبهم، وتلا عليهم تلك الآيات، وأمر بجلد أصحاب الإفك، فجُلدوا الحدَّ، وهو ثمانون[3].

قوله: (قطع عنه النفقة)؛ أي: وحلف على ذلك حيث قال: والله! لا أنفق على مسطح أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً؛ على ما قال لعائشة وأدخل علينا[4].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ١٣٨ ـ ١٤٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١١)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤١٤١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بلفظ: «يا عائشة! أما اللهُ، فقد برأك».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٦ ـ ٦١٧).

(٤) رواه البخاري (٢٦٦١) من حديث عائشة، عن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ.

فأنــــزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، فقال أبو بكر: بل نحب ذلك يا رسول الله، وأعاد النفقة على مِسطح.

فهذه مضارُّ المنافقين الذين يدخلون بين الأمم مُظهِرين لهم المحبة، وقلوبُهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن، فمتى رأوا باباً لها، وَلَجوه، فنعوذ بالله منهم[١].

قوله: (﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾)؛ أي: ولا يحلف؛ من ائتلى: إذا حلف، افتعال من الأليَّة، أو لا يقصر؛ من الألو؛ أي: لا يحلفوا على أن لا يحسنوا إلى المستحقين، أو لا يقصروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناء لجناية اقترفوها، اهـ. نسفي[٢].

وقوله: (﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾) العفو: الستر، والصفح: الإعراض؛ أي: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليعرضوا عن العقوبة. اهـ. نسفي[٣].

قال في الخازن: وفي الآية أدلة على فضل أبي بكر الصديق؛ لأن الفضل المذكور في الآية ذكره تعالى في معرض المدح، وذكره بلفظ الجمع في قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾، وقوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾، وتمامه فيه[٤].

---

(١) حديث الإفك رواه البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦١٣ـ ٦١٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٤٠).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٤٠).

(٤) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٨٩).

لم يَقَرَّ لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم وإرثِ المسلمين لها، بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم، ويستردّوا بلادهم، فذهب جمع منهم إلى مكة، وقابلوا رؤساء قريش، . . . .

ثم قال: وفي الآية دليل على أن مَنْ حلف على يمين فرأى غيرَها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خير، ويكفِّرْ عن يمينه، ومنه الحديث الصحيح: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها؛ فليأتِ الذي هو خير، وليكفرْ عن يمينه». اهـ[1].

غزوة الخندق

قوله: (غزوة الخندق): وتسمى: غزوة الأحزاب؛ لتحزب قريش وقبائل العرب واليهود ـ أي: اجتماعهم ـ على قتال المسلمين، وكانت سنة خمس في شوال، وبذلك حزم أهل المغازي[2].

قوله: (فذهب جمع منهم. . .) إلخ: منهم: سيدُهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ، وسلام بن مِشكَم، وكنانة بن أبي الحقيق، وهَوْذَة بن قيس، وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، وأحبُّ الناس إلينا مَنْ أعاننا على عداوة محمد، زاد في رواية: فقال لهم: لكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا، فقالت قريش لأولئك اليهود: يا معشر يهود! إنكم أهلُ الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أَفَدينُنا خير أم دينُ محمد؟ قالوا: بل دينكم

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٨٩)، والحديث المذكور رواه مسلم (١٦٥٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٧٠).

وحرّضوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنّوهم المساعدةَ، فوجدوا منهم قبولاً لِما طلبوه، ثم جاؤوا إلى قبيلة غطفان، وحرّضوا رجالها كذلك، وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب، فوجدوا منهم ارتياحاً، فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان، ويحمل لواءهم عثمانُ بنُ طلحةَ بنِ أبي طلحةَ العبدريُّ، وعددُهم أربعة آلاف، معهم ثلاث مئة فرس، وألف وخمس مئة بعير..........................

خير من دينه، فأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[النساء: ٥١]، فلما قالوا ذلك لقريش؛ سرَّهم ونشطهم لما دعَوهم إليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلاً، وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها أن لا يخذل بعضهم بعضاً، ويكونون يداً واحدة على محمد صلى الله عليه وسلم ما بقي منهم رجل. اهـ. حلبي ملخصاً[1].

والجبت: كل معبود سوى الله، والطاغوت: الأصنام.

قوله: (غَطَفان) ـ بفتح الغين والطاء ـ: حي من قيس.

قوله: (فوجدوا منهم ارتياحاً): في الدحلانية: وجعلوا لهم تمرَ خيبرَ سنة إن هم نصروهم. اهـ[2].

والارتياح: النشاط.

قوله: (المرِّي) ـ بضم الميم وتشديد الراء ـ: نسبة لبني مُرَّة، وهو مرةُ بنُ عوفِ بنِ سعد بن ذبيان، وقد أسلم بعد ذلك.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١١٣).

وتجهزت غطفان يرأسهم عُيَيْنَةُ ابن حِصن الذي جازى إحسان رسول الله كفراً، فإنه ـ كما قدّمنا ـ أَقطعَه أرضاً يرعى فيها سوائمه، حتى إذا سمن خفُّه وحافره، قام يقود الجيوش لحرب مَنْ أنعم عليه، وكان معه ألف فارس. وتجهزت بنو مرّة يرأسهم الحارثُ بنُ عوف الْمُرِّيُّ وهم أربع مئة، وتجهزت بنو أشجعَ يرأسهم أبو مسعود بن رُخَيلَةَ، وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس، وهم سبع مئة، وتجهزت بنو أسد يرأسهم طُلَيحة بن خويلدٍ الأسديّ، وعدة الجميع عشرة آلاف محارب، قائدهم العام أبو سفيان ولما بلغه عليه الصلاة والسلام أخبار هاتِه التجهيزات، استشار أصحابه فيما يصنع: أيمكث بالمدينة، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرّار؟ فأشار عليه سلمانُ الفارسيُّ بعمل الخندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه، فأمر عليه الصلاة والسلام المسلمين بعمله، . . . .

قوله: (رخيلة): ـ بضم الراء وفتح الخاء ـ، وأسلم بعد ذلك.

قوله: (سفيان بن عبد شمس): في الحلبي: لا يعلمَ إسلامُه[1].

وقوله: (طليحة بن خويلد): أسلم بعد ذلك.

قوله: (وبلغه عليه السلام أخبار هاتة التجهيزات. . .) إلخ: قال الحلبي: لما تهيأت قريش للخروج، أتى ركب من خزاعةَ في أربع ليال حتى أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

قوله: (فأشار عليه سلمان الفارسي. . .) إلخ: فقد قال: يا رسول الله! إنا كنا بأرضِ فارسَ إذا تخوفنا الخيل، خندقنا علينا[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٣١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٣١).

(٣) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٩١) عن الواقدي.

وشرعوا في حفره شماليَّ المدينة من الحَرّه الشرقية إلى الحرّة الغربية، وهذه هي الجهة التي كانت عورة تُؤتى المدينةُ من قِبلها. أما بقية حدودها، فمشتبكة بالبيوت والنخيل، لا يتمكن العدو من الحرب جهتها، وقد قاسى المسلمون صعوباتٍ جسيمةً في حفر الخندق؛ لأنهم لم يكونوا في سَعَة من العيش حتى يتيسر لهم العمل، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام، فكان ينقل التراب متمثلاً بشعر ابن رواحة:

«اللهمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقْنا ولا صلّينا

فَأَنْزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقينا

والمشركون قد بَغَوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا»[1]

قوله: (من الحرة): الحَرَّة ـ بالفتح ـ: أرض ذاتُ حجارة سود، [والجمع: حِرار][2]؛ مثل: كَلبة وكِلاب. اهـ. «مصباح»[3].

والحرة الشرقية والحرة الغربية اسم لمكانين بظاهر المدينة.

قوله: (كانت عورة)؛ أي: غير حَصينة.

قوله: (لم يكونوا في سعة من العيش)؛ أي: وكان الزمن زمن عسرة وعامَ مجاعة كما في الحلبي[4].

قوله: (فأنزلن سكينة علينا): فسرها في «القاموس» بالطمأنينة[5]، وفي

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣٧، ٣٠٣٤، ٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣)، من حديث البراء ابن عازب ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) ما بين معكوفتين من «المصباح المنير».

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: حرر).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٣٢).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سكن).

وأقام الجيش في الجهة الشرقية مُسنداً ظهرَه إلى سَلْع، وهو جبل مطلٌّ على المدينة، وعِدّتهم ثلاثة آلاف، وكان لواء المهاجرين مع زيد بن حارثة، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة. أما قريش، فنزلت بمَجْمع الأسيال، وأما غطفان، فنزلت جهة أُحُد. وكان المشركون معجبين بمكيدة الخندق التي لم تكن العرب تعرفها، فصاروا يترامون مع المسلمين بالنبل. ولما طال المطال عليهم، أكره جماعة منهم أفراسهم على اقتحام الخندق، منهم: عِكْرِمة بن أبي جهل، وعمرو بن عَبْدِ وَدّ وآخرون، وقد برز علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ لعمرو بن عبد ودّ فقتله، وهرب إخوانه، وهوى في الخندق نوفلُ بن عبدالله، فاندقَّت عنقُه، . . . .

«المصباح» بالمهابة[1]، ويحتمل المقام المعنيين.

قوله: (على اقتحام الخندق): قال في «زاد المعاد»: إنهم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع. اهـ[2].

قوله: (منهم عكرمة بن أبي جهل): لم أقف على اسم من برز له من الصحابة، ويظهر أنه ظل واقفاً وراء عمرو بن [عبد] ود ينتظر ما يكون بينه وبين علي بن أبي طالب، ولما قَتل عمراً، رجع عكرمةُ مع بقية منِ اقتحم الخندق من المشركين، وألقى رمحه وهو مهزوم عن عمرو، وعيَّرَه حسان بأبيات.

قوله: (وقد برز علي بن أبي طالب. . .) إلخ: قال الحلبي: كان عمرو بن [عبد] ود عُمره ـ إذ ذاك ـ تسعين سنة، فقال: من يبارز؟ فقام علي ـ كرم الله وجهه ـ وقال: أنا له يا نبي الله، فقال صلى الله عليه وسلم له: «اجلس؛ فإنه عمرو ابن ود»، ثم كرر عمرٌو النداء، وجعل يوبخ المسلمين ويقول: أين جَنتكم التي

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سكن).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٧٢).

تزعمون أنه من قتل منكم دخلها؟ أفلا تبرزون لي رجلاً؟ وأنشد أبياتاً، منها:

ولقد بححتُ من النداء بجمعكم هل من مبارِزْ
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقام علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: «اجلس؛ إنه عمرو بن ود»، ثم نادى الثالثة، فقام علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: «إنه عمرو» فقال: وإن كان عمراً، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنشد سيدنا علي أبياتاً، منها:

لا تعجلنَّ فقد أتا كَ مجيبُ قولك غير عاجزْ
ذو نيةٍ وبصيرة والصدقُ منجي كلَّ فائز[1]

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم أعطاه سيفه ذا الفقار، وألبسه درعه الحديد، وعممه بعمامته، وقال: «اللهم أعنه عليه»[2]، ثم قال له علي ـ كرم الله وجهه ـ بعد كلام طويل جرى بينهما ـ مبسوط في السيرة الحلبية ـ كيف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ولكن انزل معي، فاقتحم فرسه، وسل سيفه، كأنه شعلة نار، فعقر فرسه، وضرب وجهه، وأقبل علي ـ كرم الله وجهه ـ على حبل عاتقه فسقط، وكبر المسلمون.

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير، عرف أن عليّاً قتل عمراً، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بعد قتله لعمرو بن ود: «كيف وجدت نفسك معه يا علي؟» قال: وجدته لو كان أهل المدينة كلهم في جانب، وأنا في جانب، لقدرت عليهم[3].

(١) أورده البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٣٨) عن ابن إسحاق.
(٢) أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٤٠١).
(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٣).

ورُمي سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ بسهم قطع أَكْحلَه[1]، وهو شريان الذراع، واستمرت المناوشة والمراماة بالنبل يوماً كاملاً حتى فاتت المسلمين صلاةُ ذاك اليوم، وقضوها بعدُ، وجعل عليه الصلاة والسلام على الخندق حُرَّاساً حتى لا يقتحمه المشركون بالليل، . . . .

ونقل السيد الدحلاني عن الحافظ يحيى بن آدم أنه قال: ما شبهت قتل علي عمراً إلا بقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[البقرة: ٢٥١]، اهـ[2].

قوله: (قطع أكهله)[3]: صوابه: أكحله.

قال في «القاموس»: الأكحَل بفتح الحاء ـ: عرقٌ في اليد، أو هو عرق الحياة، ولا تقل: عرق الأكحل. اهـ[4].

وفي الدحلانية: هو عرق في الذراع تتشعب منه عروق البدن، وكان الذي رمى سعداً هو ابنُ العَرِقة العامري، والعَرِقة: ـ بفتح العين وكسر الراء ـ، وهي أمه، واسمها: قلايةُ بنتُ سعيد بن سعد بن سهم، وتكنى: أم فاطمة، سميت العرقة؛ لطيب ريحها، وهي جدة خديجةَ ـ رضي الله عنها ـ أم أبيها[5].

قوله: (حتى فاتت المسلمين صلاة ذلك اليوم): في الحلبية: وفي يوم استمرت المقاتلة، قيل: من سائر جوانب الخندق إلى الليل، ولم يصلِّ صلى الله عليه وسلم ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وصار

---

(١) في «نور اليقين» (المطبعة الجامعة): «أكهلة»، والتصويب من طبعة دار الإيمان.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٢٢)، والأثر المذكور رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٣٣٠).

(٣) تقدمت الإشارة إلى الخطأ الحاصل في نسخة المتن.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كحل).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٢٣).

المسلمون يقولون: ما صلينا، فيقول صلى الله عليه وسلم: «ولا أنا»، فلما انكشف القتال، جاء صلى الله عليه وسلم إلى قبته، وأمر بلالاً فأذن[1].

وأقام الظهر فصلى، ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلَّى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات.

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى الظهر، ثم أمره فأذن وأقام، فصلى العصر، ثم أمره فأذن وأقام، فصلى المغرب، ثم أمره فأذن وأقام، فصلى العشاء. اهـ[2].

قوله: (وكان يحرس بنفسه ثلمة. . .) إلخ: قال الحلبي: وكان صلى الله عليه وسلم يختلف إلى ثلمة في ثلمة في الخندق، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان صلى الله عليه وسلم يذهب إلى تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد، جاء فأدفأته في حضني، فإذا دفئ، خرج إلى تلك الثلمة، ويقول: «ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها»، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضني، صار يقول: ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة، فسمع صوت السلاح، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم: «من هذا؟» فقال سعد بن أبي وقاص: سعد يا رسول الله، أتيتك أحرسك، فقال: «عليك هذه الثلمة فاحرسها»، ونام

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٤٠٣) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ. ورواه البخاري (٩٤٥)، ومسلم (٦٣١)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٥)، والخبر المذكور لم نقف عليه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، وإنما رواه الترمذي (١٧٩)، والنسائي (٦٦٢)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال الترمذي: حديث عبدالله ليس بإسناده بأس، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبدالله.

وكان عليه الصلاة والسلام يبشّر أصحابه بالنصر والظفر، ويَعِدهم الخير[1].

أما المنافقون، فقد أظهروا في هـذه الشـدة مـا تكنُّـه ضـمائرهم حتـى قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[الأحزاب: ١٢]، . . . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غط. اهـ[2].

وفي «القـاموس»: الثلمـة ـ بالضم ـ: فرجـة المكسور والمهدوم، والثلَم ـ محركة ـ: أن ينثلم حرف الوادي[3].

قوله: (وكان عليه السلام يبشر أصحابه. . .) إلخ: قال الـدحلاني: كـان النبي صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين ويثبتهم، ويقول لهـم: «أبشـروا بعـون الله ونصره، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح، وليهلكن كسـرى وقيصر، ولَتُنفقن أموالُهما في سبيل الله»، يقول ذلك حين ما يرى ما بالمسلمين[4].

قوله تعالى: (﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾): قال النسفي في «تفسيره»: روي: أن معتب بن قشير حين رأى الأحزاب قال: يعدنا محمد فتح فارس والـروم، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً، ما هذا إلا وعد غرور. اهـ[5].

و(معتب): كمحدِّث؛ أي: ـ بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الدال ـ.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧)، و«السيرة الحلبيـة» لنـور الدين الحلبي (٢/ ٦٢٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٨ ـ ٦٤٩)، والخبـر المـذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ٣٩٦).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ثلم).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٢٣)، والخبـر المـذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٠٢) من طريق ابن فليح عن ابن شهاب.

(٥) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٢٩٩)، والخبر المذكور رواه الطبري فـي «تفسـيره» (٢١/ ١٣٣).

وانسحبوا قائلين: إن بيوتنا عورة نخاف أن يُغير عليها العدو، ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[الأحزاب: ١٣]**، واشتدت الحال بالمسلمين؛ فإن هذا الحصار صاحَبَه ضيق على فقراء المدينة، والذي زاد الشدةَ عليهم: ما بلغهم من أن يهود بني قريظة الذين يُساكنونهم في المدينة قد انتهزوا هذه الفرصة لنقض العهود، وسبب ذلك: أن حُيَيَّ بن أَخْطَب سيدَ بني النضير المُجْلَين توجه إلى كعب بن أسد القرظيِّ سيدِ بني قريظة، وكان له كالشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فحسَّن له نقضَ العهد،** . . . .

قوله: (فانسحبوا قائلين: إن بيوتنا عورة. . .) إلخ: قال الحلبي: كانت تلك الليلة شديدة البرد والريح، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون: إن بيوتنا عورة؛ أي: من العدو؛ لأنها خارج المدينة وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة، فَأْذَنْ لنا أن نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرارينا، فيأذن صلى الله عليه وسلم لهم.

قيل: ولم يبق معه تلك الليلة إلا ثلاث مئة. اهـ[1].

قوله: (إن يهود بني قريظة. . .) إلخ: قال الحلبي ما خلاصته: إن حييَّ ابن أخطب كان يقول لقريش في مسيره معهم: إن قومي بني قريظة معكم، وهم أهل حلقة وافرة، وهم (٧٥٠) مقاتلاً، فقال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد، فخرج حيي حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة، فدق عليه باب حصنه، فأبى أن يفتح له، وقال له: إنك امرؤ مشؤوم، وإني عاهدت محمداً، فلست بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فقال له: ويحك! افتحْ لي أكلمك، فقال: ما أنا بفاعل، فغاظه فقال: والله! ما أغلقت دوني إلا تخوفاً على جَشيشتك ـ وهي البر يُطحن غليظاً ـ أن آكل معك، ففتح له، فقال له: جئت بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥١).

ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين[1].

ولما بلغت هذه الأخبار رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرسل مَسْلَمةَ ابنَ أسلمَ فيْ مئتين، وزيدَ بنَ حارثة في ثلاث مئةٍ لحراسة المدينة؛ خوفاً على النساء والذراري، وأرسل الزبيرَ بنَ العوّام يستجلي له الخبر، فلما وصلهم، وجدهم حانقين، يظهر على وجوههم الشر، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أمامه، فرجع وأخبر الرسول بذلك. وهناك اشتد وَجَلُ المسلمين، وزُلزلوا زلزالاً شديداً؛ لأن العدو جاءهم من فوقهم، ومن أسفلَ منهم، ....

وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد، فقال له كعب: جئتني ـ والله ـ بذل الدهر وكلٍّ ما يُخشى، فلم يزل حيي بكعب حتى أعطاه عهداً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يقتلوا محمداً، أن يكون معه في حصنه، ويصيبه ما أصابه، فعند ذلك نقض كعب العهد، ومزق الصحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه، وأعلمَهم بما صنع.

وبلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فاشتد الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشق عليه ذلك[2].

قوله: (﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾)؛ أي: حُركوا بالخوف تحريكاً بليغاً. اهـ. نسفي[3].

قوله: (**لأن العدو جاءهم من فوقهم...**) إلخ: فقد جاءهم من فوقهم عيينة بن حصن ومن معه، وجاءهم من أسفل منهم أبو سفيان ومن معه.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٢٩٩).

وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنون، وتكلم المنافقون بما بَدا لهم، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يرسل لعُيَيْنَةَ ابن حِصْنٍ، ويصالحه على ثلث ثمار المدينة لينسحب بغطفان، فأبى الأنصار ذلك قائلين: إنهم لم يكونوا ينالون منّا قليلاً من ثمارنا ونحن كفار، أفبعد الإسلام يشاركوننا فيها؟. . . . .

قوله: (﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ . . .﴾) إلخ؛ أي: مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة، أو عدلت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع.

وقوله: (﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾): الحنجرة: رأس الغلصمة، وهي منتهى الحلقوم، والحلقوم: مدخل الطعام والشراب، قالوا: إذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب، رَبَتْ وارتفع القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحنجرة.

وقيل: هو مثل في اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة. اهـ. نسفي[1].

قوله: (وظنوا بالله الظنون)؛ أي: اختلفت الظنون بالله، فظن المنافقون استئصال محمد وأصحابه، وظن المؤمنون النصر والظفر لهم. اهـ. خازن[2].

قوله: (وتكلم المنافقون. . .) إلخ: هو ما قدمناه عن معتب بن قشير، وقيل: المتكلم عبدُالله بن أبي.

قوله: (فأراد أن يرسل إلى عيينة. . .) إلخ: قال في «زاد المعاد»: ولما طالت هذه الحال على المسلمين، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصالح عيينة بن حصن والحارثَ بنَ عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة، وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك، فاستشار السعدَينِ في ذلك ـ سعدَ بنَ

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤١٦).

وإذا أراد الله العناية بقوم، هيأ لهم أسباب الظفر من حيث لا يعلمون. فانظر إلى هذه العناية من الله للمتمسكين بدينه القويم. جاء نُعيم بن مسعود الأشجعي، وهو صديق قريش واليهود، ومن غطفان، فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون بإسلامي، فمُرني بأمرك حتى أُساعدك. فقال: «أنت رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خَذِّل عنّا ما استطعت؛ . .

معاذ، وسعدَ بنَ عبادة ـ ، فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا، فسمعاً وطاعة، وإن كان شيئاً تصنعه لنا فلا حاجة لنا، فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قِرًى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟! والله! لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما، وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدة». اهـ[1].

قوله: (ومن غطفان): معطوف على قوله: (وهو)؛ أي: وهو من غطفان؛ لأنهم قومُه كما صرح به في الحلبية والدحلانية[2]، وكما قدمناه.

قوله: (الأشجعي) نسبة إلى أشجعَ بنِ ريثِ بنِ غطفان، أبو قبيلة؛ كما في «القاموس»[3].

قوله: (خذل [عنَّا][4] ما استطعت): الخذل: تركُ الإعانة والنصرة؛ أي: اجهد في أن يتركوا نصرةَ بعضِهم البعض، واستعملْ كل وسيلة في التفرقة بينهم.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٧٣)، والخبر المذكور أورده البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٣٠) من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٩)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٢٥).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قرقر).

(٤) ما بين معكوفتين من متن «نور اليقين».

فإن الحرب خدْعة»[1].

الخدعة في الحرب

فخرج من عنده، وتوجه إلى بني قريظة الذين نقضوا عهود المسلمين، فلما رأوه، أكرموه؛ لصداقته معهم، فقال: يا بني قريظة! تعرفون وُدّي لكم، وخوفي عليكم، وإني محدِّثكم حديثاً فاكتموه عنّي، قالوا: نعم، . . .

قوله: (فإن الحرب خدعة) يروى: ـ بفتح الخاء وضمها مع سكون الدال ـ، وبضمها مع فتح الدال، ومعناه على الأول: أن الحرب ينقضي أمرها بخدعة واحدة، من الخداع؛ أي: أن المقاتل إذا خدع مرة واحدة، لم تكن لها إقالة، هي أفصح الروايات وأصحها.

ومعنى الثاني: هو الاسمُ من الخداع.

ومعنى الثالث: أن الحرب تخدع الرجال وتمنيهم، ولا تفي لهم، كما يقال: فلان رجل لُعَبَة وضُحَكَة؛ أي: كثير اللعب والضحك. اهـ. «نهاية»[2].

الخدعة في الحرب

قوله: (فخرج من عنده. . .) إلخ: قبل أن يخرج قال: يا رسول الله! إني أقول ما يقتضيه الحال، وإن كان خلافَ الواقع، قال: «قل ما بدا لك، فأنت في حل». اهـ. حلبي[3].

قوله: (فلما رأوه أكرموه)؛ أي: لأنه كان نديماً لهم، قال: فلما رأوني،

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٤٤٥) عن عبدالله بن كعب بن مالك، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٩).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ١٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٩)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٢٧٨) من حديث نعيم بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

فقال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير من إجلائهم، وأخذِ أموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم؛ فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها، وإلا انصرفوا لبلادهم. وأما أنتم، فتساكنون الرجلَ ـ يريد: الرسولَ صلى الله عليه وسلم ـ ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى ألّا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم، فاستحسنوا رأيه، وأجابوه إلى ذلك.

ثم قام من عندهم، وتوجه إلى قريش، فاجتمع برؤسائهم، وقال: أنتم تعرفون ودّي لكم، ومحبتي إيّاكم، وإني محدّثكم حديثاً فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوه مع محمد، وخافوا منكم أن ترجعوا وتتركوهم معه، ....

رحبوا بي، وعرضوا عليَّ الطعام والشراب، فقلت: إني لم آت لشيءٍ من هذا، إنما جئتكم تخوفاً عليكم لأشير عليكم برأيي، يا بني قريظة! قد عرفتم ودي إياكم... إلخ ما في كلام المصنف. اهـ. حلبي[1].

قوله: (انتهزوها)؛ أي: اغتنموها، قاموس[2]، وفي «المصباح»: انتهز الفرصة: شمر لها مبادراً[3].

قوله: (بأن تأخذوا منهم رهائن...) إلخ؛ أي: ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى يناجزوه؛ أي: يقاتلوه. اهـ. حلبي[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٩).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نهز).

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: نهز).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٠).

فقالوا له: أيُرضيك أن نأخذ جمعاً من أشرافهم ونعطيهم لك، وتردّ جناحنا الذي كسرت ـ يريد: بني النضير ـ فرضي بذلك منهم. وها هم مرسلون إليكم، فاحذروهم، ولا تذكروا مما قلت لكم حرفاً.

ثم أتى غطفانَ، فأخبرهم بمثلِ ما أخبر به قريشاً، فأرسل أبو سفيان وفداً لقريظةَ يدعوهم للقتال غداً، فأجابوا: إنّا لا يمكننا أن نقاتل في السبت ـ وكان إرساله لهم ليلة السبت ـ ولم يُصِبنا ما أصابنا إلا من التعدّي فيه، ومع ذلك فلا نقاتل حتى تعطونا رهائن منكم حتى لا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، . . . .

قوله: (فقالوا له)؛ أي: قالت بنو قريظة لمحمد صلى الله عليه وسلم: أيرضيك . . . إلخ.

وقوله: (ونعطيهم لك)؛ أي: لتضرب أعناقهم.

وقوله: (وترد جناحنا الذي كسرت)؛ أي: ترجع بني النضير إلى ديارهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم: نعم، فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منهم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، واحذروهم على أسراركم. اهـ. حلبي[١].

قوله: (فأرسل أبو سفيان وفداً): أرسل لهم عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز؛ أي: نقاتل محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه. اهـ. حلبي[٢].

قوله: (ليلة سبت)؛ أي: في شوال كما في الخازن في تفسير سورة الأحزاب[٣].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٠).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤١٥).

فتحققت قريش وغطفان كلام نُعيم بن مسعود، وتفرقت القلوب، فخاف بعضُهم بعضاً، وكان عليه الصلاة والسلام قد ابتهل إلى الله الذي لا ملجأ إلا إليه، ودعاه بقوله: «اللهمّ مُنْزِلَ الكتاب، سريعَ الحساب، اهزم الأحزاب، اللهمّ اهزمْهم وانصرنا عليهم»[1].

قوله: (**فتحققت قريش وغطفان...**) إلخ؛ أي: ولم يردوا لهم جواباً، وجاء نعيم إلى بني قريظة، وقال لهم: كنت عند أبي سفيان، وقد جاءه رسولكم فقال: لو طلبوا مني عَناقاً ما دفعتها لهم، فاختلفت كلمتهم، وجاء حيي بن أخطب لبني قريظة، فلم يجد منهم موافقة له، وقالوا: لا نقاتل معهم حتى يضموا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا. اهـ. حلبي[2].

قوله: (**وانصرنا عليهم**)؛ أي: وزلزلهم كما في الحلبي نقلاً عن الصحيحين، قال: وقام في الناس فقال: «يا أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإن لقيتم العدو فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[3]؛ أي: السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيف في سبيل الله تعالى.

ودعا صلى الله عليه وسلم بقوله: «يا صريخ المكروبين! يا مجيب المضطرين! اكشف همي وغمي وكربي؛ فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي»[4].

وقال له المسلمون: هل من شيء تقوله؛ فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال:

---

(١) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥١).

(٣) رواه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢)، من حديث عبدالله بن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) أورده القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ١٥٧).

وقد أجابَ الله دعاءه عليه الصلاة والسلام، فأرسل على الأعداء ريحاً باردة في ليلة مظلمة، فخاف العرب أن تتفق اليهود مع المسلمين، ويهجموا عليهم في الليلة المدلهمَّة، فأجَمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح. ولما سمع عليه الصلاة والسلام الضوضاء في جيش العدو، . . . .

«نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»[1].

فأتاه جبريل فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأَعلم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، وصار يقول: «شكراً شكراً». اهـ. حلبي[2].

قوله: (فأرسل الله عليهم ريحاً باردة. . .) إلخ: قال الحلبي: بعث الله تعالى ريحاً، فنقلت بيوتهم، وقطعت أطنابها، وكفأت قدورَهم على أفواهها، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم، وأطفأت نيرانهم، وأرسل الله إليهم الملائكة زلزلتهم، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[الأحزاب: ٩]، ولم تقاتل الملائكة، بل نفثت في روعهم الرعب. اهـ[3].

قوله: (ولما سمع عليه السلام الضوضاء. . .): إلخ لم أجد في الحلبية والدحلانية ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سمع ذلك بنفسه، والذي في «سيرة ابن هشام»: فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جماعتهم؛ دعا حذيفةَ بنَ اليمان، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٣/ ٣) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٤٨)، والخبر المذكور أورده القرطبي في «تفسيره» (١٤/ ١٥٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٩٠).

قال لأصحابه: «لا بدّ من حادث، فمَن منكم ينظر لنا خبر القوم؟» فسكتوا حتى كرر ذلك ثلاثاً. وكان فيهم حُذيفة بن اليمان، فقال عليه الصلاة والسلام: «تسمع صوتي منذ الليلة ولا تجيب» فقال: يا رسول الله! البرد شديد، فقال: «اذهب في حاجة رسول الله، واكشف لنا خبر القوم»، فخاطر ـ رضي الله عنه ـ بنفسه في خدمة نبيِّه صلى الله عليه وسلم، حتى اطّلع على جليّة الخبر، . . . .

قوله: (فمن منكم ينظر خير القوم): تتمة الرواية كما في الحلبي: «ثم يرجع أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة»[1].

قوله: (فسكتوا)؛ أي: من شدة الخوف والجوع والبرد.

قوله: (فقال: يا رسول الله! البرد شديد) في الحلبي: فقلت: لا والذي بعثك بالحق! إن قدرت؛ أي: ما قدرت على ما بي من الجوع والبرد والخوف، فقال: «اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك، حتى ترجع إلينا».

ثم قال: قال حذيفة: فمضيت كأني في حَمَّام، فلما وليت، دعاني فقال لي: «لا تُحدِثن شيئاً»، وفي رواية: «لا ترمِ بسهم ولا حجر، ولا تضربن بسيف حتى تأتيني»[2].

قوله: (على جَلِيَّة الخبر): ـ بفتح الجيم وكسر اللام وتشديد الياء ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥١)، والحديث المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٩٢) من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٢)، والخبر المذكور رواه مسلم (١٧٨٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٦)، من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

وأن الأعداء عازمون على الرحلة[1].

هزيمة الأحزاب

وقد بلغ من خوفهم، أن كان رئيسهم أبو سفيان يقول لهم: ليتعرَّف كلٌّ منكم أخاه، وليمسكْ بيده حذراً من أن يدخل بينكم عدو، وقد حلّ عقَالَ بعيره يريد أن يبدأ بالرحيل، . . . .

في «القاموس»: الجليّ؛ كغَنيّ: الواضح[2].

هزيمة الأحزاب

قوله: **(كان رئيسهم أبو سفيان يقول. . .)** إلخ: سمع هذا الكلام منه حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ، وتفصيل ذلك كما روي عنه قال: جئت إليهم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فدخلت في غمارهم، فسمعت أبا سفيان يقول: يا معشر قريش! ليعرف كل امرئ جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون، فأخذت بيد جليس لي على يميني وقلت: من أنت؟ قال معاوية بن أبي سفيان، وقبضت بيدي على من إلى يساري وقلت: من أنت؟ قال عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بي، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش! والله! إنكم لستم بدار إقامة، وقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، فما حل عقاله إلا وهو قائم؛ أي: فإنه لما ركبه كان معقولاً، فلما ضربه وثب على ثلاث قوائم ثم حل عقاله، فقال له

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٨٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٢)، وخبر حذيفة ـ رضي الله عنه ـ رواه مسلم (١٧٨٨) من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: جلي).

فقال له صفوان بن أمية: إنَّك رئيس القوم، فلا تتركهم وتمضي، فنزل أبو سفيان وأذن بالرحيل، وترك خالدَ بنَ الوليد في جماعة ليحموا ظهور المرتحلين حتى لا يدهموا من ورائهم، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمّة التي تحزّب فيها الأحزاب من عرب ويهود على المسلمين، ولولا لطفُ الله وعنايتهُ بهذا الدين مِنَّةً منه وفضلاً، لساءت الحال[1].

عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس؟! فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله وأخذ بزمامه وجعل يقوده ويقول: ارحلوا، فجعل الناس يرحلون وهو قائم. اهـ. حلبي ودحلاني[2].

قوله: (فقال له صفوان بن أمية): الصواب: عكرمةُ بن أبي جهل؛ كما قدمناه آنفاً عن الحلبي والدحلاني[3].

قوله: (وترك خالد بن الوليد)؛ أي: وعمرو بن العاص أيضاً، ففي الحلبي والدحلاني: أن أبا سفيان بعد أن صار يقول للناس: ارحلوا، قال لعمرو بن العاص: تقيم في جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه، فإنا لا نأمن من أن نطلب، فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أقيم، فأقام عمرو وخالد في مئتي فارس، وسار جميع العسكر، قال حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: ولولا عهدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إليَّ حين بعثني أن لا أحدِث شيئاً، لقتلته ـ يعني: أبا سفيان ـ بسهم، وسمعت غطفان بما فعلت

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٨٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٢ ـ ٦٥٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٢٩).

وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة، وكان حقّاً على الله أن يسمّيه نعمة بقولـه في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ . . . . .

قريش، فاشتدوا راجعين إلى بلادهم.

قال حذيفة: ثم أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته قائماً يصلي، فخبرته، فحمِد الله تعالى وأثنى عليه[1].

قوله: (وكان جلاء الأحزاب في ذي القعدة): قال الحلبي: هو قول ابن سعد، وقيل: كان في شوال، وكان ذلك سنة خمس؛ أي: كما قاله الجمهور، قال الذهبي: وهو المقطوع به، وقال ابن القيم: إنه الأصح[2]، وقال الحافظ ابن حجر: هو المعتمد. اهـ[3].

قوله تعالى: (﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾): يعني: الأحزاب، وهم: قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير.

وقوله: (﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾) يعني: الملائكة، ولم تقاتل الملائكة يومئذ، بل كبرت في جوانب العسكر، فقال طليحة بن خويلد الأسدي: أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاءَ النجاءَ، فانهزموا من غير قتال.

(﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾): من التحصن بالخندق، والثبات على معاونة النبي صلى الله عليه سلم (﴿بَصِيرًا﴾) رائياً.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٢٩)، والخبر المذكور أورده ابن عبد البر في «الدرر» (ص: ١٧٧).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٦٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٤). وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٣٩٣).

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ ....

(﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾): من أعلى الوادي من قِبل المشرق بنو غطفان.

(﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾): من أسفل الوادي من قِبل المغرب قريش.

(﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾): مالت عن مستوى بصرها حيرة وشخوصاً.

(﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾): الأنواع من الظن، فظن المخلصون الثبت القلوب أن الله منجز وعده في إعلاء دينه، أو ممتحنهم، فخافوا الزلل، وضعف الاحتمال، والضعاف القلوب والمنافقون ما حكي عنهم، والألف مزيدة في أمثاله تشبيهاً للفواصل بالقوافي.

(﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾): اختُبروا، فظهر المؤمن من المنافق، والثابت من المتزلزل.

(﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾) من شدة الفزع.

(﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾)؛ أي: ضعف اعتقاد.

(﴿إِلَّا غُرُورًا﴾): وعداً باطلاً.

(﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾)؛ أي: لا موضعَ قيامٍ لكم هاهنا.

(﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾): إلى منازلكم هاربين.

(﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾): غير حَصينة، وأصلُها الخَلَل، يقال: عور المكان: إذا بدا منه خلل يُخاف منه العدو والسارق، وقد كذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾، بل هي حصينة.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١٣][1].

غزوة بني قُرَيْظة

ولما رجع عليه الصلاة والسلام بأصحابه، وأراد أن يخلع لباس الحرب، أمره الله باللحوق ببني قريظة، حتى يطهِّر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود، ولا تربطهم المواثيق، ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة، . . . .

(﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾): وما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال. اهـ. بيضاوي ونسفي[2].

غزوة بني قريظة

قوله: (وأراد أن يخلع لباس الحرب. . .) إلخ: هذا سهو، والصواب: أنه خلع ذلك، قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمين، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر، أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أوقد وضعتَ السلاحَ يا رسول الله؟ قال: «نعم»، قال جبريل: فما وضعت الملائكةُ السلاح بعدُ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزِلٌ بهم. اهـ. ملخصاً[3].

وعبارة ابن القيم في «زاد المعاد»[4]، وكذا الحلبي والدحلاني صريحة أيضاً في أنهم كانوا قد وضعوا سلاحهم، وحينما أتى جبريل كان النبي صلى الله عليه وسلم يغتسل في بيت عائشة، وقيل: في بيت زينبَ بنتِ جحش؛ كما بسطه الحلبي

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٢٨ ـ ٦٤١).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٩٢).

(٤) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٧٤).

فقال لأصحابه: «لا يُصَلِّيَنَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة»، فساروا مسرعين، وتبعهم عليه الصلاة والسلام راكباً على حماره، ولواؤه بيد علي ابن أبي طالب، وخليفته على المدينة عبدُالله بنُ أم مكتوم، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف، وقد أدرك جماعة من الأصحاب صلاة العصر في الطريق، . . . .

والدحلاني[1]، ولا يغتسل إلا من وضعَ جميع أثوابه.

قوله: (لا يصلين أحد منكم العصر. . .) إلخ: في الحلبي: لما أمر صلى الله عليه وسلم بالإسراع إلى بني قريظة، أبرز مؤذناً ـ وهو بلال ـ، فأذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة»[2]، وفي رواية: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منادياً: «يا خيل الله اركبي»[3]؛ أي: يا فرسانَ خيل الله، ثم سار إليهم، قال: وقد لبس صلى الله عليه وسلم السلاح: الدرع والمِغْفَرَ والبيضة، وأخذ قناة بيده الشريفة، وتقلد السيف، وركب اللُّحيف، وقيل: ركب حماراً ـ وهو اليعفور ـ عرياناً، والناس حوله قد لبسوا السلاح، وركبوا الخيل، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً.

ثم قال: ومر صلى الله عليه وسلم بثغر من بني النجار قد لبسوا السلاح، فقال: «هل مر بكم أحد»، قالوا: نعم، دحية الكلبي مر على بغلة بيضاء ـ وفي رواية: على فرس أبيض ـ عليه اللأمة، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلُع عليكم الآن، فلبسنا سلاحنا، وصففنا، فقال رسول الله

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٨ ـ ٦٥٩)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣٣).

(٢) رواه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠)، من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٤١٣)، وعزاه ابن عائذ عن قتادة.

فصلاّها بعضهم حاملين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم صلاتها على قصد السرعة، ولم يصلِّها الآخرون إلا في بني قريظة بعد مضيٍّ وقتها حاملين الأمر على حقيقته، فلم يُعنِّف فريقاً منهم.

صلى الله عليه وسلم: «ذاك جبريلُ عليه السلام بُعث إلى بني قريظة ليزلزل حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم». اهـ[1].

قوله: (فصلاها بعضهم...) إلخ: قال ابن القيم في «زاد المعاد»: إنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[2]، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدةً من الطائفتين.

واختلف الفقهاء: أيهما أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المصيبون، ولو كنا معهم، لأخرناها كما أخروها، ولما صليناها إلا في بني قريظة؛ امتثالاً لأمره، وتركاً للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلوها في الطريق في وقتها حازوا قَصَبَ السبق وكانوا أسعدَ بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلةَ الصلاة في وقتها، وفهموا ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولا سيما تلك الصلاة؛ فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الصريح الذي لا مدفع له ولا مطعن

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٩)، والخبر المذكور أورده عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٣٧)، وابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ١٩٣).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

فيه[1]، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن من فاتته فقدُ وتِرَ أهلهَ وماله[2]، أو قد حبط عمله[3]، فالذي جاء فيها أمر [لم][4] يجيء مثلُه في غيرها.

وأما المؤخرون لها، فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً؛ لتمسكهم بظاهر النصوص، وقصدِهم امتثالَ الأمر، وأما أن يكونوا هم المصيبين في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً؛ فحاشا وكلاَّ.

والذين صلوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين، فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضاً ـ رضي الله عنهم ـ. اهـ[5].

قوله: (ولما رأى بنو قريظة. . .) إلخ: قال ابن هشام: لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة، نزل على بئر من آبارها يقال لها: بئر أُنا، أو أَنَّى. اهـ[6].

قال في الذيل نقلاً عن «القاموس»: أُنا؛ كهُنا، أو كحَتَّى، أو بكسر النون المشددة: بئر بالمدينة لبني قريظة، وواد بطريق حاج مصر. اهـ[7].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٩٦)، ومسلم (٦٢٧)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري (٥٥٣)، من حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) ما بين معكوفتين من «زاد المعاد».

(٥) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٦) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٩٣).

(٧) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: أني).

قوله: (وأرادوا التنصل من فعلتهم. . .) إلخ: لم أجد ما يفيد ذلك في ابن هشام و«زاد المعاد» والحلبي والدحلاني، وهم إنما تنصلوا من شيء آخر، وهو كما في الحلبية والدحلاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدَّم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ برايته إلى بني قريظة، فلما دنا عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ من الحصن، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وغرزَ اللواءَ عند أصل الحصن؛ سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه صلى الله عليه وسلم وحقِّ أزواجِه، فسكت المسلمون وقالوا: السيف بيننا وبينكم.

فلما رأى عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً؛ أمر أبا قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن يلزم اللواء، ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «لعلك سمعت منهم لي أذى»، قال: نعم يا رسول الله، قال: «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً».

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال: «يا إخوان القردة! هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟!»، وفي رواية: نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم، وقال: «أجيبوا يا إخوة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت: هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟! أتشتموني؟»، فجعلوا يحلفون ويقولون: ما قلنا، ويقولون: يا أبا القاسم! ما كنت جهولاً، وفي لفظ: ما كنت فاحشاً. اهـ[1].

فتبين أنهم إنما تنصلوا من شتمه صلى الله عليه وسلم لا من نقضهم العهد.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٩ ـ ٦٦٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ١٩٣) عن ابن إسحاق.

وهي الغدر بمن عاهدوهم وقت الشغل بعدو آخر، ولكن أنَّى لهم ذلك وقد ثبت للمسلمين غدرُهم؟ فلما رأوا ذلك، تحصنوا بحصونهم، وحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، فلما رأوا أن لا مناص من الحرب، وأنهم إن استمروا على ذلك ماتوا جوعاً، طلبوا من المسلمين أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من الجلاء بالأموال وترك السلاح، فلم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم، فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم من غير مال ولا سلاح، فلم يرض أيضاً، بل قال: لا بدّ من النزول والرضا بما يحكم عليهم، خيراً كان أو شرًّا، فقالوا له: أرسل لنا أبا لُبابة نستشيره، وكان أوسيًّا من حُلفاء بني قريظة، له بينهم أولاد وأموال، فلما توجه إليهم، استشاروه في النزول على حكم الرسول، فقال لهم: انزلوا..........

قوله: (طلبوا من المسلمين...) إلخ: كان الرسول نباشَ بنَ قيس.

قوله: (من غير سلاح)؛ أي: ولا مال، وعبارة الحلبي والدحلاني: فأرسلوا له ثانياً بأنهم لا حاجة لهم بشيء من الأموال، لا من الحلقة ولا من غيرها، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكمه، فعاد نباشٌ إليهم بذلك. اهـ[1].

قوله: (أبا لبابة): اسمه: رفاعة بن المنذر الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: (فقال لهم: انزلوا...) إلخ: سبب هذه الزلة منه ـ رضي الله عنه ـ أنه لما وصل إلى بني قريظة، قام إليه الرجال، وجهش ـ أي: أسرع ـ إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت ما لهم، فَرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٣٧)، وفيه: «شاس» بدل «نباش».

وأومأ بيده إلى حلقه، يريد: أن الحكمَ الذبْح، ويقول أبو لبابة: لم أبارح موقفي حتى علمتُ أني خنتُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فنزل من عندهم قاصداً المدينة خجِلاً من مقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربط نفسه في سارية من سواري المسجد حتى يقضي الله فيه أمره. ولما سأل عنه عليه الصلاة والسلام، أُخبر بما فعل، فقال: «أما لو جاءني لاستغفرت له، أما وقد فعل ما فعل، فنتركه حتى يقضي الله فيه»[1].

ثم إن بني قريظة لما لم يروا بُدّاً من النزول على حكم رسول الله، فعلوا، فأمر برجالهم فكُتِّفوا، فجاءه رجال من الأوس، وسألوه أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاءَ إخوانهم الخزرج، . . . .

حلقه؛ أي: أنه الذبح[2].

قوله: **(وربط نفسه)**: في الحلبي: لما ربط نفسه قال: والله! لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يُرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً. اهـ. حلبي[3].

قوله: **(فأمر برجالهم فكتفوا)**: قال الدحلاني: كانوا ست مئة، وقيل: سبع مئة وخمسين مقاتلاً، وقيل: كانوا بين الثماني مئة والسبع مئة، وأخرج النساء والذراري من الحصون، وجعلوا ناحية، وكانوا ألفاً، واستعمل عليهم عبدالله بن سلام[4].

قوله: **(أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع)**؛ أي: حيث إنهم نزلوا على

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٢) عن معبد بن كعب بن مالك الأنصاري.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣٩).

فقال لهم: ألا يرضيكم أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: نعم. واختاروا سيدَهم سعدَ بنَ معاذ الذي كان جريحاً من السهم الذي أُصيب به في الخندق، وكان مقيماً بخيمة في المسجد معدّةٍ لمعالجة الجرحى، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يأتي به، فحملوه على حماره، والتفّ عليه جماعة من الأوس يقولون له: أحسن في مواليك، ألا ترى ما فعل ابن أُبَيّ في مواليه؟ فقال ـ رضي الله عنه ـ: لقد آن لسعد. . . . .

حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كلمه فيهم عبدُالله بن أبي ابنُ سلول، فوهبهم له على أن يجلوا كما تقدم. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (بخيمة في المسجد)؛ أي: عند امرأة من أسلم يقال لها: رفيدة، كانت لها خيمة في المسجد.

وفي ابن هشام: أنها كانت تحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين. اهـ[2].

قوله: (أحسن في مواليك): المولى: يطلق على المالك والعبد، قال الشاعر:

ولن يستوي سادةٌ وعبيدُهم ... على أن أسماء الجميع موالي[3]

ويطلق على معان أُخر ذكرها في «القاموس»، منها: الحليف[4]، وهو المراد هنا.

قوله: (لقد آن لسعد. . .) إلخ: قال ذلك لما أكثروا عليه القول، ولما قاله

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ١٩٩).

(٣) أورده الدمياطي في «إعانة الطالبين» (٤/ ٣٢٣)، ولم يُسمِّ قائله.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ولي).

ألّا تأخذه في الله لومةُ لائم[1].

ولما أقبل على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم جلوس، قال عليه الصلاة والسلام: «قوموا إلى سيّدكم فأنزِلوه»، ففعلوا، وقالوا له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم. وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: «احكم فيهم يا سعد»، فالتفت سعد للناحية التي ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: عليكم عهدُ الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟ فقالوا: نعم، فالتفت إلى الجهة التي فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: وعلى مَنْ هنا كذلك؟ ـ وهو غاضٌّ طرفهَ إجلالاً ـ، فقالوا: نعم، فقال: فإني أحكم أن تقتلوا الرجال، وتَسْبوا النساء والذرية، . . . .

قال بعضهم: وا قوماه. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (احكم فيهم يا سعد): لما قال له ذلك، قال: الله ورسوله أحقُّ بالحكم، قال: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم»[3].

قوله: (التي ليس فيها رسول الله)؛ أي: إلى بني قريظة.

قوله: (وتسبى النساء والذرية)؛ أي: وأن تكون الديار للمهاجرين دون الأنصار؛ كما في رواية: فقالت الأنصار: لنا معهم ـ أي: حصة ـ، فقال: إني أحببت أن يستغنوا عنكم[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٠).

(٣) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٤١٢)، عزاه لابن عائذ عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٧٧) عن حميد بن هلال.

فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله»[1]؛ لأن هذا جـزاءُ الخائن الغادر. ثم أمر بتنفيذ الحكم، فنفذ عليهم، وجُمعت غنائمهم، . . . .

قوله: **(حكمتَ فيهم بحكم الله)** قال الدحلاني: وفي رواية: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات»[2]، «فقد طرقني بذلك المَلَـك سَـحَراً». اهـ[3].

قوله: **(فنفذ فيهم)**: تفصيل ذلك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمـر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، والنسـاء والذريـة فـي دار بنـت الحـارث النجارية، ثم غدا صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثـم خـرج إلـى سـوق المدينـة، فخندق فيها خنادق؛ أي حفر فيها حفائر، ثـم جلـس صـلى الله عليـه وسـلم ومعـه أصحابه، ثم أمر بقتل كل من نبت شعر عانته، فبعث إليهم فجـاؤوا أرسـالاً تُضـرب أعناقهُم، ويلقـون في تلك الخنادق، وقـد قال بعضهم لسيدهم كعب بن أسيد: يا كعب! ما ترى ما يصنع بنا؟ قال: أنتم في كل موطن لا تعقلون، ألا تـرون أنـه من ذهب منكم لا يرجع، هو والله القتل، وقد دعوتكم إلى غير هذا، فـأبيتم علـيَّ، قالوا: ليس حين عتاب. اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٣، ٤١٢١)، ومسلم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخـدري ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسـطلاني (١/ ٢٩٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٦).

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث» للهيثمي (٦٩٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢٥٧٠) بنحوه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحـلان (٢/ ١٤٠)، والروايـة المـذكورة رواها أبو جعفر بن البختري كما في «مجموع فيـه مصـنفاته» (٣٩٨/ ١٥٣) مـن حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

فكانت ألفاً وخمس مئة سيف، وثلاث مئة درع، وألفي رمح، وخمس مئة ترس وحَجَفَةٍ، ووجد أثاثاً كثيراً، وآنية، وأَجمالاً نواضحَ، وشياهاً، فخمَّس ذلك كله مع النخل والسبي، للراجل ثلثُ الفارس، وأعطى النساء اللاتي يُمرضن الجرحى، ووجد في الغنيمة جِرار خمر فأُريقت. وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرحُ سعد بن معاذ، فمات ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ. كان في الأنصار كأبي بكر في المهاجرين. . . . .

وقد أشار بقوله: (قد دعوتكم إلى غير هذا)، وهو نصيحته لهم بمتابعتهم له صلى الله عليه وسلم وتصديقهم له، فلم يسمعوا منه، وقد بسط ذلك الحلبي(١).

قوله: (وجحفة)(٢): صوابه: حَجَفَة ـ بتقديم الحاء على الجيم ـ، وهي كما في «القاموس»: التروس من جلود بلا خشب ولا عقب(٣).

قوله: (نواضح)؛ أي: يسقى عليها الماء.

قوله: (ثلث الفارس)؛ أي: أن للفرس سهمين، ولصاحبه سهماً، وقد كان معهم ست وثلاثون فرساً.

قوله: (وأعطى النساء اللاتي. . .) إلخ: قال الحلبي: ورضخ للنساء اللاتي حضرن القتال، وهن: صفيةُ عمتُه صلى الله عليه وسلم، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ، وكبشة بنت رافع، ولم يسهم لهن. اهـ(٤).

قوله: (وبعد تمام هذا الأمر انفجر جرح سعد): قال الدحلاني: إن الله

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٧).

(٢) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حجف).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٧).

وقد كان له العزم الثابت في جميع المشاهد التي تقدمت الخندقَ، وكان عليه الصلاة والسلام يحبه كثيراً، وبشّره بالجنة على عظيم أعماله.

وعقب رجوع المسلمين إلى المدينة تاب الله على أبي لُبابة بقوله:
﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢][1].

أقر عيني سعد بن معاذ بقتل بني قريظة. فإنه سأل الله لما أصيب بالسهم في الخندق، وقال: اللهم لا تُمِتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة، فاستجاب الله دعوته، وكان جرحه قارب البرء، فدعا الله وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحبّ إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك، وأخرجوه من وطنه، اللهم إني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان قد بقي من حرب قريش شيء، فأبقني له حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها ـ أي: الجراح ـ واجعل موتي فيها، فانفجرت تلك الجراحة من ليلته تلك، فمات منها[2].

وفي رواية: أن عنزاً مرت به وهو مضطجع، فأصابت الجرح بظلفها، فانفجرت جراحته، وسال الدم حتى مات. اهـ. دحلاني باختصار[3].

قوله: (تاب الله على أبي لبابة) قال في الدحلانية: مكث أبو لبابة ـ رضي الله عنه ـ مربوطاً ست ليال لا يذوق طعاماً ولا شراباً، وتأتيه امرأته فتحله للصلاة،

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٥٧ ـ ٦٧٦).

(٢) رواه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥)، والرواية المذكورة رواها ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٧٧) عن حميد بن هلال.

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبقَ إلا بقية من كبارهم بخيبر وأهلها، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب. وسيأتي للقارئ قريباً اليوم الذي يعاقَبون فيه.

زواج زينب بنت جحش

وفي هذا العام تزوج عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ـ وأمها أُميمة عمتُه ـ بعد أن طلقها مولاه زيد بنُ حارثةَ. وكان من أمر زواجها لزيد: أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له، فتأففَ أهلها من ذلك؛ لمكانها في الشرف العظيم؛ فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالي، ويعتقدون أن لا كفؤ مِنْ سواهم لبناتهم، . . . .

ثم يعود فتربطه بالجذع ـ وقيل: مكث مربوطاً بضع عشرة ليلة يطلقونه للصلاة، ثم يأمرهم بإعادة الربط، حتى خر مغشيّاً عليه ـ، ثم أنزل الله توبته على النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ . . .﴾ إلخ [التوبة: ١٠٢] الآية، فأطلق حينئذ[1].

زواج زينب بنت جحش

قوله: (وكان من أمر زواجها لزيد. . .) إلخ: زيد بن حارثة كان اشتراه صلى الله عليه وسلم بعكاظ في الجاهلية، وأعتقه وتبناه.

قال الحلبي: إن زيداً لما أراد أن يتزوج زينب، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله! اخطب عليَّ، قال: «من؟» قال: زينب بنت جحش، قال: «لا أراها تفعل، إنها أكرم من ذلك نفساً»، فقال: يا رسول الله! إذا كلمتها

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٣٨)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ١٩٧) عن بعض أهل العلم.

وزيد ـ وإن كان الرسول صلى الله عليه وسلم تبناه ـ ولكن هذا لا يُلْحِقه بالأشراف، فلما نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ . . . .

أنت، وقلتَ: زيد أكرمُ الناس عليَّ، فعلَتْ، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنها امرأة لسناء»[1]، فذهب زيد ـ رضي الله عنه ـ إلى عليّ ـ كرم الله وجهه ـ، فحمله أن يكلم له النبي صلى الله عليه وسلم، فانطلق معه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه، فقال: «إني فاعل ذلك، ومرسلُك يا عليُّ إلى أهلها فتكلمهم»[2]، ففعل، ثم عاد يخبره[3] بكراهتها وكراهة أخيها لذلك[4].

قال في الخازن: فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ إلخ [الأحزاب: ٣٦] الآية، فلما سمعت زينب وأخوها، رضيا وسلما، وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنكحها زيداً، ودخل بها، وساق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً، ودرعاً، وملحفة، وخمسين مدًّا من الطعام، وثلاثين صاعاً من تمر[5].

قال الحلبي: أعطاه ذلك كله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأولم عليها، وأطعم المساكين خبزاً ولحماً[6].

قوله تعالى: (﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾) إلخ: قال الفخر الرازي: الوجه

---

(١) في «السيرة الحلبية» (٢/ ٤٨٣): أي: فصيحة، وفي «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ٤٧): «حسناء» بدل «لسناء».

(٢) أورده مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٧).

(٣) في الأصل: «بأمره»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤، ٣/ ٤١١).

(٥) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٧).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤١٢).

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦] لم يروا بُدًّا من القبـول، فلما دخل عليها زيد، أَرَتْهُ من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله، فاشتكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمره باحتمالها، والصبر عليها إلى أن ضاقت نفسه، فأخبره بالعزم على طلاقها، وقرر ذلك، ولما كانت العِشْرَةُ بين مثل هذين الزوجين ضرباً من العبث، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بعد طلاقها؛ حسماً لهذا الشقاق من جهة، وحفظاً لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولًى من جهة أخرى، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشي من لوم اليهود والعرب له في زواجه بزواج ابنه، فقال لزيد: «﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾»[1]، وأخفى في نفسه ما أبداه الله، فَبَتَّ الله حكمه بإبطال هذه القاعدة، وهي: تحريمُ زوج المتبنَّى بقوله في سورة الأحزاب: . . . .

أن يقال: إن الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته: إنهن مخيرات؛ فهم منه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد ضرر الغير، فمن كان ميله إلى شيء يمكِّنه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، ويترك النبي عليه السلام حق نفسه لحظ غيره، فقال في هذه الآية: لا ينبغي أن يظن ظانٌّ أن هوى نفسه متبعه، وأن زمام الاختيار بيد الإنسان كما في الزوجات، بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله، فما أراد الله هو المتبع، وما أراد النبي هو الحق، ومن خالفهما في شيء، فقد ضل ضلالاً مبيناً؛ لأن الله هو المقصد، والنبي هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضال قطعاً. اهـ[2].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، و«الشفا» للقاضي عياض (٢/ ١٨٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٢٥/ ١٨٣).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[الأحزاب: ٣٧]. **ثم إن الله حرم التبني على المسلمين؛ لما فيه من الأضرار، وأنزل فيه في سورة الأحزاب:** ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ....

قوله: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾)؛ أي: حاجة؛ بحيث ملها، ولم يبق له فيها حاجة، وطلقها، وانقضت عدتها.

وقيل: الوطر كناية عن الطلاق.

(﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾)؛ أي: أمر بتزويجها منه، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ويؤيده: أنها كانت تقول لسائر [نساء][1] النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زَوَّجكن أولياؤكن[2].

(﴿أَدْعِيَآئِهِمْ﴾): جمع الدعيّ، وهو المتبنَّى.

قوله تعالى: (﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾) إلخ الآية: قال **الخازن: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب، قال الناس: إن محمداً** تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤٠]؛ **يعني: زيدَ بنَ حارثة، والمعنى: أنه لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى** يثبت بينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الطهر والنكاح. اهـ[3].

وقوله: (﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾): قال ابن عباس: يريد: لو لم أختم به النبيين، لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً[4].

---

(١) ما بين معكوفتين من «تفسير الخازن» (٤/ ٣٧٧).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٩).

(٤) أورده الخازن في «تفسيره» (٣/ ٤٢٩).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٠]. ومن هذا الحين صار اسم زيد: زيدَ ابنَ حارثة بدل زيد بن محمد، وأبدل بذلك أن ذكر اسمه في القرآن يُتلى على مرِّ الدهور والأعوام[1].

يقول المؤرخون وذوو المقاصد السافلة منهم في هذه القصة أقوالاً لا تجوز إلا ممّن ضاع رشده، ولم يفْقَه حقيقة ما يقول؛ فإنهم يذكرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم توجه يوماً لزيارة زيد، فرأى زوجه مصادَفَةً؛ لأن الريح رفعت الستر عنها، فوقعت في قلبه، فقال: سبحان الله! فلما جاء زوجها، ذكرت له ذلك، فرأى من الواجب عليه فراقها، فتوجه وأخبر الرسول بعزمه، فنهاه عن ذلك... إلخ.

وعن ابن عباس قال: إن الله لما حكم أن لا نبيَّ بعدَه، لم يعطه ولداً ذكراً يصير رجلاً[2].

وقوله: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمًا﴾)؛ أي: دخل في علمه أنه لا نبي بعده.

قوله: (فإنهم يذكرون...) إلخ: تفصيل ما قيل في هذه القصة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجها من زيد، مكثت عنده حيناً، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيداً ذات يوم لحاجة، فأبصر زينب في درع وخمار، وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش، وقعت في نفسه، وأعجبه حسنها، فقال: «سبحان الله مقلبِ القلوب»، وانصرف، فلما جاء زيد، ذكرتْ له ذلك، ففطن زيد، وأُلقي في نفسه كراهيتها في الوقت، وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال له: ما لك؟ أرابك منها شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله! ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤١٢).

(٢) أورده الخازن في «تفسيره» (٣/ ٤٢٩).

عليّ بشرفها، وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك زوجك واتق الله في أمرك». اهـ. خازن[1].

ومثله في النسفي وغيره[2]، وقول المؤلف قبل ذلك: (ويقول جهال المؤرخين...) إلخ: الظاهر أنه عنى بهم كُتاب الإفرنج ومن حذا حذوَهم من ذوي المقاصد السافلة الذين جعلوا هذه القصة وسيلة للطعن ـ والعياذ بالله ـ في حضرة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، وأما المفسرون المسلمون، فلم يكن لهم بذلك مقصد سافل، وقد صرحوا بأنه على فرض صحة هذه القصة[3] أن مثل ذلك لا يقدح في حال الأنبياء، مع أن العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الأشياء، وأنه رآها فجأة فاستحسنها، ومثل هذا لا نُكْرة فيه؛ لما طُبع عليه البشر من استحسان الحسن، ونظرة الفجأة معفوٌّ عنها ما لم يقصد مأثماً؛

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٧)، والخبر المذكور أورده مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤٧) بلا إسناد، وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٣٤): «ذكره الثعلبي بغير إسناد، وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله»، والرواية التي أشار إليها ابن حجر رواها الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ١٣)، وهذه الرواية شديدة الضعف؛ لوجود علتين:

الأولى: أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف؛ كما ذكر ابن حجر في «تقريب التهذيب» (ص: ٣٤٠).

والثانية: أن الرواية من قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، هو من أتباع التابعين، توفي سنة (١٨٢هـ)، ولم يذكر الواسطة التي روى عنها الخبر.

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠٦).

(٣) العبارة للخازن.

وهذا مما يكذبه: أن نساء العرب لم تكن قبل ذلك تعرف ستر الوجوه، وزينب بنتُ عمته أسلمتْ قديماً ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فكيف لم يرها، وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات، وهي بنت عمته، إلا حينما رفعت الريح الستر مصادفة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الذي زوجها زيداً؟! فلو كان له فيها رغبةُ حبّ أو عشق، لتزوجها هو، ولا مانع يمنعه من ذلك.

لأن الودَّ وميلَ النفس من طبع البشر[1].

قوله: (وهذا ما يكذبه: أن نساء العرب...) إلخ: للخازن تحقيقات بديعة وبحثٌ نفيس في هذه القصة، ويظهر أن ما كتبه المصنف هنا إنما استفاده من هذه التحقيقات، ونحن نذكر ما ذكره الخازن، وإن كان فيه طول؛ لما فيه من زيادة الفوائد على ما ذكره المصنف.

قال الخازن: فإن قلت: ما ذكروه في تفسير هذه الآية وسببِ نزولها من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها، فيه أعظمُ الحرج، وما لا يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم من مَدِّ عينيه لما نُهي عنه من زهرة الحياة الدنيا.

قلت: هذا إقدام عظيم من قائله، وقلةُ معرفة بحقِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وبفضلِهِ، وكيف يقال: (رآها فأعجبته) وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وسلم، وهو زَوَّجها لزيد، فلا يشك في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها؛ كما ذُكر عن جماعة من المفسرين.

وأصحُّ ما في هذا الباب: ما روي عن سفيان بن عيينة عن عليِّ بنِ زيد بن

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٨).

جدعان قال: سألني زين العابدين علي بن الحسين قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]؟ قلت: يقول: لما جاء زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إني أريد أن أطلق زينب؛ أعجبه ذلك، وقال: «أمسك عليك زوجك؛ واتق الله».

فقال علي بن الحسين: ليس كذلك، فإن الله عز وجل قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد قال: إني أريد أن أطلقها؛ قال له: «أمسك عليك زوجك»، فعاتبه الله تعالى، وقال: لم قلت: أمسك عليك زوجك، وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك؟! وهذا هو الأولى والأليقُ بحال الأنبياء، وهو مطابق للتلاوة؛ لأن الله تعالى أعلم أنه يُبدي ويُظهر ما أخفاه، ولم يظهر غير تزويجها[1] منه، فقال تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها، أو إرادة طلاقها؛ لكان يظهر ذلك؛ لأنه لا يجوز أن يخبر أنه يظهره، ثم يكتمه ولا يظهره، فدل على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخبر زيداً أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي[2].

وهذا قول حسنٌ مَرْضِيٌّ، وكم من شيء يتحفظ منه الإنسان، ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباح متسع، وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سلماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويجَ النبي صلى الله عليه وسلم إياها؛ لإزالة حرمة التبني، وإبطالِ سُنته؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ

---

(١) في الأصل: «تزويجه»، والتصويب من «تفسير الثعلبي»، و«تفسير الخازن».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٤٨).

ومن منّا يتصور السيدَ الأكرمَ صلى الله عليه وسلم يقول لقومه: إنه مرسَل من ربه، ويتلو عليهم صباح مساء أمْرَ الله له بقوله في سورة الحِجْرِ المكية: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[الحجر: ٨٨]. وفي سورة طه المكية أيضاً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[طه: ١٣١]. ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متَّبعيه، وينظر إلى زوجه مصادفة، ثم يشتهي زواجَها؟! إن هذا الأمر عظيم، تشعر بذلك صدورُنا. ولو حدث أمر مثلُ ذلك من أقل الناس، لعيبَ عليه، فكيف بمن اجتمعت كلمةُ المؤرخين على أنه أحسنُ الناس خُلُقاً، وأبعدُهم عن الدنايا، وأشدُّهم ذكاء وفراسة، حتى مدحه الله بقوله في سورة نٓ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[نٓ: ٤]؟!، لا شك أن هذه الخرافة مما يلتحق بخرافة الغرانيق، وضعها أعداء الدين؛ ليصلوا بها إلى أغراضهم، . . . .

﴿مُّحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٧].

فإن قلت: فما الفائدة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيداً بإمساكها؟

قلت: هو أن الله تعالى أعلمَ نبيه أنها زوجته، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن طلاقها، وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به، فلما طلقها زيد، خشي قولَ الناس: يتزوج امرأة ابنه، فأمره الله تعالى بزواجها؛ ليباح مثل ذلك لأمته، اهـ[1].

قوله تعالى: (﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾)؛ أي: أصنافاً من الكفرة.

(﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾): زينتها وبهجتها، وانتصب على الذم، أو على إبداله من محل (به)، أو على إبداله من (أزواجاً) على تقدير ذوي زهرة. اهـ. نسفي[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٧٢).

والحمدُ لله قد ناقضت النقل والعقل، فلم تبق شبهة في أن الحقيقة فيما نقلناه لك أولاً، وهو الذي يُستفاد من القرآن الشريف، قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[الأحزاب: ٣٧]. والذي أبداه الله هو زواجُه بها، ولم يُبدِ غيرَ ذلك، وهذا القرآن أعظمُ شاهد[1].

الحجاب

وفيه نزلت آيةُ الحجاب، ....

قوله تعالى: (﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾)؛ أي: بالإسلام الذي هو النعمة.

(﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾) بالإعتاق والتبني، فهو متقلب في نعمة الله ونعمة رسوله. اهـ. نسفي[2].

وقوله: (﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾): يظهر أن الكلام على حذف مضاف؛ أي: نكاح أزواج أدعيائهم.

وقوله: (﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾)؛ أي: قضاءُ الله ماضياً وحكمهُ نافذاً، وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، اهـ. خازن[3].

الحجاب

وُجد الحجابُ في بعض الأمم التي أتت قبل الأمة الإسلامية.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٤٨٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠٦).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٢٨).

وهو خاصٌّ بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عمر بن الخطاب قبل نزول آيته يحبّه، ويذكره كثيراً، ويودّ أن ينزل فيه قرآن، وكان يقول: لو أُطَاع فيكن، ما رأتكنَّ عين، . . . .

قال فريد وجدي في كتابه «المرأة المسلمة» نقلاً عن «دائرة معارف القرن التاسع عشر»: كان أهم أعمال النساء بعد تدبير المنزل الغزل، وشغل الصوف، وكن مغالياتٍ في الحجاب؛ لدرجة أن القابلة كانت لا تخرج من دارها إلا مخفورة، وجهُها، ملثم باعتناء زائد، وعليها رداء طويل يلامس الكعبين، وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها. اهـ.

قوله: (ويذكره كثيراً): قال الطبري في «الرياض النضرة»: في الحديث: قال عمر: وافقت ربي ـ أو وافقني ـ في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[البقرة: ١٢٥]، وقلت: يدخل عليك البر والفاجر، فلو حجبتَ أمهاتِ المؤمنين، فأنزل الله آية الحجاب. وتمامُه فيه[١].

ثم قال: عن عائشةَ قالت: كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حَيساً في قعب، فمر عمر فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال: حِسّ أوه، لو أُطاع فيكن، ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب. اهـ[٢].

الحس: هي ـ بكسر السين والتشديد ـ: كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما مَضَّه وأحرقه؛ كالجمرة والضربة ونحوها. اهـ[٣].

---

(١) انظر: «الرياض النضرة» للمحب الطبري (٢/٢٨٨)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٠٢).

(٢) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤١٩).

(٣) انظر: «الرياض النضرة» للمحب الطبري (٢/ ٢٩١).

فنزل في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[الأحزاب: ٥٣].

فقال بعضهم: أَنُنْهى أن نكلم بناتِ عمّنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد، لأتزوجن عائشةَ، فنزل بعد الآية المتقدمة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٣][1].

أما غيرُ أزواجه عليه الصلاة والسلام من المؤمنات، فأُمرن بغضّ الأبصار، وحفظ الفروج، كما أُمر بذلك الرجال، وأُمرن ألّا يبدين زينتهنّ للأجانب إلا ما ظهر منها؛ كالخاتم في الإصبع، والخِضاب في اليد، والكُحْل في العين، أما ما خَفي منها، فلا يحلّ إبداؤه؛ كالسوار للذراع، والدُّمْلُج للعضد، والخلخال للرِّجْل، والقِلادة للعنق، والإكليل للرأس، . . . .

قوله تعالى: (﴿مَتَاعًا﴾)؛ أي: عارِيَّة أو حاجة.

وقوله: (﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾)؛ أي: من الريبِ وخواطرِ الشيطان وعوارضِ الفتن.

قوله: (فقال بعضهم): قيل: هو طلحة بنُ عبيدالله. اهـ. خازن[2].

قوله تعالى: (﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾) يعني: إيذاءه ونكاح نسائه.

(﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾)؛ أي: ذنباً عظيماً، وفيه تعظيم من الله لرسوله، وإيجاب لحرمته حياً وميتاً. اهـ. بيضاوي[3].

قوله: (الدملج): هو ـ بضم الدال وسكون الميم وفتح اللام وضمها؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٦٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٤٣٤).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٨٤).

والوشاح للصدر، والقُرط للأذن. والمراد بالزينة الظاهرة والخفية: موضعُها، وأُمرن أيضاً بأن يضربن بخمرهنّ على الجُيوب؛ كيلا تبقى صدورُهنَّ مكشوفة؛ فإن النساء ـ إذ ذاك ـ كانت جيوبهنّ واسعة تبدو منها نحورُهنّ وصدورُهنّ وما حواليها، وكنّ يسدلن الخُمُر من ورائهنّ، ونُهين عن أن يضربن بأرجلهنّ ليُعلَم أنهنّ ذواتُ خلخال. وإذا كان النهي عن إظهار صوت الحلي بعدما نُهين عن إظهار الحلي، عُلِمَ بذلك: أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغُ وأبلغُ، قال تعالى في سورة النور: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ....﴾

كجندب في لُغَتيه، وكزنبور ـ: المِعضَد.

قوله تعالى: (﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾): قال النسفي: أُمِرْنَ بغض الأبصار، فلا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه، وإن اشتهت، غضت بصرها رأساً، ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثلِ ذلك، وغض بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها[1].

قال الخازن: وفي إدخال (من) على غض البصر دون حفظ الفرج دلالةٌ على أن النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وثديهن وأعضائهن وأقدامهن، وكذلك الجواري المستعرضات في البيع، والأجنبية يجوز النظر إلى وجهها وكفيها للحاجة إلى ذلك، وأما أمرُ الفروج، فمُضَيق، وكفاك أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه، وحظر الجماع إلا ما استثنى منه.

وقدم غض البصر على حفظ الفرج؛ لأن النظر بريدُ الزنا، ورائدُ الفجور، والبلوى فيه أشد[2].

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٤٣).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٣/ ٢٩٢).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ . . . .

قوله: (﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾)؛ أي: إلا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره؛ وهو: الوجه، والكفان، والقدمان، ففي سترها حرج بيِّن؛ فإن المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها؛ خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقات وظهور قدميها، وخاصةً الفقيرات منهن[1].

(﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾): وليضعن؛ من قولك: ضربت بيدي على الحائط: إذا وضعتها عليه، والخُمُر: جمع خمار؛ أي: ليلقين بمقانعهن على جيوبهن؛ أي: موضع الجيب، وهو النحر والصدر؛ أي: ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن.

(﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾)؛ أي: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدور، والساق، والرأس، ونحوها.

وقوله: (﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾)؛ أي: المؤمنات من أهل دينهن، أراد به أنه يجوز للمرأة أن تنظر إلى بدن المرأة إلا ما بين السرة والركبة، ولا يجوز للمرأة أن تتجرد من ثيابها عند الذميَّة أو الكافرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، والذميَّة والكافرة ليست من نسائها، ولأنها أجنبية في الدنيا.

وقوله: (﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾)؛ أي: أولي الحاجة إلى النساء، وهم: الشيوخ، والممسوحون، وقيل: البُلْه الذين يتبعون الناس

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٤٣).

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور: ٣١].

وكان النساء في أول الإسلام ـ كما كنّ في الجاهلية ـ متبذلاتٍ، تبرز المرأة في دِرْع وخمار، لا فرق بين الحُرّة والأَمَة، وكان الفتيان وأهل الشطارة يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى مقاضي حوائجهنّ في النخيل والغيطان، وربما تعرضوا للحُرّة بعلّة الأَمَة يقولون: حسبناها أَمَةً، فأُمرنَ أن يخالفن بزيهنّ زِيّ الإماء؛ بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ليغطي الوجه والأعطاف ليحتشمن، ويُهَبْن، فلا يطمع فيهنّ طامع، . . . .

لفضل طعامهم، ولا يعرفون شيئاً من أمور النساء.

وقوله: (﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾)؛ أي: لم يطلعوا؛ لعدم الشهوة، وقيل: الطفولية: اسم للصبي ما لم يحتلم.

وقوله: (﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ . . .﴾) إلخ: كانت المرأة تضرب الأرض برجليها إذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها، فيعلم أنها ذات خلخال، فنَهُين عن ذلك؛ إذ سماعُ صوت الزينة كإظهارها.

(﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾): إن العبد لا يخلو عن سهو وتقصير في أوامره ونواهيه، وإن اجتهد، فلذا وصى المؤمنين جميعهم بالتوبة، وبتأميل الفلاح إذا تابوا. اهـ. نسفي وخازن[1].

قوله: (وأهل الشطارة) الشاطر: من أعيا أهلَه خبثاً، ويجمع على شُطَّار، وفي «اللسان»: وأُراه مولَّداً[2]. اهـ. «أقرب الموارد»[3].

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٢) انظر: «لسان العرب» لابن منظور (مادة: شطر).

(٣) انظر: «أقرب الموارد» لسعيد الخوري (مادة: شطر).

قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

أما حَجْبُ المرأة عمّن يريد خطبتها، فهو أمر لم يكن يُفعل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد السلف الصالح؛ فإن الشّارع الحكيم سنّ ذلك؛ ليكون الرجل على علم مما يُقدِم عليه، حتى يتم الوفاق والوئام بين الزوجين في أمر أجمعَ عليه أئمةُ الدين.

قوله تعالى: (﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾)؛ أي: يرخين ويغطين، والجلباب: ما يستر الكل؛ مثل الملحفة.

(﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾)؛ أي: أولى وأجدر أن يعرفهن فلا يُتعرض لهن. اهـ.

قام في المدة الأخيرة بعض مَنْ لا أخلاقَ لهم من المصريين، وفي مقدمتهم شخص يقال له: قاسم بك أمين، ونادوا بعدم لزوم الحجاب للمرأة، وأن المرأة المسلمة لا ترقى ولا تتهذب ولا تجري في مضمار المدنية ما لم تُزل عن وجهها النقاب.

ولقاسم بك أمين في هذا الموضوع كتاب سماه: «تحرير المرأة» أو «المرأة الجديدة»، وحينما ظهر هذا الكتاب تصدى للرد عليه كثير من المصريين وغيرهم في الجرائد والمجلات، وألفوا في ذلك كتباً عديدة، وفي جملتهم الفاضل محمد فريد وجدي، فإنه ألف كتاباً سماه: «المرأة المسلمة»، وقد أحسن بذلك كل الإحسان، فجزاه الله عن الأمة الإسلامية خيراً.

وقد تتبعنا تراجم هؤلاء القائلين بلزوم السفور، فلم نجدهم على شيء من الدين، قد انغمسوا في حمأة المنكرات، وعكفوا على المعاصي والموبقات، ولم يردعوا النفس الخبيثة عن دنية من الدنيات، ومعظمهم ممن لم يتزوج؛ لاستغنائه بالحرام عن الحلال، ولم يعرف للغيرة معنًى، ولا للإسلامية معنًى، قد تربى في

قال حجة الإسلام الغزالي في «الإحياء»: وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الألفة، ولذلك استحبّ النظر، فقال: «إذا أوقع الله في نفس أحدكم من امرأة، فلينظر إليها؛ فإنه أحرى أن يؤدَم بينهما»[1] ـ أي: يؤلَّف بينهما ـ من وقوع الأَدَمَة على الأَدَمة، وهي الجلدة الباطنة، والبشرة: الجلدة الظاهرة، وإنما ذكر ذلك؛ للمبالغة في الائتلاف، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن في أعين الأنصار شيئاً، فإذا أراد أحدكم أن يتزوج منهنّ، فلينظر إليهنّ»[2]، قيل: كان في أعينهنَّ عمش. وقيل: صغر. وكان بعض الصالحين لا يُنكحون كرائمَهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرور، وقال الأعمش: كل تزويج يقع على غير نظر، فآخرُه هَمّ وغَمّ[3].

المدارس الأجنبية، وتلقى فيها تلك المبادئ المخالفة للشريعة الغراء، ولذا أقدم على القول بهذا المنكر العظيم واستحله، ولا ريب أنه بذلك قد أصبح كافراً، خرج به عن عداد المسلمين؛ لإنكاره ما علم من الدين بالضرورة.

على أن هؤلاء الفسَقة الفجَرة الذين يسمون أنفسهم بالمتنورين لو تعمقوا في...[4] النساء وفساد أخلاقهن وأخلاق الرجال، وما يجره هذا القول من المفاسد والمصائب، وتعقلوا الأمر؛ لما ذهبوا إلى هذا الرأي الفاسد، ولا جنحوا إليه، ولكن من يضل الله فلا هادي له، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وما أحسن قول شاعر مصر حافظ إبراهيم من قصيدة له مشهورة:

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٧) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه مسلم (١٤٢٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٦ ـ ٣٩).

(٤) في الأصل كلمة غير واضحة.

أنــا لا أقــولُ دعــوا النســاءَ سَــوافراً بــين الرجــال يَجُلْــن فــي الأســواقِ
يَــدْرُجْنَ حيــث أردْنَ لا مــن وازعٍ يحـــذَرْنَ رِقْبَتَـــهُ ولا مـــن واقِ
يفعلْـــن أفعـــالَ الرجـــال لواهيـــاً عــن واجبــاتِ نــواعسِ الأحــداقِ
فـــي دُورِهِـــنَّ شـــؤونُهن كثيـــرةٌ كشــؤونِ ربِّ السـيفِ والمِـزْراقِ[1]

وهنا كلام نفيس للعلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي في كتابه «الرسالة الحميدية»، ومما جاء فيه: أن المرأة محل الشهوة، ومطمع نظر الرجال، فلأجل سد باب الفتنة، وكفِّ دواعي الزنا الممقوت شرعاً وعقلاً، أمرتها الشريعة الإسلامية بالحجاب والستر، وكان ذلك من أشرف نعوتها، وأكرم مفاخرها، تتباهى به كلما استكمل فيها.

فالحجاب صيانة ومحافظة عليها؛ كالشيء النفيس الذي يُضَنُّ به على الأنظار، ويُحجب بالحُجُب والأستار، وليس هو كما يظن بعض الجهلاء أنه لسوء الظن بها؛ فإن ذلك يقال لو أمرت بكف بصرها عن رؤية الرجال في كل حال، وأمرت ـ أي: الشريعة ـ الرجالَ بالحجاب عن النساء، وليس أيضاً كما يزعم بعض الأغبياء أن حجابها هو حبس وتضييق عليها، وملاشاة لحريتها؛ فإن المرأة المسلمة تشب على الحجاب من أول نشأتها، وتألفه من بادي فطرتها، فتجده كاللازم لطبيعتها، وتعتاده اعتياداً محبوباً مألوفاً، وتعير من يتساهل فيه من النساء، وتنسبهن للطيش والوقاحة وقلة الحياء، على أنها تقبله بأنه حكم الشريعة الإلهية، فترجو به الثواب، ونوازلَ الأجر من الملك الوهاب، فكيف بعد جميع ما ذكر يقال: إن المرأة في الشريعة المحمدية مظلومة أو محبوسة؟! حاشا لله، ما عليها من الحيف أدنى شيء بمقتضى أحكام هذه الشريعة.

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» (١/ ٢٧٠).

ولا يبعد أن يكون فساد الزمن، والابتعادُ عن التربية الدينية التي تسوق إلى مكارم الأخلاق قد حَسَّنا عند عامة المسلمين في العصور الأولى حجبَ المرأة مطلقاً؛ حسماً للمفاسد، ودَرْءاً للفتنة.

والصواب أن يقال: إنها في هذه الشريعة محفوظة مصانة من أنظار الفسقة، وأميال الفجار، وألسنة السفهاء، يُغار عليها من مرور النسيم.

على أنه لا يخلو الأمر من وجود امرأة غير كاملة في الآداب والتدين، فبالحجاب لا ترتاب النفوس بأمانتها على نسب ذريتها، ولا يدخل الشك على زوجها، فيعلم أن من تلده هو ولده، مطمئن القلب لذلك، ليس للشيطان عليه سبيل في الوسوسة التي يتوصل إليها فيما لو كانت المرأة تخرج غير مستترة، وتخالط الأجانب، ومع ذلك كله فالشريعة المحمدية قد أجازت للمرأة الخروج لبعض أمور ضرورية؛ من زيارة أرحامها، والتعلم لأحكام دينها إذا لم يعلمها الزوج، ونحو ذلك، مع التستر الذي يمنع نظر الفساق، وتهيج النفوس المغتلمة للتعرض لها بما يشين العرض والدين.

والذي يحكم به العقل السليم الخالي عن التعصب الدني: أن الحجاب للمرأة من أحسن الأحكام، وأنفع الأحكام لصالح الزوج والمرأة، بل لعموم الأمة، يقطع مادةَ الفساد من البلاد، ومن هنا ترى البلاد التي تحتجب نساؤها لا يهتم رجال السياسة فيها بتخصيص أماكن للزواني يردها الفساق؛ لأن شهوات فساقها غير مهيجة برؤية النساء، ولا طامحة لمنازعة أهل العرض في نسائهم.

وأما البلاد التي لا تحتجب نساؤها؛ فترى رجال السياسة فيها يرتكبون تخصيص أماكن للزواني، ولا يمنعون الفساق عنهن، حتى صار ـ والعياذ بالله تعالى ـ الأولاد النغول يقاربون [في العدد][1] أولاد النكاح هناك، ويحتج أولئك السياسيون لارتكاب هذا الأمر الفظيع بأنه حصن للحرائر، فلولا خشيتُهم،

---

(١) ما بين معكوفتين من «الرسالة الحميدية».

وفي هذا العام ـ على ما عليه الأكثرون ـ فرض الله على الأمة الإسلامية حج البيت من استطاع إليه سبيلاً، . . . .

وخشيةُ أهل العِرْض على نسائهم من منازعة الفساق الذين تتهيج شهواتهم برؤية النساء المتبرجات، وخوفهم أن يغلبوهم عليهن؛ لما ارتكبوا ذلك الأمر القبيح، فيا للعار، ويا للشنار على أولئك السياسيين! يسوسون بلادهم ويحصنون نساءهم بأعمال البهائم، فلو أخذوا بحجاب النساء؛ لكان يغنيهم عن ذلك الأمر الممقوت؛ فقد ظهر أن خروج المرأة غيرَ مستترة ضررٌ عظيم، ولو سلم أن الحجاب ضرر عليها؛ لكان عدمه أضرَّ، وارتكابُ أخفِّ الضررين هو الموافق للمعقول والمنقول، فما بالك وقد ظهر أنه لا ضرر عليها في الحجاب كما يحكم به ذوو الألباب؟!، اهـ[1].

فرض الحج

قوله: (على ما عليه الأكثرون): هذا خلاف الصواب، والصواب أن الحج فرض سنة تسع أو عشر كما ذكره ابن القيم في «زاد المعاد»، ثم قال ثمة: فإن قيل: فمن أين لكم تأخرُ نزولِ فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟

قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصالحَهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب، ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة، ويدل عليه: أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم بما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾[التوبة: ٢٨]، فأعاضهم

---

(١) انظر: «الرسالة الحميدية» لحسين الجسر (ص: ١١٣ ـ ١١٦).

الله تعالى من ذلك بالجزية، ونزول هذه الآيات والمناداة بها إنما كان في سنة تسع، وبَعَثَ الصدِّيقَ يؤذِّنُ بذلك في مكة في مواسم الحج، وأردفه بعليّ ـ رضي الله عنه ـ، وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف. اهـ[1].

وفي «الدر المختار» للعلامة الحصكفي: فرض الحج سنة تسع، وإنما أخره عليه الصلاة والسلام لعشرٍ لعذرٍ، مع علمه ببقاء حياته؛ ليكمل التبليغ[2].

ونقل محشيه العلامة ابن عابدين عن حاشية الشِّلْبي على الزيلعي عن «الهدي» لابن القيم: أن الصحيح: أن الحج فرض في أواخر سنة تسع، وأن آية فرضه هي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[آل عمران: ٩٧]، وهي نزلت عام الوفود أواخرَ سنة تسع، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يؤخر الحج بعد فرضه عاماً واحداً، وهذا هو اللائق بهديه وحاله صلى الله عليه وسلم، وليس بيدِ مَنِ ادعى تقدمَ فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمان أو تسع دليلٌ واحد، وغاية ما احتج به من قال: سنة ست: أن فيها نزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه، فأين هذا من وجوب ابتدائه؟![3]. اهـ[4].

والحج ـ بفتح الحاء، وكسْرها لغةً ـ: القصدُ.

قال الشاعر:

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٠١ ـ ١٠٢).

(٢) انظر: «الدر المختار» للحصكفي (٢/ ٤٥٥).

(٣) في الأصل، و«حاشية ابن عابدين»: «إتمامه»، والتصويب من «حاشية الشلبي».

(٤) انظر: «حاشية ابن عابدين» (٢/ ٤٥٥). وانظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٠١)، و«حاشية الشلبي» (٢/ ٣).

ليجتمع المسلمون من جميع الأقطار، فيتجهوا إلى الله، ويبتهلوا إليه أن يؤيدهم بنصره، ويُعينهم على اتباع دينه القويم. وفي ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى[1].

يحجون سب الزِّبرقان المزعفرا[2]

أي: يقصدونه، والزبرقان: لقب الحُصَين بنِ بدر الصحابيّ، لقب به لجماله، أو لصفرة عمامته، أو لأنه لبس حُلة وراح إلى ناديهم فقالوا: زبرق حصين[3].

قوله: (ليجتمع المسلمون هناك): قال في «الرسالة الحميدية»: وذلك يدعو إلى التعارف والتآلف، فتراهم هناك أنواعاً منوعةً من عرب وترك وفرس وهنود وداغستان وقزاق وأفغانستان ومغاربة وبربر وسودان وجاوى، وغير ذلك من أمم البشر، كلهم على دين واحد، ومقصد واحد، وهو طلب الغفران من الرحيم الرحمن.

ومن حكم الأفعال التي يكلفون في إجرائها في تلك الأماكن تذكارُ ما جرى لرسل الله المكرمين وعبادِه الصالحين في تلك البقاع المشرفة؛ كتذكار ما جرى

---

(١) وهو خلاف قول الجمهور الذين يقولون: بأنه فرض في السنة السادسة. انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٧).

(٢) عجز بيت للمخبل السعدي، وصدره:

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة

انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٢١٩)، و«المخبل السعدي وما تبقى من شعره» لحاتم الضامن، وهو بحث منشور في «مجلة المورد العراقية» (٢/ ١٢٥)، الإصدار الأول، عام (١٩٧٣م).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زبرق).

لسيدنا آدم أبي البشر وزوجته حواء ـ عليهما السلام ـ هناك بعد هبوطهما من الجنة، وما ألهمهما الله تعالى من الالتجاء إليه حتى تاب عليهما، وكتذكار ما جرى أيضاً هناك لسيدنا إبراهيم الخليل وولده إسماعيل ـ عليهما السلام ـ والسيدة هاجر ـ عليها الرضوان ـ مما يدل على ما لهم من الإطاعة لمولاهم، والصبر على ما به ابتلاهم، فلم يحيدوا عن كل ما يستوجب رضاه، وناهيك ما ابتلي به سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ من أمره بذبح ولده وثمرة كبده، فأطاع ذلك الوالد الشفوق، وخضع للحكم ذلك الولدُ البار، مسلِّماً بإزهاق روحه، وسكنى ضريحه، وطرد الشيطان عنه لما حاول أن يوسوس له في وادي منى، فباء ذلك اللعين بالخسران، فأنعم الله على الوالد والولد بالفداء، وأبدل حزنهما بالهناء، إلى غير ذلك من الأعمال المَرْضِيَة من أولئك الكاملين، وما أنعم عليهم رب العالمين.

فبتذكار أعمال أولئك الأخيار، وبمحاكاتها في تلك الديار، تنبعث الأنفس لتذكار بقية أفعالهم، وعباداتهم وسجاياهم، وإطاعتهم لمولاهم، فتشتاق للاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم في كل مُرْضٍ لخلاَّقهم، وترغب في الثناء عليهم، والدعاء لهم على ما سنوا وشرعوا من الأعمال المرضية، وما هدوا إليه من سبيل التوبة وطرق الإنابة ومكارم الأخلاق؛ من الصبر والرضا والتسليم والآداب مع رب الأرباب، وتمامه فيها[1].

وقال العلامة الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»: واعلم: أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمانٍ يذكِّر حال المنعَم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ومكانٍ فيه آيات بينات، قد قصده جماعات من أئمة الدين معظمين لشعائر الله، متضرعين راغبين، وراجين من الله الخيرَ وتكفير الخطايا.

(١) انظر: «الرسالة الحميدية» لحسين الجسر (ص: ١٠٣ ـ ١٠٤).

فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية لا يتخلف عنها نزولُ الرحمة والمغفرة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغرُ ولا أدحرُ - من الدحر: وهو الدفع بعنف على الإهانة - ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه في يوم عرفة...» الحديث[1].

وأصل الحج موجود في كل أمة، لا بد لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه، ومن قرابين وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه.

وأحقُّ ما يحج إليه بيتُ الله، فيه آيات بينات، بناه إبراهيم صلوات الله عليه المشهودُ له بالخير على ألسنة أكثر الأمم بأمر الله ووحيه، بعد أن كانت الأرض قفراً وعراً؛ إذ ليس غيره محجوج إلا وفيه إشراك، أو اختراع ما لا أصل له.

ومن باب الطهارة النفسانية الحلولُ بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه، ويحلون فيه، ويعمرونه بذكر الله؛ فإن ذلك يجلب تعلق همم[2] الملائكة السفلية، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى الكلية لأهل الخير... إلى أن قال: وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه، فلا يجده إلا بالحج.

وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضةٍ بعد كل مدة؛ لتمييز الناصح من الغاشّ، والمنقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت، وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم، فكذلك الملة تحتاج إلى حج؛ لتميز الموفق من المنافق، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرى بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما ليس

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (١/ ٤٢٢) من حديث طلحة بن عبيدالله بن كريز مرسلاً.

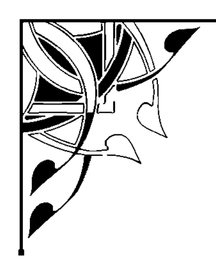
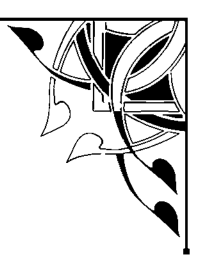
(٢) في الأصل: «هم»، والمثبت من «حجة الله البالغة».

عنده؛ إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي.

وإذا جعل الحج رسماً مشهوراً؛ نفع عن عوائل الرسوم، ولا شيء مثله في تذكر الحالة كان فيها أئمة الملة، والتحضيض على الأخذ بها، ولما كان الحج سفراً شاسعاً، وعملاً شاقّاً لا يتم إلا بجهد الأنفس؛ كان مباشرته خالصاً لله مكفراً للخطايا، هادماً لما قبله بمنزلة الإيمان. اهـ[1].

❐ ❐ ❐

(١) انظر: «حجة الله البالغة» لولي الله الدهلوي (ص: ١٥٧ ـ ١٥٩).

السَّنة السَّادسَة

سرية [محمد بن مسلمة إلى القَرطاء]

ولعشرٍ خلوْن من محرم السنة السادسة، أرسل عليه الصلاة والسلام محمدَ بنَ مَسلمة في ثلاثين راكباً لشنِّ الغارة على بني بكر بن كلاب الذين كانوا نازلين بناحية ضَرِيَّة، فسار إليهم يكمُن النهار، ويسير الليل حتى دهمهم، فقتل منهم عشرة، وهرب باقيهم، فاستاقت السريةُ النَّعَمَ والشياه، وعادوا راجعين إلى المدينة، وقد التقوا وهم عائدون بثُمامةَ بنِ أُثال الحنفيِّ، من عظماء بني حنيفة، . . . .

السنة السادسة

سرية

قوله: (سرية): يقال لهذه السرية: سرية القُرْطاء ـ بضم القاف وسكون الراء ـ، وهم من بطن من بني بكر بن كلاب. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (شن الغارة) شن الغارة: هو تفرقها.

قوله: (ضريّة): بفتح الضاد وكسر الراء وتشديد الياء، وهي قرية لبني كلاب.

وقوله: (دهمهم)؛ أي: فاجأهم.

قوله: (ثمامة بن أثال): ثمامة: ـ بضم الثاء ـ، وأثال: ـ بضم الهمزة وفتح الثاء مخففة ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٦).

فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما أتَوا به رسولَ الله، عرفه صلى الله عليه وسلم، وعامله بمنتهى مكارم الأخلاق، فإنه أطلق إساره بعد ثلاثٍ أبى فيها الانقيادَ للإسلام بعد أن عُرض عليه. ولما رأى ثمامة هذه المعاملة، وهذه المكارم، رأى من العبث أن يتبع هواه، ويترك ديناً عمادهُ المحامد، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم غيرَ مكرَه، وخاطب الرسول بقوله: يا محمد! والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلها إلي، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلي من دينك، فقد أصبح أحبّ الدين كله إليّ. والله! ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فقد أصبح أحبّ البلاد إليّ. . . . .

قوله: (فإنه أطلق إساره. . .) إلخ: تفصيل القصة كما في الدحلانية: أنهم لما أتوا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي»، فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره صلى الله عليه وسلم لينظر حُسنَ صلاة المسلمين، واجتماعَهم عليها، فيرق قلبه.

فخرج صلى الله عليه وسلم فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» قال: عندي خير يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تُعطَ منه ما شئت، فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: ما قلتُ لك، إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» قال: عندي ما قلتُ لك، قال: أطلقوا ثمامة؟، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، ثم قال: والله يا محمد! ما كان على وجه الأرض. . . إلخ ما ذكره المؤلف هنا[1].

قوله: (أحب البلاد إليَّ): تتمة الحديث: وإن خيلك أخذتني وأنا أريد

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٧).

فسرّ عليه الصلاة والسلام كثيراً بإسلامه؛ لأن من ورائه قوماً يطيعونه. ولما رجع ثُمامة إلى بلاده، مَرَّ بمكة معتمراً، وأظهر فيها إسلامه، فأرادت قريش إيذاءه، فذكروا احتياجهم لحبوب اليمامة التي منها ثُمامة، فتركوه[1].

ومع ذلك، فقد حلف هو ألا يرسل إليهم من اليمامة حبوباً حتى يؤمنوا، فجهدوا جدًّا، ولم يرَوا بدًّا من الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم، فعاملهم عليه الصلاة والسلام بما جُبِلَ عليه من الشفقة والمرحمة، وأرسل لثمامة أن يُعيد عليهم ما كان يأتيهم من أقوات اليمامة، ففعل........

العمرة، فماذا ترى؟ فبشره النبي صلى الله عليه وسلم بخير الدنيا والآخرة، أو بالجنة، أو بمحو ذنوبه وتبعاته، وأمره أن يعتمر، فأتى مكة، وأظهر فيها إسلامه. اهـ. دحلاني[2].

ثم قال: ولذا قيل فيه:

ومِنَّا الذي لَبَّى بمكةَ معلِناً ... برغمِ أبي سفيانَ في الأشهرِ الحرم[3]

قوله: (فلم يروا بداً من الاستغاثة...) إلخ: حيث كتبوا إليه صلى الله عليه وسلم: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، فكتب صلى الله عليه وسلم إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٧)، والحديث المذكور رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٧)، والبيت لبعض بني حنيفة كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٦/ ٥٢)، و«الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» للكلاعي (٢/ ٣١٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، والخبر المذكور رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٦/ ٥٢).

وقد كان لهذا الرجل الكريم الأصل قدمٌ راسخة في الإسلام عقبَ وفاة الرسول حينما ارتدّ أكثر أهل بلاده، فكان ينهى قومه عن اتباع مُسيلمة، ويقول لهم: إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه، فثبت معه كثير من قومه ـ رضي الله عنه ـ[1].

غزوة بني لِحيان

بنو لحيان هم الذين قتلوا عاصمَ بنَ ثابت وإخوانَه، ولم يزل رسول الله حزيناً عليهم، متشوقاً للقصاص من عدوهم حتى ربيع الأول من هذه السنة، فأمر أصحابه بالتجهّز، ولم يُظهر مقصده كما هي عادتُه عليه الصلاة والسلام في غالب الغزوات. لتعمى الأخبار عن الأعداء، . . . .

قوله: (فكان ينهى قومه. . .) إلخ: قال الدحلاني: فقد جاء أنه قام مقاماً حميداً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾[غافر: ١ ـ ٣]، ثم قال لهم: فأين هذا من هذيان مسيلمة. فأطاعه، ثلاثة آلاف، وانحازوا إلى المسلمين ـ رضي الله عنه ـ. اهـ[2].

غزوة بني لحيان

قوله: (لحيان) هي ـ بكسر اللام وفتحها. قبيلة من هُذيل.

قوله: (من هذه السنة) قال الدحلاني: وقيل: سنة خمس، وقيل: أربع[3].

قوله: (ولم يظهر لهم مقصده): الذي في الحلبي والدحلاني أنه أظهر أنه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٧١ ـ ١٧٢).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٩).

وولى على المدينة ابنَ أُم مكتوم، وسار في مئتي راكب معهم عشرون فرساً، ولم يزل سائراً حتى مقتل أصحاب الرجيع، فترحَّم عليهم، ودعا لهم، ولما سمع به بنو لحيان، تفرقوا في الجبال، فأقام عليه الصلاة والسلام بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يجدون أحداً، ثم أرسل بعضاً من أصحابه ليأتوا عُسْفَان حتى يعلم بهم أهل مكة، فُيداخلهم الرعب، فذهبوا إلى كُراَع الغميم، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وهو يقول: «آيبون، تائبون، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وَعْثاء السفر، وكآبة المنقلَب، . . . .

يريد الشام ليصيبَ من القوم غرة[1].

قوله: (فأرسل بعضاً من أصحابه) هو أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أرسله في عشرة فوارس.

قوله: (عُسفان)؛ كعثمان: موضعٌ على مرحلتين من مكة.

قوله: (كُراع الغميم): هو ـ بضم الكاف ـ.

قال المؤلف في الذيل: إنه جبل جنوب عسفان بثمانية أميال.

وفي الدحلانية: إنه واد أمام عسفان بثمانية أميال، يضاف كراع إليه، وكراع: جبل أسود بطرف الحرة ممتد إليه[2].

قوله: (وعثاء السفر): المشقة، و(الكآبة): الغَمُّ وسوء الحال، وتتمة الحديث كما في الدحلاني: «اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً ينظر إلى خير مغفرتك ورضوانك». اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٧٧)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٤٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٩).

(٣) أورده نور الدين الحلبي في «السيرة الحلبية» (٢/ ٦٧٧).

وسوء المنظر في الأهل والمال»[1].

غزوة الغابة

كان للنبي عليه الصلاة والسلام عشرون لِقْحَة ترعى بالغابة، فأغار عليها عُيينة بن حِصْن في أربعين فارساً، واستلَبها من راعيها، فجاءت الأخبار رسولَ الله عليه الصلاة والسلام، ....

وكانت غيبته صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة أربع عشرة ليلة. اهـ. منه[2].

غزوة الغابة

قوله: (الغابة) الغابة: الشجر الملتف، ويقال لهذه الغزوة: غزوة قَرَد ـ بفتح القاف والراء، وقيل بضمهما، وقيل: بضم الأول وفتح الثاني ـ: اسم ماء، والقرد في الأصل: الصوف الرديء. اهـ. حلبي[3].

قوله: (لقحة): في «المصباح»: اللِّقحة ـ بالكسر ـ: الناقة ذات لبن، والفتحُ لغةٌ، والجمعُ لِقَح؛ مثل سِدْرة وسِدَر، أو مثل قَصْعة وقِصَع، واللَّقوح ـ بفتح اللام ـ مثلُ اللقحة، والجمع لِقاح؛ مثل قلوص وقِلاص[4].

قوله: (من[5] راعيها): كان الراعي أبو ذر وزوجته وولده، قال أبو ذر: لما كان الليل، أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارساً، فصاحوا بنا وهم قيام على

---

(١) رواه مسلم (١٣٤٢) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٧٧ ـ ٦٧٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٧٩).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: لقح).

(٥) في الأصل: «و»، والتصويب من متن «نور اليقين».

والذي بلَّغه هو سَلَمَةُ بنُ الأكوع، أحدُ رماة الأنصار، وكان عَـدّاءً، فـأمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم ليشغلَهم بالنبل حتى يدركهم المسـلمون، فخرج يشتد في أثرهم حتى لحقهم، وجعل يرميهم بالنبـل، فـإذا وجّهـت الخيل نحوه، رجع هارباً، فلا يُلْحَق، . . . .

رؤوسنا، فأشرف لهم ابني، فقتلوه، وكان معه ثلاثة نفر، فنجوا، وتنحيت عـنهم، وشغلهم عني إطلاقُ عقل اللقاح، ثم صاحوا في أدبارها، فكان آخـر العهـد، ولمـا قدمتُ المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته تبسم. اهـ. حلبي[1].

قوله: (والـذي بلغـه سـلمة بـن الأكـوع. . .) إلـخ: الـذي فـي الحلبيـة والدحلانية لا يفيد أن سلمة بن الأكوع بلغ النبي صلى الله عليه وسـلم وحـده، وأنـه أمره الرسول بأن يخرج في أثر القوم، وخلاصة ما ذكروا: أن سـلمة أشـرف مـن سلع، فصرخ ثلاث صرخات: يا صباحاه! فأسمعَ ما بين لابتَي المدينة، فنـودي في الناس: الفزع الفزع، ثم إنه خرج يشتد في آثـار القـوم، فكـان مثـل السـبع، وكان يسبق الخيل في جريه[2].

قوله: (وجعل يرميهم بالنبل)؛ أي: ويقول عند الرمي:

خـــذها وأنـــا ابـــن الأكـــوع   واليـــومُ يـــومُ الرضَّـــع[3]

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٦٧٩)، والخبـر المـذكور أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٥/ ٩٥)، وعزاه للواقدي.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨١)، و«السيرة النبوية» لأحمـد ابن زيني دحلان (٢/ ١٥٢)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٠٤١)، ومسـلم (١٨٠٦)، من حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٤٣) عـن عبـدالله بـن كعب بن مالك باللفظ المذكور. ورواه البخاري (٣٠٤١)، ومسلم (١٨٠٦)، مـن حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

فإذا دخلت الخيل بعض المضايق، علا الجبل، فرمى عليها الحجارة حتى ألقـوا كثيراً ممـا بأيديهم من الرماح والأبـراد ليخفّفـوا عن أنفسهم، حتـى لا يلحقهم الجيش، ولم يزل سلمة على ذلك حتى تلاحق بـه الجـيش، فـإن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا أصحابه فأجابوه، وأول مـن انتهـى إليـه المقداد بنُ عمرو، فقال له: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقـك»(١)، وأعطـاه اللواء فخرج، وتبعته الفرسان حتى أدركـوا أواخـر العـدو، فحصـلت بيـنهم مناوشات قتل فيها مسلم ومشركان، . . . .

والرضع ـ بضم الراء وشد المعجمة ـ: جمع راضع، والمراد به: يـومُ هـلاك اللئام، من قولهم: لئيم راضع؛ أي: رضع اللؤم.

قوله: (بعد(٢) المضايق): صوابه: بعض.

قوله: (حتى ألقوا كثيراً مما في أيديهم): قال الحلبي: ألقوا أكثر مـن ثلاثـين رمحاً، وأكثر من ثلاثين بردة، ولا يلقون شيئاً من ذلك إلا جعلت عليـه حجـارة وجمعته على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣).

قوله: (قتل فيها مسلم): هو محرز بن نضلة، ويقال له: الأخـرم الأسـدي، وكيفية قتله: أنه تقدم أمام الفرسان، فلقيه من الجبل سلمة بن الأكـوع، فنـزل إليـه، وأخذ بعنان فرسه، وقال: احذر القوم لا يقتطفوك حتى يلحـق رسـول الله صـلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلـم أن الجنة حق وأن النار حق؛ فلا تَحُلْ بيني وبين الشهادة، فخليت عنـه، فالتقى

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٤٤) عـن عبـدالله بـن كعب بن مالك، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨٢).

(٢) كذا في الأصل، وقد جاءت على الصواب في متن «نور اليقين» (ط الجامعة).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨١).

واستنقذ المسلمون غالبَ اللقاح، وهرب أوائل القوم بالبقية، وطلب سلمة بن الأكوع من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسله مع جماعة في أثر القوم، ليأخذهم على غرّة، وهم نازلون على أَحد مياههم، فقال له عليه الصلاة والسلام: «مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ»[1]، ثم رجع بعد خمس ليال[2].

هو وعبد الرحمن بن عيينة، فعقر فرس عبد الرحمن، وطعنه عبد الرحمن فقتله، فلحق عبدَ الرحمن أبو قتادة ـ رضي الله عنه ـ، فعقر عبدُ الرحمن فرس أبي قتادة، فقتله أبو قتادة وتحول أبو قتادة ـ رضي الله عنه ـ إلى الفرس. اهـ. حلبي[3].

ثم قال الحلبي: ولعل عبد الرحمن هذا هو حبيب بن عيينة، فيكون له اسمان، وقيل: إن الذي قتل محرز هو مسعدة الفزاري، وقاتل حبيب هو المقداد ابن عمرو بن الأسود[4].

قوله: (ملكت فأسجح)؛ أي: قدرتَ عليهم فأحسنْ وارفُقْ، والسجاحة: السهولة؛ أي: لا تأخذ بالشدة، بل ارفُق وأحسنِ العفو؛ فقد حصلت النكاية في العدو فهزموا، وقتل رؤساهم، وسلبت منهم الرماح والبُرد. اهـ. دحلانية[5].

وأَسْجِح: ـ بفتح الهمزة وكسر الجيم ـ.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤١)، ومسلم (١٨٠٦)، من حديث سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٧٩ ـ ٦٨٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨٢ ـ ٦٨٣).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٤).

سرية [عكاشة بن محصن إلى الغَمْر]

كان بنو أسد الذين مَرّ ذكرهم كثيراً ما يؤذون مَنْ يمرّ بهم من المسلمين، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام عُكَّاشة بنَ مِحْصَن في أربعين راكباً ليُغير عليهم، ولما قارب بلادهم، علموا به فهربوا، وهناك وجدوا رجلاً نائماً فأمّنوه ليدلّهم على نَعَم القوم، فدلّهم عليها فاستاقوها، وكانت مئة بعير ثم قدموا المدينة ولم يلقَوْا كيداً[1].

سرية [محمد بن مسلمة إلى ذي القَصّة]

وفي ربيع الأول بلغه عليه الصلاة والسلام أن من بذي القَصّة . . . . .

سرية

قوله: (سرية) عنونَها السيد الدحلاني بسرية الغَمْر، وهو ـ بفتح الغين وسكون الميم ـ، وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فَيْد ـ بفتح الفاء وسكون الياء ـ، وهي قلعة بطريق مكة[2].

قوله: (عُكاشة) هو ـ بضم العين ـ.

وقوله: (بن مِحْصَن): هو ـ بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد ـ.

قوله: (مئة بعير): صوابه: مئتي بعير كما في «زاد المعاد»، والدحلانية[3].

سرية

قوله: (إن من بذي القصة. . .) إلخ: القَصَّة: ـ بفتح القاف والصاد المشددة ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٧٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٤).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٨٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٤).

يريدون الإغارة على نعَم المسلمين التي ترعى بالهيفاء، فأرسل لهم محمدَ بنَ مسلمة في عشرة من المسلمين، فبلغ ديارهم ليلاً، وقد كَمَن المشركون حينما علموا بهم، فنام المسلمون، ولم يشعروا إلا والنبل قد خالطهم، فتواثبوا على أسلحتهم، ولكن تغلب عليهم الأعداء فقتلوهم، غيرَ محمدِ بن مسلمة تركوه؛ لظنهم أنه قُتِل، فعاد إلى المدينة، وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام، فأرسل أبا عبيدةَ عامرَ بن الجراح في ربيع الآخر ليقتصَّ من الأعداء، فلما وصل ديارهم، وجدهم تشتتوا هاربين، فاستاق نعَمَهم ورجع[١].

سرية [زيد بن حارثة إلى الجَمُوم]

عاكَسَ بنو سُلَيم الذين كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق المسلمين في سيرهم، . . . .

قوله: (غير محمد بن مسلمة): قال الدحلاني: إنه وقع جريحاً يضرب كعبه فلا يتحرك، فجردوهم من ثيابهم وانطلقوا، فمر رجل من المسلمين بمحمد بن مسلمة وأصحابه، فرآهم صرعى، فاسترجع، فتحرك له محمد بن مسلمة، فحمله حتى ورد به المدينة جريحاً، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة. . . إلخ ما ذكره المؤلف، وكان عدد من أرسل معه أربعين رجلاً[٢].

سرية

قوله: (سرية) عنونها السيد الدحلاني بسرية زيد بن حارثة[٣].

(سُلَيم) بضم السين وفتح اللام ـ.

وقوله: (كانوا من المتحزبين في غزوة الخندق)؛ أي: حيث أتوا في سبع مئة رجل يرأسهم سفيانُ بن عبد شمس كما تقدم.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٦).

فأرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة في ربيع الآخر ليُغير عليهم في الجَمُوم، فلما بلغوا ديارهم، وجدوهم تفرقوا، ووجدوا هناك امرأة من مُزينة دلّتهم على منازل بني سُليم، أصابوا بها نعَماً وشاءً، ووجدوا رجالاً أسروهم، وفيهم زوج تلك المرأة، فرجعوا بذلك إلى المدينة، فوهب الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المرأة نفسها وزوجها[1].

سرية [زيد بن حارثة إلى العيص]

بلغ الرسولَ صلى الله عليه وسلم أن عِيراً لقريش أقبلت من الشام تريد مكة، فأرسل لها زيدَ بنَ حارثة في مئة وسبعين راكباً ليعترضها، . . . .

قوله: **(الجموم)** ـ بفتح[2] الجيم ـ: ناحية ببطن نخل على أربعة أميال من المدينة[3].

قوله: **(امرأة من مزينة)** قال الدحلاني: اسمها حليمة، وقال: لم يذكروا عدة الإبل والغنم والأسرى[4].

سرية

قوله: **(سرية)** عنونها السيد الدحلاني بسرية زيد بن حارثة أيضاً، وقال: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زيدَ بنَ حارثة في سرية إلا أمّره عليهم، ولو بقي لاستخلفه، أخرجه ابن أبي شيبة. اهـ[5].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٧).

(٢) في الأصل: «بضم»، والتصويب من «معجم البلدان»(٢/ ١٦٣)، و«مراصد الاطلاع» (١/ ٣٤٧).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٦).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٦).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٦)، والخبر المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٢٣٠٧).

فأخذها وما فيها، وأسر مَن معها من الرجال، وفيهم أبو العاص بـنُ الربيـع، زوجُ زينبَ بنتِ رسول الله، وكان من رجال مكة المعدودين تجـارة ومـالاً وأمانةً، فاستجار بزوجه زينبَ فأجارته، ونادت بذلك في مجمـع قـريش، فقال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون يد واحدة، يُجير عليهم أدناهم، وقد أَجَرنا مَنْ أجرتِ».

وهذا أبلغُ ما قيل في المساواة بين أفراد المسلمين. وردّ عليـه الرسـول صلى الله عليه وسلم ماله بأسره لا يُفقَدُ منه شيء، فذهب إلى مكة. فأدى لكل ذي حقَ حقَّه، ورجع إلى المدينة مسلماً، . . . .

قوله: (ونادت بذلك في مجمع قريش)؛ أي: وغيرهم.

قال الدحلاني: إنها نادت في الناس حين صلى رسول الله صـلى الله عليـه وسلم الفجر، وفي رواية: حين كبر وكبر الناس معه نادت: أيها الناس! إنـي قـد أجرت أبا العاص، فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مـن الصـلاة، أقبـل على الناس فقال: «أيها الناس! هل سمعتم مـا سـمعتُ؟» قـالوا: نعـم، ثـم قـال: «والذي نفسُ محمد بيده! ما علمـتُ بشـيء مـن هـذا حتـى سـمعتُ مـا سـمعتم، المؤمنون يد واحدة، يجير عليهم أدناهم، وقد أجرنـا مـن أجـارت»، ثـم دخـل صلى الله عليه وسلم منزله، فدخلت عليه زينب، فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه، فقبل، وقال: «أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له». اهـ[1].

قوله: (ورد عليه الرسول ماله بأسـره): قـال الـدحلاني: فـي روايـة: أن زينب ـ رضي الله عنها ـ قالت للنبي صلى الله عليه وسـلم: إن أبـا العـاص إن قـرب فابنُ عم، وإن بعد فأبو ولد، وإني قـد أجرتـه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، والخبـر المـذكور رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٠٣٨) من حديث عائشة ـ رضـي الله عنهـا ـ، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٩٥) عن يزيد بن رومان.

فردّ عليه رسول الله زوجه[1].

لأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: «إن هذا الرجل مِنَّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحبُّ ذلك، وإن أبيتم، فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به»، فقالوا: يا رسول الله! بل نردّهُ عليه، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو، والرجل بالإداوة، حتى ردوا عليه ماله بأسره، لا يفقِد منه شيئاً.

ثم ذهب إلى مكة، فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، قال: هل أوفيت ذمتي؟ قالوا: اللهم نعم، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيّاً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والله! ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفاً أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما ردها الله عليكم، وفرغت منها، أسلمتُ، ثم خرج فقدم المدينة. اهـ[2].

قوله: (فرد عليه رسول الله زوجَه): قال الدحلاني: إنه بعد أن أسلم وهاجر رد النبي صلى الله عليه وسلم إليه زوجه زينبَ بالنكاح الأول، وقيل: بنكاح جديد، وهذا هو الذي عليه العمل؛ لأن الإسلام فرق بينهما، قال الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقيل: هذه الآية متأخرة عن هذه الوقعة،

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٧)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٠٩) عن عبدالله بن أبي بكر.

سرية [زيد بن حارثة إلى الطرف]

وفي جمادى الآخرة أرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة في خمسة عشر رجلاً؛ للإغارة على بني ثعلبة، الذين قتلوا أصحاب محمد ابن مسلمة، وهم مقيمون بالطَّرِفِ. فتوجهت السرية لذلك، ولما رآهم الأعداء، ظنوهم طليعةً لجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهربوا، وتركوا نعَمهم وشاءهم، فاستاقها المسلمون، ورجعوا إلى المدينة بعد أربع ليالٍ[1].

سرية [زيد بن حارثة إلى وادي القرى]

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام زيدَ بن حارثة؛ . . . .

فلم يكن اختلاف الدينين مقتضياً للتحريم إلا بعد نزولها. اهـ[2].

سرية

قوله: (سرية): عنونها الدحلاني بـ: سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرِف، قال: والطرف: ـ بفتح الطاء وكسر الراء وبالفاء؛ ككتف[3] ـ.

سرية

قوله: (سرية): عنونها الدحلاني بـ: سرية زيد بن حارثة أيضاً[4].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٥٠١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٥٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٠).

ليُغيرَ على بني فَزَارة؛ لأنهم تعرضوا لزيد وهو راجع بتجارة من الشام، فسلبوا ما معه، وكادوا يقتلونه، فلما جاء المدينة، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم الخبر، أرسله مع رجاله للقصاص من فَزارة؛ المقيمين في وادي القُرى. فساروا حتى دهموا العدو وأحاطوا بهم، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وأخذوا امرأة من كبارهم أسيرة، فاستوهبها عليه الصلاة والسلام ممّن أسرها، وفدى بها أسيراً كان بمكة[1].

سرية [عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل]

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عبدَ الرحمن بنَ عوف مع سبع مئة من الصحابة لغزو بني كلب في دُومة الجَنْدل، وقد وصّاهم عليه الصلاة والسلام قبل السفر بقوله: «اغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا مَنْ كفر بالله، ولا تَغُلُّوا. . . . .

و(فزارة) ـ بفتح الفاء ـ: أبو قبيلة من غطفان[2].

سرية

قوله: (سرية): عنونها السيد الدحلاني بـ: سرية عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه[3] ـ.

قوله: (دومة الجندل) هي: ـ بضم الدال المهملة وبفتحها، وبفتح الجيم وسكون النون وفتح الدال ـ.

قوله: (ولا تغلوا): في «القاموس»: غَلَّ غُلولاً: خان؛ كأَغل، أو خاصٌّ

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٥٠١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٠).

ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهدُ الله وسيرةُ نبيّه فيكم»[1]، ثم أعطاه اللواء، فساروا على بركة الله حتى حلّوا بديار العدو، فدعَوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أسلم رئيس القوم الأَصْبَغُ بنُ عمرٍو النصراني، وأسلم معه جمع من قومه، وبقي آخرون راضين بإعطاء الجزية، فتزوج عبد الرحمن بنتَ رئيسهم، كما أمره بذلك عليه الصلاة والسلام، وهذه أقرب واسطة لتمكين صلات الودّ بين الأمراء؛ بحيث يهمّ كلاًّ ما يهمّ الآخرَ، . . . .

بالفيء. اهـ[2].

وفي «المصباح»: غلَّ غلولاً من باب قعد، وأغل ـ بالألف ـ: خان في المغنم وغيره، وقال ابن السكيت: لم نسمع في المغنم إلا غلَّ ثلاثيّاً[3]، وهو متعدٍّ في الأصل، لكن أُميت مفعوله فلم يُنطَق به. اهـ[4].

وقوله في الحديث: (ولا تغدروا)؛ أي: لا تتركوا الوفاء.

قوله: (وفي اليوم الرابع): صوابه: الثالث؛ كما في الحلبي والدحلاني[5].

قوله: (وتزوج بنت رئيسهم اسمُها تماضر)، قال الدحلاني: وقدم بها المدينة، ففازت بشرف الصحبة ـ رضي الله عنها ـ.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٦١٧٥) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. ورواه الترمذي (١٤٠٨) من حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: غلل).

(٣) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ٢٦٦).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: غلل).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٤)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٦١).

فنِعما هي سياسة السلم والمحبة[1].

سرية [علي بن أبي طالب]

وفي شعبان أرسل عليه الصلاة والسلام عليَّ بنَ أبي طالب في مئة لغزو بني سعد بن بكر بفَدَك؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين مقابلَ تمر يُعطَونه من تمر خيبر، فسارت السرية، وبينما هم سائرون، التقَوا بجاسوس للعدوّ، وكانوا قد أرسلوه إلى خيبر ليعقد المعاهدة مع يهودها، فطلبوا منه أن يدلّهم على القوم وهو آمنٌ، فدلهم على موضعهم، فاستاق منه المسلمون نعَم القوم، وهرب الرعاةُ، فحذَّروا قومهم، فدَاخَلَهم الرعب، وتفرقوا، فرجع المسلمون ومعهم خمس مئة بَعير وألفا شاةٍ، وردّ الله كيدَ المشركين فلم يمدُّوا اليهود بشيء[2].

ثم قال: وقد ولدت له بعد ذلك سنة بضع وعشرين من الهجرة أبا سلمة، وهو الحافظ الثقة كثير الحديث إمام العلماء، وهو من كبار التابعين، واسمه: عبدالله، وقيل: إسماعيل، توفي سنة (٩٤هـ)[3].

سرية

قوله: (سرية): عنونها السيد الدحلاني بـ: سرية علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه[4] ـ.

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٩)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٣).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣٠٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٢).

قتل أبي رافع

وكان المحرّكَ لأهل خيبر على حرب المسلمين، وهو سيدُهم، أبو رافع سَلاّم بنُ أبي الحُقَيق الملقبُ بتاجر أهل الحجاز؛ لما كان له من المهارة في التجارة، وكان ذا ثروة طائلة يُقَلِّبُ بها قلوبَ اليهود كما يريد، فانتدب له عليه الصلاة والسلام مَنْ يقتله، فأجاب لذلك خمسة رجال من الخزرج، رئيسُهم عبدُالله بن عَتِيْك؛ ليكون لهم مثلُ أجر إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعبَ بن الأشرف؛ . . . .

قال الحلبي: وفدك هي خراب الآن، وفي «الصحاح»: فدك: قرية بخيبر. اهـ[1].

قتل أبي رافع

قوله: (قتل أبي رافع) عنون الحلبي والدحلاني في هذه الحادثة بـ: سرية عبدالله بن عتيك[2].

وعَتيك: ـ بفتح العين وكسر التاء وسكون الياء ـ.

قوله: (سلام بن أبي الحقيق): سلام: ـ بشد اللام ـ، والحُقَيق: ـ بضم الحاء وفتح القاف مصغراً ـ.

قوله: (فانتدب له عليه السلام من يقتله. . .) إلخ: قال الحلبي: لما قتلت الأوس كعبَ بن الأشرف؛ تذاكر الخزرج: من يشابه كعبَ بنَ الأشرف في العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فذكروا أبا رافع سلامَ بنَ أبي الحقيق؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٥). وانظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: فدك).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٦٣).

فإن من نِعم الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن كان الأوس والخزرج يتفاخرون بما يفعلونه من تنفيذ رغبات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا تعمل الأوسُ عملاً إلا اجتهد الخزرجُ في مثله، فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك بعد أن وصَّاهم ألّا يقتلوا وليداً ولا امرأة، فساروا حتى أتوا خيبر، فقال عبدالله لأصحابه: مكانَكم؛ فإني منطلقٌ للبوّاب ومتلطِّف له لعلّي أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنَّع بثوب كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البوّاب: ادخل يا عبدالله. . . . .

لأنه كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي حَزَّب الأحزاب يوم الخندق؛ لأن الأوس والخزرج كانا يتنافسان فيما يقرب إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، لا تفعل الأوس شيئاً من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره، وبالعكس، ويقولون: والله! لا يذهبون بهذا فتيلاً علينا في الإسلام، فانتدب لقتله خمسة من الخزرج، واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأذن لهم، وأمَّر عليهم عبدَالله بن عتيك، وتمامه فيه[1].

وبهذا يعلم أن الخزرج هم الذين انتدبوا أنفسهم، واستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم، فأذن لهم؛ خلافاً لما تفيده عبارة المؤلف من أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي انتدبهم.

قال الدحلاني: والأربعة الباقون هم: عبدالله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث ابن ربعي، والأسود بن خزاعي، ومسعود بن سنان الأسلمي[2].

قوله: (ادخل يا عبدالله): قال في الحلبي نقلاً عن الصحيح: ناداه بذلك

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٤).

إن كنت تريد الدخول؛ فإني أُريد أن أُغلق الباب، فدخل وكَمَن حتى نام البوَّاب، فأخذ المفاتيح، وفتح ليسهُل له الهرب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وصار يفتح الأبواب التي تُوصل إليه، وكلما فتح باباً، أغلقه من الداخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، فلم يمكنه تمييزه، فنادى: يا أبا رافع! قال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت، فلم يغن شيئاً، وعند ذلك قالت امرأته: هذا صوت ابن عتيك، فقال لها: ثكلتك أُمُّكِ، وأين ابنُ عتيك الآن؟ فعاد عبدالله للنداء مُغيِّراً صوته، قائلاً: ما هذا الصوت الذي نسمعه يا أبا رافع؟ قال: لأمك الويل! إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف، فعمد إليه فضربه أخرى لم تُغنِ شيئاً، فتوارى ثم جاءه كالمُغيث وغَيَّر صوته، فوجده مستلقياً على ظهره، فوضع السيف في بطنه، وتحامل عليه حتى سمع صوت العظم، ثم خرج من البيت، وكان نظره ضعيفاً، فوقع من فوق السُّلَّم، فكسرت رجله، فعصَبها بعمامته، ثم انطلق إلى أصحابه، وقال: النجاة، قتِل والله أبو رافع، فانتهوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فحدَّثوه، ثم قال لعبدالله: «ابسط رجلك»، فمسحها علَيه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتَكِها قطّ، وعادت أحسنَ ما كانت[1]، . . . .

كما ينادي الشخص شخصاً لا يعرفه، وهو يظن أنه من أهل الحصن[2].

قوله: (حتى نام البواب)؛ أي: وذهب عن أبي رافع أهلُ سمره؛ لأنه كان

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ، وانظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٣١٢)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٣).

فانظر ـ رعاك الله ـ إلى ما كان عليه المسلمون من استسهال المصاعب ما دامت في إرضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

سرية [عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ إلى أسير بن رزام]

ولما قُتل كعبٌ، ولّى اليهودُ مكانه أُسَيرَ بنَ رِزام، فأرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يستعلم له خبره، فجاءته الأخبار بأنه قال لقومه: سأصنع بمحمد ما لم يصنعه أحدٌ قبلي، أسير إلى غطفان فأجمعُهم لحربه، . . . . .

يسمر عنده. اهـ. منه[1].

سرية

قوله: (سرية): عنونها الحلبي بـ: سرية عبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ إلى أُسَير[2].

وكانت في شوال سنة ست[3].

و**(أسير)**: ـ بضم الهمزة وفتح السين ـ، و(رزام)؛ ككتاب.

قوله: (فأرسل له عليه السلام. . .) إلخ: قبل أن يرسله في ثلاثين من الأنصار أرسله في ثلاثة نفر في شهر رمضان سرّاً ليستكشف له الخبر، فسأله عن خبره وغرته ـ أي: غفلته ـ، فأخبر بذلك، وذلك أنه أتى ناحية خيبر، فدخل في الحوائط، وفرق الثلاثة في ثلاثة من حصونها، فوعوا ما سمعوا من أسير وغيره، ثم خرج بعد ثلاثة أيام، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم لليال بقين من رمضان، فأخبره بكل ما رآه وسمعه، وقدم عليه أيضاً خارجة بن حُسَيل، فاستخبره صلى الله عليه وسلم ما وراءه، فقال: تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٥٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٦).

وسعى في ذلك. فأرسل عليه الصلاة والسلام عبدَالله بنَ رواحةَ الخزرجيَّ في ثلاثين من الأنصار لاستمالته، فخرجوا حتى قدموا خيبر، وقالوا لأسير: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي مثلُ ذلك، فأجابوه، ثم عرضوا عليه أن يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويترك ما عزم عليه من الحرب، فيولِّيه الرسول صلى الله عليه وسلم على خيبر، فيعيش أهلها بسلام، فأجاب إلى ذلك، وخرج في ثلاثين يهوديًّا كلُّ يهودي رديفٌ لمسلم، وبينما هم في الطريق، ندم أُسَير على مجيئه، وأراد التخلّص مما فعل بالغدر بمن أمَّنوه، فأهوى بيده إلى سيف عبدالله بن رواحة، فقال له: أغدراً يا عدو الله؟. . . . .

يهود، فندب صلى الله عليه وسلم الناس له، فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبدالله بن رواحة[١].

قوله: **(فأجاب إلى ذلك)**: قبل أن يجيب إلى ذلك استشار يهود في ذلك، فأشاروا عليه بعدم الخروج، وقالوا: ما كان محمد ليستعمل رجالاً من بني إسرائيل، قال: بلى، قد مل الحرب. اهـ. حلبي[٢].

ثم قال: قال في «النور»: هذا الكلام لا يناسب أن يقال قبل فتح خيبر، فالذي يظهر أنها بعد فتح خيبر، وأقول: يجوز أن يكون المراد باستعماله على خيبر: المصالحةَ وترك القتال، ومن ثم أجاب بقوله: إنه صلى الله عليه وسلم قد مل الحرب. اهـ[٣].

قوله: **(أغدراً يا عدو الله)**: قالها له ثلاثاً كما في الحلبي[٤].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٧).

ثم نزل وضربه بالسيف فأطاح عامّة فخذه، ولم يلبث أن هلك، فقام المسلمون على مَن معه من اليهود، فقتلوهم عن آخرهم. وهذه عاقبة الغدر[1].

قوله: (فأطاح عامة فخذه. . .) إلخ: قال في الحلبي: وكان بيده مخـدش[2] من شوحط[3]، فضربني به على رأسي، فشجني مأمومـة، وملنـا علـى أصـحابه فقتلناهم إلا رجلاً واحداً أعجزنا جرياً، ثم أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحدثناه الحديث، فقال: «قد نجاكم الله من القوم الظالمين»، وبصـق فـي شَـجَّتي، فلم تقح عليَّ ولم تؤذني[4].

وقطع لي قطعة من عصاه، فقال: «امسك هذه معـك علامـة بينـي وبينـك يوم القيامة أعرفك بها؛ فإنك تأتي يوم القيامة متخصراً»، فلما دفن عبـدُالله، جُعلـت معه على جلده دون ثيابه[5]. اهـ.

ثم قال: لكن ربما تتشوف النفس للسؤال عن حكمة تخصيصه بهذه المنقبة دون بقية الصحابة[6].

وقد أجاب عن ذلك السيد الدحلاني حيث قال: والشارع إذا خص بعـض صحبه بشيء لا يُسأل لمَ لم يفعله مع بقية الصحابة[7]؟

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) في هامش الأصل: «الخادشة: كل شجر له شوك».

(٣) في هامش الأصل: «شجر تتخذ منه القِسيّ».

(٤) أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٩٢). ورواه البيهقي فـي «دلائـل النبـوة» (٤/ ٢٩٤) عن الزهري بنحوه، وفيهما: «مخرش» بدل «مخدش».

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٦)، وابن حبان في «صـحيحه» (٧١٦٠) من حديث عبدالله بن أنيس ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٨٧).

(٧) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٨).

قصة عُكْل وعُرَيْنَة

قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوّال جماعة من عُكْل وعُرَيْنَة، فأظهروا الإسلام، وبايعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا سِقاماً، مصفرةً ألوانُهم، عظيمةً بطونُهم، فلم يوافقهم هواء المدينة، فأمر لهم عليه الصلاة والسلام بذَوْدٍ من الإبل معها راعٍ، . . . .

قصة عكل وعرينة

قوله: **(عكل وعرينة)** عكل: بوزن قُفْل، وهم حيّ من قضاعة، وعُرَينة ـ بوزن جُهينة ـ: حي من بجيلة، وهي سرية كرز بن جابر الفهري، وكُرْز: بوزن قفل.

قوله: **(جماعة)** هم سبعة أو ثمانية. اهـ. دحلاني[1].

قوله: **(عظيمة بطونهم)**: قال في «زاد المعاد»: كانوا مصابين بداء الاستسقاء[2].

قوله: **(فلم يوافقهم هواء المدينة)**: في الدحلاني: فقالوا: يا رسول الله! إنا كنا أهل ضرع ـ بكسر الضاد؛ أي: ماشية وإبل ـ ولم نكن أهل ريف ـ الريف: الأرض التي فيها زرع وخصب ـ، وكرهنا الإقامة بالمدينة، فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل، فأمر لهم عليه السلام بذود من الإبل ـ والذود بفتح الذال: وهي من الثلاثة إلى العشرة ـ معها راع. . . إلخ ما ذكره المؤلف، والراعي كان عبداً للنبي صلى الله عليه وسلم، واسمه يسار[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٩).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٤/ ٤٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٦٩).

وأمرهم باللحوق بها في مرعاها ليشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا، ولما تم شفاؤهم، جازوا الإحسانَ كفراً، فقتلوا الراعي، ومَثَّلُوا به، واستاقوا الإبل، فلما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، أرسل وراءهم كُرْزَ بن جابر الفِهري في عشرين فارساً، فلحقوا بهم، وقبضوا على جميعهم، ولما جيء بهم إلى المدينة، أمر عليه الصلاة والسلام أن يمثل بهم كما مَثَّلُوا بالراعي، فقُطعت أيديهم وأرجلُهم، وسُمِّرَتْ أعينُهم، وأُلقوا بالحرّة حتى ماتوا، فهكذا يكون جزاءُ الخائن الذي لا يُنتظر منه صلاح، وعَمَلُ هؤلاء الشريرين مما يدل على فساد الأصل، ولؤم العشيرة، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن المُثْلَة.

قوله: (وأمرهم باللحوق بها)؛ أي: إلى ناحية الحرة.

قوله: (وألقوا بالحرة حتى ماتوا): قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: فلقد رأيتهم يكدِم ـ بضم الدال وكسرها؛ أي: يعضّ ـ بعضُهم الأرض بفيه حتى ماتوا[1]، وفي رواية: كانوا يستسقون فلا يُسقَوْن[2]؛ لأنهم ارتدوا، فلا حرمة لهم، وأنزل الله في هؤلاء: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[المائدة: ٣٣] الآية، وهؤلاء كفروا وقتلوا وحاربوا وقطعوا الطريق وسرقوا. اهـ. دحلاني[3].

ثم قال: وفي القصة دلالة على مشروعية الطب، والتداوي بألبان الإبل وأبوالها، وأن كل جسد يطب بما اعتاد، وقتل الجماعة بالواحد، والمماثلة في القصاص[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٥)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه البخاري (٢٣٣)، ومسلم (١٦٧١)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٠).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٠).

سرية [عمرو بن أمية الضَّمْرِي لقتل أبي سفيان]

جلس أبو سفيان بنُ حرب يوماً في نادي قومه، فقال: ألا رجلٌ يذهب لمحمد فيقتله غدراً؛ فإنه يمشي بالأسواق لنستريحَ منه؟ فتقدم له رجل، وتعهد له بما أراد، فأعطاه راحلةً ونفقةً، وجهّزه لذلك. فخرج الرجل حتى وصل إلى المدينة صُبْحَ سادسةٍ من خروجه، فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَدُلَّ عليه وهو بمسجد بني عبد الأشهل، فلما رآه عليه الصلاة والسلام قال: «إن هذا الرجل لَيريدُ غدراً، وإن الله مانعي منه»، فذهب لينحني على الرسول صلى الله عليه وسلم، فجذبه أُسَيد بن حُضَير من إزاره، وهنالك سقط الخنجر، فندم الرجلُ على فعلته، ثم سأله عليه الصلاة والسلام عن سبب عمله، فصَدَقَه بعد أن توثّق من حفظ دمه، فخلّى عليه الصلاة والسلام سبيله. فقال الرجل: والله يا محمد! ما كنت أخافُ الرجال، فما هو إلا أَنْ رأيتك، فذهب عقلي، وضعفت نفسي، . . .

سرية

قوله: (سرية) عنونها الدحلاني بـ: سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي[1]، وهي ـ بفتح الضاد وسكون الميم ـ نسبة لبني ضَمْرة.

قوله: (فتقدم له رجل. . .) إلخ: في الدحلانية: أتى أبا سفيان رجل من الأعراب في منزله، فقال: قد وجدتَ أجمعَ الرجال قلباً، وأشدهم بطشاً، وأسرعهم شدّاً ـ أي: جرياً ـ فإن أنت قويتني، خرجتُ إليه حتى أغتاله، ومعي خنجر مثل خافية النسر، فأسوره، ثم آخذه في عير، فأسير وأسبق القوم عَدْواً؛ فإني هاد بالطريق، فقال: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيراً ونفقة وقال: اطو أمرك[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٠).

ثم إنك اطّلعت على ما هَممتُ به مما لم يعلمه أحد، فعرفتُ أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزبُ الشيطان، ثم أسلم. وعند ذلك أرسل عليه الصلاة والسلام عَمْرَو بنَ أمية الضَّمْرِيَّ، وكان رجلاً جريئاً فاتكاً في الجاهلية، وأصحَبَه برفيق؛ ليقتلا أبا سفيان غيلةً جزاء اعتدائه، فلما قدما مكة، توجها ليطوفا بالبيت قبل أن يؤديا ما أرسلا له، فعرف عَمْراً أحدُ رجال مكة، فقال: هذا عمرو بن أُميّة ما جاء إلا بِشَرّ، فلما رآهم علموا به، لم يجد مناصاً من الهرب، فاصطحب معه رفيقَه، ورجعا إلى المدينة[1].

فأسوره: يظهر أن معناها: التسلق عليه، في «القاموس»: سُرْتُ الحائطَ سَوْراً، وتسوَّرتُه: تسلَّقته[2].

قوله: (ثم أسلم): قال الدحلاني: أقام الرجل أياماً، ثم استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج، فأذن له، فخرج ولم يُسمع له بذكر، ولم يعرف أحد من الحفاظ اسم ذلك الرجل. اهـ[3].

قوله: (فاتكاً) الفتك: القتل على غفلة.

قوله: (غيلة): ـ بكسر الغين ـ، يقال: قتله غِيلة؛ أي: خدعه، فذهب به إلى موضع فقتله.

قوله: (توجها ليطوفا...) إلخ. في الدحلانية: لما دخل مكة ليلاً، قال جبار لعمرو: لو أنا طفنا بالبيت، وصلينا ركعتين، فقال عمرو: إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفنيتهم، وإنهم إن رأوني عرفوني؛ فإني أَعرَفُ بمكة من الفرس الأبلق،

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥) عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري، وعبد الواحد بن أبي عون، بنحوه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: سور).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧١).

وكأَنَّ الله سبحانه أراد أن يعيش أبو سفيان حتى يُسَلِّمَ بيده مفاتيحَ الكعبة للمسلمين، ويعتنق الدين الحنيفي القويم.

غزوة الحُدَيْبِيَة

رأى عليه الصلاة والسلام في نومه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين محلِّقين رؤوسَهم ومقصِّرين، فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، . .

فقال: كلا إن شاء الله، فقال عمرو: فأبى أن يطيعني، فطفنا بالبيت وصلينا، ثم خرجنا نريد أبا سفيان، فوالله! إنا لنمشي بمكة، إذ نظر إليَّ رجل من أهلها فعرفني، فقال: عمرو بن أمية، فوالله! إنْ قدمها إلا لشرّ، فقيل: إن هذا الرجل الذي أبهمه هو معاوية بن أبي سفيان، وقيل غيرُه، فأخبر أبا سفيان وقريشاً بوجود عمرو بمكة، فخافوه وطلبوه، فهرب هو وجبار بن صخر، وعادا إلى المدينة. اهـ[1].

وبه يعلم أنهما بعد أن طافا توجها ليقوما بما أرسلا إليه؛ خلافاً لما توهمه عبارة المؤلف.

غزوة الحديبية

قوله: (غزوة الحديبية) ـ بتخفيف الباء وتشديدها ـ، وهي بئر يسمى المكان باسمها، وقيل شجرة، وقيل قرية أكثرها في الحرم على تسعة أميال من مكة.

قوله: (فأخبر المسلمين) لما أخبرهم فرحوا، ثم أخبرهم أنه يريد الخروج للعمرة.

قال الدحلاني: كان خروجه يوم الاثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٣).

واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه؛ حذراً من أن تردّهم قريش عن عمرتهم، ولكن هؤلاء الأعراب أبطؤوا عليه؛ لأنهم ظنوا ألّا ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، وتخلَّصوا بأن قالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاستغفرْ لنا، فخرج عليه الصلاة والسلام بمن معه من المهاجرين والأنصار تبلغ عدّتهم ألفاً وخمس مئة، وولى على المدينة ابنَ أُم مكتوم، وأخرج معه زوجَه أم سلَمةَ، وأخرج الهَدْيَ؛ ليعلم الناس أنه لم يأت محارباً، ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح إلا السيوف في القُرُب؛ . . . .

قوله: (واستنفر الأعراب الذين حول المدينة)؛ أي: ممن أسلم منهم، وهم غفار ومزينة وجهينة، وأسلمُ القبيلةُ المعروفة.

قوله: (أبطؤوا عليه): وقالوا: أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟ واعتلُّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك، فأنزل الله يكذبهم في اعتذارهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

قوله: (وأخرج الهدي . . .) إلخ: قال الحلبي: كان الهدي سبعين بدنة، وجللها، وأشعر منها عدةً وهي موجهاتٌ للقِبلة في الشق الأيمن من سنامها، ثم أمر ناجية بنَ جندب، فأشعر ما بقي منها، وقلدهن نعلاً نعلاً، وأشعر المسلمون بُدْنَهم وقلدوها.

والإشعار: جرح بصفحة سنامها، والتقليد: أن تقلد في عنقها قطعة جلد أو نعل بالية؛ ليعلم أنه هدي، فيكف الناس عنه[1].

قوله: (ولم يكن مع أصحابه شيء من السلاح) قال الحلبي: قال له عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه، ولم

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨٩).

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرضَ أن يحملوا السيوف مجردةً وهم معتمرون، ثم سار الجيش حتى وصل عُسْفان، فجاءه عينُه يخبره أن قريشاً أجمعتْ رأيها أن يصدّوا المسلمين عن مكة، وألّا يدخلوها عليهم عَنْوةً أبداً. وتجهزوا للحرب، وأعدّوا خالدَ بنَ الوليد في مئتي فارس طليعةً لهم ليصدّوا المسلمين عن التقدم، فقال عليه الصلاة والسلام: «هل من رجل يأخذ بنا على غير طريقهم؟» فقال رجل من أَسلمَ: أنا يا رسول الله. . . . .

تأخذ للحرب عدتها؟ فقال: «لست أحب أن أحمل السلاح معتمراً»[1].

قوله: (عسفان): هو كعثمان.

قوله: (فجاءه عينه) قال الحلبي: هو بشر بن سفيان العتكي، جاءه صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم، ومعهم النساء والصبيان، وفي لفظ: خرجوا ومعهم العوذ المطافيل ـ أي: النياق ذوات اللبن التي معها أولادها؛ ليتزودوا ولا يرجعون خوف الجوع، أو العُوذ المطافيل من النساء معهم أطفالهم: أي: أنهم خرجوا بنسائهم معهم أولادهن؛ ليكون أدعى لعدم الفرار ـ وقد لبسوا جلود النمور ـ أي أظهروا العداوة والحقد ـ وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا يدخلنها عليهم عنوة أبداً. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (وأعدوا خالد بن الوليد. . .) إلخ؛ أي: في موضع يقال له: الغميم، وهو قريب من مكة.

قوله: (فقال رجل من أسلم): هو حمزة بن عمرٍو الأسلمّي.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٨٩ ـ ٦٩٠)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٧٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٠)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٧٥).

فسار بهم في طريق وعرة، ثم خرج بهم إلى مستوٍ سهل يملك مكة من أسفلها، فلما رأى خالدٌ ما فعل المسلمون، رجع إلى قريش، وأخبرهم الخبر. ولما كان عليه الصلاة والسلام بثنيّة المُرَار، بركت ناقته. فزجروها فلم تقم، فقالوا: خلأَتِ القَصْوَاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلأت، وما ذلك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابسُ الفيل، والذي نفسُ محمد بيده! لا تدعوني قريش لِخَصْلَة فيها تعظيمُ حرماتِ الله، . . . .

قوله: **(فزجروها)**: حيث قالوا لها: حل حل، وهي كلمة تقال للناقة إذا تركت السير[1].

وقوله: **(قالوا: خلأت القصواء)**؛ أي: حرنت وبركت من غير عِلَّة، والخِلاء ـ بكسر الخاء وبالمد ـ للإبل كالحِران للخيل[2].

قوله: **(حبسها حابس الفيل)**؛ أي: منعها الله عن دخول مكة؛ أي: علم صلى الله عليه وسلم أن ذلك صَدٌّ له من الله عن مكة أن يدخلها قهراً. اهـ. حلبي[3].

قال الدحلاني: ومناسبة ذلك التشبيه: أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة، وصدتهم قريش، لوقع القتال المُفضي إلى سفك الدماء ونهبِ الأموال؛ كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه، لكن سبق في علم الله أنهم لا يدخلون الآن؛ لأنه سيُدخل في الإسلام خلقاً منهم، [و] يستخرج من أصلابهم ناساً يسلمون ويجاهدون، وتمامه فيه[4].

قوله: **(فيها تعظيم حرمات الله)**؛ أي: من تركِ القتال في الحرم، والجنوحِ

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٣).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٦)، وما بين معكوفتين منه.

إلا أجبتُهم إليها»[1].

مع أن المسلمين لو قاتلوا أعداءهم في مثل هذا الوقت، لظفروا بهم، ولكن كَفَّ الله أيديَ المسلمين عن قريش، وكَفَّ أيديَ قريش عن المسلمين؛ كيلا تُنتهك حُرمات البيت الذي أراد الله أن يكون حرماً آمناً، ويوطد المسلمون من جميع الأقطار دعائمَ أخوتهم فيه. ثم أمرهم عليه الصلاة والسلام بالنزول أقصى الحديبية، وهناك جاء بُدَيلُ بنُ وَرْقَاءَ الخُزاعيُّ رسولاً من قريش، يسأل عن سبب مجيء المسلمين، فأخبره عليه الصلاة والسلام بمقصده، فلما رجع بُديلٌ إلى قريش، وأخبرهم بذلك، ....

إلى السلم، والكفِّ عن إراقة الدماء.

قوله: (ثم أمرهم عليه السلام بالنزول في أقصى الحديبية): قال الدحلاني: لما قال للناس: «انزلوا»؛ قالوا: يا رسول الله! ما بالوادي ماء ننزل عليه، وكان فيه حفرة فيها ماء قليل يأخذونه قليلاً قليلاً، فأخذوه حتى نزحوه، وشكَوْا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فنزل ناجيةُ بنُ الأعجم، وقيل غيرُه، فوضعه في البئر، قال: فوالله! ما زال يجيش ـ أي: يفور الماء ـ حتى صدروا عنه رِواءً بعد ورودهم[2].

قوله: (فأخبره عليه السلام بمقصده): في الدحلانية: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيباً لبديل: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب، فإن شاؤوا مادَدْتهم ـ أي: جعلت بيني وبينهم مدة نترك الحرب فيها ـ ويُخلوا بيني وبين الناس من كفار العرب وغيرهم، فإن أظهرْ،

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ، ومروان بن الحكم، بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٦)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٢٧٧) عن ابن شهاب.

لم يثقوا به؛ لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانت كذلك لأجداده، وقالوا: أيريد محمدٌ أن يدخل علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عَنوةً، وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا؟ والله! لا كان هذا أبداً. . . . .

فإن شاؤوا الدخولَ فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا، فقد جَمُّوا»[1] ـ بفتح الجيم وشد الميم المضمومة؛ ـ يعني ـ استراحوا من القتال.

وفي رواية: «فإن ظهر الناس عليَّ، فذلك الذي يبتغون»[2].

وفي رواية: «وإن لم يفعلوا، قاتلوا وبهم قوة، وإن هم أبوا، فوالذي نفس محمد بيده! لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي»[3]، وهي صفحة العنق، كنى بذلك عن القتل؛ أي: حتى أموت، وأبقى منفرداً في قبري. اهـ. ملخصاً[4].

ثم قال: وفي هذا تصريح بما كان عليه صلى الله عليه وسلم من القوة والثبات في تنفيذ حكم الله وتبليغ أمره.

وبُديلٌ أسلم يوم الفتح، وشهد حنيناً والطائف وتبوك، وكان من كبار مسلمة الفتح[5].

قوله: (لأنه من خزاعة الموالية لرسول الله): وقد تقدم أن خزاعة كانت عَيبةَ نصح للنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ، ومروان، بنحوه.

(٢) أوردها ابن حجر في «فتح الباري» (٥/ ٣٣٨)، وعزاها لابن عائذ عن الزهري.

(٣) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما ـ، ومروان، بنحوه.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٨).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٧٨).

ومنا عَيْن تَطْرِف. ثم أرسلوا حُلَيْسَ بنَ علقمة سَيِّد الأحـابيش، وهـم حلفـاء قريش، فلما رآه عليه الصلاة والسلام، قال: «هذا مِنْ قوم يعظّمون الهدْي، . .

قوله: (ومنا عين تطرِف)؛ أي: ما دمنا أحياء، وتطرِف: بكسر الراء.

قوله: (ثم أرسلوا حليس بن علقمة) هو من بني كنانة.

وقوله: (وكان سيد الأحابيش)؛ أي: القبائل التي تجمَّعت من غير قـريش. اهـ. دحلاني[1].

وقبل أن يرسلوه أرسلوا مكرزَ بنَ حفص، وقد أهمل ذكره المؤلـف هنـا، وذكره الحلبي والدحلاني وابن هشام وابن القيم[2].

قال الحلبي: ثم بعثوا إليه صلى الله عليه وسلم مكرز بـن حفـص، وهـو مـن بني عامر، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسـلم مقـبلاً، قـال: «هـذا الرجـل غادر»[3]، وفي رواية: «فاجر»[4]، فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحـواً ممـا قـال لبـديل، فرجـع إلـى قريش، وأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليـه وسلم، ثم بعثوا إليه الحلـيسَ ابنَ علقمة. . . إلخ ما ذكره المؤلف[5].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٥)، و«السيرة النبوية» لأحمـد ابن زيني دحلان (٢/ ١٨٣)، و«السيرة النبوية» لابـن هشـام (٤/ ٢٧٩)، و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٢٩٤).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٢٤) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما ـ، ومروان.

(٤) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهمـا ـ، ومروان.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٥).

ابعثوه في وجهه حتى يراه»، ففعلوا، واستقبله الناس يُلَبُّون، فلما رأى ذلك حُلَيْس، رجعَ، وقال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا. أتحجُّ لخم وجذام وحِمْير، ويُمنع عن البيت ابن عبد المطلب؟ هلكَت قريش، وربِّ البيت إن القوم أَتَوا معتمرين[1].

فلما سمعت قريش منه ذلك قالوا له: اجلسْ إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكايد، ثم أرسلوا عُرْوَةَ بن مسعود الثقفي سيدَ أهل الطائف، فتوجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا محمد! قد جمعتَ أوباشَ الناس، ثم جئت إلى أهلك وعشيرتك........................

قوله: (ابعثوه في وجهه)؛ أي: أثيروه دفعة واحدة؛ ليعتبر برؤيتها، ويتحقق أنهم لا يريدون حرباً، فيعينهم على دخول مكة لنُسُكِهم. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (إنما أنت أعرابي لا علم لك بالمكائد) في الدحلانية: لما قالوا له ذلك، غضب وقال: يا معشر قريش! والله! ما على هذا عاهدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده! لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: اكفف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[3].

قوله: (أوباش الناس)؛ أي: أخلاط الناس.

وقوله: (ثم جئت إلى أهلك...) إلخ: العبارة في الحلبي: ثم جئت بهم إلى بيضتك؛ أي: أصلك وعشيرتك لتفضها بهم[4].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٥٥) عن عروة بن الزبير، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٦ ـ ٦٩٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٧).

لِتَفُضَّها بهم! إنها قريش قد خرجت تعاهد الله ألا تدخلها علـيهم عَنْـوة أبـداً. وايمُ الله! لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك. فنال منه أبو بكـر، وقـال: نحـن ننكشف عنه؟ ويحك! وكان عروة يتكلم وهو يمسّ لحية رسول الله صـلى الله عليه وسلم، . . . .

وهي أولى من عبارة المؤلف، ومعنى (لتفضها بهم): لتكسرها بهم.

في «المصباح»: فضضت الختم فضّاً من باب قتل: كسرته[1].

قوله: (قد انكشفوا عنك)؛ أي: انهزموا غداً. حلبي[2].

قوله: (فنال منه أبو بكر)؛ أي: حيث قال له: اعضضْ بَظْرَ اللات[3].

والبظر ـ بفتح الباء ـ: هو الفرج، وقيل: قطعة تبقى بعد الختان[4].

قال الدحلاني: قال العلماء: وهذا مبالغة من أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في سب عروة؛ فإنه أقام معبودَ عروة ـ وهو صنمه ـ مقام امرأة تحقيراً لمعبـوده، وعـادة العرب الشتم بذلك، فقال عروة: من هذا يا محمد؟ واستفهم عنه لجلوسه خلف النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسـلم: «هـذا أبـو بكـر»، فقال عروة مخاطباً لأبي بكر: أما والذي نفسي بيده! لولا يـدٌ لـك عنـدي ـ أي: نعمة سابقة ـ لم أكافئك بها، لأجبتك، ولكن هذه بها؛ أي: جعلـت عـدم إجابتـك عن شتمي جزاءً ليدك التي كنتَ أحسنتَ إليَّ بها[5].

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: فضض).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنـور الـدين الحلبـي (٢/ ٦٩٧)، ورواه البخـاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديـث المسور بن مخرمـة ـ رضي الله عنهما ــ، ومـروان، وفيـه: «امصص» بدل «اعضض».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٧).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٠)، والخبر المذكور =

فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده إذا أراد ذلك، ثم رجع عروة وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه، لا يتوضأ وضُوءاً إلا كادوا يقتتلون عليه يتمسحون به، وإذا تكلموا، خَفَضوا أصواتهم عنده، ولا يُحِدُّون النظر إليه. فقال: والله يا معشر قريش! جئتُ كسرى في ملكه، وقيصرَ في عظمته، فما رأيتُ مَلِكاً في قومه مثلَ محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونه لشيء أبداً، فانظروا رأيكم؛ فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم؛ فإني لكم ناصح، مع أني أخاف ألا تنصروا عليه. . . . .

قوله: (فكان المغيرة يقرع يده)؛ أي: يضرب يده بنعل السيف، وهو ما يكون أسفل القِراب من فضة أو غيرها، وفعل المغيرة ذلك إجلالاً وتعظيماً للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يقول لعروة: أَخِّرْ يدَكَ عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسها، يقول عروة: ما أفظك وما أغلظك!

وقد كانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، ولا سيما عند الملاطفة، يريدون بذلك التحية والتواصل، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظير، بالنظير فربما رأى عروة لعظمته في قومه أنه نظير للنبي صلى الله عليه وسلم، وما علم حينئذ أنه لا نظير له، فاللائق منعه، فلذا كان المغيرة ـ رضي الله عنه ـ يمنعه[1].

قوله: (وقد رأى ما يصنع بالرسول أصحابه): قال الدحلاني: فكان في فعلهم ذلك ردٌّ لما ظنه من فرارهم، فكأنهم قالوا بلسان الحال: من نحبه هذه المحبة، ونعظمه هذا التعظيم كيف يُظَن بنا أن نفر عنه ونُسلمه لعدوه؟![2].

= رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٢٤)، من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما ـ، ومروان.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨١).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٢).

فقالت قريش: لا تتكلم بهذا، ولكن نردّه عامنا، ويرجع إلى قابل ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار عثمان بنَ عفان رسولاً من عنده إلى قريش حتى يعلمهم مَقْصِده، فتوجَّه، وتوجَّه معه عشرة استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في زيارة أقاربهم، وأمر عليه الصلاة والسلام عثمان أن يأتي المستضعفين من المؤمنين بمكة، فيبشرهم بقرب الفتح، وأنَّ اللّه مُظِهر دينه، فدخل عثمان مكة في جوار أبَان بن سعيد الأموي، فَبَلَّغ ما حمل، فقالوا: إن محمداً لا يدخلها علينا عَنْوة أبداً. ثم طلبوا منه أن يطوف بالبيت، فقال: لا أطوف ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ممنوع، . . . .

قوله: (فقالت قريش: لا تتكلم بهذا. . .) إلخ: لما قالوا له ذلك قال: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثم انصرف هو ومن معه إلى الطائف. اهـ. حلبي[1].

قوله: (ثم إن الرسول اختار عثمان بن عفان رسولاً): قبل أن يرسل النبي صلى الله عليه وسلم عثمان، دعا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ليبعثه فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله! إني أخاف قريشاً على نفسي، وما بمكة من بني عديٍّ بنِ كعب أحد يمنعني، وقد عرفتْ قريش عداوتي إياها، وغلظي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ؛ فإن بني عمه يمنعونه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان، وكتب له كتاباً إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته. اهـ. دحلاني، حلبي[2].

قوله: (أَبان) هو كسحاب.

قوله: (فقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع): قال الدحلاني: وقال

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٠).

ثم إنهم حبسوه، فشاعَ عند المسلمين أن عثمان قُتِلَ، فقـال عليـه الصـلاة والسلام حينما سمع ذلك: «لا نبرح حتى نُناجزهم الحرب»[1].

بيعة الرضوان

ودعا الناسَ للبيعة على القتال، فبايعوه تحت شجرة هنـاك ـ سـميت بعدُ بشجرة الرضوان ـ على الموت، فشـاعَ أمـرُ هـذه البيعـة فـي قـريش، فداخلهم منها رعبٌ عظيم، . . . .

المسلمون الذين مع النبي صلى الله عليه وسلم: قد خلص عثمان إلى البيـت فطـاف به دوننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مـا أظنـه طـاف بالبيـت ونحـن محصورون»، قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه؟ قال: «ذاك ظني بـه أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف لو مكث كذا وكذا سنة»، فلمـا رجـع عثمـان، وقيل له في ذلك؛ أي: قالوا له: طفتَ بالبيت؟ فقال: والـذي نفسـي بيـده! لـو مكثت بها معتمراً كذا وكذا سنة، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ[2].

قوله: (حتى نناجزهم الحرب)؛ أي: نقاتلهم.

بيعة الرضوان

قوله: (ودعا الناس للبيعة. . .) إلخ: بايعوه على عدم الفرار، وأنـه إمـا الفتح وإما الشهادة، وبايع صلى الله عليه وسلم عن عثمان، فوضع يده على يـده؛ أي: وضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال: «اللهم إن هذه عن عثمان؛ فإنه في

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٨٣) عـن عبـدالله بـن أبي بكر.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٨٥)، والخبـر المـذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٣٤) عن عروة بن الزبير.

وكانوا قد أرسلوا خمسين رجلاً عليهم مكرزُ بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين لعلهم يصيبون منهم غِرَّة، فأسرهم حارس الجيش محمد بن مسلمة، . . . .

حاجتك وحاجة رسولك»[1]، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «أنتم خير أهل الأرض»[2]، وقيل لها: بيعة الرضوان؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» رواه مسلم. اهـ. حلبي[3].

وأنزل الله تعالى في حقهم سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح: ١٨]، والشجرة كانت من أشجار السَّمُر ـ بفتح السين وضم الميم ـ.

قال في هوامش «القاموس»: هو اسمُ جمعٍ واحدتُه سَمُرة، وتجمع سَمُرات، وهو شجر الطلح، ويسمى: أم غيلان[4].

قال الحلبي والدحلاني: وصارت تلك الشجرة يقال لها: شجرة الرضوان، وبلغ عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته أن ناساً يصلون عندها، ويطوفون بها، فخاف ـ رضي الله عنه ـ من اتساع الأمر وظهور البدعة، وأن تُعبد كالأصنام، فأمر بها فقُطعت. اهـ[5].

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٢) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه البخاري (٤١٥٤) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٢ ـ ٧٠٤)، والحديث المذكور رواه مسلم (٢٤٩٦) من حديث أم بشر ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٤) انظر: «تاج العروس» للزبيدي (مادة: طلح، سمر).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧١٧)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٠٠).

وهرب رئيسهم، ولما علمت بذلك قريش، جاء جمع منهم، وابتدؤوا يناوشون المسلمين حتى أُسر منهم اثنا عشر رجلاً، وقُتل من المسلمين واحد.

صلح الحُدَيبية

وعند ذلك خافت قريش، وأرسلت سهيلَ بنَ عَمْرٍو للمكالمة في الصلح، فلما جاء قال: يا محمد! إن الذي حصل ليس من رأي عقلائنا، بل شيء قام به السفهاء منّا، فابعث بمن أسرت، فقال: حتى ترسلوا مَنْ عندكم. وعندئذٍ أرسلوا عثمان والعشرةَ الذين معه، ثم عرض سهيل الشروط التي تريدها قريش، وهي:

قوله: (وقتل من المسلمين واحد): هو ابن زنيم، أصابه سهم. اهـ. حلبي[1].

صلح الحديبية

قوله: (وعند ذلك): الإشارة إلى البيعة.

قال الحلبي: لما علمت قريش بهذه البيعة خافوا، وأشار أهل الرأي بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل، فيقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب؛ السيوف في القرب، والقوس[2].

قوله: (وأرسلت سهيلَ بنَ عمرو)؛ أي: ثانياً، ومعه مكرزُ بنُ حفص، وحُوَيطب بنُ عبد العزى.

قوله: (إن الذي حصل)؛ أي: من حبس عثمان ومن معه، وإرسالهم مكرزَ بنَ حفص مع خمسين رجلاً.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٥).

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات.

٢ ـ من جاء المسلمين من قريش يردّونه، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يُلْزمون بردّه.

٣ ـ أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم من غير عُمرة هذا العام، ثم يأتي العام المقبلَ، فيدخلها بأصحابه بعد أن تخرج منها قريش، فيقيم بها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح إلا السيفُ في القراب والقوس.

٤ ـ من أراد أن يدخل في عهد محمد صلى الله عليه وسلم من غير قريش دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فقبل عليه الصلاة والسلام كل هذه الشروط. أما المسلمون، فداخلهم منها أمر عظيم وقالوا: سبحان الله! كيف نَرُدُّ إليهم من جاءنا مسلماً، ولا يردّون مَنْ جاءهم مُرْتدًّا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه من ذهب منّا إليهم، فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم، فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»[١].

أما الأمر الثالث: وهو صدُّ المسلمين عن الطواف بالبيت، فكان أشدَّ تأثيراً في قلوبهم؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنه رأى في منامه أنهم دخلوا البيت آمنين، وقد سأل عمر أبا بكر في ذلك، فقال ـ رضي الله عنه ـ: وهل ذكر أنه في هذا العام؟

قوله: (أربع سنوات): قال الحلبي: وقيل: سنتان، وقيل: عشر، وصحح الحاكم ما ذكره المؤلف[٢].

---

(١) رواه مسلم (١٧٨٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٩ ـ ٧١٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٠٨).

ثم كتبت شروط الصلح بين الطرفين، وكـان الكاتـب علـي بـن أبـي طالـب، فأملاه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الـرحمن الـرحيم». فقـال سُهيل: اكتب: باسمك اللهمّ، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، ثـم قال: «هذا ما صالح عليه محمد رسـولُ الله» فقـال سـهيل: لـو نعلـم أنـك رسولُ الله ما خالفناك، اكتبْ: محمد بن عبدالله. فأمر عليه الصلاة والسلام عليّاً بمحو ذلك، وكتابةِ: محمد بن عبدالله، فامتنع، فمحاها النبي بيده[1].

وكتبت نسختان: نسخة لقريش، ونسخة للمسلمين.

قوله: (فامتنع)؛ أي: وهو يبكي استعظاماً لهذه الشروط.

قوله: (وكتبت نسختان): قال الحلبي: لما فرغ رسول الله صلى الله عليـه وسلم من الصلح، أُشهد عليه رجال من المسلمين، وهم: أبو بكـر وعمـر وعثمـان وعلي، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ومحمـد ابن مسلمة، ومن المشركين: حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص[2].

وما تم هذا الصلح إلا بعد توقف كثير من المسلمين فيه، وصـاروا يراجعـون النبي صلى الله عليه وسلم ويسألونه أن لا يوافق على تلك الشروط، لا سـيما عمـر؛ فإنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وراجعه كثيـراً، ومـن مراجعتـه أنـه قـال لـه: ألستَ نبي الله حقّاً؟ قال: «بلى»، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قـال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلـى»، قـال: فلـمَ نعطي الدنية ـ أي الخسيسة ـ في ديننا، ونرجع ولـم يحكم الله بيننـا؟ فقـال النبـي صلى الله عليه وسلم: «إني رسوله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «أفأخبرتُكَ أنا نأتيه هذا العام؟» قال:

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧١٢).

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جَنْدَلِ بنُ سُهيل يَحْجِلُ في قيوده، وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة، فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه، فقال عليه الصلاة والسلام: «اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرَجاً ومخرجاً، إنَّا قد عقدنا بين القوم صُلحاً، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً، فلا نغدر بهم»[1].

هذا، وقد دخلت قبيلة خُزاعةَ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، . .

لا، قال صلى الله عليه وسلم: «فإنك آتيه، ومطوف به»، وتمامه فيه[2].

قوله: (جاءهم أبو جندل يحجل في قيوده) ـ بكسر الجيم ـ؛ أي: يتريث في مشيه على رجله، واسمه: العاص، وكان قد أسلم بمكة قبل ذلك، فحبسه أبوه، ومنعه من الهجرة، وأوثقه بالقيود، فحين سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية احتال على نفسه حتى خرج من السجن، وتنكب الطريق، وركب الجبال حتى هبط على المسلمين. اهـ. قاموس ودحلاني[3].

قوله: (فقال عليه السلام: اصبر واحتسب)؛ أي: بعد أن طال الجدال بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أبيه سهيل في شأنه، وتلطف به كثيراً فأبى، فحينئذ قال له: «اصبر واحتسب»، وقد بسط الكلام على ذلك الحلبي والدحلاني[4].

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٩٥).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٩٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنهما ـ، ومروان.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حجل)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٩٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧١٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ١٩٢).

ودخل بنو بكر في عهد قريش.

ولما انتهى الأمر، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا الهدْي ليتحلَّلوا من عمرتهم، فاحتمل المسلمون من ذلك همّاً عظيماً، حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال، فدخل عليه الصلاة والسلام على أُم المؤمنين أُم سلمة، وقال لها: «هلك المسلمون؛ أمرتهم فلم يمتثلوا»، فقالت: يا رسول الله! اعذرهم؛ فقد حمَّلت نفسك أمراً عظيماً في الصلح، ورجع المسلمون من غير فتح، فهم لذلك مكروبون، ولكن اخرجْ يا رسول الله، وابدأهم بما تريد، فإذا رأوْكَ فعلتَ تبعوك، فقام عليه الصلاة والسلام إلى هَدْيِهِ فنحرها، ودعا بالحلّاق فحلق رأسه، فلما رآه المسلمون، تواثبوا على الهدي فنحروه وحلقوا[1].

قوله: (حتى إنهم لم يبادروا بالامتثال)؛ أي: لأنهم كانوا يرجون النسخ، فأخروا متأولين لذلك.

قوله: (فقام إلى هديه فنحرها)؛ أي: وأراهم بذلك أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم، وأنه حكم مستقر غير منسوخ، هذا ما أجاب به بعضهم، لكن لم يرتض ابن القيم هذا الجواب، وبحث فيه[2].

قوله: (ودعا بالحلاق): بخراش الخزاعي.

قال الحلبي: لما حلق رأسه، رمى شعره على شجرة، فأخذه الناس وتحاصُّوه، وأخذت أم عمارة ـ رضي الله عنها ـ طاقاتٍ منه، فكانت تغسلها

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٣٠) من حديث المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ. ومروان بن الحكم، بنحوه.

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).

ثم رجع المسلمون إلى المدينة، وقد أَمن كلُّ فريق الآخرَ. ولما قرَّ قرارهم، جاءتهم مهاجرةً أُم كلثوم بنتُ عقبة بن أبي مُعَيط، أخت عثمان لأمه، فطلبها المشركون فقالت: يا رسول الله! إني امرأة، وإن رجعتُ إليهم فتنوني في ديني، فأنزل الله في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ....

للمريض، وتسقيه فيبرأ[1].

قوله: (**فطلبها المشركون**): لما هاجرت، خرج أخواها عمارةُ والوليدُ في ردِّها بالعهد، فقالا: يا محمد! أوف لنا بما عاهدتنا عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا امرأة، وحالُ النساء الضعف، أفتردني إلى الكفار يفتنوني في ديني ولا صبر لي؟ فنزل القرآن بأن النساء المؤمنات لا يرجعن، وأن الشرط في الرجال فقط، فلما رجع الوليد وعمارة مكة أخبرا قريشاً، فرضُوا بذلك، ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة، فلما قدمت المدينة تزوجها زيدُ بنُ حارثة ـ رضي الله عنه[2] ـ.

قوله تعالى: (﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾) قال البيضاوي: اختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقةُ قلوبهن لسانَهن في الإيمان[3].

قال الدحلاني: وكان الامتحان أن تُستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزاً، ولا هاجرت إلا لله ورسوله[4]، وستأتي صورته.

وقوله تعالى: (﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾)؛ أي: إلى أزواجهن الكفرة؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧١٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧١٧ ـ ٧١٨).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠١).

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الممتحنة: ١٠] . . . .

لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، والتكرير للمطابقة والمبالغة؛ أي: لأن الله لم يُبح مؤمنةً لكافر.

وقوله: (﴿وَءَاتُوهُم﴾): يعني: أزواجَهن (﴿مَّآ أَنفَقُوا۟﴾)؛ أي: عليهن من المهر الذي دفعوه إليهن.

وقوله: (﴿أُجُورَهُنَّ﴾)؛ أي: مهورَهن، أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام، وإن كان لهن أزواجٌ في دار الحرب؛ لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار.

وقوله تعالى: (﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾) العصمة: ما يعتصم به من عقد وسبب، ونهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، يقول الله تعالى: وإن كانت له امرأة كافرة بمكة، فلا يعتد بها؛ فقد انقطعت عصمة الزوجية بينهما.

قال الزهري: لما نزلت هذه الآية، طلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا بمكة. اهـ. خازن[1].

وقوله: (﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾)؛ أي: من المهر؛ يعني: إن لحقت امرأة منكم بالمشركين مرتدةً فاطلبوا ما أنفقتم من المهر إذا منعوها ممن تزوجها منكم.

(﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟﴾) يعني: المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم، (﴿مَآ أَنفَقُوا۟﴾) من المهر ممن تزوجها منكم[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ٧٢).

(٢) انظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٢٨٣).

فكانت المرأة المهاجرة تُستحلَف أنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، ولا من بغض زوج، ولا لالتماس دنيا، ولا لرجل من المسلمين، وما خرجت إلا حبًّا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومتى حلفت، لا ترد، بل يُعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها، فيجوز للمسلم تزوجُها. وفي الآية تحريم إمساك الزوجة الكافرة، بل تُرد إلى أهليها بعد أن يُعطَوا ما أنفقوا عليها.

وقد تمكن أبو بصير عتبةُ بنُ أسيد الثقفيُّ ـ رضي الله عنه ـ من الفرار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلت قريش في أثره رجلين يطلبان تسليمه، فأمره عليه الصلاة والسلام بالرجوع معهما، فقال: يا رسول الله! أتردّني إلى الكفار يفتنوني في ديني بعد أن خلّصني الله منهم؟ فقال: «إن الله جاعل لك ولإخوانك فرجاً»، فلم يجد بدًّا من اتّباعه، فرجع مع صاحبيه، ولما كان بذي الحُلَيفة، عدا على أحدهما فقتله، وهرب منه الآخر، . . . . .

قوله: (فرجع مع صاحبيه): لما أراد الرجوع معهما، صار المسلمون يقولون له: الرجل يكون خيراً من ألف رجل، يريدون بذلك إغراءه على من معه، حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار ومعه صاحباه، فقال أبو بصير لأحد صاحبيه ومعه سيفه: أصارم سيفُك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، انظر إليه إن شئت، فاستله العامري ثم هزه، فقال له أبو بصير: ناولنيه أنظر إليه، فناوله، فلما قبض عليه، ضربه به حتى برد؛ يعني: مات، ثم طلب الثاني فهرب، وأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: «إن هذا الرجل قد رأى فزعاً»، فلما انتهى إليه قال له: «ما لك؟» قال: قتل صاحبكم صاحبي، وأفلتُّ منه، ولم أكذب إني لمقتول، واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمنه، فإذا أبو بصير أناخ بعيرَ العامري بباب المسجد، ودخل متوشحاً السيف، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وفَتْ ذمتُك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني

فرجع إلى المدينة وقال: يا رسول الله! وفَتْ ذمتُك، أما أنا فنجوتُ، فقال له: «اذهب حيث شئت، ولا تُقِمْ بالمدينة»، فذهب إلى محلّ بطريق الشام تمرّ به تجارة قريش، فأقام به، واجتمع معه جمعٌ ممّن كانوا مسلمين بمكة ونَجَوا، وسار إليه أبو جندل بنُ سهيل، واجتمع إليه جمع من الأعراب، وقطعوا الطريق على تجارة قريش حتى قطعوا عنهم الأمداد، فأرسل رجال قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم يستغيثون به في إبطال هذا الشرط، ويعطونه الحقَّ في إمسَاك من جاءه مسلِماً، فقبل منهم ذلك، وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمّة التي لم يتمكنوا من تحمّلها في الحديبية حينما أمرهم عليه الصلاة والسلام بردّ أبي جندل[1].

أن أفتن فيه، فقال: «اذهب حيث شئت». اهـ. دحلاني[2].

قوله: (فقبل منهم ذلك)؛ أي: وحينئذ كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه، وأن من معهم من المسلمين يلحقوا ببلادهم وأهليهم، ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيرهم، فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، وأبو بصير مشرفٌ على الموت لمرض حصل له، فمات وكتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرؤه، فيدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، وقدم أبو جندل مع ناس من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهليهم، وأمنت قريش على غيرهم. اهـ. دحلاني[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه ومروان ابن الحكم بنحوه. وأورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨). ورواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٦/ ٣٩ ـ ٤٠) عن المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ ومروان، بنحوه.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

وعلموا أن رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلُ وأحسن من رأيهم حيث كان فيه أمنٌ تسبب عنه اختلاطُ الكفار بالمسلمين، فخالطت بشاشةُ الإسلام قلوبهم، حتى قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: ما كان فتحٌ في الإسلام أعظمَ من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عمّا كان بين محمد وربِّه، والعبادُ يَعْجَلُون، واللهُ لا يَعْجَلُ لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد[1].

قوله: (وعلموا أن رأي رسول الله أفضل...) إلخ: قال ابن القيم ما خلاصته: من الحِكَم التي تضمنتها هذه الهدنة: أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسولَ الله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه.

ومنها: أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح؛ فإن الناس أَمِنَ بعضُهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان متخفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١]، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان [باباً] مسدوداً مغلقاً حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه: صدُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين، وفي الباطن عزّاً وفتحاً ونصراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر الصحابة ورؤوسهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

فكان يدخل على تلك الشروط دخولَ واثق بنصر الله وتأييده، وأن العاقبة له، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصرة، وهو من أكبر الجند الذي أقامه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٢١).

وفي رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح، وقال سبحانه في أولها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١] وفي تسمية هذه الغزوة بالفتح المبين تصديقٌ لما قدّمنا لك عن الصدِّيق.

مكاتبة الملوك

بعد رجوع المسلمين من الحديبية ....

المشترطون ونصبوه لحربهم وهم لا يشعرون، فذلوا من حيث طلبوا العز، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وأطال الكلام في ذلك[١].

وفي الدحلانية: لما كانت الهدنة ووضع الحرب، وأمن الناسُ بعضُهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا الحديث والمنازعة، لم يكلِّم أحدٌ ذو عقل في تلك المدة بالإسلام إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر، ويدل عليه: أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربع مئة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف[٢].

وقال قبل ذلك: كانت إقامته بالحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل: عشرين يوماً، وقال بعضهم: كانت مدة غزوته هذه كلها شهراً ونصفاً. اهـ[٣].

قوله: (وفي رجوعه عليه السلام من الحديبية) في الدحلانية: أنزل الله سورة الفتح بين مكة والمدينة بكراع الغميم، وقال ابن إسحاق: نزلت وهو بضجنان ـ بفتح الضاد ـ: جبل على بريد من مكة[٤].

مكاتبة الملوك

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٩٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٩٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ١٩٨).

قوله: (في أواخر سنة ست) قال في «زاد المعاد»: بعث صلى الله عليه وسلم ستة نفر في يوم واحد في المحرم سنة سبع.

١ ـ عمرو بن أمية الضمري: بُعث إلى النجاشي، واسمه: أصحمة بن أبجر.

٢ ـ دحية بن خليفة الكلبي: بُعث إلى قيصر ملك الروم، واسمه: هرقل.

٣ ـ عبدالله بن حذافة السهمي: بُعث إلى كسرى، واسمه: أبرَوِيْز بن هُرمُز ابن أنوشروان.

٤ ـ حاطب بن أبي بلتعة: بعث إلى المُقَوْقِس ملكِ الإسكندرية، واسمه: جريج بن مينا.

٥ ـ شجاع بن وهب الأسدي: بُعث إلى الحارث بن أبي شِمْر الغَسَّاني، ملكِ البلقاء.

٦ ـ سَليط بن عمرو: بُعث إلى هَوذةَ بن عليٍّ الحنفيِّ باليمامة.

وبعث عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جَيفَر وعبدالله ابنَي الجُلَنْدَي. الأزديَّين بعُمَانَ، وبعث العلاء بنَ الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي ملكِ البحرين قبل منصرفه من عمرة الجعرانة، [و] كانت سنة ثمان من شوال، وقيل: قبل الفتح. اهـ. ملخصاً[1].

والمصنف ذكر الكتب الثمانية، إلا أنه ذكر الكتابين الأخيرين قبل الكتاب الذي أرسل إلى هوذةَ بنِ علي الحنفي، وكان الأَولى تأخيرُه عنهما؛ لتكون الكتب التي أرسلت في أواخر سنة ست، أو في المحرم سنة سبع تلوَ بعضها، وأن ينبه على أن إرسال الكتابين اللذين أُرسلا إلى ملكَي عمان، وإلى ملك البحرين كان سنة ثمان.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (١/ ١٢٠ ـ ١٢٣).

كاتبَ عليه الصلاة والسلام ملوكَ الأرض يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ ـ إذ ذاك ـ خاتماً من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه: محمد رسول الله، فوجَّه دِحْيَة الكلبي بكتاب إلى قيصر ملكِ الروم، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ليوصله إلى الملك.

كتاب قيصر

وكان في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبدالله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيمِ الروم، سلامٌ على من اتّبع الهُدى، . . . .

قوله: (واتخذ ـ إذ ذاك ـ خاتماً من فضة): سبب اتخاذه صلى الله عليه وسلم للخاتم: أنه لما أراد أن يكتب للملوك، قيل له: يا رسول الله! إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً، والغرضُ من ذلك: أمنُ التزوير؛ لبعده مع الختم، فاتخذ صلى الله عليه وسلم خاتماً من فضة، وكان نقش خاتمه ثلاثة أسطر: (محمد) سطر، و(رسول) سطر، و(الله) سطر[1]، و(محمد) آخر الأسطر، و(رسول) في الوسط، و(الله) فوق، وختم صلى الله عليه وسلم بذلك الخاتم الكتب، وكان في يده الشريفة، ثم في يد أبي بكر، [ثم في يد عمر][2]، ثم في يد عثمان ـ رضي الله عنهم ـ، حتى وقع في بئر أريس في السنة التي توفي فيها عثمان رضي الله عنه، فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه. اهـ. حلبي ملخصاً[3].

كتاب قيصر

قوله: (سلام على من اتبع الهدى)؛ أي: ومن لم يتبع الهدى فلا سلامَ عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣١٠٦، ٧١٦٢)، ومسلم (٢٠٩٢)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨١).

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تسلَمْ يؤتِك الله أجرك مرتين، فإن تولَّيتَ، فإنما عليك إثمُ الأريسيين: و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ ....

وقوله: **(بدعاية الإسلام)**؛ أي: بالكلمة الداعية للإسلام، وهي كلمة التوحيد.

وقوله: **(أسلم تسلم)**؛ أي: في دنياك بإقرارك على ملكك، وفي آخرتك بالنجاة من عذاب النار.

وقوله: **(يؤتك الله أجرك مرتين)**؛ أي: لإيمانك بعيسى، ثم محمد صلى الله عليه وسلم، أو لإيمان أتباعك لسبب إيمانك.

وقوله: **(الأريسيين)**؛ أي: فلاحي القرى، وخص هؤلاء بالذكر؛ لأنهم أسرعُ انقياداً من غيرهم؛ لأن الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين، والمراد: عليك مع إثمك إثمُ رعاياك؛ لأنه إذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا، فهو متسبب في عدم إسلامهم، والفاعل لمعصية المتسبب لارتكاب غيره لها عليه الإثمُ من جهتين: جهة فعله، وجهة تسببه.

وقوله: **(و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾)** الواو عاطفة على مقدر معطوف على قوله: (أدعوك)، والتقدير: أدعوك بدعاية الإسلام، وأقول لك ولأتباعك: يا أهل الكتاب! . اهـ. حلبي[1].

وقوله: **(﴿سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾)**؛ أي: لا يختلف فيها الرسل والكتب، وتفسيرها ما بعدها.

وقوله: **(﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾)**؛ أي: عن التوحيد.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٧).

﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: ٦٤][1].

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر، قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيان بنُ حرب بالشام مع رجال من قريش في تجارة، فجاءت رُسُل قيصر لأبي سفيان، ودَعَوه لمقابلة الملك فأجاب، ولما قدموا عليه في القدس، قال لترْجُمانه: سَلْهُمْ أيّهم أقربُ نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان: أنا؛ لأنه لم يكن في الركب من بني عبد مناف غيرهُ، فقال قيصر: ادنُ مني، ثم أمر أصحابه فجُعِلوا خلفَ ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إنما قدّمت هذا أمامكم؛ لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وقد جعلتكم خلفه كيلا تخجلوا من ردّ كذبه عليه إذا كذب، ثم سأله: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. . . . .

(﴿فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾)؛ أي: لزمتكم الحجةُ، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب، وتطابقت عليه الرسل. اهـ. بيضاوي[2].

حديث أبي سفيان

قوله: (من بني عبد مناف غيره)؛ أي: لأن عبد مناف الجدُّ الرابعُ للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذا لأبي سفيان، وهو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

قوله: (كيلا تخجلوا من رد كذبه. . .) إلخ؛ أي: وحينئذ قال أبو سفيان في نفسه: فوالله! لولا الحياء يومئذ أن يردوا عليَّ كذباً، لكذبت، ولكن استحييت،

---

(١) رواه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٢/ ٤٨).

قال: هل تكلَّم بهذا القول أحدٌ منكم قبله؟ قال: لا. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قال: لا. قال: فأشرافُ الناس يَتَّبِعُونه أم ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. قال: فهل يزيدون أم ينقصون؟ قال: بل يزيدون. قال: هل يرتدّ أحد منهم سَخْطة لدينه؟ قال: لا. قال: هل يغدر إذا عاهد؟ قال: لا، ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: فهل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قال: الحرب بيننا وبينه سِجَال، . . . .

فصدقت وأنا كاره[١]، وفي رواية: لولا مخافة أن يؤثَر عني الكذبُ، لكذبتُ[٢].

وبه يعلم أن الكذب من القبائح جاهلية وإسلاماً. اهـ. حلبي[٣].

قوله: (فأشراف الناس يتبعونه. . .) إلخ: المراد بأشراف الناس: أهل النخوة وأهل التكبر، فلا يرد مثل أبي بكر وعمر وحمزة ـ رضي الله عنهم ـ ممن أسلم قبل هذا السؤال، وهو محمول على الأكثر، والأغلب أن أتباعه صلى الله عليه وسلم ضعفاء. اهـ. منه[٤].

قوله: (سخطة لدينه)؛ أي: كراهةً له وعدمَ رضاء به بعد أن يدخل فيه، ولا ينقض بما وقع لعبدالله بن جحش حيث ارتدَّ ببلاد الحبشة؛ لأنه لم يرتد كراهية للإسلام، بل لغرض نفساني. اهـ. منه[٥].

و**(سخطة)**: ـ بفتح السين، وجوز بعضهم ضمها ـ.

---

(١) رواه البخاري (٧) بلفظ: فوالله! لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذباً، لكذبت عنه.

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٥٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥).

مرة لنا، ومرة علينا. قال: فَبِـمَ يأمُركم؟ قال: يقول: «اعبـدوا الله وحـده ولا تشركوا به شيئاً، وينهى عمّا كان يعبـد آباؤنـا، ويـأمر بالصـلاة والصـدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة».

فقال الملك: إني سألتك عن نسبه، فزعمتَ أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسُلُ تُبْعث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هـذا القـول قبلـه؟ فزعمتَ أنْ لا، فلو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ: رجلٌ يـأْتَمُّ بقـولٍ قيـل قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمتَ أنْ لا، فقلتُ: ما كان ليذرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله، وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فقلتَ: لا، فلو كان من آبائـه ملـك، لقلـت: رجـل يطلب مُلك أبيه، وسألتك: أأشرافُ الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ . . . . .

قوله: (مرة لنا ومرة علينا): المرة التي له: يوم أحد، والمرة التي عليـه: يوم بدر. اهـ. منه[1].

قوله: (والعفاف)؛ أي: ترك المحارم وخوارم المروءة. اهـ. منه[2].

قوله: (وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها)؛ أي: لأن شرف النسب يكـون أدعى لقبول الدعوة وجمعِ الناس حوله، ونفوذِ الكلمة وسماعها؛ إذ يكون له بـذلك موضع للاحترام في قلوبهم، والإجلالِ فـي نفوسـهم، فتتلقـى كلماتـه بـالقبول، وتكون مؤثرة، وأما من رديء الأصل، أو مجهولِ النسب، فإن النـاس لمـا يـرون من رداءة الأصل، أو لجهلهم بنسبه، لا تكون له في نفوسهم حرمة، ولا في قلوبهم هيبة، فلا يسمعون له إذا قال، ولا يلتفون حولـه، ولا يـذعنون لأوامـره إذا أمـر، تلك سنة الله في خلقه، ولا عبرة بالنادر. فإنه لا حكم له.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٦).

فقلتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباعُ الرسل، وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقلت: بل يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك: هل يرتدّ أحد منهم سَخْطة لدينه؟ فقلت: لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل قاتلتموه؟ فقلت: نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سِجَال، وكذلك الرُّسُل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة، وسألتك: بماذا يأمر؟ فزعمتَ أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أنْ لا، وكذلك الرسل لا تغدر، فعلمتُ أنه نبيٌّ، وقد علمتُ أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلّمتني به حقًّا، فسيملك موضعَ قدميَّ هاتين، ولو أعلم أني أخلُصُ إليه، لتكلفت ذلك، قال أبو سفيان: فَعَلَتْ أصواتُ الذين عنده، وكثر لَغَطُهم، فلا أدري ما قالوا، وأُمر بنا فأُخرجنا.

فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال: لقد بلغ أمرُ ابنِ أبي كبشة أن يخافه ملكُ بني الأصفر.

قوله: (وقد علمت أنه مبعوث)؛ أي: لأن هذه المعلومات كانت عنده في الكتب القديمة، وكان حزاء أيضاً؛ أي: عالماً بعلوم النجوم.

قوله: (أَخلُص إليه)؛ أي: أصل إليه.

قوله: (فعلَت أصوات الذين عنده)؛ أي: وذلك بعد أن قضى مقالته، وفرغ من الكتاب.

قوله: (ابن أبي كبشة) تكنية أبي سفيان له بأبي كبشة؛ لأن جد وهبٍ لأمه أبا آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة، أو لأن أبا سلمى أم جده عبد المطلب كان يكنى أبا كبشة، أو لأن زوج مرضعته صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٨).

ولما سار قيصر إلى حمص، أَذِن لعظماء الروم في دَسْكَرة له، ثـم أمـر بأبوابها فأُغلقت، ثم قال: يا معشر الروم! هل لكم في الفـلاح والرشـد، وأن يثبت مُلككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصـةَ حُمُـرِ الـوحش إلـى الأبواب، فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم، قال: ردّوهم علـيَّ، فقال لهم: إني قلـت مقالتـي أختبر بها شدّتكم على ديـنكم، فسكتـوا لـه، ورضوا عنه[1].

فغلبه حُبُّ مُلكه على الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قـال عليـه الصلاة والسلام، ولكنه ردّ دحيةَ رداً جميلاً.

كتاب أمير بُصرى

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارثَ بنَ عُمير الأزديَّ بكتـاب إلـى أمير بُصرى، فلما بلغ مؤتةَ، وهي قرية من عمل البلقاء بالشام، . . . .

قوله: (في دَسْكَرة له) ـ بفتح الدال والكاف والراء وسكون السين ـ، وهو بناء كالقصر حوله بيوت.

قوله: (فحاصوا حَيصة)؛ أي: جـالوا جولـة يطلبـون الفـرار، والمحـيص: المهرب والمحيد. اهـ. «نهاية»[2].

قوله: (ورد دحية رداً جميلاً): حيث أهدى للنبي صـلى الله عليـه وسـلم هدية، وقبل صلى الله عليه وسلم هديته، وقسمها بين المسلمين.

كتاب أمير بصرى

قوله: (إلى أمير بصرى) الذي في «السيرة الحلبية»: أنه أرسل بكتاب إلى

---

(١) رواه البخاري (٧) من حديث أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٦٨).

تعرّض له شُرَحْبيل بنُ عمرٍو الغسانيُّ، فقال له: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلّك من رُسُل محمد؟ قال: نعم، فأمر به، فضُربَتْ عنقه. ولم يُقتل لرسول الله عليه الصلاة والسلام رسول غيره، وقد وَجَدَ لذلك وَجْداً شديداً[1].

كتاب الحارث بن أبي شَمِر

ووجّه عليه الصلاة والسلام شجاعَ بنَ وهبٍ إلى أمير دمشق . . . . . .

هرقل عظيم الروم[2].

وفي الدحلانية: أرسل بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل، وهو الحارث ابن أبي شمر الغساني[3].

والعبارة في «زاد المعاد»: أنه أرسل بكتاب إلى ملك الروم أو بصرى[4]، فلم يجزم بواحد منهما.

وبصرى ـ: بضم الباء؛ كحبلى ـ، ومؤتة ـ بضم الميم وبالهمزة ساكنة، وبترك الهمزة ـ، وهو موضع معروف عند الكرك.

وقوله: (تعرض له شرحبيل) هو: ـ بضم الشين وفتح الراء ـ.

قال الحلبي: وهو من أمراء قيصر على الشام[5].

قوله: (فضربت عنقه)؛ أي: وتسبب على قتله غزوة مؤتة التي ستأتي.

كتاب الحارث بن أبي شمر

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٥٧).

(٤) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٨١).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٦).

ـ من قِبَلَ هِرَقْل ـ الحارثِ بن أبي شَمِر، وكان يقيم بغوطتها، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله، وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكُك» فلما قرأ الكتاب، رمى به، وقال: من ينزعُ مُلكي منّي[1].

واستعدّ ليرسلَ جيشاً لحرب المسلمين، وقال لشجاع: أخبر صاحبك بما ترى، ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه في ذلك، وصادف أن كان عنده دحيةُ، فكتب قيصرُ إليه يثنيه عن هذا العزم، ويأمره أن يُهيِّئ بإيلياء ما يلزم لزيارته؛ ....

قوله: (أبي شمر) هو: ـ بكسر الشين ـ.

قوله: (وكان يقيم بغوطتها) هو موضع بالشام كثير الماء والشجر.

قوله: (يبقى لك ملكك) الصواب: يبقَ لك ملكُك كما في الحلبية والدحلانية[2].

قوله: (من ينزع مني ملكي؟): تتمة العبارة: وأنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته[3].

قوله: (واستعد ليرسل جيشاً): حيث قال: عليَّ بالناس، فلم يزل جالساً يعرض عليه حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل. اهـ. حلبي[4].

---

(١) أورده الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٣١) عن ابن إسحاق. ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من حديث عمرو بن عثمان بن عبدالله الجحيشي عن أبيه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٤)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٧٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٠٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٠٥).

فإنه بعد أن قهر الفرس نذر زيارتها، فلما رأى الحارثُ كتاب قيصر، صرفَ شجاعَ بنَ وهب بالحسنى، ووصَلَهُ بنفقة وكسوة[١].

كتاب المُقَوْقِس

ووجّه عليه الصلاة والسلام حاطبَ بن أبي بَلْتعة بكتاب إلى المقوقس أميرِ مصرَ من جهة قيصر، وكان فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلمْ تَسْلَم يُؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليتَ فإنما عليك إثم القبط، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ . . .﴾[آل عمران: ٦٤]»، فأوصله له حاطب بإسكندرية، فلما قرأه قال: ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو على مَن خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: . . . .

قوله: (نذر زيارتها)؛ أي: ماشياً من حمص، وقيل: من قسطنطينية إلى بيت المقدس؛ شكراً لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس[٢].

قوله: (بنفقة وكسوة) وصله الحارث بمئة مثقال ذهباً، ووصله حاجبه بنفقة وكسوة، وقد كان يجتمع به، وأسلم الحاجبُ وحسن إسلامه[٣].

كتاب المقوقس

قوله: (المقوقس) هو لقب لكل من ملكَ القبط، وهم أهل مصر والإسكندرية، وليسوا من بني إسرائيل، ومعنى المقوقس: المطول للبناء، واسمه: جريج بن مينا. اهـ. دحلاني وحلبي[٤].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٠٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٣٠٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٦٦)، و«السيرة الحلبية» =

ألستَ تشهدُ أن عيسى ابن مريم رسولُ الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألّا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم. ثم قال: إني قد نظرتُ في أمر هذا النبي، فوجدتُ أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضّالّ، ولا الكاهن الكذاب، ووجدتُ معه آلة النبوّة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

ثم كتب ردّ الجواب يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: . . . .

قوله: (أنت حكيم جاء من عند حكيم): قال الحلبي: بعد أن قال له ذلك قال له حاطب ـ رضي الله عنه ـ: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ـ يعني: فرعون ـ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به، ثم انتقم منه، فاعتبرْ بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري! ما بشارةُ موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام، ولكنا نأمرك به، فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي. . . إلخ ما ذكره المؤلف هنا[1].

قوله: (لا يأمر بمزهود فيه. . .) إلخ؛ أي: بل يأمر بما تفرح وترغب فيه القلوب النيرة، والعقولُ السليمة، وينهى عما يُرغَب عنه.

وقوله: (الإخبار بالنجوى)؛ أي: الإخبار بالمغيبات.

= لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٥).

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٦).

لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيمِ القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أن نبيًّا قد بقي، وكنتُ أظن أنه يخرجُ بالشام، وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب، وأهديت إليك بغلة تركبها. والسلام. وإحدى الجاريتين مارية التي تسرّى بها عليه الصلاة والسلام، وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت. ولم يُسلم المقوقس[1].

كتاب النَّجاشي

ووجه عليه الصلاة والسلام عَمرَو بنَ أمية الضّمْرِيَّ بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، . . . .

قوله: (وبثياب)؛ أي: وهي عشرون ثوباً من قباطي مصر.

وفي رواية: وأرسل له عمائم وقباطي وطيباً وعوداً وندًّا ومسكاً مع ألف مثقال من الذهب، ومع قدح من قوارير، وفي رواية أنه أهدى له غير ذلك[2].

قوله: (ولم يسلم المقوقس): قال حاطب ـ رضي الله عنه ـ: ذكرت قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «ضَنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه»[3]، فكان كما قال.

كتاب النجاشي

قوله: (النجاشي) ـ بتشديد الياء، وبتخفيفها أفصح، وتكسر نونها، أو هو

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٧).

(٣) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٦١).

من محمد رسول الله، إلى النجاشي عظيمِ الحبشة. سلم. أما بعد: فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلّا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابنَ مريم روحُ الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطيبة الحصينة، فحملَتْ بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتوقن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودَك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

ولما وصله الكتاب، احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو: إني أعلم ـ والله ـ أن عيسى بشَّرَ به، ولكنَّ أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أُكَثِّر الأعوانَ، وألين القلوب[2].

أفصح ـ، واسمه: أصحمة.

قوله: (سلم): سقط بعدها في الطبع كلمة: أنت؛ أي: أنت سالم.

و(القدوس): البليغ في النزاهة عما يوجب نقصانه.

و(السلام): ذو السلامة من كل نقص وآفة.

و(المؤمن): واهب الأمن.

و(المهيمن): الرقيب الحافظ لكل شيء.

وقوله: (البتول)؛ أي: المنقطعة عن الرجال التي لا شهوة لها فيهم، أو المنقطعة عن الدنيا وزينتها.

قوله: (احترمه غاية الاحترام)؛ أي: فإنه وضعه على عينيه، ونزل عن سريره، فجلس على الأرض، ثم أسلم، ودعا بحُقّ من عاج ـ وهو عظم الفيل ـ

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠٩) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٤).

وقد عرض عمرٌو على مَنْ بقي من مهاجري الحبشة الرجوعَ إلى رسول الله بالمدينة، وكان من المهاجرين أُمُّ حبيبةَ بنتُ أبي سفيان زوجُ عبيدالله بن جحش الذي كان أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصّر، فتزوج عليه الصلاة والسلام أُمّ حبيبة وهي بالحبشة، والذي زوّجها له النجاشي بتوكيل منه عليه الصلاة والسلام.

كتاب كسرى

ووجّه عليه الصلاة والسلام عبدَالله بنَ حذافةَ السهميَّ بكتاب إلى كسرى، ملكِ الفرس، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتَّبَعَ الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله؛ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيّاً، ويحقّ القول على الكافرين، أسلمْ تسلمْ، فإن أبيتَ، فإنما عليك إثم المجوس»، فلما وصله الكتاب، مَزَّقَهُ استكباراً، . . . .

وجعل فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم(١).

كتاب كسرى

قوله: (مزقه استكباراً) سبب ذلك: أنه دعا من يقرؤه، فقرأه، فإذا فيه: من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، فأغضبه حين بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب، فأُخرج، فلما رأى ذلك، قعد على راحلته وسار، فلما ذهب عن كسرى سورةُ

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩٧)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٥٩).

ولما بلغه عليه الصلاة والسلام ذلك، قال: «مزَّق الله مُلكه كُلَّ ممزَّق»[1].

وقد فعل، فكانت مملكته أقربَ الممالك سقوطاً، وقد بدأ هذا الشقي بالعدوان، فأرسل لعامِله باليمن أن يوجّه إلى الرسول مَن يأتي به إليه، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه، وقَتْلِهِ له، ثم أرسل لعامله في اليمن ينهاه عمّا أمره به أبوه.

غضبه، بعث يطلب حامل الكتاب فلم يجده. اهـ. دحلانية[2].

قوله: (لعامله باليمن): اسمه: باذان، كتب إليه: بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي، فسر إليه واستتبه، فإن تاب، وإلا فابعثْ إليَّ برأسه، يكتب إليَّ هذا الكتاب وهو عبدي!. وفي رواية: أن تكفيني رجلاً خرج بأرضك يدعوني إلى دينه، وإلا فعلتُ فيك كذا، يتوعده، فابعث إليه برجلين جَلْدَين فيأتياني به، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع رجلين يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا، فلما قدما المدينة، قالا له: شاهنشاه ملكُ الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك، وقد بعثَنا إليك، فإن أبيتَ هلكتَ وأهلكتَ قومك وخربت بلادك، فقال لهما: «ارجعا حتى تأتياني غداً»، وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه يقتله في شهر كذا في ليلة كذا.

فلما كان الغد، دعاهما، وأخبرهما الخبر، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى باذان: «إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى يوم كذا»، فلما أتى الكتاب، توقف وقال: إن كان نبيّاً، فسيكون ما قال، فقُتل كسرى في اليوم الذي قال

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٨٦) وعزاه للواقدي من حديث الشفاء بنت عبدالله ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٦٣).

كتاب المنذر بن ساوى

ووجّه عليه الصلاة والسلام العلاءَ بنَ الحضرميِّ بكتاب إلى المنذر ابنِ ساوَى ملكِ البحرين يدعوه إلى الإسلام، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أسلم أنت، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلّا هو. أما بعد: فإنّ منْ صلى صلاتنا، واستقبل قِبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمةُ الله وذمّةُ الرسول، مَنْ أحبّ ذلك من المجوس، فإنه آمن، . . . .

رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، على يد ولده شيرويه، وقدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه، فيه: أما بعد: فقد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس؛ فإنه قتل أشرافَهم، فتفرق الناس، فإذا جاءك كتابي هذا، فخذ لي الطاعة ممن قِبَلَك، وانظر الرجل الذي كان كسرى يكتب إليك فيه، فلا تزعجه حتى يأتيك أمري فيه.

فبعث باذان بإسلامه وإسلامِ من معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ. حلبي ملخصاً[2].

كتاب المنذر بن ساوى

قوله: (وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم. . .) إلخ: قال الحلبي: لم أقف على ذلك الكتاب، ولا على حامله، والظاهر أنه العلاء المذكور[3].

وقال الدحلاني: قال في «شرح المواهب»: ولم نر أحداً ذكر لفظ ذلك الكتاب. اهـ[4].

---

(١) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (١/ ١٩١) عن الزهري.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٠).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٦٩).

ومن أبى، فإن عليه الجزية»، فأسلمَ، وكتب في رد الجواب: أما بعدُ يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم مَنْ كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إليّ في ذلك أمرك. فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمدُ الله إليك الذي لا إله إلّا هو، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإني أذكرك الله عزّ وجلّ؛ فإنه مَنْ ينصح، فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يُطعْ رُسُلي، ويتّبع أمرهم، فقد أطاعني، ومن نصح لهم، فقد نصح لي، وإن رُسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفَّعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، . . . .

ولا أدري عن أي كتاب نقل المؤلف هنا نص هذا الكتاب، وحبذا لو عزاه إلى الكتاب الذي نقل عنه[1].

قوله: (**قد أثنوا عليك خيراً**)؛ أي: من قولك الحق، وانقيادك للإيمان. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (**فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه**)؛ أي: من مال وزوجات أربع

---

(١) التحقيق أن الكتاب الذي أورده المؤلف الخضري ـ رحمه الله ـ هنا هو جزء من ردِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما جاء في كتاب المنذر بن ساوى إليه، نتبين ذلك من نص الكتاب الذي أورده الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٤٥): بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فإن كتابك جاءني ورسلك، وإنه من صلى صلاتنا، وأكل ذبيحتنا: واستقبل قبلتنا، فإنه مسلم، له ما للمسلمين، وعليه ما على المسلمين، ومن أبى فعليه الجزية.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٠).

وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلحْ فلن نَعْزِلَكَ عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية».

كتاب مَلِكَيْ عُمَان

ووجّه عليه الصلاة والسلام عَمرَو بنَ العاص بكتاب إلى جَيْفَر وعبدٍ ابنَي الجُلندَى ملكَي عُمَانَ، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى جَيْفَر وعبدٍ ابنَي الجُلَنْدَى، سلام على من اتبع الهدى، . . . .

يحل نكاحهن.

وقوله: (وعفوت عن أهل الذنوب)؛ أي: المتقدمة منهم في الكفر.

وقوله: (فلن نغيرك[1]) هذا سهو، والصواب: فلن نعزلك كما في الحلبي والدحلاني[2].

كتاب ملكي عمان

كان إرسال الكتاب إليه في ذي القعدة سنة ثمان، والذي كتب الكتاب أُبَيُّ ابن كعب ـ رضي الله عنه ـ. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (عمان) ـ بضم العين وتخفيف الميم ـ: بلدة باليمن، سميت باسم عمان ابن سبأ، وأما عَمَّان ـ بفتح العين وشد الميم ـ، فبلدة بالشام. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (جيفر) على وزن جعفر.

---

(١) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٧٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧١).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧١).

أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما؛ فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام، ولّيتكما، وإن أبيتما أَن تقرّا بالإسلام، فإن مُلككما زائل، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»[1]، فلما دخل بناديهما عمرو، سأله عبدُ بنُ الجُلَنْدى عمّا يأمر به الرسول وينهى عنه، فقال: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب، فقال: ما أحسنَ هذا الذي يدعو إليه! ولو كان أخي يتابعني، لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدّق به، ولكن أخي أَضنُّ بمُلْكه من أن يدعه ويصير تابعاً. قال عمرو: إن أسلم أخوك، مَلَّكَه رسول الله على قومه، فأخذَ الصدقةَ من غنيهم، فردّها على فقيرهم، فقال عبد: إن هذا لخُلقٌ حسن. وما الصدقة؟ فأخبره بما فرض الله من الصدقات في الأموال، ولما ذكر المواشي، قال: يا عمرو! يؤخَذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه؟ قال: نعم، فقال عبد: والله! ما أرى قومي على بعد دارهم وكثرةِ عددهم يطيعون بهذا . . . .

قوله: **(ويحق القول على الكافرين)**؛ أي: وتجب كلمة العذاب على المُصِرين على الكفر.

قوله: **(فلما حل بناديهما)**: في الحلبية والدحلانية: قال عمرو: لما قدمت عُمان، عمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت: إني رسول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك بهذا الكتاب، فقال عبد: أخي جيفر هو المقدم عليَّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى نقرأ كتابك عليه،

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٩٨).

ثم إن عبداً أوصل عَمْراً لأخيه جيفر، فتكلم معه عمرو بما ألانَ قلبه حتى أسلم هو وأخوه، ومَكَّناهُ من الصدقات.

ثم دار بينهما حديث طويل من جملة ما ذكره المؤلف هنا[1].

قوله: (**ثم إن عبداً أوصل عمراً لأخيه جيفر...**) إلخ: في الحلبية والدحلاني: قال عمرو: مكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره خبري، ثم إنه دعاني يوماً لأدخل معه على أخيه، فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس على عادة ملوك العجم في أن رسول شخص، ولو ملكاً، لا يجلس عند الملك، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففض ختمه، فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلا أني رأيت أخاه أرقَّ منه، فقال جيفر: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة ـ وهي الشجر الملتف ـ، وإن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل، ويبيد خضراءك ـ أي: جماعتك ـ، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، فتبقى على ملكك مع الإسلام، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، وفي هذا مع سعادة الدارين راحة من القتال. اهـ[2].

قال الدحلاني: وفي هذا دليل على قوة نفس عمرو ـ رضي الله عنه ـ، وشدة شكيمته؛ حيث خاطبه بهذا الخطاب، وأنذره بالحرب والهلاك في محل

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٧١ ـ ٧٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٢ ـ ٧٣).

كتاب هَوْذَة بن علي

ووجّه عليه الصلاة والسلام سَلِيْط بنَ عمرٍو العامريَّ بكتاب إلى هَوْذة ابن علي ملكِ اليمامة، وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هَوْذة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر. . . .

ملكه بحضرة أعوانه، مع أنه واقف بين يديه لم يتمكن من الجلوس، ومع ذلك حمى الله رسول نبيه صلى الله عليه وسلم، فلم يؤذه جيفر ولا بكلمة، بل خاطبه باللين حيث قال: دعني يومي هذا وارجعْ إليّ غداً، قال عمرو: فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو! إني أرجو أن يسلم أخي إن لم يَضنَّ بملكه، حتى إذا كان الغد، أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله هاهنا ـ أي: لبعد الدار ـ، وإن بلغت خيله هاهنا، وجدتَ قتالاً ليس كقتال من لاقى.

قال عمرو: قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي، خلا به أخوه، فقال له: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه أجابه، فأصبح فأرسل إلي، فأجاب للإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وخليا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا عوناً على من خالفني، وأسلم معهما خلق كثير، ووضعت الجزية على من لم يسلم. اهـ[١].

كتاب هوذة بن علي

قوله: (وجه عليه السلام سَليط): هو ـ بفتح السين ـ، وسبب اختياره صلى الله عليه وسلم سليطاً: أنه كان يختلف إلى اليمامة، وهي بلاد بالمشرق كثيرةُ النخيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة. اهـ. حلبي ودحلاني[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٣).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٣)، و«السيرة النبوية» =

إلى منتهى الخُفِّ والحافرِ، فأسلمْ تسلمْ، وأجعلُ لك ما تحت يديك»، فلما جاءه الكتاب، كتب في ردّه: ما أحسنَ ما تدعو إليه وأجملهُ! وأنا شاعرُ قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعْك.

ولما بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو سألني قطعة من الأرض ما فعلتُ، بادَ وباد ما في يديه»[1].

فلم يلبث أن مات مُنصَرَفَ الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة. وكان عليه الصلاة والسلام يولّي على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرَهم.

قوله: (إلى منتهى الخف والحافر)؛ أي: حيث تقطع الإبل والخيل.

قوله: (فاجعل لي بعض الأمر أتبعك): قال الدحلاني: كأنه أراد الشركة في النبوة، أو الخلافةَ بعده صلى الله عليه وسلم[2].

قوله: (باد وباد ملكه)؛ أي: هلك، وهو خبر أو دعاء. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة): أخبره جبريل عليه السلام بأن هوذة قد مات على كفره، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ يُقتل بعدي»، فكان كذلك[4]، فظهر بها مسيلمة ـ لعنه الله ـ، وقُتل.

❒ ❒ ❒

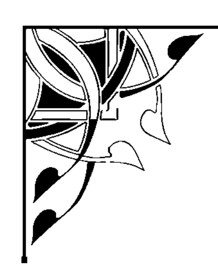
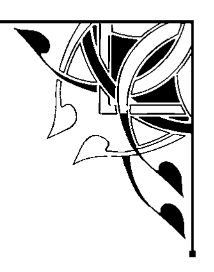
= لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٣ ـ ٧٤).

(١) أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٦٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٧٤).

(٤) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٤٠٣)، وعزاه للواقدي.

السَّنَة السَّابعة

غزوة خَيبر

وفي محرم السنة السابعة أمر عليه الصلاة والسلام بالتجهّز لغزو يهود خيبر، الذين كانوا أعظم مُهَيِّجٍ للأحزاب ضدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، والذين لا يزالون مجتهدين في محالفة الأعراب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدّمنا ذلك في قصة كعب بن الأشرف. وقد استنفر رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لذلك مَنْ حوله من الأعراب الذين كانوا معه بالحديبية، وجاء المخلَّفون عنها ليؤذَن لهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة، فلا أعطيكم منها شيئاً»، وأمر منادياً ينادي بذلك[1].

السنة السابعة

غزوة خيبر

قال الدحلاني: خيبر بوزن جعفر، وهي مدينة كبيرة ذاتُ حصون ومزارع ونخل كثير على ثمانية بُرد من المدينة إلى جهة الشام[2].

قوله: (وقد استنفر رسول الله مَنْ حوله...) إلخ: في الدحلانية: كان معه عليه الصلاة والسلام ألف وأربع مئة راجل، ومئتا فارس[3].

قوله: (فقال عليه السلام: لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد)؛ أي: لأن

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ١١٤) عن عدد من شيوخه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٤).

ثم خرج عليه الصلاة والسلام بعد أن ولَّى على المدينة سِبَاعَ بن عُرْفُطَةَ الغِفاريَّ. وكان معه من أزواجه أُمُّ سلمة، ولما وصل جيش المسلمين إلى خيبر التي تبعد عن المدينة نحو مئة ميل من الشمال الغربي، رفعوا أصواتهم بالتكبير والدعاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ارفقوا بأنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم»[1].

وكانت حصون خيبر ثلاثة، منفصلاً بعضُها عن بعض، وهي: حصون النَّطَاة، ....

مجيئهم كان رغبة في الغنيمة، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك.

قوله: (سباع بن عرفطة): سباع؛ ككتاب، وعرفطة: ـ بضم العين والفاء بينهما راء ساكنة وفتح الطاء ـ.

قوله: (ارفقوا بأنفسكم) لفظ الحديث كما في الحلبية والدحلانية: «اربعوا على أنفسكم»[2]، وقالا في تفسيره: أي: ارفقوا بأنفسكم[3].

فالمؤلف هنا ذكر لفظ الحديث بما فُسر به.

وفي «القاموس»: رفق به وعليه ـ مثلثة[4] ـ.

قوله: (النطاة): بفتح النون ـ. «قاموس»[5].

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٣٩)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٠٦).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رفق).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نطو).

وحصون الكَثيبة، وحصون الشَّق، والأولى ثلاثة: حصن ناعم، وحصن الصَّعْب، وحصن قُلَّةٍ، والثانية حصنان: حصن أُبيّ، وحسن البريء، والثالثة ثلاثة حصون: حصن القَمُوص، وحصن الوَطِيْح، وحصن السُّلالِم، . . .

و(**الكثيبة**) يظهر أنه ـ بفتح الكاف وكسر الثاء ـ مؤنث كثيب، وهو التل من الرمل[1].

وقوله: (**الشّق**): ـ بكسر الشين وفتحها ـ.

في «القاموس»: الشَّق: موضع[2] بخيبر، أو وادٍ به، ويفتح، أو الصواب الفتحُ في اللغة[3].

وقوله: (**وحصن قلة**) ـ بضم القاف ـ؛ لأنه كان يقال: جبل، ويعبر عن هذا بقلة الزبير؛ لأنه صار في سهمه بعد ذلك. اهـ. حلبي[4].

وقوله: (**حصن أبى**) يظهر أنه على وزن (حتى).

وقوله: (**القَموص**): ـ بفتح القاف ـ.

في «القاموس»: القموص: جبل بخيبر عليه حصن أبي الحُقَيق اليهودي[5].

و(**الوَطيح**) ـ على وزن (شريف): ـ حصن بخيبر كما في «القاموس»[6].

و(**السلالم**): ـ بضم السين ـ كما في الحلبية[7].

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كثب).

(٢) في الأصل: «عين»، والتصويب من «القاموس المحيط» (مادة: شقق).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شقق).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٤٢).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قمص).

(٦) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: وطح).

(٧) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٤٤).

فبدأ عليه الصلاة والسلام بحصون النَّطاة، وعسكرَ المسلمون شرقيها بعيداً عن مدى النبل، وأمر عليه الصلاة والسلام أن يَقْطَع نخلهم ليرهبهم حتى يُسلموا، فقطع المسلمون نحو أربع مئة نخلة. ولما رأى عليه الصلاة والسلام تصميم اليهود على الحرب، نهى عن القطع، ثم ابتدأ القتال مع حصن ناعم بالمراماة، وكان لواء المسلمين بيد أحد المهاجرين، فلم يصنع في ذلك اليوم شيئاً، وفيه مات محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، وصار عليه الصلاة والسلام يغدو كل يوم مع بعض الجيش للمناوشة، . . .

قوله: (وعسكر المسلمون شرقيه بعيداً عن مدى النبل)؛ أي: بعد أن نزل صلى الله عليه وسلم قريباً من حصون النطاة ابتعد عنها.

قال الدحلاني: كان النبي صلى الله عليه وسلم نزل قريباً من حصون النطاة، فجاء الحُباب بنُ المنذر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله! إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمر أمرت به، فلا نتكلم، وإن كان هو الرأي، تكلمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو الرأي»، فقال: يا رسول الله! إن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مَدًى منهم، ولا أعدل رميةً منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم، يدخلون في حمر النخل ـ أي: النخل المجتمع بعضُه على بعضه ـ، تحوَّلْ يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشرت بالرأي، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا»، وتحول لما أمسى، وأمر الناس بالتحول[1].

قوله: (وفيه مات محمود بن مسلمة): الأولى التعبير بِقُتل.

قال الحلبي: في ذلك اليوم قُتل محمود بن مسلمة برحًى أُلْقيت عليه من ذلك الحصن، ألقاها عليه مرحب اليهودي، وقيل: كنانة بن الربيع اليهودي،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٧)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ١٢٠).

ويخلّف على العسكر أحدَ المسلمين، حتى إذا كانوا في الليلة السادسة، ظفر حارس الجيش، وهو عمر بن الخطاب، بيهودي خارج في جوف الليل، فأتى به رسولَ الله عليه الصلاة والسلام، . . . .

وكان ـ رضي الله عنه ـ حارب حتى أعياه الحرب وثقل السلاح، وكان الحر شديداً، فانحاز إلى ظل ذلك الحصن، فألقى عليه حجر الرحى، فهشم البيضة على رأسه، ونزلت جلدةُ جبينه على وجهه، وندرت عينُه، فأدركه المسلمون، فأتوا به النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فسوى الجلدة إلى مكانها، وعصبه بخرقة، فمات ـ رضي الله عنه ـ من شدة الجراحة.

فجاء أخوه محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن اليهود قتلوا أخي محمود، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية؛ فإنكم لا تدرون ما تُبتلَون به، فإذا لقيتموهم، فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما يقتلهم أنت، ثم الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم، فانهضوا وكبروا». اهـ[1].

قوله: (أحد المسلمين) هو عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كما في الحلبية والدحلانية[2].

قوله: (حارس الجيش)؛ أي: في تلك الليلة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يناوب بين أصحابه في حراسة الليل، فلما كانت الليلة السادسة من السبع، استعمل عمر ـ رضي الله عنه ـ، فطاف عمر بأصحابه حول المعسكر وفرقهم، فأتى برجل من يهود خيبر . . . إلخ ما ذكره المؤلف.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٣٢)، والحديث المذكور رواه الطبراني في «الدعاء» (١٠٧٢) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٣٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٠٨).

ولما أدرك الرجل الرعب قال: إن أمَّنْتُموني أدلّكم على أمر فيه نجاحكم. فقالوا: دُلَّنَا فقد أَمَّنَّاك، فقال: إن أهل هذا الحصن أدركهم الملال والتعب، وقد تركتهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشَّق، وسيخرجون لقتالكم غداً، فإذا فتح عليكم هذا الحصن غداً، فإني أدلكم على بيت فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، يسهل عليكم بها فتح بقية الحصون، فإنكم تنصبون المنجنيق، ويدخل الرجال تحت الدبابات، فينقبون الحصن، فتفتحه من يومك، فقال عليه الصلاة والسلام لمحمد بن مسلمة: «سأُعطي الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه ويحبّانه»، . . . .

قوله: (إن أهل هذا الحصن)؛ أي: حصن النطاة.

قوله: (فتفتحه من يومك) قال الدحلاني: ثم قال: يا أبا القاسم! احقن دمي، قال: «أنت آمِن» قال: ولي زوجة فهبها لي، قال: «هي لك»، ثم دعاه إلى الإسلام، فقال: أنظرني أياماً[1].

قوله: (فقال عليه السلام لمحمد بن مسلمة. . .) إلخ: تعبيره بالفاء يفيد أنه عليه السلام قال لمحمد بن مسلمة ذلك عقب كلام اليهودي، وليس كذلك، فقد قال في الدحلاني بعد انتهاء حديث اليهودي: وكان صلى الله عليه وسلم تأخذه الشقيقة في بعض تلك الأيام، فيبعث أناساً من أصحابه، فلم يكن فتح، ثم قال صلى الله عليه وسلم لمحمد بن مسلمة ـ رضي الله عنه ـ: «لأعطينَّ الراية غداً. . .» إلخ ما ذكره المؤلف هنا[2].

قوله: (يحب الله ورسوله): تتمة الحديث: «لا يولي الدُّبر، يفتح الله عز وجل

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ١٢٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٠٩).

فبـات المهـاجرون والأنصار كلهم يتمنّونها، حتى قال عمر بن الخطاب: ما تمنيت الإمارة إلا ليلتئذ، فلما كان الغد، سأل عليه الصلاة والسلام عن عليٍّ بنِ أبي طالب، فقيل له: إنه أَرمدُ، فأرسل مَنْ يأتيه بـه، ولمـا جـاء، تَفَلَ في عينيه، فشفاهما الله كأن لم يكن بهما شيء، ثم أعطاه الراية[1].

فتوجه مع المسلمين للقتال، وهناك وجدوا اليهود متجهزين، فخـرج يهودي يطلب البِـرَاز، فقتله عليٌّ، ثم خرج مَرْحَبٌ، وهو أشجعُ القوم، . . .

على يديه، فيمكنه الله من قاتل أخيك»[2].

قوله: (كأن لم يكن بهما شيء): في الحلبية: قال علـي ـ رضـي الله عنـه ـ: فما رمدت بعد يومئذ[3].

قوله: (ثم خرج مَرْحَب) هو: ـ بفتح الميم والحاء وسكون الراء ـ.

في الحلبية والدحلانية أنه خرج وهو يرتجز ويقول:

قـد علمَـتْ خيبـرُ أنـي مَرْحَـبُ　　　شـاكي السـلاح بطـلٌ مجـرَّبُ

إذا الحـروبُ أقبلـت تَلَهَّـبُ

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦)، من حديث سـهل بـن سـعد ـ رضـي الله عنه ـ. ورواه مسلم (٢٤٠٥) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أورده نور الدين الحلبـي باللفظ المذكور في «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٢/ ٧٣٣). ورواه الحاكم فـي «المسـتدرك» (٤٣٤٢)، مـن حـديث جـابر بـن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، دون قوله: «فيمكنه الله من قاتل أخيك». ورواه ابـن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ١٢٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، دون قوله: «لا يولي الدبر».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٣٥)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ١٢٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

فألحقَه برفيقه، فخرج أخوه ياسر، فقتله الزبيرُ بنُ العوّام، ثم حملَ المسلمون على اليهود حتى كشفوهم عن مواقفهم، وتبعوهم حتى دخلوا الحصن بالقوة، وانهزم الأعداء إلى الحصن الذي يليه، وهو حصن الصَّعْبِ، وغنم المسلمون من حصن ناعم كثيراً من الخبز والتمر، ثم تتبعوا اليهودَ إلى حصن الصَّعْب، فقاتل عنه اليهودُ قتالاً شديداً حتى رُدَّ عنه المسلمون، ولكن ثبت الحُباب بن المنذر ومن معه، وقاتلوا قتالاً شديداً حتى هزموا اليهود، فتبعوهم حتى افتتحوا عليهم الحصن، فوجدوا فيه غنائم كثيرة من الطعام، فأمر عليه الصلاة والسلام منادياً يقول: . . . .

فبرز له علي ـ رضي الله عنه ـ وهو يقول:

أنا الذي سَمَّتني أمي حَيْدَرَهْ كلَيثِ غاباتٍ كريهِ المنظرَهْ

وقيل بدله:

ضرغامِ آجامٍ وليثٍ قَسْوَرَهْ

وحيدرة: من أسماء الأسد، والحيدرة الغليظ القوي(١).

والضرغام والليث والقسورة من أسماء الأسد أيضاً.

قوله: (حتى دخلوا الحصن)؛ أي: حصن ناعم، وهو أول حصن من حصون النطاة.

قوله: (وثبت الحباب بن المنذر) الحباب: ـ بضم الحاء ـ.

قال الدحلاني: وكان صلى الله عليه وسلم دفع اللواء للحباب بن المنذر، وندب الناس، ففتح الله حصن الصعب قبل ما غابت الشمس من ذلك اليوم بعد

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٣٧ ـ ٧٣٨)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢١١).

«كلوا واعلفوا دوابكم، ولا تأخذوا شيئاً»[1].

ثم إن الذين انهزموا من هذا الحصن ساروا إلى حصن قُلَّةٍ، فتبعهم المسلمون، وحاصروهم ثلاثة أيام حتى استصعب عليهم فتحُه، وفي اليوم الرابع دلَّهم يهوديّ على جداول الماء التي يستقي منها اليهود، فمنعوها عنهم، فخرجوا، وقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمتهم إلى حصون الشَّقِّ، فتبعهم المسلمون، وبدؤوا بحصن أُبَيّ، فخرج أهله، وقاتلوا قتالاً شديداً أبلى فيه أبو دُجانةَ الأنصاريُّ بلاءً حسناً حتى تمكن من دخول الحصن عَنْوةً، ووجد المسلمون فيه أثاثاً كثيراً، ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب المنهزمون منه إلى حصن البريء، فتمنَّعوا به أشدَّ التمنُّع، وكان أهله أشدَّ اليهود رمياً بالنبل والحجارة حتى أصاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعض منه، فنصب المسلمون عليه المنجنيق، فوقع في قلب أهله الرعب، وهربوا منه من غير عناء شديد، . . . .

أن أقاموا على محاصرته يومين[2].

قوله: (**ولا تأخذوا شيئاً**)؛ أي: لا تخرجوا به إلى بلادكم.

قوله: (**دلهم يهودي**): في الحلبية: جاء رجل من اليهود وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا القاسم! تؤمني على أن أدلك على ما تستريح به؛ فإنك لو مكثت شهراً لا تقدر على فتح هذا الحصن؛ فإن به دبولاً، وهي الأنهر الصغيرة تحت الأرض، يخرجون ليلاً فيشربون منها، فإن قطعتَ عنهم شربهم، أهلكتَهم، فأمنه صلى الله عليه وسلم، وسار إلى دبولهم فقطعها، فعند ذلك

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» كما في «بغية الباحث» للهيثمي (٦٧٢) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢١٦).

فوجد فيه المسلمون أواني لليهود من نحاس وفخار، فقال عليه الصلاة والسلام: «اغسلوها واطبخوا فيها»[1].

ثم تتبّع المسلمون بقايا العدو إلى حصون الكثيبة، وبدؤوا بحصن القَموص، فحاصروه عشرين ليلة، ثم فتحه الله على يد علي بن أبي طالب، ومنه سُبيت صفيةُ بنتُ حُييّ بنِ أخطبَ، ثم سار المسلمون لحصار حصنَي الوَطيح والسُّلالِم، فلم يقاوم أهلهما، بل سلّموا طالبين حقنَ دمائهم، وأن يخرجوا من أرض خيبر بذراريهم، لا يصطحب الواحد منهم إلا ثوباً واحداً على ظهره، فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وغنم المسلمون من هذين الحصنين مئة درع، وأربع مئة سيف، وألف رمح، وخمس مئة قوس عربية، ووجدوا صحفاً من التوراة، فسلّموها لطالِبيها.

خرجوا وقاتلوا أشد القتال، وفتح ذلك الحصن[2].

قوله: **(فلم يقاوم أهلها)** يشعر أنهم سلموا حين وصول المسلمين إليهم، وليس كذلك، فإنهم سلموا بعد حصار أربعةَ عشرَ يوماً، لكنهم في هذه المدة لم يخرج أحد منهم، فهم صلى الله عليه وسلم أن يجعل عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا التهلكة، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على حقن الدماء... إلخ ما نقله المؤلف[3].

---

(١) روى البخاري (٥٤٧٨)، ومسلم (١٩٣٠)، من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «أما ما ذكرت أنك بأرض أهل كتاب؛ فلا تأكلوا في آنيتهم، إلا أن لا تجدوا بدّاً، فإن لم تجدوا بدّاً، فاغسلوها وكلوا».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٤٢ ـ ٧٤٣)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٤٤).

وقد أمر عليه الصلاة والسلام بقتل كنانةَ بنِ الربيع بنِ أبـي الحُقَيـق؛ لأنه أنكر حُلِيَّ حُيَيّ بن أخطب، وقد عثر عليها المسلمون، فوجدوا فيهـا أساور ودمالج وخلاخيل وقرطة وخواتيم الذهب وعقود الجـواهر والزمـرد، وغير ذلك.

هذا، والذين استشهدوا من المسلمين بخيبر خمسةَ عشرَ رجلاً، وقُتـل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً، . . . .

قوله: (لأنه أنكر حُليَّ حيي بن أخطب): فـي الدحلانيـة: روى البيهقـي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه صلى الله عليه وسـلم أتـى بكنانـةَ وأخيـه الربيعِ وابنِ عمهما، فقال: «أين آنيتكم التي كنتم تعيرونها أهل مكة؟» قـالوا: هربنـا فلم تزل تضعنا أرض وترفعنا أخرى، فذهب منا كل شيء، فقال: «إن كتمتماني شيئاً، فاطلعت عليه، استحللتُ دماءكما وذراريكما»، فقالا: نعم، فدعا رجـلاً من الأنصار، فقال: اذهب إلى نخل كذا وكذا، فانظر نخلة مرفوعة، فـأتني بمـا فيها، فجاء بالآنية والأموال، فقومت بعشرة آلاف دينار، فضرب عنقهما، وسبى أهليهما بالنكث الذي نكثاه. اهـ[1].

قـولـه: (وأن يخرجـوا من أرض خيبـر. . .) إلخ: لـم يخـرجهـم النبـي صلى الله عليه وسلم من أرضهم وقتئذ، بل أبقاهم فيها، تفصيل ذلك حلبي[2].

قال في «زاد المعاد»: أراد النبي صلى الله عليـه وسـلم أن يُجليهم عنهـا، فقالوا: يا محمد! دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه غلمان يقومون

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زينـي دحـلان (٢/ ٢١٦)، والخبـر المـذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٤٤).

وفي هذه الغزوة أهدت إحدى نساء اليهود كُرَاعَ شاة مسـمومة لرسـول الله صلى الله عليه وسلم، فأخـذ منهـا مضـغة، ثـم لَفَظَهـا حيـث أُعلـم أنهـا مسمومة، . . . .

عليها، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشـطر مـن كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرهم. اهـ[1].

وفي الدحلانية في آخر غزوة خيبر: ثم دفع صلى الله عليه وسلم لأهـل خيبـر الأرض ليعملوا فيها مـا يخرج منها من ثمر أو زرع، وقال لهم: إنـا إذا شـئنا أن نخرجكم أخرجناكم، ثم استمروا على ذلك إلى خلافة عمر ـ رضـي الله عنـه ـ، ووقعت منهم خيانة وغدر ببعض المسلمين، فأجلاهـم إلى الشام بعد أن استشـار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في ذلك. اهـ[2].

قوله: (إحدى نساء اليهود) هي زينبُ بنتُ الحارث امرأةُ سلامِ بن مشكم.

قوله: (حيث علم أنها مسمومة): قال في الدحلانية: وفي رواية: أرسـل صلى الله عليه وسلم إلى اليهودية، فقال: «هل سممتِ هذه الشاة؟» فقالت: من أخبرك؟ قال: «هذه في يدي» مشيراً للذراع، قالت: نعم، قال لها: «ما حملـك على ذلك؟» قالت: إن كنتَ نبيّاً يُطلعك الله على ذلك، وإن كنـت كاذبـاً فـأريحُ الناس منك، وقد استبان لي أنك صادق، وأنا أُشـهدك ومـن حضـرك أنـي علـى دينك، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فعفا عنها صلى الله عليـه وسـلم ولم يعاقبها. اهـ[3].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٢٦).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢١).

(٣) انظر: «السـيرة النبويـة» لأحمـد بـن زينـي دحـلان (٢/ ٢١٨ ـ ٢١٩)، والخبـر المذكور رواه أبو داود (٤٥١٠) من حديث جابر بن عبـدالله ـ رضـي الله عنهمـا ـ بنحوه.

وأكل منها بِشْرُ بنُ البراء، فمات لوقته، واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجيء له بالمرأة التي فعلت هذه الفعلة، فسألها عن سبب ذلك، فأجابت: قلت إن كان نبيّاً لن يضرّه، وإن كان كاذباً، أراحنا الله منه، فعفا عنها عليه الصلاة والسلام.

زواج صفية

وبعد تمام الظفر والنصر تزوج عليه الصلاة والسلام صفيةَ بنتَ حييّ، سيدِ بني النضير، وأصدَقهَا عِتْقَهَا، وقد أسلمت ـ رضي الله عنها ـ، فشرفت بأُمومة المؤمنين.

قوله: (وأكل منها بشر البراء، فمات لوقته): قال في الدحلانية: وجاء أن بشر بن البراء مات بعد حول مِن تلك الأكلة بسبب ذلك السم، فدفع صلى الله عليه وسلم تلك اليهودية لأوليائه، فقتلوها فيه[1].

وبهذا يُجمَع بين الروايات المختلفة؛ فإن في بعضها: أنه صلى الله عليه وسلم لم يعاقب تلك اليهودية، وفي بعضها: أنه قتلها[2]، فيحمل على قتلها قصاصاً في بشر بن البراء، وما كان صلى الله عليه وسلم ينتقم لنفسه، بل يعفو ويصفح. اهـ[3].

زواج صفية

قوله: (فشرفت بأمومة المؤمنين): قال الحلبي: وفي زمن خلافة عمر

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٠٢).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٨١٤) من طريق معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، بنحوه، وفيه: قال الزهري: فأسلمت، فتركها النبي صلى الله عليه وسلم، قال معمر: وأما الناس فيقولون: قتلها النبي صلى الله عليه سلم.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢١٩).

ونهى عليه الصلاة والسلام ـ وهو بخيبر ـ عن نكاح المتعة، وهي: النكاح لأَجَلٍ وقد كان حلالاً في الجاهلية، واستُعمل في بدء الإسلام حتى حرّمه الشرع في هذه السنة، . . . .

ـ رضي الله عنه ـ أتت جارية لها إلى عمر، فقالت له: يا أمير المؤمنين! إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فسألها عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقالت: أما السبت، فإني لا أحبه[1] منذ أبدلَني الله به الجمعةَ، وأما اليهود، فإن لي بهم رحماً، فأنا أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملَكِ على ما صنعتِ؟ قالت: الشيطان، قالت: اذهبي فأنت حرة.

قال الحافظ الدمياطي: ماتت سنة خمسين، ودفنت بالبقيع، وخلفت ما قيمته مئة ألف درهم، وأوصت لابن أخيها بثلثها، وكان يهودياً. اهـ[2].

النهي عن نكاح المتعة

قوله: (ونهى عليه السلام ـ وهو بخيبر ـ عن نكاح المتعة. . .) إلخ: قال في «زاد المعاد» ما ملخصه: لم يحرم المتعة يوم خيبر، وإنما كان تحريمها عام الفتح، هذا هو الصواب، وقد ظن طائفة من أهل العلم أنه حرمها يوم خيبر[3].

وبعد أن ساق أدلة من قال ذلك، قال: جاء في «مسند الإمام أحمد» بإسناد صحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، وحرم متعةَ النساء[4].

---

(١) في الأصل: «لأحبه» بدل «لا أحبه»، والتصويب من «السيرة الحلبية».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤١٦).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٤٣).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٤٢) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. ورواه مسلم (١٤٠٧).

وفي لفظ: حرم متعةَ النساء، وحرم لحومَ الحُمر الأهلية يومَ خيبر، هكذا رواه سفيان بن عيينة مفصلاً مميزاً[1]، فظن بعض الرواة أن يومَ خيبر زمنٌ للتحريمين، فقيدهما به، ثم جاء بعضهم فاقتصر على أحد المحرمين، وهو تحريم الحمر، وقيده بالظرف، فمن هاهنا نشأ الوهم.

وقصة خيبر لم يكن فيها الصحابة يتمتعون باليهوديات، ولا استأذنوا في ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، ولا نقله أحد قط في هذه الغزوة، ولا كان للمتعة فيها ذكر البتة، لا فعلاً ولا تحريماً؛ بخلاف غزاة الفتح؛ فإن قصة المتعة كانت فيها فعلاً وتحريماً مشهورة، وهذه الطريقة أصح الطريقتين[2].

وقال في «بداية المجتهد» ما ملخصه: إنه قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريمه، إلا أنها اختلفت في الوقت الذي وقع فيه التحريم، ففي بعض الروايات أنه حرمها يوم خيبر[3].

وساق بقية الأقوال، ثم قال: وأكثر الصحابة وجميع فقهاء الأنصار على تحريمها، واشتهر عن ابن عباس تحليلُها، رواه عنه ابن جُريج، وعَمْرو بن دينار[4].

وعن عطاء قال: سمعت جابر بن عبدالله يقول: تمتعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، ونصفاً من خلافة عمر، ثم نهى عنها عمرُ الناسَ. اهـ[5].

---

(١) رواه الترمذي (١٧٩٤) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

(٣) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (٢/ ٤٣)، وتقدم تخريج الرواية المشار إليها.

(٤) رواه القاسم بن سلام في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ١١٩) من طريق ابن جريج، ولم نقف عليه من طريق عمرو بن دينار.

(٥) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (٢/٤٣ ـ ٤٤)، والخبر المذكور رواه أبو عوانة =

ولا بأس أن نورد هنا حكاية تاريخية تتعلق بنكاح المتعة ذكرها ابن خلكان في «تاريخه» في ترجمة القاضي يحيى بن أكثم، قال: حدث محمد بن منصور قال: كنا مع المأمون في طريق الشام، فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى ابن أكثم لي ولأبي العيناء: بكرا غداً إليه، فإن رأيتما للقول وجهاً، فقولا، وإلا فاسكتا إلى أن أدخل.

قال: فدخلنا عليه وهو يستاك، ويقول وهو مغتاظ: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، وأنا أنهى عنهما؟! ومن أنت يا جعل ـ الرجل الأسود الدميم ـ حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ؟ فأومأ أبو العيناء إلى محمد ابن منصور، وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقول نكلمه نحن، فأمسكنا.

فجاء يحيى بن أكثم، فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً؟ فقال: هو غمّ يا أمير المؤمنين لِما حدث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟! قال: نعم، المتعة زنا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٧]، يا أمير المؤمنين! زوجة المتعة ملك يمين، قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث، وتلحق الولد، ولها شرائطها، قال: فقد صار متجاوزُ هذين من العادين، وهذا الزهري ـ يا أمير

= في «مسنده» (٤٠٩٨)، وابن شاهين في «ناسخ الحديث ومنسوخه» (ص: ٣٦٧) من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

ونهى كذلك عن أكل لحوم الحُمُر الأهلية، فأكفأ المسلمون قُدورَها بعد أن نَضِجت، ولم يَطْعَموها.

المؤمنين ـ روى عن عبدالله وحسن ابنَي محمدِ ابنِ الحنفية، عن أبيهما، عن علي بن أبي طالب قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها.

فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهري؟ فقلنا: نعم يا أمير المؤمنين، رواه جماعة، منهم: مالك ـ رضي الله عنه ـ، فقال: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة، فنادَوْا بها.

قال أبو إسحاق إسماعيلُ بنُ حمادٍ القاضي الفقيه المالكيُّ البصري، وقد ذكر يحيى بن أكثم، فعظم أمره، وقال: كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثلُه، وذكر هذا اليوم. اهـ[1].

قوله: **(ونهى كذلك عن أكل لحوم الحمر الأهلية)**: سببه: أن الصحابة أصابهم جوع، فوجدوا الحُمُر الأهلية، وكانت ثلاثين خرجت من بعض الحصون، فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها، وجعلوا لحومها في القدور والبرام، وجعلوا يطبخونها للأكل، فمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم، فسألهم عما في القدور والبرام، قالوا: لحوم الحمر الأنسية، فنهاهم صلى الله عليه وسلم عن أكلها، حتى إن القدور أُكفئت وإنها لَتفور.

وفي مسلم: فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحة فنادى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية؛ فإنها رجس. اهـ. حلبي ملخصاً[2].

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦/ ١٤٩ ـ ١٥١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٥٢ ـ ٧٥٣).

رجوع مهاجري الحبشة

وحين رجوع المسلمين من خيبر قدِم من الحبشة جعفرُ بنُ أبي طالب ومعه الأشعريون: أبو موسى وقومُه، بعد أن أقاموا فيها نحواً من عشر سنين آمنين مطمئنين، وفرح عليه الصلاة والسلام بمقدمهم فرحاً عظيماً، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً، . . . .

رجوع مهاجري الحبشة

قوله: (وقدم من الحبشة جعفر بن أبي طالب. . .) إلخ: في الدحلانية: لما قدم جعفر، تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل جبهته، وعانقه وقام له، ثم قال: «والله! ما أدري بأيهما أفرح؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»[1]، وقال صلى الله عليه وسلم لجعفر ـ رضي الله عنه ـ: «أشبهت خَلْقي وخُلُقي»[2].

قوله: (وفرح بمقدمهم فرحاً عظيماً): في الحلبية: وقبل قدومهم إليه صلى الله عليه وسلم قال: «يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً»، فقدم الأشعريون[3].

وفي كلام بعضهم ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم قال في حقهم: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً، وأرقُّ أفئدة، الفقهُ يمانٍ، والحكمة يمانية»[4].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٤٩) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢١٩)، والحديث المذكور رواه البخاري (٢٦٩٩) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٠٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٣)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٥٦)، والحديث المذكور رواه البخاري (٤٣٨٨)، ومسلم (٥٢)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

وكان مع جعفر أُمُّ حَبيبة بنتُ أبي سُفيان أُمّ المؤمنين. وقدم في هذا الوقت على النبي عليه الصلاة والسلام الدوسيون إخوانُ أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وهو معهم، فأعطاهم أيضاً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: (وكان مع جعفر أم حبيبة بنتُ أبي سفيان أم المؤمنين): في الحلبية ما ملخصه: كان صلى الله عليه وسلم عقد عليها وهي بالحبشة؛ فإنها كانت ممن هاجر الهجرة الثانية للحبشة مع زوجها عبيدالله[١] بن جحش، فارتد عن الإسلام هناك وتنصر، ومات على ذلك، وبقيت هي على إسلامها، وقد أرسل صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري في المحرم افتتاح سنة سبع إلى النجاشي ليزوجها منه صلى الله عليه وسلم ـ أي: وكله بذلك ـ وهي أرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد ـ رضي الله عنه ـ، فزوجها النجاشيُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل خالد بن سعيد ذلك، وأصدقها النجاشيُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مئة دينار[٢].

قوله: (إخوان أبي هريرة، وهو معهم): في الدحلانية: قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتاً من دَوْس، فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة ـ رضي الله عنه ـ، فأخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر، فزودنا سباع، ثم جئنا خيبر وهو محاصر لكثيبة[٣]، فأقمنا حتى فتح الله عليه. اهـ[٤].

---

(١) في الأصل: «عبد الله» وهو سهو، والصواب ما تمَّ إثباته.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٥٨ ـ ٧٥٩)، والخبر المذكور رواه أبو داود (٢١٠٧) من حديث أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ مختصراً، وفيه: «أربعة آلاف درهم» بدل «أربع مئة دينار».

(٣) كذا في الأصل، وفي «مراصد الاطلاع» (٢/ ١١٤٩): «(كتيبة) بالفتح ثم الكسر، بلفظ القطعة من الجيش: حصن من حصون خيبر، وهي في كتاب الأموال لأبي عبيد بالثاء المثلثة».

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٠)، والخبر المذكور =

فتح فَدَك

وبعد تمام الفتح، أرسل عليه الصلاة والسلام مَنْ يطلب من يهودِ فَـدَك الانقيادَ والطاعة، فصالحوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على أن يحقن دماءهم، ويتركوا الأموال. وكانت أرض فدك هذه لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصّة، يُنفق منها على نفسه، ويعول منها صغير بن هاشم، . . . . .

فتح فدك

قوله: (وبعد تمام الفتح أرسل عليه الصلاة السلام. . .) إلخ: هكذا في «السيرة الهشامية»، وفي «السيرة الحلبية» ما يفيد أنه كان ذلك قبل الفتح، وكان الرسول إليهم مُحَيصةَ بنَ مسعود ـ رضي الله عنه ـ. اهـ[1].

وأجلاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ لما أجلى أهل خيبر.

قوله: (وكانت أرض فدك لرسول الله. . .) إلخ: في الحلبية: ولما مات صلى الله عليه وسلم وولي أبو بكر الخلافة، سألته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أن يجعلها لها، فأبى، وروى لها: أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إنا ـ معاشرَ الأنبياء ـ لا نورث، ما تركناه صدقة»[2]، ولما صارت الخلافة لعمر بن العزيز ـ رضي الله عنه ـ قيل له: إن مروان اقتطعها ـ أي: جعلها إقطاعاً له ـ فقال: أرأيتم أمراً منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمةَ ـ أي: بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث، ما تركناه صدقة» ـ ليس لي بحق، وإني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أي: صدقة على المسلمين. اهـ[3].

= رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٤٥) بنحوه.

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٣٠٨)، و«السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٦٠).

(٢) رواه البخاري (٤٢٤٠، ٤٢٤١)، ومسلم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٦٠).

ويزوج منها أَيِّـمَهُمْ.

صلح تيماء

ولما بلغ يهودَ تيماء ما فعله المسلمون بيهود خيبر، صالحوا على دفع الجزية، ومكثوا في بلادهم آمنين مطمئنين.

فتح وادي القُرى

ثم دعا عليه الصلاة والسلام يهودَ وادي القرى إلى الاستسلام. . . .

قوله: (أيمهم): الأيم: العزب، رجلاً كان أو امرأة. مصباح[1].

صلح تيماء

قوله: (لما بلغ يهود تيماء. . .) إلخ: الذي في الحلبية والدحلانية: أن ذلك كان بعد فتح وادي القرى[2]، وذكر ذلك في «زاد المعاد» أيضاً[3] كما سيأتي قريباً.

فتح وادي القرى

قوله: (ثم دعا عليه السلام يهود وادي القرى): قال الحلبي: ثم منصرفَه صلى الله عليه وسلم من خيبر أتى وادي القرى، وأهلُه يهود، فدعاهم إلى الإسلام، فامتنعوا من ذلك وقاتلوا[4].

وبسطَ الكلام على ذلك ابنُ القيم في «زاد المعاد»، ثم قال ابن القيم: وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادي القرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادي القرى، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها، فلما بلغ يهودَ تيماء ما واطأ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أهل خيبر وفدك

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: أيم).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٧٥)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٢٢).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥٥).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٧٥).

فأبوا وقاتلوا، فقاتلهم المسلمون، وأصابوا منهم أحد عشر رجلاً، وغنموا منهم مغانم كثيرة، خَمَّسها عليه الصلاة والسلام، وترك الأرض في أيدي أهلها يزرعونها بشطر ما يُخرجون منها، وكذلك صنع بأرض خيبر، وكان يرسل إليهم عبدَالله بنَ رواحةَ لتقدير الثمر، وكان تقديره شديداً عليهم، فأرادوا أن يرشوه، فقال لهم: يا أعداء الله! تعطوني السُّحت؟ والله! لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إليّ، ولأنتم أبغضُ إليّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إيّاكم وحبيّ إياه على ألّا أعدل[1].

هذا وبانقياد جميع اليهود المجاورين للمدينة ارتاح المسلمون من شر عدو كان يتربص بهم الدوائر، مهما كان بين الفريقين من العهود والمواثيق. ورجع المسلمون مؤيدين ظافرين.

إسلام خالد ورفيقيه

وأعقب هذه الغزوةَ وهذا الفتَح المبين إسلامُ ثلاثةٍ طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين، وهم: خالد بن الوليد المخزوميّ، وعمرو بن العاص السهميّ، وعثمان بن طلحة العبدريّ، . . . .

ووادي القرى، صالحوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وأقاموا بأموالهم، فلما كان زمن عمر بن الخطاب أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى؛ لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وإن ما وراء ذلك من الشام. اهـ[2].

إسلام خالد ورفيقيه

قوله: (وأعقب هذه الغزوَة إسلامُ خالد. . .) إلخ: هذا قول، وبعد أن

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٢٣٠).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٥٥).

فسُرّ بهم عليه الصلاة والسلام سروراً عظيماً، وقال لخالد: «الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوتُ ألّا يُسلمك إلا إلى خير» فقال: يا رسول الله! ادعُ الله لي أن يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يقطع ما قبله»(١).

سرية [عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة]

وفي شعبان بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من هوازن بتُربَة يُظهرون العداوة للمسلمين، فأرسل لهم عمرَ بنَ الخطاب في ثلاثين رجلاً، فسار إليهم. ولما بلغهم الخبر، تفرقوا، . . . .

نقله الحلبي قال: وقيل: كان إسلامهم بعد عمرة القضاء، وكان سببَ إسلامه: كتابٌ كتبه له أخوه الوليد بن الوليد بعد أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة لعمرة القضاء، ومما جاء فيه: ولقد سألني عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به، فقال: «ما مثلُه يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً»، ولقد مناه على غيره، قال خالد: فلما جاءني كتابه، نشطت للخروج، ووافق عثمان [بن](٢) طلحة، وتوجها إلى المدينة، فلقيا عمرو بن العاص في طريقهما، فتوجهوا جميعاً إلى المدينة، وأعلنوا إسلامهم. وقد بسط ذلك الحلبي والدحلاني، فارجع إليه(٣).

سرية

قوله: (بتربة) هو ـ بضم التاء وفتح الراء ـ: محل بينه وبين مكة أربع ليال

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٥١) من حديث خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٧٧ ـ ٧٧٨)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).

فلم يجد بها عمر أحداً، فرجع[1].

سرية [بشير بن سعد ـ رضي الله عنه ـ إلى بني مرة]

ثم أرسل بشيرَ بنَ سعدٍ الأنصاريَّ لقتال بني مرّة بناحية فَدَك، فلما ورد بلادهم، لم يرَ منهم أحداً، فأخذ نَعَمَهم، وانحدر إلى المدينة، أما القوم، فكانوا في الوادي، فجاءهم الصريخ، ....

بطريق صنعاء. اهـ. حلبي[2].

فقول المؤلف في الذيل: (موضع صنعاء ومكة) صوابه: بين صنعاء ومكة.

قوله: (فلم يجد بها عمر أحداً فرجع): قال الحلبي: لما أرسل صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، أرسل معه دليلاً من بني هلال، ولما انصرف راجعاً إلى المدينة، ووصل إلى محل بينه وبين المدينة ستة أميال، قال له الدليل: هل لك في جمعٍ آخرَ من خثعم؟ فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: لم يأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم، أمرني بقتال هوازن. اهـ[3].

وهذا يرشدك إلى لزوم اتباع المأمور أمرَ الآمر، والوقوف عند ذلك الحد.

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية بشير بن سعد الأنصاري، وكان معه ثلاثون رجلاً[4].

قوله: (فكانوا في الوادي): الصواب: فكانوا في بواديهم، كما في

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٢)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٢٤).

فأدركوا بشيراً ليلاً وهو راجع، فتراموا بالنبل، ولما أصبح، اقتتل الفريقان قتالاً شديداً حتى قُتِل غالبُ المسلمين، وجُرِحَ بشير جرحاً شديداً حتى ظن أنه مات، ولما انصرف عنه العدو، تحامل حتى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر[1].

سرية [غالب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ إلى الميفعة]

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام غالبَ بنَ عبدالله الليثيَّ إلى أهل المِيْفَعَة في مئة وثلاثين رجلاً، فساروا حتى هجموا على القوم، فقتلوا بعضاً، وأسروا آخرين، وفي أثناء الحرب طارد أُسامةُ بنُ زيد رجلاً من المشركين، ولما رأى المشرك الموت في يد أُسامة، تشهَّد، فظن أُسامة أن عدوه إنما قال ذلك تخلصاً، فقتله.

الحلبي والدحلاني[2].

قوله: (حتى ظن أنه مات): حيث ضربت كعبه اختباراً لحياته، فلم يتحرك، فقيل: مات.

قوله: (حتى جاء إلى رسول الله): قال الحلبي: إنه استمر بين القتلى إلى الليل، فلما أمسى، تحامل حتى انتهى إلى فدك، فأقام بفدك عند يهودي أياماً حتى قوي على المشي، وجاء إلى المدينة. اهـ[3].

سرية

قوله: (طارد أسامة بن زيد رجلاً من المشركين): اسمه: مرداس بن نهيك.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٢)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٢٤) وفيه: «نواديهم» بدل «بواديهم».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٢).

ولما رجع المسلمون إلى المدينة، وأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعلة أُسامة، قال: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلّا الله؟! فكيف تصنع بلا إله إلّا الله؟» قال: يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً من القتل، قال عليه الصلاة والسلام: «فهلاّ شققتَ عن قلبه، فتعلمَ أصادق هو أم كاذب؟» فقال: يا رسول الله! استغفر لي. قال عليه الصلاة والسلام: «فكيف بلا إله إلّا الله؟» فما زال يكررها حتى تمنى أُسامة أنه لم يُسْلم قبل ذلك اليوم، وأنزل الله في ذلك في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]، . . . .

قوله: (أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟!): استفهام إنكاري؛ أي: لأن ذلك مخالفة لقوله صلى الله عليه وسلم: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[1].

قوله: (فكيف تصنع بلا إله إلا الله): تتمة الحديث كما في الحلبي: «إذا جاءت يوم القيامة»[2]؛ أي: أن المقتول يطالبك يوم القيامة بدمه بعد أن أعلن إسلامه بقول: لا إله إلا الله.

قوله: (حتى تمنى أسامة أنه لم يسلم قبل ذلك اليوم)؛ أي: لأن الإسلام يجبُّ ما قبله. اهـ. دحلاني[3].

قوله تعالى: (﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا . . .﴾)

---

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٣)، والحديث رواه مسلم (٩٧) من حديث جندب بن عبدالله البجلي ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٥).

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أُسامة أن يعتق رقبة كفارةً؛ لأنه قتل خطأً.

سرية [عيينة بن حصن رضي الله عنه إلى يمن وجبار]

وفي شوال بلغه عليه الصلاة والسلام أن عُيينةَ بنَ حصن واعدَ جماعة من غطفان كانوا مقيمين قريباً من خيبر بأرض اسمها: . . . .

إلخ: قال الحلبي: الذي في «الكشاف» في تفسير هذه الآية: أصله أن مرداس ابن نهيك رجل من أهل فدك أسلمَ، ولم يُسلم من قومه غيُره، فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عليها غالب بنُ فضالةَ الليثيُّ رضي الله عنه ـ، فهربوا، وبقي مرداس؛ لثقته بإسلامه، فلما رأى الخيل، ألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصَعِد، فلما تلاحقوا وكبروا، كبر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فقتله أسامة واستاقَ غنمه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فوجد وجداً شديداً، وقال: «قتلتموه إرادةَ ما معه»، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال: يا رسول الله! استغفر لي، قال: «فكيف بلا إله إلا الله»، فما زال يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذ، ثم استغفر لي، وقال: «أعتق رقبة». اهـ[1].

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية بشير بن سعد أيضاً[2].

قوله: (عيينة بن حصن): تقدم معنا أنه كان يقال له: الأحمق المطاع؛

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٣ ـ ١٩٤). وانظر: «الكشاف» للزمخشري (١/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٢٢٤) عن السدي.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٤)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٢٥).

يمن وجبار للإغارة على المدينة، فأرسل لهم بشير بن سعد في ثلاث مئة رجل، فساروا إليهم يكمنون النهار، ويسيرون الليل حتى أتوا محلَّتهم، فأصابوا نَعَماً كثيرة، وتفرق الرِّعاء، فأخبروا قومهم، ففزعوا ولحقوا بعُلْيا بلادهم، ولم يظفر المسلمون إلا برجلين أسلما، ثم رجعوا بالغنائم إلى المدينة.

عمرة القضاء

لما حالَ الحولُ على عمرة الحديبية، . . . .

لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة، ثم أسلم ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: **(يمن)**: بفتح الياء، وقيل بضمها، ويقال: أمن بالهمزة مفتوحةً وسكون الميم. اهـ. حلبي[1].

وفي «القاموس»: يُمْن ـ بضم الياء وسكون الميم ـ: ماء. اهـ[2].

قال الحلبي: وجبار ـ بفتح الجيم ـ: واد قريب من خيبر، والرعاء: ـ بكسر الراء والمد ـ، والعُليا: ـ بضم العين[3] ـ.

عمرة القضاء

قوله: **(عمرة القضاء)**: قال الدحلاني: اختلف الناس في تسمية هذه العمرة عمرة القضاء، فقال مالك والشافعي والجمهور: لأنه قاضى قريشاً سنة الحديبية، فالمراد بالقضاء: الفصل الذي وقع عليه الحكم، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها؛ لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها، بل كانت تامةً.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٤).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: يمن).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

خرج عليه الصلاة والسلام بمن صُدّ معه فيها ليقضي عمرته، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وساق معه الهدي ستين بَدَنَةً، وأخرج معه السلاح حذراً من غدر قريش، وكان معه مئة فرس عليها محمدُ بنُ مسلمة، وعلى السلاح بشيرُ بن سعد، وأحرم عليه الصلاة والسلام من باب المسجد المدني، ولما انتهى إلى ذي الحُلَيفة، قدَّم الخيل أمامه، فقيل: يا رسول الله! حملت السلاح، وقد شرطوا ألّا تحمله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا ندخل الحرم به، ولكن يكون قريباً منَّا، فإن هاجَنا هائج، فزعنا له»، . . . .

وقال أبو حنيفة، وأحمد في رواية عنه: إن من صُدَّ عن البيت، فعليه القضاء، فتسميتُها قضاءً على ظاهره. اهـ[1].

قوله: (خرج عليه السلام بمن صَدَّ معه): قال الدحلاني: أمر عليه السلام أن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، وخرج معهم غيرهم أيضاً، فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان. اهـ[2].

قوله: (عليها بشير بن سعد): هذا سهو، والصواب: أن عليها محمدَ بن مسلمة، وبشيرُ بن سعد كان على السلاح؛ كما في الحلبي والدحلاني[3].

قوله: (ذي الحليفة): هو موضع[4] على ستة أميال من المدينة، وهو ماء لبني جُشَم، ميقات للمدينة والشام. اهـ. قاموس[5].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٠)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٢٦).

(٤) في الأصل: «عين»، والتصويب من «القاموس المحيط».

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حلف).

فلما كان بمرِّ الظَّهران قابله نفرٌ من قريش، ففزعوا من هذه العدّة، وأسرعوا إلى قومهم فأخبروهم، فجاءه فِتيانٌ منهم وقالوا: . . . .

قوله: (فلما كان بمر الظهران): ظاهره يفيد أن الضمير في (كان) يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والقصة ليست كذلك.

قال الدحلاني: ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران، فوجد بها نفراً من قريش، فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل، فقال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى، فأتوا قريشاً فأخبروهم، ففزعوا وقالوا: والله! ما أحدثنا حدثاً، وإنا على كتابنا ومدتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه؟ وبعثوا مكرزَ بنَ حفص في نفر من قريش حتى لقوه صلى الله عليه وسلم ببطن يأجج في أصحابه، والهدي والسلاح قد تلاحق، فقالوا: والله! ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك، وقد شرطتَ لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر! فقال: «إني لا أدخل عليهم بالسلاح»، فقال مكرز: هو الذي تعرف به البر والوفاء، ثم رجع بأصحابه إلى مكة فقال: إن محمداً على الشرط الذي شرط لكم، ونزل صلى الله عليه وسلم بمر الظهران. اهـ[1].

فالذي أتى مر الظهران أولاً، وقابله نفر من قريش هو محمد بنُ مسلمة، لا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وإنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم مر الظهران بعد ذلك كما علمت.

و**(مر الظهران)** ـ بفتح الميم في (مر) مضافاً إلى (الظهران) ـ: وهو وادٍ قرب مكة، كما في «القاموس»[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٦)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مرر).

والله يا محمد! ما عُرفت بالغدر صغيراً ولا كبيراً، وإنّا لم نحدث حَدَثاً، فقال: «إنّا لا ندخل الحرم بالسلاح»، ولما حان وقت دخوله مكة، خرج أهلوها كارهين رؤيةَ المسلمين يطوفون بالبيت، فدخل عليه الصلاة والسلام وأصحابه متوشحين سيوفهم من ثَنِيَّة كَدَاء، وأمامه عبدُ الله بن رواحة يقول: لا إله إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحدَه.

قوله: (وأمامه عبد الله بن رواحة)؛ أي: وهو آخذ بزمام راحلته يمشي بين يديه وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهامَ عن مقيله ... ويُذهلُ الخليلَ عن خليله

قد أنزلَ الرحمنُ في تنزيله ... بأن خير القتل في سبيله

إلى أبيات أخر، ولما أنشد ذلك، قال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا ابنَ رواحة! أبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: «خَلِّ عنه يا عمر، فلَهي فيهم أسرعُ من نَضْح النبل»[1]، ثم قال صلى الله عليه وسلم لابن رواحة: «قل: لا إله إلا الله وحده...» إلخ ما ذكره المؤلف، فقالها ابن رواحة، ثم قالها الناس[2]، وفي أمره بذلك زيادة إغاظة

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٤٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٢١ ـ ١٢٢). ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٨/ ٩٧) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ. ورواه الترمذي (٢٨٤٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مختصراً، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

وطاف عليه الصلاة والسلام بالبيت وهو على راحلته، واستلم الحجر بِمِحْجَنِهِ، وأمر أصحابه أن يسرعوا ثلاثة أشواط إظهاراً للقوة؛ لأن المشركين قالوا: سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حُمَّى يثربَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرأً أراهم من نفسه قوة»[1]، واضطبعَ عليه الصلاة والسلام بردائه، وكشف عضدَه اليمنى شأن الفتوّة، وفعل مثله المسلمون. وقد أتم المسلمون طوافهم بالبيت آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين كما رأى عليه الصلاة والسلام في منامه[2].

للكفار؛ لتأديبهم بها أكثر من الشعر المذكور، لا سيما وقد قالوها كلهم معلنين بها. اهـ. دحلاني[3].

قوله: (واستلم الحجر بمحجنه): المحجن كمنبر: العصا المعوجة. «قاموس»[4].

قوله: (أن يسرعوا ثلاثة أشواط)؛ أي: وهو المسمى بالرمَل.

قال الحلبي: وإنما لم يأمرهم بالرمل في الأشواط كلها رفقاً بهم[5].

ولم يزل الرمل عند الحنفية.

قوله: (واضطبع عليه السلام): الاضطباع: أن يجعل قبل شروعه في

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. ورواه ابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨١٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بلفظ: «أروهم ما يكرهون».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حجن).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨١).

زواج ميمونة

وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونةَ بنتَ الحارث الهلاليةَ زوجَ عمه حمزةَ بنِ عبد المطلب شهيدِ أُحُد، وخالةَ عبدالله بن العباس ـ وهي آخر نسائه زواجاً ـ ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة. . . . .

الطواف رداءه تحت إبطه الأيمن ملقياً طرفه على كتفه الأيسر، وهو سنة. اهـ. طحطاوي[1].

زواج ميمونة

قوله: (وتزوج صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ميمونة)، وقوله: (ولم يدخل بها إلا بعد الخروج من مكة): ظاهره يفيد أنه تزوجها وهو محرِم، وبنى بها وهو حلال، وهو ما رواه البخاري في «صحيحه» عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرِم، وبنى بها وهو حلال[2].

قال في «بداية المجتهد»: واختلفوا في نكاح المحرم، فقال مالك، والشافعي، والليث، والأوزاعي: لا ينكح المحرم ولا ينكح، فإن نكح، فالنكاح باطل، وهو قول عمر، وعلي بن أبي طالب، وابن عمر، وزيد بن ثابت.

وقال أبو حنيفة والثوري: لا بأس بأن ينكح المحرم وأن ينكح.

والسبب في اختلافهم اختلافُ الآثار في ذلك، فأحدها: ما رواه مالك من حديث عثمان بن عفان: أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يَنْكِح المحرم ولا يُنْكَح، ولا يخطب»[3]، والحديث المعارض لهذا حديث ابن عباس:

---

(١) انظر: «حاشية الطحطاوي» (ص: ٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٤٢٥٨)، ومسلم (١٤١٠).

(٣) رواه مسلم (١٤٠٩) من حديث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ.

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح ميمونة وهو محرم، خرجه أهل الصحيح[١]، إلا أنه عارضته آثار كثيرة عن ميمونة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وهو حلال، رويت عنها من طرق شتى عن أبي رافع[٢]، وعن سليمان بن يسار، وهو مولاها[٣]، وعن زيد بن الأصم[٤].

وقال ابن القيم في «زاد المعاد»: وأما قول ابن عباس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال[٥]؛ فمما استُدرك عليه، وعُدَّ من وهمه.

قال سعيد بن المسيب: وهمَ ابنُ عباس، وإن كانت خالتَه، ما تزوجها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلا بعدما حل[٦]، ذكره البخاري[٧].

وقال زيد بن الأصم عن ميمونة: تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن حلالان بسَرِف، رواه مسلم[٨].

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) رواه الترمذي (٨٤١) من حديث سليمان بن يسار عن أبي رافع، وقال: حديث حسن.

(٣) رواه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٤/ ٣٧)، وقال: وحديث سليمان بن يسار من هذا الوجه مرسَل.

(٤) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ٢٤٢)، والخبر المشار إليه رواه مسلم (١٤١١) من حديث ميمونة ـ رضي الله عنها ـ.

(٥) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) رواه أبو داود (١٨٤٥).

(٧) تقدم تخريجه عند البخاري (٤٢٥٨)، وهو يشير إلى حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو محرم، وبنى بها وهو حلال.

(٨) رواه مسلم (١٤١١) بنحوه. ورواه أبو داود (١٨٤٣) باللفظ المذكور.

حيث كان بِسَرِف. ولما خرج عليه الصلاة والسلام، أمر الذين كان تركهم لحراسة الخَيل بالذهاب ليطوفوا، ففعلوا، ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فرحاً مسروراً بما حَبَاه الله من تصديق رؤياه.

وقال أبو رافع: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو حلال، وبنى بها وهو حلال، وكنتُ الرسولُ بينهما[1]، صح ذلك عنه.

وقال سعيد بن المسيب: هذا عبدالله بن عباس يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح ميمونة وهو محرم، وإنما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وكان الحِلُّ والنكاح جميعاً، فشُبِّه ذلك على الناس[2]، وتمامه فيه[3].

قوله: (سرف): سرف ككَتِفٍ.

قال في «زاد المعاد»: وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى فيها[4].

قوله: (ولما خرج عليه السلام): قال الحلبي: أقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثلاثة أيام، فلما تمت الثلاثة التي هي أمدُ الصلح، جاء حويطب بن عبد العزى، ومعه سهيل بن عمرو ـ رضي الله عنهما؛ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرانه بالخروج هو وأصحابه من مكة، فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا ما خرجتَ من أرضنا، فقد مضت الثلاث، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه منها. اهـ[5].



---

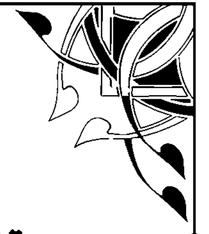
(١) رواه الترمذي (٨٤١) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ٣٣٦).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٧٢ ـ ٣٧٣).

(٤) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٧٢).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨١).




السَنَة الثامِنَة

سرية [غالب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ إلى بني الملوح]

وفي صَفَر أرسل عليه الصلاة والسلام غالبَ بنَ عبدالله الليثيَّ إلى بني المُلَوِّح، وهم قوم من العرب يسكنون بالكَدِيد، فسار القوم حتى إذا كانوا بقُدَيدٍ، التقوا بالحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء، وكان خصماً لدوداً، فأسروه، فقال لهم: ما جئت إلا للإسلام، فقالوا له: إن تكن مسلماً لن يضرك رباط ليلة، وإلا استوثقنا منك، ثم ساروا حتى وصلوا محلة بني الملوّح، فاستاقوا النَّعَم والشاء، . . . .

السنة الثامنة

سرية

قوله: (بني الملوح): ـ بضم الميم وفتح اللام وتشديد الواو مكسورة ـ.

وقوله: (الكديد): ـ بفتح الكاف وكسر الدال ـ.

قوله: (وإلا استوثقنا منك): قال الدحلاني: فشدوه وثاقاً، وخلفوا عليه رجلاً من أصحابهم أسود، وقالوا له: إن نازعك فاحتز رأسه[1].

قوله: (حتى وصلوا محلة بني الملوح): قال الحلبي: وكان ذلك عند غروب الشمس، وكمنوا في ناحية الوادي، قال جندب الجهني: وأرسلني القوم جاسوساً لهم، فخرجت حتى أتيت تلًّا مشرفاً على الحاضر ـ أي: القوم المقيمين في محلهم ـ، فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر إذ خرج رجل منهم، فقال لامرأته: إني لأنظر على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل، انظري إلى أوعيتك

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٢٩).

وخرج الصريخ إلى القوم، فجاءهم ما لا قِبَل لهم به، ولكن منّ الله على المسلمين، فأرسل سيلاً شديداً حالَ بينهم وبين عدوهم حتى صار المشركون يرون نعَمَهم تُساق وهم لا يقدرون على ردّها.

سرية [غالب بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ إلى بني مرة بفدك]

ولما رجع غالب إلى المدينة ظافراً، أرسله عليه الصلاة والسلام في مئتي رجل ليقتصّ من بني مرّة بفدك ـ وهم الذين أصابوا سرية بشير بن سعد ـ فساروا حتى إذا كانوا قريباً من القوم، خطب غالبٌ فيمن معه، . . . .

لا تكون الكلاب جرت منها شيئاً، فنظرت فقالت: والله! ما فقدت من أوعيتي شيئاً، فقال: ناوليني قوسي ونبلي، فناولته قوسه وسهمين، فأرسل سهماً، فوالله! ما أخطأ بين عيني، فانتزعته وثبتّ مكاني، فأرسل آخر فوضعه في منكبي، فانتزعته وثبت مكاني، فقال لامرأته: والله! لو كان جاسوساً لتحرك، لقد خالطه سهمان لا أبالك ـ أي: لا كافل لك غير نفسك، وهو بهذا المعنى يذكر في معرض المدح، وربما يذكر في معرض الذم، وفي معرض التعجب، لا بهذا المعنى ـ فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب، ثم دخل، فلما اطمأنوا، شننا عليهم الغارة، واستقنا النعم. . . إلخ ما ذكره المؤلف[1].

سرية

قوله: (سرية): عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية غالب بن عبدالله الليثي أيضاً[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٦)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٦٧) من حديث جندب بن مكيث الجهني ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٧)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٣٤).

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أما بعد: فإني أُوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعوني، ولا تخالفوا لي أمراً؛ فإنه لا رأي لمن لا يُطاع. ثم آخى بين الجند، فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق أحد منكم زميله، وإيّاكم أن يرجع الرجل منكم فأقولَ له: أين صاحبك؟ فيقول: لا أدري، فإذا كبَّرت فكبّروا، فلما أحاطوا بالعدو وكبّر، كبّروا، وجرّدوا السيوف فلم يفلت من عدوهم أحد، واستاقوا نَعَمَهُمْ، فكان لكل واحد من الغزاة عشرة أبعِرة.

قوله: (أما بعد... إلخ): قال الحلبي: وفي رواية: لا تعصوني؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يطع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني[1]، وإنكم متى تعصوني، فإنكم تعصون نبيكم صلى الله عليه وسلم». اهـ[2].

قوله: (فإنه لا رأي لمن لا يطاع) يعني: أن القوم الذين لا يطيعون أمر أميرهم، فإن رأي أميرهم لا تظهر ثمراته، ولا تنجح مساعيه، بل تكون آراؤه وتدابيره وبالاً عليه وعليهم، أو أن من كان في شك في إخلاص قومه إليه وطاعتهم له، فإنه يكون متردداً في رأيه، ولا يكون ذا عزيمة، وحينئذ تفسد آراؤه، ونتيجة ذلك الخذلان.

قوله: (فلم يفلت من عدوهم أحد) عبارة الدحلاني: وقتلوا منهم قتلى، وأصابوا منهم نَعَماً وشاءً وذرية[3].

---

(١) روى البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٧)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٢٦) من حديث حويصة بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٥).

سرية [كعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ إلى ذاتِ أطلاح]

وفي ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام كعبَ بنَ عُميرٍ الغفاريَّ إلى ذات أطلاح ـ من أرض الشام ـ في خمسة عشر رجلاً، فوجدوا جمعاً كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، وقاتلوا، وكانوا أكثر عدداً، فاستشهد المسلمون عن آخرهم إلا رئيسهم كعب بن عمير؛ فإنه نجا، وأتى بالخبر إلى رسول الله، فَشَقَّ عليه، وأراد أن يبعث إليهم من يقتص منهم، فبلغه أنهم تحوَّلوا من منزلهم، فعدل عن ذلك[١].

غزوة مُؤْتَة

جهَّز عليه الصلاة والسلام في جمادى الأولى. . . . .

وهي صريحة في أنهم لم يستأصلوهم.

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية كعب بن عمير الغفاري ـ رضي الله عنه[٢] ـ.

قال الحلبي: لم أقف على السبب الذي اقتضى البعث إلى ذلك المحل. اهـ[٣].

غزوة مؤتة

قوله: (مؤتة) هي: ـ بضم الميم وسكون الواو ـ، وهي من عمل البلقاء، وهي مدينة معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس. اهـ. دحلاني[٤].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٨)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٨).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٦).

وقال المصنف في الهامش: (هي قريبة من الكرك، وهي مشارف الشام).

أقول: هذا سهو منه؛ حيث جعلها نفس مشارف الشام، ففي «سيرة ابن هشام»: فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموعُ هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها. اهـ[1].

وهي صريحة في أن مشارف قرية، ومؤتة قرية أخرى، والصواب أن مشارف الشام اسم لقرًى متعددة.

قال في «القاموس»: مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف، منها السيوف المشرفية[2].

وقال في «معجم البلدان»: المشارف: جمع مشرف، قرًى قرب حوران، منها بصرى من الشام، ثم من أعمال دمشق، إليها تنسب السيوف المشرفية، رد إلى واحده ثم نسب إليه.

ثم قال: وقال أبو عبيدة: سِيفُ البحر: شطُّه، وما كان عليه من المدن يقال لها: المشارف، تنسب إليها السيوف المشرفية.

ثم قال: ومشارف الأرض: أعاليها[3].

وبعد أن أورد عبارة ابن هشام التي قدمناها قال: فهذا قد جعلها قرية بعينها[4].

أي: والصواب ما قدمه في صدر عبارته حيث قال: هي قرًى قرب حوران،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شرف).

(٣) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٥/ ١٣١).

(٤) انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٥/ ١٣١).

جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارثَ بنَ عُمير الأزديَّ، رسولَه إلى أمير بُصرى، وأمَّر عليهم زيدَ بن حارثة، وقال لهم: «إن أُصيب، فالأمير جعفر ابن أبي طالب، فإن أُصيب، فعبدالله بن رواحة»[١]. وكان عدّة الجيش ثلاثة آلاف، فساروا، وشيَّعهم عليه الصلاة والسلام، وكان فيما وصّاهم به: «اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»[٢].

وعبارة «القاموس» صريحة في ذلك أيضاً، ويزول السهو لو قال: وهي من مشارف الشام.

قوله: (ممن قتلوا الحارث بن عمير): قال الحلبي: ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسولٌ غيرُه، فلما بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ذلك، اشتد الأمر عليه، فجهز جمعاً من أصحابه، وعدتهم ثلاثَة آلاف. اهـ[٣].

قوله: (وقال لهم: إن أصيب، فالأمير جعفر بن أبي طالب...) إلخ: قال الحلبي: وقد حضر ذلك المجلس رجل من يهود، فقال: يا أبا القاسم! إن كنت نبيّاً يصاب جميع من ذكرت؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلاً على القوم وقال: إن أصيب فلان؛ لا بد أن يصاب، ولو عد مئة؛ أصيبوا جميعاً، ثم صار يقول لزيد: اعهد، فلن ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبيّاً، وزيد يقول: اشهد أنه نبي. اهـ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦١) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٩١) من حديث خالد بن زيد.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٦).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٧)، والخبر المذكور رواه =

ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا مُؤْتة مقتل الحارث بن عمير، وهناك وجدوا الروم قد جمعوا لهم جمعاً عظيماً، منهم ومن العـرب المتنصِّـرة. فتفاوض رجال الجيش فيما يفعلونـه: أيرسـلون لرسـول الله صـلى الله عليـه وسلم يطلبون منه مَدداً، أم يقدمون على الحرب؟ فقال عبدالله بن رواحة: يا قوم والله! إن الذي تكرهون هو ما خرجتم لـه، خرجتم تطلبـون الشـهادة، ونحن مـا نقاتـل بعدد ولا بقوة ولا بكثـرة، مـا نقاتـل إلا بهـذا الـدين الـذي أكرمنا الله تعالى به، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما الظهور وإمـا الشـهادة، فقال الناس: صدق ـ والله ـ ابنُ رواحة. ومضوا للقتال، فلقوا هذه الجموع المتكاثرة، فقاتل زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ حتى استشهد، فأخذ الراية جعفرُ بن أبي طالب وهو يقول:

قوله: (وجدوا الروم مجمعين لهم جمعـاً): كـان الـروم فـي مئـة ألـف، وانضم إليه من قبائل العرب المتنصرة من بني بكر ولخم وجذام مئة ألـف، وفـي رواية: كانوا مئتي ألف من الروم، وخمسين ألفاً من العرب، ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين. اهـ. حلبي(١).

قوله: (فقال الناس: صدق ـ والله ـ ابن رواحة): قـال الـدحلاني: وفـي هذا دليلٌ على فرط شجاعة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وقوة قلوبهم، وتـوكلهم على ربهم، وعدم مبالاتهم بأنفسهم باعوها لله تعـالى إذ أقـدم ثلاثـة آلاف علـى أكثر من مئتي ألف أصحاب حروب وشدة، وهذا إنما هو لما وقـر فـي قلـوبهم، واطمأنت عليه نفوسهم مـن الثقـة بقـول الله تعـالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[غـافـر: ٥١]، وقـولـه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصـافـات: ١٧٣]، وقـولـه:

= الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٠٧) عن عمر بن الحكم.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٧).

يــا حبَّــذا الجَنَّـــةُ واقْتِرَابُهـــا

طيِّـــــبَةٌ وبــــاردٌ شَـــــرابُها

والــرومُ روم قــد دَنَــا عــذابُها

كـــــافرةٌ بعيـــــدةٌ أنســــابُها

علـــيَّ إذ لاقيتُهـــا ضِــــــرابُها

ولم يزل يقاتل حتى استشهد ـ رضي الله عنه ـ، فأخذ الرايـة عبـدُالله ابن رواحة فتقدم، ثم تردد بعضَ التردّد، فقال يخاطب نفسه:

أقســـمتُ يــا نفــسُ لَتنزِلنَّـــهْ

طائعـــــــةً أو لَتُكْرَهِنَّـــــــهْ

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧]. اهـ[1].

قوله: (ولم يزل يقاتل حتى استشهد): قال الدحلاني: لما أخـذ اللـواء، قاتل قتالاً شديداً، فقطعت يمينه، فأخذه بيساره، فقطعت يساره، فاحتضنه بعضـديه حتى قتل ـ رضي الله عنه ـ، ووجد فيه بضع وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح، ليس فيها شيء في دبره ولا ظهره؛ أي: ليس منها شـيء فـي حـال الإدبـار، بـل كلها في حال الإقبال، لمزيد شجاعته. اهـ[2].

قولـه: (طـائعــة أو لتكرهِنَّـه): فـي ابـن هشـام والـدحلاني: لتنـزلن أو لتكرهنه[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٩)، و«السيرة النبوية» لأحمد بـن زينـي دحلان (٢/ ٢٣٨).

إن أجلبَ الناسُ وشـدّوا الرَّنَّـهْ

مـا لـي أراكِ تكـرهين الجنَّـهْ؟

قد طال مـا قـد كنـتِ مُطمئنَّـهْ

هل أنـتِ إلا نُطفـة فـي شَـنَّهْ؟

ثم اقتحم بفرسه المعمعة، ولم يزل يقاتـل ـ رضـي الله عنـه ـ حتـى استشهد[1].

وقوله: (إن أجلب الناس): في «القاموس»: أجلب القوم: تجمعوا[2].

و(الرنة): الصوت[3].

قوله: (نطفة في شنة): النطفة: القليل من الماء، والشنة ـ بفتح الشين ـ: السقاء البالي، فيوشك أن تهراق النطفة، أو ينخرق السقاء، ضرب ذلك مـثلاً لنفسـه في جسده. اهـ. سهيلي على ابن هشام[4].

قوله: (ولم يزل يقاتل حتى استشهد): في الدحلاني: أن ابن عم [له][5] أتاه عندئذ بعرق من لحم، فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده، ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة في الناس، فقال: وأنت

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» (٥/ ٢٨) عن يحيى بن عباد بـن عبـدالله ابن الزبير، عن أبيه عباد قال: حدثني أبي الذي أرضعني وكان أحد بنـي مـرة بـن عوف... فذكره.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: جلب).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رنن).

(٤) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٢٦).

(٥) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان.

فهمَّ بعض المسلمين بالرجوع إلى الوراء، فقال لهم عقبة بن عـامر: يا قوم! يُقتل الإنسان مقبلاً خيرٌ من أن يقتل مُدبراً، فتراجعوا، واتفقـوا علـى تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد، وبهمَّتـه ومَهارتـه الحربيـة حمـى هـذا الجيش من الضياع؛ إذ ما تفعل ثلاثة آلاف بمئة وخمسين ألفاً؟ فإنه لما أخذ الراية، قاتل يومه قتالاً شديداً، وفي غده خـالف ترتيـب العسـكر، فجعـل الساقة مقدمة، والمقدمة ساقة، والميمنة ميسـرة، والميسـرة ميمنـة، فظـنَّ الروم أن المَدَد جاء للمسلمين، فرعبوا.

في الدنيا! ثم ألقاه من يده، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل ـ رضي الله عنه[1] ـ.

روي عن سعيد بن منصور: أنهم دفنوا يومئذ في قبر واحـد زيـداً وجعفـراً وعبدالله بن رواحة ـ رضي الله عنهم[2] ـ.

قوله: (فتراجعوا) يفيد أن بعض المسلمين انهزموا، وهذا ينافي قوله قبـل هذا: (وهَمَّ بعـض المسـلمين بـالرجوع)، والعبـارة فـي الحلبـي: وأراد بعـض المسلمين الانهزام، فجعل قطبة[3] بن عامر ـ رضي الله عنه ـ يقول: يا قوم! يقتل الإنسان مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً. اهـ[4].

وليس فيها بعد ذلك (فتراجعوا).

قوله: (واتفقوا على تأمير الشهم الباسل خالد بن الوليد): قال الـدحلاني: بعد قتل عبدالله بن رواحة أخذ اللواء ثابـت بن أقرم ـ رضي الله عنـه ـ، وكـان من

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥١) عن عبدالله بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٩).

(٣) في الأصل: «عقبة»، والتصويب من «المغازي».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الـدين الحلبـي (٢/ ٧٨٨)، والخبـر المـذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢١٢).

ثم أخذ خالد الجيش وصار يرجع إلى الوراء حتى انحاز إلى مُؤتة، ثم مكث يناوش الأعداء سبعة أيام، ثم تحاجز الفريقان؛ لأن الكفار ظنوا أن الأمداد تتوالى للمسلمين، وخافوا أن يجرّوهم إلى وسط الصحارى حيث لا يمكنهم التخلّص، وبذلك انقطع القتال. وقد نعى النبي صلى الله عليه وسلم زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم، فقال: «أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، . . . .

أهل بدر، وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه[1] ـ.

وفي رواية: أن ثابتاً مشى باللواء إلى خالد، وقال: أنت أعلم بالقتال مني[2]، فلم يقبل خالد اللواء، وقال: أنت أحق به مني؛ لأنك ممن شهد بدراً، فنادى ثابت: يا معشر المسلمين! فاجتمع الناس على خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وسلموه اللواء، فأخذه. اهـ[3].

أقول: انظر إلى هذه الأخلاق العالية؛ فإن ثابتاً لما آنس من نفسه أنه لا يصلح لقيادة الجيش وفي القوم من هو أعرفُ منه بالقتال، وأصلحُ لأن يستلم القيادة؛ لم يرغب في الإمارة، مع عظيم موقعها واستشرافِ النفوس إليها، وترك الأمر لمن هو أهله. وانظر إلى خالد ـ رضي الله عنه ـ حيث اعترف بمزية ثابت، ولم يقبل الإمارة إلا بعد أن اجتمع رأي القوم على ذلك، وارتضوه أن يكون قائدهم، وقايسْ بين أخلاقهم وأخلاقنا من تهافت الناس على الوظائف، وطلبهِم لها ولو كانوا غيرَ أهل لها.

قوله: (وبذلك انقطع القتال)؛ أي: وعاد خالد بالجيش إلى المدينة.

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥١) عن عبدالله بن الزبير.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٦٤٥) عن أبي اليسر بن عمرو الأنصاري.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٣٩).

ثم أخذها ابنُ رواحة فأصيب ـ وكانت عينا رسول الله تذرفان، ثم قال ـ : حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»[1].

وجاءه رجل فقال: يا رسول الله! إن نساء جعفرٍ يبكين، فأمره أن ينهاهنّ، فذهب الرجل ثم أتى فقال: قد نهيتهنّ فلم يُطِعْنَ، فأمره فذهب ثانياً، ثم جاء فقال: والله! لقد غلبننا، فقال له عليه الصلاة والسلام: «احْثُ في أفواههنّ التراب».

قال ابن هشام: لما أخذ خالد الراية دافع القوم وخاشى بهم[2]، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس، اهـ[3].

قوله: (حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله)؛ أي: وهو خالد ـ رضي الله عنه ـ، ومن يومئذ سُمي خالدٌ: سيفَ الله.

قوله: (حتى فتح الله عليهم): قال الحلبي: قال بعضهم: وكون هذا نصراً وفتحاً واضح؛ لإحاطة العدو بهم، وتكاثرهم عليهم؛ لأنهم كانوا مئتي ألف، والصحابة ثلاثة آلاف، وكان مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية. اهـ[4].

قوله: (فقال عليه السلام: أحث في أفواههن التراب. . .): الحديث في الحلبي هكذا: جاء إليه صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله! إن النساء عيين وفتن، قال: «فارجع إليهن فأسكتهن»، فذهب، ثم رجع فقال له مثل

---

(١) رواه البخاري (٤٢٦٢) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٣٥): وفي حديث خالد: أنه لما أخذ الراية يوم مؤتة دافع الناس وخاشى بهم؛ أي: أبقى عليهم وحذر فانحاز، خاشى: فاعل من الخشية، يقال: خاشيت فلاناً؛ أي: تاركته.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٣٠).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٨٩).

ولما أقبل الجيش إلى المدينة، قابلهم المسلمون يقولون لهم: يا فُرّار، فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هم الكُرَّار».

ظن المقيمون بالمدينة أن انحياز خالد بالجيش هزيمة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراهم أن ذلك من مكايد الحرب، وأثنى على خالد في مهارته.

الأول، وقال: نهيتهن فلم يطعنني، فقال: [اذهب فأسكتهن»، فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول، وقال: نهيتهن فلم يطعنني، فقال][1]: «اذهب فأسكتهن، فإن أبين فاحث في أفواههن التراب». اهـ[2].

وروى ابن هشام هذا الحديث على نحو ما هنا[3]، فيكون في عبارة المؤلف تسامح؛ حيث ترك قوله صلى الله عليه وسلم: «اذهب فأسكتهن، فإن أبين: فاحث في أفواههن التراب»[4].

قوله: (ولما أقبل الجيش إلى المدينة. . .) إلخ: قال الحلبي: ولما دنا الجيش من المدينة، تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، ولقيهم الصبيان ينشدون.

ثم قال: وصار المسلمون يحثون في وجوههم التراب ويقولون لهم: يا فرارون! فررتم في سبيل الله، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بل

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة الحلبية».
(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٩٠)، والحديث المذكور رواه البخاري (١٢٩٩)، ومسلم (٩٣٥)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.
(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٣١ ـ ٣٢).
(٤) تقدم تخريجه.

سرية [عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ إلى ذات السلاسل]

وفي جمادى الآخرة بلغه عليه الصلاة والسلام أن جمعاً من قضاعة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القُرى ليُغيروا على المدينة، . . . .

هم الكرارون»[1].

ثم قال: ولقد لقوا من أهل المدينة لما رجعوا شرّاً، حتى إن الرجل يجيء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه، فيأبون يفتحون له، ويقولون: هلا تقدمت مع أصحابك فقتلت، حتى إن نفراً من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جلسوا في بيوتهم استحياء، كلما خرج واحد منهم، صاحوا به، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إليهم رجلاً رجلاً، ثم يقول: «أنتم الكرارون في سبيل الله»[2]، ويعنون بالفرار: انحيازهم مع خالد ـ رضي الله عنه ـ حين انحاز العدو عنهم، وإنما انحاز خالد ـ رضي الله عنه ـ لترتيبه العسكر، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم خالداً ـ رضي الله عنه ـ على ذلك وأثنى عليه. اهـ[3].

سرية

قوله: (سرية): عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ إلى ذات السلاسل، وقالا: سميت بذلك؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل: سميت بذلك؛ لأن بها ماء يقال له: السلسل، وقيل: سمي المكان بذلك؛ لأنه كان به رمل بعضه على بعض

---

(١) أورده ابن الأثير في «جامع الأصول» (٨/ ٣٥٤) من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ، ولم يعزه لأحد.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣١١) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «أنتم الكرارون، وأنا فئة كل مسلم».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٧٩٢ ـ ٧٩٣).

فأرسل لهم عمرَو بنَ العاص في ثلاثمائة رجل من سَراة المهاجرين والأنصار، ثم أمدّه بأبي عبيدة بن الجراح في مئتين من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، فلحقوا عَمْراً قبل أن يصل إلى القوم، . . . .

كالسلسلة. اهـ[1].

والسلاسل: ـ بفتح السين الأولى وبضمها ـ، ففيها لغتان، وبينها وبين المدينة عشرة أيام.

قوله: (فأرسل لهم عمرو بن العاص): في الحلبي: عن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث إليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي ـ وكان ذلك بعد إسلامه بسنة ـ، فقال: «يا عمرو! إني أريد أن أبعثك على جيش، فيغنمك الله ويسلمك»، فقلت: إني لم أسلم رغبة في المال، قال: «نِعْمَ المالُ الصالحُ للرجل الصالح»[2].

قوله: (ثم أمده بأبي عبيدة. . .) إلخ: سبب الإمداد: أن عمراً لما قرب من القوم، بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافعَ بنَ كعب الجهنيَّ ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مئتين من سراة المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر وعمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ، وعقد له لواء، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو، وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليَّ مدداً، وأنا الأمير، وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو: أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف قال:

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٨ ـ ١٩٩)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٩)، والحديث المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٢) بنحوه.

وقد أراد رجال من الجيش إيقاد نار، فمنعهم عمرو، فأنكر عليه عمرُ بن الخطاب، فقال أبو بكر: إنما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا رئيساً؛ لمعرفته بالحرب أكثر منّا، فلا تعصه، فامتثل.

ولما حلُّوا بساحة القوم، حملوا عليهم، فلم يكن أكثر من ساعة حتى تفرق الأعداء منهزمين، فجمعوا غنائمهم، وأرادوا اتباع أثرهم، فمنعهم قائدهم، ثم رجعوا إلى المدينة ظافرين، وبينما هم في الطريق، . . . .

لتعلمْ يا عمرو أن آخر شيء عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: «إن قدمتَ على صاحبك، فتطاوعا ولا تختلفا»، وإنك ـ والله ـ إن عصيتني لأطيعنك، قال: فإني الأمير عليك، قال: فدونك. اهـ[1].

قوله: **(أراد رجال من الجيش إيقاد نار)**؛ أي: ليصطلوا عليها من البرد.

وقوله: **(فمنعهم عمرو)**؛ أي: وقال: لهم كل من أوقد ناراً لأقذفنه فيها، فشق عليهم ذلك؛ لما فيه من شدة البرد، فكلمه بعض سراة المهاجرين في ذلك، فغالظه عمرو في القول، وقال له: قد أُمرتَ أن تسمع لي وتطيع، قال: نعم، قال: فافعل[2].

ولما بلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ غضب، وهمَّ أن يأتيه، فمنعه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب، فسكت. اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٩٩)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢١٨). ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٢٥ ـ ٢٦) عن عروة بن الزبير، بنحوه.

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢١٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٠٠)، والخبر المذكور رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٣٥٧) من حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ.

أدركت عمرَو بنَ العاص جنابة في ليلة باردة، فلما أصبح قال: إنْ أنا اغتسلتُ هلكت، والله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ١٩٥]، ثم تيمم وصلى، ثم أمر بالسير حتى إذا وصلوا إلى المدينة، قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يسأل عن أنباء سفرهم كما هي عادته، فأخبروه بما نقموه من عمرو بن العاص من نهيهم عن إيقاد النار، ونهيهم عن اتباع العدو، وصلاته جنباً، فسأله عليه الصلاة والسلام عن ذلك، فقال: منعتُهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلّتهم، فيطمع فيهم، ونهيتهم عن اتباع العدو؛ لئلا يكون له كمين، وصلّيت جنباً لأن الله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وإن أنا اغتسلت هلكت، فتبسم عليه الصلاة والسلام، وأثنى على عمرٍو خيراً.

قوله: (والله يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾): هذه رواية.

وفي «زاد المعاد»: أن الصحابة ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟» فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، وقال: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل شيئاً. اهـ[(١)].

ونحو هذا في «بداية المجتهد»[(٢)]، فعلى هذا يكون في الاستدلال روايتان.

ويظهر أن الذي أنكر على عمرو صلاته وهو جنب كان لا يرى التيممَ للجنابة، ولذا أعتقدَ أن عمراً صلى بهم وهو جنب.

قال في «بداية المجتهد»: اتفق العلماء على أن هذه الطهارة ـ أي: التيمم ـ

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٨٨)، والخبر المذكور رواه أبو داود (٣٣٤) من حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ٤٨).

هي بدل من الطهارة الصغرى، واختلفوا في الكبرى، فروي عن عمر وابن مسعود: أنهما كانا لا يريانها بدلاً من الكبرى، وكان عليّ وغيره من الصحابة يرون أن التيمم يكون بدلاً من الطهارة الكبرى، وبه قال عامة الفقهاء. اهـ[1].

سرية

قوله: (سرية): عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية الخبط[2].

قال في «القاموس»: الخبط ـ محركة ـ: ورق ينفض بالمخابط، ويجفف ويطحن، ويخلط بدقيق أو غيره، ويوخف بالماء، فتوجَرُه الإبل، وموضع لجهينة على خمسة أيام من المدينة، ومنه سرية الخبط من سراياه صلى الله عليه وسلم إلى حي من جهينه، أو لأنهم جاعوا حتى أكلوا الخبط. اهـ[3].

قال الحلبي: الخبط: ورق السمر[4].

وفي الدحلانية: هو ورق السلم[5].

قال في «المصباح»: السلم: شجر العضاه[6].

والسَّمُر ـ وِزان رَجُل وسَبُع ـ: شجر الطلح، وهو نوع من العضاة، الواحدة

---

(١) انظر: «بداية المجتهد» لابن رشد (١/ ٤٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٠١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٤٥).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خبط).

(٤) في الأصل: «السلم»، والمثبت من «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/٢٠١).

(٥) في الأصل: «السمر»، والمثبت من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤٦).

(٦) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سلم).

وفي رجب أرسل عليه الصلاة والسلام أبا عبيدة عامرَ بنَ الجراح في ثلاث مئة فارس لغزو قبيلة جُهَينة التي تسكن ساحل البحر، وزوّد عليه الصلاة والسلام هذا الجيش جراباً من التمر، فساروا حتى إذا وصلوا الساحل، أقاموا فيه نحو نصف شهر ينتظرون العدو، وقد فني زادُهم حتى أكلوا الخَبَط، وهو ورق السَّمُر، يبلُّونه بالماء ويأكلونه إلى أن تقرّحت أشداقهم، ....

سَمُرة. اهـ[1].

قوله: (وفي رجب)؛ أي: من هذه السنة، وهي سنة ثمان.

(أرسل عليه السلام أبا عبيدة...) إلخ: قال في «زاد المعاد»: وهو عندي وهم[2].

ونقل عن الصحيحين من حديث جابر: أنهم أرسلوا لرصد عير لقريش[3]، وبعد أن ذكر الحديث بتمامه قال: وهذا السياق يدل على أن هذه الغزوة كانت قبل الهدنة، وقبل عمرة الحديبية؛ فإنه من حين صالح أهل مكة بالحديبية لم يكن يرصد لهم عيراً، بل كان زمن أمن وهدنة إلى حين الفتح، ويبعد أن تكون سرية الخبط على هذا الوجه مرتين: مرة قبل الصلح، ومرة بعده. اهـ[4].

لكن نقل الدحلاني أنها كانت في رجب سنة ثمان بعد نكث قريش العهد، وقبل فتح مكة، وأن هذه السرية أرسلت لتلقى عيراً لقريش[5]، والله أعلم.

---

(١) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: سمر).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٨٩).

(٣) رواه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥).

(٤) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٣٩٠).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤٦).

وكان في القوم الكريمُ ابنُ الكريم قيسُ بنُ سعد بنِ عبادة، فنحر لهم ثلاث جزر، في كل يوم جزور. وفي اليوم الرابع أراد أن ينحر، فنهاه رئيسه أبو عبيدة؛ لأن قيساً كان أخذ تلك الجُزُر بدينٍ على أبيه، فخاف أبو عبيدة ألّا يفي له أبوه بما استدان، فقال قيس: أترى سعداً يقضي ديون الناس، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟ ولما يئسوا من لقاء عدوهم، رجعوا إلى المدينة، فقال قيس بن سعد لأبيه: كنت في الجيش فجاعوا، فقال: انحر، قال: نحرت، . . . .

قوله: (وكان في القوم الكريم ابن الكريم قيس بن سعد. . .) إلخ: سبب التسمية كما في الحلبي: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه ما فعل قيس فقال: «إنه في بيت جود، إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت»[1].

ومن ثم قال بعضهم: لم يكن في الأوس والخزرج مطعمون يتوالدون في بيت واحد إلا قيس، وأبوه سعد، وأبوه عبادة، وأبوه دليم، كان في كل يوم يقف شخص على أطم ينادي: من يريد الشحم واللحم، فعليه بدار أبي دُلَيم، وكان أصحاب الصفَّة إذا أمسوا، انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين والرجل بالجماعة، وأما سعد، فينطلق بالثمانين. اهـ[2].

قوله: (لأن قيساً كان أخذ تلك الجزر بدين على أبيه): سببه كما في الدحلاني: أنهم لما أصابهم جوع شديد، قال قيس: من يشتري مني تمراً بالمدينة بجزر تجزر هنا؟ فقال رجل من جهينة: من أنت؟ فانتسب، فعرفه الجهني، فقال:

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٤١٥) من حديث رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ، دون قوله: «إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت»، وهذه الزيادة أوردها الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٦/ ١٧٨) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، وعزاها لابن خزيمة.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).

قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نحرت، قال: ثم جاعوا، قال: انحر، قال: نُهيت[1].

عرفت نسبك، فابتاع منه خمس جزائر بخمسة أوسق، وأشهد له نفراً من الصحابة، وامتنع عمر ـ رضي الله عنه ـ؛ لكون قيسٍ لا مال له، فقال الأعرابي: ما كان سعد ليقصر بابنه، وأرى وجهاً حسناً وفعلاً شريفاً، فأخذ قيس الجزر، فنحر لهم ثلاثة، كل يوم جزور، فلما كان اليوم الرابع، نهاه أميره، فقال: عزمتُ عليك ألا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟ فقال قيس: يا أبا عبيدة! أترى أبا ثابت ـ يعني: أباه ـ يقضي ديون الناس، ويحمل الكَلَّ، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي عني تمر القوم المجاهدين في سبيل الله؟! فكاد أبو عبيدة يلين، وجعل عمر يقول: اعزِم، فعزم عليه، فبقيت جزوران، فقدم بهما قيس المدينة ظهراً يتعاقبون عليهما، وبلغ سعداً مجاعة القوم، فقال: إن يكن قيس كما أعرف، فسينحر لهم، فلما لقيه قال: ما صنعت في مجاعة القوم؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نهيت، قال: ومن نهاك؟ قال: أبو عبيدة أميري، قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي، وإنما المال لأبيك، فقال: لك أربعُ حوائط أدناها تجدُّ منه خمسين وسقاً، وقدم الجهني مع قيس، فأَدّاه أوسقه، وحمله وكساه.

فبلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فعلُ قيس، فقال: «إن الجود من سمة أهل ذلك البيت»[2].

وقيل: إن قيساً نحر قبل الثلاث ستّاً مما كان معه من الظهر، ثم ثلاثاً من

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٩/ ٤١٤) من حديث رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وفيه: «إنه في بيت جود» بدل «إن الجود من سمة أهل ذلك البيت».

إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه، وأزال موانعه؛ فقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذلُّ العرب حتى تذلَّ قريش، ولا تَنقاد البلاد حتى تنقادَ مكة، فكان يَتَشَوَّف لفتحها، ولكن كان يمنعه من ذلك العهودُ التي أعطاها قريشاً في الحديبية، وهو سيدُ من وَفَّى، ....

التي اشتراها من الجهني. اهـ[1].

وفي الحلبي: ويذكر أن سعداً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من عذيري من ابن الخطاب يبخِّل عليِّ ابني؟ اهـ[2].

أقول: لا تستغرب ـ رعاك الله ـ بعد وجود هذه السجايا العالية، وتلك المزايا الكريمة في هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وأن تفوق الأمم وتسودَها وتستولي عليها، وتُخضعها لسلطانها، وتجعلها[3] تدخل في دين الله أفواجاً، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

غزوة الفتح الأعظم

قوله: **(غزوة الفتح الأعظم)**: عنون (فتحُ مكة): بـ (الفتح الأعظم)؛ لأنه صار سبباً لإشراق شمس الإسلام، وسطوع أنواره، ودخول الناس في دين الله أفواجاً؛ لأن قريشاً أشرفُ القبائل وأعظمها، وأشدها شكيمة، والناس في جزيرة العرب لهم تبع، يقومون لقيامهم، ويقعدون لقعودهم وينقادون لهم، وهم موضع احترامهم، فسببَ هذا الفتحُ خضوعَ جميع جزيرة العرب وإسلامها، فأصبح

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٤٦).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٠٤)، والخبر المذكور أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٦/ ١٧٨).

(٣) في الأصل: «ونجعلها»، والصواب المثبت.

ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه؛ فقد علمتَ أن قبيلة خُزاعة دخلت في عهد رسول الله، وقبيلة بني بكر دخلت في عهد قريش، . . . .

أهلها كتلة واحدة مجتمعين بعد الشتات، متحدين بعد التفرق، وصاروا كالبنيان المرصوص، ونشأ عن اتحاد قواهم وجمعِ كلمتهم فتحُ الممالك المجاورة لهم، وخضوعُها لسلطانهم، ونشرُ دينهم ولغتهم في أهلها، فكان لهذا الفتح تأثير عظيم في انتشار هذا الدين المبين، وإشراق نوره في الآفاق، وظهوره على الدين كله، فلا غرابة إذاً إذا سماه المصنف: (الفتح الأعظم)، فهو جدير بذلك، وحقيق بما هنالك.

قوله: (أن قبيلة خزاعة دخلت في عهد رسول الله): سبب دخولها في العهد: أن عبد المطلب بن هاشم جدَّ النبي صلى الله عليه وسلم كانت في يده ساحات وأفنية، فأخذها منه عمه نوفل بن عبد مناف، فاضطرب عبد المطلب واستنهض قومه، فلم ينهض معه أحد منهم، وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، وكتب إلى أخواله بني النجار، فجاءه منهم سبعون راكباً، فأتوا نوفلاً، وقالوا له: وربِّ البنية! لتردنَّ على ابن أختنا ما أخذتَ، وإلا ملأنا منك السيف، فرده، ثم حالفَ خزاعةَ بعد أن حالف نوفلٌ بني أخيه عبد شمس، وكان صلى الله عليه وسلم يعلم بذلك الحلف؛ فإنهم أوقفوه على كتاب عبد المطلب، وقرأه عليه أبيُّ بنُ كعب بالحديبية[1].

وبعد أن ساق الحلبي صورة العهد قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أعرفني بحقكم وأنتم على ما أسلفتم[2] عليه من الحلف»[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣ ـ ٤).

(٢) في «المغازي» للواقدي: «أسلمتم».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٢٨).

وكان بين خزاعة وبني بكر دماء في الجاهلية كمنت نارُها بظهور الإسلام، فلما حصلت الهدنة، وقف رجل من بني بكر يتغنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعي، فقام هذا وضربه، فحرّك ذلك كامنَ الأحقاد، وتذكر بنو بكر ثأرهم، فشدّوا العزيمة لحرب خصومهم، واستعانوا بأوليائهم من قريش، فأعانوهم سرّاً بالعُدّة والرجال، ثم توجهوا إلى خزاعة وهم آمنون، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين، ولما رأى ذلك حلفاءُ السيد الأمين صلى الله عليه وسلم، ....

قوله: (وكان بين بني خزاعة وبكر دماء...) إلخ: شروع في بيان سبب نقض العهد.

ونقل الدحلاني سبباً آخر لذلك، قال: إنه قد كان بين بني بكر بن عبد مناة ابن كنانة وبين خزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة، خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر ومعه جماعة من قبيلة بني الديل حتى بيَّت خزاعة وهم على ماء لهم يسمى: الوتير بأسفل مكة، فأصاب منهم رجلاً يقال له: منبه، واستيقظت لهم خزاعة، فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم، ولم يتركوا القتال، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة وهي قوله: لا إله له اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري! إنكم لتسرفون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه. اهـ[1].

قوله: (فأعانوهم سرّاً بالعدة والرجال...) إلخ: من الرجال: صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل ابن عمرو، وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك ـ رضي الله عنهم ـ.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥١).

أرسلوا منهم وفداً برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش، فلما حَلُّوا بين يديه، وأخبروه، قال: «والله! لأمنعنكم مما أمنع نفسي منه».

قوله: **(أرسلوا منهم وفداً)**: كان الوفد في أربعين راكباً من خزاعة، فيهم بديلُ بن ورقاء الخزاعي.

قال الحلبي: ولما قدم الوفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل المسجد؛ وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين الناس، وقال من أبيات:

يا ربّ إني ناشدٌ محمدَا

حلفَ أبينا وأبيه الأتلَدَا

إن قريشاً أخلفوكَ الموعِدا

ونقضوا ميثاقَك المؤكَّدا

هم بيَّتُونا بالوتير هُجَّدَا

وَقتَّلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

فقال صلى الله عليه وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم»[1]، ثم قال له ولأصحابه: «ارجعوا وتفرقوا في الأودية»[2]، فرجعوا وتفرقوا، وذهبت فرقة إلى الساحل، وفرقة لزمت الطريق، وقصد بذلك صلى الله عليه وسلم إخفاء مجيئهم إليه[3].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٥٢٠) عن المسور بن مخرمة ـ رضي الله عنه ـ، ومروان بن الحكم.

(٢) أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٥ ـ ٦).

أما قريش، فإنهم لما رأوا أن ما عملوه نقضٌ للعهود التي أُخذت عليهم، ندموا على ما فعلوا، وأرادوا مداواة هذا الجرح، فأرسلوا قائدَهم أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشدّ العَقْد، ويزيدَ في المدّة، فركب راحلته، وهو يظن أنه لم يسبقه أحد، حتى إذا جاء المدينة، نزل على أم المؤمنين أم حبيبةَ بنتهِ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطوته عنه فقال: يا بنيّة! أرغبتِ به عني، أم رغبتِ بي عنه؟ فقالت: ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس، . . . .

قوله: (فأرسلوا قائدهم أبا سفيان. . .) إلخ: هذا بعد خلاف طويل مبسوط في الحلبي والدحلاني، وأخيراً اتفقوا على هذا[1].

قوله: (ليشد ويزيد في المدة): هذا من كلامه صلى الله عليه وسلم، ففي الحلبي: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدوم أبي سفيان: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدَّ العقدَ ويزيدَ في المدة، وهو راجع بسخطه»[2].

قوله: (أرغبتِ به) الضمير للفراش؛ كما هو مصرح في الحلبي، [و] في ابن هشام، وغيره[3].

قوله: (فقالت: ما كان لك. . .) إلخ: العبارة في ابن هشام[4]: هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤ ـ ٦)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

(٢) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٤٩)، وابن حزم في «جوامع السيرة» (ص: ٢٢٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٠).

(٤) في الأصل: «إبراهيم» بدل «ابن هشام»، والصواب المثبت.

فقال: لقد أصابك بعدي شر. ثم خرج من عندها، وأتى النبيَّ في المسجد، وعرض عليه ما جاء له، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هل كان من حَدَث؟» قال: لا، فقال عليه الصلاة والسلام: «فنحن على مدتنا وصلحنا». ولم يزد عن ذلك. فقام أبو سفيان، ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش لعلّهم يساعدونه على مقصده، فلم يجد منهم مُعيناً، . . . .

على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لقد أصابك يا بنيةُ بعدي شر. اهـ[1].

قوله: (لقد أصابك بعدي شر) في الدحلاني: لما قال لها ذلك قالت له: بل هداني الله للإسلام، فأنت يا أبت سيدُ قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر[2]؟! وا عجباً منك يا أبت! فقال: أنا أترك ما كان يعبد آبائي، وأتبع دينَ محمد![3].

قوله: (ومشى إلى أكابر المهاجرين. . .) إلخ؛ أي: والأنصار أيضاً؛ فإنه لما قام أبو سفيان من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ، فكلمه أن يكلم له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ما أنا بفاعل، وفي رواية قال له: تكلم محمداً، أو تجير بين الناس؟ فقال: جواري في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقال: أنا أشفع لكم؟ والله! لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به.

وفي رواية: قال له: ما كان من حلفنا جديداً فأخلفه الله، وما كان متيناً فقطعه الله، وما كان منه مقطوعاً، فلا وصله الله، فقال أبو سفيان: جوزيت من ذي رحم شرّاً، ثم دخل على عليّ، فكان ملخص جوابه كذلك ـ وهو مبسوط في

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥٥).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٩/ ١٥١) عن هشام الكعبي.

وكلهم قالوا: جِوارنا في جِوار رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً، فاتهموه بأنه خانهم واتَّبعَ الإسلام، فتنسّك عند الأوثان لينفي عن نفسه هذه التهمة.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتجهز للسفر، وأمر أصحابه بذلك، وأخبر الصدّيقَ بالوجهة، فقال له: يا رسول الله! أوَ ليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: «نعم، ولكن غدروا ونقضوا»[٢].

الحلبي والدحلاني ـ ، ثم أتى سعدَ بنَ عبادة الأنصاريَّ ـ رضي الله عنه ـ، فقال: يا أبا ثابت! إنك سيد هذه البحيرة، فأجرْ بين الناس، وزد في المدة، فقال سعد: جواري في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما يجير أحد عليه[٣].

قوله: (فاتهموه بأنه خانهم)؛ أي: لأن غيبته كانت قد طالت، فاتهمته قريش أشد التهمة، وقالوا: قد صبأ واتبع محمداً سرّاً وكتم إسلامه[٤].

قوله: (فتنسك عند الأوثان): قال الدحلاني: أعلمته زوجته هند ليلة مجيئه بتهمة قريش له، فلما أصبح، حلق رأسه عند إساف ونائله، وذبح لهما، ومسح بالدم رؤوسهما، وقال: لا أفارق عبادتكما حتى أموت[٥]، وأراد بذلك

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) عن حزام بن هشام بن حبيش عن أبيه.

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٨) عن محمد بن جبير بن مطعم.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥٥)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٠) عن موسى بن عقبة.

(٤) أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٧).

(٥) أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٧).

ثم استنفر عليه الصلاة والسلام الأعراب الذين حول المدينة، وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة»، فقدم جمع من قبائل أسلمَ وغِفارٍ ومُزَينةَ وأشجعَ وجُهينةَ[1].

وطوى عليه الصلاة والسلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر، فتعلمَ قريش فتستعدَّ للحرب، والرسولُ عليه الصلاة والسلام لا يريد أن يُقيم حرباً بمكة، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحُرمتها، فدعا مولاه ـ جلّ ذكرهُ ـ، وقال: «اللهمّ خُذِ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نبغَتَها في بلادها»[2]، فقام حاطبُ بنُ أبي بلتعة أحدُ الذين شهدوا بدراً، . . . .

أن تبرئه قريش مما اتهمته به من قولهم: إنه صبأ. اهـ[3].

قوله: (لا يريد أن يقيم حرباً بمكة)؛ أي: حرمةً لها، وإبقاءً لنفوس قريش الذين هم قومه، ورجاء أن يُسْلِموا ويُخرج الله منهم النسلَ الكثير، ويكونوا عوناً له على نشر هذا الدين، وقد حقق الله آماله.

قوله: (حتى نبغتها)؛ أي: نأتيها بغتةً؛ أي: على غفلة من أهلها.

قال الحلبي: وفي رواية: قال: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فجأة»[4]، وأخذ بالأنقاب ـ أي: الطرق؛ أي: أوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ـ وقال لهم: «لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه»[5].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٣٢٢) عن سعيد بن عطاء بن أبي مروان. وانظر: «المغازي» للواقدي (٢/ ٢٤٠).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٢).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥٦).

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١١) عن موسى بن عقبة.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠)، والخبر المذكور أورده =

وكتب كتاباً لقريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على جُعْلٍ، فأعلم الله رسولَه ذلك، فأرسل في أثرها علياً والزبير والمقداد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخ؛ فإن بها ظَعِينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلَقوا حتى أتوا الروضةَ، فوجدوا بها المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب، أو لنُلقينَّ الثياب، فأخرجته من عِقَاصِها، فأتوا به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: يا رسول الله! لا تعجل عليّ، إني كنت حليفاً لقريش، ولم أكن من أَنْفُسِها، وكان مَنْ معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، . . . . .

قوله: (يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. . .) إلخ: كان في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، أما بعد: يا معشر قريش! فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل، فوالله! لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم، والسلام. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (ولم أكن من أنفُسِها): بضم[2] الفاء وكسر السين.

قال الدحلاني: وفي رواية: ولكني كنت امرأً ليس لي في القوم أصل

= الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٣٨).

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥٨)، والخبر المذكور أورده السهيلي في «الروض الأنف» (٤/ ١٥١).

(٢) في الأصل: «بفتح»، والمثبت يقتضيه ما في اليونينية، قال القسطلاني في «إرشاد الساري» (٥/ ١٤٢): (أنفُسها) بضم الفاء في اليونينية، وفي الفرع: بفتحها مصلحاً.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أَمَا إنه قد صدقكم». فقال عمر: دعني يا رسولَ الله أضربْ عنقَ هذا المنافق، فقال: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلّ الله اطَّلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»، وفي ذلك أنزل الله في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم . . . .

ولا عشيرة، وكان لي بين أظهُرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه[1].

قوله: (أما إنه قد صدقكم) ـ بفتح الهمزة والتخفيف، وبفتح همزة (أن) ـ، وهي هنا بمعنى حقّاً كما في «مغني اللبيب»[2].

قوله: (اعملوا ما شئتم. . .) إلخ: لما قال ذلك، فاضت عينا عمر ـ رضي الله عنه ـ. اهـ. نسفي[3].

قوله تعالى: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾): حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، والتقدير: لا تتخذوهم أولياء ملقين إليهم بالمودة.

وقوله: (﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾)؛ أي: بأسباب المحبة، وقيل: معناه: تلقون إليهم أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، فيكون مفعول ﴿تُلْقُونَ﴾ محذوفاً. اهـ. نسفي وخازن[4].

وقوله: (﴿وَقَدْ كَفَرُواْ . . .﴾) إلخ: حال من ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو من ﴿تُلْقُونَ﴾؛ أي: لا تتولوهم أو توادوهم وهذه حالهم.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٥٨)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٤) عن عروة بن الزبير وغيره.

(٢) انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام (ص: ٧٨ ـ ٧٩).

(٣) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٣٦).

(٤) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٣٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٢٨٠).

﴿مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الممتحنة: ١][1].

ثم سار عليه الصلاة والسلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولّى على المدينة ابنَ أُم مكتوم، . . . .

وقوله: (﴿مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾)؛ أي: القرآن.

وقوله: (﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾) استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم.

وقوله: (﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾)؛ أي: لأن تؤمنوا، فهو تعليل لـ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾؛ أي: يخرجونكم من مكة لإيمانكم.

وقوله: (﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ﴾) متعلق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾؛ أي: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

وقوله: (﴿جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي﴾) مصدر في موضع الحال؛ أي: إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي.

وقوله: (﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ . . .﴾) إلخ: استفهام إنكاري، والمعنى: أي طائل لكم في إسراركم، وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سِيَّانِ في علمي، وأنا مُطْلِعٌ رسولي على ما تسرون؟!

وقوله: (﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ﴾)؛ أي: هذا الإسرار وإلقاء المودة إليهم.

(﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾) فقد أخطأ طريق الحق والصواب. اهـ. نسفي[2].

قوله: (في منتصف رمضان) في الدحلانية: خرج عليه السلام من المدينة

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٧، ٤٢٧٤)، ومسلم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

وكانت عدّة الجيش عشرةَ آلاف مجاهد، ولما وصل الأبواءَ، لقيه اثنان كانا من أشدّ أعدائه، وهما: ابنُ عمه أبو سفيانَ بنُ الحارث بنِ عبد المطلب شقيقُ عبيدةَ بنِ الحارث شهيدِ بدر، وصهرهُ عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة شقيقُ زوجه أُم سلمة، وكانا يريدان الإسلام، فقبلهما عليه الصلاة والسلام، وفرح بهما شديد الفرح، وقال: «﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ . . .

لعشر ليال خلون من رمضان بعد العصر سنة ثمان، وقيل: لليلتين، وقيل: لست عشرة، وقيل: ثمان عشرة، قال «النور»[1]: لا أعلم خلافاً في أن ذلك في شهر رمضان؛ أي: وإنما الخلاف فيما مضى منه حين الخروج[2].

قوله: (وهما: ابن عمه أبو سفيان. . .) إلخ: في الدحلانية: وكان كل منهما من أشد الناس أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعرض عنهما لما لقياه؛ لما كان يلقى منهما من شدة الأذى والهجو، فالتمسا الدخول عليه صلى الله عليه وسلم، فكلمته أم سلمة في شأنهما، فلم يأذن لهما، وبين لها ما كان يلقاه منهما، فلما خرج إليهما الخبر، قال أبو سفيان: والله! ليأذنن لي، أو لآخذنَّ ابني هذا ـ يعني: ولده جعفراً ـ ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً.

فلما بلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، رق لهما، ثم أذن لهما، فدخلا عليه وأسلما. اهـ. ملخصاً[3].

قوله تعالى: (﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾)؛ أي: لا لوم عليكم.

---

(١) في الأصل و«السيرة النبوية» لدحلان: «النووي»، والتصويب من «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٣)، والمقصود: «نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس» لسبط ابن العجمي.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦١)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ١٥٦) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٩٢]». ولما وصل عليه الصلاة والسلام الكَدِيد، رأى أن الصوم شقَّ على المسلمين، فأمرهم بالفطر، وأفطر هو أيضاً، وقد قابل عليه الصلاة والسلام في الطريق عمَّه العباسَ بنَ عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله، فأمره أن يعود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة.

ولما وصل عليه الصلاة والسلام مرّ الظهران، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار، . . . .

قوله: (الكديد): قال الدحلاني: هو ـ بفتح الكاف ـ: موضع بين قديد وعسفان[1].

قوله: (وأفطر هو أيضاً. . .) إلخ: قال الدحلاني: لم يزل مفطراً رفقاً بالمسلمين حتى انسلخ الشهر؛ لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر، لكنه كان في أهبة القتال وبعث السرايا، ولم ينو الإقامة، ولذا كان يقصر الصلاة. اهـ[2].

قوله: (وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس): في الدحلانية: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجُحْفَة، وكان إسلامه قديماً، وكان يكتمه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وأمره بالإقامة بمكة؛ ليكتب له أخبار قريش، وكان يسره ما يفتح الله على المسلمين، وما أظهر إسلامه لأهل مكة إلا يوم الفتح، وكان مقيماً على سقايته، وكان ينفع المستضعفين بمكة، ولما لقيه قال: «هِجْرتُك يا عم آخر هجرة؛ كما أن نبوتي آخرُ نبوة». اهـ[3].

قوله: (أوقد عشرة آلاف نار)؛ أي: لتراها قريش، أو تسمع بها، فترعب من كثرتها.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦١).

وكانت قريش قد بلغهم أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تـدرَى وجهتُـه، فأرسلوا أبا سفيان بنَ حرب، وحكيمَ بن حزام، وبُدَيل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبلوا يسيرون حتى أتـوا مَـرَّ الظهران، فإذا هم بنيران كأنها نيران عَرَفـة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنهـا نيران عَرَفة، فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سـفيان: عمـرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسولَ الله، فأسلم أبو سفيان، . . . .

قوله: **(نيران بني عمرو)**؛ أي: خزاعة.

قوله: **(فرآهم ناس من حرس رسول الله)** كان على الحرس تلك الليلـة عمـر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: **(فأسلم أبو سفيان)**: تفصيل ذلـك كمـا فـي ابـن هشـام: أن النبـي صلى الله عليه وسلم لما نزل مر الظهران قال العباس بن عبد المطلـب: فقلـت: وا صباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال: فجلست على بغلة رسـول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء، فخرجت عليها حتى جئت الأراك، فقلت لعلـي: أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجـة يـأتي مكـة فيخبـرهم بمكـان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ليخرجـوا إليـه فيستأمنـوه قبل أن يدخلهـا عليهم عنوة، قال: فوالله! إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت لـه، إذ سـمعت كـلام أبي سفيان وبديـل بن ورقـاء وهمـا يتراجعـان، وأبـو سفيـان يقـول: مـا رأيـت كالليلـة نيراناً قط ولا عسكراً، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشها الحـرب ـ أي: جمعها، وفي السهيلي: وقول بديل: (حمشتهم الحرب)، يقال: حمـش الرجل: إذا أغضبته، وحمشت النار: إذا أوقدتها، ويقال: حمست بالسين[1] ـ

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٥٦).

قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفتُ صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فعرف صوتي، فقال: يا أبا الفضل![1]، قال: قلت: نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، وا صباح قريش والله! قال: فما الحيلة؟ قال: قلت: والله! لئن ظفر بك، ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيَ بك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا: عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته[2].

ثم قال: ولما دخلت به على النبي صلى الله عليه وسلم، قال لي: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت، فأتني به»، فلما أصبح، غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك! والله! لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً، قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله! فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلمْ واشهدْ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر،

(١) كذا في الأصل، وفي «السيرة النبوية» لابن هشام: «فقال: أبو الفضل؟».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٨ ـ ٥٩).

فلما سار قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند خَطْم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين»، فحبسه العباس . . . .

فاجعل له شيئاً، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»[1].

قوله: (عند خطم الجبل): قال في «النهاية»: وفي حديث الفتح قال للعباس: «احبس أبا سفيان عند حطم الجبل»[2]، هكذا جاءت في كتاب أبي موسى، وقال: حُطِم الجبل: الموضع الذي حطم منه؛ أي: ثُلم فبقي منقطعاً، قال: ويحتمل أن يريد عند مضيق الجبل حيث يزحم بعضهم بعضاً.

ورواه أبو نصر الحميدي في كتابه بالخاء المعجمة، وفسرها في «غريبه» فقال: الخطم والخطمة: رعن الجبل، وهو الأنف النادر منه.

والذي جاء في كتاب البخاري وهو أخرج الحديث فيما قرأناه ورأيناه من نسخ كتابه: «عند حطم الخيل»[3]، هكذا مضبوطاً، فإن صحت الرواية به، ولم يكن تحريفاً من الكتبة؛ فيكون معناه ـ والله أعلم ـ: أنه يحبسه في الموضع[4]

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٥٩ ـ ٦٠)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، وأبو داود (٣٠٢٢)، من حديث ابن عباس عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه البغوي في «شرح السنة» (١١/ ١٤٩) عن عروة بن الزبير.

(٣) رواه البخاري (٤٢٨٠) من حديث عروة بن الزبير، وقال القسطلاني في «إرشاد الساري» (٦/ ٣٩٠): (حطم الخيل): ـ بالحاء والطاء الساكنة المهملتين ـ، و(الخيل) ـ بالخاء المعجمة بعدها تحتية ـ؛ أي: ازدحامها، وللأصيلي وأبي ذر عن المستملي: (خطم): ـ بالخاء المعجمة ـ، (الجبل) ـ بالجيم والموحدة ـ؛ أي: أنف الجبل؛ لأنه ضيق فيرى الجيش كله، ولا يفوته رؤية أحد منه.

(٤) في الأصل: «المواضع»، والتصويب من «النهاية في غريب الحديث».

فجعلت القبائل تمرّ كتيبةً كتيبة على أبي سفيان، وهو يسأل عنها ويقول: ما لي ولها؟ حتى إذا مرّت به قبيلة الأنصار، وحامِلُ رايتها سعدُ بن عبادة، فقال سعد: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة، اليومَ تُستَحلُّ الكعبة. فقال أبو سفيان: يا عباس! حبذا يومُ الذِّمار. ثم جاءت كتيبة، وهي أقلُّ الكتائب. . .

المتضايق الذي تتحطم فيه الخيل؛ أي: يدوس بعضها بعضاً، ويزحم بعضها بعضاً، فيراها جميعها، وتكثر في عينه بمرورها في ذلك الموضع الضيق.

وكذلك أراد بحبسه عند خطم الجبل على ما شرحه الحميدي؛ فإن الأنف النادر من الجبل يضيق الموضع الذي يخرج فيه. اهـ[1].

وقوله: (كتيبة كتيبة): الكتيبة: القطعة من الجيش.

قوله: (يقول: مالي ولها؟)؛ أي: ما كان بيني وبينهم حرب. اهـ. «شرقاوي على مختصر البخاري».

قوله: (اليوم يوم الملحمة)؛ أي: الحرب والقتال.

قوله: (حبذا يوم الذمار)؛ أي: حبذا يوم الهلاك، تمنى أبو سفيان أن يكون له قوة، فيحمي قومه ويدفع عنهم، وقيل: معناه: هذا يوم الغضب للحريم والأهل، والانتصار لهم لمن قدر عليه، قال ذلك غلبة وعجزاً. اهـ. دحلاني[2].

قوله: (وهي أقل الكتائب) قال الحلبي: وفي رواية الحميدي: (وهي أجل الكتائب) ـ بالجيم[3] ـ، قال في الأصل[4]: وهي أظهر من رواية:

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٠٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٠).

(٣) انظر: «الجمع بين الصحيحين» للحميدي (٣/ ٣٢٦)، ورواه البخاري (٤٢٨٠) من حديث عروة بن الزبير بلفظ: وهي أقل الكتائب.

(٤) المراد بـ (الأصل): «عيون الأثر» لابن سيد الناس، فقد قال نور الدين الحلبي =

فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحاملُ الرايـة الزبيـرُ بـنُ العوام، . . . .

(أقل)[1]؛ لأنها كانت خاصة المهاجرين، فيها رسول الله صلى الله عليـه وسـلم. اهـ[2].

ويشهد لهذه الرواية أيضاً: ما ذكره الدحلاني: أن الناس كانوا يمرون علـى أبي سفيان، وهو يقول عند مرور كل قبيلة: ما مر محمد؟ فيقول العباس: لا، حتـى أقبلت كتيبة لم ير مثلها؛ إذ في كل بطن فيها لواء، وهم في الحديد لا يُرى مـنهم إلا الحدق، فيهم ألفا دارع، وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقـال أبـو سـفيان: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة[3].

ثم قال: وفي رواية: قال أبو سفيان: سبحان الله يـا عبـاس! مـن هـؤلاء؟ قال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، فقال: مـا لأحـد بهـؤلاء طاقة، والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، فقـال: يـا أبـا سفيان! إنها النبوة، قال: نعم إذن[4].

وقـد ذكـر الدحلاني قبـل ذلك عـدد كـل قبيلـة، ولـم تجاوز قبيلـة منهم

= في مقدمة كتابه «السيرة الحلبية» (١/ ٥): وحيث أقول: قال في الأصـل، أو ذكـر في الأصل، أو نحو ذلك، فالمراد به «عيون الأثر».

(١) انظر: «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/ ١٨٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٣) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦) عن أبي عمرو بن حماس. ورواه البخاري (٤٢٨٠) من حديث عروة بن الزبير بنحوه.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، والخبـر المـذكور رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨) عن ابن عباس، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ.

فأخبر أبو سفيان رسولَ الله بمقالة سعد. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذبَ سعد، ولكن هذا يومٌ يُعظِّم الله فيه الكعبةَ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة». ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن تركز رايتُه بالحَجُون، وأمر خالدَ بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كُدًى، ودخل هو من أعلاها من كَدَاء[1]، ونادى مناديه: «مَن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[2].

الألف[3]، فتكون الكتيبة التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي كان فيها ألفا دارع أجلَّ الكتائب، لا أقلَّها.

قوله: (فأخبر أبو سفيان رسول الله): قال الدحلاني: وقيل: إن الذي سمع مقالة سعد هما عثمان، وعبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ، فقالا: يا رسول الله! ما نأمنُ أن تكون لسعد صولة في قريش، فقال لعلي: «أدركْهُ فخذِ الراية منه»[4]، ثم أمره أن يسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادة، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الراية لم تخرج عنه حيث صارت لابنه[5].

قوله: (ودخل هو من أعلاها من كداء): في الدحلاني: لما دخل صلى الله عليه وسلم عام الفتح؛ رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر، فتبسم والتفت إلى أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وقال: «يا أبا بكر! كيف قال حسان؟»، فأنشده قوله:

---

(١) رواه البخاري (٤٢٨٠) من حديث عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كَداء، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم من كُدا.

(٢) رواه أبو داود (٣٠٢٢) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٤) أورده ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٦٦).

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٠).

وهذه أعظم منّة له، واستثنى من ذلك جماعةً عظُمت ذنوبُهم، وآذَوا الإسلام وأهلَه عظيمَ الأذى، فأهدر دمهم ـ وإن تعلقوا بأستار الكعبة ـ منهم: عبدالله بن سعد بن أبي سَرْح الذي أسلم، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، ثم ارتدّ، وافترى الكذب على الأمين المأمون، فكان يقول: إن محمداً كان يأمرني أن أكتب: عليم حكيم، فأكتب: غفور رحيم، فيقول: كلٌّ جيد.

عدمتُ بنيتي إن لم تروها ... تثير النقعَ موعدُها كَداءُ

يُنازِعْنَ الأعنَّةَ مُسْرَجاتٍ ... يلطِّمُهنَّ بالخُمُرِ النساءُ

فقال صلى الله عليه وسلم: «أدخلوها من حيث قال حسان». اهـ[1].

قوله: (الذي أسلم)؛ أي: قبل الفتح، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، وكان صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه: سميعاً بصيراً؛ كتب: عليماً حكيماً، وإذا أملى عليه: عليماً حكيماً؛ غفوراً رحيماً، وكان يفعل مثل هذه الخيانات، حتى صدر عنه أنه قال: إن محمداً لا يعلم ما يقول، فلما ظهرت خيانته، لم يستطع أن يقيم بالمدينة، فارتدَّ وهرب إلى مكة، ولما كان يوم الفتح، وعلم بإهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه؛ لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة، فاستأمن له، ثم أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه، فصار عثمان يقول: يا رسول الله! أمنته؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، ثم قال: «نعم»، فبسط يده فبايعه، وتمامه في الحلبي[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٢)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٦٦)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ١٠): إسناده حسن.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٦ ـ ٣٧).

قال السهيلي: ثم أسلم وحسن إسلامُه، وعُرف فضلُه وجهاده، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا الأساود من النوبة، ثم هادنهم، فلما خالف محمد بن أبي حذيفة على عثمان؛ اعتزل الفتنة، ودعا الله أن يقبضه، فقبضت نفسه وهو في الصلاة بعد التسليمة الأولى، وكانت وفاته بعسفان. اهـ. ملخصاً[1].

قوله: (ومنهم: عكرمة بن أبي جهل): قال الحلبي: إنما أمر بقتله؛ لأنه كان أشدَّ الناس هو وأبوه أذية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولما بلغه أنه أهدر دمه، فر إلى اليمن، فاتبعته امرأته بنتُ عمه أمُّ حكيم بنتُ الحارث بن هشام بعد أن أسلمت، واستأمنت له، فردته إلى مكة بعد أن قالت له: يا ابنَ عم! جئتك من عند أوصلِ الناس، وأبرِّ الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك؛ فقد استأمنتُ لك، فجاء معها فأسلم وحسن إسلامه، وقُتل ـ رضي الله عنه ـ في اليرموك في قتال الروم. اهـ. ملخصاً[2].

قوله: (وصفوان بن أمية): سيأتي في كلام المصنف أنه استأمن له عُمَيرُ ابن وهب، وأنه طلب مهلة شهرين لينظر في أمر نفسه، وأمهله النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أشهر.

قال الحلبي بعد ذكره ذلك بنحو ما ذكره المصنف هناك: ثم خرج صفوان مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين، ولما فرق صلى الله عليه وسلم غنائمها بالجعرانة؛ رآه صلى الله عليه وسلم يرمق شعباً ملآناً نعماً وشاءً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يعجبك هذا؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، فقبض

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٧٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٩)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٧٦) عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ.

صفوان ما في الشعب، وقال: ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نبي، فأسلم[1].

قوله: (وهبار): ضبطه في «القاموس» ـ بفتح الهاء وتشديد الباء[2] ـ، وقد أسلم ـ رضي الله عنه ـ كما سيأتي.

قال الحلبي: وإنما أمر صلى الله عليه وسلم بقتله؛ لأنه كان عرض لزينبَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفهاء قريش حين بعث بها زوجُها أبو العاص إلى المدينة، فأهوى إليها هبار، ونخس بعيرَها.

وفي رواية: ضربها بالرمح، فسقطت من على الجمل على صخرة، وكانت حاملاً، فألقت ما في بطنها، وأهرقت الدماء، ولم يزل بها مرضُها ذلك حتى ماتت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لقيتم هباراً فاحرقوه»، ثم قال: «إنما يعذب بالنار ربُّ النار، فإن ظفرتم به، فاقطعوا يده ورجله، ثم اقتلوه»[3]، فلم يوجد يوم الفتح، ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. اهـ[4].

وسيأتي في كلام المصنف في الفصل الآتي ما قاله للنبي صلى الله عليه وسلم حين إسلامه.

قوله: (والحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية): قال الدحلاني: وأما الحارث بن هشام المخزومي، وهو أخو أبي جهل شقيقه؛ فإنه كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وكذا زهير بن أبي أمية المخزومي أخو

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٣)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٧٩) عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (مادة: هبر).

(٣) رواه البيهقي في «معرفة السنن والآثار» (٦/ ٤٤٤ ـ ٥٥٦) عن ابن أبي نجيح بمعناه، وقال: وهذا منقطع.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٨ ـ ٣٩).

أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ. فإنه كان شديداً في كفره، فأهدر دمهما صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فهربا واختفيا في بيت أم هانئ بنتِ أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ، فأجارتهما، فأجاز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جوارها، ثم جاءت بهما فأسلما، وحسن إسلامهما.

روى الإمام أحمد وغيره عن أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ قالت: لما كان يوم الفتح، فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم ـ أي: من أقارب زوجي؛ لأنها كانت تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي ـ، فدخل عليَّ عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فقال: والله! لأقتلنهما، فأغلقتُ عليهما بيتي، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآني قال: «مرحباً وأهلاً بأم هانئ، ما جاء بك؟»، فأخبرتُه خبر الرجلين، وخبرَ علي ـ رضي الله عنه ـ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ»[1].

والمشهور أن إسلام أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ كان عام الفتح، وقيل: أسلمت قديماً، وكانت تكتم إسلامها.

وعن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ قال: لما أجارتني أم هانئ ـ رضي الله عنها ـ، وأجاز النبي صلى الله عليه وسلم جوارها؛ صار لا يتعرضني أحد بعد ذلك، وكنت أخشى عمر بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فمر عليَّ وأنا جالس، ولم يتعرض لي، وكنت أستحي أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لما أذكر برؤيته إياي ما كنت أفعله في كل موطن مع المشركين، فلقيته وهو داخل المسجد، فلقيني بالبشر، ووقف حتى جئته فسلمتُ عليه، وشهدت شهادة الحق، فقال: «الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام»[2]، ثم صار بعد ذلك

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٤٢) بنحوه. ورواه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦) بنحوه.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٢١٠) مختصراً.

من فضلاء الصحابة. اهـ[1].

قوله: (وكعب [بن] زهير) سيعقد المصنف له فصلاً على حدة.

قوله: (ووحشي قاتل حمزة): قال الدحلاني: وأما وحشيُّ بنُ حرب، فأهدر صلى الله عليه وسلم دمه، لكونه قتل عمَّه حمزةَ ـ رضي الله عنه ـ، فلما فتحت مكة، هرب إلى الطائف، قال: فكنت بالطائف، فلما خرج وفدُ الطائف ليسلموا، ضاقت عليّ المذاهب، فقلت: ألحقُ بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد، فوالله! إني لفي ذلك من همي، إذ قال لي رجل: ويحك! والله! إنه ما يقتل أحداً يدخل في دينه، فخرجت حتى قدمت عليه، فلم يرعه إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق، فلما رآني قال: «وحشي؟» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة»، فحدثته، فلما فرغت قال: «ويحك! غَيِّبْ وجهَك عني»، فكنت أتنكب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حيث كان؛ لئلا يراني حتى قبضه الله.

ثم خرج وحشي مع مَنْ خرج لقتال أهل الردة في خلافة أبي بكر ـ رضي الله عنهم ـ، فقتل مسيلمةَ الكذاب بحربته التي قتل بها حمزة ـ رضي الله عنه ـ، فكان يقول: أرجو أن تكون هذه بتلك؛ أي: هذه تكفر تلك. اهـ[2].

قوله: (وهند بنت عتبة): قال الدحلاني: وأما هند بنت عتبة بن ربيعة زوجُ أبي سفيان وأمُّ ابنه معاويةَ ـ رضي الله عنهم ـ؛ فإنما أهدر صلى الله عليه وسلم دمها؛ لأنها مثلت بعمه حمزة ـ رضي الله عنه ـ يوم أحد، فلما كان يوم الفتح، اختفت في بيت أبي سفيان، ثم أسلمت، وأتته صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٨)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٠٧٢) بنحوه.

بالأبطح، وقالت: الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتمسني رحمتُك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله، مصدقة به، فقال صلى الله عليه وسلم: «مرحباً بك»[1].

وجاء أنها لما أسلمت، عمدت إلى صنم كان في بيتها، فجعلت تضربه بالقدوم وتقول له: كنا منك في غرور، وتمامه فيه[2].

قوله: (وقليل غيرهم): قال الدحلاني: جميع من أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهم خمسةَ عشرَ شخصاً ما بين رجل وامرأة[3].

وقد ذكر المصنف هنا تسعة، والستة الباقون هم: عبدالله بن خَطَل، وقينتان كانتا عنده تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، وسارة؛ وهي مولاة لبني المطلب، والحويرث بن نقيد، ومِقْيَس بن صبابة.

أما عبدالله بن خطل، فإنه إنما أمر بقتله؛ لأنه كان ممن قدم المدينة قبل فتح مكة، وأسلمَ، وكان اسمُه عبدَ العزى، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم: عبدالله، وبعثه لأخذ الصدقة، وأرسلَ معه رجلاً من الأنصار يخدمه، فنزل منزلاً، وأمر أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام، ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم، فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان شاعراً، فجعل يهجو النبي صلى الله عليه وسلم في شعره، وكان له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يصنعه، وقد جاء أنه يوم فتح مكة ركب فرسه، ولبس درعه، وأخذ بيده قناة، وصار يقسم: لا يدخلها محمد عنوة، فلما رأى خيل الله، دخله الرعب، فانطلق إلى الكعبة، فنزل عن فرسه، وألقى سلاحه، ودخل تحت أستارها، فأخذ رجل

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٧٦) عن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٥).

سلاحه، وركب فرسه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون، فأخبره، فأمره بقتله.

وقيل: لما طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة قيل: هذا ابنُ خطل متعلقاً بأستار الكعبة، فقال: اقتلوه؛ فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حد واجب، فقتله سعيدُ بن حريث، وأبو برزة الأسلمي، وقيل: الزبير، وقيل: سعيد بن ذؤيب، وقيل: سعد بن زيد[1]، والظاهر أنهم اشتركوا في قتله جميعاً، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتل قينتيه، فقتلت إحداهما، واستؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للأخرى، فأمنها[2].

وأما سارة، فإنما أهدر دمها؛ لأنها كانت مغنية تغني بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي كان معها كتاب حاطب بن أبي بلتعة، وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة وتطلب الصلة، فقال لها صلى الله عليه وسلم: «ما كان في غنائك ما يغنيك؟» فقالت: إن قريشاً منذ قُتل من قُتل منهم ببدر تركوا الغناء، فوصلها، وأوقر لها بعيراً طعاماً، فرجعت إلى مكة[3].

وكان ابن خطل يلقي إليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتغني به، فاختفت عند فتح مكة، ثم استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءته وأسلمت، وحسن إسلامها[4].

وأما الحويرث بن نُقَيد ـ بنون وقاف مصغراً ـ ابن وهب بن عبد بن قصيّ،

---

(١) في الأصل: «سعيد»، والتصويب من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٦).

(٣) انظر: «المغازي» للواقدي (٢/ ٢٨٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٤).

ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل، فأما جيشُ خالد بن الوليد، فقابله الذُّعرُ من قريش يريدون صدّه، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين، . . . .

فإنما أهدر صلى الله عليه وسلم دمه؛ لأنه كان يُعظِم القولَ فيه صلى الله عليه وسلم، وينشر الهجاء فيه، ويكثر أذاه وهو بمكة، وكان العباس ـ رضي الله عنه ـ حمل فاطمة وأم كلثوم ـ رضي الله عنهما ـ بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة، فنخس الحويرث بهما الجمل، فرمى بهما الأرض، وشارك هبارَ بنَ الأسود في نخس جمل زينبَ ـ رضي الله عنها ـ لما هاجرت، فأهدر صلى الله عليه وسلم دمه، فقتله عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ، وذلك أنه سأل عنه وهو في بيته، وقد أغلق عليه بابه، فقيل: هو في البادية، فتنحى عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ عن بابه، فخرج يريد أن يهرب من بيت إلى آخر، فتلقاه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ، فضرب عنقه.

وأما مِقْيَسُ بنُ صُبابة، فإنه كان أسلم، ثم أتى على أنصاري فقتله، وكان الأنصاري قتل أخاه هشامَ بنَ صبابة خطأً في غزوة ذي قَرَد، ظنه من العدو، فجاء مقيسٌ فأخذ الديةَ، ثم قتل الأنصاريَّ، ثم ارتدَّ ورجع إلى قريش، فأهدر صلى الله عليه وسلم دمه، فقتله غيلةُ بنُ عبدالله الليثي. اهـ. دحلاني[1].

ومِقْيَس كمنبر. «قاموس»[2].

قوله: (فقابله الذعر): صوابه: الزعر ـ بالزاي ـ؛ أي: أهل الشراسة.

قوله: (وأما جيش خالد): قال الدحلاني: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في قبائل منها قضاعة وسليم وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، فاندفع خالد حتى دخل مكة من هذه الجهة، وقد

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٩).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قيس).

وقُتل من جيشه اثنان، ودخلها عَنْوة من هذه الجهة، وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يصادف مانعاً، وهو عليه الصلاة والسلام راكبٌ راحلتَه، منحنٍ على الرحل تواضعاً لله، وشكراً له على هذه النعمة حتى تكاد جبهتُه تَمَسُّ الرَّحْل، وأسامةُ بن زيد رديفُه، وكان ذلك صبحَ يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان حتى وصل الحَجُون موضع رايته، وقد نُصبتْ له هناك قبة فيها أُمّ سلمة وميمونةُ، فاستراح قليلاً، . . . .

تجمع بها ناس من بني بكر، وبني الحارث بن عبد مناف، وناس من هُذيل الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالداً، ومنعوه الدخول، وشهروا السلاح في وجهه، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوةً، فصاح خالد في أصحابه، فقاتلهم، فانهزموا أقبح الانهزام، وقتل من بني بكر نحو أربعة وعشرين رجلاً، ومن هذيل أربعة، حتى انتهى بهم القتال إلى الحَزْوَرَة، وكانت سوقاً بمكة، ثم دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال هرباً، وتبعهم المسلمون، فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان: يا معشر قريش! علام تقتلون أنفسكم؟ من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح في الطرق، فيأخذه المسلمون. اهـ. ملخصاً[1].

قوله: **(وقتل من جيشه اثنان)** قال الدحلاني: هما حُبيش بنُ الأشعر الخزاعي أخو أم معبد، وكرزُ بن جابر الفهري[2].

قوله: **(راكب راحلته)**: قال الدحلاني: روى البخاري عن عبدالله بن عمر: أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القصواء مُردِفاً أسامةَ بنَ زيد خلفه[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٣).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٤).

(٣) رواه البخاري (٢٩٨٨).

ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى بلغ البيت، وطاف سبعاً على راحلته، واستلم الحجر بمحجنه، وكان حول الكعبة إذا ذاك ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل عليه الصلاة والسلام يطعنها بعودٍ في يدِه، ويقول: «جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ، وما يُبْدِئُ الباطِلُ وما يُعيدُ»، ثم أمر بالآلهة فأُخرجت من البيت! وفيها صورة إسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطّ»[1].

ثم قال: وفي رواية: ودخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الجمعة معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ـ وفي رواية: عمامة سوداء خرقانية ـ واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى حين رأى ما رأى من فتح الله، وكثرةِ المسلمين، وهو يقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة»، اهـ[2].

قوله: (فجعل عليه السلام يطعنها بعود في يده. . .) إلخ: قال الحلبي: جاء صلى الله عليه وسلم ومعه قضيب، فجعل يهوي به إلى كل صنم منها، فيخر لوجهه، وفي لفظ: لقفاه، وفي لفظ: فما أشار لصنم من ناحية وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع على وجهه من غير أن يمسه بما في يده، يقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]»، حتى مر عليها كلها[3].

قوله: (في أيديهما الأزلام): في «القاموس»: هي سهام كانوا يستقسمون

---

(١) رواه البخاري (٤٢٨٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٧٢)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٥٨) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٦٣) عن عبدالله بن أبي بكر.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٨)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

وهذا أول يوم طُهّرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة وبطهارة الكعبة المقدسة عند جميع العرب باديها وحاضرها من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب إلا قليلاً. ويوشك أن نذكر للقارئ اختفاء آثارها، ومحوَ عبادتها بالكلية.

العفو عند المقدرة

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة، وكبَّر في نواحيها، . . .

بها في الجاهلية[1].

وفي «المصباح»: الزُّلَم ـ بفتح اللام، وتضم الزاي[2] وتفتح ـ: القدح: وجمعهُ أزلام، وكانت العرب في الجاهلية تكتب عليها الأمر والنهي، وتضعها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً، أدخل يدَه، وأخرج قدحاً، فإن خرج ما فيه الأمر، مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي، كَفَّ[3].

والقِدْح ـ بالكسر ـ: اسمُ السهم قبل أن يُراش ويركب نصلُه. اهـ[4].

العفو عند المقدرة

قوله: (دخل الكعبة)؛ أي: وصلَّى بها ركعتين بين العمودين اليمانيين، وفي لفظ: المقدمين، وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع. اهـ. حلبي[5].

قال السهيلي: وأما دخوله عليه السلام، وصلاته فيها؛ فحديثُ بلال

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زلم).

(٢) في الأصل: «اللام»، والتصويب من «المصباح المنير».

(٣) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: زلم).

(٤) انظر: «المصباح المنير» للفيومي (مادة: قدح).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣١).

ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلّى فيه ركعتين، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد، والناس حوله، والعيون شاخصة إليه، ينتظرون ما هو فاعل بمشركي قريش الذين آذوه، وأخرجوه من بلاده وقاتلوه، ولكن هنا تظهر مكارم الأخلاق، التي يلزم أن يتعلم منها المسلم: أن يكون رضاه وغضبه لله، لا لهوى النفس، فقال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، ....

أنه صلى فيها[1]، وحديث ابن عباس أنه لم يصل فيها[2]، وأخذ الناس بحديث بلال؛ لأنه أثبتَ الصلاةَ، وابنُ عباس نفى، وإنما يؤخذ بشهادة المثبِت، لا بشهادة النافي، وتمامه فيه[3].

قوله: (ثم خرج إلى مقام إبراهيم وصلى فيه)؛ أي: ركعتين.

قال الحلبي: وكان المقام ملاصقاً للكعبة، ثم أخره[4].

قوله: (ثم شرب من ماء زمزم): قال الحلبي: ثم انصرف صلى الله عليه وسلم إلى زمزم، فاطلع فيها، وقال: «لولا أن تُغلب بنو عبد المطلب ـ أي: يغلبهم الناس على وظيفتهم، وهي النزعُ من زمزم ـ لنزعتُ منها دلواً»[5]، وانتزع له العباس ـ رضي الله عنه ـ، فشرب منه وتوضأ، فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم، وفي لفظ: لا تسقط قطرة إلا في يد إنسان إن كان قدر ما يشربها شربها، وإلا، مسح بها جلده، والمشركون يقولون: ما رأينا ولا سمعنا ملكاً قط بلغ هذا. اهـ[6].

(١) رواه البخاري (١١٦٧)، ومسلم (١٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٦٠١)، ومسلم (١٣٣٠).

(٣) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٧٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٢).

(٥) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٢).

أخ كريم، وابنُ أخ كـريم، فقـال عليـه الصـلاة والسـلام: «اذهبـوا فـأنتم الطُّلقاء». ويرحم الله الإمام البوصيري حيث قال:

وإذا كـان القَطْـعُ والوصـلُ لله تسـاوى التَّقريـبُ والإقصـاء

وسـواءٌ عليـه فيمـا أتَـاهُ مَـنْ سَـرَّهُ المـلامُ والإطـراءُ

قوله: (أخ كريم وابن أخ كريم): القائل: سهيل بن عمرو، والعبارة في الحلبي هكذا: لما خرج صلى الله عليه وسلم من الكعبة يوم الفتح، وضع يده على عضاتي الباب ثم قال: «ماذا تقولون؟ ماذا تظنون أني فاعل فيكم؟» قالوا: خيراً، فقال سهيل بن عمرو: ونقول خيراً، ونظن خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قد قدرت، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1]؛ أي: الذين أُطلقوا فلم يُسترقوا ولم يؤسروا، والطليق في الأصل: الأسير إذا أُطلق.

فخرجوا، فكأنما نُشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام. اهـ[2].

وما نقلناه عن الحلبي من قوله صلى الله عليه وسلم: «ماذا تقولون؟ ماذا تظنون؟» هو من جملة خطبته الطويلة التي سيذكر المصنف بعضها بعد أسطر.

قوله: (التقريب)؛ أي: للأقارب والبعداء.

وقوله: (الإقصاء)؛ أي: الإبعاد للأقارب والبعداء، ولم يميز بأحدهما قريب ولا أجنبي؛ لأن النظر لرضا الله وامتثال أمره.

وقوله: (عليه)؛ أي: الذي تقريبه وإقصاؤه لله لا غير.

وقوله: (الملام)؛ أي: السب والتنقيص.

وقوله: (والإطراء)؛ أي: المبالغة في المدح حتى بغير الواقع.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٧٣ـ ٧٤) عن بعض أهل العلم بنحوه. ورواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٦١) عن قتادة بنحوه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٩).

ولـــو أنَّ انتقامـــه لهـــوى النفـــ ـــسِ لـــدامتْ قطيعـــةٌ وجفـــاءُ

قـــام لله فـــي الأمـــور فأرضـــى اللهَ منـــــــه تَبـــــــايُنٌ ووفـــــــاءُ

فِعْـــلُه كلُّـــه جميـــلٌ وهـــل يَنْـــ ـــضَحُ إلا بمـــا حَـــواهُ الإنـــاءُ[1]

وقوله: (قطيعة)؛ أي: للرحم.

وقوله: (وجفاء)؛ أي: إبعاد لها.

وقوله: (تباين) فاعل لـ (أرضى) أي تباين لأعداء الله.

وقوله: (ووفاء)؛ أي: لأولياء الله تعالى من غير تعويل على حظ سوى رضا ربه.

وقوله: (كله جميل)؛ أي: لصدوره على أمتن قوانين الاعتدال، وأحقِّ موازين الكمال.

وقوله: (ينضح)؛ أي: يسيل مما فيه على ظاهره؛ أي: لا ينضح الإناء إلا بما فيه، فمن امتلأ إناء قلبه خيراً، كانت أفعاله المشبهة بما ينضحه الإناء كلها خيراً، ومن امتلأ إناء قلبه شرّاً، كانت أفعاله كلها شرّاً، وهذا من التذييل، وهو أن يأتي بُعيدَ تمام الكلام بجملة تشتمل على معناه تجري مجرى المثل لتوكيد الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[سبأ: ١٧]، ومنه قول النابغة الذبياني:

ولَسْـــتَ بمســـتبقٍ أخـــاً لا تَلُمُّـــه على شَـعَثٍ أيُّ الرجـال المهـذب[2]

وفيه التلميح إلى المثل السائر، وهو: وكل إناء بما فيه ينضح. اهـ. ابن حجر على «شرح الهمزية»[3].

---

(١) انظر: «المنح المكية في شرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٥٥).

(٢) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ٧٤).

(٣) انظر: «المنح المكية بشرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٤٦٥ ـ ٤٦٨).

ثم خطب عليه الصلاة والسلام خطبةً أبان فيها كثيراً من الأحكام الإسلامية، منها: ألّا يُقتَل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملَّتين مختلفتين، ولا تُنكَح المرأة على عمتها أو خالتها، والبينةُ على مَن ادّعى، واليمينُ على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم، ولا صلاة بعد الصبح والعصر، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: «يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نَخْوة الجاهلية وتَعَظُّمَها بالآباء، والناسُ من آدم، وآدمُ من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . . . .

قوله: (ثم خطب عليه السلام خطبة. . .) إلخ: قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: فحدثني بعض [أهل العلم](1): أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام على باب الكعبة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانةَ البيت وسقايةَ الحاج، ألا وقتيلُ(2) الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة؛ مئة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادُها.

(يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية. . . إلخ) ما ذكره المصنف(3).

قال في «مختصر النهاية»: النخوة: الكِبْر والعُجْب والأَنفة والحمية(4).

قوله: (﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾)؛ أي: من آدم وحواء، وكل واحد منكم من أب

---

(1) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لابن هشام.

(2) في الأصل: «وإلا قتيل»، بدل «ألا وقتيل»، والمثبت من «السيرة النبوية» لابن هشام.

(3) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٧٣).

(4) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٥/ ٣٣).

وأم، فما منكم من أحد إلا وهو يُدلي بمثل ما يدلي به الآخر سواء بسواء، فلا معنى للتفاخر والتفاضل في النسب. اهـ. نسفي[١].

قال الواحدي في «أسباب النزول»: قال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس، وقوله في الرجل الذي لم يفسح له: ابن فلانة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من الذاكر فلانة؟» فقام ثابت فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «انظر في وجوه القوم»، فنظر، فقال: «ما رأيت يا ثابت؟» فقال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى»، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

وقال مقاتل: لما كان يوم فتح مكة، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى أذن على ظهر الكعبة، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غيرَ هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل عليه السلام النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا، فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء. اهـ[٣].

قوله تعالى: (﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾): الشعوب: جمع شَعْب ـ بفتح الشين ـ، وهي رؤوس القبائل؛ مثل: ربيعة ومضر والأوس والخزرج، سموا شعوباً؛ لتشعب القبائل منهم، وقيل: لتجمعهم.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ١٦٧).

(٢) رواه البغوي في «تفسيره» (٤/ ٢١٧).

(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٩٤ ـ ٣٩٥). وانظر: «تفسير مقاتل ابن سليمان» (٣/ ٢٦٣).

﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣][(١)].

ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام، . .

والشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الستِّ التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعَمارة ـ بفتح العين ـ، والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل، وخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب؛ لأن القبائل تشعبت منها.

وبعد الفصيلة العشائر، واحدتها عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء يوصف.

وقيل: الشعوب للعجم، والقبائل للعرب، والأسباط من بني إسرائيل.

وقوله تعالى: (﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾)؛ أي: ليعرف بعضُكم بعضاً في قرب النسب وبُعده، لا للتفاخر بالأنساب.

ثم بين الخَصْلة التي بها يفضل الإنسان على غيره، ويكتسب بها الشرف عند الله تعالى، فقال:

(﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾): في الحديث: «من سره أن يكون أكرم الناس، فليتق الله»، وقيل: أكرمُ الكرم التقوى، وألأمُ اللؤم الفجور. اهـ. نسفي وخازن[(٢)].

قوله: (ثم شرع الناس يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم): في

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٧٤) عن بعض أهل العلم. وروى أبو داود (٥١١٦)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ نحوه.

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٤/ ١٦٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١٨٤).

الحلبية: وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح على الصفا يبايع الناس، فجاءه الكبار والصغار، والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام؛ أي: على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ودخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً[1].

قوله: (وممن أسلم في هذا اليوم: معاوية)؛ أي: أظهر إسلامَه.

قال في الحلبية: روي عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: لما كان عام الحديبية، وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي، فقالت: إياك أن تخالف أباك فيقطعَ عنك القوت، فأسلمتُ وأخفيت إسلامي، فقال لي يوماً أبو سفيان: أخوك خير منك، هو على ديني، فلما كان يوم الفتح، أظهرت إسلامي، ولقيته صلى الله عليه وسلم، فرحب بي، وكتبتُ له؛ أي: بعد أن استشار فيه جبريلَ عليه السلام، فقال: «استكتبه؛ فإنه أمين»[2].

وأردفه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً خلفه، فقال: «ما يليني منك؟» قلت: بطني، قال: «اللهم املأه حلماً وعلماً»[3].

وعن العرباض بن ساريةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية: «اللهم علمه الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب»[4]، وتمامه فيها[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٣).

(٢) رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٣١) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٨٨) من حديث معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) رواه الآجري في «الشريعة» (١٩١٠).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٣ ـ ٤٤).

وأبو قُحافةَ والد الصدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ، وقد فرح الرسول صلى الله عليه وسلم كثيراً بإسلامه.

وجاء رجل يرتعد خوفاً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هَوِّنْ عليك؛ فإني لستُ بملِك، ....

قوله: (وممن أسلم: أبو قحافة والدُ الصديق): في الحلبية: لما جلس رسول الله في المسجد، والناس حوله، خرج أبو بكر وجاء بأبيه ـ رضي الله عنه ـ يقوده، وقد كان كُفَّ بصرُه، فلما رآه صلى الله عليه وسلم قال: «هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه»، فقال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، فأجلسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: «أسلم تسلم»، فأسلم[1].

وهنأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بإسلام أبيه، وعند ذلك قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي بعثك بالحق! لإسلامُ أبي طالب كان أقرَّ لعيني من إسلامه، وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقرَّ لعينك[2]، كذا في «الشفاء». اهـ[3]، وتمامه فيها[4].

قوله: (يرتعد)؛ أي: يضطرب، والاسم الرعدة ـ بالكسر والفتح ـ. «قاموس»[5].

وقوله: (هون عليك)؛ أي: سَهِّل عليك وخفف.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٣٤٩) من حديث أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٣٢٧).

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٢٢).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رعد).

إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[1].

أما الذين أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمهم، فقد ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، فمنهم من حقّت عليه كلمة العذاب فقُتِل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فعبدُالله بنُ سعد بن أبي سرح لجأ إلى أخيه من الرضاع عثمانَ بنِ عفان، وطلب منه أن يستأمن له رسولَ الله، فغيبه عثمان حتى هدأ الناس، ثم أتى به وقال: يا رسول الله! قد أمنتُه فبايعْه، فأعرض عنه عليه الصلاة والسلام مراراً، ثم بايعه، فلما خرج عثمان وعبدُالله قال عليه الصلاة والسلام: «أعرضتُ عنه ليقومَ إليه أحدُكم فيضرب عنقَه»، فقالوا: هلاّ أشرتَ إلينا؟ فقال: «لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنةُ الأعين»[2].

وأما عكرمة بن أبي جهل، فهربَ، فخرجتْ وراءه زوجتُه وبنتُ عمه أُمّ حكيم بنتُ الحارثِ بنِ هشام، وكانت قد أسلمتْ يوم الفتح، وقد أخذت له أماناً من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحقته، وقد أراد أن يركب البحر، فقالت: جئتك من عند أبرّ الناس، وخيرِهم، لا تهلِكْ نفسَك، وإني قد استأمنته لك، فرجع، ولما رآه عليه الصلاة والسلام، . . . .

في «القاموس»: هوَّنه الله: سهَّله وخفَّفه[3].

و(القديد): اللحم المملوح المجفف في الشمس، فعيل بمعنى مفعول. اهـ. «نهاية»[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١٢٦٠) من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود (٢٦٨٣) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هون).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٢٢).

وثـب قائماً فرحاً بـه، وقال: «مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً»، ثم أسلم ـ رضي الله عنه ـ، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستغفر له كل عداوة عاداه إيّاها، فاستغفر له[1]، وكان ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلـك مـن خيرة المسلمين، وأغيرِهم على الإسلام.

وأما هبَّار بنُ الأسود فهرب، واختفى، حتى إذا كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالجِعِرَّانة، جاءه مسـلماً، وقـال: يـا رسـول الله! هربـتُ منـك وأردتُ اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمّن جهـل عليك، وكنا يا رسول الله أهلَ شرك، فهدانا الله بـك، وأنقـذنا مـن الهلكـة، فاصفح الصفح الجميل، فقال عليه الصلاة والسلام: «قد عفوتُ عنك»[2].

وأما الحارث بن هشام، وزهيرُ بن أبي أمية المخزومي، فأجارتهمـا أم هانىء بنتُ أبي طالب، فأجاز عليه الصلاة والسلام جِوارها، ولما قابل رسولُ الله الحارثَ بنَ هشام مسلماً، قال له: «الحمد لله الذي هداك، ما كـان مثلُك يجهل الإسلام»[3]، وقد كان بعد ذلك من فُضَلاء الصحابة.

وأما صفوان بن أمية، فاختفى، وأراد أن يذهب ويلُقي نفسه في البحر، فجاء ابن عمه عُميرُ بن وهب الجُمحيُّ وقال: يا نبي الله! . . . .

قوله: (ثـم ذكـرتُ عائـدتَك): العائـدة: المعـروف والصـلة، والعطـف والمنفعة. اهـ. «قاموس»[4].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٦٢ ـ ٦٤) عن الزهري.

(٢) أورده ابن حجر في «الإصابة» (٦/ ٥٢٦)، وعزاه للواقدي من حديث جبيـر بـن مطعم ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٢١٠) من حديث عبدالله بن عكرمة.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: عود).

إن صفوانَ سيد قومه، هرب ليقذف نفسه في البحر، فَأَمِّنْهُ، فإنك قد أمّنت الأحمر والأسود، فقال عليه الصلاة والسلام: «أدركِ ابنَ عمك، فهو آمنٌ» فقال: أعطني علامة، فأعطاه عِمامته، فأخذها عُميرٌ حتى إذا لقي صفوان، قال له: فداك أبي وأمي، جئتك من عند أفضل الناس، وأبرّ الناس، وأَحلم الناس، وخير الناس، وهو ابنُ عمك، وعزُّه عزُّك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال صفوان: إني أخاف على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة علامةَ الأمان، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: إن هذا يزعم أنك أمّنتني؟ قال: «صدق» قال: أمهلني بالخيار فيه شهرين، قال: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر»، ثم أسلم ـ رضي الله عنه ـ، وحسن إسلامه[1].

وأما هند بنتُ عتبةَ، فاختفت، ثم أَسلمت، وجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرحبَ بها، وقالت له: واللهِ يا رسول الله! ما كان على ظهر الأرض أهلُ خباء أحبّ إليّ أن يذلُّوا من أهل خبائك، ثم ما أَصبح اليوم أهلُ خباء أحبّ إليّ أن يعزُّوا من أهل خبائك[2].

وفود كعب بن زهير

وأما كعبُ بنُ زهير، فلما ضاقت به الأرض، . . . .

وفود كعب بن زهير

قوله: (وفود كعب بن زهير): هو كعب بنُ زهير بنِ أبي سُلْمى ـ بضم السين ـ بن رِياح ـ بكسر الراء وفتح الياء المثناة ـ، وينتهي نسبه إلى معد بن

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٦) عن الزهري.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٢٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

عدنان. كان كعب من فحول شعراء العرب المجيدين، وكذلك أخوه بُجَبير، لكن كان كعب أشعرَ من بُجير، وكان زهير أبوهما أشعر منهما.

وكان لكعب ابنان شاعران جليلان؛ أحدهما: عقبة، والآخر: العوام، وكان كعب ممن هجا النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، خرج ناس هاربين، ومن جملتهم كعبٌ وأخوه بجير، فخرجا من مكة، حتى أتيا إلى أبرق العَزَّاف ـ رملة بالحجاز لبني سعد، وقيل: ماء لبني أسد بين المدينة والربذة على عشرين ميلاً من المدينة الشريفة ـ، فلما وصلا لذلك المكان، قال بجير لكعب: اثبت في الغنم هنا حتى آتي هذا الرجل فأسمع كلامه، وأعرف ما عنده، هل هو مما يستملح ويلوحُ صدقُه فأتبعه، أم لا فأتركه، فأقام كعب هناك، ومضى بجير، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فسمع كلامه وآمن به، وأقام عند النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك لأخيه كعب، فشق عليه إسلامُ بجير، فكتب إليه بهذه الأبيات:

ألا أبلغِا عني بُجَيراً رسالة ... فهل لك فيما قلتَ ويحك هل لكا

سقاك بها المأمونُ كأساً رويَّة ... فأنهلكَ المأمونُ منها وعَلَّكا

ففارقتَ أسبابَ الهدى واتبعتَه ... على أيِّ شيء وَيْبَ غيرِك دَلَّكا

على مذهبٍ لم تُلْفِ أمّاً ولا أباً ... عليه ولم تعرفْ عليه أخاً لكا

فإن أنتَ لم تفعلْ فلستُ بآسِفٍ ... ولا قائلٍ إمَّا عثرتَ لَعاً لكا

قوله: (فهل لك...) إلخ؛ أي: هل لك إرادة فيما قلته من كلمة الشهادة؟

وقوله: (ويحك): كلمة ترحُّم تقال فيمن وقع في مهلكة لا يستحقها، فترحم عليه.

وأراد بـ(المأمون): النبيَّ صلى الله عليه وسلم؛ فقد كانت قريش تسميه:

المأمون، والأمين، فهو كما قيل:

ومليحةٍ شهدت لها ضَرَّاتُها والفضلُ ما شهدَتْ به الأعداءُ[1]

وقوله: (فأنهلَكَ المأمون)؛ أي: فأسقاك، والنَّهل ـ بالتحريك ـ: الشربُ الأول.

وقوله: (وعَلَّكا)؛ أي: وأسقاك منها عللاً، والعلَل ـ بالتحريك ـ: الشرب الثاني.

وقوله: (ويبَ غيرِك)؛ أي: هلكتَ هلاكَ غيرِك، فالويب: الهلاك، وهو بالنصب على إضمار الفعل.

وقوله: (فإن أنت لم تفعل): ما قلته لك من الرجوع للمذهب الذي كان عليه أبوك وأمك وأخوك.

وقوله: (لعاً لكا)؛ أي: لا أدعو لك بالسلامة من العثرة؛ لغضبي عليك، فإن (لعاً لك) كلمة دعاء للعاثر بالسلامة من عثرته، وهو دعاء له بأن ينتعش.

فلما وقف بجير عليها، أخبر بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: «من لقي كعباً فليقتله»، فأهدر صلى الله عليه وسلم دمه، فكتب بجير إليه ـ بعد أبيات ـ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمك[2].

فلما بلغ كعباً الكتاب، أتى إلى مزينةَ ـ لتجيره من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبت ذلك، فضاقت عليه الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فقال هذه القصيدة يمدح فيها رسول الله

---

(١) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٨٣)، ولم يُسمِّ قائله.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٤٧٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، عن عبد الرحمن بن كعب بن زهير بن أبي سلمى.

ولم يجد له مجيراً، جاء المدينةَ بعد أن قَدِمها رسولُ الله من مكة، فأسلم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

صلى الله عليه وسلم، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة، فأتى به إلى المسجد، ثم أشار [له][1] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [هذا رسول الله][2]، فقم إليه فاستأمِنْه، فقام إليه حتى جلس بين يديه، فوضع يده في يده، ثم قال: يا رسول الله! إن كعب بنَ زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟ قال: «نعم»، قال: أنا يا رسول الله كعب[3].

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله! دعني وعدَّو الله أضربْ عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعه عنك، فقد جاءنا تائباً نازعاً»[4]؛ أي: خارجاً من الكفر؛ لأنه أسلم، ثم أنشد قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

بانَتْ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ ... متيم إثرها لم يُفْدَ مكبولُ

ثم أنشد القصيدة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسمع، ومنها الأبيات التي ذكرها هنا المصنف[5].

---

(١) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لابن هشام.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لابن هشام.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٨١ ـ ١٨٢).

(٤) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٨٢) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٥) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٧٤ ـ ٧٨)، و«الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٣ ـ ٥).

وقـالَ كـلُّ صـديقٍ كنـتُ آملُـهُ: لا أُلْهِيَنَّـكَ إنـي عنـكَ مشـغولُ
فقلتُ: خَلُّـوا سـبيلي لا أبـا لَكُـمُ فكـلُّ مـا قَـدَّر الـرحمنُ مفعـولُ
كلُّ ابن أُنثـى وإن طالـتْ سـلامتُهُ يومـاً علـى آلـةٍ حـدباءَ محمـولُ

قوله: (كنت آمله)؛ أي: آمُلُ خيرَه، أو معونته؛ لأن الذوات لا تؤمل.

و**(ألهينك)** ـ بضم الهمزة ـ؛ من (ألهى) بمعنى: شغل.

وجملة **قوله: (إني عنك مشغول)** موضع التعليل لما قبله، فإن كان التعليل على طريق الاستئناف؛ فـ (إن) مكسورة، وإن كان على إضمار لام التعليل؛ فـ (أن) مفتوحة الهمزة؛ أي: لأني مشغول عنك بأمور نفسي، فلا تطلب مني نصرة ولا معونة[1].

قوله: (خلوا سبيلي)؛ أي: اتركوا طريقي، لا تحبسوني عن المثول بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فيمضي فيَّ حكمه.

وقوله: (لا أبا لكم) كلمة تستعمل للمدح والذم، و(لا) نافية للجنس، و(أبا) اسمها منصوب بالألف لكونه مضافاً للكاف، واللام زائدة لتأكيد معنى الإضافة، فهي مقحمة بين المتضايفين.

وقوله: (فكل ما قدر. . .) إلخ: الفاء للتعليل، وكأنه يتيقن أن ما قدره الله له أو عليه لا بد أن يستوفيه، لا محيد عنه، ولا براح له عن استيفائه[2].

قوله: (على آلة حدباء): الآلة: النعش، وهو السرير الذي يحمَل عليه الميتُ، والحدباء: تأنيث أحدب، معناها هنا قيل: الضيقة، وقيل: المرتفعة، ومنه: الحدب من الأرض[3].

---

(١) انظر: «الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٦٤).
(٢) انظر: «الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٦٤ ـ ٦٥).
(٣) انظر: «الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٦٦).

نُبِّــــئتُ أَن رســـولَ اللهِ أَوْعَـــدَني　　　والعَفْــوُ عنــدَ رســولِ اللهِ مــأمولُ

مهلاً هداكَ الذي أعطاك نافلـةَ الــ　　　ــــقرآنِ . . . .

قوله: (أنبئت) جميع ما تقدم توطئة لهذا البيت[1]؛ فإن غرضه التنصلُ والاستعطاف، والوعد: في الخير، والإيعاد: في الشر، ولذا قال بعض العرب في دعائه: يا من إذا وعد وفى، وإذا أوعدَ عفا، قال الشاعر:

وإنـــي إذا أوعدتُـــه أو وعدتُـــه　　　لمخلفُ إيعـادي ومنجِـزُ موعـدي[2]

وقوله: (والعفو. . .) إلخ: الواو للحال، وإنما أعاد ذكرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لإظهار التعظيم، وللإشعار بالتفخيم، ولأن فيه تكرارَ الاعتراف بالرسالة، وهو مستجلِبٌ للعفو، ومقتضٍ للرضا[3].

قوله: (مهلاً هداك): أصله: إمهالاً، وهو مصدر أُنيب عن فعله، وحذف زائداه: الهمزة والألف.

و(هداك الذي[4]) خبر لفظاً، ودعاء معنى، ومثله: غفر الله لك.

وقوله: (الذي أعطاك نافلة القرآن)؛ أي: الله الذي أنزل عليك نافلة هي القرآن، فالإضافة للبيان، وسماه نافلة؛ لأنه زائد على العلوم النبوية التي أعطاه إياها، وجعل القرآن زيادة على تلك العلوم، إذ النافلة: العطية المقطوع بها زيادة على غيرها.

---

(١) قال ابن هشام في «شرح قصيدة بانت سعاد» (ص: ٢٩٣): ويروى: نبِّئتُ، وهو بمعناه.

(٢) البيت لعامر بن الطفيل. انظر: «ديوانه» (ص: ٥٨).

(٣) انظر: «الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٦٦ ـ ٦٧).

(٤) في الأصل: «هداك الله» بدل «هداك الذي»، والتصويب من «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٢٩٥).

. . . . . . فيها مـواعيظٌ وتفصـيلُ

وقال فيها مادحاً:

إنَّ الرســولَ لسـيفٌ يُستضـاءُ بــه   مُهنَّـدٌ مــن سـيوفِ اللهِ مســلولُ[1]

ولما قال هذا البيتَ، خلع عليه الرسولُ صلى الله عليه وسلم بُردته[2].

وقوله: (فيها مواعيظ)؛ أي: في النافلة التي هي القرآن مواعيظ.

و(تفصيل)؛ أي: بتبيين ما يحتاج إليه من أمر المعاش والمعاد وأحكام الأصول والفروع للعباد[3].

قوله: (إن الرسول لسيف) هو من قبيل التشبيه البليغ، قال التبريزي: وجعله سيفاً استعارة[4].

وهذا في اصطلاح البيانيين إنما يسمَّى: تشبيهاً مؤكداً، لا استعارة؛ إذ شرط الاستعارة عندهم طيُّ المشبه[5].

وقوله: (مهند)؛ أي: منسوب إلى الهند، وإنما نسب إليه؛ لأن سيوف الهند أحسن السيوف.

قوله: (خلع عليه بردته)؛ أي: التي كانت عليه.

روي: أن معاوية بذل له فيها عشرة آلاف، فقال: ما كنتُ لأوثرَ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً[6]، فلما مات كعب، بعث معاوية إلى ورثته

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٨٩، ١٩١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٠).

(٣) انظر: «الإسعاد على بانت سعاد» للباجوري (ص: ٦٨ ـ ٦٩).

(٤) نقله ابن هشام في «شرح قصيدة بانت سعاد» (ص: ٣٠٩).

(٥) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٣٠٩).

(٦) أورده ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (٢/ ١٤٨).

بعشرين ألفاً، فأخذها منهم، وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم[1].

وعند ابن قانع عن ابن المسيب: أنها التي يلبسها الخلفاء في الأعياد[2]، لكن قال الشامي: ولا وجود لها الآن؛ لأن الظاهر أنها فقدت في وقعة التتار[3].

وقد ذكر الزبيدي[4] في «طبقات النحاة»: أن بندار كان يحفظ تسع مئة قصيدة، كل قصيدة منها: بانت سعاد[5].

وذكر السيوطي منها عشرة، منها قول زهير والد كعب:

بانت سعاد وأمسى حبلُها انقطعا ... وليتَ وصلاً لنا من حبلها رَجَعا[6]

وزهيرٌ كان من فحول الشعراء كما قدمنا، وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ لا يقدم عليه أحداً، ويقول: أشعرُ الناس: الذي يقول: ومَن، [ومَن، ومَن][7]، يشير إلى قوله في معلقته المشهورة:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ... ولو رامَ أسبابَ السماء بسُلَّم

---

(١) رواه السلفي في «الطيوريات» كما في «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص: ١٩) عن أبي عمرِو بنِ العلاء، وانظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٧٩).

(٢) رواه ابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٣٨١).

(٣) نقله الباجوري في «الإسعاد على بانت سعاد» (ص: ٦).

(٤) في الأصل: «الترمذي»، والصواب المثبت.

(٥) انظر: «طبقات النحويين واللغويين» لأبي بكر الزبيدي (ص: ٢٠٨)، وفيه: «مئة» بدل «تسع مئة»، وفي «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي (١/ ٢٩١): «سبع مئة قصيدة».

(٦) انظر: «شرح شواهد المغني» للسيوطي (٢/ ٥٢٩ ـ ٥٣١).

(٧) أورده ابن هشام في «شرح قصيدة بانت سعاد» (ص: ٧٤)، وما بين معكوفتين منه.

ومَــن يــكُ ذا مــالٍ ويَبْخَــلْ بمالــه   علــى قومــه يُســتَغْنَ عنــه ويُــذْمَمِ
ومَنْ لا يَـزَلْ يسـتحمل النـاسَ نفسَـه   ولا يُغْنِهــا يومــاً مــن الــدهرِ ينــدمِ

ويروى: يسأم.

ومن يغتـربْ يحسـبْ عـدوّاً صـديقَه   ومــن لا يُكَــرِّم نفسَــه لا يكــرَّمِ
ومن لا يَـذُدْ عـن حوضِــه بسـلاحِه   يهـدَّمْ ومـن لا يظلـمِ النـاسَ يُظْلَـمِ
ومــن لا يصــانِعْ فــي أمــورٍ كثيــرة   يضــرَّسْ بأنيــاب ويوطــأ بمنسِــمِ[1]

المَنْسِم ـ بفتح الميم وكسر السين ـ: طرف خف البعير.

وقد أفضنا ما كتبناه على وفود كعب بن زهير من شرحي «بانت سعاد» لابـن هشام الأنصاري، وللشيخ إبراهيم الباجوري.

وقال ابن هشام: ومما يستحسن من شعر كعب ـ رضي الله عنه ـ:

لو كنتُ أعجبُ مـن شـيء لأعجبنـي   سَعْيُ الفتـى وهـو مخبـوء لـه القَـدَر
يسـعى الفتـى لأمـور لـيسَ مُـدْرِكَها   والــنفسُ واحــدة والهــمُّ منتشِــرُ
والمـرء مـا عـاشَ ممـدودٌ لـه أمـلُ   لا تنتهي العينُ حتـى ينتهـي الأثـر[2]

وقوله أيضاً:

إن كنــتَ لا ترهــب ذَمِّــي لمــا   تعـرفُ مـن صـفحيِ عـن الجاهـل
فــاخشَ ســكوتي إذا أنــا منصــتٌ   فيــك لمســموعِ خَنــا القائــل

(١) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٧٤)، و«ديوان زهير بن أبـي سلمى» (ص: ٧٠).
(٢) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٧٤).

وأما وحشيٌّ قاتلُ حمزةَ، فكذلك أسلم، وحسن إسلامه، وقبله عليه الصلاة والسلام.

وقد جاءه ابنا أبي لهب: عتبةُ ومعتبٌ، فأسلما وفرح بهما عليه الصلاة والسلام.

فالسامعُ الذمَّ شريكٌ له ... ومطعِمُ المأكولِ كالآكلِ

مقالةُ السوء إلى أهلها ... أسرعُ من منحدرٍ مائلِ

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه ... ذَمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

اهـ[1].

قوله: (وأما وحشي) تقدم الكلام عليه.

قوله: (عُتْبة ومعتب): عتبة كفرقة، ومُعَتِّب كمحدث ـ بفتح الحاء وتشديد الدال مكسورة ـ.

قال الحلبي: قال صلى الله عليه وسلم لعمه العباس: «أين ابنا أخيك ـ يعني: أبا لهب ـ عتبةُ ومعتبٌ لا أراهما»، قال العباس ـ رضي الله عنه ـ: قد تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش، قال: «ائتني بهما»، فركبت إليهما فأتيت بهما، فدعاهما إلى الإسلام فأسلما، فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهما، ودعا لهما، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بأيديهما، وانطلق بهما حتى أتى الملتزم، فدعا ساعة، ثم انصرف والسرورُ يرى في وجهه صلى الله عليه وسلم، فقلت له: سرك الله يا رسول الله، إني أرى السرور في وجهك، قال: «إني استوهبت ابْني عمي هذين من ربي، فوهبهما لي»، وشهدا معه حنيناً والطائف، ولم يخرجا من مكة، ولم يأتيا المدينة، وقُلعت عين معتب في حُنين. اهـ[2].

---

(١) انظر: «شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام (ص: ٧٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٨)، والحديث المذكور رواه =

وكان من الذين اختفوا: سهيلُ بنُ عمرو، فاستأمن له ابنُه عبدُالله، فأمنه عليه الصلاة والسلام، وقال: «إن سهيلاً له عقل وشرف، . . . .

قوله: (كان من الذين استأمنوا[1] سهيلُ بن عمرو) قال الدحلاني: وممن اختفى أيضاً: سهيل بن عمرو، وكان ابنه عبدالله مسلماً، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليأخذ له أماناً، فقال صلى الله عليه وسلم: «هو آمِنٌ بأمان الله، فليظهَرْ» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: «من لقي سهيلَ بنَ عمرو، فلا يحدَّ النظرَ إليه؛ إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثلُ سهيل يجهل الإسلام»، فخرج ابنه عبدُالله إليه فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سهيل: كان ـ والله ـ برّاً صغيراً، برّاً كبيراً، ثم إنه خرج إلى حُنين وهو على شركه، ثم أسلم بالجعرانة ـ رضي الله عنه[2] ـ.

وصار من فضلاء الصحابة، حتى إن الله ثبت به أهلَ مكة يوم جاءهم خبر وفاته صلى الله عليه وسلم، فكادوا أن يرتدوا، فخطبهم خطبة مثلَ خطبة الصدِّيق رضي الله عنه بالمدينة، وقال فيها: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت[3]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[آل عمران: ١٤٤]، فثبتهم الله به، واستشهد ـ رضي الله عنه ـ في اليرموك، وقيل: توفي بالشام في طاعون عمواس. اهـ[4].

= ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/ ٦٠) من حديث العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

(١) كذا في الأصل، وفي متن «نور اليقين»: «اختفوا».

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٧٣) عن محمد بن إبراهيم.

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٢٢٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٣٦٧) عن الحسن بن محمد.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٨).

وما مثل سهيل يجهلُ الإسلام». فلما بلغت هذه المقالة سُهيلاً قال: كان ـ والله ـ بَرّاً صغيراً، برّاً كبيراً، ثم أسلمَ بعد ذلك[1] .

بيعة النساء

هذا، ولما تمت بيعةُ الرجال، بايعه النساء، وكُنّ يبايعن على ألّا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجهلنّ، ولا يعصين الرسول صلى الله عليه وسلم في معروف.

قوله: (برّاً صغيراً، برّاً كبيراً)؛ أي: عطوفاً مشفقاً.

بيعة النساء

قوله: (بايعه النساء): قال الدحلاني: جاء في رواية، أنه صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء، وفيهم هندٌ بنتُ عتبة منتقبة خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهن: «بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً. . .» إلخ ما ذكره المصنف، فقالت هند: لما قال: «ولا تسرقن»؛ قالت: والله! إني كنت أُصيب من مال أبي سفيان الهَنَة بعد الهنة ـ الهَنَة بفتح الهاء والنون: الشيء: اليسير؛ كما في «القاموس»[2] ـ وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان ـ وكان حاضراً ـ: أما ما أصبتِ فيما مضى، فأنت في حِلّ، عفا الله عنك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفَها، فقال: «وإنك لهندٌ بنتُ عتبة؟» قالت: نعم، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك يا نبيَّ الله، ولما قال: «ولا تزنين»؛ قالت: أوتزني يا رسولَ الله

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٥٢٢٥) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هنو).

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بلالاً أن يؤَذِّنَ على ظهر الكعبة، وهذا بدء ظهور الإسلام على ظهر البيت الكريم، . . . .

الحرةُ؟! ولما قال: «ولا تقتلن أولادكن» ـ وذلك إسقاطُ الأجِنَّة ـ قالت: ربيناهم صغاراً، فقتلتهم كباراً، وفي لفظ: وهل تركتَ لنا ولداً إلا قتلته يومَ بدر، فضحك عمر ـ رضي الله عنه ـ حتى استلقى على قفاه، وتبسم صلى الله عليه وسلم، ولما قال: «ولا تأتين ببهتانٍ تفترينه بين أيديكنّ وأرجلكنّ»؛ قالت: والله! إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال: «ولا تعصينني في معروف»؛ قالت: والله! ما جلسنا مجلسَنا هذا وفي أنفسنا أنا نعصيك في معروف. اهـ(1).

قال الحلبي: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: البهتان: أن تُلحق بزوجها ولداً ليس منه(2).

وجاء أن بعض النسوة قالت: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال: «لا تَصِحْن ـ وفي رواية: لا تَنُحْنَ ـ ولا تَخْمِشْنَ وجهاً، ولا تنشرْنَ شعراً ـ وفي رواية: ولا تحلقن شعراً ـ، ولا تحرقن قرناً، ولا تشققن جيباً، ولا تدعين بالويل». اهـ(3).

قوله: (أن يؤذن على ظهر الكعبة): قال الحلبي ودحلاني: كان الأذان لصلاة الظهر، وأبو سفيان وعتابُ بنُ أَسِيد ـ وفي لفظ: خالد بن أسيد ـ والحارث

---

(1) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٢٨٦)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٠/ ١٨١ ـ ١٨٢) عن مقاتل بن سليمان.

(2) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ٧٧).

(3) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٦)، والحديث المذكور رواه أبو داود (٣١٣١) من حديث أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

فلا عجب أن اتخذ المسلمون هذا اليوم عيداً يحمدون فيه الله حَقَّ حمده على هذه النعمة الكبرى والنصر العظيم.

وأقام عليه الصلاة والسلام بمكة بعد فتحها تسعةَ عشرَ يوماً يقصر فيها الصلاةَ، وولى عليها عَتَّاب بنَ أَسيد، وجعل رزقَه كل يوم درهماً، . . . . .

ابن هشام جلوس بفِناء الكعبة، فقال عتاب، أو خالدٌ أخوه: لقد أكرم الله أَسيداً أن لا يكون يسمع هذا العبدَ، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما والله! لو أعلم أنه حق لاتبعته، وفي رواية قال: ما وجد محمد غيرَ هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ ولا مانع من وجود الأمرين منه، وقال غير هؤلاء من كفار قريش: لقد أكرم الله فلاناً ـ يعني: أباه ـ إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسودَ على ظهر الكعبة، وفي لفظ: والله! الحدثُ العظيم أن يصبح عبدُ بني جُمَحَ ينهق على بيته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمتُ، لأخبرتْ عني الحصباء، فخرج عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال لهم: «لقد علمتُ الذي قلتم»، ثم ذكر لهم ذلك، فقال: «أما أنت يا فلان، فقد قلتَ كذا، وأما أنت يا فلان، فقد قلت كذا»، فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله، فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نشهد أنك رسول الله، والله! ما اطلع على هذا أحدٌ معنا فنقول: أخبرك. اهـ[1].

قوله: (هذا اليوم)، وهو العشرون من رمضان على ما قدمه المصنف.

قوله: (تسعة عشر يوماً)، وقيل: ثمانية عشر يوماً.

قوله: (وولى عليها عَتَّاب بن أَسيد): ـ بتشديد التاء، وبفتح همزة (أسيد) ـ ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أسلم عتابٌ ـ رضي الله عنه ـ يوم الفتح، فولاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة عند مخرجه إلى حنين في العشر

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٥٤)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٢٩٥)، والخبر المذكور أورده مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) بنحوه.

فكان عَتَّابٌ ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا أشبعَ الله بطناً جاع على درهم كُلَّ يوم.

الأول من شوال سنة ثمان من الهجرة، وكان عمره إحدى وعشرين سنة[1]، وجعل معه معاذَ بنَ جبل الأنصاريَّ، وهبيرةَ بنَ شبل ـ رضي الله عنهما ـ يعلمان الناس القرآن والفقه والدين، ولم يزل والياً على أهل مكة إلى وفاة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت وفاته ووفاة سيدنا أبي بكر في يوم واحد، وقيل: إن عتاباً توفي يوم ورود خبر وفاة أبي بكر لأهل مكة. اهـ. من «أعلام الأعلام في أمراء البلد الحرام» للسيد الدحلاني[2].

قوله: (فكان عتاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لا أشبع الله له بطناً. . .) إلخ: قال الحلبي: يروى أنه قام فخطب الناس فقال: أيها الناس! أجاع الله كبَد من جاع على درهم؛ أي: له درهم، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً في كل يوم[3]، فليست لي حاجةٌ إلى أحد. اهـ[4].

ومما يجدر ذكره هنا: ما ذكره ابن خلكان في ترجمة القاضي يحيى بن أكثم قال: ذكر الخطيب في «تاريخ بغداد» أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنه

---

(١) في هامش الأصل: «قال الحلبي: وفي كلام سبط ابن الجوزي: عتاب بن أسيد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لما خرج إلى حنين وعمره ثماني عشرة سنة. اهـ».

(٢) انظر: «خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام» لأحمد بن زيني دحلان (ص: ٩ ـ ١٠).

(٣) في الأصل: «في كل يوم درهماً في كل يوم» بدل «درهماً في كل يوم»، والمثبت موافق لما في «السيرة الحلبية».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٠)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ١٧٨) عن زيد بن أسلم.

هدم العُزَّى

وفي الخامس من مُقامه عليه الصلاة والسلام بمكة أرسل خالدَ بنَ الوليد في ثلاثين فارساً لهدم هيكل العُزّى ـ وهي أكبر صنم لقريش، وكان هيكلها ببطن نَخْلة ـ فتوجه إليها خالد وهدمها.

عشرون سنة ونحوها، فاستصغره أهلُ البصرة فقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنه قد استُصغر، فقال: أنا أكبرُ من عتاب بن أَسيد الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبرُ من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قاضياً على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجاً. اهـ[1].

هدم العزى

قوله: (لهدم هيكل العزى): قال الدحلاني: اختلف في المراد من العزى؛ فقيل: شجرة، وقيل: صنم وضعه سعد بن ظالم الغطفاني لما قدم مكة ورأى أهلَها يطوفون بين الصفا والمروة، فأخذ من كلٍّ حجراً، ونقلهما إلى نخلة، وهو موضع على ليلة من مكة، وكانت العزى لقريش وجميع بني كنانة، وحجابُها بنو شيبان من بني سليم، وكانوا حلفاء بني هاشم، وكانت أعظم أصنامهم، وذلك أن عمرو بن لُحَي ـ لعنه الله ـ قال لهم: إن الرب يشتي عند اللات، ويصيف عند العزى، فعظموها، وبنوا لها بيتاً، وكانوا يُهدون لها كما يهدون للكعبة، ويعظمونها، ويطوفون وينحرون عندها، ومع ذلك يعرفون فضل الكعبة عليها؛ لأنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده. اهـ[2].

---

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦/ ١٤٩). وانظر: «تاريخ بغداد» للخطيب (١٤/ ١٩٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٠٤).

هدم سُوَاع

وأرسل عليه الصلاة والسلام عمرَو بنَ العاص لهدم سُواع ـ وهو أعظم صنم لهُذَيل ـ وهيكلُه على ثلاثة أميال من مكة، فذهب إليه وهدمه.

هدم سواع

قوله: (فذهب إليه وهدمه): قال الدحلاني: قال عمرو بن العاص: فانتهيت إلى سواع، وعنده السادن قال: ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، فقلت: لمَ؟ قال: يمنعك، قلت: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك! وهل يسمع أو يبصر حتى يمنعني؟ قال: فدنوتُ منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ فقال: أسلمتُ لله ربِّ العالمين. اهـ[1].

وقال قبل ذلك: قال ابن جرير: سواع بن شيت بن آدم لما مات، صُوِّرت صورته وعظمت؛ لموضعه من الدين، ولِما عهدوا في دعائه من الإجابة، وأولاده: يغوث ويعوق ونَسْر، فلما ماتوا، صُوِّرت صورُهم، فلما خلفت الخلوف، قالوا: ما عظم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها ترزق وتشفع وتضر، فاتخذوها آلهة[2].

قال السهيلي: وكان بدء عبادتها في عهد مهلاييل بن قينان قبل نوح عليه السلام[3].

وفي البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، وهي أسماء قوم صالحين، فلما هلكوا، أوحى الشيطان

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٠٦)، والخبر المذكور رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٩٠) عن سعيد بن عمرو الهذلي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٩٨ ـ ٩٩) عن محمد بن قيس، بنحوه.

(٣) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ١٦٨).

هدم مناة

وبعث سعدَ بن زيد الأشهليَّ في عشرين فارساً لهدم مناةَ، وهي صنم لكلب وخزاعةَ. وهيكلُها بالمُشَلَّلِ، وهو جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قُدَيْد. فتوجهوا إليها وهدموها.

غزوة حُنين

إلى قومهم: أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، فلم تُعبد، فلما هلك أولئك، ونسخ العلم، عُبدت. اهـ[1].

هدم مناة

قوله: (لهدم مناة): قال الدحلاني: هي صنم للأوس والخزرج، ومن دانَ دينَهم، وقيل: إنها أيضاً لهذيل وبني كعب وخزاعة وغسان[2].

قوله: (وهيكلها بالمشلل)، وهو ـ بضم الميم وفتح الشين واللام الأولى المشددة ـ: جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد.

قوله: (فتوجهوا إليها وهدموها): قال الدحلاني: خرج سعد حتى انتهى إليها وعليها سادن، فقال له: ما تريد؟ قال: أريد هدم مناة، قال: أنت وذاك؛ تهكماً، لظنه أنه لا يقدر عليها، فأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدمه، ولم يجدوا في خزانته شيئاً، وانصرف راجعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. اهـ. باختصار[3].

غزوة حنين

قوله: (غزوة حنين): هو اسمُ موضعٍ من الطائف، وفي كلام بعضهم:

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٠٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٠٦).

بهذا الفتح العظيم، وسقوطِ دولة الأوثان، دانت للإسلام جموعُ العرب، ودخلوا فيه أفواجاً. أما قبيلتا هوازن وثقيف، فأدركتهما حَمِيَّةُ الجاهلية، واجتمع الأشرافُ منهم للشورى، وقالوا: قد فرِغَ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنّا، فَلْنَغْزُه قبل أن يغزونا. فأجمعوا أمرهم على ذلك، وولّوا رياستهم مالكَ بنَ عوف النَّصْريَّ، فاجتمع له من القبائل جموعٌ كثيرة، فيهم بنو سعدِ بنِ بكر، الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضَعاً فيهم، وكان في القوم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة المشهورُ بأصالة الرأي، وشدةِ البأس في الحرب، ولتقدم سنِّه لم يكن له في هذه الحرب إلا الرأي، ثم إن مالك بن عوف أمر الناس أن يأخذوا معهم نساءَهم وذراريهم وأموالهم، . . . .

إلى جنب ذي المجاز، وهو سوق الجاهلية، وفي كلام بعض آخر: اسمٌ لما بين مكة والطائف، ويقال لها: غزوة هوازن، وغزوة أوطاس باسمِ الموضع الذي كانت به الوقعة في آخر الأمر. اهـ. حلبي[١].

قوله: (فأدركتهما حمية الجاهلية)؛ أي: وكان أهلها طغاةً عتاةً مَرَدَةً. اهـ. حلبي[٢].

قوله: (ولا ناهية له عنا)؛ أي: لا مانع له دوننا.

قوله: (مالك بن عوف)؛ أي: وكانت سنه ثلاثين سنة.

قوله: (ولتقدم سنه. . .) إلخ: قيل: كان سنه مئة وعشرين سنة، وقيل: مئة وخمسين، وقيل: مئة وسبعين، وقيل: قارب المئتين، وقد عمي[٣].

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦١).

فلما علم ذلك دُريد، سأل مالكاً عن السبب، فقال: سقتُ مع الناس أموالهم وذراريهم ونساءهم لأجعلَ خلفَ كلِّ رجل أهلَه وماله يقاتل عنهم، فقال دريد: وهل يردّ المنهزمَ شيء؟ إن كانت لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورُمحه، وإن كانت عليك، فُضِحت في أهلك ومالك، . . . .

قوله: (فلما علم بذلك دريد): قال الحلبي: لما نزل مالك بن عوف بأوطاس، اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة، فقال دريد للناس: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم، مجال الخيل، لا حزنٌ ضرْس، ولا سهل دَهْس[1]، ثم قال: ما لي أسمعُ رُغاء البعير ونُهاقَ الحمير ـ بضم النون ـ وخوار البقر ويُعار الشاء ـ بضم الياء ـ ؛ أي: أصوات هذه الأشياء؟ قالوا: ساق مالك ابن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فاستدعاه وقال: يا مالك! أما إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائنٌ له ما بعدهَ من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء وخوار البقر؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنقضَ به؛ أي: زجره كما تزجر الدابة، ثم أشار عليه برد الذرية والأموال، وقال له ما ذكره المصنف، فلم يقبل منه مالك وقال: والله! لا أُطيعك، إنك قد كبرتَ وضعف رأيك، فقال دريد لهوازن: قد شرط أن لا يخالفني، فقد خالفني، فأنا أرجع إلى أهلي، فمنعوه، وقال مالك: والله! لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها رأي أو ذكر، قالوا: أطعناك. اهـ. حلبي ملخصاً[2].

---

(١) في هامش الأصل: «الحزن: ضد السهل، والضرس بكسر الضاد: ما صلب من الأرض، والدهس بفتح الدال: اللين كثير التراب».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٢).

فلم يقبلْ مالك مشورته، وجعل النساءَ صفوفاً وراء المقاتلة، ووراءهم الإبل، ثم البقر، ثم الغنم؛ كيلا يفر أحد من المقاتلين.

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه لما بلغه أن هوازن وثقيف يستعدون لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم، وخرج معه اثنا عشر ألفَ غازٍ، منهم ألفان من أهل مكة، والباقون هم الذين أتوا معه من المدينة، وخرج أهلُ مكة ركباناً ومشاة، حتى النساء يمشين من غير ضعفٍ يرجون الغنائم، وخرج في الجيش ثمانون من المشركين، منهم: صفوانُ بنُ أمية، وسُهيل بنُ عمرو، ولما قرب الجيش من معسكر العدو، صَفَّ عليه الصلاة والسلام الغزاةَ، وعقدَ الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعليّ بن أبي طالب، ولواء الخزرج للحُبَاب بن المنذر، ولواء الأوس لأُسَيد بن حُضَير، وكذلك أعطى ألويةً لقبائل العرب الأخرى. ثم ركب عليه الصلاة والسلام بغلته، . . .

قوله: (كيلا يفر أحد من المقاتلين)؛ أي: وقال للناس: إذ رأيتموهم شدوا عليهم شدةَ رجلٍ واحد.

قوله: (لما بلغه أن هوازن يستعدون لحربه. . .) إلخ: قال الحلبي: لما بلغه اجتماعهم، أرسل إليهم رجلاً من أصحابه، وهو عبدُالله بنُ أبي حَدْرَدٍ الأسلميُّ، وأمره أن يدخل فيهم، ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم، ومكث فيهم يوماً أو يومين، ثم أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وأخبره الخبر، وجاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى». اهـ[1].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٣)، والحديث المذكور رواه أبو داود (٢٥٠١) من حديث سهل ابن الحنظلية ـ رضي الله عنه ـ.

ولبس درعين والبيضة والمِغفر.

هذا، وقد أُعْجب المسلمون بكثرتهم، فلم تُغْنِ عنهم شيئاً؛ فإن مقدمة المسلمين توجهت جهة العدو، فخرج لهم كمين كان مستتراً في شِعاب الوادي ومضايقه، وقابلهم بنبلٍ كأنه الجراد المنتشر، فلووا أعنّة خيلهم متقهقرين، ولما وصلوا إلى من قبلهم، تبعوهم في الهزيمة لما لحقهم من الدهشة، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فثبتَ على بغلته في ميدان القتال، وثبت معه قليل من المهاجرين والأنصار، . . . .

قوله: (ولبس درعين) قال الحلبي: هما ذاتُ الفضول، والسغدية، وهي درع داودَ عليه السلام التي لبسها حيت قتل جالوت[1].

ويؤخذ منه: أن لا مانعَ من الاستعداد للعدو، واتخاذ الإنسان ما يقي به نفسه، وأن ذلك لا ينافي التوكل.

قوله: (في شعاب الوادي ومضايقه): قال الحلبي: كان ذلك بإشارة دريد ابن الصمة، فإنه قال لمالك: اجعل لك كميناً يكون لك عوناً إن حمل القومِ عليك، جاءهم الكمين من خلفهم، وكررتَ أنت بمن معك، وإن كانت الحملة لك، لم يفلت من القوم أحد[2].

قوله: (تبعوهم في الهزيمة): قال الحلبي: ويقال: إن الطلقاء، وهم أهل مكة، قال بعضهم لبعض ـ أي: من كان إسلامه مدخولاً منهم ـ: اخذلوه، هذا وقته، فانهزموا، فهم أولُ من انهزم، وتبعهم الناس[3].

قوله: (قليل من المهاجرين والأنصار): قيل: مئة، وقيل: ثمانون،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٤).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٥).

منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباسُ وابنُه الفضل، وأبو سفيانَ بنُ الحارث وأخوه ربيعةُ بنُ الحارث، ومعتبُ بن أبي لهب، وكان العباس آخِذاً بلجام البغلة، وأبو سفيان آخِذاً بالركاب، وكان عليه الصلاة والسلام ينادي: «إليَّ أيّها الناس»[1]، ولا يلوي عليه أحد، وضاقت بالمنهزمين الأرض بما رحبت. أما رجال مكة الذين هم حديثو عهد بالإسلام، والذين لم ينزعوا عنهم رِبْقَةَ الشرك، فمنهم مَنْ فرح، ومنهم مَنْ ساءه هذا الإدبار، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتُهم دون البحر. وقال أخٌ لصفوانَ بنِ أمية: الآن بطل السحر. فقال له صفوان ـ وهو على شركه ـ: اسكتْ، . . . .

وقيل: اثنا عشر، وقيل: عشرة، وقيل: كانوا ثلاث مئة، ولا مخالفة؛ لإمكان الجمع[2].

قوله: (وأبو سفيان) هو ابنُ عمه صلى الله عليه وسلم، وهو الحارث بن عبد المطلب، وقد ذُكر خبرُ مجيئه وإسلامه قريباً.

قوله: (ربقة الشرك): الربقة: ـ بكسر الراء وفتحها ـ.

قال في «القاموس»: الربق ـ بالكسر ـ: حبل فيه عدةُ عُرًى يشد به البهم، كلُّ عروة: رِبْقة. اهـ[3].

قوله: (فقال أبو سفيان. . .) إلخ؛ أي: وكان إسلامه بعدُ مدخولاً، وكانت الأزلام في كنانته.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٧٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٥).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: ربق).

فَضَّ الله فاك، والله! لأَنْ يَرُبَّني رجل من قريش خيرٌ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن. ومرّ عليه رجل من قريش وهو يقول: أبشرْ بهزيمة محمدٍ وأصحابه، فو الله! لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوانُ وقال: ويلك! أتبشرني بظهور الأعراب؟ وقال عكرمة ابن أبي جهل لذاك الرجل: كونهم لا يجبرونها أبداً ليس بيدك، الأمرُ بيد الله، ليس إلى محمد منه شيء، إن أُديل عليه اليوم، فإن العاقبة له غداً، فقال سهيل بنُ عمرو: والله! إن عهدك بخلافه لَحديث، فقال له: يا أبا يزيد! إنّا كنا على غير شيء، وعقولنا ذاهبة، نعبد حجراً لا يضرّ ولا ينفع. وبلغت هزيمة بعض الفارّين مكة، كل هذا ورسولُ اللهِ واقف مكانه يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»[1]

قوله: **(فض الله فاك)**؛ أي: أسقطَ أسنانك. اهـ. حلبي[2].

قوله: **(لأن يربني رجل من قريش)** هو من الربوبية؛ أي: يملكني ويدبر أمري.

قوله: **(إن أديل عليه اليوم)**: الإدالة: الغَلَبة؛ أي: لَئِنْ غُلِبَ اليوم.

قوله: **(إن عهدك بخلافه لحديث)**؛ أي: إنك كنت عدوه منذ أمد قريب، ونراك اليوم تدافع عنه.

قوله: **(أنا ابن عبد المطلب)**: إنما قال ذلك، ولم يقل: أنا ابن عبدالله؛ لأن العرب كانت تنسبه إلى جده لشهرته، ولموتِ عبدالله في حياته، وأخذ من هذا: أنه لا بأس بالانتساب في موطن الحرب. اهـ. حلبي[3].

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧٠).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٨).

ثم قال للعباس ـ وكان جَهْوَرِيَّ الصوت ـ : «نادِ بالأنصار يا عباس»، فنادى: يا معشر الأنصار! يا أصحاب بيعة الرضوان! فأسمعَ مَنْ في الوادي[1]، وصار الأنصار يقولون: لبَّيك لبَّيك، ويريد كل واحد منهم أن يلوي عِنان بعيره، فيمنعه من ذلك كثرةُ الأعراب المنهزمين. فيأخذ درعَه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، وينزل عن بعيره، ويخلي سبيله، ويؤمُّ الصوتَ، حتى اجتمع حولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع عظيم منهم. وأنزل الله سكينته على رسوله صلى الله عليه وسلم، . . . .

قوله: (جَهْوَري الصوت) ـ بسكون الهاء وفتح الواو ـ؛ أي: عالي الصوت.

قوله: (يا أصحاب بيعة الرضوان) يشمل المهاجرين كما تفيده عبارة الحلبي، ونصها: وفي لفظ ـ أي: في رواية ـ : «اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آووا ونصروا»[2]، وإنما خص صلى الله عليه وسلم العباسَ بذلك؛ لأنه كان عظيم الصوت، كان صوته يُسْمَع من ثمانية أميال، كان يقف على سلع وينادي غلمانه آخرَ الليل وهم بالغابة، فيسمِعُهم، وبين سلع والغابة ثمانية أميال، وغارت الخيل يوماً على المدينة، فنادى: وا صباحاه! فلم تسمعه حامل إلا وضعت من عظم صوته! اهـ[3].

قوله: (جمع عظيم منهم): قال الحلبي: لما انتهى إليه من الناس مئة، استقبلوا الناسَ فاقتتلوا، وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القوم

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٦٥٣) من حديث العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٩٢) من حديث شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٨٤): وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٥ ـ ٦٦).

وهم يجتلدون، فقال صلى الله عليه وسلم: «الآنَ حَمِيَ الوَطيس»[١]، وهو حجارة توقد العربُ تحتها النارَ يشوون عليها اللحم، والوطيس في الأصل: التنور، وهذه من الكلمات التي لم تُسْمَع إلا منه صلى الله عليه وسلم، وهي مَثَلٌ يضرَب لشدة الحرب[٢].

قوله: (وأنزل جنوداً لم يروها): قال الحلبي: حدَّث رجل كان من المشركين يوم حنين، قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يقوموا لنا حلبةَ شاة أن كشفناهم، قال: فبينما نحن نسوقهم، ونحن في آثارهم، إذ صاحبُ بغلةٍ بيضاء، وإذا هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسانُ الوجوه، وقالوا: شاهت الوجوه، ارجعوا، فانهزمنا من قولهم، وركبوا أجسادنا، فكانت إياها. اهـ[٣].

وقال الدحلاني: أنزل الله من الملائكة خمسة آلاف، وقيل: ثمانية آلاف، وقيل: ستة عشر ألفاً، فقيل: إنهم قاتلوا، وقيل: لم يقاتلوا، وإنما نزلوا لإلقاء السكينة في قلوب المؤمنين بإلقاء الخواطر الحسنة. اهـ[٤].

وفي ذلك الوقت تناول النبي صلى الله عليه وسلم كفّاً من تراب، فضرب به وجوههم، فامتلأت تراباً.

وعن أبي عبد الرحمن الفِهْرِيِّ قال: حدثني أبناؤهم عن آبائهم: أنهم

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٠٧) من حديث كثير بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ. ورواه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «هذا حين حمي الوطيس».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٦٨ ـ ٦٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١٤).

فكرَّ المسلمون على عدوهم يداً واحدة، فانتكث فَتْلُ المشركين. وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء من الأموال والنساء والذراري، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فأخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وهرب من هرب، . . . .

قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست، ولما رماهم به قال: «شاهت الوجوه، حَمَ، لا يُنَصرون»[1]، وهذا الرمي وقع في هذه الغزوة، وفي غزوة بدر، وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[الأنفال: ١٧]، إلى ذلك أشار صاحب «الهمزية» بقوله:

ورمى بالحَصا فأقصَدَ جيشاً ... ما العَصا عندَه وما الإلقاءُ[2]

اهـ. دحلاني[3].

قوله: (فانتكث فتلُ المشركين): المراد بالنكث هنا: النقض، والفتل: ما كان مفتولاً من ورق الشجر ونحوه.

قوله: (وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون): كان في جملة من قُتل: دريدُ ابن الصمة، ففي «السيرة الحلبية»: أدركَ ربيعةُ بنُ رفيع دريدَ بنَ الصمة، فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة، فإذا هو بشيخ كبير أعمى، ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قلت: أنا ربيعة

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٩٢) من حديث شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٨٤): وفيه أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف.

(٢) انظر: «المنح المكية بشرح الهمزية» لابن حجر الهيتمي (ص: ٣٣١).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣).

وجُرِح في هذا اليوم خالد بن الوليد جراحاتٍ بالغةً، وأسلمَ نـاس كثيـرون من مشركي مكة لما رأوهُ من عناية الله بالمسلمين.

هذا، والذي حصل في هذه الغزوة درسٌ مهمٌّ من دروس الحـرب؛ فإن هذا الجيش دخله أخلاط كثيرون من مشركين وأعراب وحـديثي عهـد بالإسلام، هؤلاء سِيَّان عندهم نصرُ الإسلام وخذلانه، ولذلك بادروا لأول صدمة إلى الهزيمة، وكادت تتم الكلمة على المسلمين لولا فضـل الله، فـلا ينبغي أن يكون في الجيش إلا من يقاتل خالصاً مخلصاً مـن قلبـه؛ ليكـون مدافعاً حقاً عن دينه، فلا تميل نفسُه إلى الفرار؛ خشيةً مما أعـدّه الله للفـارّين من أليم العقاب.

ابن رفيـع السلمي، ثم ضربـه بسيفـه فلم يغن شيئـاً، فقال لـه يسخر بــه: بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفي هذا من مؤخرة الرحل، ثم اضـرب بـه وارفـع عـن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم قال: إذا أتيت أمك، فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فـربَّ يـومٍ قـد منعـتُ فيـه نسـاءك، فقتله، فلما أخبر ربيعة أمه بقتله، فقالت له: أما والله! لقد أعتق اثنين بل ثلاثـاً، وقالت له: ألا تكرمت عن قتله لما أخبرك بمنه علينا؟ فقال: ما كنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله. اهـ[1].

وقال السجستاني في كتاب «المعمرين»... إلخ[2].

قوله: (وجرح في هـذا اليـوم خالـدُ بن الوليد...) إلخ: قـال الحلبـي: وجرح خالـد بن الوليـد ـ رضي الله عنـه ـ، فتفل النبي صلى الله عليـه وسلم في

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧٢).

(٢) كذا في الأصل، والموضع المشار إليه من الكتاب المـذكور يتضـمن ترجمـة مـوجزة لدريد بن الصمة، مع بعض أبيات الشعر والحِكَم التي قالها. انظر: «المعمرون» لأبي حاتم السجستاني (ص: ٢١ ـ ٢٢).

ثم أمر عليه الصلاة والسلام بجمع السبي والغنائم، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، فجمع ذلك كله بالجِعرَّانة. أما المشركون، فتفرقوا ثلاث فرق: فرقة لحقت بالطائف، وفرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس.

سرية [أبي عامر الأشعري ـ رضي الله عنه ـ إلى أوطاس]

فأرسل عليه الصلاة والسلام لهذه الفرقة أبا عامرٍ الأشعريَّ في جماعة، منهم: أبو موسى الأشعريّ، فسار إليهم وبدَّدهم، وظفر بما بقي معهم من الغنائم. وقد استُشهد أبو عامرٍ في هذه الغزوة، وخلَّف على الغزاة ابنَ أخيه أبا موسى، فرجع ظافراً منصوراً.

جرحه، فلم يضره.

وعن بعض الصحابة قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم بعدما هزم الله الكفار، ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين ويقول: «من يدلني على رحل خالدِ بن الوليد؟» حتى دُلَّ عليه، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله؛ لأنه قد أثقل بالجراحة، فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فبرئ. اهـ[1].

سرية

قوله: (سرية): عنونها السيد الدحلاني بـ: سرية أبي عامر الأشعري، قال: وهو عم أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ، وتسمى هذه السرية: غزوة أوطاس، ولما انتهى إليهم أبو عامر، وجدهم مجتمعين، فناوشوه القتال، وقتل منهم أبو عامر تسعةَ إخوة مبارزةً بعد أن يدعوَ كلَّ واحد منهم إلى الإسلام، ويقول: اللهم اشهدْ عليه أني دعوته إلى الإسلام فلم يجب، ثم برز له العاشر،

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، والخبر المذكور أورده السهيلي في «الروض الأنف» (٤/ ٢٦٧)، وقال: ذكره الكشي.

غزوة الطائف

وسار عليه الصلاة والسلام بمن معه إلى الطائف؛ ليُجْهِز على بقية حياة ثقيف، ومن تجمَّع معهم من هوازن، وجعل على مقدمته خالدَ بنَ الوليد، ومرّ عليه الصلاة والسلام بحصن لمالكِ بنِ عوف النَّصري، فأمر بهدمه. ومرَّ ببستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه أَنِ اخرجْ وإلا حَرَّقنا عليك بستانك، فامتنع الرجل، فأمر عليه الصلاة والسلام بحرقه. ولما وصل المسلمون إلى الطائف، وجدوا الأعداء قد تحصَّنوا به، وأدخلوا معهم قوتَ سنتهم، فعسكر المسلمون قريب الحصن. فرماهم المشركون بالنَّبل رمياً شديداً حتى أُصيب منهم كثيرون بجراحات، . . . . .

فدعاه إلى الإسلام وقال: اللهم اشهدْ عليه، فقال: اللهم لا تشهد عليَّ، فكف عنه أبو عامر ظناً منه أنه أسلم، فأفلتَ، ثم أسلمَ بعدُ فحسن إسلامه، فكان صلى الله عليه وسلم إذا رآه قال: «هذا شريدُ أبي عامر». اهـ[1].

غزوة الطائف

قوله: **(وجعل على مقدمته خالد بن الوليد)**: قال الدحلاني: أرسل معه ألفاً من أصحابه[2].

قوله: **(فأمر عليه السلام بحرقه)**: قال في «زاد المعاد»: يؤخذ منه: جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يُضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى فيهم. اهـ[3].

قوله: **(فعسكر المسلمون)**؛ أي: خالدٌ ومن معه.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١٧)، والخبر المذكور رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ١٢٦) عمن يثق به من أهل العلم.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣١٩).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٠٣).

منهم: عبدالله بن أبي بكر، وقد طاوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه، . . .

قوله: (حتى أماته في خلافة أبيه): قال الحلبي: ورثته زوجته عاتكةُ بنتُ زيدِ بنِ عمرِو بنِ نُفَيل، وكان يحبها حبّاً شديداً، مر عليه أبوه يوم جمعة وهو يلاعبها وقد صلى الناس، فقال عبدالله: أوجمَّع الناس؟ فسمعه أبوه، فقال: أشغلتك عن الصلاة؟! لا جرم لا تبرحن حتى تطلقها، فطلقها، ثم تعب عبدالله بسبب طلاقها، فاطلع عليه أبوه يوماً، فسمعه يقول أبياتاً من جملتها:

فلم أر مثلي طلقَ اليوم مثلَها ... ولا مثلها في غير جرمٍ تطلَّقُ

فقال له: يا عبدالله! راجعْ عاتكة، فقال لأبيه: قف بمكانك، وكان معه غلام مملوك له، فقال للغلام: أنت حر لوجه الله، اشهد أني قد راجعتُ عاتكة، فلما مات ـ رضي الله عنه ـ رثته بقولها من أبيات:

آليتُ لا تنفكُّ عيني حزينةً ... عليك ولا ينفكُّ جِلديَ أَغبرا

ثم تزوجها عمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فلما أعرس بها، قال له علي ـ كرم الله وجهه ـ: أتأذن لي أن أكلم عاتكة؟ فقال: لا غيرةَ عليك، كلِّمْها، فقال لها علي ـ كرم الله وجهه ـ: أنت القائلة البيت:

آليتُ لا تنفك عيني قريرةً ... عليك ولا ينفكُّ جلدي أصفرا

قالت: لم أقل هكذا، وبكت، وعادت إلى حزنها، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا أبا الحسن! ما أردتَ إلا إفسادَها عليّ، فلما قُتل عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ رثته بأبيات منها:

من لنفسٍ عادها أحزانُها ... ولعين شَفَّها طول السهَدْ

جسدٌ لُفِّفَ في أكفانِه ... رحمةُ الله على ذاك الجَسَدْ

ثم تزوجها الزبير ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فلما قتل، رثته بأبيات منها تخاطب قاتله:

ومنهم: أبو سفيان بنُ حرب فُقئت عينه.

وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلاً من المسلمين.

ولما رأى رسول الله أن العدو متمكّن من رميهم، ارتفع إلى محل مسجد الطائف الآن، وضربَ لأُمّ سلمةَ وزينبَ قبتين هناك، واستمر الحصارُ ثمانية عشر يوماً، كان فيها يُنادي خالدُ بن الوليد بالبِراز، فلم يجبه أحد، وناداه عبدُ ياليل ـ عظيمُ ثقيف ـ لا ينزل إليك منّا أحد، ولكن نقيم في حصننا؛ فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، . . . .

ثكلتك أمك إن قتلتَ لَمُسلماً حَلَّتْ عليك عقوبةُ المتعمدِ

ثم خطبها سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ، فقالت له: لم يبق للإسلام غيرُك، وأنا أنفس لك عن القتل، ومن ثم قيل في حقها: من أراد الشهادة، فعليه بعاتكة. اهـ[1].

وقوله: (وأنا أنفس لك عن القتل)؛ أي: أضِنُّ بقتلك، ففي «القاموس»: نفِسَ به؛ كفرح: ضَنَّ[2].

قوله: (ففقئت عينه): قال الحلبي: لما أصيبت عينه، أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعينه في يده، فقال: يا رسول الله! هذه عيني أصيبت في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن شئتَ دعوتُ فردَّتْ عينُك، وإن شئت فالجنة»، قال: فالجنة، ورمى بها من يده. اهـ[3].

قوله: (بالبراز): ـ هو بكسر الباء ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٣).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: نفس).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٧٧)، وأورده ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٤١٤) عن سعيد بن عبيد الثقفي، وعزاه للزبير بن بكار.

فإن أقمتَ حتى يفنى هذا الطعام، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا، فأمر عليه الصلاة والسلام بأن يُنْصَب عليهم المنجنيق فَنُصِبَ. ودخل جمعٌ من الأصحاب تحت دبابتين لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سِكَكَ الحديد مُحماة بالنار حتى أرجعوهم، فأمر عليه الصلاة والسلام أن تقطع أعنابهم ونخيلهم، فقطع المسلمون فيها قطعاً ذريعاً، فناداه أهل الحصن، أن دَعْها لله وللرحم، فقال: «أدعها لله وللرحم»[1]، ثم أمر مَنْ ينادي بأن كلَّ من ترك الحصن ونزل فهو آمن، فخرج إليه بضعةَ عشرَ رجلاً.

قوله في الذيل: (هي آلة تتخذ للحروب)؛ أي: من الجلود يدخل فيها الرجال، فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها. اهـ. حلبي[2].

قوله: (حتى أرجعوهم) قال الحلبي: لما أرسلت عليهم السكك، خرجوا من تحتها، فرموهم بالنيل، فقتل منهم رجال[3].

قوله: (إن كل من ترك الحصن. . .) إلخ: لفظ الحديث في الدحلاني والحلبي: ثم نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيما عبدٍ نزل من الحصن وخرج لنا، فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر، وقيل: ثلاثة وعشرون رجلاً، ونزل منهم شخص في بكرة، فقيل له: أبو بكرة، وكان عبداً للحارث بن كلدة، فأعتقهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ودفع كلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة. اهـ[4].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ١٦٢) عن الواقدي عن شيوخه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨١)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٣٢٠).

ولما رأى عليه الصلاة والسلام أن تمنُّع ثقيف شديد، وأن الفتح لم يؤذَن فيه، استشار نوفلَ بنَ معاويةَ الديليَّ في الذهاب أو المقام، فقال: يا رسول الله! ثعلبٌ في جُحْر، إن أقمتَ أخذته، وإن تركته لم يضرّك.

فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف، فقال: «اللهمّ اهدِ ثقيفاً، وَأْتِ بهم مسلمين»[١].

قوله: (وإن الفتح لم يؤذن): قال الدحلاني: وكان الحكمة في أنه لم يؤذن له في فتح الطائف ذلك العام أن لا يستأصل أهل ذلك الحصن قتلاً، فأخر الله أمرهم حتى جاؤوا طائعين مسلمين كما سيأتي ذكره في الوفود إن شاء الله، اهـ[٢].

قوله: (فأمر عليه السلام بالرحيل): قال الدحلاني: ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فاغدوا على القتال»، فغدَوا، فأصابت المسلمين جراحات، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنا قافلون إن شاء الله»، فسُروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم يضحك تعجباً من سرعة تغير رأيهم[٣]، فرجعوا إليه، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، فلما ارتحلوا قال: «قولوا: آيبون عابدون لربنا حامدون». اهـ[٤].

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٣٣٩) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. ورواه الترمذي (٣٩٤٢) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ دون لفظ: «وأْتِ بهم».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢١).

(٣) رواه البخاري (٦٠٨٦) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢١)، والحديث المذكور =

تقسيم السبي

ثم رجع عليه الصلاة والسلام إلى الجِعِرَّانة حيث ترك السبي، فأحصاه، وخمَّسه، وأعطى منه شيئاً كثيراً لأُناس ضَعُفَ إسلامُهم يتألَّفُهم بذلك. وأعطى أُناساً لم يُسلموا ليُحَبِّبَ إليهم الإسلام، ومن الأولين: أبو سفيان، أعطاه أربعين أُوقية من الذهب، ومئة من الإبل، وكذلك ابناه معاويةُ ويزيدُ، فقال له: بأبي أنت وأمي! لأنت كريمُ في السلم والحرب.

ومنهم: حكيم بن حزام، أعطاه كأبي سفيان فاستزاده فأعطاه، ثم استزاده فأعطاه مثلها، . . . .

تقسيم السبي

قوله: (لأناس)؛ أي: ممن أسلم من أهل مكة، وسَمُّوا: المؤلَّفة. اهـ. حلبي[1].

قوله: (وكذلك ابناه معاوية ويزيد): قال الحلبي: لما أعطاه (٤٠) أوقية من الذهب، ومئة من الإبل، قال: وابني يزيد، فأعطاه كذلك، وقال: ابني معاوية، فأعطاه كذلك، فأخذ أبو سفيان (٣٠٠) من الإبل، و(١٢٠) أوقية من الفضة، وقال له ما ذكره المصنف هنا.

وفي لفظ: حاربتك في السلم فنعم المحاربُ كنتَ، وقد سالمتك فنعم

= رواه البخاري (٦٣٨٥) من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة، يكبر على كل شَرَف من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٤).

وقال: «يا حكيم! إنّ هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس، بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكُلُ ولا يشبَع، واليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى»، فأخذَ حكيمٌ المئةَ الأولى، وتركَ ما عداها، ثم قال: والذي بعثك بالحق! لا أَرْزَأُ أحداً بعدَك شيئاً حتى أُفارق الدنيا، فكان الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال، فلا يأخذه[1].

المسالمُ أنتَ، هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً. اهـ[2].

قوله: (إن هذا المال خضرة حلوة...) الحديث: في الحلبي: «خضر حلو»[3]؛ أي: غض ناعم طري، وخَضِر ككتف.

قوله: (لا أرزأ أحداً...) إلخ: في «القاموس»: رزأه مالَه؛ كجعله، وعلمه، رُزْءاً ـ بالضم ـ: أصاب منه شيئاً[4].

قوله: (وكان الخلفاء)؛ أي: أبو بكر وعمر.

قال الحلبي: ثم إن عمر دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبله، فقال عمر: يا معشر المسلمين! إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه. اهـ[5].

---

(١) رواه البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥)، من حديث حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ، ولكن دون قوله: «فأخذَ حكيم المئة الأولى، وتركَ ما عداها».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٤)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٢٤٥).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٤)، والرواية المذكورة رواها البخاري (٢٧٥٠) من حديث حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رزأ).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٤)، والخبر المذكور رواه =

وأعطى عليه الصلاة والسلام عُيَيْنَةَ بنَ حصن مئة من الإبل، وكذلك الأقرعَ بنَ حابس، والعباسَ بنَ مِرداس، وأعطى صفوانَ بنَ أمية شِعْباً مملوءاً نَعَماً وشاءً كان رآه يرمقه، فقال له: «هل يعجبك هذا؟» قال: نعم، قال: «هُوَ لك»، فقال صفوان: ما طابتْ بمثل هذا نفسُ أحد، وكان سبب إسلامه[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يقصد من هذه العطايا تأليفَ القلوب وجمعَها على الدين القويم، وهذا ضربٌ من ضروب السياسة الدينية حتى جَعل من الصدقات قسماً للمؤلفة قلوبهم، وقد عاد ذلك بفائدة عظمى؛ فإن كثيرين ممّن أُعطوا في هذا اليوم، ولم يكونوا أُشربوا في قلوبهم حُبَّ الإسلام، صاروا بعدُ من أجلاّء المسلمين، وأعظمهم نفعاً؛ كصفوان بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وغيرهم.

ثم أمر عليه الصلاة والسلام زيدَ بنَ ثابت فأحصى ما بقي من الغنائم، وقسّمه على الغزاة بعد أن اجتمع إليه الأعراب، وصاروا يقولون له: اقسم علينا، حتى ألجؤوه إلى شجرة، فتعلق رداؤه، فقال: «ردّوا ردائي أيها الناس، فو الله! إن كان لي شجرُ تهامة نعَماً لقسمته عليكم، . . . .

قوله: (للمؤلفة قلوبهم): في الحلبي: كانت ثلاثة أصناف: صنف يتألفهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا؛ كصفوانَ بنِ أمية، وصنف ليثبت إسلامهم؛ كأبي سفيان بن حرب، وصنف لدفع شرهم؛ كعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس، وتمامه فيه[2].

= البخاري (٢٧٥٠) من حديث حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ.

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/ ١١٤) من حديث عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٥).

ثم ما أَلفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً[1]»، ثم قام إلى بعيره، وأخذ وَبرةً من سَنَامِه، وقال: «أيّها الناس والله! ما لي من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمُس، والخُمُسُ مردود عليكم، فأدّوا الخِياطَ والمِخْيَطَ؛ فإن الغُلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة»[2]، فصار كل من أخذ شيئاً من الغنائم خِلسةً يردُّه ولو كان زهيداً، ثم شرَع يقسم، فأصابَ الرجلَ أربعة من الإبل، وأربعون شاة، والفارس ثلاثةُ أمثال ذلك، . . . .

قوله: (ولا كدوداً)؛ أي: مُمْسِكاً.

في «القاموس»: أَكَدَّ واكتدَّ: أمسك، وهو كدود، وبئر كدود: لم يُنل ماؤها إلا بجهد[3].

وفي «النهاية»: يقال: الكُدية: صلابة في الأرض، يقال: حفر فأكدى: إذا وصل إلى كدية[4]، واستعير ذلك للطالب المخفق، والمعطي المقلّ، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾[النجم: ٣٤]. اهـ.

قوله: (الخياط والمِخيط): الخياط: الخيط، والمِخيط ـ بالكسرة ـ: الإبرة. اهـ. «نهاية»[5].

قوله: (يرده ولو كان زهيداً): قال الحلبي: فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر وقال: يا رسول الله! أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير

---

(١) في «نور اليقين» (ط دار الإيمان): «كذوباً».

(٢) رواه النسائي (٣٦٨٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. ورواه البخاري (٢٨٢١) من حديث جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كدد).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٥٦).

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٩٢).

فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما أُريد بها وجهُ الله، فغضب عليه الصلاة والسلام حتى احمرّ وجهه، وقال: «ويحك! مَنْ يعدلُ إذا لم أعدل؟»[1]، فلم يؤدّه غضبه أن ينتقم لنفسه، حاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك، بل لم يزدْ على أن نصحَ وحذَّر، وقال له عمر وخالد بن الوليد: دعنا يا رسول الله نضربْ عنقه، فقال: «لا، لعلّه أن يكون يُصلي» فقال خالد: وكم من مُصَلٍّ يقولُ بلسانه ما ليس في قلبه، فقال صلى الله عليه وسلم: «إني لم أُومر أن أُنَقِّبَ عن قلوب الناس، ولا أَشُقَّ عن بطونهم»[2].

لي دبر، فقال: «أما نصيبي منها، فلك»، قال: أما إذا بلغت هذا، فلا حاجة لي بها، وألقاها[3].

ويروى أن عَقيلاً كان دفع لامرأته إبرة أخذها من الغنيمة، ولما سمع منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شيئاً فليرده حتى الخياط والمخيط؛ رجع وأخذها منها، وألقاها في الغنائم. اهـ[4].

قوله: (فقال رجل من المنافقين) قال الحلبي: قيل: هو معتب، وقيل: ذو الخُوَيصرة التميمي[5].

قوله: (ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟!): العبارة في الحلبي: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟! رحمةُ الله على أخي موسى عليه السلام، لقد أوذي بأكثرَ

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤/ ١٤٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٠٦٤/ ١٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٦٨).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٦)، والخبر المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ١٧) عن زيد بن أسلم.

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٧ ـ ٨٨).

ولما أعطى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا لقريش وقبائل العرب، وتركَ الأنصار، غضب بعضُهم حتى قالوا: إن هـذا لهو العَجَبُ يُعطي قريشاً، ويتركُنا وسيوفنا تقطرُ من دمـائهم! فبلغـه ذلـك، فأمر بجمعهم وليس معهم غيرُهُم. فلما اجتمعوا قال: «يا معشر الأنصار! ما مقالةٌ بلغتني عنكم؟ ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي؟ وعالـةً فأغنـاكم الله بي؟ وأعداءً فألّفَ الله بين قلوبكم بي؟ إن قريشاً حديثو عهد بكفـر ومصـيبة، وإني أردتُ أن أجبُرهم وأتألَّفَهم، أَغَضِبتم يـا معشـر الأنصـار فـي أنفسـكم لشيء قليل من الدنيا أَلَّفْتُ به قوماً ليسلموا، ووَكَلْتكم إلـى إسـلامكم الثابـت الذي لا يُزَلْزَل؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهبَ الناس بالشاة والبعيـر، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده! لـولا الهجـرة، لكنت امرأ من الأنصار، . . . .

من هذا فصبر». اهـ[1].

قوله: (**يعطي قريشاً. . .**) إلخ: قال الحلبي: وفي رواية: إذا كانت شـديدة، ندعى إليها، ويُعطى الغنيمةَ غيرُنا[2].

قوله: (**ما مقالة بلغتني عنكم؟**): المقالة: الكلام الرديء.

قوله: (**ليسلموا**)؛ أي: ليحسن إسلامهم، ويُسلم غيرُهم تبعاً لهم.

قوله: (**لكنت امرأً من الأنصار**)؛ أي: لانتسبت إلى المدينة. اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٨٧)، والحديث المذكور رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٠)، والخبر المذكور رواه البخاري (٤٣٣٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٢).

ولو سلك الناسُ شِعْباً! وسلك الأنصار شِعباً، لسلكتُ شعب الأنصار، اللهمّ ارحم الأنصارَ، وأبناءَ الأنصار». فبكى القوم حتى اخْضَلَّتْ لحاهم، وقالوا: رضينا برسولِ الله قسماً وحظًّا، ثم انصرفَ عليه الصلاة والسلام وتفرقوا[1].

وفود هوازن

وبعد بضعَ عشرةَ ليلة جاءه صلى الله عليه وسلم وفد هوازن يرأسهم زهير بنُ صُرَد وقالوا: يا رسول الله! إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمّات والخالات، . . . .

قال: وقال حسان ـ رضي الله عنه ـ في مدح الأنصار:

سَمَّاهم اللهُ أنصاراً بنصرِهِمُ ... دينَ الهدى وعَوانُ الحرب تستعرُ

وسارعوا في سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وما خافوا وما ضجروا[2]

وفود هوازن

قوله: (وفد هوازن) كان عدد الوفد أربعة عشر رجلاً، وأتوه صلى الله عليه وسلم مسلمين.

قوله: (يرأسهم زهير بن صرد) هو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة. اهـ. حلبي[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧٦) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٢). وانظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص: ١٢٣ ـ ١٢٤)، وفيه: «خاموا» بدل «خافوا».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٤).

وهـنّ مَخازي الأقـوام، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وقـال زهيـر: إن في الحظائر عماتِك وخالاتِك وحواضِـنَك اللاتي كُنّ يكفلنك، ثم قال أبياتاً يستعطفه بها:

قوله: (وهن مخازي الأقوام): قال فـي «أسـاس البلاغـة»: خَـزِي خِزْيـاً ومَخْزاةً: ذَلَّ، وهو من أهل المخازي والمخزيات. اهـ[1].

وفي «القاموس»: خزي خِزياً ـ بالكسر ـ، وخَزًى: وقع في بلية وشـهرة، فَذَلّ بذلك؛ كاخزوى، وأخزاه الله: فضحه[2].

وفي «النهاية»: خزي يخزى خزياً؛ أي: ذلَّ وهان. اهـ[3].

قوله: (إن في الحظائر): الحظائر: جمع حظيرة.

قال في «النهاية»: هي في الأصل: الموضع الذي يحاط عليه لتـأوي إليـه الغنم والإبل يقيهما الحر والبرد[4].

وفي «القاموس»: حظر الشيء، وعليه: منعه، وحَجَر، واتخـذ حظيـرة؛ كاحتظر، واحتظر المال: حبسه فيها، وحظر الشيء: حازه[5].

وفي «أساس البلاغة»: حظر عليه كذا: حيل بينه وبينه. اهـ[6].

قوله: (وحواضنك اللاتي كن يكفلنك): قال الدحلاني: أي لأن مرضعته حليمة ـ رضي الله عنها ـ كانت من هوازن، وكانت في السبي، وحينما جاءته أمه،

---

(١) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: خزي).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خزي).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٣٠).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٤٠٤).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: حظر).

(٦) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: حظر).

امــنن علينــا رســولَ الله فــي كَــرَمٍ | فإنــك المــرءُ نرجــوه وننتظــرُ
امننْ على نسوةٍ قد كنت تَرْضَـعُها | إذ فوك مملوءة[1] من مَخْضِـهِا الدَّرَرُ
إنــا لنشــكرُ للنعمــاء إن كُفِــرت | وعنــدنا بعــد هــذا اليــوم مُــدَّخَرُ
إنّــا نؤمِّــلُ عفــواً منــك تلْبَسُــهُ | هــذي البريــةُ إذْ تعفــو وتنتصــر

بسط لها رداءه، ودمعت عيناه[2].

قوله: (إذ فوك مملوءة): الصواب: يملؤه، كما في الدحلاني[3].

وقوله: (من مخضها الدِّرَرُ)؛ أي: الدفعات الكثيرة من اللبن.

في «الأساس»: مخض الماء بالدلو: إذا أكثر الاستقاء[4].

والدَّرر: بفتح الدال.

وقوله: (إن كفرت)؛ أي: جحدت، وفي لفظ: إنا لنشكر آلاء وإن كُفرت[5].

وقوله: (نلبسه) ـ بالنون، وصوابه: تلبسه ـ بالتاء ـ.

(هَذْي البرية): صوابه: هذي البرية، كما في السهيلي على ابن هشام[6].

وقوله: (إن تعفو): صوابه: إذ تعفو؛ كما في السهيلي أيضاً[7].

---

(١) كذا أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٣٤٩)، وفي «المعجم الصغير»: «تملؤه».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣)، وخبر بسط ردائه صلى الله عليه وسلم لأمه التي أرضعته رواه ابن حبان في «صحيحه» (٤٢٣٢)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/ ٧٨)، من حديث أبي الطفيل ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٣).

(٤) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: مخض).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٤).

(٦) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٢٦٥).

(٧) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٢٦٥).

فأَلْبِسِ العفوَ مَنْ قد كنتَ تَرْضَعُهُ   مِن أُمهاتِك إن العفوَ مشتَهَرُ[1]

فقال صلى الله عليه وسلم: «إن أحبّ الحديث إليَّ أَصْدَقُهُ، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال، وقد كنت انتظرتكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون». فقالوا: ما كنّا نعدل بالأحساب شيئاً، ارددْ علينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبّ إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما ما لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا أنا صلّيتُ الظهر، فقوموا، وقولوا: نحن نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تُظهروا إسلامَكم، وتقولوا: نحن إخوانكم في الدين»، ففعلوا، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أما بعد: فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإني قد رأيتُ أن أردّ عليهم سبيهم، فمن أحبّ أن يُطيِّبَ بذلك فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حَظِّه حتى نعطيَه إياه من أول ما يُفِيءُ الله علينا فليفعل»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وامتنعَ من ذلك جماعة من الأعراب؛ كالأقرع بن حابس، . . .

قوله: (كالأقرع بن حابس) قال الحلبي: لما قال المهاجرون والأنصار ما قالوا، قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال العباس بن مرداس: وَهَّنتموني ـ أي: أضعفتموني ـ حيث صيرتموني منفرداً. اهـ[2].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٣٠٣)، و«المعجم الصغير» (٤٦٣٠)، من حديث زهير بن صرد الجشمي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٩٥).

وعُيينة بن حصن، والعباس بن مِرداس، فأخذه الرسولُ منهم قرضاً[1].

وأمر صلى الله عليه وسلم بأن تُحْبَس عائلةُ مالك بن عوف النصري رئيس تلك الحرب بمكة عند عمتهم أُمِّ عبدالله بن أمية. فقال له الوفد: أولئك ساداتنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما أُريد بهم الخير»، ثم سأل عن مالك فقالوا: هرب مع ثقيف، فقال: «أخبروه أنه إن جاءني مسلماً، رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مئة من الإبل»[2]، فلما بلغ ذلك مالكاً، . . .

قوله: (فأخذه الرسول منهم قرضاً): قال الدحلاني: الصحيح: أنه صلى الله عليه وسلم رد عليهم جميعَ السبي، ولم يتخلف من أحد إلا عجوز من عجائزهم كانت عند عيينة بن حصن، فأبى أن يردها، وقال حين أخذها: أرى عجوزاً إني لأحسب أن لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظم فداؤها، فمر عليه ولدها، وهو زهير بن صرد، فسامها منه، وأعطاه مئة من الإبل فيها، فأبى عيينة، وطمع في الزيادة، فتركه وذهب وغاب عنه، ثم مر عليه معرضاً، فقال عيينة: خذها بالمئة، فأبى وقال: لا أدفع إلا خمسين، فأبى عيينة، وهكذا إلى أن قال له: خذها بعشرة، فقال: لا آخذها إلا بستة، والله! ما ثديُها بناهد، ولا بطنُها بوالد، ولا فوها ببارد، ولا صاحبها بواجد ـ أي: حزين عند فوتها ـ، ولا درها بناكد ـ أي: غزير ـ فقال عيينة: خذها لا بارك الله لك فيها، وذلك بسبب دعائه صلى الله عليه وسلم، فإنه دعا على من أبى أن يرد من السبي شيئاً أن يبخس ـ أي: يكسد ثمنه. اهـ[3].

قوله: (إنما أريد بهم الخير) قال الدحلاني: ولم يجز أن تجري السهمان في مال مالك بن عوف حتى حضر[4].

---

(١) رواه النسائي (٣٦٨٨) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤٨٤) عن موسى بن عقبة.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٥).

نزل من الحصن خُفْية حتى أتى رسولَ الله بالجِعِرَّانة، فأسلمَ، وأحـرزَ مالـه، واستعمله عليه الصلاة والسلام على مَنْ أسلم من هوازن.

عمرة الجعِرَّانة

ثم إن الرسول صـلى الله عليـه وسـلم اعتمـر، فـأحرم مـن الجعرانـة، ودخل مكة بليل، فطاف، واستلم الحَجَر، ثم رجع من ليلته، وكانـت إقامتـه بالجعرانة ثلاثَ عشرةَ ليلة، ثم أمـر عليـه الصـلاة والسـلام بالرحيـل، فسـار الجيش آمناً مطمئناً حتى دخل المدينة لثلاثٍ بقين من ذي القعدة.

وغزوة حنين هي التي فرّق الله بها جموعَ الشرك، وأدالَ دولته، وأفقد سَراةَ أهله؛ فإن هوازن لم تترك وراءها رجلاً تمكّنه الحرب إلا ساقته، . . .

عمرة الجعرانة

قوله: قال الدحلاني: **(الجعرانة)**: بالتخفيف أفصحُ من التشديد، بينـه وبـين مكة ثمانية عشر ميلاً، سمي باسم امرأة تلقب بالجعرانة، وكان اعتماره منها لخمـس ليال خلون من ذي القعدة، وقيل: لثنتي عشرةَ ليلة بقيت من ذي القعدة[١].

قوله: **(فطاف واستلم الحجـر)**؛ أي: وسـعى وحلـق؛ لأن بـذلك تمـام أفعال العمرة، وجاء في الحديث: أنه اعتمر من الجعرانة سبعون نبياً[٢].

قوله: **(لثلاث بقين من ذي القعدة)**: قال الدحلاني: وقيل: لسـتّ منـه، قال الحافظ ابن حجر: إن مدة غيبته كانت أكثر من ثمانين يوماً. اهـ[٣].

قوله: **(وغزوة حنين هي التي فرق الله بها جموع الشرك. . .)** إلـخ: قـال الدحلاني: قال كثير من أهل المغازي: إن غزوة بدر وحنين كسر الله بهما سورة

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٧٢) عن محمد بن جعفر مرفوعاً.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٩).

ولم تترك لها بعيراً ولا شاة إلا جاءت به معها، فأراد الله إعزاز الإسلام بخذلان أعدائه وأخذ أموالهم، فانكسرت حِدّةُ المشركين، ولم يبق فيهم مَنْ يمانع أو يدافع، ولذلك يمكننا أن نقول: إن انكسار هوازن كان خاتمة لحروب العرب، فلم يبقَ فيهم إلا فئات قليلة يسوقهم الطيش إلى شهر السلاح، ثم لا يلبثون أن يغمدوا السيوف حينما تظهر لهم قوة الحق الساطعة.

سرية [قيس بن سعد ـ رضي الله عنه ـ إلى صداء]

الكفر، وأطفأتا جمرة العرب، وأنفدتا سهامهم، وأذلتا جموعهم، حتى لم يجدوا بدّاً من الدخول في دين الله، وجبر الله أهل مكة بغزوة حنين، وفرحهم بما نالوا من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم[١].

ثم قال: واقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة مع كثرة عَددهم وعُددهم وقوة شوكتهم؛ ليخفض بذلك رؤوساً رفعت بالفتح لمكة، والنصرِ على أهلها، فابتلاهم الله بقصة حنين؛ منعاً لهم عن الترفع، وتنبيهاً على أن المطلوب منهم التواضعُ وإظهار الشكر، كما فعل صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة؛ فإنه دخل منحنياً على ناقته، متواضعاً خاضعاً لربه[٢]، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلَب اليوم عن قِلَّة: أن النصر إنما هو من عند الله، وأن من ينصره الله فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له.

ثم قال: وافتتح الله غزو العرب ببدر، واختتمه بحنين، وهما أعظم غزواته صلى الله عليه وسلم، ولهذا يجمع بينهما في الذكر، فيقال: بدر وحنين، وتمامه فيه[٣].

سرية

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٢٩).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٦٨ ـ ٦٩) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٠).

ولما رجع عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، أرسل قيسَ بنَ سعد في أربع مئة ليدعو صُداء ـ قبيلة تسكن اليمن ـ إلى الإسلام، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل منهم، فقال: يا رسول الله! إني جئتك وافداً عمّن ورائي، فاردد الجيشَ، وأنا لك بقومي، فأمر عليه الصلاة والسلام بردّ الجيش.

وفود صُدَاء

وخرج الرجل إلى قومه، فقدم بخمسةَ عشرَ رجلاً منهم، فنزلوا ضيوفاً على سعد بنِ عبادة، ثم بايعوا رسولَ الله على الإسلام، وقالوا: نحن لك على مَنْ وراءنا من قومنا، ولما رجعوا، فشا فيهم الإسلام، وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مئة في حجة الوداع.

سرية [عيينة بن حصن ـ رضي الله عنه ـ إلى بني تميم]

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام بشرَ بنَ سفيانَ العدويَّ إلى بني كعبٍ من خزاعة لأخذِ صدقات أموالهم، ....

قوله: (سرية) عنونها الدحلاني بـ: سرية قيس بن سعد(1).

وفود صداء

قوله: (صداء) ـ بضم الصاد وفتح الدال والمد ـ، وهم حيّ من اليمن.

وقوله: (رجل منهم) اسمه: زياد بن الحارث الصدائي.

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي بـ: سرية عيينة بن حصن(2)، والدحلاني

---

(1) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣١)، وفيه: «بعث قيس ابن سعد».

(2) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢١٦).

فمنعهم بنو تميم المجاورون لهم من أداء ما فُرِضَ عليهم، فلما علم بذلك رسولُ الله، أرسل إليهم عيينةَ بنَ حصن في خمسين فارساً من الأعراب، فجاءهم وحاربهم، وأخذ منهم أحدَ عشرَ رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً، وتوجه بالكل إلى المدينة، فأمر عليه الصلاة والسلام بجعلهم في دار رَمْلَةَ بنتِ الحارث.

وفود تميم

فجاء في أثرهم وفد تميم، وفيه عُطارِدُ بنُ حاجِب، . . . .

بـ: البعث إلى بني تميم[1].

قوله: (**فمنعهم بنو تميم**) في الحلبي: فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لمَ تعطونهم أموالكم، فاجتمعوا، وأشهروا السلاح، ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا، ولا بد في ديننا من دفع الزكاة، فقال لهم بنو تميم: والله: لا ندع يخرج بعير واحد[2].

قوله: (**فلما علم بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم**)؛ أي: من بشر ابن سفيان؛ فإنه قدم المدينة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

وفود تميم

قوله: (**وفد تميم**) قيل: كان عدده سبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: تسعين. اهـ. حلبي[3].

قوله: (**عطارد**) ـ بضم العين ـ: نجم من الخُنَّس، يصرف ويمنع، ورجل من بني تميم.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣١).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢١٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢١).

والزّبرقانُ بنُ بدر، وعمرو بن الأهتم، فجلسوا ينتظرون الرسول، فلما أبطأ عليهم، نادَوا من وراء الحجرات بصوت جَافٍ: يا محمد! اخرجْ إلينا نفاخِرْك؛ فإن مدحنا زَيْن، وإن ذمَّنا شَيْن، فخرج إليهم عليه الصلاة والسلام، وقد تأذى من صياحهم، وفيهم نزل في أوائل سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ٤ ـ ٥]، وكان الوقت وقت الظهر، فأذّن بلال، ودخل النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة، فتعلقوا به يقولون: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «ما بالشعر بُعثنا ولا بالفخار أُمرنا»[١]، ثم صلى واجتمع حوله رجال الوفد يتفاخرون بمجدهم ومجد آبائهم، وقد مدح عمرو بن الأهتم الزبرقان بن بدر، فقال: إنه لمطاع في أنديته، سيد في عشيرته، فقال الزبرقان: حسدني يا رسول الله لشرفي، وقد علم أفضل مما قال، فقال عمرو: إنه لَزِمنُ المروءة، . . . .

و(الزبرقان) ـ بالكسر ـ: القمر، والخفيف اللحية، ولقب الحصين بن بدر الصحابي؛ لجماله، أو لصفرة عمامته، أو لأنه لبس حلة وراح إلى ناديهم فقالوا: زبرق حصين. اهـ. «قاموس»[٢].

قوله: (فجلسوا ينتظرون)؛ أي: في المسجد ووجدوا بلالاً يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: (إنه لزمن المروءة)؛ أي: بطيئها.

---

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٣٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: زبرق).

ضيِّقُ العَطَن، أحمق الأب، لئيم الخال. فرئي الغضب في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لاختلاف قولَي عمرو، فقال: يا رسول الله! لقد صدقت في الأولى، وما كذبت في الثانية، رضيتُ فقلت أحسنَ ما علمتُ، وغضبتُ فقلت أسوأ ما علمت. فقال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً»[1]. ثم أسلم القوم، فرد النبي عليه الصلاة والسلام عليهم أسراهم، وأحسن جائزتهم، وأقاموا مدة يتعلمون فيها القرآن، ويتفقهون في الدين.

سرية [خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى بني المصطلق]

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين»: سأل معاوية عمر رضي الله عنهما عن المروءة، فقال: تقوى الله، وصلة الرحم، وسأل المغيرةَ فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى، والحرفة فيما أحل الله، وسأل يزيدَ، فقال: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعمى، والعفو عند المقدرة، فقال معاوية: أنت مني حقّاً[2].

وقوله: **(ضيق العطن)**؛ أي: الصدر، والعطن والمعطن: المُناخ حول الوِرْد.

قوله: (إن من البيان لسحراً) قال الحلبي: إن الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحنُ بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القومَ ببيانه، فيذهب بالحق[3].

سرية

قوله: (سرية) عنونها الدحلاني بـ: سرية الوليد بن عقبة[4].

---

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣/ ١٢٣٧) من حديث محمد بن الزبير الحنظلي بنحوه. ورواه البخاري (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مختصراً.

(٢) انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص: ٣٢١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٠).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٦).

ثم بعث عليه الصلاة والسلام الوليدَ بنَ عقبةَ بنِ أبي مُعَيط لأخذ صدقات بني المصطلق، فلما علموا بقدومه، خرج منهم عشرون رجلاً متقلدين سلاحَهم احتفالاً بقدومه، ومعهم إبلُ الصدقة، فلما نظرهم، ظنهم يريدون حربه؛ لما كان بينه وبينهم من العداوة في الجاهلية، فرجع مسرعاً إلى المدينة، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن القوم ارتدّوا، ومنعوا الزكاة، فأرسل لهم خالدَ بنَ الوليد لاستكشاف الخبر، فسار إليهم في عسكره خفيةً، حتى إذا كان بناديهم، سمع مؤذّنهم يؤذّن بالصبح، فأتاهم خالد، فلم يرَ منهم إلا طاعة، فرجع وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فأرسل عليه الصلاة والسلام لهم غيرَ الوليد لأخذِ الصدقات، . . . .

قوله: (بني المصطلق): هم بطن من خزاعة، وكانوا قد أسلموا، وبنوا المساجد.

قوله: (ظنهم يريدون حربه)؛ أي: مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً.

قوله: (فرجع مسرعاً)؛ أي: قبل أن يصلوا إليه، مستنداً لظنه أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة.

قوله: (حتى إذا كان بناديهم): الأَولى ما في الدحلاني حيث قال: فلما دنا منهم، بعث عيوناً ليلاً، فإذا هم ينادون بالصلاة ويصلون[1].

قوله: (فرجع وأخبر الرسول): قال الدحلاني: وفي رواية: بعث صلى الله عليه وسلم إليهم بعثاً، فاستقبلهم الحارث بن ضرار الخزاعي، وكان رئيس القوم، فقال: إلى أين بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثَ الوليدَ فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، فقال: لا والذي بعث محمداً بالحق! ما رأيته، ولا أتاني، ثم قدم على النبي صلى الله عليه وسلم،

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٦).

وفي الوليد نزل في أوائل الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[الحجرات: ٦].

سرية [علقمة بن مجزز ـ رضي الله عنه ـ إلى جمع من الحبشة]

ثم بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أن جمعاً من الحبشة.....

فلما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «منعتَ الزكاة وأردتَ قتلَ رسولي؟!»، قال: لا والذي بعثك بالحق[1]! وقدم الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم الخبر على وجهه، فبعث معهم عبادَ بنَ بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن. اهـ[2].

قوله: (﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾)؛ أي: فتعرفوا وتفحَّصوا، وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم.

وقوله: (﴿أَن تُصِيبُواْ﴾)؛ أي: كراهةَ إصابتِكم.

(﴿قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾) بجهالة حالهم.

(﴿نَٰدِمِينَ﴾) مغتمِّين غمّاً لازماً، متمنين أنه لم يقع. اهـ. بيضاوي[3].

سرية

قوله: (سرية) عنونها الدحلاني بـ: سرية علقمةَ بنِ مجزز، قال: ومجزر ـ بضم الميم وفتح الجيم ومعجمتين، الأولى مكسورة ثقيلة ـ المُدْلِجيّ[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٧٩) من حديث الحارث بن ضرار ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٦).

وفي هامش الأصل: «تفصيل هذا البحث في أسباب النزول للواحدي صحيفة ٢٩١».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٢١٤).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٧).

رآهم أهلُ جُدَّةَ في مراكبهم يريدون الإغارةَ عليها، فأرسل لهم علقمةَ بنَ مُجَزِّز في ثلاث مئة، فذهب حتى وصل جُدَّةَ، ونزل في المراكب ليدركهم، وكان الأحباش متحصنين في جزيرة هناك، فلما رأوا المسلمين يريدونهم، هربوا، ولم يلقَ المسلمون كيداً، فرجع علقمةُ بمن معه. ولما كان بالطريق، أَذِنَ لِسَرَعان القوم أن يتعجلوا، وأمَّر عليهم عبدَالله بنَ حُذافة السَّهْمي، وكان فيه دعابة، فأوقد لهم في الطريق ناراً، وقال لهم: ألستم مأمورين بطاعتي؟ قالوا: نعم، قال: عزمتُ عليكم إلا ما تواثبتم في هذه النار، فقال بعضهم: ما أسلمنا إلا فراراً من النار، وهمَّ بذلك بعضهم، فمنعهم عبدالله، وقال: كنت مازحاً. فلما ذكروا ذلك لرسول الله، قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1].

قوله: **(أهل جدة)**: قال الحلبي: جُدَّة ـ بضم الجيم وتشديد الدال المهملة ـ: قرية سميت بذلك لبنائها على ساحل البحر؛ لأن الجدة شاطئ البحر. اهـ[2].

قوله: **(لسَرَعان القوم)**: ـ بفتح السين والراء ـ، وسرعان الناس: أوائلهم.

قوله: **(قال: لا طاعة لمخلوق. . .)** إلخ: أي: وقال لهم: «لو دخلوها، ما خرجوا منها أبداً»[3].

---

(1) أورده ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ٨٩٠). ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٧٠) من حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(2) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٢).

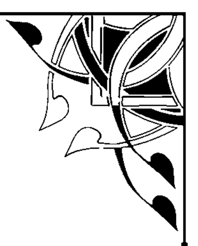
(3) رواه البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

قال الدحلاني: وعبدُالله بن حذافة هذا من قدماء المهاجرين ممن شهد بدراً، ومات بمصر في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

ومن مناقبه: ما أخرجه البيهقي عن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ قال: وجَّه عمرُ ـ رضي الله عنه ـ جيشاً إلى الروم، وفيهم عبدالله بن حذافة ـ رضي الله عنه ـ، فقال له ملك الروم: تنصَّرْ وأشركك في ملكي، فأبى، فأمر به أن يصلب إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به، بكى، فقال: رُدّوه، فقال له: لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لي مئةَ نفس تلقى هذا في الله، فعجب منه، ثم قال له: قَبِّلْ رأسي، وأنا أُخلي عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه، فخلى سبيلَهم، فقدم بهم على عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقام فقبل رأسه ـ رضي الله عنهما ـ. اهـ[1].

□ □ □

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٨)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣٩).

السَّنَة التَّاسِعَة

سرية [علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لهدم الفلس]

في ربيع الأول أرسل عليه الصلاة والسلام عليَّ بنَ أبي طالب في مئة راكب وخمسين فارساً لهدم الفُلْس ـ صنمٍ لطيئ ـ فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عُبَّاده، هزمهم، . . . .

السنة التاسعة

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي والدحلاني بـ: سرية علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه[1] ـ.

قوله: (في خمسين فارساً): عبارة الحلبي: في خمسين ومئة رجل من الأنصار على مئة بعير وخمسين فارساً[2]، وعبارة الدحلاني: وبعث معه مئة وخمسين رجلاً من الأنصار، وفي رواية: كانوا مئتين[3].

قوله: (لهدم الفلس): ـ بضم الفاء وسكون اللام ـ. اهـ. حلبي[4].

لكن ضبطه في «القاموس» بالكسر[5].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٨).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٣).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: فلس).

واستاق نَعَمهم وشاءهم وسبيهم، وكان فيه سَفَّانةُ بنت حاتم طيِّئ .

ولما رجع عليٌّ إلى المدينة، طلبت سفَّانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يَمُنَّ عليها، فأجابها؛ لأنه كان من سنته صلى الله عليه وسلم أن يكرم الكرام، فدعت له، وكان من دعائها: شكرتْكَ يدٌ افتقرتْ بعد غنى، ولا ملكتكَ يدٌ استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سبباً لردّها عليه[1].

قوله: (سفانة): ـ بفتح السين وتشديد الفاء ـ، والسفانة في الأصل: الدَّرة.

قال الحلبي: ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأخت عَدِيّ، فقامت إليه، وكانت امرأة جذلة ـ أي ذات وقار وعقل ـ وكلمته صلى الله عليه وسلم أن يمنَّ عليها، فمنَّ عليها، فأسلمت ـ رضي الله عنها ـ، وخرجت إلى أخيها عدي، فأشارت عليه بالقدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدم كما سيأتي.

ويذكر أنها قالت له: يا محمد! أرأيت أن تخلي عنا، ولا تشمت بنا أحياء العرب؛ فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني ـ الأسير ـ، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردَّ طالبَ حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيئ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «يا جارية! هذه صفة المؤمنين حقّاً، لو كان مسلماً، لترحمنا عليه، خلوا عنها؛ فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق»[2].

---

(١) لم نقف عليه، وروى أبو بكر الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٤٤٧) عن بلال بن سعد قال: قضى سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ حاجة للحرقة بنت النعمان بن المنذر، فكان من دعائها له أن قالت له: لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا أزال عن كريم نعمةً، ولا زالت عن عبد صالح نعمةٌ؛ إلا جعلك الله سبيلاً إلى ردِّها.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، والحديث =

وكانت هذه المعاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم سبباً في إسلام أخيها عديِّ بنِ حاتم الطائيِّ الذي كان فرّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث مجيئه: أن أخته توجهت إليه بالشام، وأخبرته بما عُوملت به من الكرم، فقال لها: ما ترين في أمر هذا الرجل؟ فقالت: أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبيّاً، فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً، فأنت أنت، قال: والله! هذا هو الرأي[1].

قوله: (وكانت هذه المعاملة. . .) إلخ: قال الدحلاني نقلاً عن ابن إسحاق: لما أصابت خيله صلى الله عليه وسلم ابنة حاتم في سبايا؛ جعلت في حظيرة المسجد، فمر بها صلى الله عليه وسلم، فقامت إليه، وكانت جزلة فقالت: يا رسول الله! هلك الوالد، وغاب الوافد، فقال: ومن أوفدك؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: «الفارّ من الله ورسوله؟ لأنه فر لما رأى الجيش، فمضى حتى كان الغد قالت: مر بي فقلت له، وقال لي مثل ذلك، حتى كان بعد الغد مرّ بي ويئست، فأشار إليّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو خلفه أنْ قومي إليه فكلميه، فقمت فقلت: يا رسول الله! هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك، قال: «قد فعلت، فلا تعجلي حتى تجدي ثقة يبلغك بلادك، ثم آذنيني»، فقدم رهط من طيئ، قالت: فأخبرته أن لي فيهم ثقة وبلاغاً، فكساني وحملني وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي. . . إلخ ما في كلام المصنف[2].

قوله: (فإن يكن نبيّاً) قال الحلبي: ولعلها لم تظهر له إسلامها؛ لئلا ينفر

= المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٤١) من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٩). وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧٦).

فخرج حتى جاء المدينة، ولقي رسولَ الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «من الرجل؟» قال: عديٌّ بن حاتم، فأخذه إلى بيته، وبينما هما يمشيان، إذ لقيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم امرأة عجوز، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تُكَلمه في حاجتها، فقال عدي: والله! ما هو بملك، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته، تناول وِسادة من جلد محشوّة ليفاً، فقدّمها إلى عدي، وقال: «اجلسْ على هذه»، فقال: بل أنت تجلس عليها، فامتنع عليه الصلاة والسلام، وأعطاها له، وجلس هو على الأرض، ثم قال: «يا عدي! أسلم تسلمْ»، قالها ثلاثاً، فقال عدي: إني على دين، وكان نصرانيًّا. فقال له عليه الصلاة والسلام: «أنا أعلم بدينك منك»، فقال عدي: أأنت أعلم بديني منّي؟ قال: «نعم»، ثم عدّد له أشياء كان يفعلها اتباعاً لقواعد العرب، وليست من دين المسيح في شيء، كأخذِه المرباع وهو ربع الغنائم، . . . .

طبعه من قولها له: (إن يكن نبيّاً)؛ أي: على الفرض والتنزل، تحريضاً له على اللحوق به صلى الله عليه وسلم[1].

وفود عدي بن حاتم

قوله: (وجلس هو على الأرض): قال عدي: فقلت: والله! ما هذا بأمر ملك[2].

قوله: (وهو ربع الغنائم)؛ أي: كما هو شأن الأشراف من أخذهم في الجاهلية ربع الغنيمة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فإن ذلك لم يكن يحل

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٨).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧٨).

ثم قال: «يا عدي! إنما يمنعك من الدخول في الدين ما ترى، تقول: إنما اتَّبعه ضَعَفةُ الناس ومَنْ لا قدرة لهم، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله! ليُوشكَنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتى لا يُوجد مَنْ يأخذه، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحِيْرة؟» قال: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فو الله! ليتمَّنَّ هذا الأمر حتى تخرج المرأة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولعلّك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وايمُ الله! ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم»[1]، فأسلم عديٌّ ـ رضي الله عنه ـ، وعاش حتى رأى كل ذلك.

لك في دينك»، فقلت: أجل، والله! عرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يُجهل[2].

قوله: **(وعاش حتى رأى كل ذلك)**: عبارة الحلبي: قال عدي: وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت، وايم الله لتكونن الثانية: ليفيضُ المال حتى لا يوجد من يأخذه[3].

قال الدحلاني: وكان ـ رضي الله عنه ـ من فضلاء الصحابة، لم يرتدَّ مع من ارتدَّ من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، بل ثبت على الإسلام، وكان يبعث بصدقات قومه إلى الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ، وحضر فتوح العراق، مات سنة

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٧)، من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٧) من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٩)، والحديث رواه البخاري (٣٥٩٥)، والإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٣٧٧)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧٨).

ثمان وستين، وهو ابن مئة وعشرين، وقيل: مئة وثمانين، وروى له أصحاب السنن الستة.

وروى ابن المبارك في «الزهد» عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: ما دخل وقت صلاة إلا وأنا أشتاق إليها[1].

وفي رواية: ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء[2].

وكان جواداً.

وقد روى الإمام أحمد: أن رجلاً سأله مئة درهم، فقال: تسألني مئة درهم وأنا ابن حاتم؟ والله! لا أُعطيك[3].

بِأَبِهِ اقتدى عديٌّ في الكَرَمْ
ومن يشابِهْ أَبَهُ فما ظَلَمْ[4]

غزوة تبوك

قوله: (غزوة تبوك) قال الدحلاني: على وزن (تقول)، لا ينصرف للعلمية ووزن الفعل، وقيل: للعلمية والتأنيث، وجوز بعضهم صرفه على إرادة المكان، وهو مكان معروف بينه وبين المدينة من جهة الشام أربعَ عشرةَ مرحلة، وبينه وبين

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/ ٤٦٠).

(٢) ورواه أبو بشر الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٤٩٤) من طريق محمد بن عبدالله بن المبارك.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٣٩)، والخبر المذكور رواه أبو عوانة في «مسنده» (٥٩٦١) من طريق الإمام أحمد.

(٤) البيتان لرؤبة بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص: ١٨٢).

أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عُسْرة الناس، وجدب البلاد، وشدة الحرّ حين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، فأمر عليه الصلاة والسلام بالتجهز، وكان قلّما يخرج في غزوة إلا ورّى بغيرها، ليُعَمِّي الأخبار على العدو، إلا في هذه الغزوة؛ فإنه أخبر بمقصده؛ لبُعد الشّقةِ، ولشدة العدوِّ؛ ليأخذ الناس عدّتهم لذلك، وبعث إلى مكة وقبائل الأعراب يستنفرهم لذلك، وحثَّ الموسرين على تجهيز المعسرين، ....

دمشق إحدى عشرة ـ وقيل: اثنتا عشرة ـ مرحلة، وقيل: هو نصف الطريق بين المدينة ودمشق، وهي غزوة العسرة ـ بضم العين وسكون السين ـ ، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[التوبة: ١١٧]، وتعرف بالفاضحة؛ لافتضاح المنافقين فيها، قالوا: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾[التوبة: ٨١]، وقد فضحهم الله في آيات كثيرة في سورة التوبة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ [التوبة: ٤٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥]، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة. اهـ[١].

قوله: (**إن الروم جمعت الجموع**) قال الدحلاني: اختلف في سبب هذه الغزوة؛ فقال بعضهم: سببها: أنه صلى الله عليه وسلم بلغه من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل، وهو قيصر ملك الروم، واجتمعت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان، وغيرهم من متنصِّرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء، فلما بلغه صلى الله عليه وسلم ذلك، ندب الناس إلى الخروج، وأعلمهم بالمكان الذي يريد؛ ليتأهبوا لذلك بما يحتاجونه في السفر والحرب[٢].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٠).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ١٦٥).

وروى الطبراني من حديث عمرانَ بنِ حصين الخزاعيِّ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هـذا الرجل الذي يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون، فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك، فالآن، فبعث رجلاً من عظمائهم يقال له: قباذ، وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فندب الناس للخروج. اهـ[1].

وقيل: سببها: أن الله لما منع المشركين من قرب المسجد الحرام في الحج وغيره؛ قالت قريش: لتقطعن عنا المتاجر والأسواق، وليذهبن ما كنا نصيب منها، فعوضهم الله بالأمر بقتال أهل الكتاب حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[التوبة: ١٢٣]، فعزم صلى الله عليه وسلم على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولاهم بالدعوة إلى الحق؛ لقربهم إلى الإسلام[2].

قوله: (فأنفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار): قال الحلبي: فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل، وهي تسع مئة بعير، ومئة فرس، والزاد، وما يتعلق بذلك، حتى ما تُربط به الأسقية، ولما صبت بين يديه العشرة آلاف دينار، جعل صلى الله عليه وسلم يقول بيديه، ويقلبها ظهراً لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها»[3].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ٢٣١)، وفيه: «الضناد» بدل «قباذ»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٩١): وفيه العباس بن الفضل الأنصاري، وهو ضعيف.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٠ـ ٣٤١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٠)، والحديث المذكور رواه =

وأعطى ثلاث مئة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللهمّ ارضَ عن عثمان؛ فإني راضٍ عنه».

وجاء أبو بكر بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «هل أبقيتَ لأهلك شيئاً؟» فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله[1].

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمئة أوقية، ....

قوله: (وأعطى ثلاث مئة بعير...) إلخ: هذه رواية أخرى، والأحلاس: جمع حِلْس، كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله، والأقتاب: جمع قتب، الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

قوله: (فقال عليه السلام[2]: اللهم ارض عن عثمان...) إلخ: قال الحلبي: وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله تعالى عنه ـ: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان، يقول: «اللهم! عثمانُ رضيتُ عنه، فارض عنه». اهـ[3].

قوله: (وجاء أبو بكر بكل ماله): قال الحلبي: كان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، جاء بجميع ماله... إلخ ما ذكره المصنف[4].

= ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/ ٣٤٠) من حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، وقال ابن عدي: هذا الحديث بهذا الإسناد غير محفوظ.

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)، من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) في الأصل: «عثمان» بدل «عليه السلام»، والصواب المثبت.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٠)، والحديث المذكور رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٥٤).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٠).

وجاء العباسُ وطلحةُ بمال كثير. وتصدّق عاصمُ بنُ عديّ بسبعين وسْقاً من تمر، وأرسلت النساء بكل ما يقدرن عليه من حُليهن، وجاءه صلى الله عليه وسلم سبعةُ أنفس من فقهاء الصحابة يطلبون إليه أن يحملهم. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وأعينُهم تفيض من الدمع حَزَناً ألّا يجدوا ما يُنفقون[1]، فجهز عثمان ثلاثةً منهم، وجهز العباسُ اثنين، وجهز يامينُ ابنُ عمرٍو اثنين.

قوله: (سبعة أنفس من فقهاء الصحابة)؛ أي: من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح أخو بني سلمة، وعبدالله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبدالله ابن عمرو المزني، وهرمي بن عبدالله أخو بني واقف، وعرباض بن سارية الفزاري. اهـ. ابن هشام[2].

قوله: (ما ينفقون)؛ أي: ما يحملهم، ومن ثم قيل لهم: البكاؤون. اهـ. حلبي[3].

قوله: (وجهز يامين بن عمرو اثنين): قال ابن هشام: هما: أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعبدالله بن مغفل، لقيهما وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحاً له، فارتحلاه،

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة: ٩٢]. والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢١٨) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠١).

ولما اجتمع الرجال، خرج بهم رسول الله، وهم ثلاثون ألفاً، وولّى على المدينة محمدَ بنَ مسلمة، وعلى أهله عليَّ بنَ أبي طالب، وتخلَّفَ كثير من المنافقين يرأسهم عبدُالله بن أُبَيّ، وقال: يغزو محمد بني الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد! أيحسبُ محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب؟ والله! لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال. واجتمع جماعة منهم، . . . .

وزودهما شيئاً من تمر[1].

وذلك صاعان لكل واحد؛ كما في الحلبي[2].

قوله: (وهم ثلاثون ألفاً)، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس. اهـ. حلبي[3].

قوله: (يرأسهم عبدالله بن أبي)؛ أي: وذلك بعد [أن] كان قد خرج بقومه، وعسكر بهم أسفل من ثنية الوداع، وبعد أن قال ما ذكره المصنف، رجع بقومه. اهـ. دحلاني[4].

قوله: (واجتمع جماعة منهم)؛ أي: في بيت سويلم اليهودي، فقال بعضهم: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضِهم بعضاً؟! والله! لكأني بهم غداً مقرنين بالحبال[5].

والجلاد: الضراب بالسيوف. اهـ. دحلاني[6].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٩٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٢).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٤)، وما بين معكوفتين منه.

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

(٦) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٤).

فقالوا في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما يريدون من الإرجاف، فبلغه ذلك، فأرسل إليهم عمّار بن ياسر يسألهم عمّا قالوا، فقالوا: إنما كنّا نخوض ونلعب[1].

وجاء إليه جماعة منهم الجَدُّ بنُ قيس يعتذرون عن الخروج، فقالوا: يا رسول الله! ائذنْ لنا ولا تفتنّا؛ لأنّا لا نأمن من نساء بني الأصفر، . . . . .

قال في «زاد المعاد»: ومن هؤلاء الجماعة: وديعة بن ثابت أخو بني عمرو ابن عوف، ومنهم رجل من أشجع يقال له: مخشي بن حمير[2].

قوله: (فأرسل إليهم عمار بن ياسر): قال الدحلاني: قال له: «أدرك القوم، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا»[3].

قوله: (ائذن لنا)؛ أي: في التخلف.

قال الحلبي: قال الجَدُّ للنبي صلى الله عليه وسلم: فوالله! لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «قد أذنتُ لك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩][4]؛ أي: التي هي التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرغبةُ عنه.

وفي رواية: لما قال الجد للنبي صلى الله عليه وسلم ما قال، لامه ولده

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٨٦) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٣٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٤)، والخبر المذكور أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٢٠٦).

(٤) أورده ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ١٩٦).

وجاء إليه المعذِّرون من الأعراب ـ وهم أصحاب الأعذار من ضعف أو قلّة ـ ليؤذن لهم، فأذن لهم، وكذلك استأذن كثير من المنافقين، فأذن لهم، وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله في سورة براءة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[براءة: ٤٣]، ثم قال في حقهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[براءة: ٤٥]، . . . .

عبدالله ـ رضي الله عنه ـ، وقال له: والله! ما يمنعك إلا النفاق، وسينزل الله فيك قرآناً، فأخذ نعله وضرب به ولده، فلما نزلت الآية، قال له: ألم أقل لك؟! فقال له: اسكتْ، فوالله! لأنت أشدُّ علي من محمد. اهـ[1].

قوله: (وجاء إليه المعذرون من الأعراب)؛ أي: وكانوا اثنين وثمانين رجلاً كما في الحلبي[2].

قوله تعالى: (﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾) بيان لما كنى عنه بالعفو ومعاتبته عليه، والمعنى: لأي شيء أذنتَ لهم في القعود حين استأذنوك واعتلوا بأكاذيب، وهلا توقفت ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣]؟

وقوله: (﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾)؛ أي: في التخلف.

(﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . . .﴾) إلخ: إذ ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، فإن الخُلَّص منهم يبادرون إليه، ولا يوقفونه على الإذن فيه، فضلاً أن يستأذنوا في التخلف عنه، أو أن يستأذنوك في التخلف كراهة أن يجاهدوا.

وقوله: (﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾)؛ أي: يتحيرون.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٣)، والخبر المذكور أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٣٨٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٤).

ثم كذبهم الله في عذرهم فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾[براءة: ٤٦]، ثم لكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين عنهم، قال جلَّ ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[براءة: ٤٧].

وتخلف جماعة من المسلمين لا يُتَّهمون في إسلامهم، منهم: كعبُ ابن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وأبو خيثمة. ولما خلَّف صلى الله عليه وسلم عليًّا، قال المنافقون: قد استثقله فتركه، . . . .

وقوله: (﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾): فحبسهم بالجبن والكسل.

(﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾) تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود.

وقوله: (﴿إِلَّا خَبَالًا﴾): فساداً وشرّاً.

وقوله: (﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ . . .﴾) إلخ؛ أي: ولأسرعوا ركائبهم بينكم بالنميمة والتضريب والهزيمة والتخذيل، من وضعَ البعيرُ وضعاً: إذا أسرع، يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم، أو الرعب في قلوبكم، وفيكم ضَعَفَة يسمعون قولهم ويطيعونهم.

وقوله: (﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾)؛ أي: يعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم[1].

قوله: (منهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع): سيأتي فصل على حدةٍ في شأنه.

قوله: (وأبو خيثمة): اسمه: مالك بن قيس، وسيأتي ما كان من أمره قريباً.

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ١٤٩).

فأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشكا له ما سمع، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارونَ من موسى؟».

ثم سار صلى الله عليه وسلم بالجيش، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق، وفي إعطاءِ اللواء لأبي بكر آخر غزوة للرسول صلى الله عليه وسلم، وتخليفِ عليٍّ على أهل البيت حكمةٌ لطيفة، يفهمها القارئ. وفرَّق عليه الصلاة والسلام الرايات، فأعطى الزبيرَ رايةَ المهاجرين، وأُسَيدَ بن حُضَير راية الأوس، والحُبابَ بنَ المنذر رايةَ الخزرج، ولما مرَّ الجيش بالحِجْر، وهي ديار ثمود، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: . . . .

قوله: (فأسرع إلى رسول الله. . .) إلخ: قال الحلبي: حين قيل فيه ذلك، أخذ سلاحه، ثم خرج حتى لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون أنك ما خلفتني إلا استثقلتني وتخففت مني، فقال: «كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى عليه السلام في قومه»، فرجع عليٌّ إلى المدينة. اهـ[1].

قوله: (ولما مر الجيش بالحجر): قال الحلبي: ولما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر ديارِ ثمود؛ سجى ثوبه على رأسه، واستحث راحلته، وقال: «لا تدخلوا بيوتَ الذين ظلموا إلا وأنتم باكون؛ خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»[2]؛ أي: لأن البكاء يتبعه التفكر والاعتبار، فكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٤)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٩٩).

(٢) رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٢٠٢) بلاغاً عن الزهري مرسلاً.

«لا تدخلوا ديار الذين ظلموا إلا وأنتم باكون»؛ ليشعر في قلوبهم رهبة الله، وكان مستعملاً على حرس الجيش عبَّادَ بن بشر، وكان أبو بكر يصلي بالجيش، ولما وصلوا إلى تبوك، وكانت أرضاً لا عمارة فيها، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: «يُوشِكُ ـ إن طالت بك حياة ـ أن ترى ما هنا مُلِئ بساتين»[1]، وقد كان.

ولما استراح الجيش، لحقه أبو خيثمة، وكان من خبر مجيئه: أن دخل على أهله في يوم حارّ، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في بستان، قد رشت كلٌّ منهما عريشتها، وبرَّدت فيها ماء، وهيأتْ طعاماً، وكان يوماً شديد الحر، فلما نظر ذلك قال: ....

يقلب القلوب، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك. اهـ[2].

قوله: (وكان أبو بكر يصلي بالجيش): يشعر أنه كان صلى الله عليه وسلم يقتدي به، وليس كذلك، فإنه لم يقتد به إلا في مرض موته.

قال الدحلاني: ويظهر أنه كان يصلي مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ بعضُ القوم، ومع النبي صلى الله عليه وسلم بعض؛ لكثرة القوم، فلما تأخر صلى الله عليه وسلم في قضاء الحاجة في يوم من الأيام؛ صلى عبدُ الرحمن بن عوف بالناس، وبعد أن أتى بركعة، جاء النبي صلى الله عليه وسلم واقتدى به في الركعة الثانية[3].

---

(١) رواه مسلم (٧٠٦/ ١٠) من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: «جناناً» بدل «بساتين».

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٦)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٩٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٤٧)، وخبر صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم خلف عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٤٧) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ.

يكون رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الحر، وأبو خيثمةَ في ظل بارد، وماء مهيأ، وامرأة حسناء؟! ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله! لا أدخل عريشَة واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم ركب بعيره، وأخذ سيفه ورمحه، وخرج يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصادفه حين نزل بتبوك.

وفود صاحب أيْلة

هذا، ولم يرَ صلى الله عليه وسلم بتبوك جيشاً كما كان قد سمع، فأقام هناك أياماً. . . . .

قوله: (فصادفه حين نزل تبوك): قال الحلبي: فلما دنا [أبو] خيثمة قال الناس: هذا ركب مقبل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله! هو ـ والله ـ أبو خيثمة، فلما أقبل يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أولى لك يا أبا خيثمة»، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيراً»، ودعا له بخير[1].

و(أولى لك): كلمة تهديد وتوعُّد. اهـ[2].

وفود صاحب أيلة

قوله: (فأقام هناك أياماً): قيل: بضع عشرة ليلة، وقيل: عشرين ليلة، وفر الناس من أهل الكتاب وغيرهم رعباً منه صلى الله عليه وسلم عند سماعهم

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٠١). ورواه مسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مختصراً.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ١٩٩).

جاءه في أثنائها يُوحَنَّا[1]، صاحبُ أيلة، وصحبته أهلُ جَرْباء، وأهلُ أَذْرُح، وأهل مَقْنا، فصالح يُوحَنَّا رسول الله على إعطاء الجزية، ولم يُسلم. وكتب له الرسول كتاباً هذه صورته:

كتاب صاحب أيلة

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمدٍ النبيِّ رسولِ الله ليوحنَّا بنِ رؤبةَ وأهلِ أيلة: سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمدٍ النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، . . . .

بمسيره، فكان من الحكمة في هذه الغزوة ما حصل من إغاظة الكفار، وظهور عز المسلمين، وفضيحة المنافقين وإذلالهم. اهـ. دحلاني[2].

وقال في آخر هذه الغزوة: وقدم صلى الله عليه وسلم من تبوك في رمضان سنة تسع[3].

قوله: (أذرُح) هو: ـ بضم الراء المهملة ـ.

قوله: (فصالح يوحنا على إعطاء الجزية)؛ أي: بعد أن عرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام.

كتاب صاحب أيلة

قوله: (فإنه لا يحوز[4]) تابع المصنف فيه النسخة المطبوعة من «السيرة

---

(١) قال نور الدين الحلبي في «سيرته»: يُحَنَّة بضم المثناة تحت وفتح الحاء المهملة ثم نون مشددة مفتوحة ثم تاء التأنيث.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٩١).

(٤) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

وإنه لَطيبةٌ لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحلّ أن يُمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر»[1].

كتاب أهل أَذْرُح وجَرْبَاء

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمدٍ النبيِّ لأهل أذرُح وجرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وإن عليهم مئة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين»[2].

وصالَح أهل مَقْنا على ربع ثمارها.

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعدُ منها من ديار الشام، فقال له عمر: إن كنت أُمرت بالسير فسِرْ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنت أُمرت بالسير لم أَسْتَشِرْ»، فقال: يا رسول الله! إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوُّك، فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً، فتبع عليه الصلاة والسلام مشورته، . . . .

الحلبية»[3]، والصواب: لا يحول؛ كما في «السيرة الدحلانية»، وفي «زاد المعاد»[4].

كتاب أهل أذرح وجرباء

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٠٧).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٩٠) عن الواقدي.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١١٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٥٣)، و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٣٧).

وأمر بالقفول، فرجع الجيش إلى المدينة[1].

مسجد الضِّرار

ولما كان على مقربة منها، بلغه خبر مسجد الضِّرار، وهو مسجد أسَّسه جماعةٌ من المنافقين معارضةً لمسجد قُباء؛ ليفرقوا جماعة المسلمين. وجاء جماعة منهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم طالبين منه أن يصلِّي لهم فيه، فسألهم عن سبب بنائه، فحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى، والله يشهد إنهم لكاذبون، فأمر عليه الصلاة والسلام جماعة من أصحابه لينطلقوا إليه، ويهدموه، ففعلوا.

مسجد الضرار

قوله: (**على مقربة منها**)؛ أي: من المدينة في مكان يقال له: ذو أوان، بينه وبين المدينة ساعة من نهار. اهـ. حلبي[2].

قوله: (**بلغه خبر مسجد الضرار**): قال الله تعالى في سورة براءة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨].

قال الخازن: نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق بنوا هذا المسجد، ﴿ضِرَارًا﴾؛ يعني: مضارة للمؤمنين، ﴿وَكُفْرًا﴾ يعني: ليكفروا فيه بالله ورسوله، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء، فأدى ذلك إلى الاختلاف

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢/ ٣٧) عن الواقدي عن شيوخه، وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١١٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٢٢).

هذا، ولما استقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة، جاءه جماعات من الذين تخلفوا يعتذرون كذباً، فقبل منهم عليه الصلاة والسلام علانيتهم، ووكل ضمائرهم إلى الله، واستغفر لهم.

وافتراق الكلمة، فلما فرغوا من بنائه، أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو بالبركة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا فيه».

وقوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: بنوه إرصاداً؛ أعني: انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله.

﴿مِن قَبْلُ﴾ يعني: من قبل بناء هذا المسجد، وهو أبو عامر الراهب والدُ حنظلة، وكان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المُسوح وتنصَّر، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، حصل بينه وبين أبي عامر محاورة، قال له أبو عامر في آخرها: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «آمين»، وسماه الناس أبا عامر الفاسق، ولما كان يوم أُحد، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، فلم يزل كذلك إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن، يئس أبو عامر، وخرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً؛ فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجد الضرار.

ولما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك راجعاً، نزل بذي أوان، فأتاه المنافقون، وسألوه أن يأتي مسجدهم، فأنزل الله هذه الآية، وأخبره خبر مسجد الضرار، وما هموا به، فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مالكَ بنَ

وجاءه كعبُ بن مالكٍ الخزرجيُّ، ومُرارة بن الرّبيع، وهلال بن أميَّة الأوسيّان مقرِّين بذنوبهم، فلما دخل عليه كعب، تَبَسَّم تَبَسُّمَ الغَضب، وقال: «ما خلَّفك؟» فقال: يا رسول الله! لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أن سأخرجُ من سخطه بعذر، ولقد أُوتيتُ جدلاً، ولكني ـ والله ـ لقد علمتُ لئن حدَّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكَنَّ الله أن يسخط عليَّ فيه، ولئن حدثتك حديث صِدق تغضب عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفوَ الله، والله! ما كان لي من عذر. فقال عليه الصلاة والسلام: «أما هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». وقال صاحباه مثلَ قوله، . . . .

الدخشم، ومعنَ بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشيّاً، فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدموه وأحرقوه»، ففعلوا ذلك[1].

ومات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضارُّ أحدُهما الآخر[2].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ معناه: لا تصل فيه أبداً. اهـ. باختصار[3].

حديث الثلاثة الذين خلفوا

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢١١ ـ ٢١٢)، والخبر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٢٣ ـ ٢٤) من طريق ابن إسحاق عن الزهري، ويزيد ابن رومان، وعبدالله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وغيرهم.

(٢) رواه البغوي في «تفسيره» (٢/ ٣٢٧).

(٣) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٧).

فقال لهما عليه الصلاة والسلام كما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، واستأذنتْ زوجُ هلال بن أمية في خدمة زوجها؛ لأنه شيخ ضائع ليس له خادم، فأذن لها، . . .

قوله: **(فاجتنبهم الناس)** قال الحلبي: أما الرجلان، فمكثا في بيوتهما يبكيان، وأما كعب، فكان يشهد الصلاة مع المسلمين، ويطوف بالأسواق، فلا يكلمه أحد منهم، قال: ولما طال ذلك عليَّ من جفوة الناس؛ تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمت عليه، والله! ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت إليه فنشدته فسكت، فعدت إليه فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: وبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني، دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، وهو الحارث بن أبي شِمر، أو جبلة بنُ الأيهم، وكان الكتاب ملفوفاً في قطعة من الحرير، فإذا فيه: أما بعد: فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحَقْ بنا نواسيك، فقلت لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فيممت به التنور، فسجرتُه بها[1].

قوله: **(وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم)**: قال الحلبي: قال كعب: لما مضى أربعون ليلة، جاءني رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٢٥).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٢٥).

ولم يزالوا كذلك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم، فأرسل لهم عليه الصلاة والسلام مَنْ يبشرهم بهذه النعمة الكبرى، فتلقاهم الناس أفواجاً يهنئونهم بتوبة الله. فلما دخل كعبٌ المسجد، تلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مسروراً، فقال: «أبشرْ يا كعبُ بخير يوم يمرُّ عليك منذ ولدتك أمك»، فقال: مِن عندك يا رسولَ الله، أم من عند الله؟ قال: «بل من عند الله». فقال كعب: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً لله ولرسوله، فقال عليه الصلاة والسلام: «أمسكْ عليك بعضَ مالك، فهو خير لك». ثم قرأ عليه الصلاة والسلام الآيات التي فيها توبتُه هو وصاحباه في سورة براءة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ . . . .

قوله: (ثم تاب عليهم) قال الحلبي: قال كعب: لما مضت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا؛ سمعت صوتاً عند صلاة الفجر فوق جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعبُ بنَ مالك! أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آذن بتوبة الله علينا، فلما جاءني الرجل الذي سمعت صوته يبشرني، وهو حمزة بن عمرو الأوسيّ؛ نزعتُ له ثوبيّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله! لا أملك غيرَهما يومئذ، واستعرت من أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ ثوبين، فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلقاني الناس أفواجاً أفواجاً يهنئوني بالتوبة[1].

قوله تعالى: (﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾)؛ أي: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا، عطف على ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ في الآية قبلها.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١٢٦)، وخبر كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[براءة: ١١٨].

وفود ثقيف

وعَقِبَ مقدَمه عليه الصلاة والسلام من تبوك وفدَ عليه وفد ثقيف، . .

(﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾): برحبها؛ أي: مع سَعَتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً.

(﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾)؛ أي: قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم.

(﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾): وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره.

(﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾): فيه إضمار وحذف تقديره: وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فرحمهم، ثم تاب عليهم، وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ تأكيد لقبول توبتهم؛ لأنه قد ذكر توبتهم في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ كما تقدم، وأنه عطف على قوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ . . .﴾ إلخ.

وقوله: (﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾) معناه: أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي؛ ليكون ذلك داعياً إلى التوبة في المستقبل، فيرجعوا ويداوموا عليها. اهـ. نسفي وخازن[1].

وفود ثقيف

قوله: (وعَقِبَ مقدَمه عليه السلام من تبوك) وكان ذلك في رمضان.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ١١٣)، و«تفسير الخازن» (٢/ ٤١٨ ـ ٤١٩).

وكان من خبرهم: أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من محاصرتهم، تبع أثرَه عروةُ بنُ مسعود الثقفي حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه، ويدعوَهم إلى الإسلام، فقال له: «إنهم قاتِلُوكَ»، فقال: يا رسول الله! أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم[1]، فخرج إلى قومه يرجو منهم طاعته لمرتبته فيهم؛ لأنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما جاء الطائف، وأظهر لهم ما جاء به، رموه بالنبل فقتلوه، وبعد شهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله رجلاً منهم يكلِّمه، وطلبوا من عبد ياليل بنِ عمرو أن يكون ذلك الرجل، فأبى، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجالاً، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم، فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، . . . . . .

قوله: (فقتلوه): قال الحلبي: قيل له قبل أن يموت: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم. اهـ[2].

قوله: (خمسة من أشرافهم) قال الحلبي: ويقال: وفد عليه صلى الله عليه وسلم تسعةَ عشرَ رجلاً هم أشراف ثقيف، فيهم كنانةُ بنُ عبد ياليل، وهو رأسهم، وعثمانُ بن أبي العاص، وهو أصغرهم[3].

قوله: (فخرجوا متوجهين إلى المدينة): قال الحلبي: لما قربوا من

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٢٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤١).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٢).

ضرب لهم قبة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلّوا. وكانوا يَغْدون إلى رسول الله كل يوم، ويخلِّفون في رحالهم أصغرهم سناً عثمانَ بنَ أبي العاص. فكان إذا رجعوا، ذهب للنبي صلى الله عليه وسلم واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر حتى حفظ شيئاً كثيراً من القرآن، وهو يكتم ذلك عن أصحابه، ثم أسلم القوم، وطلبوا أن يُعَيِّن لهم من يؤمُّهم، فأمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص؛ لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءةِ القرآن وتعلُّمِ الدين.

كتاب أهل الطائف

ثم كتب لهم كتاباً من جملته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيِّ رسولِ الله إلى المؤمنين، إن عِضَاهَ وَجّ وَصَيْدَهُ حَرَامٌ، لا يُعْضَدُ شجره، ومن وُجد يفعل شيئاً من ذلك، . . . .

المدينة، لقوا المغيرة بن شعبة الثقفي، فعلمهم كيف يحيون رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبوا إلا تحية الجاهلية، وهي: عِمْ صباحاً[1].

كتاب أهل الطائف

قوله: (ثم كتب لهم كتاباً) الكاتب له خالدُ بن سعيد بن العاص، وهو الذي كان يمشي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

قوله: (إن عضاه وَجّ): العِضاه: كل شجر له شوك، واحدهُ عِضَةٌ؛ كشفة وشِفاه.

و(وج): واد بالطائف. اهـ. حلبي[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٣).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٣).

فإنه يُجلَد وتُنزع ثيابُه»[1].

ثم سألوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يؤَجِّل هدمَ صنمهم شهراً حتى يدخل الإسلام في قلوب القوم، ولا يرتاع السفهاء من النساء من هدمه، فرضي بذلك عليه الصلاة والسلام، ولما خرجوا من عنده، قال لهم رئيُسهم: أنا أعلمُكم بثقيف، اكتموا عنهم إسلامكم، وخوِّفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً طلب أموراً عظيمة أبيناها عليه. سألَنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا وشربَ الخمر والربا، فلما حلّوا بلادهم، جاءتهم ثقيف، فقال الوفد: جئنا رجلاً فظّاً غليظاً قد ظهر بالسيف، ودان الناس له، فعرض علينا أموراً شديدة، وذكروا ما تقدم. فقالوا: والله! لا نطيعه أبداً، فقالوا لهم: ....

وقال الدحلاني: والقول بأخذ [سَلَب][2] المتعرض لصيد وَجّ والمدينةِ هو أحد قولين للشافعي ـ رضي الله عنه ـ، والمشهور عنه في وج وحرم المدينة أنه يحرم التعرضُ لصيدهما من غير جزاء. اهـ[3].

قوله: (فرضي بذلك): الصواب: إنه لم يرض بذلك.

قال الحلبي: سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم الصلاة، فقال: «لا خير في دين لا صلاة فيه»، وأن يترك لهم الزنا والربا وشرب الخمر، فأبى ذلك، وسألوه أن يترك لهم الطاغية التي هي صنمهم وهي اللات، وكانوا يقولون لها: الربة، لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم له، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فلا زالوا يسألونه سنة وهو يأبى عليهم، حتى سألوه

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ٣٣٠) عن عمرو بن حزم.

(٢) ما بين معكوفتين من «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ١٨).

أصلحوا سلاحكم، ورمُّوا حصونكم، واستعدوا للقتال، فأجابوا، واستمروا على ذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم، فقالوا: والله! ما لنا بحربه من طاقة، ارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فقال الوفد: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا: لِمَ كتمتم علينا ذلك؟ قالوا: حتى تذهب عنكم نخوة الشيطان، فأسلَموا.

شهراً بعد قدومهم، وأرادوا بذلك ليدخل الإسلام في قومهم، ولا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم بهدمها، فأبى عليهم ذلك. اهـ[١]، ومثله في الدحلاني[٢].

وفي «زاد المعاد» ـ بعد أن ذكر نحو ما تقدم ـ: فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: نعم لك ما سألت، أرأيت الربة ماذا تصنع فيها؟ قال: «اهدموها» قالوا: هيهات! لو تعلم الربة أنك تريد هدمها، لقتلت أهلها، فقال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل ما أجهلك! إنما الربة حجر! فقالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: تول أنت هدمها، فأما نحن، فإنا لا نهدمها أبداً، قال: «فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها»، فكاتبوه ـ أي: فكتبوا عند الصلح على الشروط التي اتفقوا عليها ـ فقال كنانة بن عبد ياليل: ائذن لنا قبل رسولك، ثم ابعث في آثارنا، فأنا أعلم بقومنا، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكرمهم وحباهم، فذهبوا، وكان من أمرهم ما ذكره المصنف[٣].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٣)، والخبر المذكور رواه ابن هشام في «السيرة النبوية» (٥/ ٢٢٥) عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ١٩).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٩٧)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٠٢) عن موسى بن عقبة.

هدم اللات

ولما بلغ رسولَ الله إسلام ثقيف، أرسل أبا سفيان، والمغيرةَ بنَ شعبةَ الثقفيَّ لهدم اللات: صنمِ ثقيفٍ بالطائف، فتوجهوا وهدموه حتى سوَّوْهُ بالأرض.

هدم اللات

قوله: (ولما بلغ رسول الله إسلام ثقيف): الصواب: ما قدمناه من أنهم قالوا: ائذن لنا قبل رسولك، ثم ابعث في آثارنا، وهكذا كان.

قال في «زاد المعاد»: ومكثوا أياماً، ثم قدم عليهم رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر عليهم خالد بن الوليد، وفيهم المغيرة بن شعبة، فلما قدموا، عمدوا إلى اللات ليهدموها، واستكفَّت[1] ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال[2] لا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة، يظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكرزين[3] وقال لأصحابه: والله! لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف بضجة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة، فقتلته الربة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً، وقالوا: من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها، فوالله! لا استطاع، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف! إنما لكاعِ حجارة ومَدَر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض، وجعل صاحب المفتاح يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع ذلك المغيرة، قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا ترابها، وانتزعوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، وأقبل الوفد حتى

---

(١) في الأصل: «استنكفت»، والمثبت من «زاد المعاد».

(٢) في الأصل: «الحجاب»، والمثبت من «زاد المعاد».

(٣) في هامش الأصل: «هو ـ بفتح الكاف وكسر الزاي ـ: فأس كبير. اهـ قاموس».

حج أبي بكر

وفي أُخريات ذي القعدة، أرسل عليه الصلاة والسلام أبا بكر ليحجّ بالناس، فخرج في ثلاث مئة رجل من المدينة، ومعه الهَدْي: عشرون بَدَنَةً أهداها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساق أبو بكر خمس بَدَنات، ولما سافر نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أوائلُ سورة براءة، فأرسل بها عليّاً ليبلغها الناسَ في يوم الحج الأكبر، وقال: «لا يبلِّغُ عني إلا رجلٌ منّي»، فلحق أبا بكر في الطريق[1]، فقال الصدِّيق: هل استعملك رسول الله على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ أو أتلو ﴿بَرَآءَةٌ﴾ على الناس. فلما اجتمعوا بمنى، يوم النحر، ....

دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه. اهـ[2].

واللكاع هنا: من لا يتجه لمنطق ولا غيره.

حج أبي بكر

قال الدحلاني: في السنة الثامنة أمر صلى الله عليه وسلم عتابَ بنَ أبي أَسيد أن يحج بالناس، وكان أميراً على أهل مكة، وفي السنة التاسعة أمر أبا بكر[3].

قوله: (أن أتلو عليهم براءة)؛ أي: وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده، وكان العهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عاماً وخاصًّا، فالعامّ: أن لا يُصد أحد عن البيت إذا جاءه، ولا يُخاف أحد في الأشهر الحرم، والخاصّ: بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة، وكانت عادة

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٥٩٣) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٦٥).

قرأ عليهم عليٌّ ثلاثَ عشرةَ آية من أول سورة براءة، تتضمن نبذَ العهود لجميع المشركين الذين لم يوفّوا عهودهم، وإمهالَهم أربعة أشهر يسيحون فيها في الأرض كيف شاؤوا، وإتمامَ عهد المشركين الذين لم يُظاهروا على المسلمين، ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم نادى: لا يحجُّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان[1]، وكان عليٌّ يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ.

وفاة ابن أبيّ

وفي ذي القعدة مات عبدالله بن أُبَيٍّ، ....

العرب أن لا ينبذ العهد إلا من كان قريباً ممن أراد النبذ، فلذلك بعث صلى الله عليه وسلم علياً ـ رضي الله عنه ـ، ولم يكتف بأبي بكر ـ رضي الله عنه[2] ـ.

قوله: (لا يحج بعد العام مشرك...) إلخ: قال الدحلاني: لأنهم كانوا يحجون مع المسلمين، ويرفعون أصواتهم بقولهم: لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وكانوا يطوفون عراة بالليل، وليس على رجل منهم ثوب، ويقول الواحد منهم: أطوف بالبيت كما ولدتني أمي؛ أي: ليس عليّ [شيء] من الدنيا خالطه الظلم. اهـ[3].

وفاة ابن أُبي

قوله: (مات عبدالله بن أبي): قال الدحلاني: جاء في رواية الطبراني،

---

(١) رواه البخاري (٣١٧٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فيمن يؤذن يوم النحر بمنًى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٦٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٦٦).

وقد صلَّى عليه رسولُ الله صلاة لم يطل مثلها، وشَيَّعَ جنازته حتى وقف على قبره، وإنما فعل ذلك؛ تطييباً لقلب ولدِه عبدِالله بنِ عبدالله، وتأليفاً لقلوب الخزرج؛ لمكانة عبدالله بن أبيّ فيهم، وقد نزع ربقةَ النفاق كثير من المنافقين بعد هذا اليوم؛ لما رأوه من أعمال السيد الكريم صلى الله عليه وسلم، . . . .

وعبد الرزاق عن قتادة قال: أرسل عبدالله بن أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل عليه قال: «أهلكك حب يهود؟» فقال: يا رسول الله! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتوبخني، ثم سأله أن يعطيه قميصهُ يكَفَّن فيه، فأجابه[1].

قوله: (وإنما فعل ذلك. . .) إلخ: قال الدحلاني: وإنما فعل صلى الله عليه وسلم ذلك لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين، ولتطييب قلب ولده الرجل الصالح، ولتألف الخزرج؛ لرياسته فيهم، فلو لم يجب ابنه، وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي؛ لكان سبة على ابنه، وعاراً على قومه، فاستعمل صلى الله عليه وسلم أحسنَ الأمرين في السياسة إلى أن كشف الله الغطاء.

ثم قال: روى الطبراني عن قتادة قال: ذُكر لنا: أنه صلى الله عليه وسلم قال: «وما يغني عنه قميصي من الله؟ وإني لأرجو أن يسلم ألف من قومه»[2].

وفي «شرح القسطلاني على البخاري»: أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يستشفع بثوبه صلى الله عليه وسلم، ويتوقع اندفاع العذاب عنه. اهـ[3].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٦٧)، والخبر المذكور رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٨٥). ولم نقف عليه عند الطبراني، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٠٦).

(٢) لم نقف عليه عند الطبراني، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٢٠٦).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٦٨). وانظر: «إرشاد الساري» للقسطلاني (٧/ ١٥٤).

وقد نهى الله رسوله عن الصلاة على المنافقين، فقال جلّ شأنه في سورة براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

وفاة أمّ كلثوم

وفي هذه السنة توفيت أُمّ كلثوم بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجُ عثمان ـ رضي الله عنهما ـ.

قوله: (ربقة النفاق): الربق ـ وزان حِمْل ـ: حبل فيه عدة عرًا تشد به البهم، الواحدة من العرا: ربقة، والمراد هنا: نزع عقد النفاق.

وفاة أم كلثوم

❐ ❐ ❐




السَّنَة العاشرة

سرية [خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى بني عبد المدان]

في ربيع الآخر أرسل عليه الصلاة والسلام خالدَ بنَ الوليد في جمع لبني عبد المَدَان بنجران من أرض اليمن، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاث مرات، فإن أبوا قاتلهم، فلما قدم إليهم، بعث الركبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ويقولون: أسلموا، تسلموا، فأسلموا، ودخلوا في دين الله أفواجاً، فأقام خالد بينهم يعلمهم الإسلام والقرآن، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فأرسل إليه أن يقدم بوفدهم، ففعل.

السنة العاشرة

سرية

قوله (سرية): عنونها الدحلاني بـ: بعث خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه[1] ـ.

قوله: (المدان): ـ بفتح الميم كسحاب ـ. اهـ. دحلاني[2].

وهو اسم صنم، وعبد المدان الذي نسبت القبيلة إليه هو جدهم الأعلى، واسمه: عمرو بن يزيد.

وقوله: (بنجران) سمي باسم نجرانَ بنِ زيد بن سبأ[3].

قوله: (أن يقدم بوفدهم): سماه الحلبي والدحلاني: وفد بني الحارث

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧٠).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧٠).

وحين اجتمعوا به صلى الله عليه وسلم قال لهم: «بِمَ كنتم تغلبون مَنْ قاتلكم في الجاهلية؟» قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: «صدقتم»، وأمَّر عليهم زيدَ بنَ حصين[1].

سرية [علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إلى بني مَذْحِج]

وفي رمضان أرسل عليه الصلاة والسلام علياً. . . . .

ابن كعب[2]، وابن هشام ذكر قصة وفودهم في الكلام على إسلامهم[3].

قوله: (وأمر عليهم زيد بن حصين) قال الحلبي: ولم يمكثوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم[4].

سرية

عنونها الحلبي بـ: سرية علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ إلى بني مذحج.

ومذحج؛ كمسجد، وهو أبو قبيلة من اليمن[5].

قال الدحلاني: وروى أبو داود وغيره من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله! تبعثني إلى قوم أسنّ مني وأنا حديثُ السن، قال: فوضع يده صلى لله عليه وسلم في صدره وقال: «اللهم ثبتْ لسانه، واهدِ قلبه»، وقال: «يا علي! إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر، فإنك إذا فعلت ذلك، تبين لك القضاء»، قال

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤١١ ـ ٤١٢) عن ابن إسحاق.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٣)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٣٤).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٩١).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٤).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٤).

في جمع إلى بني مذْحِج ـ قبيلة يمانية ـ وعَمَّمه بيده، وقال: «سر حتى تنزل بساحتهم، فادْعهم إلى قول: لا إله إلّا الله، فإن قالوا: نعم، فَمُرْهُمْ بالصلاة، ولا تبغِ منهم غيرَ ذلك، وَلأَنْ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك»[١]، فلما انتهى إليهم، لقي جموعَهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبَوا، ورموا المسلمين بالنبل، فصفَّ عليٌّ أصحابه، وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم، فكفَّ عن طلبهم، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا، وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن على مَنْ وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حقَّ الله، ففعل. ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوافاه بمكةَ في حجة الوداع.

علي: والله! ما شككتُ في قضاء بين اثنين[٢].

وكان عدد السرية ثلاث مئة فارس[٣].

وكانت خيله أول خيل دخلت إلى تلك البلاد.

قوله: (فقاتلوا حتى هزموا عدوهم)؛ أي: وقتلوا منهم عشرين رجلاً كما في الحلبي[٤].

قال الدحلاني: وكان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل علياً أواخر سنة ثمان إلى اليمن إلى همدان، فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب عليٌّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، فلما

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٤٤٥) عن أبي رافع ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه أبو داود (٣٥٨٢)، وابن ماجه (٢٣١٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧٠).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٥).

بعث العمال إلى اليمن

ثم بعث عليه الصلاة والسلام إلى اليمن عمالاً من قِبَله، فبعث معاذَ ابنَ جبل على الكورة العليا من جهة عدن، وبعث أبا موسى الأشعريَّ على الكورة السفلى، ووصّاهما صلى الله عليه وسلم بقوله: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا»[1]، وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهلَ كتاب، . . . .

قرأ الكتاب، خر ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: «السلام على همدان». اهـ[2].

بعث العمال إلى اليمن

قوله: (إلى الكورة العليا): قال في «فتح الباري»: المخلاف ـ بكسر الميم ـ هو بلغة أهل اليمن، وهو الكورة والإقليم، والرستاق: ـ بضم الراء[3] ـ.

قوله: (يسرا ولا تعسرا. . .) إلخ: قال النووي في «شرح مسلم»: وإنما جمع هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على (يسر)، لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعَسَّرَ في معظم الحالات، فإذا قال: (ولا تعسر) تنفي التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب، وكذا يقال في: «بشرا ولا تنفرا». اهـ[4].

قوله: (ستأتي قوماً أهلَ كتاب): قال في «فتح الباري»: هو كالتوطئة

---

(١) رواه البخاري (٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٢/ ٣٧١)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٩٦) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٦١).

(٤) انظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ٤١).

فإذا جئتهم، فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأَنَّ محمداً رسول الله، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوةَ المظلوم؛ . . . .

للوصية؛ لتستجمع همته عليها؛ لكون أهل الكتاب أهلَ علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان، وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإنما خصهم بالذكر؛ تفضيلاً لهم على غيرهم. اهـ[1].

وقال بعد أسطر: كان أصل دخول اليهودية في اليمن في زمن أسعد أبي كرب، وهو تُبَّع الأصغرُ كما حكاه ابن إسحاق في أوائل السيرة النبوية. اهـ[2].

قوله: (أطاعوا لك بذلك)؛ أي: شهدوا وانقادوا، واستدل به بعضهم على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع؛ حيث دُعوا أولاً إلى الإيمان فقط، ثم دُعوا إلى العمل، ورتب ذلك عليها بالفاء. اهـ. «فتح»[3].

قوله: (وإياك وكرائم أموالهم): الكرائم: جمع كريمة؛ أي: نفيسة، والنكتة فيه: أن الزكاة لمواساة الفقراء، فلا يناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك. اهـ. «فتح»[4].

قوله: (واتق دعوة المظلوم)؛ أي: تجنب الظلمَ لئلا يدعو عليك المظلوم، وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم.

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٥٨).
(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٥٩).
(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٥٩).
(٤) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٣/ ٣٦٠).

فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما أبو موسى، فقدم على الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.

حجة الوداع

وفي السنة العاشرة حج صلى الله عليه وسلم بالناس حجة ودّع فيها المسلمين، ولم يحج غيرها. وخرج لها يوم السبت لخمسٍ بقين من ذي القعدة[2]، وولّى على المدينة أبا دُجانة الأنصاريَّ، وكان مع الرسول صلى الله عليه وسلم جمعٌ عظيم يبلغ تسعين ألفاً، . . . .

وقوله: (حجاب)؛ أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع.

حجة الوداع

قوله: (حجة الوداع): لأنه ودع النبيُّ صلى الله عليه وسلم الناس فيها، ولم يحج بعدها، ويقال لها: حجة البلاغ، وحجة الإسلام، ولأنه ذكر لهم ما يَحِلّ وما يحرُم، وقال لهم: «هل بلغت؟»[3].

قوله: (لخمس بقين من ذي الحجة)[4] سبقُ قلم، والصواب: من ذي القعدة.

قوله: (يبلغ تسعين ألفاً): قال الدحلاني: خرج معه تسعون ألفاً، ويقال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، وهذه عدة من خرج معه، وأما الذين حجوا معه، فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكة، والذين أتوا من اليمن مع عليٍّ وأبي موسى ـ رضي الله عنهما ـ. اهـ[5].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) في «نور اليقين» (المطبعة الجامعة): «الحجة»، والتصويب من طبعة دار الإيمان.

(٣) رواه البخاري (٤٤٠٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) تقدمت الإشارة إلى الخطأ الحاصل في نسخة المتن.

(٥) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ١٢).

وأحرم للحج حيث انبعثت به راحلته، ثم لبّى، فقال: «لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والمُلْك لا شريك لك»[1].

ولم يَزَل صلى الله عليه وسلم سائراً حتى دخل مكة ضُحًى من الثنية العُليا وهي ثنية كَدَاء، ولما رأى البيت قال: «اللهمّ زدْه تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبراً»[2]، ثم طاف بالبيت سبعاً، واستلم الحجر الأسود، وصلّى ركعتين عند مقام إبراهيم، ثم شرب من ماء زمزم، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً على راحلته، . . . .

قوله: (حيث انبعثت به راحلته): قال الحلبي: وكان على راحلته صلى الله عليه وسلم رَحْلٌ رَثّ يساوي أربعة دراهم، وفي رواية: حج صلى الله عليه وسلم على رحل وقطيفة تساوي أو لا تساوي أربعة دراهم، وقال: «اجعله حجّاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعةً»[3]، وذلك عند مسجد ذي الحليفة، ثم أحرم بالحج والعمرة معاً، فكان قارناً[4].

قوله: (وهي ثنية كداء) قال الحلبي: وهي التي ينزل منها إلى المعلاة مقبرةٍ بمكة، وهي التي يقال لها الآن: الحَجون التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة. اهـ[5].

قوله: (راكباً) روي: أنه سعى راكباً، وروي: أنه سعى ماشياً.

قال الحلبي: قيل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن قومك يزعمون أن

---

(١) رواه البخاري (١١٨٤)، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٥٧٥٦) من حديث مكحول مرسلاً.

(٣) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٨٥٥) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٩).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣١٤).

وكان إذا صعد الصفا يقول: «لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلّا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[1].

وفي الثامن من ذي الحجة توجه إلى منى، فبات بها.

خطبة الوداع

وفي التاسع منه توجه إلى عَرَفة، وهناك خطب خطبته الشريفة التي بيَّن فيها الدين كلَّه، أُسَّهُ وفرعه، وهاكَ نصها:

«الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهدِ الله فلا مُضلَّ له، . . . .

السعي بين الصفا والمروة راكباً سنة، فقال: صدقوا وكذبوا، فقيل: كيف صدقوا وكذبوا؟ قال: صدقوا في أن السعي سنة، وكذبوا في أن الركوب سنة؛ فإن السنة المشي، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى في السعي، فلما كثر عليه الناس يقولون: هذا محمد، هذا محمد، حتى خرج العواتق من البيوت، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه الناس، ركب[2].

وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم مشى بين الصفا والمروة، والأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم ركب فيه. اهـ[3].

قوله: (وهزم الأحزاب وحده)؛ أي: هزمهم بغير قتال.

خطبة الوداع

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه مسلم (١٢٦٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣١٦).

ومن يُضْلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: أُوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأَحُثُّكُم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد:

أيها الناس! اسمعوا منّي أُبَيِّنْ لكم؛ فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيّها الناس! إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقَوا ربَّكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهمّ فاشهد، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإنَّ أول رباً أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماءَ الجاهلية موضوعة، وأوَّلُ دم أبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بنِ الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غيرَ السدانة والسقاية، والعَمْد قَوَدٌ، وَشِبْهُ العَمْد ما قُتِل بالعصا والحجر، وفيه مئة بعير، فمن زاد، فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس! إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

قوله: (كحرمة يومكم هذا...) إلخ؛ أي: كما يحرم فيه القتال، وكذلك الشهر، وكذلك البلد.

قوله: (دم عامر بن ربيعة): صوابه: دم ابن ربيعة.

قال السهيلي: واسمه آدم، وقيل: تمام[1].

قال ابن هشام: وكان مسترضَعاً في بني ليث، فقتلته هذيل[2].

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ١٧٩).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٦/ ٩).

قال السهيلي: وكان سببَ قتله حربٌ كانت بين قبائل هذيل تقاذفوا فيها بالحجارة، فأصاب الطفلَ حجرٌ وهو يحبو بين البيوت. اهـ(١).

قوله: (إن النسيء ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾) قال الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ . . .﴾ إلخ الآية: النسيء في اللغة: عبارة عن التأخير في الوقت، ومنه: النسيئة في البيع، ومعنى النسيء المذكور في الآية: هو تأخير شهر حرام إلى شهر آخر، وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم وتعظيمها، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وكانت عامة معايش العرب من الصيد والغارة، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية، وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم، فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال، فنسؤوا ـ أي: أخروا ـ تحريمَ شهر إلى شهر آخر، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم، ويحرمون صفر، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر، أخروه إلى ربيع الأول، فكانوا يصنعون هكذا، يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، وكانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذا باقي شهور السنة، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع المرة الثانية من ذي القعدة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل حجة الوداع، فوافق حَجُّه شهرَ ذي الحجة، وهو شهر الحج المشروع، فوقف في اليوم التاسع، وخطب الناس في اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السماوات والأرض، وأمرهم بالمحافظة على ذلك؛ لئلا يتبدل في مستأنف الأيام.

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٨٣).

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، **وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض، منها أربعة حُرُمٌ، ثلاث متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم،** . . . .

وقوله: (﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾)؛ يعني: زيادة كفر على كفرهم، وسبب هذه الزيادة: أنهم أمروا بإيقاع كل فعل في وقته من الأشهر الحرم، ثم إنهم بسبب أغراضهم الفاسدة أخروه إلى وقت آخر بسبب ذلك النسيء، فأوقعوه في غير وقته من الأشهر الحرم، فكان ذلك الفعل زيادة في كفرهم.

وقوله: (﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾)؛ أي: إن كبارهم أضلوهم، وحملوهم عليه.

وقوله: (﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا . . .﴾) إلخ؛ يعني: يحلون ذلك الإنساء عاماً ويحرمونه عاماً، والمعنى: يحلون الشهر المحرم عاماً، فيجعلونه حلالاً لِيُغِيروا فيه، ويحرمونه عاماً فيجعلونه محرماً، فلا يغيرون فيه.

وقوله: (﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾)؛ أي: ليوافقوا.

(﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾) يعني: أنهم ما أحلوا شهراً من المحرم إلا حرموا شهراً مكانه؛ لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرام أربعة كما حرم الله، فيكون ذلك موافقة في العدد لا في الحكم[1].

قوله: (**وإن الزمان قد استدار. . .**) إلخ؛ أي: فإن هذه الحجة كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته، وهي سنةُ عشر. اهـ. حلبي[2].

---

(١) انظر: «تفسير الخازن» (٢/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٠٧).

ورجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد.

أيُها الناس! إن لنسائكم عليكم حقّاً، ولكم عليهنّ حقٌّ ألّا يوطِئْنَ فرشَكُم غيرَكم، ولا يُدخلنَ أحداً تكرهونه بيوتَكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله أذن لكم أن تَعْضُلُوهُنَّ، وتهجروهُنَّ في المضاجع، وتضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح، فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، وإنما النساء عندكم عَوَان، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهنّ خيراً، ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد.

أيّها الناس! إنما المؤمنون إخوة، ولا يَحِلُّ لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد، فلا تَرْجِعُنَّ بعدي كُفَّاراً يضرب بعضكم رقابَ بعضٍ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضِلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد.

قوله: (ورجب الذي بين جمادى وشعبان...) إلخ: قال السهيلي في «الروض الأنف»: وإنما قال ذلك؛ لأن ربيعة كانت تحرم في رمضان، وتسميه رجباً، من رجبت الرجل ورَجَّبته: إذا عظمته، ورجبت النخلة: إذا دعمتها، فبين عليه السلام أنه رجب مضر، لا رجبُ ربيعة، وأنه الذي بين جمادى وشعبان. اهـ[1].

قوله: (عوانٍ)؛ أي: أسرى، والعاني: الأسير، وقد فسر أسرهن بقوله: «لا يملكن لأنفسهن شيئاً»[2].

---

(١) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٨٤).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٧٢) من حديث عم أبي حرة الرقاشي ـ رضي الله عنه ـ.

أيها الناس! إن ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدمُ من تراب، أكرمُكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على عجمي إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهمّ اشهد، فليبلغِ الشاهدُ منكم الغائب.

أيُّها الناس! إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارثٍ وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولدُ للفراش، وللعاهر الحَجَرُ، من ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غيرَ مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله»[1].

وفي هذا اليوم امتنَّ الله على المؤمنين بقوله في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً، ويوماً سعيداً، يُظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام أدَّى مناسك الحج من رمي الجمار، . . .

قوله: (صرف ولا عدل): في «النهاية»: الصرف: التوبة، وقيل: النافلة، والعدل: الفدية، وقيل: الفريضة. اهـ[2].

---

(١) جمع المصنف الخطبة من عدَّة أحاديث، كلٌّ قد روى بعضَها، فقد رواها مسلم (١٢١٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٤٣٦)، من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ. ورواها ابن ماجه (٢٧١٢) من حديث عمرو بن خارجة ـ رضي الله عنه ـ. ورواها الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٤١١) من حديث أبي نضرة عمن سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورواه الواقدي في «المغازي» (٢/ ٤٦٨ ـ ٤٧٠) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وانظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (ص: ٢٢٨ ـ ٢٢٩).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٢٤).

والنحر، والحلق، والطواف. وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قَفَلَ إلى المدينة، ولما رآها كبَّر ثلاثاً وقال: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[1].

الوفود

في هذه السنة والتي قبلها كان وُفود العرب يأتون إلى رسول الله ليبايعوه على الإسلام، وكانوا يَقْدُمون أفواجاً، ولِما في أخبار هذه الوفود من التعاليم الحميدة التي يحتاج ذو الأدب أن يعرفها، رأينا أن نذكر لك منها ما يزيدك يقيناً، ويُنير بصيرتك، فنقول:

الوفود

قوله: (الوفود) قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة: أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى: سنة الوفود.

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها

---

(١) رواه البخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤)، من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ.

وفود نَجْران

ومن الوفود: وفدُ نصارى نجران، وكانوا ستين راكباً، دخلوا المسجد وعليهم ثيابُ الحِبَرَةِ وأرديةُ الحرير، مختَّمين بالذهب، ومعهم بُسُط فيها تماثيل، ومُسُوحٌ جاؤوا بها هديةً للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقبل البسطَ، وقبل المُسُوح. ولما جاء وقتُ صلاتهم، صلّوا في المسجد مستقبلين بيت المقدس.

الإسلام؛ عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً. اهـ[١].

وفود نجران

قوله: (فلم يقبل البسط وقبل المسوح): قال الحلبي: لأن الناس صاروا ينظرون للتماثيل، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما هذه البسط، فلا حاجة لي فيها». اهـ[٢].

وفي «القاموس» المِسْح ـ بالكسر ـ: البلاس والجادَّة، جمعه مُسوح[٣].

قوله: (صلَّوا في المسجد): قال الحلبي: وذلك بعد العصر، فأراد الناس منعهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «دعوهم»، فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم[٤].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٣٥)، والحديث المذكور رواه ابن المنذر في «تفسيره» (١/ ٢٢٧) من حديث الشعبي مرسلاً.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: مسح).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٣٥)، والحديث المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٦٢) عن محمد بن جعفر بن الزبير.

ولما أتموا صلاتهم، دعاهم عليه الصلاة والسلام للإسلام، فأبوا وقالوا: كنّا مسلمين قبلكم، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً»، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب[1]؟ فأنزل الله في ذلك في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩]، وليُظهر الله أنهم في شك من أمرهم أنزل: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[آل عمران: ٦١]. فدعاهم صلى الله عليه وسلم لذلك، فامتنعوا، ورضُوا بإعطاء الجزية، وهي: ألف حُلَّـةٍ في صفر، وألف حُلَّـةٍ في رجب، مع كل حُلَّةٍ أوقيةٌ من ذهب، ثم قالوا: أرسل معنا أميناً، فأرسل لهم أبا عبيدة: عامرَ بنَ الجراح، ولذلك كان يُسمى: أمينَ هذه الأمة[2].

قوله: (﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾)؛ أي: ندعو ونجتهد في الدعاء باللعنة على الكاذب.

قوله: (فدعاهم لذلك) قال الحلبي: ثم دعاهم لذلك، قالوا: يا أبا القاسم! نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض، فقال بعضهم: والله! علمتم أن الرجل نبي مرسل، وما لاعنَ قومٌ قطُّ نبياً إلا استؤصِلوا ـ أي: أخذوا ـ عن آخرهم، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم، فوادعوه وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم[3].

قوله: (فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح)؛ أي: وقال لهم: «هذا أمين

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١١٤) عن محمد بن جعفر بن الزبير.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٣٦).

وفود ضِمَام بن ثعلبة

ومن الوفود: ضِمامُ بنُ ثعلبة، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه متكئاً، جاء رجل من أهل البادية، ثائر الرأس، يُسمع دويُّ صوته، ولا يُفْقَه ما يقول، فأناخ جمله في المسجد، ثم قال: أيّكم ابنُ عبد المطلب؟ فدلّوه عليه، فدنا منه وقال: إني سائلُكَ فمشدّدٌ عليك في المسألة، فلا تَجِدْ عليّ في نفسك. فقال: «سَلْ ما بدا لك»، فقال: أَنْشُدُك بالله، آللهُ أرسَلك إلى الناس كلِّهم؟ فقال: «نعم»، فقال: أَنْشُدُكَ بالله، آلله أمرك أن نصلّي خمسَ صلوات في اليوم والليلة؟ قال: «اللهمّ نعم»، فقال: أَنْشُدُكَ بالله، آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فتردَّه على فقرائنا؟ قال: «اللهمّ نعم»، قال: أَنْشُدُكَ بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال: «اللهمّ نعم»، قال: أَنْشُدُكَ بالله، . . . .

هذه الأمة»[1]، وكان ذلك يسمى: أمين هذه الأمة.

وفود ضِمام بن ثعلبة

قوله: (ضمام بن ثعلبة): ـ بكسر الضاد؛ ككتاب ـ، وقد أرسله قومه بنو سعد بن بكر، وكان رجلاً أشعرَ ذا غديرتين، قاله ابن هشام[2].

قوله: (فقال أنشدك بالله): في الحلبي قبل أن يقول له ذلك قال له: يا محمد! جاءنا رسولك، فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق»، قال: أنشدك. . . إلخ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٨٠) من حديث حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٦٧).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٤٨)، والحديث المذكور رواه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

الله أمرك أن نحجَّ هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: «اللهمّ نعم»، قال: فإني قد آمنتُ وصدقتُ وأنا ضِمَامُ بن ثعلبة[1].

ولما ولَّى، قال عليه الصلاة والسلام: «فَقُهَ الرجل»[2]، ثم ذهب ضمام إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام، وتركِ عبادة الأوثان، فأسلموا كلهم.

قوله: (قال: فإني قد آمنت وصدقت) في ابن هشام: لما فرغ قال: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف إلى بعيره راجعاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن صدق ذو العقيصتين، دخل الجنة»[3].

قوله: (ثم ذهب ضمام إلى قومه...) إلخ: قال ابن هشام: خرج ضمام حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به قال: بئست اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام! اتق البَرَص، اتق الجُذام، اتق الجُنون، قال: ويلكم! إنهما ـ والله ـ لا يضران ولا ينفعان، وإن الله قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه، قال: فوالله! ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً، قال: يقول عبدالله بن عباس: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضلَ من ضمام بن ثعلبة. اهـ[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٨١) بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعرابي حين قرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧ـ٨] فولى وقال: حسبي حسبي، فقال صلى الله عليه وسلم: «فقه الرجل».

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٦٨)، والخبر المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٢٥٠) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٦٨).

وفود عبد القيس

ومن الوفود: عبدُ القيس، وكان من خبرهم: أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان جالساً بين أصحابه يوماً، فقال لهم: «سيطلُع عليكم من هنا ركبٌ هم خير أهل المشرق، لم يُكرهوا على الإسلام، قد أنضَوُا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهمّ اغفر لعبد القيس»[1]، فلما أتوا ورأوا النبي صلى الله عليه وسلم، رَمَوا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلمون عليه، وكان فيهم عبدُالله بنُ عوفٍ الأَشَجُّ، وكان أصغرهم سنًّا، فتخلَّفَ عند الركائب حتى أناخها، وجمعَ المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هَوْناً حتى سلَّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رجلاً دميماً، فَفَطِن لنظر الرسول إلى دَمَامته، فقال: يا رسول الله! إنه لا يُستقى في مُسوك ـ أي: جلود ـ الرجال، وإنما الرجلُ بأصغريه: قلبِه ولسانِه، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن فيك خَلَّتين يحبُّهما الله ورسوله: . . . .

وفود عبد القيس

قوله: (قد أَنضوا)؛ أي: أهزلوا.

قوله: (لا يستقى في مسوك الرجال)؛ أي: لا يشرب فيها.

قوله: (وإنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه) عبارة الحلبي: وإنما يحتاج الرجل من أصغريه قلبِه ولسانه[2].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣١٤) عن عروة بن الزبير، وجعفر بن عبدالله.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥١).

الحِلم والأناة»[1].

وقد قال صلى الله عليه وسلم لهذا الوفد: «مرحباً بالقوم غيرَ خزايا ولا ندامى»، فقالوا: يا رسول الله! إنّا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدة، وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفار مُضر، وإنّا لا نصلُ إليك إلّا في شهرٍ حرام، فمُرنا بأمرٍ فصلٍ، فقال صلى الله عليه وسلم: «آمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، . . . .

قوله: (الحلم والأناة): الأناة: على وزن قناة: التؤدة.

قال الحلبي: التؤدة والاقتصاد والسمتُ الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة، ولما قال له: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»؛ قال: يا رسول الله! أتخلَّق بهما، أم الله جبلني عليهما؟ قال: «لا، بل الله تعالى جبلك»، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[2].

قوله: (مرحباً بالقوم): قال الحلبي: أول من قال: مرحباً: سيفُ بنُ ذي يزن، وقد تكررت هذه الكلمة منه صلى الله عليه وسلم[3].

وقوله: (غير خزايا ولا ندامى)؛ أي: حالةَ كونِكم سالمين من الخزي ومن الندم.

قوله: (من شقة بعيدة)؛ أي: من سفر بعيد.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣١٤) عن عروة بن الزبير، وجعفر بن عبدالله.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥١)، والحديث المذكور رواه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع ـ رضي الله عنه ـ. ورواه مسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥١).

وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تُعطوا من المغنم الخمس، وأنهاكم عن الدُّبَّاء، والحَنتَمِ، والنَّقِير، والمزفَّت»[1]، والمراد بذلك: ما ينبذ في هذه الأواني. فقال الأشج: يا رسول الله! إن أرضنا ثقيلة وخمة، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فَرَخِّص لنا في مثل هذه، وأشار إلى يده، فأومأ عليه الصلاة والسلام بكفّيه، وقال: «يا أشج! إن رخصتُ لك في مثل هذه، شربتهُ في مثل هذه ـ وفرج بين يديه وبسطه ـ حتى إذا ثَمِلَ أحدكم من شرابه، قام إلى ابن عمه فضربَ ساقه بالسيف»[2]. وإنما خَصَّ عليه الصلاة والسلام نهيهم بما ذكر؛ لكثرة الأشربة بينهم.

قوله: (قام إلى ابن عمه...) إلخ: قال الحلبي: وكان في القوم رجل وقع له ذلك، وهو جهم بن قثم، قال: لما سمعتُ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت أسدل ثوبي لأغطي الضربة، وقد أبداها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم.

وفي كلام السهيلي: فعجبوا من علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وإشارتِه إلى ذلك الرجل[3].

قوله: (وإنما خص عليه السلام نهيهم بما ذكر...) إلخ: قال الحلبي: وإنما اقتصر صلى الله عليه وسلم في المناهي على شرب الأنبذة في الأوعية المذكورة، مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم؛ لكثرة تعاطيهم لها.

قال الحافظ ابن حجر: ومعنى النهي عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصها:

---

(١) رواه البخاري (٨٧، ٦١٧٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٢) من حديث شهاب بن عباد عن بعض وفد عبد القيس.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٣). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٣٤).

وفود بني حَنيفة

ومن الوفود: بنو حنيفة، وكان معهم مُسَيلمة الكذاب، وكـان مسـيلمة يقول: إن جَعلَ لي الأمرَ من بعده، اتبعتُه، فأقبل عليه الصلاة والسلام ومعـه ثابت بن قَيْس بن شَمَّاس، وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعـة مـن جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: «إنْ سألتني هذه القطعـة، ما أعطيتكها، وإني لأُراكَ الذي منه رأيت»[1].

وكان عليه الصلاة والسلام قد رأى في منامه أن في يده سوارين مـن ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخهما، فنفخهما فطارا، فأوّلهما صلى الله عليه وسلم كذابَيْن يخرجان من بعده، فكان مسيلمة أحدَهما، . . .

أنه يسرع فيها الإسكار، فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك. اهـ[2].

وفود بني حنيفة

قوله: (وفود بني حنيفة): قال الدحلاني: كان الوفد سبعة عشـر رجـلاً، وحنيفةُ هو ابنُ لُجَيم بنِ صعب بن عليٍّ بن بكر بن وائل[3].

قوله: (فكان مسيلمة أحدَهما): فإنه لما رجع إلى اليمامة، وهـي بـلاده، ادعى النبوةَ.

قال الدحلاني: وكانت دعوى مسيلمة النبوةَ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، لكن لم تظهر شوكته، ولم تقع محاربته إلا في زمن الصديق، وكان مسيلمة أقوى

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٠)، ومسلم (٢٢٧٣)، من حـديث ابـن عبـاس ـ رضـي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبـي (٣/ ٢٥٤). وانظـر: «فـتح البـاري» لابن حجر (١/ ١٣٥).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٢٥).

والثاني: الأسودُ العَنْسيُّ[1] صاحبُ صنعاء[2]. وقد أسلم بنو حنيفة.

أسباب الفتنة على بني حنيفة، جمع جموعاً كثيرة ليقاتل بها الصحابة، فجهز له الصديق جيشاً أمَّر عليهم خالدَ بنَ الوليد ـ رضي الله عنه ـ، فقتل أصحاب مسيلمة، ثم كان الفتح بقتل مسيلمة، قتله وحشي قاتلُ حمزة، وكان عمره حين قُتل مئة وخمسين سنة. اهـ. ملخصاً[3].

قوله: (والثاني الأسود[4] العنسي): قال الحلبي: كان طليحة العبسي[5] يقول: إن ملكاً يقال له: ذو النون يأتيني كما يأتي جبريلُ محمداً[6].

وفي الدحلانية: خرج الأسود العنسي في قومه حتى ملك صنعاء، وتزوج المرزبانة زوجةَ باذان ـ عاملِ النبي صلى الله عليه وسلم على صنعاء، وكان باذان قد مات ـ، فواعدت فيروز الديلمي وغيره، فدخلوا عليه ليلاً، وقد سقته الخمر

---

(١) في «نور اليقين» (ط الجامعة): «طليحة العبسي»، والتصويب من (ط دار الإيمان).

(٢) رواه البخاري (٣٦٢١)، ومسلم (٢٢٧٤)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٢٧ ـ ٢٨).

(٤) في الأصل: «طليحة»، والتصويب من «نور اليقين» (ط دار الإيمان).

(٥) كذا في «السيرة الحلبية»، الصواب أنه خرج مسيلمة باليمامة، والأسود العنسي باليمن، ثم خرج في خلافة أبي بكر طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة. انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٦١٧).
وروى البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ١٧٥) عن محمد بن إسحاق بن يسار قال: أول ردة كانت في العرب مسيلمة باليمامة في بني حنيفة، والأسود بن كعب العنسي باليمن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد يدعي النبوة يسجع لهم.

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٥).

وفود طَيِّئ

ومن الوفود: وفد طيِّئ، وفيهم زيدُ الخيل رئيسُهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم في حقه: «ما ذُكِرَ لي رجل من العرب إلا رأيته دونَ ما قيل فيه إلا زيد الخيل»، وسمّاه صلى الله عليه وسلم: زيد الخير.

صِرْفاً حتى سكر، وكان على بابه ألفُ حارس، فنقب فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا، فقتله فيروز، واحتز رأسه، وأخرجوا المرأة وما أحبوا من متاع البيت، وأرسلوا الخبر إلى المدينة، فوافاهم عند وفاته صلى الله عليه وسلم[1].

وفي «الروض الأنف» السهيلي: قتله فيروز الديلمي وقيس بن مكشوح وداذويه ـ رجل من الأبناء ـ دخلوا عليه من سرب صنعته لهم امرأة كان قد غلب عليها من الأبناء، فوجدوه سكران لا يعقل من الخمر، فخبطوه بأسيافهم. وتمامه فيه[2].

وفود طيئ

قوله: (وفيهم زيد الخيل) قال الحلبي: قيل له ذلك؛ لخمسة أفراس كانت له، وكان شاعراً خطيباً بليغاً جواداً[3].

وقوله: (ما ذكر لي رجل...) إلى آخر الحديث: هو في الحلبي والدحلاني هكذا: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضلٍ إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيدَ الخيل؛ فإنه لم يبلغ ـ أي: ما قيل فيه ـ كلَّ ما فيه»[4]، وجاء في رواية أنه قال له: «يا زيد! ما أخبرت عن رجل قط شيئاً إلا رأيته دون ما أخبرت عنه غيرك». اهـ[5].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٢٦).

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٦).

(٤) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٧٤).

(٥) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧)، و«السيرة النبوية» =

وفود كِنْدة

ومنهم: وفد كِنْدَةَ، وفيهم الأشعثُ بن قيس، وكانَ وجيهاً مطاعاً في قومه. ولما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، خبؤوا له شيئاً، وقالوا: أخبرنا عمّا خَبأناه لك؟ فقال: «سبحان الله! إنما يُفْعَل ذلك بالكاهن، وإنَّ الكاهن والمتكهن في النار»، ثم قال: «إن الله بعثني بالحق، وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»، فقالوا: أسمعْنا منه، فتلا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ①﴾ . . . .

وفود كندة

في «القاموس»: كندة ـ بالكسر ـ، ويقال: كنديٌّ: لقب ثور بن عفير، أبو حيٍّ من اليمن؛ لأنه كندَ أباه النعمةَ، ولحق بأخواله[1].

والكنود: كفرانُ النعمة.

قوله: (ومنهم وفد كندة): قال الحلبي: كانوا ثمانين، وقيل: ستين[2].

واقتصر ابن هشام على الأول[3].

ولما أرادوا الدخول عليه ـ الصلاة والسلام ـ، رجلوا ـ أي: سرحوا ـ شعور رؤوسهم، وتكحلوا، ولبسوا عليهم جُبب الحِبَرة ـ بوزن عِنَبة، برود اليمن المخططة ـ قد كففوها ـ أي سجفوها بالحرير[4].

قوله: (﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾): يعني: الملائكة صفوفاً في السماء يسبحون

= لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٢٨).

(١) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: كند).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٠).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٨٣).

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٠).

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ١ ـ ٥]، ثم سكت وسكن، ودموعُه تجري على لحيته، فقالوا: إنا نراك تبكي؟ أفمن مخافة مَنْ أرسلك تبكي؟ قال: «إن خشيتي منه أبكتني، بعثني على صراط مستقيم مثل حدِّ السيف، إن زُغْتُ عنه هلكت»، ثم تلا: «﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٦ ـ ٨٧]»[1].

كصفوف الناس في الأرض للصلاة.

(﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾): كل ما زجر عن معصية الله.

(﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾): قيل: الملائكة، وجاز أن يكون الملائكة وغيرهم ممن يتلو ذكر الله. اهـ. سجستاني[2].

قوله: (﴿وَلَئِن شِئۡنَا...﴾) إلخ الآية: قال البيضاوي: والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن، ومحوناه من المصاحف والصدور.

(﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾): من يتوكل علينا استرداده مسطوراً محفوظاً.

(﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾)؛ فإنها إن نالتك، فلعلها تسترده عليك، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غيرَ مذهوب به، فيكون امتناناً بإبقائه بعد المنة في تنزيله.

(﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾)؛ كإرساله، وإنزال الكتاب عليه، وإبقائه

---

(١) رواه المبارك بن عبد الجبار الطيوري في «الطيوريات» (١٢٤٦) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) انظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص: ٣٠١).

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ألم تُسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «ما بالُ هذا الحريرِ في أعناقكم؟»، فعند ذلك شَقُّوه وألقوه[1].

وفود أَزْدِ شنوءَة

ومنهم: وفد أزد شنوءة، ورئيسهم صُرَدُ بنُ عبدالله الأزديُّ، فأسلموا، وأمَّره عليهم، وأمره بأن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك.

في حفظه. اهـ[2].

وفود أزد شنوءة

قوله: (أزد شنوءة) هي ـ بسكون الزاي وضم الدال وفتح الشين وضم النون وفتح الهمزة وقد تشدد الواو ـ: قبيلة سميت لشنآنٍ بينهم «قاموس»[3].

قوله: (من أهل الشرك)؛ أي: من قبائل اليمن.

قال الحلبي: فخرج حتى نزل بجُرَش ـ بضم الجيم وفتح الراء ـ، وهي مدينة بها قبائل من قبائل اليمن، وحاصرها المسلمون قريباً من شهر، ثم رجعوا عنها، حتى إذا كانوا بجبل يقال له: شَكَر ـ بفتح الشين والكاف، وقيل: بإسكان الكاف ـ، فلما وصلوا ذلك المحل، ظن أهل جرش أن المسلمين ـ رضي الله عنهم ـ إنما رجعوا منهزمين، فخرجوا في طلبهم، حتى إذا أدركوهم، عطفوا عليهم، فقتلوهم قتلاً شديداً.

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٨٣) عن الزهري. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٠).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٤٦٥).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شنأ).

وفود رسول ملوك حِمْيَر

ومنهم: وفد رسول ملوك حمير، وهم: الحارثُ بن عبد كُلال، ونعيمُ ابن عبد كُلال، والنُّعمان قَيْلُ ذي رُعين، ومَعَافِرَ، وهَمْدان، . . . .

بالمدينة يرتادان ـ أي: ينظران ـ الأخبار، فبينما هما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بأي بلاد الله شكر؟»، فقام إليه رجلان فقالا: يا رسول الله! ببلادنا جبل يقال له: كشر، فقال: «إنه ليس بكشر، ولكنه شكر»، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: إن بدن الله لتنحرُ عنده الآن، وأخبرهما الخبر، فخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى قومهما، فوجدا قومهما قد أُصيبوا في اليوم والساعة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال، وعند إخبارهما لقومهما بذلك، وَفَدَ وَفْد جرش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلموا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً، وأصدقه لقاء، وأطيبه كلاماً، وأعظمه أمانة، أنتم مني وأنا منكم»، وحمى لهم حِمَى حول بلدهم. اهـ[1].

وفود رسول ملوك حمير

قوله: (ابن عبد كلال): ـ بضم الكاف ـ.

و(النعمان): ـ بضم النون ـ.

و(معافر): ـ بالفاء المكسورة ـ.

و(هَمْدان): ـ بإسكان الميم ـ، وهي قبيلة، وأما همَذان ـ بفتح الميم والذال المعجمة ـ، فقبيلة بالعجم. اهـ. حلبي و«قاموس»[2].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨) عن منير بن عبدالله الأزدي، والطبري في «تاريخه» (٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧) عن عبدالله بن أبي بكر.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٢)، و«القاموس المحيط» =

وكانوا قد أسلموا وأرسلوا رسولهم بذلك، فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم.

كتاب ملوك حِمْيَر

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كُلال، وإلى نُعيم بن عبد كُلال، وإلى النعمان قَيلِ ذي رُعَيْن، ومَعافر، وهَمْدان، أما بعد:

فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو.

أما بعد:

فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلَنا من أرض الروم، فلقيناه بالمدينة، فبلَّغ ما أرسلتم به، وخبَّر ما قبلكم[1]، وأنبأنا بإسلامكم، وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خُمُس الله، وسهمَ النبي وصَفِيَّهُ، . . . .

قوله: (وأرسلوا رسولهم): قال ابن هشام: كان الباعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بإسلامهم زرعة ذو يَزَن مالك بن مرة الرهاوي[2].

كتاب ملوك حمير

قوله: (مقفلَنا من أرض الروم)؛ أي: رجوعَنا من غزوة تبوك.

قوله: (وصفيه): الصفيّ: ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة. اهـ. «مختار الصحاح»[3].

= للفيروزأبادي (المواد: نعم، عفر، همد، همذ).

(١) في «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٣/ ١٢٣٤): «وأخبر بما كان من قبلكم».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٨٦).

(٣) انظر: «مختار الصحاح» للرازي (مادة: صفو).

وما كُتب على المؤمنين من الصَّدقة[1].

أما بعد: فإن محمداً النبيَّ أرسل إلى زُرْعَةَ بنِ ذي يزن: إذا أتاكم رُسُلي، فأوصيكم بهم خيراً: مُعاذ بن جبل، وعبدالله بن زيد، ومالك بن عُبادة، وعُقبة بن نمر، ومالك بن مُرّة، وأصحابهم، وأنِ اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم، وأبلغوها رسُلي، وإن أميرهم معاذُ بن جبل، فلا يَنقَلِبَنَّ إلا راضياً.

أما بعد: فإن محمداً يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن مرّة الرَّهاوي قد حدّثني أنك قد أسلمت من أوّل حِمْيَر، وقتلت المشركين، فأبشرْ بخير، وآمرك بحِمْيَر خيراً، ولا تخونوا ولا تخاذلوا؛ فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تَحِلُّ لمحمد ولا أهل بيته، إنما هي زكاة يُزكى بها على فُقراء المسلمين وابن السبيل، . . . .

قوله: (ومالك بن مرارة) هكذا في الحلبية والدحلانية[2]، والذي في ابن هشام: مالك بن مرة[3].

قوله: (من مخالفيكم): صوابه: من مخاليفكم، جمع مِخْلاف، وهي الكورة.

وقوله: (ولا تخاذلوا): ـ بضم التاء، ويجوز أن يكون بفتحها على حذف إحدى التاءين ـ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٥٦) عن شهاب بن عبدالله الخولاني، عن رجل من حمير أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووفد عليه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٢)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٢٨).

(٣) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٨٨).

وإن مالكاً قد بلَّغ الخبر، وحفِظ الغَيب، وآمركم به خيراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وفود هَمْدان

ومنها: وفد هَمْدان، وفيهم مالك بن نَمَط، وكان شاعراً مجيداً، فلقُوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرْجِعَهُ من تبوك، عليهم مُقَطَّعَات من الحِبَرات اليمنية، والعمائم العدنية، وقد أنشد مالك لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

حلفتُ بربّ الراقصاتِ إلى مِنىً

قوله: (وحفظ)؛ أي: أخلص لنا حال الغياب أيضاً.

وفود همدان

قوله: (نمط) هو: ـ بفتح النون والميم ـ.

قوله: (عليهم مقطعات من الحبرات): قال ابن قتيبة: المقطعات: الثياب المخيطة؛ كالقمص، سميت بذلك؛ لأنها تقطع، ثم تفصل، ثم تخاط. اهـ. سهيلي[2].

قوله: (والعمائم العدنية): هذا صريح في أن العمائم كانت تستعملها العرب في الجاهلية، وقد تقدم في (باب الدعوة سرّاً) قول الشاعر في أبي أحيحة:

أبا أُحَيحَةَ من يعتم عمته ... يوماً وإن كان ذا مال وذا ولد[3]

قوله: (الراقصات)؛ أي: الإبل، في «القاموس»: ولا يكون الرقص إلا للاعب وللإبل.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٢) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٧٦).

(٣) تقدم (ص: ٢٠٩)، وفيه: «وذا عدد» بدل «وذا ولد».

صَوادرَ بالركبانِ من هَضْـب قَـرْدَدِ

بــأَن رســولَ اللهِ فينــا مُصَــدَّقٌ رسولٌ أتى من عند ذي العرش مهتدِي

فما حملتْ من ناقـةٍ فـوقَ رحلهـا أشـدَّ علـى أعدائِـهِ مـن محمـدِ[١]

وقد أمَّره صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه، . . . .

وأرقص البعير: حمله على الخبب[٢].

و(قردد) كجعفر: اسم جبل، وما ارتفع من الأرض[٣].

قوله: (على من أسلم من قومه): قال في «زاد المعاد»: روى البيهقي بإسناد صحيح من حديث ابن إسحاق، عن البراء: أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، فأمره أن يعقب خالداً إلا رجلاً ممن كان مع خالد أحبَّ أن يعقب مع علي ـ رضي الله عنه ـ فليعقب معه[٤]، قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي، فلما دنونا من القوم، خرجوا إلينا، فصلى بنا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ، ثم صفنا صفًّا واحداً، ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلمت همدانُ جميعاً[٥].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٣٠٠).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: رقص).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قرد).

(٤) في هامش الأصل: «أي: أن من كان مع خالد إن شاء بقي مع علي، وإن شاء رجع مع خالد. اهـ. حلبي».

(٥) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٢٢ ـ ٦٣٢)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٩٦).

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حق هَمْدان: «نِعْمَ الحَيُّ هَمْدَانُ، ما أسرعَها إلى النصر، وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال، وفيهم أوتاد»[1].

وفود تُجِيْب

ومنها: وفد تُجيْب، قبيلة من كِنْدة، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ عشرَ رجلاً منهم، ومعهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرّ بهم عليه الصلاة والسلام، وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول الله! إنّا سُقْنَا إليك حقَّ الله في أموالنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ردّوها فاقسموها على فقرائكم». فقالوا: يا رسول الله! ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، قال أبو بكر: يا رسول الله! ما قدم علينا من وفد من العرب مثلُ هذا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن الهدى بيد الله، فمن أراد به خيراً، شرح صدره للإيمان»، وجعلوا يسألونه عن القرآن، . . . .

قوله: (وفيهم أبدال وأوتاد): قال في «تعريفات السيد»: الأبدال: هم سبعة، ومن سافر من القوم عن موضعه، وترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد، فذلك هو البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام.

والأوتاد: عبارة عن أربعة رجال، منازلُهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة. اهـ[2].

وفود تجيب

قوله: (وفود تُجيب): ـ بضم التاء، ويجوز الفتح ـ.

---

(١) رواه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٢/ ٧٣) عن علي بن محمد بن عبدالله بن أبي سيف القرشي، عمن سمى من رجاله من أهل العلم. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٥).

(٢) انظر: «التعريفات» للسيد الجرجاني (ص: ٥٨، ٦٢).

فازداد صلى الله عليه وسلم رغبة فيهم، ثم أرادوا الرجوع إلى أهليهم، فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى مَنْ وراءنا، فنخبرهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقائنا إيّاه، وما ردّ علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه، فأجازهم بأفضل ما كان يُجيز به الوفود، ثم قال لهم: «هل بقي منكم أحد؟» قالوا: غُلام خَلّفْناه في رحالنا، وهو أحدثنا سِناً، قال: «فأرسلوه إلينا»، فأرسلوه، فأقبل الغلام، وقال: يا رسول الله! أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً، فقضيتَ حاجتهم، فاقضِ حاجتي، قال: «وما حاجتك؟» قال: تسأل الله أن يغفرَ لي ويرحمني، ويجعلَ غناي في قلبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ اغفرْ له، وارحمْه، واجعل غناه في قلبه»، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه[1].

قوله: (ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه) قال الحلبي والدحلاني: ثم إنهم بعد ذلك وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في الموسم إلا ذلك الغلام، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟» قالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رَزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا، ما نظر نحوها، ولا التفت إليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله، إني لأرجو أن يموت جميعاً»، فقال رجل منهم: أوليس يموت الرجل جميعاً؟ قال صلى الله عليه وسلم: «تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك»، قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رزق، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام؛ قام في قومه، فذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد، وجعل الصديق ـ رضي الله عنه ـ يذكره ويسأل عنه حتى بلغه حاله وما قام به،

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

وفود ثعلبة

ومنها: وفد ثَعْلَبة، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعةٌ منهم مقرّين بالإسلام، فسلَّموا عليه وقالوا: يا رسول الله! إنّا رُسل مَنْ خلفنا من قومنا، ونحن مقرُّون بالإسلام، وقد قيل لنا: إنك تقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال عليه الصلاة والسلام: «حيثما كنتم واتَّقَيْتُم الله فلا يَضُرُّكم»، ثم قال لهم: «كيف بلادكم؟» فقالوا: مخصبون، فقال: «الحمد لله»، ثم أقاموا في ضيافته أياماً، وحين إرادتهم الانصراف أجاز كل واحد منهم بخمس أواق من فضة[1].

وفود بني سعد بن هُذَيم

ومنها: وفد بني سعد بن هذيم من قُضَاعةَ، قال النعمان منهم: قدِمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافداً في نفر من قومي، . . . .

فكتب إلى زياد بن الوليد يوصيه به خيراً، وكان زياد والياً على حضرموت. اهـ[2].

وفود ثعلبة

وفود بني سعد بن هذيم

قوله: (سعد بن هذيم) سعد بن هُذَيم؛ كزبير: أبو قبيلة، وهو ابن زيد، لكن حضنه عبد أسود اسمه هذيم، فغلبه عليه. اهـ. «قاموس»[3].

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٩٨) من طريق الواقدي عن رجل من بني ثعلبة عن أبيه.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٦)، و«السيرة النبوية» لأحمد ابن زيني دحلان (٣/ ٣٦)، والخبر المذكور أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٢٨).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: هذم).

وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد، وأزاح العرب، والناس صنفان: إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيف، فنزلنا ناحيةً من المدينة، ثم خرجنا نؤمُّ المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فوجدنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يصلي على جَنازة في المسجد، فقمنا خلفه ناحية، ولم ندخل مع الناس في صلاتهم، وقلنا: حتى يصلي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ونُبايعه، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلينا، فدعا بنا فقال: «ممّن أنتم؟» فقلنا من بني سعد بن هذيم، فقال: «أمسلمون أنتم؟» قلنا: نعم، فقال: «هَلاَّ صلّيتم على أخيكم؟» قلنا: يا رسول الله! ظننا أن ذلك لا يجوز حتى نبايعك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أينما أسلمتم فأنتم مسلمون»، قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدينا، ثم انصرفنا إلى رِحَالنا، وقد كُنَّا خَلَّفْنَا عليها أصغرنا، فبعث عليه الصلاة والسلام في طلبنا، فأُتي بنا إليه، فتقدم صاحبنا، فبايعه صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله! إنه أصغرنا، وإنه خادمنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «سيدُ القوم خادمُهم، بارك الله عليه»، قال النعمان: فكان خيرَنا وأقرأنا للقرآن؛ لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، . . . .

قوله: (وقد أوطأ رسول الله البلاد)؛ أي: جعلها موطوءة قهراً وغَلَبة، واستولى عليها. اهـ. دحلاني[1].

قوله: (على جنازة في المسجد): هي سهيل بن بيضاء: اهـ. دحلاني[2].

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٣٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٣٧).

ثم أجازهم وانصرفوا[1].

وفود بن فَزَارة

ومنها: وفد بني فزارة، وفَدَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة منهم مُقرّين بالإسلام، وهم مُسْنِتون، فسألهم عليه الصلاة والسلام عن بلادهم، فقال رجل منهم: يا رسول الله! أَسْنَتَتْ بلادُنا، وهلكت مواشينا، وأجدَب جَنَابُنا، وجاعت عيالنا. فادعُ لنا ربك يُغثْنا. واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك، فقال عليه الصلاة والسلام: «سبحان الله! ويلك! هذا أنا أشفع إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العليّ العظيم، وسِعَ كرسيّه السماوات والأرض، . . . .

قوله: (ثم أجازهم وانصرفوا) قال الدحلاني: ثم إنهم لما رجعوا إلى قومهم، رزقهم الله الإسلام[2].

وفود بني فزارة

قوله: (فزارة) هو: ـ بفتح الفاء ـ.

قال في «زاد المعاد»: كان مجيء هذا الوفد بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من تبوك[3].

قوله: (وهم مسنتون)؛ أي: توالت عليه السنون والجدب.

وقوله: (وأجدب جنابنا)؛ أي: ما حولنا.

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٣٥) من طريق الواقدي عن النعمان. وانظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٣٧).

(٣) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٥٣).

فهي تَئِطُّ من عظمته وجلاله كما يئط الرَّحْل الحديث»[1]؛ أي: من ثقل الحمل، ثم صعد عليه الصلاة والسلام المنبر، ودعا الله عزّ وجلّ حتى أغاث بلاد هذا الوفد بالمطر الغزير، والرحمة التامة.

وفود بني أَسَد

ومنها: وفد بني أسد، وفيهم: ضِرَارُ بن الأزوَر، وطُلَيحة بن خويلد الذي ادّعى النبوّة بعد ذلك، فأسلموا، وقالوا: يا رسول الله! أتيناك نتدرَّع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً، فأنزل الله في ذلك: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧][2].

وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كانوا يفعلون في الجاهلية من العِيَافَة، ....

قوله: (حتى أغاث بلاد هذا الوفد): حدوث المطر كان في المدينة، وامتد إلى بلاد هذا الوفد كما استظهره الحلبي[3].

وفود بني أسد

قوله: (في سنة شهباء)؛ أي: ذات قحط.

قوله: (العيافة): هي زجر الطير، والتخرُّصُ على الغيب.

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٣٨) عن أبي وجزة يزيد بن عبيد السلمي، بنحوه. وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٣٦).

(٢) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٣٨) عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٦٩).

والكهانة، وضرب الحصباء، فنهاهم عن ذلك، ثم سألوه عن ضرب الرمل، فقال: «عُلِّمه نبيٌّ، فمن صادف مثل علمه، فذاك، وإلا فلا»[1].

ثم أقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، وبعد ذلك ودَّعوا وانصرفوا بعد أن أُجيزوا.

وفود بني عُذْرَة

ومنها: وفد بني عذرة، ....

وقوله: **(الكهانة)**: هي الإخبار عن الكائنات في المستقبل. اهـ. حلبي[2].

قوله: **(وضرب الحصباء)**[3].

قوله: **(فمن صادف مثل علمه، فذاك، وإلا فلا)**: العبارة في الحلبي و«زاد المعاد»: «فمن صادف مثل علمه، علم»[4]؛ أي: ولكن أنَّى لكم مثلُ علمه؟

قال: وفي «شرح مسلم»: أن محصل مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه[5]؛ لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقيني[6].

وفود بني عذرة وغيرهم

قوله: **(ومنها وفد بني عذرة)**: قال في «زاد المعاد»: كان قدومهم في صفر

---

(١) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٣٨).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٢).

(٣) كذا في الأصل.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٢)، و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٥٥).

(٥) انظر: «شرح النووي على مسلم» (٥/ ٢٣).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٢).

سنة تسع، وهم اثنا عشر رجلاً، فيهم حمزة بن النعمان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من القوم؟» فقال متكلمهم: من لا تنكره، نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه، نحن الذين عضدوا قصيّاً، وأزاحوا من بطن مكة خزاعةَ وبني بكر، ولنا قرابات وأرحام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرحباً بكم وأهلاً، ما أعرفَني بكم»، فأسلموا، وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام، وهربِ هرقلَ إلى ممتنع من بلاده[1].

قوله: (ووفد بني بَلي) قال الحلبي: هو على وزن (عَلِيّ) مُكَبَّر، وهو حيٌّ من قُضاعة[2].

وفي «زاد المعاد»: كان قدومهم في ربيع الأول سنة تسع، فأنزلهم رويفعُ بنُ ثابت البَلَوِيُّ عنده، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: هؤلاء قومي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرحباً بك وبقومك»، فأسلموا، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار»، فقال أبو الضُّبَيب ـ بالتصغير: الدابة المعروفة ـ شيخُ الوفد: يا رسول الله! إني رجل فيَّ رغبةٌ في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: «نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة»، قال: يا رسول الله! ما وقت الضيافة؟ قال: «ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجَك»، قال رويفع: ثم قاموا فرجعوا إلى

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٥٧)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٣١) عن أبي عمرو بن حريث العذري قال: وجدت في كتاب آبائي. . . فذكره مختصراً، وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٤٠).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٣).

منزلي، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي منزلي يحمل تمراً، فقال: «استعن بهذا التمر»، وكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثاً، ثم ودعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجازهم، ورجعوا إلى بلادهم[1].

قوله: (ووفد بني مرة): قال الحلبي: وفد عليه صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ عشرَ رجلاً من بني مرة، رأسهم الحارثُ بن عوف، فقال: يا رسول الله! إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للحارث: أين تركت أهلك؟ قال: بسلاح وما والاها، فقال: «كيف البلاد؟»، فقال: والله! إنا لمسنتون، وما في المال مَح[2] ـ أي: صوت يردده ـ، فادع الله لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم اسقهم الغيث»، فأقاموا أياماً، ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم، فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مودعين له، فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجازهم بعشر أواق من فضة، وفضل الحارث ابن عوف، فأعطاه اثنتي عشرة أوقية، ورجعوا إلى بلادهم، فوجدوا البلاد مَطيرةً، فسألوا قومهم: متى مُطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخصبت لهم بعد ذلك بلادهم. اهـ[3].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٥٧ ـ ٦٥٨)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٣٠) من طريق الواقدي عن رويفع بن ثابت البلوي ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) كذا في الأصل و«السيرة الحلبية»، وفي «الاكتفاء» للكلاعي: «مخ».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٤)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٩٨) من طريق محمد بن عمر، عن عبد الرحمن ابن إبراهيم المزني، عن أشياخه، وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٤٨).

ووفد خَوْلان ـ وهي قبائل باليمن ـ وقد أمرهم عليه الصلاة والسلام بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسنِ الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً؛ فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة[1].

قوله: (ووفد خولان، وهي قبيلة باليمن. . .) إلخ: في الحلبي، و«زاد المعاد»: قدم عليه صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان سنة عشر وفدُ خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله! نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حُزُون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ؛ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم: زائرين لك؛ فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة»، فقالوا: يا رسول الله! هذا السفر الذي لا تَوى عليه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما فعل عم أنس؟»، وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه، قالوا: أبشر، أبدلنا الله تعالى به ما جئت به، وقد بقيت منا بعد بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قدمنا عليه، هدمناه إن شاء الله تعالى، فقد كنا منه في غرور وفتنة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟» قالوا: لقد رأيتُنا وأَسْنَتْنا حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا مئة ثور ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوجُ إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا الغيث يواري الرحال، ويقول قائلنا: أنعم علينا [عم][2] أنس.

وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم من أنعامهم وحرثهم، فقالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنسميه

---

(1) أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (2/ 350).

(2) ما بين معكوفتين من «زاد المعاد»، و«السيرة الحلبية».

وفود بني مُحارب

ومنها: وفدُ بني محارب، وكانوا من الذينَ ردُّوا الردَّ القبيح حينما كان رسول الله بعكاظ يدعو القبائل إلى الله، فما أعظمَ منّةَ الله الذي أتى بهؤلاء ـ وكانوا ألدَّ الأعداء ـ مسلمين مُنقادين!

له، ونسمي زرعاً آخر حجرةً ـ أي: ناحية ـ لله، فإذا مالت الريح بالذي سميناه له ـ أي: لله ـ جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح بالذي سميناه لعم أنس لم نجعله لله، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل عليّ في ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾[الأنعام: ١٣٦] الآية، وقالوا: وكنا نتحاكم إليه، فيتكلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تلك الشياطين تكلمكم».

وسألوه صلى الله عليه وسلم عن فرائض الله، فأخبرهم بها صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ثم ودعوه صلى الله عليه وسلم بعد أيام وأجازهم، ورجعوا إلى قومهم، فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس. اهـ[1].

وفود بني محارب

قوله: (ومنها: وفد بني محارب...) إلخ: قال في «زاد المعاد»: وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدُ محارب عام حجة الوداع، وهم كانوا أغلظ العرب وأفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم عشرة نائبين عمن وراءهم من قومهم، فأسلموا، وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن جلسوا مع

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٢٤) من طريق محمد بن عمر عن غير واحد من أهل العلم، وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

ومنها: وفد غسان، ....

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً من الظهر إلى العصر، فعرف رجلاً منهم، فأمده النظر، فلما رآه المحاربي يديم النظر قال: كأنك يا رسول الله توهمتني؟ قال: «لقد رأيتك»، قال المحاربي: أي والله! لقد رأيتني وكلمتني وكلمتك بأقبح الكلام، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على القبائل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم»، ثم قال المحاربي: يا رسول الله! ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام مني، فأحمدُ الله الذي أبقاني حتى صدقت بك، ولقد مات أولئك النفر الذي كانوا معي على دينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل»، فقال المحاربي: يا رسول الله! استغفر لي من مراجعتي إياك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإسلام يجبُّ ما كان قبله من الكفر»، ثم انصرفوا إلى أهليهم[1].

وفود غسان

قوله: (ومنها: وفد غسان): قال في «زاد المعاد»: قدم في شهر رمضان سنة عشر، وهم ثلاثة نفر، فأسلموا، وقالوا: لا ندري أيتبعنا قومنا أم لا؟ وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر، فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائز، وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عام اليرموك، فلقي أبا عبيدة، فخبره بالإسلام، فكان يكرمه. اهـ[2].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٦٢ ـ ٦٦٣)، والخبر المذكور أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٥١).

(٢) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٦٩)، والخبر المذكور أورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٦٠).

قوله: (ووفد سلامان): قال في «زاد المعاد»: وقدم عليه صلى الله عليه وسلم وفدُ سلامان سبعة [نفر][1].

قوله: (ووفد سلامان): قال الدحلاني: سلامان: ـ بفتح السين وتخفيف اللام ـ، وفي العرب بطون ثلاثة ينسبون إليه: بطن من الأزد، وبطن من طيئ، وبطن من قضاعة، ومنهم هؤلاء، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من سلامان، فيهم خبيب بن عمرو السلاماني، فأسلموا، قال خبيب ـ رضي الله عنه ـ: صادفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجاً من المسجد إلى جنازة دعي إليها، فقلنا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليكم، من أنتم؟» قلنا: نحن من سلامان، قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبانَ غلامِه فقال: «أنزلْ هؤلاء؟»، قال خبيب: يا رسول الله! ما أفضلُ الأعمال؟ قال: «الصلاة في وقتها»، وصلوا معه الظهر والعصر، ثم شَكَوا له جدبَ بلادهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده: «اللهم اسقهم الغيث في دارهم»، فقلت: يا رسول الله! ارفع يديك فإنه أكثر وأطيب، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قام وقمنا معه ثلاثة أيام وضيافتهُ تجري علينا، ثم ودعناه، وأمر لنا بجوائز، فأعطانا لكل واحد منا خمس أواق فضة، واعتذر إلينا بلال ـ رضي الله عنه ـ، وقال: ليس عندنا اليوم مال، فقلنا: ما أكثَر هذا وأطيبه، ثم رحلنا إلى بلادنا، فوجدناها قد مُطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم. اهـ[2].

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن قيم الجوزية (٣/ ٦٦٩)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٤٦)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٣٢) من حديث حبيب بن عمرو السلاماني ـ رضي الله عنه ـ، وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٦١ـ ٣٦٢).

قوله: (ووفد بني عبس): قال الحلبي: وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من بني عبس، فقالوا: يا رسول الله! قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ هي معايشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له، بعناها وهاجرنا عن آخرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله حيث كنتم، فلن يلتكم ـ أي: ينقصكم ـ من أعمالكم شيئاً»، وسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خالد بن سنان: «هل له عقب؟»، فأخبروه أنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه عن خالد بن سنان، وقال: «إنه نبي ضيعه قومه»[1].

وخالد بن سنان العبسي كان في زمن الفترة، قيل: كان نبيّاً، وكان من معجزاته: أن ناراً ظهرت بأرض العرب، فافتتنوا بها، وكادوا يتمجسون، فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها وهو يقول: بدداً بدداً، كل هاد مؤد إلى الله الأعلى، لأدخلنها وهي تلظى، ولأخرجن منها وثيابي تندى، ثم إنها طفئت وهو في وسطها، فلما حضرته الوفاة، قال لأهله: إذا دفنت، فإنه ستجيء عانة[2] من حَمِير يقدمها عير أبتر، فيضرب قبري بحافره، فإذا رأيتم ذلك، فانبشوا عني؛ فإني سأخبركم بجميع ما هو كائن، فلما مات ودفنوه، رأوا ما قال، فأرادوا نبشه، فكره ذلك بعضهم قالوا: نخاف إن نبشناه أن تسبنا العرب بأنا نبشنا ميتاً، فتركوه[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٨)، والخبر المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٢٩٦) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأورده الكلاعي في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله» (٢/ ٣٦٣).

(٢) في هامش الأصل: «العانة: الأتان والقطيع من حمر الوحش، جمعه: عُون ـ بالضم ـ. اهـ. قاموس».

(٣) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٢٩١).

ووفد النخع.

وكان عليه الصلاة والسلام يقابل هذه الوفود بما جَبَلَهُ الله عليه من البشاشة، وكرم الأخلاق، ويُجيزهم بما يرضيهم، ويعلمهم الإيمان والشرائع، ليعلِّمُوا مَنْ وراءهم، وكانت هذه الوفود أعظمَ وصلةٍ لإظهار الدين بين الأعراب في البوادي.

وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام

وفي هذه السنة توفي إبراهيم ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: (ووفد النخع): قال الحلبي: النخع ـ بفتح النون والخاء ـ: قبيلة من اليمن، وهو آخر الوفود، وكان وفودهم سنة إحدى عشرة في النصف من المحرم، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مئتا رجل من النخع مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل[1].

وفاة إبراهيم ابن النبي عليه السلام

قوله: (وفي هذه السنة توفي إبراهيم ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم): قال الحلبي: في سنة ثمان من الهجرة من ذي الحجة ولدت له صلى الله عليه وسلم ماريةُ القبطية ـ رضي الله تعالى عنها ـ ولدَه إبراهيم، وعق عنه صلى الله عليه وسلم بكبشين يوم سابعه، وحلق رأسه، وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، وسماه: إبراهيم يوم ولادته[2].

وقيل: سماه سابع ولادته، ودفعه لأم بردةَ خولةَ بنتِ المنذر بن زيد الأنصاري زوجةِ البراء بن أوس لترضعه، وأعطاها قطعة نخل، فكانت ترضعه

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٧٩).

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، من طريق الواقدي عن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة.

في بني مازن، وترجع به إلى المدينة.

ولما احتُضر، جاء صلى الله عليه وسلم، فوجده في حِجْر أمه، فأخذه صلى الله عليه وسلم في حجره وقال: «يا إبراهيم! إنا لن نغني عنك من الله شيئاً»، ثم ذرفت عيناه صلى الله عليه وسلم وقال: «إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب»[1].

ونهانا عن الصياح، ولما كسفت الشمس في ذلك اليوم، قال قائل: كسفت لموت إبراهيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكسف لموت أحد ولا لحياته»[2]، وفي لفظ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[3].

ودفن بالبقيع، وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم لما دفن ولده إبراهيم، وقف على قبره فقال: «يا بني! إن القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، إنا لله وإنا إليه راجعون». اهـ. ملخصاً[4].

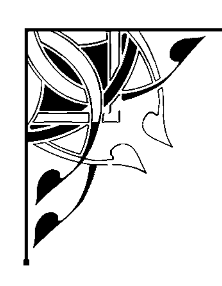
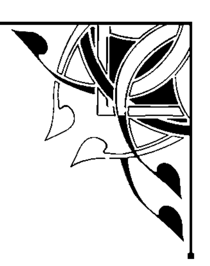


(١) رواه البخاري (١٣٠٣) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤/ ٣٠٦) من حديث عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت، عن أمه سيرين ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٤)، ومسلم (٩١١)، من حديث أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ بنحوه.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦)، والخبر المذكور أورده الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (١١/ ٢٥)، وعزاه لابن فورك في كتابه «النظامي».

السَّنَة الحادية عشرة

سرية [أسامة بن زيد إلى أبنى]

لأربع بقينَ من صفر، جهز عليه الصلاة والسلام جيشاً برياسة أُسامة ابن زيد إلى أُبْنى حيثُ قُتل زيدُ بنُ حارثة، والدُ أُسامة، وقال له: «سر إلى موضع قتل أبيك، فأوطئهم الخيل؛ فقد ولّيتك هذا الجيش، فأَغِرْ صباحاً على أهل أُبْنى، وحرِّق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله، فأقلَّ اللبثَ فيهم، وخُذِ الأدلاَّء، وقدِّم العيونَ والطلائع معك»، وكان مع أُسامة في هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار، منهم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسعد، ثم عقد عليه الصلاة والسلام لأُسامة اللواء، وقال له: «اغزُ باسم الله، في سبيل الله، وقاتل مَنْ كفر بالله»[1].

السنة الحادية عشرة

سرية

قوله: (سرية) عنونها الحلبي بـ: سرية أسامة بن زيد إلى أبنى، قال: وأبنى ـ بضم الهمزة وفتح النون ـ: اسم موضع بين عسقلان والرملة.

وفي كلام السهيلي ـ رحمه الله ـ: وهي قرية عند مؤتة التي قتل عندها زيد ابن حارثة ـ رضي الله عنهما[2] ـ.

---

(١) أورده الواقدي في «المغازي» (٢/ ٤٧٣)، وانظر: «السيرة الحلبية» نور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٧).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٧). وانظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٣٨٥).

وقد انتقد جماعة على تأمير أُسامة وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين، فأُبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المقالة، فغضب غضباً شديداً، وخرج، فقال: «أما بعد: أيّها الناس! فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة؟ ولئن طعنتم في تأميري أُسامة، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله، وايمُ الله! إنه كان لخليقاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليقٌ بها، وإن كان لمن أحبّ الناس إليَّ، وإنهما لَمظنّةٌ لكلِّ خير، فاستوصوا به خيراً؛ فإنه من خياركم»[1].

قوله: (لم يتجاوز السابعة عشرة): في الحلبي: كان سنه ثمان عشرة، وقيل: تسع عشرة، وقيل: سبع عشرة سنة، ويؤيد ذلك: أن الخليفة المهدي لما دخل البصرة رأى إياسَ بنَ معاوية الذي يضرب به المثل في الذكاء وهو صبي، وخلفه أربعُ مئة من العلماء وأصحاب الطيالسة، فقال المهدي: أف لهذه العثانين، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟! ثم التفت إليه المهدي وقال: كم سنك يا فتى؟ فقال: سني ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيه أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فقال: تقدم بارك الله فيك، وكان سنه سبع عشرة سنة[2].

ومما يؤثر عنه: من لم يعرف عيبه فهو أحمق، قيل: وما عيبك؟ قال: كثرة الكلام. اهـ[3].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٩/ ٣٦٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ بنحوه.

(٢) أورد هذه القصة بهاء الدين العاملي في «الكشكول» (١/ ٢٩٢)، وعزاها للمسعودي في «شرح المقامات».

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٧)، والقول المذكور رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٢٤) عن إياس بن معاوية.

ولم يتم لهذا الجيش الخروجُ في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لأن المرض بدأه، فاختاره الله للرفيق الأعلى.

وسيرى القارئ ـ إن شاء الله ـ خروجَ هذا الجيش متمّماً في كتابنا «إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء».

قوله: (لأن المرض بدأ به): قال الحلبي: لما كان يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، بدأ به صلى الله عليه وسلم وجعُه، وصُدع، ولما كان يوم الأحد، اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فدخل أسامة من معسكره[1] والنبي صلى الله عليه وسلم مغمور، فطأطأ رأسه فقبله، وهو صلى الله عليه وسلم لا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء، ثم يضعها على أسامة ـ رضي الله عنه ـ، قال أسامة: فعرفت أنه صلى الله عليه وسلم يدعو لي[2].

ورجع أسامة إلى معسكره[3]، ثم دخل عليه يوم الاثنين، فقال له صلى الله عليه وسلم: «اغدُ على بركة الله تعالى»، فودعه أسامة، وخرج إلى معسكره، وأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب، إذا رسولُ أمه أم أيمن ـ رضي الله عنها ـ قد جاءه يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت ـ وفي لفظ: سار حتى بلغ الجرف، فأرسلت إليه امرأته فاطمةُ بنتُ قيس تقول له: لا تعجل؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيل ـ، فأقبل، وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فانتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يموت، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس؛ أي: مالت[4].

---

(١) في الأصل: «عسكره»، والمثبت من «الطبقات الكبرى».

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٧) من حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) في الأصل: «عسكره»، والمثبت من «الطبقات الكبرى».

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، والخبر المذكور =

لما تمّم عليه الصلاة والسلام ما كُلِّفَ بـه، وأدى مـا اؤتمـن عليـه، وهدى الله به أمته، اختاره الله للرفيق الأعلى، فجلس على المنبر مرة، . . .

مرض الرسول صلى الله عليه وسلم

قال الدحلاني: قد عرَّف الله النبيَّ صلى الله عليه وسلم اقترابَ أجله بنزول سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾؛ فإن المراد من هذه السورة: أنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجاً؛ فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار؛ فإنه قد حصل مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا لك خير من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا.

وروى الطبراني عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت هذه الآية، قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: «أَنعيتَ إليَّ نفسي»؟، فقال له جبريل: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾[1].

قوله: (فجلس على المنبر مرة): كان ذلك بعد أن اشتد به وجعُه، واغتسل من سبع قِرَب كما سيأتي.

= أورده ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(١) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٣١٧)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٦٧٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني، وفيه عبد المنعم بن إدريس، وهو كذاب وضاع.

وروى البخاري (٤٩٦٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: ما تقول يا بن عباس؟ قال: أجل، أو مثل ضُرب لمحمد صلى الله عليه وسلم، نُعيت له نفسه.

وكان فيما قال: «إن عبداً خيَّره الله بين أَنْ يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده». فبكى أبو بكر، وقال: يا رسول الله! فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أمَنَّ الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنتُ متخذاً خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أُخوة الإسلام، . . . .

قال في «الحلبية»: بعد أن اغتسل خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه الشريف حتى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أُحد ـ أي: دعا لهم ـ فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم، ثم قال: «إن عبداً من عباد الله . . .» إلخ الحديث[1].

قوله: (وكان فيما قال. . .) إلخ: الحديث في «صحيح البخاري»، ومسلم، وبعد قوله: فديناك بآبائنا وأمهاتنا قال: فعجبنا، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عند الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا! قال: فكان رسولُ الله هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَنا به[2].

قوله: (فقال عليه السلام: إن أمنّ الناس. . .) إلخ: قال الحلبي: في رواية قال: «يا أبا بكر! لا تبك، أيها الناس! إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر»[3]، وهذا حديث صحيح جاء عن بضعةَ عشرَ صحابياً، ولكثرة طرقه عدَّ من المتواتر[4].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٤٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٥٨).

لا يبقى في المسجد خَوخة إلا سُدَّت إلا خَوْخة أبي بكر»[1].

وقد بدأه عليه الصلاة والسلام مرضُه في أواخر صَفَر من السنة الحادية عشرة من الهجرة في بيت ميمونة، واستمر مريضاً ثلاثة عشر يوماً، كان في خلالها ينتقل إلى بيوت أزواجه، ولما اشتد عليه المرض، استأذن منهنّ أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة الصدّيقية، فأَذِنَّ له، ولما دخل بيتها، . . . .

قوله: (خوخة) ـ بفتح الخاءين ـ: هي مخترق ما بين كل دارين. «قاموس»[2].

قال الحلبي: وعند إغلاق الأبواب قال الناس: أغلقَ أبوابنا وتركَ باب خليله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر، وإني أرى على باب أبي بكر نوراً، وأرى على أبوابكم ظلمة، لقد قلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت، وأمسكتم الأموال، وجاد لي بماله، وخذلتموني وواساني»[3].

وفي رواية: «لا تؤذوني في صاحبي، ولولا أن الله سماه صاحباً، لاتخذته خليلاً، ألا فسدُّوا كلَّ خوخة إلا خوخةَ ابن أبي قحافة»[4].

قوله: (في أواخر صفر): الذي في شرحَيِ المناوي والباجوري على «الشمائل»: أن مرضه كان ثاني ربيع الأول.

---

(١) رواه البخاري (٤٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خوخ).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ١١٠) من حديث المقدام بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩)، والحديث المذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣٣٨٣) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٥): رجاله رجال الصحيح.

واشتد عليه وجعُه، قال: «هَريقوا عليَّ من سبع قِرَبٍ لم تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنّ؛ لعلّي أعهد إلى الناس»، فأُجلس في مِخضَب، وصُبّ عليه الماء حتى أشار بيده أَنْ قدَ فَعَلْتُنَّ[1].

وكان هذا الماء لتخفيف حرارة الحمى التي كانت تصيب مَن يضع يده فوق ثيابه.

صلاة أبي بكر بالناس

ولما تعذَّر عليه صلى الله عليه وسلم الخروجُ إلى الصلاة، قال: «مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، فرضيه عليه الصلاة والسلام خليفةً له في حياته. ولما رأت الأنصارُ اشتدادَ وجع الرسول صلى الله عليه وسلم طافوا بالمسجد، . . . .

قوله: (من سبع قرب)؛ أي: من آبار شتى، ولعل الحكمة في ذلك: أن لا يتطرق الفساد إلى الماء من الهواء، وليبقى خواصُّه فيه.

قوله: (في مخضب): المِخْضب؛ كمنبر: المِرْكَن. «قاموس»[2].

وفي «النهاية»: المخضب ـ بالكسر ـ: شبه المِرْكن، وهي إجَّانة يغسل فيها الثياب[3].

صلاة أبي بكر بالناس

قوله: (ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة. . .) إلخ: كانت تلك الصلاة صلاة العشاء الأخيرة، وقد رام النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى الصلاة ثلاث مرات، فيغمى عليه، فأرسل إلى بكر ـ رضي الله عنه ـ بأن يصلي

---

(١) رواه البخاري (١٩٨) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: خضب).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٣٩).

فدخلَ العباس، وأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على عليّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم معصوبُ الرأس يَخُطُّ برجليه، حتى جلس في أسفل مِرقاة المنبر، وثار الناس إليه، فحمِد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس! . . . .

بالناس، وحينئذ قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: إن أبا بكر رجل أسيف ـ أي: رقيق القلب ـ، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»، فعاودته، فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يُسمع الناسَ من البكاء، فمرْ عمرَ فيصل، ففعلت حفصة، فقال صلى الله عليه وسلم لحفصة: «مَهْ، إنكن صواحبُ يوسف» عليه الصلاة والسلام، وهي زليخا، أظهرت خلاف ما تبطن، أظهرت للنساء اللاتي جمعتهن أنها تريد إكرامهن بالضيافة، وإنما قصدها أن ينظرن لحسن يوسف، فيعذرنها في حبه، والنبي صلى الله عليه وسلم فهم من عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها تظهر كراهة ذلك، مع محبتها له باطناً، هكذا يقتضيه ظاهر اللفظ، والمنقول عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها إنما قصدت بذلك خوف أن يتشاءم الناس أبا بكر، فيكرهونه حيث قام مقامه صلى الله عليه وسلم؛ فقد جاء منها أنها قالت: ما حملني على كثرة مراجعتي له صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه، ولا كنت أرى أنه يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس منه. اهـ. حلبي ملخصاً[1].

قوله: (فدخل العباس . . .) إلخ: قبل دخول العباس دخل عليه الفضل ـ رضي الله عنه ـ، ثم دخل عليٌّ ـ كرم الله وجهه ـ.

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٦٦٤، ٧٣٠٣)، ومسلم (٤١٨)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

بلغني أنكم تخافون من موت نبيّكم، هل خُلِّد نبيٌّ قبلي فيمن بعث الله فأُخلَّدَ فيكم؟ ألا إني لاحقٌ بربي، وإنكم لاحقون بي، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]، وإن الأمور تجري بإذن الله، ولا يحملنكم استبطاءُ أمرٍ على استعجاله؛ فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالبَ اللهَ غلبهَ، ومن خادعَ اللهَ خدعَه، ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وأوصيكم بالأنصار خيراً؛ فإنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلكم، أن تُحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسِّعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن وُلِّي أن يحكم بين رجلين فليقبلْ من محسنهم، وليتجاوزْ عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإني فَرَطٌ لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا فإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده عليَّ غداً فليكفُفْ يده ولسانه؛ . . . .

قوله تعالى: (﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾): فهل يتوقَّع منكم.

(﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾): أمورَ الناس وتأمرتم عليهم، أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام.

(﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾) تناحراً على الولاية، وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاور ومقاتلة الأقارب، والمعنى: أنهم لضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا، أحقاءُ بأن يتوقَّع ذلك منهم مَنْ عرفَ حالهم، وخبر (عسى) قوله: ﴿أَن تُفْسِدُوا۟﴾، و﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾

إلا فيما ينبغي».

وبينما المسلمون في صلاة الفجر، من يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، وأبو بكر يصلي بهم، إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كشف سِجْفَ حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على عقبه ليصلَ الصَّفَّ، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده: أن أتّموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر[1].

اعتراض. اهـ. بيضاوي[2].

قوله: (إلا فيما ينبغي) تتمة الحديث بعد هذا ـ كما في الحلبي ـ: «يا أيها الناس! إن الذنوب تغير النعم، فإذا بر الناس، برتهم أئمتهم، وإذا فجر الناس، عقوا أئمتهم»[3].

قوله: (ثم تبسم يضحك)؛ أي: سروراً منه صلى الله عليه وسلم حيث رأى أمته تقيم عماد الدين.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ١٩٤).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٦٤)، والخبر المذكور أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٧٠) عن سعيد بن عبدالله عن أبيه، وقال الحافظ العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ١٢١٦): هو حديث مرسل ضعيف، وفيه نكارة، ولم أجد له أصلاً، وأبوه عبدالله بن ضرار بن الأزور، تابعي، روى عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال أبو حاتم فيه وفي ابنه سعيد: ليس بالقوي.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم تأت ضحوةُ هذا اليوم حتى فارق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دنياه، ولحق بمولاه، وكان ذلك في يوم الاثنين (١٣) ربيع أول سنة (١١)، (٨) يونيو سنة (٦٣٣)، فيكون عمره عليه الصلاة والسلام (٦٣) سنة قمرية كاملة، وثلاثة أيام، وإحدى وستين شمسية، وأربعة وثمانين يوماً، وكان أبو بكر غائباً بالسُّنْح ـ وهي منازل بني الحارث بن الخزرج ـ . .

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله: **(بالسنح)** ـ بضم السين ـ: موضع قرب المدينة كان به مسكن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ.

قوله: **(حتى فارق رسول الله الحياة)**: وفي «الحلبية»: وآخر ما تكلم به عليه الصلاة والسلام: «الصلاةَ وما ملكت أيمانُكم»[1]، حتى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يترغرغ بها في صدره، ولا يفيض بها لسانه، وآخر ما عهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»[2].

قال السهيلي: وذكر أن آخر كلمة تكلم بها عليه السلام: «اللهم الرفيق الأعلى»[3]، وهذا منتزع من قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾[النساء: ٦٩][4].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٥٦)، وابن ماجه (٢٦٩٨)، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٧٣)، والحديث المذكور رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ٢٧٤) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: «الروض الأنف» للسهيلي (٤/ ٤٣٧).

عند زوجه حبيبةَ بنتِ خارجةَ بنِ زيد، فسلَّ عمر سيفه، وتوعَّد مَنْ يقول: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: إنما أُرسل إليه كما أُرسل إلى موسى، فلبثَ عن قومه أربعين ليلة، والله! إني لأرجو أن يُقَطِّع أيدي رجالٍ وأرجلَهم.

قال الحلبي: وعند ذلك دهش الناس، وطاشت عقولهم، واختلفت أحوالهم، فأما عمر ـ رضي الله عنه ـ فخبل، وأما عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فأخرس، وأما علي ـ كرم الله وجهه ـ فأقعد، وجاء أبو بكر وعيناه تهملان، فقبَّل النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي! طبت حيّاً وميتاً[1].

قوله: (وقال: إنما أرسل إليه. . .) إلخ: في الحلبية: أن عمر ـ رضي الله عنه ـ صار في ناحية المسجد يقول: والله! ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيديَ ناس من المنافقين كثير وأرجلَهم، وصار رضي الله عنه يتوعد من قال: (إنه مات) بالقتل أو القطع.

ونقل عنه ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات، ولكن ما مات، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بنُ عمران عليه السلام، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل: قد مات، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى بن عمران، فليقطعن أيديَ رجال وأرجلَهم[2].

ولا زال ـ رضي الله عنه ـ يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه[3].

---

(١) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٧٤)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٦٦٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٦) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بنحوه. وروواه ابن ماجه (١٦٢٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٧٥)، والخبر المذكور رواه =

فلما أقبل أبو بكر، وأُخبر الخبر، دخل بيت عائشة، وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجثا يُقَبِّلُه، ويبكي، ويقول: توفي والذي نفسي بيده صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حيّاً وميتاً! بأبي أنت وأمي! لا يجمع الله عليك موتتين[١].

ثم خرج، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا من كان يعبدُ محمداً، فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله، حيٌّ لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: والله! لكأني لم أتلُ هذه الآية قَطّ، ثم مكث عليه الصلاة والسلام في بيته بقية يوم الاثنين، وليلة الثلاثاء ويومه، وليلة الأربعاء، حتى انتهى المسلمون من إقامة خليفة عليهم، فَغُسِّلَ ودُفِنَ، وكان الذي يغسله عليُّ بن أبي طالب، ويساعده العباسُ، وابناه الفضلُ وَقُثَم، . . . . . .

قوله: (لا يجمع الله عليك موتتين): قال الدحلاني: أشار بذلك إلى الرد على من يزعم أنه سيجيء فيقطع أيدي رجال؛ لأنه لو صح ذلك، لزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر بأنه أكرمُ على الله أن يجمع عليه موتتين.

وقيل: إنه أراد: لا يجمع الله عليك موت نفسك وموت شريعتك. اهـ[٢].

قوله: (قُثَم) كزُفَر: هو ابنُ العباس. اهـ. «قاموس»[٣].

= ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٢٦٨) عن عكرمة.

(١) رواه البخاري (١٢٤١، ٣٦٦٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لأحمد بن زيني دحلان (٣/ ٣٢٤).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قثم).

وأُسامة بن زيد، وشُقْرانُ مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيضٍ، ليس فيها قميص ولا عِمامة[1]. ولما فرغوا من تجهيزه، وُضع على سريره صلى الله عليه وسلم في بيته، ودخل الناس عليه أرسالاً متتابعين يُصَلُّون عليه، ولم يؤمّهم أحد، ثم حُفِرَ له لحدٌ في حجرة عائشة حيث توفي، وأنزله القبرَ عليّ والعباس، وولداه الفضلُ وَقُثَم، وَرَشَّ قبره بلالٌ بالماء، ورُفع قبره عن الأرض قدرَ شبر.

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرّهم شيء: كتابَ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وترك أصحابَه البررةَ الكِرام، يوضِّحون الدين، ويتمّمون فتح البلاد، ويُظهرون في الدنيا شمس الدين الإسلامي القويم، حتى يتمّم الله كلمته، ويحقّ وعده، وقد فعل، فنسأل الله أن يقدّرنا على أداء شكره على هذه المنّة العظمى، والنعمة الكبرى.

قوله: (شُقْران) هو كعثمان، واسمه: صالح. اهـ. «قاموس»[2].

قوله: (ثلاثة أثواب): في الحلبي: هي إزار ورداء ولفافة[3].

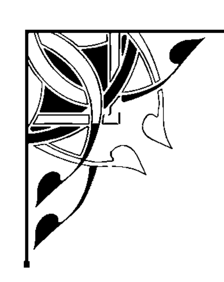
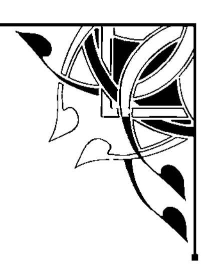
❐ ❐ ❐

---

(١) رواه البخاري (١٢٧٣)، ومسلم (٩٤١)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: شقر).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ٤٧٧).

شمائله عليه الصَّلاة والسَّلام

منح الله سبحانه نبيّنا صلى الله عليه وسلم من كمالات الدنيا والآخرة ما لم يمنحه غيره ممّن قبله أو بعده، ولا بدّ أن نأتي لك في هذا الباب بنبذة يسيرة من محاسن صفاته، وأحاسنِ آدابه؛ لتكون لك أنموذجاً تسير عليه، حتى تكون على قدم نبيّك صلى الله عليه وسلم، فتستحق الحمد في الدنيا، والذخر في الأخرى.

فاعلم ـ أرشدني الله وإياك، وهدانا للصراط السوي ـ: أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروريٌّ دنيوي: اقتضته الجِبلَّةُ، وضرورةُ الحياة، ومكتسَبٌ دينيّ: وهو ما يُحمد فاعلهُ، ويُقَرِّبُ إلى الله زلفى.

فأما الضروري: فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب؛ مثل ما كان في جبلَّته عليه الصلاة والسلام من كمال الخِلْقة، وجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس والأعضاء، واعتدال الحركات، وشرف النسب، وعزّة القوم، وكرم الأرض، ويلحق به ما تدعو ضرورة الحياة إليه؛ من الغذاء والنوم والملبس والمسكن والمال والجاه.

أما المكتسبة الأخروية: فسائر الأخلاق العليّة، والآداب الشرعية؛ من الدين، والعلم، والحِلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، . . . .

والتواضع، والعفو، والعفّة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحُسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي يجمعها حُسن الخُلق.

فإذا نظرت ـ رعاك الله ـ إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة، وفي جبلَّة الخِلقة، وجدته عليه الصلاة والسلام حائزاً لجميعها، محيطاً بشتات محاسنها.

فأما الصورة وجمالها، وتناسبُ أعضائه في حُسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه صلى الله عليه وسلم كان: أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكَل، أهدب الأشفار، أبلج أزجَّ أقنى أفلجَ، مدورَ الوجه، واسعَ الجبين، كَثَّ اللحية تملأ صدرَه، سَواءَ البطن والصدر، عظيم المنكبيَن، ضخم العِظام، عَبْل العَضُدَين والذراعين والأسافل، رَحْب الكفَّين والقدمين، سائل الأطراف، أنورَ المُتَجَرَّد، . . . .

قوله: (سواء البطن)؛ أي: ليس متقاعس الصدر، ولا مفاض البطن. اهـ. «شفا»[1].

قوله: (رحب الكفين)؛ أي: واسعَهما، وهو دليل الجود، وصغره دليل البخل.

وقوله: (سائل الأطراف)؛ أي: طويلها طولاً معتدلاً بين الإفراط والتفريط، فكانت مستوية مستقيمة، وذلك مما يمدح به، قال ابن الأنباري: سائل ـ باللام ـ روي: سائن ـ بالنون ـ، وهما بمعنى[2].

وقوله: (أنور المتجرد) ـ بكسر الراء المشددة على أنه اسم فاعل، وبفتحها

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٦٢).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٦٣).

دقيقَ المَسْرُبة، رَبْعةَ القدِّ، ليس بالطويل البائِن، ولا القصير المتردِّد، ومع ذلك فلم يكن يُماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طالَه صلى الله عليه وسلم، رَجِل الشَّعر، إذا افترَّ ضاحكاً، افترَّ عن مثل سَنا البرق، . . . .

على أنه اسم مكان، قيل: وهو أشهر، بل قيل: إنه الرواية ـ، والمعنى: أنه نير العضو المتجرد عن الشعر أو عن الثوب، فهو على غاية من الحسن ونصاعة اللون. اهـ. باجوري على «الشمائل»[1].

قوله: **(ولا القصيرِ المتردد)**: فسره في «الشمائل» بالداخل بعضُه في بعض قصراً[2].

قوله: **(رَجِل الشعر)**؛ أي: لا بالجعد القطط، ولا بالسبط؛ كما في «الشمائل»[3].

و**(الجَعْد)** بفتح فسكون، و**(القَطَط)** بفتحتين، والقطط: شعر الزنج، و**(السبط)**: ـ بفتح فكسر، أو بفتحتين، أو بفتح فسكون ـ.

وفي «التهذيب»: سَبِط الشعر سَبَطاً، من باب تعب، فهو سبط: إذا كان مسترسلاً[4].

والمراد: أن شعره صلى الله عليه وسلم ليس نهاية في الجعودة، ولا في السبوطة، بل كان وسطاً بينهما[5]، وخير الأمور أوساطها[6].

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية» للباجوري (ص: ٦٠ ـ ٦١).

(٢) انظر: «الشمائل المحمدية» (ص: ٢١ ـ طبعة دار إحياء التراث العربي).

(٣) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (١) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٣/ ١٣٦).

(٥) في الأصل: «بينهما»، والتصويب من «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (١٠/ ٦٨).

(٦) قوله: (خير الأمور أوساطها) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٨٨) من =

وعن مثل حبِّ الغمام، إذا تكلم، رُئِي كالنُّور يخرجُ من بين ثناياه، أحسنَ الناس عُنُقاً، ليس بِمُطَهَّمٍ، ولا مُكَلْثَمٍ، ....

قال الزمخشري: الغالب على العرب جعودةُ الشعر، وعلى العجم سبوطته[1].

وقد أحسن الله لرسوله الشمائل، وجمع فيه ما تفرق في غيره من الفضائل. اهـ. باجوري[2].

قوله: (وعن مثل حب الغمام)؛ أي: البَرَد. اهـ. «شفا»[3].

قوله: (يخرج من بين ثناياه)؛ أي: ـ رئي له صفاءٌ يلمع كالنور يخرج من بين ثناياه، ويحتمل أن الكاف زائدة للتفخيم، ويكون الخارج حينئذ نوراً حسيّاً معجزة له صلى الله عليه وسلم، ورئي: ـ بضم الراء وكسر الهمزة، وقيل: بكسر الراء على وزن: قيل ـ. اهـ. «باجوري على الشمائل» ملخصاً[4].

قوله: (ليس بمطهم): فسر المصنف المطهم: بالبائن، وهو سهو، ولعل السهو من الطبع، والصواب: المطهم: البادن؛ أي: الكثير اللحم، فالكثير اللحم صفة كاشفة، والرواية فيه بلفظ اسم المفعول فقط.

وقوله: (ولا مكلثم) الرواية فيه بلفظ اسم المفعول فقط، ومعناه: مدور الوجه، والمراد: أنه أَسيل الوجه، مسنون الخدين، ولم يكن مستديراً غايةَ التدوير، بل كان بين الاستدارة والإسالة. اهـ. باجوري[5].

= قول مطرف بن عبدالله.

(١) انظر: «الفائق» للزمخشري (١/ ٤٤٤).

(٢) انظر: «المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية» للباجوري (ص: ٢٣).

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٦٣).

(٤) انظر: «المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية» للباجوري (ص: ٧٩ ـ ٨٠).

(٥) انظر: «المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية» للباجوري (ص: ٤٣).

متماسِكَ البدن، ضربَ اللَّحم[1].

قال البراء بن عازب: ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ سوداءَ في حُلَّةٍ حمراءَ أحسنَ من رسُول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وقال أبو هريرة: ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه[3]، وإذا ضحك يتلألأ في الجُدُر[4].

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر[5].

وقال عليٌّ في آخر وصفه له: من رآه بَديهة هَابَهُ، ومن خالطهُ معرِفةً أحبَّه، . . . .

وفسره صاحب «الشفاء» بما ذكره المصنف هنا[6].

قوله: (متماسك البدن)؛ أي: معتدل الخلق يمسك بعضُه بعضاً.

قوله: (ضَرْب اللحم) ـ بسكون الراء ـ؛ أي: قليل اللحم.

قوله: (من ذي لمة سوداء) المراد باللمة هنا: ما نزل عن شحمة الأذن، ووصل إلى المنكبين؛ لأنها تطلق على الواصل إليهما، وهو المسمى بالجمَّة، وعلى غيره، وهو المسمى بالوَفْرَة، و(من) زائدة لتأكيد العموم. اهـ. باجوري[7].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣٧) بنحوه.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٠).

(٤) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٢٧٥)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٦١).

(٥) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٨).

(٦) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٦٢)، وفيه: «المكلثم: القصير الذقن».

(٧) انظر: «المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية» للباجوري (ص: ٣٤).

يقول ناعِتُهُ: لم أرَ قبله ولا بعده مثلَه صلى الله عليه وسلم[1].

وأما نظافةُ جسمه، وطيبُ ريحه وعرَقه، ونزاهتُه عن الأقذار وعوراتِ الجسد، فكان قد خصَّه الله تعالى في ذلك بخصائصَ لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع.

قال عليه الصلاة والسلام: «بُنِي الدين على النظافة»[2].

وقال أنس: ما شَممت عنبراً قطُّ، ولا مِسكاً، ولا شيئاً أطيَب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

وعن جابر بن سَمُرَةَ: أنه عليه الصلاة والسلام مسح خَدَّه، قال: فوجدت ليده بَرداً وريحاً كأنما أخرجها من جُؤنة عطار[4].

(نظافة جسمه)

قوله: (جؤنة عطار) الجُؤنة ـ بالضم ـ: سَفَطٌ مغشًّى بجلد، ظرفٌ لطيب العطار، أصله الهمز، ويُليَّن، وجمعه كصُرَد. اهـ. قاموس[5].

---

(١) رواه الترمذي (٣٦٣٨) وقال: حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل.

(٢) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (١/ ٤٩)، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٤): لم أجده هكذا، وفي «الضعفاء» لابن حبان من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «تنظفوا؛ فإن الإسلام نظيف»، وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «النظافة تدعو إلى الإيمان». والحديث الأول رواه ابن حبان في «المجروحين» (٣/ ٥٧)، والحديث الثاني رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٧٣١١).

(٣) رواه مسلم (٢٣٣٠).

(٤) رواه مسلم (٢٣٢٩).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: جأن).

قال غيره: مَسَّها بطيب، أو لم يمسَّها، يصافح المصافح، فيظل يومَه يجد ريحها، يضع يده على رأس الصبي، فيُعرف من بين الصِّبيان بريحها[1].

وروى البخاري في «تاريخه الكبير» عن جابر: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمرّ في طريق، فيتبعه أحد، إلا عُرِف أنه سلكه؛ من طيبه[2].

وأما وفُور عقلهِ صلى الله عليه وسلم، وذكاءُ لُبِّه، وقوةُ حواسه، وفصاحةُ لسانه، واعتدالُ حركاته، وحسن شمائله؛ فلا مِرية أنه كان أعقلَ الناس وأذكاهم، ومن تأمَّل تدبيره أمْرَ بواطن الخلق، وظواهرهم، وسياسته للعامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديعِ سِيَرِه، فضلاً عمّا أفاضه من العلم، وقرَّره من الشرع دون تعلُّم سابق، ولا ممارسة تقدَّمتْ، ولا مطالعة للكتب منه؛ لم يمترِ في رُجْحان عقله، وثُقُوب فهمه لأول بديهة[3].

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام في الصلاة، يرى من خلفه كما يرى من أمامه[4]، وبذلك فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩].

(وفور عقله)

قوله: (وبديع سِيَرِه): ـ بكسر السين وفتح الياء ـ.

قوله: (وبذلك فسر): العبارة منقولة عن «الشفاء» عن مجاهد[5]، فـ (فسر)

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٢/ ٣٨٣).

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (٦٦) بنحوه، ولم نقف عليه عند البخاري في «التاريخ الكبير».

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٢٤).

(٥) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٦٧)، وفيه: وقال مجاهد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة، يرى من خلفه كما يرى من بين يديه، =

وقالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام يرى في الظلمة كما يرى في الضوء[1]، وكان يَعُدُّ في الثريا أحدَ عشرَ نجماً[2].

وجاءت الأخبار أنه صرعَ رُكانةَ أشدَّ أهلِ وقته، وكان دعاه إلى الإسلام.

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرعَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه، كأنما الأرض تُطوى له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث[3].

إن قرأتها بصيغة المبني للفاعل، فالضمير يعود على مجاهد، وإن قرأتها بصيغة المبني للمفعول، فالضمير يعود على بعض العلماء، كذا في هامش نسخة خطية من «الشفاء» نقلاً عن «شرح العرضي على الشفاء».

قوله: (يرى في الثريا أحد عشر نجماً): قال في «الشفاء» بعد هذا الحديث: وهذه كلها محمولة على رؤية العين، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره، وذهب بعضهم إلى ردها إلى العلم، والظواهرُ تخالفه، ولا إحالة في ذلك، وهي من خواص الأنبياء وخصالهم، وتمامه فيه[4].

قوله: (رُكانة): ـ بضم الراء ـ أسلم يوم الفتح، وتوفي بالمدينة سنة أربعين، وصرعه النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات[5].

قوله: (إنا لنجهد): ـ بفتح النون والهاء، أو بضم النون وكسر الهاء ـ.

= وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الشعراء: ٢١٩].

(١) رواه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٤/ ٢١٩).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٦٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٠).

(٤) في هامش الأصل: «هذا الفصل في الشفاء نصه ٥٨».
وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٦٨).

(٥) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٥٢) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ.

وفي صفته عليه الصلاة والسلام: أن ضحكه كان تبسماً، إذا التفتَ التفتَ معاً، وإذا مشى مشى تقلُّعاً، كأنما ينحَطُّ من صَبَبٍ[1].

وأما فصاحةُ اللسان وبلاغةُ القول؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضعِ الذي لا يُجهَل، سلاسةَ طبع، وبراعةَ منزع، وإيجاز مقطع، ....

قوله: (مشى تقلعاً)؛ أي: رفع رجله من الأرض بهمة وقوة، لا مع اختيال وبطء حركة؛ لأن تلك مشية النساء.

وقوله: (كأنما ينحط من صبب)؛ أي: كأنما ينزل في منحدر، وهو ـ بفتح الصاد ـ.

فصاحة لسانه عليه السلام

قوله: (سلاسة طبع)؛ أي: سهولة طبع.

وقال العرضي: وسلاسة: منصوب على أنه مفعول له. اهـ. من هامش نسخة خطية.

قوله: (وبراعة منزع) ـ بفتح الميم والزاي ـ: اسم مكان، أو مصدر ميمي، وفسروه هنا بالمأخذ، وما يرجع إليه الرجل من رأيه وأمره، والظاهر أن المراد: أصله ومقره؛ يعني: أنه صلى الله عليه وسلم مع بلاغته الجبلية من قوم وجلدة هم أفصح الناس. اهـ. «خفاجي على الشفا»[2].

قوله: (وإيجاز مقطع) الإيجاز: التعبير عن معان كثيرة بلفظ قليل، ومقطع ـ بفتح الميم ـ: اسم مكان، أو مصدر؛ أي: موجز في محل القطع

---

(١) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٨، ٢٢٦)، من حديث هند بن أبي هالة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٣٨٦).

ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أُوتي جوامِعَ الكَلِم، وخُصَّ ببدائعِ الحِكَم، وعُلِّم ألسنةَ العرب، فكان يُخاطِب كل أمةٍ منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويُباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله[1].

من تأمل حديثه وسيرَه، علمَ ذلك وتحقَّقهَ. وليس كلامه مع قريش ككلامه مع أقيالِ حضرموتَ، وملوكِ اليمن، وعظماء نجد، بل يستعمل لكل قبيلة ما استحسنته من الألفاظ، وما انتهجته من طرق البلاغة؛ ليُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم، وليحدِّث الناس بما يعلمون.

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامعُ كلمه، ....

والفصل للأمور؛ فإنه محل الإيجاز، لا كمقام الخطابة؛ فإنه يُحمَد فيه التطويل. اهـ. خفاجي[2].

قوله: (كل أمة منها)؛ أي: كل قبيلة وجماعة منهم. اهـ. خفاجي[3].

قوله: (ويباريها في منزع بلاغتها) المباراة والمجاراة: المعارضة، وفعلُه مثلُ فعله.

قوله: (وسِيَره) جمع سيرة، وروي: سَبره ـ بباء موحدة[4] ـ؛ أي: تتبعه وفتش عليه، وأصله من سبر الجرح: إذا اختبر غورَه. اهـ. خفاجي[5].

(كلامه المعتاد وفصاحته)

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٧٠).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٣٨٦).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٣٨٧).

(٤) أوردها الصالحي في «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ١٠٤).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٣٨٧).

وحِكَمُه المأثورة؛ فقد ألَّفَ النَّاسُ فيها الدواوين، وجُمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يُوازى فصاحةً، ولا يبارى بلاغة؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على مَنْ سواهم»[1].

وقوله: «الناس كأسنان المشط»[2].

قوله: (ما لا يوازى) ـ بالبناء للمجهول ـ؛ أي: يماثَل ويقابَل ويساوَى؛ من الموازاة.

قوله: و(بلاغة) العبارة في «الشفاء»: ولا يبارى بلاغة[3].

قوله: (تتكافأ دماؤهم)؛ أي: هم متساوون في القصاص والدية، فشريفُهم ومشروفهم، وصغيرُهم وكبيرهم سواء.

قوله: (وهم يد على من سواهم)؛ أي: أنهم مجتمعون على أعدائهم، يعاون بعضهم بعضاً، فلا يخذله، فجعل أيديهم كأنها يد واحدة في الاتفاق، ولذا لم يقل: أيدي، واليد تستعمل في القهر والقوة والقدرة؛ أي: هم مستولون قاهرون لغيرهم من أهل الملل، فهم في الاتفاق باليد[4] الواحدة، فهو تشبيه بليغ واستعارة. اهـ. خفاجي[5].

قوله: (كأسنان المشط): قال الخفاجي: الظاهر أن المراد: تساويهم في

---

(١) رواه أبو داود (٢٧٥١) من حديث عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٥٢٤) من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ، وقال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (٢/ ٢٤٦): بكار ـ أي: ابن شعيب ـ ضعيف.

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٧٧).

(٤) كذا في الأصل و«نسيم الرياض»، ولعل الأنسب: «كاليد».

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٠).

و«المرء مع من أَحَبّ»[1].

و«لا خير في صُحبةِ مَنْ لا يرى لك ما ترى له»[2].

و«الناس معادن».

و«ما هلك امرؤ عرف قدره»[3].

و«المستَشَار مؤتَمَن».

الأحكام الشرعية[4].

قوله: (والناس معادن): قال الخفاجي: رواه الشيخان، وتمامه: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا»[5]؛ يعني: أن بني آدم يختلفون باختلاف أصلهم، فمن كان أصله شريفاً، أعقبَ مثلَه، وسرى طيبُ عرقه لفرعه، ومن كان دون ذلك، كان عقبُه مثلَه، ومن كان خبيثاً، كان فرعه خبيثاً[6].

قوله: (والمستشار مؤتمن): تتمته كما في «الشفاء»: «وهو بالخيار ما لم يتكلم»[7]؛ أي ـ الشارح ـ: ومعناه: أنه مخير؛ إن شاء أشار عليه بما شاوره فيه،

---

(١) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/ ٢٤٨) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٣٨٢): سنده ضعيف.

(٣) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٤٢) من قول أكثم بن صيفي.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٠).

(٥) رواه البخاري (٣٤٩٣)، ومسلم (٢٥٢٦)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١١).

(٧) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/٧٨)، والخبر المذكور أورده ابن وهب في =

و«رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت فسلم»[1].

وقوله: «أسلِم تَسلم، وأسلم يُؤتِك الله أجرك مرتين»[2].

و«إن أحبّكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسِنُكُم أخلاقاً، المُوَطَّؤون أكنافاً، الذين يَألفون ويُؤلفون»[3].

وإن شاء سكت ولم يتكلم، فإذا تكلم، لزمه بيانُ رأيه ونصحه، وذكر الصواب عنده. اهـ[4].

قوله: **(أسلم تسلم)**: هو من كتابه الذي كتبه صلى الله عليه وسلم لهرقل ملك الروم.

قوله: **(المُوَطَّئون أكنافاً)**: ـ بضم الميم وفتح الواو ـ، وهو من فيه لين ورفق وسهولة، والأكناف: جمع كنف، وهو الناحية والجانب؛ أي: من يلين جانبه لغيره.

وقوله: **(الذين يألفون)**؛ أي: الذين يألفهم الناس ويألفونهم.

= «الجامع في الحديث» (٢٨٤) بلاغاً بلفظ: «المستشار بالخيار ما لم يتكلم، فإذا تكلم فحق عليه أن ينصح»، ورواه ابن الأعرابي في «معجمه» (٢/ ٢) من حديث سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ بلفظ: «المستشار مؤتمن، فإن شاء أشار، وإن شاء سكت، فإن أشار، فليشرْ بما لو نزل به، فعلَه».

(١) رواه هناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٣٥) عن الحسن البصري مرسلاً.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه الطبراني في «مكارم الأخلاق» (٦) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ، ورواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ مختصراً، وقال: حديث حسن غريب.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٢).

وقوله: «لعلَّه كان يتكلم بما لا يعنيه، أو يبخل بما لا يغنيه».

وقوله: «ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً»[1].

ونهيه عن «قيل وقال، ....

قوله: (لعله كان يتكلم بما لا يعنيه): الضمير راجع للرجل المذكور في أول الحديث الذي رواه البيهقي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ في «الشعب»: أن رجلاً من الصحابة استشهد بأُحد، فقالت له أمه: مه يا بني! ليهنئك الشهادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لها: «وما يدريك؟ لعله كان يتكلم بما لا يعنيه»[2]؛ ومعناه: أنه لا يهنأ بالجنة إلا من لم يصدر عنه مثلُ هذا، فلعله يعاقَب عليه، و(يعنيه) ـ بفتح المثناة ـ: بمعنى: يهمه وينفعه. اهـ. خفاجي ملخصاً[3].

قوله: (ذو الوجهين): قال الخفاجي: ذو الوجهين: هو الذي يأتي كل قوم بما يرضيهم، خيراً كان أو شرّاً، فيظهر لأهل المنكر أنه راضٍ عنهم، فيستقبلهم ببشر منه وترحيب، فيظهر لأهل الحق أنه عنهم راض، فيزيد إرضاء كل فريق منهم، ويُظهر أنه معهم، وإن كان ليس كذلك باطناً. اهـ[4].

قوله: (عن قيل وقال): قيل: هما مصدران بمعنى القول، وقيل: فعلان؛ أحدهما مبني للمجهول؛ والثاني غير مجهول؛ والمعنى: النهي عن كثرة الكلام؛ لما يؤول إليه من الخطأ، والأول حكاية عن غير معين، والثاني عن معين. اهـ.

---

(١) لم نقف عليه باللفظ المذكور، ورواه البخاري (٧١٧٩)، ومسلم (٢٥٢٦)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ولفظ البخاري: «إن شرَّ الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه».

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٣٦).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٥).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٥).

وكثرة السُّؤال، وإضاعة المال، ومَنْعٍ وهاتِ، وعقوق الأمهات، ووأد البنات»[1].

وقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناس بِخُلق حسن»[2].

و«خير الأمور أوساطها»[3].

وقوله: «أحبب حبيبك هوناً ما، . . . .

خفاجي ملخصاً[4].

قوله: (وكثرة السؤال)؛ أي: سؤال الناس ما بأيديهم استعطاءً، وهو للقادر على الكسب من غير ضرورة حرامٌ، أو السؤال عن أخبار الناس وأحوالهم. اهـ. منه[5].

قوله: (ومنع وهات): (منعٍ): منون مجرور، والمراد: منعُ بذلِ ما يجب أو يستحسن، أو مطلق الإمساك، و(هاتِ)؛ أي: طلب ما عند غيره وسؤاله، وهو فعل أمر[6].

قوله: (هوناً ما): الهون: مصدر؛ كالقول، من هان عليه الشيء: إذا خف

---

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣١٧١) من حديث معبد الجهني عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٨٨٨) من قول مطرف بن عبدالله.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٦).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٦).

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٦).

عسى أن يكونَ بَغيضَك يوماً ما»[1].

وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2].

وقوله في بعض دعائه: «اللهمّ إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلمّ بها شَعْثي، وتُصلح بها غائبي، وتُزكي بها عملي، وتُلهمني بها رُشدي، وتردّ بها أُلْفَتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهمّ إني أسألك الفوز في القضاء، ونزُل الشهداء، وعيشَ السعداء، ....

وسهل، و(ما) تدل على التقليل، سواء قلنا: إنها زائدة، أو اسم، وقيل: لا تقليل فيها، وإن المراد: أيَّ هونٍ كان، و(ما) في ذلك للتأكيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾[البقرة: ٢٦][3].

قوله: (رغائبي[4]): هذا سهو، والصواب: غائبي، وفسروه بباطني؛ أي: ما خفي من أموري عني وعن غيري، وقيل: المراد: قلبي وصلاحه بصلاح صفاته من الإخلاص والصدق[5].

قوله: (وترد بها ألفتي)؛ أي: ما كنت آلفُه؛ كالأليف: ما تحبه وتريد اجتماعه، وردُّها: عودُها إلى ما كانت عليه، والمراد: عشيرته وأقرباؤه[6].

قوله: (الفوز في القضاء) القضاء والقدر بمعنى واحد، ومنهم من يفرق، فيجعل القدر: تقدير الله الأمور قبل أن تقع، والقضاء: إنفاذ ذلك القدر وخروجه

---

(١) رواه الترمذي (١٩٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤١٩).

(٤) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٢٠).

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٢٠).

والنصر على الأعداء»[١].

إلى غير ذلك مما رَوَتهُ الكافّة عن الكافّة عن مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يُقاس بها غيره، وحاز فيها سَبْقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ، وقد قال أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني؟ وإنما أُنْزل القرآن بلساني، لسانٍ عربي مُبين»[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى: «أنا أفصح العرب، بيدَ أني من قريش، ونشأت في بني سعد»[٣].

من العدم إلى حيز الوجود، وهو الصحيح؛ لأنه قد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم مر بكهف مائل للسقوط، فأسرع المشي حتى جاوزه، فقيل له: أنفر من قضاء الله؟ فقال: «أفر من قضائه إلى قدره»[٤]، ففرق بين القضاء والقدر، وبيَّن أن الإنسان يجب عليه أن يتوقى ما يضره. اهـ. منه[٥].

قوله: (وما يمنعني)؛ أي: ما يمنعني أن أكون أفصحَ الناس؟

---

(١) رواه الترمذي (٣٤١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٣١) من حديث محمد بن إبراهيم بن الحارث، نحوه.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٤٣٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٨): فيه مبشر بن عبيد، وهو متروك.

(٤) لم نقف عليه باللفظ المذكور، وروى أبو داود في «المراسيل» (٤٧٧) عن ابن شهاب: أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مر بجدار قد مال، أو تصدع، فشمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثيابه، ثم أسرع المشي حتى جاوزه، وقال لأصحابه: «أسرعوا».

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٢١).

فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مددُهُ الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر[1].

وأما شرف نسبه، وكَرَم بلده ومنشئه؛ فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا بيان مُشكلٍ ولا خفيٍّ منه؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزّهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة، أكرمِ بلاد الله على الله وعلى عباده[2]، وقد قدّمنا لك في أول الكتاب ما فيه الكفاية في هذا المقام.

أما ما تدعو إليه ضرورة الحياة؛ فمنه ما الفضلُ في قِلَّته، ومنه ما الفضلُ في كثرته، ومنه ما تختلف الأحوال فيه.

فالأول: كالغذاء والنوم، ولم تَزَل العرب والحكماء قديماً تتمادح بقلتهما، وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشرب دليلٌ على النَّهَم . . . . . .

قوله: (قوة عارضة البادية) العارضة: التجلد والقدرة على الكلام.

وقوله: (وجزالتها)؛ أي: جزالة كلامها، يقال: كلام جزل؛ أي: قوي شديد.

قوله: (ونصاعة ألفاظ الحاضرة) النصاعةُ كالفصاحة مصدرٌ بمعنى الخُلوص، والمراد: خلوصُها من التعقيد والغرابة الوحشية.

قوله: (وأما ما تدعو إليه الضرورة): شروعٌ في تفصيل ما أجمله في أول الباب، وهو قوله: (ويلتحق به ما تدعو إليه ضرورة الحياة).

قوله: (النهم) ـ بفتح النون والهاء ـ، وهو الإفراط في شهوة الطعام، ومنه

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٨٠).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٨١).

والحرصِ، والشَّرَهِ وغلبةِ الشهوةِ، مسببٌ لمضارِّ الدنيا والآخرة، جالبٌ لأدواء الجسد، وخثارة النفس، وامتلاء الدماغ، وقِلَّتَه دليلٌ على القناعة، وملكِ النفس، وقمعِ الشهوة، مُسَبِّبٌ للصحة، وصفاء الخاطر، وحدّة الذهن، كما أن النوم دليل على الفُسولة والضعف، وعدم الذكاء والفطنة، مسبّبٌ للكسل، وعادة العجز، . . . .

الحديث: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب مال»[1].

وقوله: **(والحرص)**؛ أي: الحرص على الأكل والشرب.

و**(الشره)** ـ بفتح الشين ـ: زيادة الحرص. اهـ. خفاجي[2].

قوله: (وخثارة النفس): ـ بفتح الخاء ـ، هو ثقل النفس وعدمُ نشاطها. اهـ. خفاجي[3].

قوله: (وقلَّتَه) بالنصب ـ معطوفٌ على قوله: (كثرة الأكل).

قوله: (وقمع الشهوة): القمع: القهر.

قوله: (على الفسولة): ـ بضم الفاء والسين ـ، وهي الرذالة وعدمُ الهمة في أمور الدنيا والآخرة.

قوله: (مسبب الكسل[4]): العبارة في «الشفاء»: للكسل[5]، وهي أولى،

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٣٨٨) من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ٨٩٤): سنده ضعيف.

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٣٧).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٣٧).

(٤) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة، وهو على الصواب موافق لما في «نور اليقين» (ط دار الإيمان).

(٥) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٨٤).

وتضييع: العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته[١].

وكان عليه الصلاة والسلام قد أخذ من الأكل والنوم بالأقل، وحضَّ عليه، قال صلى الله عليه وسلم: «ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شَرّاً من بطنِهِ، حسبُ ابن آدمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كان لا محالةَ، فَثُلُثٌ لطعامِهِ، وثلثٌ لشرابِهِ، وثلثٌ لِنَفَسِهِ»[٢]؛ ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لم يمتلئ جوف النبي صلى الله عليه وسلم شبعاً قطّ، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهَّاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قَبِلَ، وما سقوه شرب[٣].

وفي صحيح الحديث: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[٤].

والاتِّكَاء: هو التَّمكنُ للأكل، والتقعدُدُ في الجلوس له؛ ....

وما بعده معطوف عليه.

قوله: (شبعاً): وقال الخفاجي: شبعاً: تمييز، أو مفعول له، أو مفعول مطلق، وشينه مفتوحة، وتكسر، وتفتح الباء وتسكن[٥].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٨٣ ـ ٨٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) من حديث مقدام بن معديكرب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٨٥)، ولم نقف عليه مسنداً، وروى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤/ ١٠٣) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم مرتين من خبز الشعير حتى لحق بالله عزَّ وجلَّ.

(٤) رواه البخاري (٥٣٩٨) من حديث أبي جحيفة ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٣٧).

كالمتربّع وشبهه، من تمكُّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل، ويستكثر منه، والنبي عليه الصلاة والسلام إنما كان جلوسه للأكل جلوسَ المستوفِزِ مُقْعِياً[1]، ويقول: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبدُ»[2].

وكذلك نومه كان قليلاً، ومع ذلك فقد قال: «إنَّ عَيْنَيَّ تنامانِ ولا ينامُ قلبي»[3].

وأما ما الفضلُ في كثرته، فكالجاه، وهو محمودٌ عند العقلاء عادة، وبقَدْرِ جاهه عِظَمُهُ في القلوب، وقد قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد رُزِق من الحشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوَّة عند الجاهلية وبعدها، . . . .

قوله: (المستوفز) المستوفز: الذي لا يكون مطمئناً، بل مستعجلاً للقيام.

وقوله: (مقعياً)؛ أي: ملصِقاً أليتيه بالأرض، وناصباً ساقيه وفخذيه بصدره.

قوله: (عِظَمه): ـ بكسر العين وفتح الظاء ـ، وقوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]؛ أي: عظيماً ذا جاه عند الله في الدارين.

قوله: (الحشمة): أراد بالحشمة: المهابة والعظمة في أعين الناس.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٤٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٥٧٥٢) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد». ورواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٩٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

(٣) رواه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية، حتى إذا واجههم، أعظموا أمره، وقضوا حاجته[1]، كما ذكرنا ذلك مِراراً.

وقد كان يبهتُ ويَفْرَقُ لرؤيته مَنْ لم يره، كما روي عن قَيْلَةَ: أنها لما رأته أُرْعِدَتْ من الفَرَق، فقال: «يا مسكينة! عليكِ السكينة»[2].

وفي حديث أبي مسعود: أن رجلاً قام بين يديه، فأُرْعِدَ، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هوِّن عليك؛ فإني لستُ بملِك»[3].

وأما عظيمُ قدره بالنبوّة، وشريفُ منزلته بالرسالة، وإنافةُ رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا؛ فأمر هو مبلغ النهاية، . . . .

قوله: (في نفسهم[4]) صوابه: في نفسه؛ كما في «الشفاء»[5].

قوله: (يبهت): مبني للفاعل أو المفعول؛ بمعنى: يتحير ويدهش.

وقوله: (يفرق) بالبناء للفاعل من باب علم؛ أي: يخاف.

قوله: (عن قَيلة): ـ بفتح القاف ـ.

وقوله: (أرعدت) ـ بضم الهمزة وسكون الراء وكسر العين ـ؛ أي: لحقتها رعدة.

قوله: (وإنافة رتبته): الإنافة بمعنى: الإعلاء والإشراف على ما تحته.

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٩٢).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٧) من حديث قيلة بنت مخرمة ـ رضي الله عنها ـ مختصراً، وأورده السيوطي في «الخصائص الكبرى» (٢/ ٣٩)، وعزاه لابن سعد من حديث قيلة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣١٢).

(٤) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

(٥) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٩٢).

ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وأما ما تختلف فيه الحالات في التمدُّح به، والتفاخرِ بسببه، والتفضيلِ لأجله؛ ككثرة المال؛ فصاحبه ـ على الجملة ـ معظَّم عند العامّة؛ لاعتقادها تَوَصُّلَهُ به إلى حاجته، وتمكُّنَه في أغراضه، وإلا، فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان بهذه الصورة، وصاحبه مُنفقاً له في مهماته، ومهمات من قصده وأَمَّلَهُ، مصرفه في مواضعه، مشترياً به المعالي والثناءَ الحسن، والمنزلة في القلوب؛ كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البرّ، وأنفقه في سبل الخير، وقَصد بذلك الله تعالى والدارَ الآخرة؛ كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه مُمْسكاً له، غيرَ موجِّهِه وجوهَه، حريصاً على جمعه؛ عاد كُثره كالعدم، وَكان مَنْقَصَة في صاحبه، ولم يقفْ به على جَدَدِ السلامة، بل أوقعه في هوَّة رذيلةِ البخل، . . . .

قوله: (وتمكُّنَه): معطوف على (توصُّلَه).

قوله: (مصرفه) ـ بالنصب ـ؛ أي: ومتى كان صاحبه مصرفَه.

قوله: (عند الكل) قال الخفاجي: أن إدخال (ال) على (كل) و(بعض) منعه بعض النحاة، ولم يسمع من العرب، إلا أن القياس لا يأباه[1].

قوله: (كثره) الكثر: كالكثير، وهو ـ بضم الكاف وكسرها، وظاهر كلام أهل اللغة جواز فتحها، فهو مثلث ـ.

قوله: (جدد السلامة): الجدد: ـ بفتح الجيم ـ، وهي الأرض الصلبة، وفي المثل: من ملك الجدد أمنَ العِثار، فالمراد به: الطريق المسلوكة.

قوله: (في وهدة رذيلة البخل) العبارة في «الشفا»: في هوة[2]، وهي

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٦٩).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٩٣).

ومذمّة النذالة، فالتمدُّحُ بالمال ليس لذاته، بل للتوصّل به إلى غيره، وتصريفه في مُتَصَرَّفاته، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم أُوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَّت له الغنائم، وفتح عليه في حياته بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب، وما داني ذلك من الشام والعراق، وجُلب إليه كثير من أخماسها وَجِزْيَتِها وصدقاتها، وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهماً، بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوّى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أُحُداً ذهباً يبيت عندي منه دينار، إلا ديناراً أرصدُه لِدَيْني».

وأتته دنانير مرة فقسمها، وبقيت منها بقية، فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام فقسمها، وقال: «الآن استرحت».

ومات ودرعُه مرهونةٌ في نفقة عياله، واقتصر في نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده، فيلبس في الغالب الشَّمْلَة، والكساء الخشن، والبُرْد الغليظ، ويقسم على مَن حضره أقبية الديباج المُخَوَّصَةُ بالذهب، ....

ـ بضم الهاء وتشديد الواو ـ، وهي الحفرة العميقة.

قوله: (الشملة): هي كساء يشتمل به، وقيل: يختص بماله هُدْب.

وقال ابن دريد: هو كساء يؤتزر به[1]، وهي البردة.

قوله: (أقبية الديباج) الأقبية: جمع قباء، وهو المخيط من اللباس، والديباج: نوع من أقبية الحرير، معرب ديبا.

وقوله: (المخصوصة) صوابه: المخوصة ـ بضم الميم وفتح الخاء وتشديد

---

(١) انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ٨٧٩).

ويرفعُ لمن لم يحضر[1].

فأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاز فضيلة المال بالزهد فيه، وإنفاقه على مستحقيه.

وأما الخصالُ المكتسبة؛ من الأخلاق الحميدة، والآداب الشريفة، وهي المسماة بحسن الخُلق؛ فجميعها قد كانت خلق نبيِّنا صلى الله عليه وسلم على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله تعالى عليه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

كان خلقه القرآن[2]، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه، وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أحسنَ الناس خُلقاً[4].

الواو ـ؛ أي: منسوجة بأعلام من ذهب كالخوص[5].

(الخصال المكتسبة من الأخلاق)

قوله: (وهي المسماة بحسن الخلق) قال في «الشفا»: حسن الخلق: هو الاعتدالُ في قوى النفس وأوصافها، والتوسطُ فيها دون الميل إلى منحرف أوصافها[6].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٩٢ ـ ٩٥).
(٢) رواه مسلم (٧٤٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) رواه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.
(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (١/ ٤٧٦).
(٦) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٩٦).

وكانت له هذه الآداب الكريمة كما كانت لإخوانه من الأنبياء جِبِلةً خُلِقُوا عليها، ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتُشرق أنوار المعارف في قلوبهم حتى يصلوا الغاية، ويبلغوا باصطفاء الله لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهايةَ دون ممارسة، وهذه الأخلاق المحمودة، والخصال الجميلة كثيرة، ولكننا نذكر أصولها، ونشير إلى جميعها، ونحقق وصفه عليه الصلاة والسلام بها ـ إن شاء الله.

فأصلُ فروعها، وعنصُرُ ينابيعها، ونقطةُ دائرتها: العقلُ الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرَّع عن هذا ثقوبُ الرأي، وجودة الفطنة، والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب، ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحُسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنُّب الرذائل، وقد بلغ عليه الصلاة والسلام منه ومن العلم الغايةَ القصوى.........

قوله: (في تحصيل هذه الخصال الشريفة دون نهاية ولا ممارسة): صواب العبارة كما في «الشفا»: في تحصيل هذه الخصال الشريفة النهاية دون ممارسة ولا رياضة[1].

قوله: (وعنصر ينابيعها): العنصر: ـ بضم الصاد وفتحها، والأول أشهر، والثاني أفصح ـ، ومعناه: الأصل، والمادة، والعناصرُ إذا أطلقت يراد بها: التراب والماء والهواء والنار؛ لتركبِ جميعِ الأجساد منها. اهـ. منه[2].

قوله: (ثقوب الرأي)؛ أي: نفاذ رأيه فيما يفكر فيه ويترك به عواقب الأمور، ومنه: كوكب ثاقب؛ أي مضيء. اهـ[3].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٠٠).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٢).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٣).

التي لم يبلغها بشرٌ سواه، يعلمُ ذلك من تَتَبَّعَ مجاري أحواله، واطِّراد سيره، وطالعَ جوامعَ كَلِمه، وحُسنَ شمائله، وبدائعَ سِيَره، وحكم حديثه، وعلمَه بما في التوراة والإنجيل والكتب المنزلة، وحكم الحكماء، وسِيَر الأمم الخالية وأيامها، وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع، وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتَّخذ أهلها كلامه فيها قدوةً، وإشاراتِه حجةً؛ . . . .

قوله: (واطراد سيره): الاطراد: افتعالٌ من الطرد، وهو الجري خلف شيء من صيد أو غيره، ومنه: مطاردة الفرسان في الميدان، ومناسبته للسير، وإن كان المراد بها مطلق الصفات؛ لأنها تختص بالغزوات. اهـ[1].

قوله: (وبدائع سيره)؛ أي: سيره البديعة، وينبغي أن يراد بها: كتب السير؛ حتى لا يكون مكرراً مع ما مر. اهـ. منه[2].

قوله: (وحكم الحكماء) قال الخفاجي: جمعها ابن مشكويه في كتاب كبير سماه: «جاودان خرد»، وقد طالعته، فرأيت أكثره ورد في الأحاديث الشريفة، ولكن أين الثريا من الثرى؛ فإن رونق الألفاظ النبوية لا يمكن مضاهاته. اهـ[3].

قوله: (وتأصيل الآداب النفيسة)؛ أي: بيان أصول الآداب التي تتأدب فيها الناس في مجالسهم ومحاوراتهم؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عزيز كل قوم»[4]، . . . .

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤).

(٤) رواه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧١) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: «ارحموا ثلاثة: عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، وعالماً تتلاعب به الصبيان». ورواه أيضاً (١/ ١٧١ ـ ١٧٢) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ =

كالطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتبِ مَن تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم، بل نبي أميّ لا يعرف شيئاً من ذلك، حتى شرح الله صدره، وأبان أمره وعلَّمه.

وبحَسَب عقله كانت معارفه عليه الصلاة والسلام إلى سائر ما علَّمه الله، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجائب قدرته، وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكرهه؛ فمما أدّب الله به نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

وقوله: «تهادوا تحابوا»[١].

قوله: (والنسب)؛ أي: معرفة أنساب الناس من آدم عليه السلام إلى كل عصر، وهو من علم التاريخ، وكانت العرب تعتني به، وهو أعلمُ الناس به، وأعلمُ الناس به بعد النبي صلى الله عليه وسلم الصديق رضي الله عنه[٢].

قوله: (﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾)؛ أي: تعاطَ العفوَ عن الناس وتركَ مؤاخذتهم، وفي عدوله عن (اعفُ) الأظهر الأخصر نكتةٌ يعرفها مَن له إلمام في الأدب، كما أن قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ دون (اعمل) إشارة إلى أنه متصف به، مركوز في جبلته.

= مرفوعاً، بنحوه، ثم قال ابن الجوزي: وإنما يعرف هذا من كلام الفضيل بن عياض، ثم رواه بإسناده إلى الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ.

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥)، والخبر المذكور رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٠٨) من حديث عطاء بن أبي مسلم عبدالله الخراساني.

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٦).

وقد سأل عليه الصلاة والسلام جبريل عن تأويلها، فقال: «يا محمد! إن الله يأمرك أن تصل مَنْ قطعك، وتُعطيَ من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك»[1].

وقال له: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[لقمان: ١٧].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣].

وقد تضافرت الأخبار على اتصافه عليه الصلاة والسلام بنهاية هذه الأوصاف، فما من حليم إلا وعُرفت منه زلة، وحُفظت عنه هفوة، ونبينا صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الإيذاء إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما خُيِّر عليه الصلاة والسلام في أمرين قطّ إلا اختار أيسرَهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعدَ الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تُنْتَهك حرمةُ الله، فينتقم لله[2].

اهـ. منه[3].

قوله تعالى: (﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾)؛ أي: من أهم الأمور التي ينبغي التصميم والعزم عليها[4].

قوله: (إلا أن تنتهك حرمة الله): هو [من] نهكت الثوب: إذا لبسته حتى

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٥٥) عن سفيان بن عيينة عن رجل قد سمَّاه.

(٢) رواه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٩).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١).

ولما فعل به المشركون ما فعلوا في أُحُد، وطُلب منه أن يدعو عليهم قال: «اللهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وحسبك في هذا الباب ما فعله مع مشركي قريش الذين آذوه، واستهزؤوا به، وأخرجوه من دياره هو وأصحابه، ثم قاتلوه، وحرّضوا عليه غيرهم من مشركي العرب، حتى تمالأَ عليه جمعُهم، ثم لما فتح الله عليه مكة، ما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»[2].

وعن أنس: كنت مع النبي عليه الصلاة والسلام وعليه بُرد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبةً شديدة حتى أثرت حاشيةُ البُرد في صفحة عنقه، ثم قال: يا محمد! أحمل لي على بعيريَّ هذين. . . . .

أخلقته، ويقال: نهكته الحمى: إذا أضعفته وأضنته، فانتهاكها: تناولها بما لا يحل، وانتهك فلان محارم الله؛ أي: فعل ما حرم الله فعلَه عليه؛ لما فيه من ضعف الدين، وابتذال حكمه[3].

قوله: (ما فعلوا في أحد)؛ أي: من كسر رباعيته، وشَجِّ وجهه.

قوله: (أحمل لي): همزته همزة قطع؛ أي: أعني على الحمل، ويجوز

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢)، من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ولفظ البخاري: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(٢) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٧٣ ـ ٧٤) عن بعض أهل العلم بنحوه. ورواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ١٦١) عن قتادة بنحوه.

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٤)، وما بين معكوفتين منه.

من مال الله الذي عندك؛ فإنك لا تحمل لي من مالك، ولا من مال أبيك، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: «المال مال الله، وأنا عبدُه»، ثم قال: «ويُقاد منك يا أعرابيُّ ما فعلتَ بي»، قال: لا، قال: «لِمَ؟» قال: لأنك لا تكافئ بالسيئةِ السيئةَ، فضحك عليه الصلاة والسلام، ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعيرٌ، وعلى الآخر تمرٌ[1].

قالت عائشة: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصراً من مَظْلِمَةٍ ظُلِمَها قطُّ، ما لم تكن حُرْمَةً من محارم الله تعالى، وما ضربَ بيده شيئاً قطُّ إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضربَ خادماً ولا امرأة[2].

فصلى الله تعالى عليه، وأقرَّ عينه باتباعِ المسلمين سنّته.

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة؛ فكان عليه الصلاة والسلام. . . . .

أن يكون معنى (أحمل لي)؛ أي: أعطني ما أحمل[3].

وقوله: (فإنك لا تحمل لي): ـ بضم التاء وفتحها ـ.

قوله: (من مَظلِمة) هي: ـ بفتح الميم وكسر اللام[4] ـ.

جوده وكرمه صلى الله عليه وسلم

---

(١) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٠٨). ورواه البخاري (٣١٤٩)، ومسلم (١٠٥٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مختصراً. ورواه البيهقي في «الآداب» (١/ ١٧٣) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٤٩، ٣٥٠).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٢٤)، وعزاه للتلمساني، ثم تعقَّبه بقوله: فيجوز فيه الوصل أيضاً، إلا أن فيما رجح به الأول نظراً.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٢٥)، وفيه: وكسر اللام وفتحها.

لا يُوازَى في هذه الأخلاق الكريمة، ولا يُبارى، وصَفَهُ بهذا كلُّ مَن عرفه.

قال جابر ـ رضي الله عنه ـ: ما سُئل عليه الصلاة والسلام عن شيء فقال: لا[1].

وقال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام أجودَ الناس بالخير، وأجودَ ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيَه جبريلُ أجودَ بالخير من الريح المرسَلَة[2].

وقالت خديجة في صفته عليه الصلاة والسلام مخاطبة له: إنك تحمل الكَلَّ، وتكْسِبُ المعدوم[3].

وحَسْبُك شاهداً في هذا الباب ما فعله مع هوازن من ردِّ السبي إليها، وما فعله يوم تقسيم السبي من إعطاء المؤلفة قلوبهم عظيمَ الأعطية.

وقد استوفينا ذلك في موضعه.

وحُمل إليه عليه الصلاة والسلام تسعون ألفاً، فوضعها على حصير، وأخذ يقسمها، . . . .

قوله: (لا يوازَى)؛ أي: لا يساوَى ولا يقابَل.

وقوله: (ولا يبارَى)؛ أي: لا يعارَض.

قوله: (إذا لقيه جبريل): قال الخفاجي: لأنه عليه الصلاة والسلام يسر بملاقاته وإمداده له بالبشرى والكرامة، فيُحسِن كما أحسن الله إليه[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).

(٢) رواه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٣٦).

فما قام حتى فرغ منها[1].

وجاءه رجل فسأله فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتعْ عليَّ، فإذا جاءنا شيء، قضيناه»، فقال له عمر: ما كلَّفَكَ الله ما لا تقدرُ عليه، فكره ذلك عليه الصلاة والسلام، فقال له رجل من الأنصار: يا رسول الله! أنفق ولا تخفْ من ذي العرش إقلالاً، فتبسم عليه الصلاة والسلام، وعُرِفَ البِشرُ في وجهه وقال: «بهذا أُمِرتُ»[2].

والأخبار بجوده وكرمه عليه الصلاة والسلام كثيرة يكفي منها لتعليمك ما ذكرناه.

قوله: (فكره ذلك عليه السلام)؛ أي: بدا في وجهه الشريف أثرُ عدم رضاه به؛ لأن فيه كسرَ خاطر السائل، ولأن مثله لا يعد تكليفاً لما [لا][3] قدرة له؛ لما عوده الله من فيض نعمه عليه[4].

---

(١) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٧٩)، وقال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ٦٨٠): رواه أبو الحسن بن الضحاك في «الشمائل» من حديث الحسن مرسلاً. وروى البخاري (٤٢١) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أُتي النبي ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ بمال من البحرين، فقال: «انثروه في المسجد»، وكان أكثرَ مال أُتي به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه.

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٥٦) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) ما بين معكوفتين يقتضيه السياق.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٣٩).

ومنها: الشجاعة والنجدة، فكان عليه الصلاة والسلام منهما بالمكان الذي لا يُجهَل، قد حضر المواقفَ الصعبة، وفرّ الكُمَاةُ والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يَبْرَح، ومُقْبل لا يُدبر، ولا يتزحزح، وما من شجاع إلا أُحصيت له فرَّة، وحفظت عنه جولة، سواه صلى الله عليه وسلم، وحسبُك ما فعله في حُنَيْنٍ وأُحُد مما ذكرناه مستوفًى.

وقال ابن عمر: ما رأيتُ أشجعَ ولا أنجدَ ولا أجودَ ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

شجاعته صلى الله عليه وسلم

قوله: (وأما الشجاعة والنجدة): الشجاعة: فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف. اهـ. «شفا»[2].

قوله: (بالمكان الذي لا يجهل)؛ أي: كان متصفاً بهما على أعظم وجه، ومشتهراً ذلك اشتهاراً لا يخفى على أحد. اهـ. خفاجي[3].

قوله: (جولة): في «النهاية»: جال واجتال: إذا ذهب وجاء، ومنه: الجولان في الحرب[4].

قوله: (ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم)؛ أي: أكثر رضاً منه، كان يرضى بكل شيء من ملبوس ومأكول وغيره، ويحتمل أن المراد بالرضا: عدمُ الغضب. اهـ. منه[5].

---

(١) رواه الدارمي في «سننه» (٥٩) بنحوه.

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١١٤).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٣).

(٤) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٩).

وقال عليٌّ: إنّا كنّا إذا اشتد البأسُ، واحْمرَّت الحَدَقُ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه، ولقد رأيتُني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو أقربُنا إلى العدوّ، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً[1].

وقال أنس: كان عليه الصلاة والسلام أشجعَ الناس، وأحسنَ الناس، وأجودَ الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلةً، فانطلق ناسٌ قِبَل الصوت، فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تُراعوا»[2].

قوله: (اتقينا برسول الله)؛ أي: جعلناه وقاية لنا من العدو؛ بأن يتقدم فيدفع العدو ونحن خلفه.

قوله: (واستبرأ الخبر)؛ أي: وقف على حقيقته.

وفي «الأساس»: استبرأت الشيء: طلبت آخره لأقطع الشبهة عني[3].

قوله: (عري) ـ بضم العين وسكون الراء ـ صفةٌ لـ (فرس).

وقوله: (والسيف في عنقه)؛ أي: حمائله في عنقه الشريف متقلداً به صلى الله عليه وسلم.

قوله: (لن تراعوا): (لن) هنا بمعنى (لم)، ونفي الروع ـ بفتح الراء ـ بمعنى: الخوف، والمراد: نفي سببه؛ أي: ليس هناك شيء تخافونه[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١/ ١٢٦، ١٥٦) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٣)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٣) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: برأ).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥١).

وأما الحياء والإغضاء؛ فكان عليه الصلاة والسلام أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاء، قال أبو سعيد الخدري: كان عليه الصلاة والسلام أشدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها، وكان إذا كره شيئاً، عرفناه في وجهه[1].

وكان عليه الصلاة والسلام لطيفَ البَشَرة، رقيقَ الظاهر، لا يُشَافِهُ أحداً بما يكرهه؛ حياءً وكرمَ نفس، قالت عائشة: كان عليه الصلاة والسلام إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه؛ لم يقلْ: ما بال فلان يقول كذا وكذا؟ بل يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا؟»[2]، ينهى عنه، ولا يُسَمِّي فاعِله.

وقالت ـ رضي الله عنها ـ: لم يكن عليه الصلاة والسلام فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صخاباً بالأسواق، ....

قوله: (وأما الحياء): قال الراغب: الحياء: انقباض النفس عن القبائح وتركها[3].

و(الإغضاء): أصل معناه: إرخاء الجفون قريباً من الإطباق، واستعمل في السكوت، والتجاوز في الحلم والعفو عمن وقع في مكروه.

قوله: (من العذراء)؛ أي: البكر الباقية بعذرتها.

قوله: (حياء وكرم نفس) منصوب مفعول له؛ أي: يترك ذلك تكرماً منه صلى الله عليه وسلم، لا خوفاً ومداراة.

قوله: (فاحشاً): الفاحش: من يصدر عنه كلُّ أمر قبيح، أو شديد القبح؛ قولاً أو فعلاً، والمتفحش: من يتعمده ويبالغ فيه.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٨٨).

(٣) انظر: «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصبهاني (ص: ١٤٠).

ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح[1].

وأما حسنُ عشرته وأدبه، وبسطُ خلقه مع أصناف الخلق؛ فمما انتشرت به الأخبار الصحيحة، قال علي ـ رضي الله عنه ـ: كان عليه الصلاة والسلام أوسعَ الناس صدراً، وأصدقَ الناس لهجة، وأليـنَهم عريكةً، وأكرمهم عِشْرة[2].

وكان عليه الصلاة والسلام يؤلِّفهم، ولا ينفِّرهم، ويكرم كريم كلِّ قوم، ويولِّيه عليهم، ويحْذَر الناسَ، ويحترس منهم، من غير أن يطوي على أحد منهم بِشْره، ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويعطي كلَّ جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرمُ عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة، صابره حتى يكونَ هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة، لم يردَّه إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ بسطُه وخُلُقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء، بهذا وصفه ابن أبي هالة[3].

وكان دائم البشر، سهلَ الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظٍّ........

قوله: (وألينهم عريكة)؛ أي: أسهل الناس طبعاً.

قوله: (قد وسع الناس بسطه) بمعنى: توسعته على الناس، أو بمعنى نشره كالمكان الرحب[4].

قوله: (بفظ) الفَظُّ: الكريه الخلُق، مستعار من الفظ؛ أي: ماء الكرش،

---

(١) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٤٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٦٣٨) وقال: حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل.

(٣) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٣٧) من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، وليس من حديث ابن أبي هالة.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٦٤).

ولا غليظ، ولا صخَّاب، ولا فحَّاش، ولا عيَّاب، ولا مدَّاح، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يؤيس منه(١).

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤].

وكان عليه الصلاة والسلام يجيب من دعاه، ويقبل الهدية، ولو كانت كُراعاً، ويكافئ عليها(٢).

وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويلاعب صبيانهم، ويُجلسهم في حِجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعُود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر(٣).

وقال أنس: ما التقم أحد أُذن النبي صلى الله عليه وسلم يحادثه فنحَّى رأسه، حتى يكون الرجل هو الذي ينحِّي رأسه، . . . .

وهو مكروه لا يتناول إلا في شدة الضرورة، والغِلَظ: ضد الرقة، وأصله في الأجسام فاستعير للمعاني(٤).

قوله: (كراعاً) ـ بضم الكاف ـ، وهي ما تحت الركبة إلى الخف.

---

(١) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٥٢) من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٥) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية، ويثيب عليها.

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٢١).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٦٥).

وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يدَه حتى يرسلَها الآخَرُ[1].

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم يُرَ قطّ ماداً رجليه بين أصحابه حتى يُضَيِّقَ بهما على أحد، يُكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويُكَنِّي أصحابه، ويدعوهم بأحبِّ أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطعُ على أحد حديثه، حتى يتجوَّزَ فيقطعه بنهي أو قيام، وكان أكثرَ الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم يُنزل عليه قرآن، أو يعظ، أو يخطب[2].

قوله: (ويعَزِم عليه)؛ أي: يقسم عليه أن يجلس على وسادته، وهو من باب ضرب.

قوله: (حتى يتجوز)؛ أي: حتى يكثر فيتجاوز الحد، أو يخرج إلى ما لا يليق من الكلام، فهو من التجوز[3]، أو الجواز. اهـ.

قوله: (ما لم ينزل عليه قرآن. . .) إلخ: قال الخفاجي: عن جابر ـ رضي الله عنه ـ: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي، قلت: نذير قوم، فإذا سري عنه، فأكثر الناس ضحكاً[4].

وعنه أيضاً: كان صلى الله عليه وسلم إذا خطب، احمرت وجنتاه، واشتد غضبه. اهـ. خفاجي[5].

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٩٤).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٢٢).

(٣) في «نسيم الرياض» (٢/ ٧١): «التجاوز».

(٤) رواه البزار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» للهيثمي (٢٤٧٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٧): إسناده حسن.

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٧٢)، والحديث المذكور رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٧٧) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق؛ فقد وصفه الله بها في قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

روي: أن أعرابيًّا جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه، ثم قال: «أأحسنتُ إليك؟» قال الأعرابي: لا، ولا أجملتَ، فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه، وزاده شيئاً، ثم قال: «أأحسنت إليك؟» فقال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنك قلتَ ما قُلتَ، وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببتَ، فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يديّ، حتى يذهبَ ما في صدورهم عليك»، قال: نعم، فلما كان الغد ـ أو العشيّ ـ جاء، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعمَ أنه رضي، . .

شفقتُه ورحمته صلى الله عليه وسلم

قوله: (وأما الشفقة والرأفة والرحمة): قال الخفاجي: الفرق بين هذه الثلاثة: أن الشفقة: رحمة ورقة قلب وخوف من نزول مكروه بمن يشفق عليه، والرأفة: التلطف بمن يريد إكرامه بالبشر والإيناس[1].

قوله: (﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾): ﴿عَزِيزٌ﴾: من عز بمعنى: اشتد وصعب، والعَنَت: المشقة؛ أي: يصعب عليه مشقتكم وما يؤلمكم؛ لرأفته ورحمته.

وقوله: (﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾) لا يناسب قوله: (لجميع الخلق)، فالأنسب أن يقتصر على الآية الثانية. اهـ. الخفاجي، وتمامه فيه[2].

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٧٣).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٧٣).

أكذلك؟» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: «مثلي ومثلُ هذا مثل رجل له ناقة شردتْ عليه، فاتَّبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خَلُّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفقُ بها منكم وأعلمُ، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها، حتى جاءتْ واستناختْ، وشدَّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيثُ قال الرجلُ ما قال، فقتلتموه، دخل النار»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يُبَلِّغْني أحدٌ منكم عن أصحابي شيئاً؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليمُ الصدر»[2].

وكان يسمعُ بكاء الصبي، فيتجوَّزُ في صلاته[3].

وعن ابن مسعود: كان عليه الصلاة والسلام يتخوّلُنا بالموعظة.....

قوله: (شردت عليه)؛ أي: نفرت منه، وذهبت في الأرض.

وقوله: (من قمام الأرض) القمام: جمع قمامة؛ ككناسة لفظاً ومعنى، والمراد بها: النبات الذي ترعاه الدواب.

وقوله: (استناحت)؛ أي: بركت ومكثت عنده[4].

قوله: (فيتجوز في صلاته)؛ أي: يخففها.

قوله: (يتخولنا)؛ أي: يتعهدنا.

---

(١) رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبي وآدابه» (١٧٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٠) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه البخاري (٧٠٧) من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٧٧).

مخافةَ السآمة علينا[1].

وأما خلقه عليه الصلاة والسلام في الوفاء، وحسن العهد، وصلة الرحم؛ فروي عن عبدالله بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي عليه الصلاة والسلام ببيع قبل أن يُبعث، وبقيتْ له بقية، فوعدته أن آتِيَهُ بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرتُ بعد ثلاث، فجئت، فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى! لقد شققتَ عليّ، أنا هنا منذ ثلاثٍ أنتظرك»[2].

وكان إذا أُتِيَ بهدية، قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحبّ خديجة»[3].

وكان عليه الصلاة والسلام يَصِل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم[4].

خلقه عليه السلام في الوفاء وغير ذلك

قوله: (في الوفاء) هو ضد الغدر ونقض الذمة.

وقوله: (حسن العهد)؛ أي: ما عاهد عليه والتزمه، وهو عطف تفسير لما قبله.

قوله: (أبي الخمساء[5]) صوابه: الحمساء بالحاء المهملة؛ كما ضبطه الخفاجي[6].

قوله: (بعد ثلاث)؛ أي: ثلاثة أيام.

---

(١) رواه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٩٦).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٢) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٢٧).

(٥) كذا في الأصل، وقد تم التصويب في المتن المثبت في أعلى الصفحة.

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٨٥).

ووفدَ عليه وفد، فقامَ يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نكفيك، فقال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرِمين، وإني أحب أن أكافئهم»[1].

وفي حديث خديجة: أبشرْ، فوالله! لا يُخزيك الله أبداً، إنك لتصلُ الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسِبُ المعدوم، وتقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الحق[2].

وأما تواضعه عليه الصلاة والسلام على علو منصبه ورفعة رتبته؛ فكان أشدَّ الناس تواضعاً، وأقلّهم كِبراً، وحسبك أنه خيِّر بين أن يكون نبيّاً ملكاً، أو نبيّاً عبداً، فاختار أن يكون نبيّاً عبداً[3].

قوله: (ووفد عليه وفد) هو وفد للنجاشي كما في الخفاجي[4].

تواضعه عليه السلام

قوله: (وأقلهم كبراً) قال الخفاجي: وفي نسخة ـ أي: من «الشفا» ـ: (وأعدمهم كبراً)، وفي نسخة بالجمع بينهما، وهو أفعل تفضيل من العدم، وهذا أنسب بمقامه صلى الله عليه وسلم؛ لأن اللائق عدمُ الكبر، لا قِلتُه، ووجَّه هذا البرهان الحلبي بأن القلة بمعنى النفي.

وقال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة: ٨٨]: إن التقليل يرد بمعنى النفي كما في قولهم: أقل رجل يقول ذلك، وقلَّ رجلٌ يقول ذلك،

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٠٧) من حديث أبي أمامة وأبي قتادة ـ رضي الله عنهما ـ.

(٢) رواه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٣) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٩٢٠) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٩): إسناده حسن.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٨٩).

وخرج عليه الصلاة والسلام مرة على أصحابه متوكئاً على عصاً، فقاموا، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظِّم بعضهم بعضاً»[١].

وقال: «إنما أنا عبدٌ، آكُلُ كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[٢].

وكان يركب الحمار، ويُرْدِفُ خلفَه، ويعود المساكين، ويُجالس الفقراء، ويُجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس[٣].

وقلما يقوم زيد، وقليل من الرجال يقول ذلك[٤].

وقال الحافظ السخاوي في كتابه «جواهر الدرر» في مناقب شيخه ابن حجر: إن ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ سئل عن هذه العبارة، وأن بعضهم شنع على المصنف فيها، ومحاها من النسخ.

فأجاب: بأن الاعتراض باطل؛ لأنهم تكلموا على الحديث الذي رواه النسائي عن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر، ويقل اللغو[٥].

فقالوا: يقل اللغو بمعنى: لا يلغو أصلاً.

قال ابن الأثير في «النهاية»: لأن (قل) يستعمل في النفي كما في الآية السابقة[٦].

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٣٠) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣١).

(٤) انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (١/ ٤٧٠).

(٥) رواه النسائي (١٤١٤).

(٦) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ١٠٤).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُطْروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله»[1].

وحج عليه الصلاة والسلام على رَحْلٍ رثٍّ، وعليه قَطيفةٌ ما تساوي أربعة دراهم، فقال: «اللهمّ اجعله حجّاً لا رياء فيه ولا سمعة»[2].

هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك مئة بَدَنة[3].

ولما فُتحت عليه مكة، ودخلها بجيوش المسلمين، طأطأ على رحله رأسه حتى كادَ يَمَسُّ قادمته تواضعاً لله تعالى[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: دخلتُ السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم، فاشترى سراويل، وقال للوازن: «زِنْ وأَرْجِحْ»، ثم قال: فوثب إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلها، فجذب يده، . . . . . .

فمعنى هذه النسخة أنه لا يقع منه صلى الله عليه وسلم كبرٌ أصلاً كما في الحديث الصحيح، وتمامه فيه[5].

قوله: (لا تُطروني) مضارع (أطراه): إذا بالغَ في مدحه، وتجاوز الحدَّ فيه.

قوله: (يمس قادمته): الرحل له مقدم ومؤخر مرتفع عن محل الراكب.

قوله: (ثم قال فوثب. . .) إلخ: العبارة في الخفاجي: قال ـ أي: أبو هريرة

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٣٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٤) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٣٣٩٣) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٩٣).

وقال: «هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولستُ بملك، إنما أنا رجل منكم»، ثم أخذ السراويلَ، فذهبتُ لأحمله، قال: «صاحبُ الشيء أحقُّ بشيئه أن يحمله».

وأما عدلُه عليه الصلاة والسلام، وأمانته، وعفّته، وصدق لهجته؛ فكان آمنَ الناس، وأعدل الناس، وأعفَّ الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادُّوه وأعداؤه، وكان يُسَمَّى قبل نبوّته: الأمين[1]، وقد قدّمنا ذلك في سيرته عليه الصلاة والسلام قبل النبوّة.

وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: ما لمستْ يدُهُ يدَ امرأة قطّ لا يملك رقّها[2].

رضي الله تعالى عنه راوي هذا الحديث ـ: فقال الوزان: هذه كلمة ما سمعتها من أحد، فقال له أبو هريرة: كفى بك من الوهن والجفا في دينك أنك لا تعرف نبيك، وطرح الميزان، ووثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها؛ لما رأى منه، ولمعرفته أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجذب يده... إلخ ما هنا[3].

عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته

قوله: (آمن الناس)؛ أي: أشدَّهم أمانة.

قوله: (محادوه) ـ بتشديد الدال ـ بمعنى: المعادي والمخالف له الذي

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩١)، ومسلم (١٨٦٦)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٠٥)، والخبر المذكور رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦١٦٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٥٩٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٢١): رواه أبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»، وفيه يوسف بن زياد البصري، وهو ضعيف.

قال أبو العباس المُبَرِّد: قسَّم كسرى أيامه، فقال: يوم الريح يَصْلح للنوم، ويومُ الغيم للصيد، ويوم المطر للهو والشرب، ويومُ الشمس للحوائج[1].

ولكن نبيّنا عليه الصلاة والسلام جزَّأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزّأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصّة على العامّة، ويقول: «أبلغوا حاجة مَنْ لا يستطيعُ إبلاغي؛ فإن من أبلغ حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ إبلاغَها، آمنهُ اللهُ يومَ الفزع الأكبر»[2].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأخذ أحداً بذنب أحد، ولا يصدق أحداً على أحد[3].

في حدّ وجانبٍ عنه.

قوله: (جزء لله)؛ أي: لعبادة الله، وتلقي وحيه.

(وجزء لأهله)؛ أي: لمصالح أكله وبيته.

(وجزء لنفسه) مخصوصاً بأكله وشربه ونحو ذلك من أموره الدنيوية. اهـ. خفاجي[4].

قوله: (آمنه) ـ بالمد ـ بمعنى: جعله في أمن من أهوال القيامة. اهـ. خفاجي[5].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٦).

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٣٧) من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وفيه: «ثبت الله قدميه يوم القيامة» بدل «آمنهُ الله يوم الفزع الأكبر».

(٣) رواه أبو داود في «المراسيل» (٥١٤) من حديث الحسن البصري.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٣).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٣).

وأما وقاره عليه الصلاة والسلام وصمته، وتُؤَدته، ومروءته، وحسن هَدْيه؛ فكان عليه الصلاة والسلام أوقرَ الناس في مجلسه، لا يكادُ يُخرِج شيئاً من أطرافه[1].

وكان إذا جلس، احتبى بيديه[2]، وكذلك كان أكثر جلوسه محتبياً[3].

وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يُعرض عمّن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسماً، وكلامه فَصْلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضَحِكُ أصحابه عنده التبسم توقيراً له، واقتداء به، مجلسه مجلسُ حلم وحياء، وخير وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات، . . . .

وقاره صلى الله عليه وسلم

قوله: (لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه)؛ أي: أطراف بدنه؛ كرجليه، و(لا يكاد يخرج) فيه مبالغة؛ أي: لا يخرج، ولا يقرب من الخروج، وفي نسخة: (لا يخرج شيء من أطرافه). اهـ. خ[4].

قوله: (احتبى بيده): الاحتباء: أن يجمع ظهره وساقيه بيديه أو عمامته ونحوه، والحبوة: ـ بضم الحاء وكسرها ـ ويقال: الاحتباء حيطانُ العرب؛ لأنهم أهل براري لا حيطان لهم يستندون إليها، فالاحتباء قائم بمقامها. اهـ. خ[5].

قوله: (وكلامه فصلاً)؛ أي: فاصل بين الحق والباطل. اهـ. خ[6].

---

(١) رواه أبو داود في «المراسيل» (٥٠٥) من حديث خارجة بن زيد.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٧).

(٤) كذا في الأصل، والمراد: «خفاجي». انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٧).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٧).

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٩).

ولا تُؤْبنُ فيه الحُرَمُ، إذا تكلم، أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[1].

وقال ابن أبي هالة: كان سكوته صلى الله عليه وسلم على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكّر[2].

قوله: (لا تؤبن فيه الحرم) ـ بضم المثناة وهمزة ساكنة ـ: من أبنه يأبنه: إذا عابه، والحرم: جمع حرمة، وهي كل ما يحرم هتكُه، وأما استعماله بمعنى المرأة، فعامية، وإن كان لها وجه، وقيل: إنها صحيحة، مراد به هنا: النساء؛ لأنه ورد في الحديث نهيُه صلى الله عليه وسلم عن شعر تؤبن فيه النساء. اهـ. خ[3].

قوله: (كأنما على رؤوسهم الطير): وصفهم بالسكوت، وعدم الخفة والطيش؛ لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن.

قوله: (على أربعة)؛ أي: يقع على أربع خصال فيه.

(على الحلم)؛ أي: يسكت تارة؛ لحلمه على من تكلم عنده بما يقتضي المؤاخذة.

(والحذر)؛ أي: الاحتراس من كلام ربما أدى لأمر يخشى منه.

(والتقدير)؛ أي: يقدر صلى الله عليه وسلم في نفسه وسكوته ما يليق به وبغيره.

(والتفكر) في مصنوعات الله، ونحو ذلك[4].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٨).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (١/ ٢٩١) من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ، وليس من حديث هند بن أبي هالة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١١٩)، والخبر المذكور رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٤٣) من حديث الشعبي عن رجل من الأنصار.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٢١).

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان صلى الله عليه وسلم يُحَدّثُ حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه[1].

وكان يُحِبّ الطِّيب، والرائحةَ الحسنة، ويستعملهما كثيراً، ويحضّ عليهما[2].

ومن مروءته صلى الله عليه وسلم: نهيه عن النفخ في الطعام والشراب، والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسِّواك، وإنقاء البراجم والرواجب[3] ـ مفاصل الأصابع من ظاهر الكَفّ وباطنها ـ.

وأما زهُده عليه الصلاة والسلام في الدنيا؛ فقد قدَّمنا لك فيه ما فيه الكفاية، وحسبُك شاهداً على تقلُّلِهِ من الدنيا، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه . . . .

قوله: (البراجم): جمع بُرجُم أو برجُمة بضم ـ الباء والجيم ـ، وهي مفاصل الأصابع التي بينها والسلاميات من ظهر الكف التي ترتفع إذا قبض الإنسان كفه، فهي المفاصل الظاهرة والبراجم الباطنة، وقيل: هي مفاصل الكف كلها.

(والرواجب): جمع رُجْبة ـ بضم فسكون ـ، وهي المفاصل التي تلي الأنامل، وقيل غيرُ ذلك.

ثم قال الشهاب: ونقل عن أبي عبيد: أن البراجم والرواجب جميعاً مفاصلُ الأصابع كلها، وهي اللائق بكلام المصنف، فينزل عليه، وتمامه فيه[4].

زهده صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٩).

(٣) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ١٣٩).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٢٣).

بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحُها: أنه توفي عليه الصلاة والسلام ودرعُه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله[1].

وهو يدعو ويقول: «اللهمّ اجعلْ رزقَ آل محمد قوتاً»[2].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله[3].

وقالت: ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، ولا بعيراً[4].

ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد.................

قوله: (بحذافيرها)؛ أي: بجملتها وكليتها من جميع نواحيها.

قوله: (قوتاً)؛ أي: بمقدار ما يسد الرمق من غير زيادة.

قوله: (وقالت: ما ترك عليه السلام ديناراً ولا درهماً...) إلخ: قال الشهاب: وقد استشكل هذا بأنه صلى الله عليه وسلم مات وله حصون وأراض، وعنده مما أفاء الله عليه أرضُ خيبر وَفَدَك وغيرهما، فكيف مع ذلك يكون به صلى الله عليه وسلم فاقة تحوجه إلى رهن درعه على أَصْوُعٍ من شعير؟

وأجاب عنه ابنُ الصلاح في «فتاواه» بأنها كانت معدة لنوائبه موقوفة، ولذا لم تورث عنه، وقال: «إنا لا نورث، ما تركناه صدقة»[5]، فلا يقدح فيه ما كان

---

(١) رواه البخاري (٢٩١٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٠) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٠).

(٤) رواه مسلم (١٦٣٥).

(٥) رواه البخاري (٤٢٤٠، ٤٢٤١)، ومسلم (١٧٥٩)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

إلا شطر شعير في رَفٍّ لي[1].

وقال: «إني عُرض عليّ أن تُجعل لي بطحاءُ مكةَ ذهباً، فقلت: لا يا ربّ، أجوعُ يوماً، وأشبع يوماً، فأما اليوم الذي أجوع فيه، فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه، فأحمدك وأثني عليك»[2].

وقالت عائشة: إن كنّا ـ آلَ محمد ـ لَنمكثُ شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء[3].

وعن أنس: ما أكل عليه الصلاة والسلام على خُوانٍ، ولا في سُكُرُّجَةٍ، . .

في ملكه وقد أعده لمصالح المسلمين[4].

قوله: (إلا شطر شعير): في «النهاية»: أراد به: نصفَ مكوك، أو نصفَ وسق[5].

وقوله: (في رف لي): شبه الطاق في الحائط.

قوله: (بطحاء مكة): البطحاء والأبطح: وادٍ تجري فيه السيول، أو بطنُ وادٍ فيه رملٌ وحصًى، أو مكانٌ لا ينبت؛ لأنه مسيل، والمراد بجعله ذهباً: أن يملأه به، أو أن يقلب حصاه ورماله ذهباً[6].

قوله: (في سكرجة): ـ بضم السين والكاف وفتح الراء المشددة ـ، وهي

---

(١) رواه البخاري (٦٤٥١)، ومسلم (٢٩٧٣)، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري (٢٩٧٢) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٢٥). وانظر: «فتاوى ابن الصلاح» (ص: ١٧٧ ـ ١٧٨).

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٢/ ٤٧٣).

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٢٨).

ولا خُبِزَ له مُرَقَّق، ولا رأى شاة سميطاً قطّ[1].

وفي حديث حفصة: كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته مِسْحاً نثنيه ثنيتين، فينام عليه، فثنيناه ليلة بأربع، فلما أصبح قال: «ما فرشتم لي؟»، فذكرنا له ذلك، فقال: «ردّوه بحاله؛ فإن وَطَاءَتَهُ منعتني الليلة صلاتي»[2].

أعجمية معربة، قيل: هي قصعة صغيرة يوضع فيها الكوامخ والجوارشات في جوانب المائدة، فيها ما يعين على الهضم. اهـ. خ[3].

قوله: (شاة سميطاً): سميط: فَعيل بمعنى المفعول؛ أي: لم يطبخ له صلى الله عليه وسلم شاة بتمامها بعد سمطها؛ أي: غليها في الماء الحار حتى يذهب شعرها، ثم تشوى[4].

قوله: (أدماً) ـ بفتح الهمزة والدال ـ: اسم جمع لأديم، وهو الجلد المدبوغ اللين.

قوله: (مسْحاً) ـ بكسر الميم وسكون السين ـ، وهو ثوب مستعد للفراش شبه الكساء، ويقال له: حنبل، وقيل: هو ثوب أسود من شعر يلبسه الزهاد، وجمعه مُسوح[5].

قوله: (وطاءته) ـ بفتح الواو والطاء والمدة وتاء التأنيث ـ مضاف لضمير الفراش، فوزنه فَعالَة، أو فَعْلَة ـ بفتح فسكون وهمزة غير ممدودة على وزن فعلَة ـ؛

---

(١) رواه البخاري (٥٤١٥، ٥٤٥٧).

(٢) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٣٠).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٣١).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٣١).

وقالت عَائشة: لم يمتلئ جوفُ النبي عليه الصلاة والسلام شبعاً، ولم يبثّ شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحبّ إليه من الغنى، وإن كان لَيظلُّ جائعاً يلتوي طولَ ليلته من الجوع، فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربَّه جميعَ كنوز الأرض وثمارها ورغدَ عيشها، ولقد كنتُ أبكي رحمة له مما أرى به، وأمسحُ بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلَّغْتَ من الدنيا بما يقوتُك، فيقول: «يا عائشة! ما لي وللدنيا، إخواني من أُولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشدُّ من هذا، فمضَوا على حالهم، فَقَدِمُوا على ربهم، فأكرمَ مآبهم، وأجزلَ ثوابهم، فأجدُني أستحي إن ترفَّهْتُ في معيشتي أن يُقَصَّرَ بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحبُّ إليّ من اللحوق بإخواني وأخلاّئي»، قالت: فما أقام بعدُ إلا شهراً حتى توفي صلواتُ الله عليه وسلامه[1].

وأما خوفُه ربه، وطاعته له، وشدّة عبادته، فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال: «لو تعلمون ما أعلم، . . . .

أي: لينه تحت جنبي؛ لكثرة طاقاته وتضعيفها. اهـ. خ[2].

قوله: (يلتوي)؛ أي: يتقلب على فراشه من ألم الجوع.

قوله: (يُقَصَّر): ـ بالبناء للمجهول مع التشديد ـ.

---

(١) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، وقال السيوطي في «مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا» (ص: ٨٣): لم أقف عليه هكذا، ولكن أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» من حديثها قالت. . . فذكر نحوه مختصراً.
وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ المشار إليه رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٩٧).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٣١).

لضحكتم قليلاً، ولبكَيتم كثيراً»[1].

وقال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّتْ ـ صَوَّتت ـ السماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا ومَلَكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله! لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكَيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى، لَوَدِدْتُ أني شجرة تُعضَد»[2].

وكان عليه الصلاة والسلام يصلي حتى تَرِمَ قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[3].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم دِيمَةً، ....

قوله: (وحُقّ لها): ـ بالبناء للمجهول ـ.

قوله: (إلى الصعدات) ـ بضم الصاد والعين وفتح الدال ـ؛ أي: لخرجتم من دوركم للطريق وممر الناس.

قوله: (تُعضَد)؛ أي: تُقطَع من أصلها.

قوله: (حتى ترم) ـ بفتح التاء وكسر الراء ـ: مضارع وَرِم.

قوله: (ديمة) بكسر الدال؛ أي: دائماً.

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢١) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) من حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧١)، ومسلم (٢٨١٩)، من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ.

وأيُّكم يطيق ما كان يطيق[1]؟!

وقالت: كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم[2].

وقال عوفُ بنُ مالك: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فاستاكَ، ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقمت معه، فاستفتح البقرة، فلا يمرّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرّ بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه، يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد، وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك[3].

وقال بعضهم: أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، ولجوفه أَزيزٌ كأزيز المِرْجَل[4].

وفي وصف ابنِ أبي هالة: كان متواصلَ الأحزان، دائمَ الفِكرة، ليست له راحة[5].

قوله: (سبحان ذي الجبروت): العبارة في «الشفا»: سبحان الله ذي الجبروت والملكوت، صيغة مبالغة كالرهَبوت والرحَموت[6].

قوله: (أزيز) الأزيز: صوت الغليان إذا اشتد.

قوله: (ليست له راحة)؛ أي: لاستغراق أوقاته في الذي كلفه من أعباء

---

(١) رواه البخاري (١٩٨٧) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) رواه البخاري (١٩٦٩)، ومسلم (١١٥٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢).

(٤) رواه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (١٢١٤)، من حديث عبدالله بن الشخير ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) رواه الترمذي في «الشمائل المحمدية» (٢٢٦).

(٦) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٤٢).

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنّته، فقال: «المعرفةُ رأسُ مالي، والعقلُ أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشوقُ مركبي، وذكرُ الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزنُ رفيقي، والعلمُ سلاحي، والصبرُ ردائي، والرضا غنيمتي، والعجزُ فخري، والزهدُ حِرفتي، واليقينُ قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرّة عيني في الصلاة، وثمرة فؤادي في ذكره، وغمِّي لأجل أمتي، . . . .

الرسالة، وتبليغ الأحكام، وتدبير الحروب والوقائع، ومَنْ نيط به أمورُ جميع الخلائق كيف يفضى من الهم؛ فإن الأمور بقدر الهمم[1].

قوله: (وعن علي ـ رضي الله عنه ـ): قال الشهاب: هذا الحديث ذكره في «الإحياء»[2]، وقال الحافظ العراقي: إنه لا أصل له[3]، وقال السيوطي: إنه موضوع، وآثارُ الوضع لائحةٌ عليه، وهو يشبه كلام الصوفية[4].

قوله: (المعرفة رأس مالي)؛ أي: المعرفة بالله وصفاته، والوقوف على غوامض الأمور.

قوله: (والحب أساسي)؛ أي: محبة الله بعد معرفته؛ لأن من لم يعرف لا يحب.

قوله: (الثقة كنزي)؛ أي: الوثوق بما عند الله وما يطلب منه.

(والطاعة حَسَبي): ـ بفتحتين ـ، وهو ما يعده المرء من مفاخر آبائه؛ أي:

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٤٣).

(٢) انظر: «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/ ٣٦١).

(٣) قال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ١١٦٣): ولم أجد له إسناداً.

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ١٤٤).

وشوقي إلى ربي»[1].

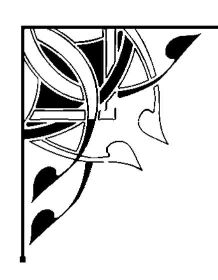
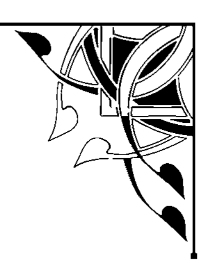
فجزاه الله من نبي عن أمته خيراً، ورحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل الكريمة، والخصال الجميلة، فتمسك بها، واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحوز شفاعته يوم الفزع الأكبر، ويرضى الله عنه.

فنسألك اللهمّ التوفيق لما فيه الخير بمنِّك وكرمك يا أرحم الراحمين.

طاعة الله في السر والعلانية هي الذي أفتخر به وأعده مآثر، لا ما يفتخر به الناس.

❐ ❐ ❐

(١) أورده الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٦١)، والقاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٤٧)، وقال السيوطي في «مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا» (ص: ٨٥): موضوع.

مُعْجزاتُهُ عليه السلام

إذا تأمل المتأمل ما قدّمناه من جميل أثر هذا السيد الكريم، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشَاهد حاله، وصوابِ مقاله؛ لم يَمْتَرِ في صحة نبوّته، وصدق دعوته، وقد كفى هذا غيرَ واحد في إسلامه والإيمان به؛ كعبدالله بن سلام؛ فإنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، جئته لأنظر إليه، فلما استَبَنْتُ وجهه، ....

معجزاته[1] عليه السلام

قوله: (لم يمتر في صحة نبوته)؛ أي: وإن لم يشاهد معجزاته.

قوله: (فقد كفى هذا غير): (هذا): فاعل (كفى)، و(غيرَ): مفعوله.

قوله: (فلما استبنت وجهه): استفعال من البيان، وهو الوضوح والظهور، والسين للمبالغة. اهـ. خ[2].

ثم قال: وقال ـ رضي الله عنه ـ لليهود: يا معشر يهود! اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فوالله! إنكم لتعلمون أنه رسول الله الذي تجدونه عندكم مكتوباً في التوراة باسمه وصفته، وإني أؤمن به وأصدقه. اهـ[3].

---

(١) في هامش الأصل: «قوله: (معجزاته عليه السلام): أنقل هنا عبارةَ الماوردي (ص: ٥٩ و٦٣)».

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٣).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٣)، والخبر المذكور رواه البخاري (٣٩١١) بنحوه.

عرفت أَنَّ وجهه ليس بوجه كذاب[1].

وروى مسلم: أنَّ ضِماداً لما وفد عليه، قال له صلى الله عليه وسلم: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهد اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل اللهُ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»، فقال له ضِماد: أعِدْ عليّ كلماتِك هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هاتِ يدك أُبايعك[2].

ولما بلغ ملكَ عُمان........................

قوله: (أن ضِماداً) ـ بكسر الضاد ـ، وهو ضماد بن ثعلبة الأزدي، وكان صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، فلما قدم مكة، وسمعهم يقولون فيه ما قالوه، تابعه، وأسلم في أول الإسلام، وكان عاقلاً يتطيب ويرقي، ذكره ابن عبد البر في الصحابة[3].

وفي الصحابة شخص آخر يسمى: ضماداً، وله وفادة، ولا ثالث لهما. اهـ. خ[4].

قوله: (فقد بلغن قاموس البحر)؛ أي: اشتهرت مقالتك هذه في جميع أقطار الأرض شرقاً وغرباً، و(قاموس البحر): وسطه، أو لجته، أو قعره؛ كما في كتب اللغة. اهـ. خ[5].

قوله: (ملك عمان) ـ بفتح[6] العين وتشديد الميم ـ: مدينة قديمة بالشام،

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم (٨٦٨) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

(٣) انظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ٧٥١).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٦).

(٦) في الأصل: «بضم»، والتصويب من «نسيم الرياض».

أن رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعوه إلى الإسلام، قال: والله! لقد دلّني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أولَ آخذٍ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يَغْلبُ فلا يبطر، ويُغلب فلا يَضْجَر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي[1].

وقال ابن رواحة:

لو لم تكنْ فيه آياتٌ مبيِّنةٌ ... لكانَ منظرُهُ يُنبيكَ بالخَبَرِ[2]

كيف وقد أظهر الله على يده تصديقاً لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العدّ، فهو أكثر الأنبياء آيةً، وأظهرُهم برهاناً، وسنذكر لك في هذا الفصل من الآيات ما تقرُّ به عينُكَ، ويزداد به يقينُك؛ مما رواه الجمّ الغفير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، وأثبته المحدّثون في صِحاحهم، . . . .

وـ بالضم والتخفيف ـ: صُقع عند البحرين[3].

قوله: (وأشهد أنه نبي)؛ لما تحققه من أخلاقه، وكمال صفاته صلى الله عليه وسلم، وهذا شاهد لما تقدم من أن من تأمل صفاته صلى الله عليه وسلم صدَّق بنبوته، وإن لم يشاهد معجزاته.

قوله: (مبينة): ـ بكسر الياء المشددة ـ: اسمُ فاعل، و ـ فتحها ـ: اسم مفعول. اهـ[4].

---

(١) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٢٤٩)، وقال السيوطي في «مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا» (ص: ١١٤): وثيمة ـ أي: ابن موسى بن الفرات ـ في كتاب «الردة» عن ابن إسحاق.

(٢) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٢٤٩).

(٣) وهذا الثاني هو المراد هنا. انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٨).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٤٩).

ونبدأ منها بأظهرها شأناً، وأوضحِها بياناً، وهو القرآن الشريف وإعجازُه.

اعلم: أن كتاب الله العزيز مُنْطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلُها من جهة ضبط أنواعها في أربعة:

أولها: حسن تأليفه، والتئام كَلِمه، وفصاحتهُ، ووجوه إيجازه، وبلاغتُه الخارقةُ عادةَ العرب، وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن، وفرسان الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يُخَصَّ به غيرُهم من الأمم، وأُوتوا من ذَرابة اللسان ما لم يُؤتَ إنسان، ومن فصل الخطاب ما يُقَيِّد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلْقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدْلُون به إلى كل سبب، . . . .

وهو يفيد أنه يصح أن تقرأ بالوجهين.

قوله: (وذرابة اللسان): الذرابة: أصل معناها حدةُ السيف والسنان وغيره، فاستعير لطلاقة اللسان مع الخلو عن اللكنة. اهـ. خ[(١)].

قوله: (ما يقيد الألباب) يقيدها بمعنى: يحيرها إذا سمعته حتى كأنها قيدت ومنعت عن الحركة؛ لدهشتها من حسنه وبراعته[(٢)].

قوله: (ويدلون به) ـ بضم الياء ـ: من أدلى دلوه في البئر: إذا أنزله لأخذ الماء، ثم عبر عن مطلق التوصل؛ كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ لما استسقى بالعباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ: وقد دلونا [به][(٣)] إليك مستشفعين[(٤)]؛ أي: توسلنا به. اهـ. خ[(٥)].

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٤).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٤).

(٣) ما بين معكوفتين من «تأويل مختلف الحديث».

(٤) أورده ابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص: ٢٥٣).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٤).

يخطُبون بديهاً في المقامات، وشديد الخَطْب، ويرتجـزون بـه بـين الطعـن والضـرب، ويقـدحون ويمـدحون، ويتوسَّـلَون ويتوصَّـلون، ويرفعـون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسِّحر الحلال، ويُطَوِّقون من أوصافهم أَجْمَـلَ من سِمْط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويُذْهبون الإحن، ويُهيجون الدِّمَن، ويجرِّئون الجبان، ويصـيرون النـاقص كـاملاً، ويتركـون النبيه خاملاً.

منهم البدويُّ ذو اللفظ الجزل، والقول الفَصْـل، والكـلام الفخـم، والطبع الجوهريّ، والمنزع القويّ.

قوله: (في المقامات)؛ أي: محافل الناس ومجامعهم.

قوله: (ويقدحون)؛ أي: يذمون ويهجون.

قوله: (أجمل من سمط اللآل): السمط: هو السلك ما دام فيه الخرز.

قوله: (ويذهبون الإحن): جمع إحنة ـ بكسر فسكون ـ، وهي الحقد.

وقوله: (ويهيجون الدمن)؛ أي: يحركونها ويظهرونها.

و(الدمن): ـ بكسر الدال وفتح الميم ـ: جمع دمنـة، وهي فـي الأصـل: مـا في مبارك الإبل من بعرها المتلبد بما عليه من أبوالها، استعير للحقد المضمر المجتمع في الباطن. اهـ. خ[1].

قوله: (الطبع الجوهري)؛ أي: الخالص النقي.

قوله: (والمنزع القوي): مفعل من النزع، وهـو الجـذب والأخـذ؛ أي: يأتون بنوع من الكلام يستخرجونه من بين أنواع الكلام بطبائعهم السليمة بحيـث إذا سمعه السامع شُفي غليلُه[2].

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

ومنهم الحضريُّ ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرّف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية.

وكلاهما له في البلاغة الحجةُ البالغة، والقوة الدامغة، والقِدحُ الفالج، . . . .

قوله: (والألفاظ الناصعة)؛ أي: الخالصة من الألفاظ الوحشية الغريبة، السالمة من الركاكة.

قوله: (والتصرف في القول القليل الكلفة)، فيخرج من نوع لنوع من غير تكلف؛ لكونه سجيةً له، و(القليل): صفة للتصرف أو للقول، فلا يورد في كلامه ما يعسر على السامع فهمهُ لغرابته أو تعقيده[1].

قوله: (الرقيق الحاشية): قال في «الأساس»: من المجاز: عيش رقيقُ الحواشي، وكلام رقيق الحواشي[2]، وهو عبارة عن سهولته وسلاسته. اهـ. خ[3].

قوله: (وكلاهما)؛ أي: كلا القسمين من كلام البدوي والحضري في مقامه ومحله وعند أهله. اهـ. خ[4].

قوله: (الدامغة)؛ أي: الغالبة القاهرة. اهـ. خ[5].

قوله: (والقدح الفالج): واحد قداح الميسر، وهو سهم بغير ريش،

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: حشو).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

(٥) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

والمَهْيعُ الناهج، لا يشكون أن الكلام طوعُ مرادهم، والبلاغة ملكُ قيادهم، قد حَووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعَلَوا صرحاً لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمَهين، وتفننوا في الغثِّ والسمين، وتقاولوا في القلّ والكُثْر، . . . .

والفالج: بمعنى الفائز[1].

قوله: **(والمهيع الناهج)**: المهيع: الطريق الواسع، والناهج: بمعنى البَيِّن الواضح المسلوك[2].

قوله: **(ملك قِيادهم)**: ـ بكسر القاف ـ، وهو حبل تقاد به الدابة.

قوله: **(واستنبطوا عيونها)**؛ أي: استخرجوا خيارها ومحاسنها.

قوله: **(وعلوا صرحاً)**: هو البيت العالي المزخرف بناؤه.

وقوله: **(لبلوغ أسبابها)**: جمع سبب، وهو كل ما يتوصَّل به لشيء آخر؛ كالحبل والسلَّم، وهو علة للعلو؛ أي: علوا قصر البلاغة ليصلوا إلى ما فيه من الأسباب الموصلة لمهماتهم ومطالبهم النفيسة[3].

قوله: **(في الغث والسمين)**: الغث: أصله: اللحم المهزول الذي يكثر تناوله، فاستعير للأمر القبيح والفاسد.

وقوله: **(السمين)**: فسره التلمساني بإنشاد المدائح. اهـ. خ[4].

قوله: **(وتقاولوا)**: تفاعُل من القول؛ أي: أداروا القول بينهم.

(في القل والكثر): ـ بضم أولهما، وأجاز البرهان كسرهما ـ؛ أي: القليل والكثير.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٧).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٨).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٨).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٨).

وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعَهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢]، أحكمت آياته، وفُصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مَقُول، وتظافر إيجازه وإعجازه، . . . .

قوله: (وتساجلوا في النظم والنثر): التساجل: تفاعُل من السَّجل ـ بالفتح ـ، وهو الدلو الكبير، ثم لما كانوا يتناوبون في سقي الماء، استعاروا المساجلة للعطاء والمفاخرة؛ كما قال:

مــن يســاجلْني يســاجلْ ماجــداً[1]

قوله: (فما راعهم إلا رسول كريم)؛ أي: بينما هم كذلك فجأهم أمر بغتة لم يكن لهم علم به، ولم يطرق مسامعَهم مثلُه.

وفي «الأساس»: ما راعني إلا مجيئك؛ أي: ما شعرت إلا به[2].

وهو من الروع بمعنى: الخوف والفزع. اهـ. خ[3].

قوله: (من بين يديه ولا من خلفه)؛ أي: من جهة من الجهات، فلا يجد سبيلاً يوصله إليه.

قوله: (وفصلت كلماته)؛ أي: فُصِّل وبُيِّن ما فيها من الفوائد الجليلة؛ كالعقائد الحقة، والأحكام الشريفة، والمواعظ، والأخبار الصادقة.

قوله: (وتضافر إيجازه) عبارة «الشفا»: وتظافر إيجازه[4].

---

(١) صدر بيت للفضل بن العباس اللهبي، وعجزه:

يمــلأ الــدلوَ إلــى عَقْــدِ الكَــرَبْ

انظر: «ديوانه» (ص: ١٩).

(٢) انظر: «أساس البلاغة» للزمخشري (مادة: روع).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٩).

(٤) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦٠).

وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كلَّ البيان مجامعُه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسنُ نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختارُ لفظه، وهو أفسحُ ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهرُ في الخطابة رجالاً، وأكثر في الشعر والسجع ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً؛ بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخاً بهم في كل حين، . . . .

قال الشارح: بالظاء المشالة كما في أكثر النسخ: تفاعُل من الظفر، وهو الفوز ونيل الأماني[١].

قوله: (وتظاهرت حقيقته ومجازه)؛ أي: عضد كلٌّ منهما الآخر وقواه لما صار له ظهيراً ومستنداً.

قوله: (وتبارت)؛ أي: تشابهت وتساوت أوائله وأواخره، والتباري يكون بمعنى: التسابق في الجري.

قوله: (مجامعه وبدائعه)؛ أي: جوامع كلمه، وما ابتدع فيه مما لم يسبق مثله في كتاب.

قوله: (وأوسع في الغريب): المراد به: ما يُستغرب من الكنايات والمجازات البديعة؛ لتصرفهم في الكلام.

قوله: (بلغتهم) الجار والمجرور صفة (كتاب)، أو حالٌ منه.

قوله: (ومنازعهم) تقدم أن النزع: الجذب والأخذ، والمنزع بمعنى: النزع، واسم مكان، يكون اسماً للسهم الذي يرمى به، وهو المراد هنا؛ لمناسبته لقوله (التي عنها يتناضلون)؛ أي: يترامَوْن بالسهام، ومن المجاز: ناضل عن قومه: إذا دافع وحاجَّ، والمناضلة: المفاخرة[٢].

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٧٩).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨١).

ومقرِّعاً لهم بضعة وعشرين عاماً على رؤوس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤].

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

فلم يزل يقرعهم أشدّ التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، . . . .

قوله: (ومقرعاً) ـ بضم الميم وفتح القاف وتشديد الراء ـ: مُعَيِّراً وموبخاً لهم.

قوله تعالى: (﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ . . .﴾) إلخ؛ أي: إن كان الأمر كما زعمتم، فأتوا بسورة مثله في النظم والبلاغة؛ فإنه نزل بلغتكم وأنتم فصحاء.

(﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾)؛ أي: كلَّ من قدرتم على دعوته ليعينكم على افتراء كلام يضاهيه.

(﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾)؛ أي: غير الله تعالى؛ فإنه القادر على كل شيء.

(﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾) في قولكم: إنه افتراء.

وهذا توبيخ وتقريع بتعجيزهم عن أقل مراتبه. اهـ. خ[1].

قوله: (﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾)؛ أي: محض كذب واختلاق منكم، وخص الكذب بالذكر؛ لأن المفترى أسهل، ووضع الباطل أقرب، واللفظ إذا اتبع المعنى الصحيح كان أصعب.

قوله: (فلم يزل يقرعهم)؛ أي: يعيرهم ويعيبهم ويشنع عليهم.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٢).

ويسفّه أحلامهم، ويحُط أعلامَهم، ويشتِّتُ نظامهم، ويذم آلهتهم وآباءهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، مُحْجِمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب، والاغتراء بالافتراء، . . . .

وقوله: **(ويسفه أحلامهم)**؛ أي: يصفهم بالسفه، وهو قلة العقل وخفته.

وقوله: **(ويحط أعلامهم)**: الأعلام: جمع علم، وهي الراية الكبيرة، والجبل، والسيد، والاسم المختص، والكل محتمل هنا؛ أي: ينكس راياتهم، ويهد جبالهم، ويذل ساداتهم، ويزري بألبابهم، والمعنى على كل حال: أنه يحقرهم ويقهرهم بطعنه فيهم وإظهارِ ضلالهم وسوء حالهم. اهـ. خ[1].

قوله: **(ناكصون عن معارضته)**: يقال: نكص على عقبيه: إذا أحجم وتأخر، فاستعير للإعراض عن معارضته فيما فعله، وما أتى به القرآن.

وقوله: **(محجمون عن مماثلته)**؛ أي: عن الإتيان بشيء مماثل أقصر سورة منه[2] لما تحداهم، وأحجم؛ كنكص بمعنى: تأخر، وهو كناية عن عدم القدرة، يقال: حجمته فأحجم، وهو من النوادر؛ كمثل: كببتُه فأكبَّ. اهـ. خ[3].

قوله: **(بالتشغيب)** هو تهييج الشر والفتن، من الشغب ـ بفتح الغين وسكونها ـ.

قوله: **(بالتكديب)** صوابه: والتكذيب.

قوله: و**(الاغتراء بالافتراء)** يقال: اغتراه: إذا ألصقه، فالمعنى على هذا: وإلصاق الافتراء عليه.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).

(٢) في الأصل: «سورة سورة»، والمثبت من «نسيم الرياض».

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٤).

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدثر: ٢٤]، و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢]، و﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[الفرقان: ٤]، و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام: ٢٥].

والمباهتة والرضا بالدنية؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[البقرة: ٨٨]، و﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فصلت: ٥]، و﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾[فصلت: ٢٦].

والادعاء مع العجز؛ كقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[الأنفال: ٣١].

قال الخفاجي: وفي النسخ الصحيحة: (والإغراء بالافتراء)، وهو المولع بالحث والبحث والتحريض. اهـ. خ[1].

قوله: (﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾)؛ أي: ينقل ويروى عن السحرة.

وقوله: (و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾)؛ أي: دائم باق.

(و﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾)؛ أي: كذب اخترعه واختلقه.

(و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾)؛ أي: شيء أخذه مما سطره الأولون وزخرفوه.

وقوله: (والمباهتة) بمعنى: البهتان.

وقوله: (والرضا بالدنية؛ كقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾)؛ لأن ظاهره الوصف بالحماقة وعدم الفهم، وهو أمر مذموم لا يرتضيه العقل.

وقوله: (﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾)؛ أي: مانع عن وصول ما يقوله لنا، وهو تمثيل لنبو قلوبهم عن إدراكها ما وهم له.

وقوله: (﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾) المراد به: رفع الأصوات بأي كلام كان حتى يشوش على قارئه، فيقطع قراءته، أو يمنع عن استماعه، ولغو الكلام: ما لا يعتد به. اهـ. خ[2].

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٤).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٥).

وقد قال لهم: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾[البقرة: ٢٤]، فما فعلوا، ولا قدروا، ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلِمة؛ كُشف عوارُه لجميعهم، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم، وإلا، لم يَخْفَ على أهل المَيْزِ منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولّوا عنه مدبرين، . . . .

قوله: (من سخفائهم)؛ أي: ممن له طيشٌ وقلةُ عقل.

(كمسيلمة) تصغير (مسلمة)، فلامُه مكسورة، وميمُه مضمومة، والعامة تفتح لامه، وهو خطأ منهم، وهو ابن حبيب اليمني، من بني حنيفة، قبيلة، وهذا لقبه، واسمه هارون، ويقال له: أبو ثمامة، وكان له حيل ونيرنجات يوهم أنها معجزات، ومن هذيانه الذي زعم أنه وحي نزل عليه: والزارعات زرعاً، والحاصدات حصداً، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، ضفدع بنت ضفدعين، إلى كم تنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين... إلى غير ذلك مما تمجه الأسماع، وتستقبحه الطباع[1].

قوله: (كشف عواره) قال الخفاجي: في نسخة بدون فاء، وإثباتها أحسن؛ أي: أظهر بما قاله من الكلام السخيف الركيك عيبه وحماقته، وهو بضم العين وبفتحها. اهـ. خ[2].

قوله: (وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم)؛ أي: لما أرادوا المعارضة، لم يقدروا على كلام مثل كلامهم قبله، وهذه الجملة معطوفة على جملة (ما فعلوا).

قوله: (وإلا)؛ أي: وإن لم يسلبهم الله فصاحتهم المألوفة.

وقوله: (على أهل الميز) ـ بفتح الميم وسكون الياء ـ؛ أي: التمييز.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٦).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٨٦).

وأتوا إليه مذعنين[1].

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[البقرة: ١٧٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[سبأ: ٥١].

وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

قوله: (﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾)؛ أي: إذا تأملت ما أودع فيه عن البدائع والروائع مع لطائف الإيجاز، وأنوار الإعجاز الساطعة من مشكاته، ورسوخ عروقه في الفصاحة، وما اشتمل عليه من بديع البديع؛ كالإعراب بجعل القتل الذي ضد الحياة ظرفاً لها؛ لأن من علم أنه إذا قتل اقتص منه؛ كف عنه، فكان سبباً لحياة من يهم بقتله، وهو أوجز مما عدوه من أفصح كلامهم، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل، مع ما فيه من التكرار، والقتل مطلقاً لا ينفيه، ففي القصاص تصريح بالمعنى المراد، إذ القتل قد يكون ظلماً. اهـ. خ[2].

قوله: (﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾)؛ أي: من حلول الأجل، أو من بعثهم من القبور، أو في يوم بدر.

وقوله: (﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾)؛ أي: من ظهر الأرض لبطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قليبها، ففي هذه الآية من الإيجاز والبلاغة وعذوبة الألفاظ ما يعرفه من له بصيرة. اهـ. خ[3].

قوله: (﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾)؛ أي: ادفَع سيئةَ من أساء إليك بالحسنة التي هي أحسنُ من كل شيء أحسن، أو بأحسن ما يمكن دفعه.

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٥٨ ـ ٢٦١).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٩٢).

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ٤٤].

وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٠].

وأشباهها من الآي، بل أكثر آيات القرآن حققت ما بيَّنته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحُسن تأليف حروفها، وتلاؤم كَلِمِها، وأنَّ تحت كل لفظة منها جُملاً كثيرة، وفُصولاً جمَّة، . . . .

قوله: (﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ. . .﴾) إلخ: ففي هذه الآية من البلاغة المعجزة مع الإيجاز: أنه ناداهما كما ينادَى العقلاء، وأمرهما بما يؤمرون به، تمثيل لباهر قدرته وعظمته؛ لانقيادهما لما أراد؛ كالمأمور المطيع المبادر للامتثال حذراً من سطوة أمره، والبلع: استعارة للجفاف، والإقلاع: الإمساك. اهـ[1].

قوله: (﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾)؛ أي: فكلاً ممن ذكر قبله من المكذبين.

وقوله: (﴿حَاصِبٗا﴾)؛ أي: ريحاً عاصفة فيها حصباء، وهي الحجارة الصغيرة.

وقوله: (﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾)؛ أي: وهم قوم ثمود ومدين.

(﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾)، وهو قارون.

(﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾): هم قوم نوح وفرعون.

قوله: (حققت ما بينته): جواب (إذا) في قوله: (وأنت إذا تأملت. . .) إلخ.

قوله: (ديباجة القرآن)؛ أي: روضته التي يرتع فيها القارئ، والمراد: حسن عبارته.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٩٢).

وعلوماً زواخر؛ مُلئت الدواوين من بعض ما استُفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعفُ في عادة الفُصحاء عندها الكلام، ويذهبُ ماء البَيَان، آيةٌ لمتأمِّله، من رَبط الكلام بعضِه ببعض، والتئام سَرده، وتناصُفِ وجوهه؛ كقصة يوسف على طولها.

ثم إذا ترددت قِصَصُه، اختلفت العباراتُ عنها على كثرة تردُّدها، وتُناصِفُ في الحسن وجه مُقَابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا مُعاداة لمُعادها.

الوجه الثاني من إعجاز القرآن: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفتْ عليه مقاطع آيِه، وانتهتْ فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحدٌ مماثلة شيء منه، . . . .

قوله: (وعلوماً زواخر)؛ أي: كالبحار الزواخر؛ من زخر البحر: إذا كثر ماؤه، وارتفعت أمواجه.

قوله: (وتناصف وجوهه): المراد بالوجوه: أنواع بلاغته؛ من الاستعارة والكناية، يقال: أعضاؤه متناسقة حُسناً؛ أي: لا ينقص حسن بعضها عن بعض.

قوله: (ولا نفور للنفوس من ترديدها): هذا إشارة إلى الجواب عما قاله بعض الطاعنين في القرآن بأن فيه مكررات كثيرة، وهو مما ينفر الطبع السليم.

قوله: (ولا معاداة لمعادها)؛ أي: لا تعادي الطباع المكررة المعاد في القرآن من قصصه؛ كما قال الشاعر: طبعُ النفوس مُعاداةُ المُعادات[١].

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٤٩٥).

بل حارَت فيه عقولهم، وتدَلَّهتْ دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر، أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر[1].

والإعجاز بكل واحد من النوعين: والإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما؛ إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها، مباينٌ لفصاحتها وكلامها[2].

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمُغَيباتِ، . . .

قوله: (وتدلهت)؛ أي: دهشت وتحيرت في شأنه.

قوله: (ولم يهتدوا إلى مثله)؛ أي: لم يسمعوا به من فصحائهم.

قوله: (الإيجاز والبلاغة بذاتها) قال الخفاجي: هذا إشارة إلى قوله في أول هذا الفصل: (أولها: حسنُ تأليفه والتئام كلمه، وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وحاصله: أن إعجازه من نفس جوهر كلامه بكونه في أعلى طبقات البلاغة والفصاحة، بحيث يسلم عن ضعف التأليف، وتنافر الحروف والكلمات، وإيجازه، ورعاية معانٍ ووجوهٍ يقتضيها المقام، وتضمن نكات يعجز عنها طاقة البشر[3].

قوله: (أو الأسلوب الغريب) يعني: كونه على نمط لا يشبه نمط كلامهم المنظوم ولا المنثور؛ فإنه ليس بشعر ولا سجع ولا خطب، وإن وقع فيه من غير تكلف سجع أحياناً[4].

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦٦).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٠١ ـ ٥٠٢).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٠٢).

وما لم يكن ولم يقع فوقع، فوجد كما ورد، وعلى الوجه الذي أخبر؛ كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[الفتح: ٢٧].

وقوله عن الروم: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣ ـ ٤].

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[الصف: ٩].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور: ٥٥].

وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[النصر: ١ ـ ٢].

فكان جميع هذا، كما أخبر، فغلبت الرومُ فارسَ في بضع سنين، ودخلت الناس في الإسلام أفواجاً[1]، واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من أقصى بلاد الأندلس غرباً إلى أقاصي الهند شرقاً، ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى أقاصي السودان جنوباً.

قوله: (﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ...﴾) إلخ الآية: قال الخفاجي: رأى صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة قبل عام الحديبية أنه دخله مع أصحابه، وأخبرهم بذلك، فظنوه في ذلك العام، فلما صدهم المشركون عن الدخول، شق عليهم ذلك، فأخبرهم الله أنه سيقع بعد ذلك، وكان كما أخبر. اهـ[2].

قوله: (﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾) تقدم إيضاحه في أول الكتاب (باب تبشير التوراة به).

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٦٨).

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٠٧).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، فكان كذلك إلى الآن والحمد لله.

وقوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر: ٤٥]، فكان كذلك في بدر، والآية نزلت في مكة.

وقوله: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾[التوبة: ١٤]، فكان كذلك مما اطّلع عليه قارئ هذه السيرة، وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حَلِفِهِم؛ كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾[المجادلة: ٨].

قوله: (والآية نزلت بمكة): قال الخفاجي: فلم يدر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ما المراد بها حتى كان يوم بدر بعد سبع سنين من نزولها، فلبس صلى الله عليه وسلم درعه وهو يقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: فعلمت المراد منها[١].

قوله: (﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾) قال الخفاجي: وفيها من الإخبار عن الغيب: أن ناساً من اليمن وبني خزاعة أسلموا وبقوا بمكة بعد الهجرة، فلقوا من المشركين أذى شديداً، فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اصبروا وأبشروا بفرج قريب»، فنزلت هذه الآية، فكان بعدها ما أوقع الله تعالى بهم من القتل ونصرة المؤمنين التي شفيت بها صدورهم[٢].

قوله: (﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾)؛ أي: هلا يعذبنا الله بقولنا في حق

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥١٠)، والأثر المذكور رواه الطبري في «تفسيره» (٢٧/ ١٠٨) بنحوه.

(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١)، والخبر المذكور أورده الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٢٣٩) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾[آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[النساء: ٤٦]، إلى غير ذلك من الآيات البيّنات.

الوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الداثرة؛ مما كان لا يعلم منه القصةَ الواحدةَ إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلّم ذلك، فيورده عليه الصلاة والسلام على وجهه، ويأتي به على نصه، فيقرُّ العالِمُ بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم أُميّ، لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مجالسة، لم يغب عنهم، ولا جَهِلَ حالَه أحد منهم.

وكثيراً ما كان يسأله كثير من أهل الكتاب عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً؛ كقصص الأنبياء، وبدء الخلق، وما في الكتب السابقة مما صدقه فيه العلماء بها، ....

محمد: لو كان نبياً دعا علينا حتى نعذب، أو بما كانوا يقولون هم والمنافقون فيما بينهم في حق النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، فأخبر الله تعالى بذلك، وفضح سرائرهم(١).

قوله تعالى: (﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾)؛ أي: لا نسمع ما دعينا إليه.

وقوله: (﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾) قال في «النهاية»: كان ذلك قولاً يقولونه للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التهكم، يقصدون به رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: راعنا؛ أي: احفظنا.

وقوله: (﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾)؛ أي: كذباً بألسنتهم.

---

(١) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥١١).

ولم يقدروا على تكذيب ما ذُكر منها، ولم يؤثَر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً، ولا سقيماً من صحفه، بعد أن قرّعهم ووبَّخهم بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران: ٩٣].

ومما يدلّ على أن أهل الكتاب يعلمون صدقه: ما تحدّاهم فيه الله بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة: ٩٤]، ثم حتَّم عدم إجابتهم بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾[البقرة: ٩٥]، فما سُمع عن أحد منهم أن تمنَّى ذلك ولو بلسانه، مع أنهم كانوا أحرصَ الناس على تكذيبه.

ومثل ذلك: ما فعله أهلُ نجران حينما دعاهم للمباهلة فأَبوا، وقد قدَّمنا ذلك في (فصل وفودهم).

ومما يدل على أن هذا القرآن ليس من كلام البشر: الرّوعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ لقوّة حاله، وإنافة خطره، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن صعب مستصعَب على مَن كرهه،.............

قوله: (الروعة) ـ بفتح الراء ـ: الفزع والخوف.

وقوله: (وإنافة خطره)؛ أي: علو مرتبته على غيره من الكلام.

قوله: (يستثقلون سماعه)؛ أي: لصعوبة ما فيه عليهم.

قوله: (إن القرآن صعب في نفسه) بمعنى: أنه لا يقدر أحد على محاكاته وضبط ألفاظه وحفظها بسهولة.

وقوله: (مستصعب) ـ بفتح العين وكسرها ـ؛ أي: يعسر فهمُه وتفسيره بالرأي.

وهو الحكم»[1].

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه إقبالاً، وتَكْسِبُهُ هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[الحشر: ٢١].

ومن وجوه إعجاز القرآن: كونه آية باقية لا تُعدَم ما بقيت الدنيا، مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وقال: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[فصلت: ٤٢]، وسائر معجزات الأنبياء لم يبق إلا خبرها، والقرآن إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضة ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتى بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألّف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلفُ من ذهنه في ذلك إلا بِزَنْد شحيح، ....

قوله: (وهو الحكم)؛ أي: الحكم الفصل بين الحق والباطل.

قوله: (وجهابذة البراعة)؛ أي: أساتذة الفصاحة.

قوله: (عتيد)؛ أي: مهيأ حاضر.

قوله: (ولا قدح...) إلخ: القدح: ذكرُ المعايب، وقدح الزناد: ضربه لأجل النار، والمراد: الأولُ؛ لكن فيه تورية؛ لقوله: (المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح).

---

(١) رواه السلمي في «تفسيره» (٢/ ٣١٨) من حديث الحكم بن عمير ـ رضي الله عنه ـ.

بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه، والنكوص على عقبيه[1].

ولنختم لك هذا الباب بحديثه عليه الصلاة والسلام في القرآن قال: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً، وسنّة خالية، ومثلاً مضروباً، فيه نبؤكم، وخبر من كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، لا يُخلقه طولُ الرَّدِّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فَلَجَ، ....

قوله: (وسنة خالية)؛ أي: طريقة متبعة مستقيمة لمن كان قبلكم من الأمم.

قوله: (ومثلاً مضروباً): جعله عينَ المثل مبالغة لكثرة اشتماله على الأمثال.

قوله: (لا يخلقه) ـ بفتح الياء وضم اللام ـ؛ أي: لا يبلى ولا يتغير حاله بمرور الزمان، ويجوز فتحُها وضمُّ أوله وكسر ثالثه، من أخلق بمعنى: خلق؛ لأنه ورد متعدياً ولازماً، فلامه مثلثة بمعنى واحد[2].

وقوله: (طولُ الرد)؛ أي: كثرة الترديد والتكرار.

قوله: (من قال به صدق)؛ أي: من اختار ما فيه، وحكم به؛ فقد أتى بأمر صادق لا ريب فيه.

قوله: (ومن حكم به عدل)؛ أي: قضى بما فيه من الأحكام فهو عادل؛ فإنه حكم الله.

قوله: (فَلَج)؛ أي: غلب وفاز بالنصر على من خاصمه، وهو ـ بفتح الفاء واللام[3] ـ.

---

(١) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٧٦).
(٢) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٣٣).
(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٣٦).

ومن حكم به أقسط، ومن عمل به أُجِرَ، ومن تمسك به هُديَ إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضلّه الله، ومن حَكَمَ بغيره قَصَمه الله، هو الذكرُ الحكيم، والنورُ المبين، والصراطُ المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاءُ النافع، عصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن اتّبعه، لا يعوَجُّ فيقَوَّم، ولا يزيغ فَيُسْتَعْتَبَ»[(١)].

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم: انشقاق القمر، وقد قدّمنا حديثه مستوفًى.

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم: نبع الماء من بين أصابعه، وتكثيرُه ببركته، وقد روى هذا الجمُّ الغفير من الصحابة، منهم: أنس، وجابر، وابن مسعود.

قوله: (ومن حكم به أقسط) العبارة في «الشفا»: (ومن قسم به قسط)[(٢)]؛ أي: من تولى قسمة أمر، فقسمها بما في كتاب الله؛ كقسمة المواريث، والغنائم، وغيرها؛ عدل، يقال: قسط: إذا جار، وأقسط ـ بالهمزة ـ: إذا عدل[(٣)].

قوله: (قصمه الله)؛ أي: قتله وأهلكه.

قوله: (الحكيم)؛ أي: ذو الحكمة؛ لاشتماله عليها، أو الحاكم لهم وعليهم.

قوله: (ولا يزيغ)؛ أي: لا يميل عن الحق والصواب.

وقوله: (فيستعتب)؛ أي: لا يستحق العتاب[(٤)].

---

(١) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٢٧٦). ورواه الترمذي (٢٩٠٦) من حديث عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ بنحوه، وقال: إسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٢٧٨).

(٣) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧).

(٤) انظر: «نسيم الرياض» للخفاجي (٢/ ٥٣٧).

قال أنس: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حانتْ صلاة العصر، فالتمسَ الناس ماءً للوضوء، فلم يجدوه، فأُتي النبي صلى الله عليه وسلم بِوَضوء، فوضع في الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيتُ الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناسُ حتى توضؤوا عن آخرهم، فقيل: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاث مئة[١].

وقال ابن مسعود: بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، وليس معنا ماء، فقالَ لنا: «اطلبوا مَنْ معه فضلُ ماءٍ»، فأُتي بماء، فصبّه في إناء، ثم وضَع كفّه فيه، فجعل الماءُ ينبع من بين أصابعه[٢].

قوله: **(فأتي النبي[٣] بوضوء)** كان ذلك بالزوراء كما في البخاري[٤]، والزوراء: موضع بسوق المدينة، وإنما أتي بالماء لئلا يظن أنه صلى الله عليه وسلم موجِد للماء، والإيجاد إنما هو لله لا لغيره. اهـ. «شرقاوي على الزبيدي»[٥].

قوله: **(فتوضأ منها)** عبارة الحلبي في غزوة الحديبية: يتوضأ منها[٦].

قال الحلبي: قال أبو نعيم في «الحلية»: وهو أعجب من نبع الماء لموسى عليه الصلاة والسلام من الحجر؛ فإن نبعه من الحجر متعارف معهود، وأما من بين اللحم والدم، فلم يُعهد، قال بعضهم: وإنما لم يخرجه صلى الله عليه وسلم بغير ملابسة ماء في إناء؛ تأدباً مع الله تعالى؛ لأنه المنفرد بابتداع المعدومات من

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٢، ٣٥٧٣)، ومسلم (٢٢٧٩).

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩) بنحوه.

(٣) في الأصل: «الناس»، والتصويب من «نور اليقين».

(٤) رواه البخاري (٣٥٧٢)، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «فتح المبدي» للشرقاوي (٣/ ٦٢).

(٦) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٠).

وقال جابر: عطش الناسُ يوم الحُدَيبية، ورسولُ الله بين يديه رِكوةٌ، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع يده في الرِّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، قيل: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مئة ألف لكفانا، كنّا خمس عشرة مئة[1].

وروى هذه القصة جمع عظيم من الصحابة، ومثل هذا في هذه المواطن الحفيلة، والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدّث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه؛ لما جُبلت عليه نفوسُهم من ذلك، ولأنهم كانوا ممّن لا يسكتُ على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجَمِّ الغفير له، ولم ينكر عليهم أحد من الناس ما حدَّثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم لهم.

ومما يشبه هذا: تفجيرُ الماء ببركته، وانبعاثُهُ بمسّه ودعوته؛ كما ورد عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تلمعُ بشيء من ماء مثل الشِّراك، فغرفُوا من العين بأيديهم حتى اجتمع فيه شيء، . .

غير أصل. اهـ[2].

قوله: (مثل الشراك): الشراك: أحد سيور النعل؛ أي: كان الماء فيه بهذا المقدار.

قوله: (حتى اجتمع فيه شيء): العبارة في الحلبي: حتى اجتمع شيء في شن[3].

---

(١) رواه البخاري (٤١٥٢).

(٢) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٢/ ٦٩٠). وانظر: «دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ٤٠٥، ٥٨٩).

(٣) انظر: «السيرة الحلبية» لنور الدين الحلبي (٣/ ١١٠).

ثم غسل عليه الصلاة والسلام فيه وجهه ويديه، وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقى الناس ـ وفي رواية ابن إسحاق: فانخرق من الماء ما له حس كحسِّ الصواعق[1] ـ ثم قال: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما هنا قد ملئ جناناً»، وقد قدّمنا ذلك في غزوة تبوك[2].

وروي عن البرَاء، وسلمةَ بنِ الأكوع تكثيرُ عينِ الحدَيبية بدعوته عليه الصلاة والسلام[3].

وروى أبو قتادة: أن الناس شَكَوا إلى رسول الله العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمِيْضَأَةِ، فجعلها في ضِبْنه ـ ما بين الكشح إلى الإبط ـ، ثم التقم فمها، فالله أعلمُ أنفثَ فيها أم لا؟ فشرب الناس حتى رووا، وملؤوا كل إناء معهم، فخيّل لي أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً[4].

ورويت قصص مشابهة لهذه عن كثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في محالَّ مختلفةٍ؛ بحيث لا يشك أحد في صدقها بعد تضافر الثقات على روايتها.

قوله: (بالميضأة) ـ بكسر الميم وبالقصر، وقد تمد ـ، مِطْهرة كبيرة يتوضأ منها. اهـ. «نهاية»[5].

قوله: (في ضبنة): ـ بكسر الضاد وفتحها ـ.

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٥/ ٢٠٩).

(٢) تقدم تخريجه هناك.

(٣) حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ رواه البخاري (٣٥٧٧)، وحديث سلمة ابن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ رواه البخاري (٢٤٨٤)، ومسلم (١٧٢٩).

(٤) رواه مسلم (٦٨١)، والإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٣٠٢) بنحوه.

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٤/ ٣٨٠).

ومن ذلك: تكثيرُ الطعام ببركته ودعائه صلى الله عليه وسلم، روى أبو طلحة: أنه عليه الصلاة والسلام أطعم ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت إبطه، فأمر بها عليه الصلاة والسلام ففُتِّت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول.

تكثير الطعام

قوله: (روى أبو طلحة...) إلخ: تفصيل ذلك ـ كما في «أعلام النبوة» للماوردي ـ قال: روى مالك بن أنس عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة: أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرفُ فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجدته في المسجد معه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرسلك أبو طلحة؟» قلت: نعم، قال: «للطعام»؟ قلت: نعم، فقال لمن معه: «قوموا» فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم! قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندنا من الطعام ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل معه حتى دخلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أم سليم! هلمي ما عندك» فجاءت بذلك الخبز، فأمر به فَفُتَّ، وعصرتْ أم سليم عُكَّة لها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكل القوم وشبعوا وخرجوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً. اهـ[1].

---

(١) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٣٨ ـ ١٣٩)، والحديث المذكور رواه =

وروى جابر: أنه عليه الصلاة والسلام أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعَنَاق، وقال جابر: فأُقسمُ بالله! لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن بُرْمَتنا لَتَغِطُّ كما هي، وإن عجيننا لَيُخْبز، وكان عليه الصلاة والسلام قد بصق في العجين والبرمة، وباركَ.

قوله: (قال جابر...) إلخ: قال الماوردي في «أعلام النبوة»: روى البخاري عن عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه قال: قلت لجابر: حدثني بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعتَه منه أرويه عنك، فقال جابر: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق نحفر، فلبثنا ثلاثة أيام لم نطعم طعاماً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كُديةٌ غليظة لا يعمل فيها الفأس، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق، ورششنا عليها الماء، فقام وبطنه معصب بالحجر، فأخذ المعول أو المسحاة، ثم سمى ثلاثاً ثم ضرب، فعادت كثيباً أَهْيَلَ، فلما رأيت ذلك منه، قلت: يا رسول الله! ائذن لي، فأذن لي، فجئت إلى امرأتي فقلت: ثكلتكِ أمك! إني رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً لا صبر لي عليه، فما عندك؟ قالت: عندي صاع من شعير وعَناق[1]. قالت فطحنا الشعير، وذبحنا العناق وطبخناها، وجعلناها في البرمة[2]، وعجنا العجين، ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبثت ساعة، ثم استأذنت ثانية فأذنَ لي، فجئت فإذا بالعجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي، ثم جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشاورته وقلت: عندنا طعيم لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت، فقال: «ما هو؟ وكم هو؟» قلت: صاع من شعير وعَناق، فقال: «ارجع

= البخاري (٣٥٧٨)، ومسلم (٢٠٤٠).

(١) في هامش الأصل: «العناق: الأنثى من ولد المعز».

(٢) في هامش الأصل: «قدر من حجارة».

وروى أبو أيوب: أنه صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر طعاماً يكفيهما، فأطعم منه عليه الصلاة والسلام مئة وثمانين رجلاً[1].

وروى مثلَ ذلك كثيرٌ من الصحابة؛ كعبد الرحمن بن أبي بكر[2]، وسلمة بن الأكوع[3]، . . . .

إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا يخرج الخبز من التنور حتى آتي»، ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، فاستحييت حياء لا يعلمه إلا الله تعالى، فقلت لامرأتي: قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه أجمعين، فقالت: أسألك كم الطعام؟ قلت: نعم، قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندنا، فذهب عني بعضُ ما أجده، وقلت لها: صدقتِ.

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل، ثم قال لأصحابه: لا تضاغطوا، ثم برك على التنور والبرمة، فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ من البرمة اللحم، فنثرد ونغرف ونقرب إليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليجلس على الصحفة سبعة أو ثمانية، فلما أكلوا، كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ مما كانا عليه حتى شبع المسلمون كلهم، وبقيتْ طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الناس قد أصابهم مخمصة، فكلوا وأطعموا»، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم، قال: فأخبرني أنهم كانوا ثمان مئة، أو قال: مئين، أقل من الثمان مئة[4].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٠٩٠) من حديث أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٣٠٣): رواه الطبراني، وفي إسناده من لم أعرفه.

(٢) رواه البخاري (٢٦١٨)، ومسلم (٢٠٥٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٤)، ومسلم (١٧٢٩).

(٤) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٣٧ ـ ١٣٨)، والحديث المذكور رواه =

وأبي هريرة، وعمرَ بنِ الخطاب[1]، وأنسِ بنِ مالك[2] ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام: قصةُ حنين الجذع، قال جابر ابن عبدالله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان عليه الصلاة والسلام إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر، . . . .

قوله: (وأبي هريرة) قال في «أعلام النبوة»: روى أنيس بن أبي يحيى عن إسحاق بن سالم، عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ادعُ لي أصحابك»؛ يعني. أصحابَ الصفَّة، قال: فجعلت أتبعهم رجلاً رجلاً أوقظهم حتى جمعتهم، فجئنا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستأذنا، فأذن لنا، ووضعتْ بين أيدينا صحفة أظن فيها صنيعاً ـ طعاماً ـ قدر مد من الشعير، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال: «خذوا بسم الله»، فأكلنا ما شئنا، ثم رفعنا أيدينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت الصحفة: «والذي نفس محمد بيده! ما أمسى في آل محمد طعام غير شيء ترونه»، فقيل لأبي هريرة: قدر كم كانت حين فرغتم؟ قال: مثلها حين وضعت، إلا أن فيها أثر الأصابع. اهـ[3].

قوله: (يقوم إلى جذع منها)؛ أي: يستند إليه.

= البخاري (٤١٠١) بنحوه. ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧٠٩)، وفي آخره: وأخبرني أنهم كانوا ثمان مئة، أو ثلاث مئة.

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٣٠).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٨/ ٩٤).

(٣) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠)، والحديث المذكور رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٧١١).

سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشَار[1].

وفي رواية أنس: حتى ارتجَّ المسجد لخواره[2].

وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوه به[3].

وفي رواية المطلب: وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت[4].

زاد غيره: فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا بكى لما فقد من الذكر»[5].

وزاد غيره: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه، لم يزل هكذا إلى يوم القيامة؛ تحزناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم»، فأمر به فدُفن تحت المنبر[6].

قوله: (كصوت العشار): في «النهاية» يقال للحمار الشديد الصوت المتتابع النهيق: مُعَشِّر؛ لأنه إذا نهق لا يكف حتى يبلغ عشراً[7].

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٥).

(٢) رواه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٠/ ٣٧٩).

(٣) رواه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١٠/ ٣٨٨).

(٤) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ٢٣٠)، وقال السيوطي في «مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا» (ص: ١٢٦): الزبير بن بكار في «أخبار المدينة».

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٠٠) من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ.

(٦) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٧٧٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ. وانظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٢٣٠).

(٧) انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (٣/ ٢٤٠).

وهذا الحديث خرَّجه أهل الصحة، ورواه من الصحابة كثيرون، ورواه عنهم من التابعين ضِعفُهم، وبمن دون عدّتهم يقع العلم لمن عُنِيَ بهذا الباب، والله المثبِّت على الصواب.

ومن معجزاته عليه الصلاة والسلام: إبراء المرضى، وذوي العاهات؛ فقد أُصيبتْ يوم أُحُد عينُ قتادةَ بنِ النعمان حتى وقعت على وجنته، فردّها عليه الصلاة والسلام، فكانت أحسنَ عينيه وأَحدَّهما.

وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قَرد، فما ضرب عليه ولا قَاحَ[1].

وأصاب ابنَ ملاعب الأَسِنَّةِ استسقاء، فبعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخذ بيده حَثْوَةً من الأرض، فتفل عليها، ثم أعطاها رسولَه، فأخذها يرى أنه قد هُزِئَ به، فأتاه بها وهو على شَفًا، فشربها فشفاه الله[2].

قوله: (حتى وقعت على وجنته) قال في «أعلام النبوة»: فقال: يا رسول الله! صلى الله تعالى عليك، إن لي امرأة، وأخشى أن يقضي هذا عندها، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضعها، فكانت أحسن عينيه[3].

قوله: (في يوم ذي قرد) ـ بفتح القاف والراء ـ: موضع قرب المدينة أغاروا به على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فغزاهم. اهـ. «قاموس»[4].

---

(١) رواه الواقدي في «المغازي (١/ ٣٠٤) عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) رواه الواقدي في «المغازي» (١/ ٢٩٧)، وأبو نعيم من طريقه في «دلائل النبوة» (ص: ٥١٤) عن عروة.

(٣) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٤٢)، والخبر المذكور رواه ابن إسحاق في «سيرته» (٣/ ٣٠٨) عن عاصم بن عمر بن قتادة.

(٤) انظر: «القاموس المحيط» للفيروزأبادي (مادة: قرد).

وتقدم حديث عليٍّ ورَمَدِه في غزوة خيبر[1]. وغيرُ ذلك كثير مما يعجز قلمنا عن عدّه، ورواه ثقات المسلمين الأعلام.

أما ما منحه الله إياه من إجابة دعواته، فروي عن أنس بن مالك، قال: قالت أمي أُمُّ سُلَيْمٍ: يا رسول الله! خادمك أنس ادعُ الله له، فقال: «اللهمّ أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته»، قال أنس: فو الله! إنَّ مالي لكثير، وإنَّ ولدي وولد ولدي ليُعادّون اليوم نحو المئة[2].

ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة[3]، فكان نصيب كل زوجة من زوجاته الأربع من تركته ثمانين ألفاً، وتصدق مرّة بعِيرٍ فيها سبعُ مئة بعير وردَتْ عليه تحمل من كل شيء، فتصدّق بها، وبما عليها، وبأقتابها، وأحلاسها[4].

قوله: (من إجابة دعوته): قال الماوردي: فإن قيل: إجابة الأدعية لا تكون معجزة للنبوة؛ لأنه قد تجاب دعوة غير الأنبياء.

قيل: أدعية الأنبياء مجابة على العموم في جميعها، وأدعية غيرهم إن أجيبت فعلى الخصوص في بعضها؛ لأن الأنبياء منطقون بالحق، فإذا نطقت ألسنتهم بالدعاء، صادف ما أمروا به، فأجيبوا إليه، وغيرهم قد ينطق بالحق وبغيره، فإن أجيبت أدعيتهم، فهو تفضل يقف على مشيئة الله تعالى[5].

---

(١) تقدم ذكره في غزوة خيبر.

(٢) رواه البخاري (٦٣٤٤)، ومسلم (٢٤٨١/ ١٤٣)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه البخاري (٥١٥٥)، ومسلم (١٤٢٧)، من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ.

(٤) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٥) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٧٧).

ودعا لمعاويةَ بالتمكين في الأرض، فنال الخلافة[1].

ودعا لسعد بإجابة الدعوة[2]، فما دعا على أحد إلا استجيب له.

وتقدم دعاؤه لعمر بن الخطاب أن يعزّ الإسلام به[3].

وقال لأبي قتادة: «أفلحَ وجهك، اللهمّ بارك في شعره وبشره»[4]، فمات وهو ابن سبعين سنة، كأنه ابنُ خمسَ عشرة[5].

ودعواته عليه الصلاة والسلام المستجابة أكثر من أن تُحصى يطّلع عليها قارئ سيرتنا هذه.

أما ما أطلعه الله عليه من علم ما لم يكن؛ فمما سارت به الركبان، فعن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلّا حدّثه، حفظه مَنْ حفظه، ونسيه مَنْ نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[6].

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٤٦)، وقال: إسماعيل بن إبراهيم هذا ضعيف عند أهل المعرفة بالحديث، غير أن لهذا الحديث شواهد.

(٢) رواه الترمذي (٣٧٥١) من حديث سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ.

(٣) رواه الترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٠٣٢) من حديث أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ.

(٥) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٢٧).

(٦) رواه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١/ ٢٣).

وما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه؟ والله! ما ترك عليه الصلاة والسلام من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاث مئة فصاعداً إلا قد سمَّاه لنا باسمه، واسمِ أبيه، واسمِ قبيلته[١].

وقد خرَّج أهل الصحيح والأئمة ما أعلمَ به أصحابَه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة، لا تخاف إلا الله، وأنّ المدينة ستُغزى، وتُفتح خيبر على يد عليٍّ في غد يومه، وما يفتح الله على أمّته من الدنيا، ويُؤْتَون من زهرتها، وقسمتهم كنوزَ كسرى وقيصر[٢]، وقد قدّمنا كثيراً من ذلك في هذه السيرة، وقدّمنا ما في القرآن من ذلك، وهذا يُغنينا عن الإطالة في هذا المقام، فحسبُك ما سمعتَ.

ومما ينير بصيرتك ـ أيها القارئ ـ ما مَنّ الله به عَلى رسولنا صلى الله عليه وسلم من عصمته له من الناس، وكفايته مَنْ آذاه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله: (من عصمته له): منها ما حكاه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة قال: ما كان أحد أبغض إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يكون كذلك وقد قتلَ منا ثمانيةً كلٌّ منهم يحمل اللواء، فلما فتح الله تعالى مكة، يئست مما كنت أتمناه من قتله، وقلت في نفسي: قد دخلت العرب في دينه، فمتى أدرك ثأري منه؟ فلما اجتمعت هوازن بحنين، قصدتُهم لأجدَ منه غِرَّة فأقتلَه، فلما انهزم الناس عنه، وبقي مع من ثبت معه، جئت من ورائه، فرفعت السيف حتى كدت أحطه، غشي فؤادي، ورفع لي شواظ من نار، فلم أطق ذلك، وعلمت أنه ممنوع، فالتفت

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٤٣).

(٢) انظر: «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧).

وقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾[الطور: ٤٨].

وقال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾[الزمر: ٣٦].

وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[الحجر: ٩٥].

ولما نزل: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[المائدة: ٦٧]، صرف حُجَّابه، وقال: «انصرفوا فقد عصمني الله»[1].

وقدّمنا حديث دُعثور، وإرادته قتلَ النبي صلى الله عليه وسلم، وعصمةَ الله لنبيّنا، وذكرنا كثيراً مما حصل من أبي جهل لما أراد بالرسول المكايد، فكفاه الله شرّه[2]، وما منّ الله به عليه ليلة الهجرة، وحديث سُراقة في الطريق[3]، وعلى الجملة: فيكفينا من هذا الباب أنه عليه الصلاة والسلام مكث بين أعداء ألدّاء بمكة ثلاث عشرة سنة، وبين مشابهيهم من المنافقين واليهود عشرَ سنين، فما تمكن أحد من إيصال أذًى إليه صلى الله عليه وسلم، بل كفاه مولاه شرّ أعدائه حتى أظهر الدين وتمّمه.

إليّ وقال: «ادن يا شيب فقاتل»، ووضع يده في صدري، فصار أحبَّ الناس إليّ، وتقدمت فقاتلت بين يديه، ولو عرض لي أبي، لقتلتهُ في نصرته، فلما انقضى القتال، دخلت عليه، فقال لي: «الذي أراد الله بك خيرٌ مما أردته لنفسك»، وحدثني بجميع ما زورته في نفسي، فقلت: ما اطلع على هذا أحد إلا الله، فأسلمت. اهـ. «أعلام النبوة»[4].

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٤٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

(٢) تقدم في غزوة غطفان.

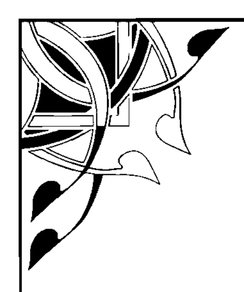
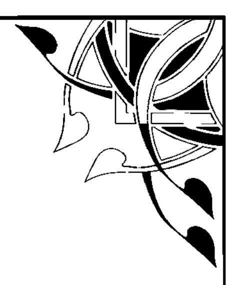
(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: «أعلام النبوة» للماوردي (ص: ١٦٣)، والخبر المذكور رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٩٢) بمعناه.

والحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، ونسأله أن يوفق قارئي هذه السيرة إلى اتباع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى أصحابه وأنصاره.

نجز تحرير هذه الحواشي اللطيفة سحرَ ليلة السبت المصادف للسادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاث مئة وثلاثٍ وأربعين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية، والحمد لله أولاً وآخراً، وأسأله حسن الخاتمة.

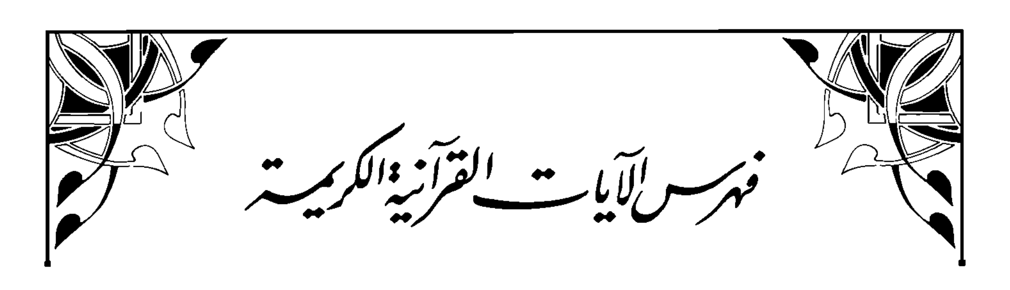
❐ ❐ ❐

الفهارس العامة

* فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
* فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
* فهرس الآثار.
* فهرس الأعلام الذين ترجم لهم الشارح.
* فهرس الأشعار.
* فهرس الأراجيز.
* فهرس غريب اللغة.
* فهرس المصادر والمراجع.
* فهرس الموضوعات.





فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾	١٧٠	٢٢١
﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾	١٧٩	١٠٧٤
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾	١٨٣	٤١٥
﴿وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا . . .﴾	١٩٠ ـ ١٩٣	٣٩٢
﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾	١٩٥	٨٠٧
﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾	١٩٦	٦٧٦
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾	٢٠٧	٣٤٠
﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾	٢١٦	٧٣١
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾	٢١٧	٤١٠
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾	٢١٩	٥٤٣
﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾	٢١٩	٥٤٤
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ . . .﴾	٢١٩	٥٤٤
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾	٢٤٦	٣٤
﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾	٢٥١	٦٢٧

سورة آل عمران

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾	٧	٤١٤
﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ . . .﴾	١٢ ـ ١٣	٤٧٧
﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾	٣١	٢٢٠
﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾	٤٥	١٠٢٣
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ . . .﴾	٥٩	٩٥٦

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة النساء		
﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾	٢٩	٨٠٧
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾	٤٣	٥٤٥
﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾	٤٣	٥٤٤
﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ . . .﴾	٤٦	١٠٨٠
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ . . .﴾	٥١	٦٢٢
﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾	٦٩	٩٩٩
﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ . . .﴾	٧٢	٣٩٥
﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ﴾	٧٤	٣٩٥
﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا . . .﴾	٩٤	٧٨١
﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾	٨٨	٥٠٨
﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾	١١٣	١٠٣٠
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ . . .﴾	١٣٥	٤٦٩
﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾	١٥٧	١٦٥
سورة المائدة		
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي . . .﴾	٣	٩٥٣
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . .﴾	١١	٤٩٧
﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾	٢١	٤٢٧
﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا . . .﴾	٢٤	٤٢٧
﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾	٢٤	٤٢٨

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الحجر		
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	٩	١٠٧٩، ١٠٨٢
﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ . . .﴾	٦٥	٣٥٣
﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾	٨٨	٦٦٤
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾	٩٤	٢١٥
﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ . . .﴾	٩٥ ـ ٩٦	٢٤٥، ١٠٩٧
سورة النحل		
﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾	٦٧	٢٥٢، ٥٤٣
﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ . . .﴾	١٠٦	٢٥٢
﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾	١٢٥	١٩١
سورة الإسراء		
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . . .﴾	١	٣١٥
﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾	٣	٢٧٠
﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾	٥٩	٢٧٠
﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾	٨١	٨٤٠
﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . .﴾	٨٦ ـ ٨٧	٩٦٦
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ . . .﴾	٨٨	١٠٧٠
﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . . .﴾	٩٠ ـ ٩٣	٢٦٩
﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾	٩٣	٢٦٩

سُورَةُ الفُرْقَانِ

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سُورَةُ النَّمْلِ

سُورَةُ القَصَصِ

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

سورة القمر

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

سُورَةُ الصَّفِّ

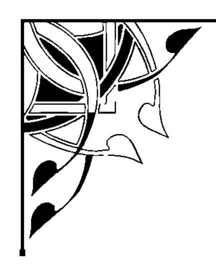
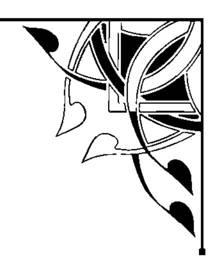
سُورَةُ الجُمُعَةِ

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

سُورَةُ القَلَمِ

الآية	رقم الآية	الصفحة
سورة الليل		
﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . . .﴾	١٤ ـ ٢١	٢٤٩
سورة الضحى		
﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . . .﴾	٦ ـ ٨	١٤٢
﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾	٧	١٤٢
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . . .﴾	١ ـ ٥	١٨٢
﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾	٩ ـ ١٠	٣٢٠
﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . . .﴾	١٥ ـ ١٩	٢٢٦
سورة الزلزلة		
﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	٧ ـ ٨	٩٥٨
سورة العصر		
﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . . .﴾	١ ـ ٣	٩٩٧
سورة الفيل		
﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾	٣	١١٢
﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾	٤	١١٢
﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾	٥	١١٢
سورة الكافرون		
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . . .﴾	١ ـ ٦	٢٦٣



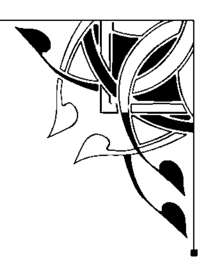



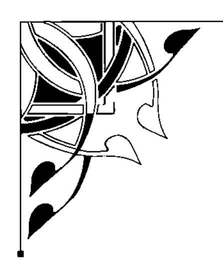
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
الحمد لله، دفنُ البنات من المَكرمات	ابن عباس	٤٥١
حيثما كنتم واتَّقَيْتُم الله فلا يَضُرُّكم	الواقدي عن رجل من بني ثعلبة عن أبيه	٩٧٥
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً أم بِشْـرِ بـنِ البراء	ابن عباس وتُويلة بنت أسلم	٤١٢
خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة	أبو موسى الأشعري	٥٦٩
خَلِّ عن أبيك	-	٦٠٥
خَلِّ عنه يا عمر	أنس بن مالك	٧٨٦
خلّوا طريقه	ابن المسيب	٥٢١
خلوهم، لعنهم الله ولعنه معهم	عاصم بن عمر بن قتادة	٤٧٩
الخمر أم الخبائث	عبدالله بن عمرو	٥٤٥
خير الأمور أوساطها	معبد الجهني ومطرف بن عبدالله	١٠١٧
خير النساء أحسنُهن وجوهاً	عائشة	٤٨٨
دثروني، دثروني	جابر بن عبدالله	١٨٧
دع القلوب تقر	بديح بن سدرة السلمي	٣٧٠
دعه عنك، فقد جاءنا تائباً نازعاً	عاصم بن عمر بن قتادة	٨٥٥
دعوا هذه الكلمة؛ فإنها منتنة	جابر بن عبدالله	٦٠٠
دعوها فإنها مأمورة	-	٣٦١
دعوهم	محمد بن جعفر بن الزبير	٩٥٥
دين الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسلَه	ابن إسحاق	١٩٣
ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبيٌّ أميٌّ	محمد بن كعب القرظي	٣٠٨
ذاك جبريلُ عليه السلام بُعث إلى بني قريظة	-	٦٤٦

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
يُوشِك أن ترى ما هنا مُلئ بساتين	معاذ بن جبل	٩٢٢
يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة	معاذ بن جبل	١٠٨٧



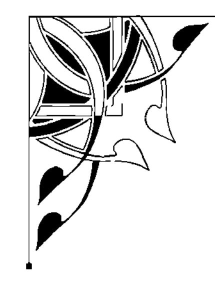




فهرس الآثار

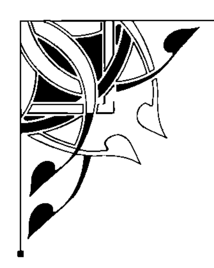
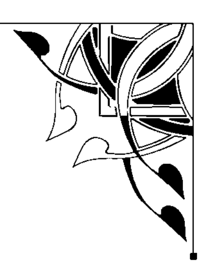
طرف الأثر	القائل	الصفحة
يا قوم والله! إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له	عبدُ الله بنَ رواحةَ	٧٩٧
يا قوم! يقتل الإنسان مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً	عقبة بن عامر	٨٠٠
يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم	ثابت بن أقرم	٨٠١
يا نبي الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه	سعد بن معاذ	٤٣٤
يرحم الله بلالاً، فلا درعي، ولا أسيريَّ	عبد الرحمن بن عوف	٤٤٥






فهرس الأعلام الذين ترجم لهم الشارح

❐ ❐ ❐

فهرس الأشعار

قَافِيَةُ ٱلدَّالِ

قَافِيَةُ ٱلرَّاءِ

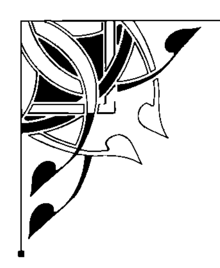
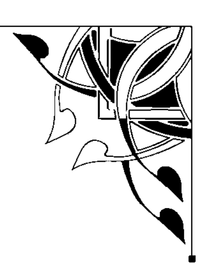
قَافِيَةُ ٱلعَيْنِ

قَافِيَةُ ٱلقَافِ

قَافِيَةُ ٱلكَافِ

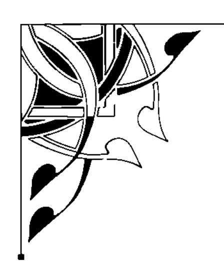
الصفحة	البيت	
٨٥٧	لمخلفُ إيعـادي ومنجِـزُ موعـدي	وإنـــي إذا أوعدتُـــه أو وعدتُـــه
٥٥٣	على أيِّ جَنْبٍ كـان فـي الله مَصْـرَعي	وَلَسْـتُ أُبـالي حـينَ أُقْتَـلُ مُسْـلِماً
٦٥١	علـى أن أسـماء الجميـع مـوالي	ولـن يسـتوي سـادةٌ وعبيـدُهم
١٩٣	وحمــزةُ سـيدُ الشـهداء عَمّــي	محمــدٌ النبــيُّ أخــي وصِــهْري



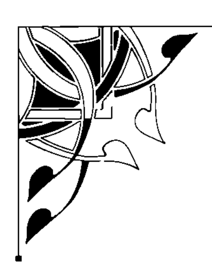
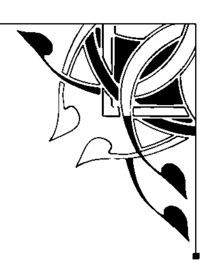
فهرس الأرجاز

❐ ❐ ❐

فهرس غريب اللغة



فهرس المصادر والمراجع

١ ـ إحياء علوم الدين، لمحمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

٢ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، لمحمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، تحقيق د. عبد الملك عبدالله دهيش، دار خضر، بيروت، ط٢، عام (١٤١٤هـ).

٣ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر، بيروت، عام (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٤ ـ أخلاق النبي وآدابه، لأبي الشيخ، تحقيق صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، عام (١٩٩٨م).

٥ ـ أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، عام (١٩٨٦م).

٦ ـ الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

٧ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط٧، عام (١٣٢٣هـ).

٨ ـ أساس البلاغة، لمحمود بن عمر بن محمد الزمخشري، دار الفكر، عام (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٩ ـ أسباب النزول، للواحدي، مؤسسة الحلبي، القاهرة، عام (١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م).

١٠ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، عام (١٤١٢هـ).

١١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير الجزري، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

١٢ ـ الإسعاد على بانت سعاد، لإبراهيم الباجوري، المطبعة الكاستلية، مصر، عام (١٢٨٦هـ).

١٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، عام (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

١٤ ـ إصلاح المنطق، لابن السكيت، تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤.

١٥ ـ إظهار الحق على الخلق، لرحمه الله الكيرانوي العثماني الهندي الحنفي، تحقيق الدكتور محمد أحمد محمد عبد القادر خليل ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، ط١، عام (١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م).

١٦ ـ إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، لأبي بكر الدمياطي، دار الفكر، بيروت.

١٧ ـ أعلام الحديث، لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ط١، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

١٨ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، لمحمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، ط١، عام (١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م).

١٩ ـ أعلام النبوة، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، عام (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٢٠ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، عام (٢٠٠٢م).

٢١ ـ أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، لسعيد الخوري، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قم في إيران، عام (١٤٠٣هـ).

٢٢ ـ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ).

٢٣ ـ إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط١، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٢٤ ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، عام (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٢م).

٢٥ ـ إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، لسيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت، ط٢، عام (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٢٦ ـ أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلاذري، تحقيق سهيل زكار، ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

٢٧ ـ أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، (مطبوع مع شرح محمد بن أحمد عبد الباري الأهدل، المسمى: فتح الكريم القريب شرح أنموذج اللبيب)، لجلال الدين السيوطي، وزارة الإعلام، جدة، ط٣، عام (١٤٠٦هـ).

تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، عام (٢٠٠١م).

٢٨ ـ الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية، لمحمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية، حلب، عام (١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م).

٢٩ ـ الأوائل، لابن أبي عاصم، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

٣٠ ـ الأوائل، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، دار البشير، طنطا، ط١، عام (١٤٠٨هـ).

٣١ ـ الأوائل، للطبراني، تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير، مؤسسة الرسالة، ودار الفرقان، بيروت، ط١، عام (١٤٠٣هـ).

٣٢ ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٣٣ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لمحمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي، دار الفكر، بيروت.

٣٤ ـ بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، لنور الدين الهيثمي، تحقيق د. حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ط١، عام (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

٣٥ ـ البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت.

٣٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٣٧ ـ تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٨ ـ التاريخ الكبير للبخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.

٣٩ ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.
٤٠ ـ تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر العمري، دار الفكر، بيروت، عام (١٩٩٥م).
٤١ ـ تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، عام (١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٢م).
٤٢ ـ التحرير والتنوير، المسمى: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، عام (١٩٨٤م).
٤٣ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٤ ـ تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي، تحقيق عبدالله بن عبد الرحمن السعد، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، عام (١٤١٤هـ).
٤٥ ـ التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، عام (١٤٠٥هـ).
٤٦ ـ تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.
٤٧ ـ تفسير البغوي، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت.
٤٨ ـ تفسير البيضاوي، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت.
٤٩ ـ تفسير الثعلبي، المسمى: الكشف والبيان، تحقيق أبي محمد بن عاشور، ومراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، عام (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م).
٥٠ ـ تفسير الخازن، المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد ابن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تحقيق محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٥هـ).
٥١ ـ تفسير الرازي، المسمى: مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).
٥٢ ـ تفسير السلمي، والمسمى: حقائق التفسير، لمحمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م).

٥٣ ـ تفسير القرآن، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، عام (١٤١٠هـ).

٥٤ ـ تفسير النسفي، المسمى: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٥٥ ـ تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق أحمد فريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م).

٥٦ ـ تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، حلب، ط١، عام (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٥٧ ـ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، تحقيق مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط١، عام (١٩٩٦م).

٥٨ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ط١.

٥٩ ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

٦٠ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، عام (١٤٠٣هـ).

٦١ ـ الجمع بين الصحيحين، لمحمد بن فتوح الحميدي، تحقيق د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، عام (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).

٦٢ ـ جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الفكر، بيروت، عام (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٦٣ ـ جمهرة اللغة، لابن دريد الأزدي، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، عام (١٩٨٧م).

٦٤ ـ جوامع السيرة، لابن حزم الظاهري، تحقيق إحسان عباس، دار المعارف، مصر، ط١، عام (١٩٠٠م).

٦٥ ـ حاشية ابن عابدين، المسماة: رد المختار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار، دار الفكر، بيروت، عام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).

٦٦ ـ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر.

٦٧ ـ حاشية الشلبي، وهي مطبوعة مع تبيين الحقائق للزيلعي، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة، ط١، عام (١٣١٣هـ)، تصوير دار الكتاب الإسلامي، ط٢.

٦٨ ـ حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٦٩ ـ حجة الله البالغة، لأحمد المعروف بشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، تحقيق سيد سابق، دار الكتب الحديثة، مكتبة المثنى، القاهرة، بغداد.

٧٠ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، عام (١٤٠٥هـ).

٧١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء العراق، لأبي عبدالله عماد الدين بن محمد بن صفي الأصبهاني، تحقيق محمد بهجة الأشربي، المجمع العلمي العراقي، العراق، عام (١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م).

٧٢ ـ الخصائص الكبرى، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، عام (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٧٣ ـ خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى وقتنا هذا بالتمام، لأحمد بن زيني دحلان، تحقيق: محمد فارس الشيخ، ورأفت عبد العزيز، مطبوعات أهل الحرمين.

٧٤ ـ الدر المختار، للحصفكي، دار الفكر، بيروت، ط٢، عام (١٣٨٦هـ).

٧٥ ـ الدر المنثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، عام (١٩٩٣م).

٧٦ ـ درر الحكام شرح غرر الأحكام، لملا ـ أو منلا أو المولى ـ خسرو، دار إحياء الكتب العربية.

٧٧ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، عام (١٤٠٣هـ).

٧٨ ـ دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق د. محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، عام (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٧٩ ـ دلائل النبوة، لإسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني، تحقيق محمد محمد الحداد، دار طيبة، الرياض، ط١، عام (١٤٠٩هـ).

٨٠ ـ دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٠٥هـ).

٨١ ـ ديوان ابن منير الطرابلسي، جمعه وقدم له د. عمر عبد السلام تدمري، دار الجيل، بيروت، ط١، عام (١٩٨٦م).

٨٢ ـ ديوان أبي طالب، جمعه وشرحه د. محمد التونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، عام (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).

٨٣ ـ ديوان الأرجاني، وهو ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين، تحقيق د. محمد قاسم مصطفى، منشورات وزارة الثقافة العراقية، مكتبة الفكر الجديد، عام (١٩٧٩م).

٨٤ ـ ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، عام (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

٨٥ ـ ديوان الشماخ، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر.

٨٦ ـ ديوان الشنفرى، تحقيق د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

٨٧ ـ ديوان الفضل بن العباس اللهبي، صنعة وتحقيق: مهدي عبد الحسين النجم، مؤسسة المواهب، بيروت، ط١، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م).

٨٨ ـ ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

٨٩ ـ ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ط١، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

٩٠ ـ ديوان بشار بن برد، تحقيق محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، عام (٢٠٠٧م).

٩١ ـ ديوان حافظ إبراهيم، ضبط وشرح: أحمد أمين بك، وأحمد الزين، وإبراهيم الأنباري، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ط٣، عام (١٩٤٨م).

٩٢ ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، عام (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م).

٩٣ ـ ديوان ذي الرمة، شرح الخطيب التبريزي، كتب مقدمته وهوامشه وفهارسه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، عام (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

٩٤ ـ ديوان رؤبة بن العجاج، تحقيق وليم بن الورد، دار ابن قتيبة، الكويت.

٩٥ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، ط٢، عام (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

٩٦ ـ ديوان طفيل الغنوي شرح الأصمعي، تحقيق حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط١، عام (١٩٩٧م).

٩٧ ـ ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، دار صادر، بيروت، عام (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٩٨ ـ ديوان عنترة، تحقيق محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت.

٩٩ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، دار الكتب المصرية، مصر.

١٠٠ ـ الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، تحقيق د. أبي اليزيد أبي زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، عام (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م).

١٠١ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، دار الفكر ، بيروت، ط١

١٠٢ ـ الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية، لحسين أفندي الجسر، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، عام (١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م).

١٠٣ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٤ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، عام (١٤١٢هـ).

١٠٥ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، عام (١٤١٢هـ).

١٠٦ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، لمحب الدين أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري، تحقيق عيسى عبدالله محمد مانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، عام (١٩٩٦م).

١٠٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط١٤، عام (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م).

١٠٨ ـ الزهد، لعبدالله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٩ ـ الزهد، لهناد بن السري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، عام (١٤٠٦هـ).

١١٠ ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم، لنور الدين اليوسي، تحقيق د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، عام (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

١١١ ـ سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الشامي الصالحي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٤هـ).

١١٢ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط١

١١٣ ـ سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

١١٤ ـ سنن الترمذي، المسمَّى: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١.

١١٥ ـ سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبدالله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، عام (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م).

١١٦ ـ سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، عام (١٤٠٧هـ).

١١٧ ـ السنن الكبرى، لأحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسندار، الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

١١٨ ـ سيرة ابن إسحاق، المسماة: المبتدأ والمبعث والمغازي، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

١١٩ ـ السيرة الحلبية، المسماة: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، لنور الدين علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت، عام (١٤٠٠هـ).

١٢٠ ـ السيرة النبوية، لابن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، عام (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٦م).

١٢١ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١، عام (١٤١١هـ).

١٢٢ ـ السيرة النبوية، لأحمد بن زيني دحلان، دار القلم العربي، حلب، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

١٢٣ ـ السيرة النبوية، لشرف الدين الدمياطي، تحقيق أسعد محمد الطيب، دار الصابوني، حلب، ط١، عام (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

١٢٤ ـ شرح أسماء أهل بدر، للجبريني، المطبعة العامرة، عام (١٢٩٤هـ).

١٢٥ ـ شرح السنة، للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، عام (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

١٢٦ ـ شرح العقيدة النسفية، لسعد الدين التفتازاني، تحقيق مصطفى مرزوقي، دار الهدى، عين مليلة في الجزائر.

١٢٧ ـ شرح المواهب اللدنية، للزرقاني، ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

١٢٨ ـ شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، عام (١٣٩٢هـ).

١٢٩ ـ شرح تائية السبكي في السيرة النبوية والشمائل المحمدية، لأحمد الترمانيني، تحقيق عبدالله أحمد الخالد العجيلي، دار الرضوان، حلب، ط١، عام (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

١٣٠ ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، عام (١٩٦٢م).

١٣١ ـ شرح شواهد المغني، لجلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، عام (١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م).

١٣٢ ـ شرح قصيدة بانت سعاد، لابن هشام الأنصاري، تحقيق د. عبدالله عبد القادر الطويل، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط١، عام (١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م).

١٣٣ ـ شرح منار الأنوار في أصول الفقه، لابن ملك، دار الكتب العلمية، بيروت، وهو مصور عن نسخة المطبعة النفيسة العثمانية سنة (١٣٠٨هـ).

١٣٤ ـ الشريعة، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق د. عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن، الرياض، ط٢، عام (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

١٣٥ ـ شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٠هـ).

١٣٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفكر، بيروت، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

١٣٧ ـ الشمائل المحمدية، للترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٨ ـ صبح الأعشى في كتابة الإنشا، لأحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي، تحقيق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، عام (١٩٨١م).

١٣٩ ـ الصحاح، للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، عام (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

١٤٠ ـ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، عام (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

١٤١ ـ صحيح ابن خزيمة، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، عام (١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م).

١٤٢ ـ صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار طوق النجاة، ط١، عام (١٤٢٢هـ).

١٤٣ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١.

١٤٤ ـ ضعيف الجامع الصغير وزيادته، لناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

١٤٥ ـ طبقات النحويين واللغويين، لمحمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢.

١٤٦ ـ الطيوريات، من انتخاب الشيخ أبي طاهر السلفي، تحقيق دسمان يحيى معالي، وعباس صخر الحسن، أضواء السلف، الرياض، ط١، عام (١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م).

١٤٧ ـ العظمة، لعبدالله بن محمد بن جعفر، المعروف بأبي الشيخ، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، ط١، عام (١٤٠٨هـ).

١٤٨ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٩ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، تعليق إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، عام (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

١٥٠ ـ غريب الحديث، لابن قتيبة، تحقيق د. عبدالله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط١، عام (١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م).

١٥١ ـ غريب القرآن، لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، عام (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).

١٥٢ ـ فتاوى ابن الصلاح، تحقيق د. موفق عبدالله عبد القادر، مكتبة العلوم والحكم، عالم الكتب، بيروت، ط١، عام (١٤٠٧هـ).

١٥٣ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

١٥٤ ـ الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، للمناوي، تحقيق أحمد مجتبى، دار العاصمة، الرياض.

١٥٥ ـ فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي، للشرقاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، عام (١٣٣٩هـ).

١٥٦ ـ فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، عام (١٤٠٣هـ).

١٥٧ ـ الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

١٥٨ ـ القاموس المحيط، للفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.

١٥٩ ـ قصر الأمل، لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط٢، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

١٦٠ ـ الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، لابن حجر العسقلاني، دار عالم المعرفة، بيروت، وقد طبع الكتاب بذيل الكشاف في المجلد الرابع.

١٦١ ـ الكامل في التاريخ، لعز الدين بن الأثير، تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، عام (١٤١٥هـ).

١٦٢ ـ الكامل في ضعفاء الرجال، لابن عدي، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، ط٣، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م).

١٦٣ ـ الكتاب، لسيبويه، وهو عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١

١٦٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٦٥ ـ كشف الأستار عن زوائد البزار، للهيثمي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، عام (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

١٦٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، عام (١٩٤١م).

١٦٧ ـ الكشكول، لبهاء الدين محمد بن حسين العاملي، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

١٦٨ ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

١٦٩ ـ الكنى والأسماء، لأبي بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، تحقيق أبي قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، عام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).

١٧٠ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م).

١٧١ ـ المجالسة وجواهر العلم، للدينوري، دار ابن حزم، بيروت، ط١، عام (١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).

١٧٢ ـ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، العدد (١٥)، السنة الثامنة.

١٧٣ ـ مجلة المقتطف، وهي مجلة شهرية، ليعقوب صروف، وفارس نمر، عام (١٢٣٩ ـ ١٣٧١هـ، ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢م).

١٧٤ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، عام (١٤٠٧هـ).

١٧٥ ـ مجموع فيه مصنفات أبي جعفر بن البختري، تحقيق نبيل سعد الدين جرار، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، عام (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

١٧٦ ـ مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧٧ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، تحقيق عمر الطباع، دار القلم، بيروت، عام (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

١٧٨ ـ المحتضرون، لابن أبي الدنيا القرشي البغدادي، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

١٧٩ ـ المخبل السعدي وما تبقى من شعره، لحاتم الضامن، وهو بحث منشور في مجلة المورد العراقية، الإصدار الأول، عام (١٩٧٣).

١٨٠ ـ مختار الصحاح، للرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، طبعة جديدة منقحة، عام (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

١٨١ ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، لابن منظور، تحقيق روحية النحاس، ورياض عبد الحميد مراد، ومحمد مطيع، دار الفكر، دمشق، ط١، عام (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٤م).

١٨٢ ـ المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود، ط١، المطبعة الحسينية المصرية.

١٨٣ ـ المخزون في علم الحديث، لأبي الفتح محمد بن الحسين الأزدي، تحقيق محمد إقبال محمد إسحاق السلفي، الدار العلمية، دلهي، ط١، عام (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

١٨٤ ـ المدخل، لابن الحاج المالكي، دار الفكر، عام (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م).

١٨٥ ـ المراسيل، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، عام (١٤٠٨هـ).

١٨٦ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين السيوطي، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م).

١٨٧ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

١٨٨ ـ مسند أبي عوانة، دار المعرفة، بيروت.

١٨٩ ـ مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، عام (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

١٩٠ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر.

١٩١ ـ مسند الإمام الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٢ ـ مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، بدأت عام (١٩٨٨م)، وانتهت (٢٠٠٩م).

١٩٣ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي للفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

١٩٤ ـ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، عام (١٤٠٩هـ).

١٩٥ ـ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق محمد عوامة، دار القبلة، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط١، عام (١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م).

١٩٦ ـ المصنف، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، عام (١٤٠٣هـ).

١٩٧ ـ المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، لنصر الوفائي الهوريني الشافعي، تحقيق د. طه عبد المقصود، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، عام (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

١٩٨ ـ معجم ابن الأعرابي، تحقيق عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

١٩٩ ـ المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، عام (١٤١٥هـ).

٢٠٠ ـ معجم البلدان، لياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت.

٢٠١ ـ معجم الصحابة، لعبد الباقي بن قانع، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، عام (١٤١٨هـ).

٢٠٢ ـ المعجم الكبير، لسليمان بن القاسم الطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، عام (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م).

٢٠٣ ـ معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مكتبة المثنى، بيروت.

٢٠٤ ـ معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، للبيهقي، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٠٥ ـ معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م).

٢٠٦ ـ المعرفة والتاريخ، للفسوي، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، عام (١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م).

٢٠٧ ـ المغازي، لمحمد بن عمر بن واقد الواقدي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م).

٢٠٨ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، ط٦، عام (١٩٨٥م).

٢٠٩ ـ المغني عن حمل الأسفار، للعراقي، تحقيق أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، ط١، عام (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٢١٠ ـ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٢١١ ـ المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، لأحمد بن عمر القرطبي، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، عام (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

٢١٢ ـ مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، عام (١٩٨٤م).

٢١٣ ـ مكارم الأخلاق، للطبراني، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

٢١٤ ـ مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا، لجلال الدين السيوطي، تحقيق سمير القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية، ودار الجنان، ط١، عام (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٢١٥ ـ المنح المكية في شرح الهمزية، المسمى: أفضل القرى لقراء أم القرى، لابن حجر الهيتمي، تحقيق أحمد جاسم المحمد، وبوجمعة مكري، دار المنهاج، جدة، ط٢، عام (١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

٢١٦ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٨هـ).

٢١٧ ـ المواقف، لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط١، عام (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

٢١٨ ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٢١٩ ـ المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية، للباجوري، اعتنى به محمد عوامة، دار اليسر، ودار المنهاج، ط١، عام (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).

٢٢٠ ـ الموضوعات، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي، المعروف بابن الجوزي، تحقيق توفيق حمدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٢٢١ ـ الموطأ، للإمام مالك بن أنس، برواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

٢٢٢ ـ ناسخ الحديث ومنسوخه، لأبي حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المنار، الزرقاء، ط١، عام (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٢٢٣ ـ الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن، لأبي عبيد القاسم بن سلام، تحقيق محمد بن صالح المديفر، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، عام (١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م).

٢٢٤ ـ نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض، لشهاب الدين الخفاجي، تصحيح إبراهيم الطاهري الحنفي، المطبعة الأزهرية، مصر، عام (١٣٢٧هـ)، تصوير دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٢٥ ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر، لمحمد بن جعفر الكتاني، تحقيق شرف حجازي، دار الكتب السلفية، مصر.

٢٢٦ ـ نكث الهميان في نكت العميان، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م).

٢٢٧ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، عام (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م).

٢٢٨ ـ النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، لمحمد رجب البيومي، دار القلم، دمشق، ط١، عام (١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).

٢٢٩ ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي، تحقيق إسماعيل إبراهيم متولي عوض، مكتبة الإمام البخاري، ط١، عام (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

٢٣٠ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد الخضري، المطبعة الجامعة، ط١، عام (١٣١٥هـ).

٢٣١ ـ نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، لمحمد الخضري، تحقيق حمدي زمزم، دار الإيمان، دمشق، عام (١٩٨٨هـ).

٢٣٢ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٢٣٣ ـ الهداية شرح بداية المبتدي، لأبي الحسن المرغيناني، المكتبة الإسلامية.

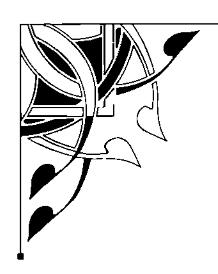
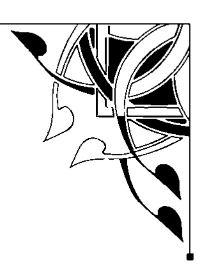
٢٣٤ ـ وحي القلم، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).

٢٣٥ ـ المعمرون من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني، تصحيح وتعليق: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، عام (١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م).

٢٣٦ ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، لعلي بن عبدالله بن أحمد الحسني الشافعي السمهودي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام (١٤١٩هـ).

٢٣٧ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

القسم الأول
الدراسة

الفصل الأول
ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ والشيخ محمد الخضري

الموضوع	الصفحة

الفَصْلُ الثَّانِي
دراسة الكتاب

الموضوع	الصفحة

القسم الثاني
النص المحقق
الفتح المبين
على كتاب نور اليقين في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

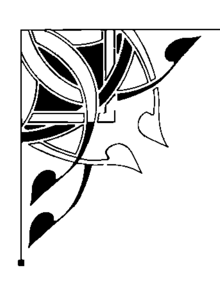
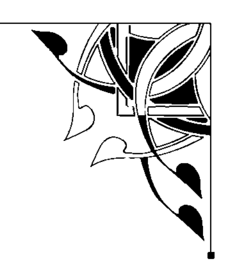
الموضوع	الصفحة
وفود صُدَاء	٨٩٩
سرية عيينة بن حصن ـ رضي الله عنه ـ إلى بني تميم	٨٩٩
وفود تميم	٩٠٠
سرية خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى بني المصطلق	٩٠٢
سرية علقمة بن مجزز ـ رضي الله عنه ـ إلى جمع من الحبشة	٩٠٤
* السَّنَة التّاسِعَة	٩٠٧
سرية علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لهدم الفلس	٩٠٧
وفود عدي بن حاتم	٩١٠
غزوة تَبُوك	٩١٢
وفود صاحب أَيْلة	٩٢٣
كتاب صاحب أيلة	٩٢٤
كتاب أهل أَذْرُح وجَرْبَاء	٩٢٥
مسجد الضـِّرار	٩٢٦
حديث الثلاثة الذين خُلِّفوا	٩٢٨
وفود ثقيف	٩٣١
كتاب أهل الطائف	٩٣٣
هدم اللات	٩٣٦
حج أبي بكر	٩٣٧
وفاة ابن أبيٍّ	٩٣٨
وفاة أُمّ كلثوم	٩٤٠
* السَّنَة العاشرة	٩٤١
سرية خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى بني عبد المدان	٩٤١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
وفود غَسَّان	٩٨٤
وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام	٩٨٧
* **السَّنَة الحادية عشرة**	٩٨٩
سرية أسامة بن زيد إلى أبنى	٩٨٩
مرض الرسول صلى الله عليه وسلم	٩٩٢
صلاة أبي بكر بالناس	٩٩٥
وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم	٩٩٩
* **شمائله عليه الصَّلاة والسَّلام**	١٠٠٣
نظافة جسمه	١٠٠٨
وفور عقله	١٠٠٩
فصاحة لسانه عليه السلام	١٠١١
كلامه المعتاد وفصاحته	١٠١٢
الخصال المكتسبة من الأخلاق	١٠٢٧
جوده وكرمه صلى الله عليه وسلم	١٠٣٣
شجاعته صلى الله عليه وسلم	١٠٣٦
شفقتُه ورحمته صلى الله عليه وسلم	١٠٤٢
خلقه عليه السلام في الوفاء وغير ذلك	١٠٤٤
تواضعه عليه السلام	١٠٤٥
عدله صلى الله عليه وسلم وأمانته	١٠٤٨
وقاره صلى الله عليه وسلم	١٠٥٠
زهده صلى الله عليه وسلم	١٠٥٢
* **مُعْجزاتُهُ عليه السلام**	١٠٦١

الفهارس العامة



نُبْذَةٌ تَعْرِيفِيَّة
الإدارة العامة للأوقاف

الوقفُ علامةٌ فارقةٌ في مسيرة الْحضارة الإسلاميَّة، وقد أثبت دوْرَه ومكانتَه في مجالات التَّعليم والصِّحة والعمل الثقافي والاجتماعي بمختلف أشكاله، وما زالتِ المساجدُ والمدارسُ والمعاهدُ والمستشفياتُ تقف شاهدةً على عظمة وأهميَّة الوقف عبر تاريخنا المجيد.

وفي هذا السِّياقِ من العطاء والتواصلِ الإنسانيِّ تهدف الإدارةُ العامَّةُ للأوقاف إلى إدارةِ الأموالِ الوقفيَّة واستثمارِها على أُسُسٍ اقتصاديَّةٍ، وفق ضوابطَ شرعيَّةٍ بما يكفل نماءَها وتحقيقَ شروطِ الواقفين، وتُعدُّ الأوقـاف إحدى أهمِّ مؤسسات المجتمعِ المدنيِّ سواء من ناحية النَّشأةِ والقِدَمِ أو الاختصاصات المناطة بها.

وانْطلاقًا من النَّهضة الوقفيَّةِ الْمُعاصرة تمَّ توسيعُ نطاقِ الوقف وتنويعُ مصارفِه من خلال إنشاء المصارف الوقفيـة الستة المشتملة على مختلف نواحي الحياةِ الثقافيَّةِ والتربويَّةِ والصحيَّةِ والاجتماعيَّة... إلخ، وذلك تشجيعًا لأهـل الخيرِ وإرشادًا لهم لوقفِ أموالِهِم على المشاريع الخيريَّـةِ التنمويَّـةِ، وتنظيمًا لقنوَاتِ الصَّرفِ والإنفـاقِ والمساهمـة في بناء المجتمع الإسلاميِّ الحضاريِّ.

والمصارف الوقفيَّةُ السِّتَّةُ هِيَ:

١ ـ المصرف الوقفي للبر والتقوى.

٢ ـ المصرف الوقفي لخدمة القرآن والسنة.

٣ ـ المصرف الوقفي لرعاية المساجد.

٤ ـ المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية.

٥ ـ المصرف الوقفي لرعاية الأسرة والطفولة.

٦ ـ المصرف الوقفي للرعاية الصحية.

وانطلاقًا من الإيمان العميق بدوْرِ العلمِ الشَّرعي والثقافَةِ الإسلاميَّةِ بشكلٍ خاصٍّ، والعلومِ التَّطبيقيَّـةِ بشكلٍ عامٍّ في تقدُّمِ الأمَّـةِ وتطورِها، جـاء إنشاءُ «**الْمصرف الوقفي للتنميـة العلميـة والثقافية**» ليكون رافدًا غنيًّا للعطاء الثقافيِّ والعلميِّ، لِمَـا كان للوقف من دورٍ تاريخيٍّ مهمٍّ في تنشيط الحركة العلميَّةِ والثقافيَّةِ، وذلك بإقامة المدارس، والمكتبات والمعاهد وغيرها، ليصنع بذلك حضارة أفادت منها الإنسانية جمعاء.

*** من أهداف المصرف الوقفي للتنمية العلمية والثقافية:**

ـ تشجيعُ ودعمُ إقامة الأنشطة والفعاليات العلميَّة والثقافيَّة.

ـ الحثُّ على الاهتمام بالتعليم، وبيان دوره في رقي الإنسان ونمو المجتمعات.

ـ نشرُ العلمِ الشرعيِّ والثقافـةِ الإسلاميَّةِ على أوسع نطاقٍ، والارتقاء بمستوى العاملين في هذا المجال.

*** من وسائله:**

ـ دعمُ إقامة المؤتمرات والندوات وحلقات الحوار والمهرجانات والمعارض والمراكز الثقافية الدائمة والموسمية.

ـ دعمُ وإنشاء المكتبات العامة، وطباعة الكتب والدراسات.

ـ دعمُ تنظيم الدورات التدريبية التأهيلية لتنمية المهارات والقدرات في مختلف المجالات العلمية والثقافية.

